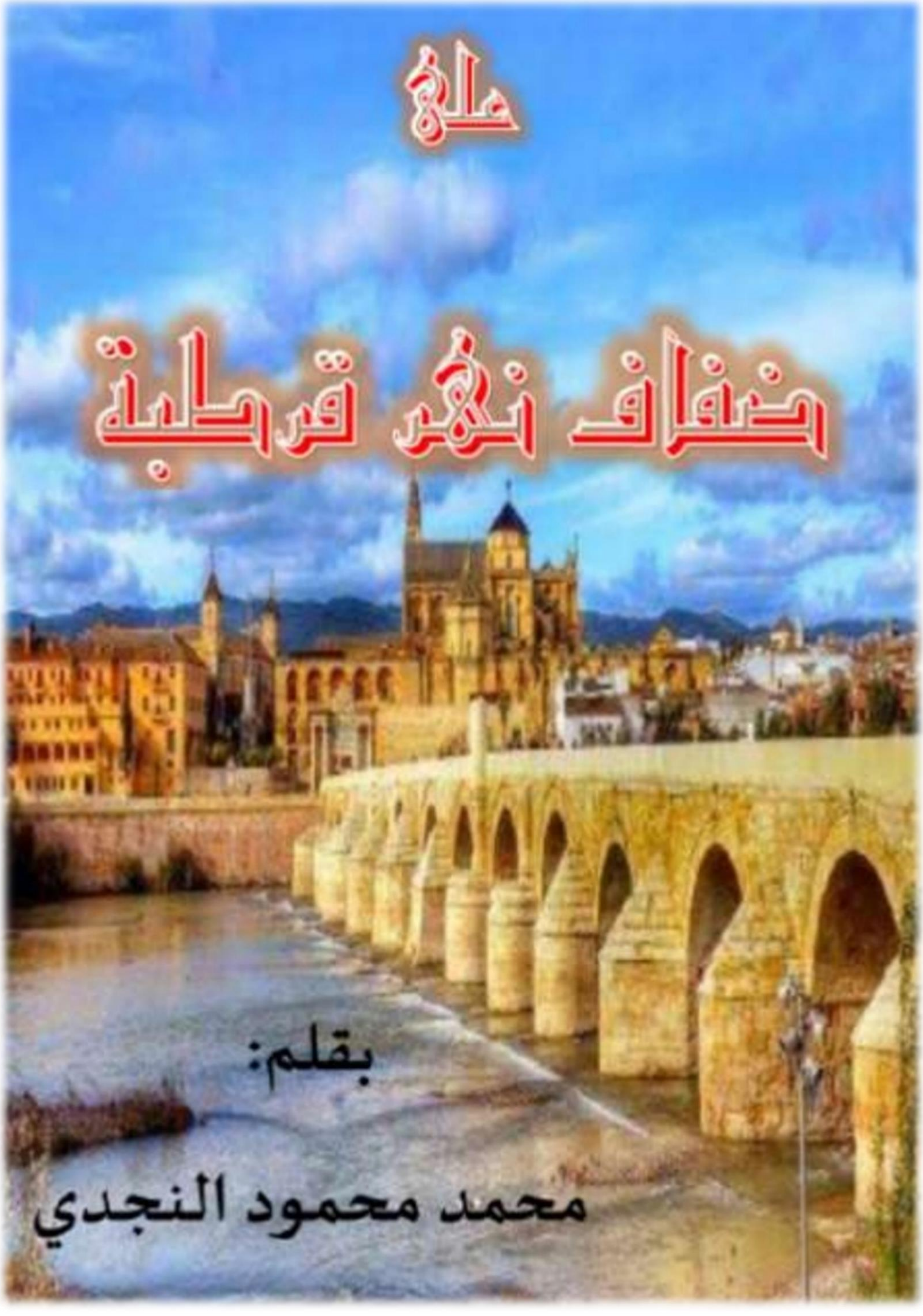

على ضفاف نهر قرطبة

بقلم:

محمد محمود النجدي

على ضفاف نهر قرطبة..

شهقت النساء وانتحبنَّ وبكى الأطفال وتعالى عويلهم:

(مصيبةٌ فاجعةٌ، وهزيمةٌ جديدةٌ فادحة!)،

شمَّر الرجال عن السواعد والأقدام..

وطفقوا ينتشلون أولئك الذين تعلَّقت أرواحهم

برمقٍ شحيح من حياة، وبين أيديهم زهقت أرواحٌ أخرى إجهاداً وإعياءً:

الإعياء والغرق قتلا من الفارين أكثر مما قتلتْ سيوفُ الأعداء ورماحهم!

تلوَّنت مياه النهر بألوان الدماء.. وطفت على صفحته جثثٌ هالكة.. وانبسطت على ضفتيه دوابُ نافقة،

انتشل المنقذون أنفساً في رمقها الأخير.. عيونها مُنطفئة خزياً وانكساراً، عيون استترت نظراتها خلف الدموع لكيلا تلتقي بتلك العيون الهَلِعة الشغوف التي تتساءل: "ماذا جرى؟؟! هل انهزمتم؟!! كيف تنهزمون وأعدادكم أضعاف أعداد عدوكم؟؟! كيف تنهزمون ومعكم الفرسان المُدرَّعون؟؟!"،

لم يكن ثمة جواب!؟ طفر الدمع من العيون المتسائلة.. وانحبست ألسنتها في جوف الصمت والحزن.. والخوف من المجهول!

هرب القوم –بعدما أصابهم القَرح- إلى البيوت.. وأوصدوا على أنفسهم الأبواب، احتبسوا فيها محزونين.. خائفين،

خيَّم الغمُّ والهمُّ على قرطبة وشوارعها الخاوية من السابلة، وبدت الدور كأنَّما استحالت إلى قبور، وبقي أهلها يترقَّبون مصيراً مجهولاً!

على

ضفاف نهر قرطبة

بقلم:

محمد محمود النجدي

مقدمة المؤلف

قال لي أستاذي الجليل: "إنَّ أمةً لا تعرف تاريخها هي أمةٌ مصابة بمرض (الزهايمر). هي أمةٌ ستُضيّع مستقبلها؛ كما غفلتْ عن ماضيها!".

وأُمتنا.. أمةٌ لها تاريخ عظيم يزخر بصفحاتٍ كثيرة مشرقة.. يفخر بها كل امرئٍ منا، وتاريخها –كذلك- فيه بعض الصفحات المظلمة كأي أمةٍ أُخرى؛ لكننا.. لن ننكر هذه الصفحات ولن نمحوها من ذاكرتنا؛ بل.. سنظل نتذاكرها جيلاً بعد جيل؛ لنعيها جيداً، ونتعلم من أخطاء الماضي.. فنُصلح حاضرنا ونهيئ لأبنائنا مستقبلاً أفضل.

من بين تلك الصفحات المظلمة في تاريخ أمتنا العريقة تأتي: (فتنة الأندلس) كصفحةٍ قاتمة دامية مليئة بأحوال سيئة وأفعال مخزية.. وكذلك فيها بطولات وتضحيات طُمِس ذكرها؛ فأردتُ أن أُذكِّر نفسي وإياكم بها.. عسى الله أن يشفينا من داء (الزهايمر)؛ فنعتبر بها في حاضرنا ومستقبلنا.

من هذا المنطلق شرعتُ في كتابة ملحمة: (على ضفاف نهر قرطبة)، وهي مجموعة روايات متصلة، تتناول موضوعاتها هذه الحقبة من تاريخ الأندلس: أعني الفترة من ٣٩٩هـ إلى معركة الزلاقة سنة٤٧٩هـ... مروراً بفترة ما يسمى بعصر ملوك الطوائف.

والحمد لله قد صدرت الرواية الأولى من هذه الملحمة: (رواية شنجول).

ويشرفني –عزيزي القارئ- أن أقدم لك الرواية الثانية من تلك الملحمة متمنياً لك قراءة ممتعة ومفيدة.

محمد محمود النجدي

00201004607502

-المشهد الأول-

الثلاثاء الأولى من شعبان سنة ٣٩٩هـ:

آنَ لشمس قرطبة الدافئة أن تتنفَّس الصعداء بعد أن رحل عنها شتاءٌ قاس.. كثيف الغيوم والضباب؛ جثم على صدرها أسابيعاً طويلة ظنَّها أهلُ قرطبة لن تنقضي! سطعت في ضحى ذلك اليوم –من مطلع الربيع- لتتلألأ آشعتها الذهبية فوق صفحة الماء الرقراق لنهر الوادي.. (نهر قرطبة العظيم).

فوق البلاطات الصخرية لرصيف الوادي[1] شرعت سنابكُ دَّيْجُور تُدبدب بزهو وحبور، وراح الجواد الرشيق يمشي مختالاً بما تجلل به من زينة (سرج ولجام فاخرين) تليق بحصان أحد رجال قصر الخلافة المعدودين، وزاد من حبوره تعرض جسده الأدهم لشمس الربيع الدافئة التي اشتاق إليها أيام وليالي الشتاء القارصة.

أما فارسه (حمدون الذي غدا أحد رجال القصر المرموقين) فقد أرخى له العنان بعد أن خرجا معاً من باب السُّدة محيياً حراسه باقتضاب.

رمق جثةَ شنجول المحنطة (والتي مازالت معلقة على الباب رغم مرور أسابيع.. لم يُشفق عليها أحدٌ فيُنزلها ويدفنها رحمةً أو تديناً)؛ فنظر إليها بأسف.. لكن سرعان ما حوَّل بصره عنها.. وتطلَّع أمامه؛ فتراءتْ له قنطرة الوادي -بظهرها المتسع والمرتكز على أقواسها السبعة عشر الضخمة- شامخة أبية.. لم ينخرها سيلٌ ولم يعترِها زمانٌ؛

---

[1].. طريق -رُصفت أرضيته بالحجارة- يحف بالضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير، ويطل عليه البابُ القبلي للمدينة المؤدي مباشرة إلى القنطرة، وكان هذا الرصيف يمتد من الناحية الشرقية للضلع الجنوبي لسور المدينة حتى الناحية الجنوبية الغربية للقصر حيث يقطعه باب السدة؛ ثم يواصل سيره غرباً بعد ذلك ليحيط بالسوق العظمى ثم إلى السهل الموصل إلى المصلى العتيق بالمصارة.

فادكر يوم أن عبر عليها إلى هذا القصر مغموراً مغامراً بحياته.. ثم ها هو ذا يُشرف عليها بعد أن صار أحد كبرائه.

تطلّع -متأملاً- إلى النهر العظيم وضفافه الغنَّاء، وراح يتنشَّق -مغتبطاً- نسمات الربيع الهادئة المحملة برذاذ مائه العذب.. وبعبق بساتين ضفافه وأريج جناته. نكز حصانه -يستحثه أن يسرع- ميمماً وجهه شرقاً؛ فطفق الحصانُ المختال يخبُّ مستمتعاً بإيقاع خببه الرشيق: فيُنقِّل رجله اليسرى متزامنةً مع يده اليمنى لترتطما -معاً- بصخر الرصيف فيُولد وقعُهما دبدبةً تطرب لها روحه ثم يرتكز عليهما متعاكستين ليفعل بالأخريين –يده اليسرى ورجله اليمنى- ذات الحركة.. وهكذا بتسارع، في حين تهتز رأسه تناغماً مع إيقاع أقدامه.. وهكذا راح يهرول بفارسه منتشياً سعيداً؛ في حين كان حمدون كلما رفع بصره جَهَرته الشمسُ الساطعة بضيائها؛ فغدا يتحاشى النظر المباشر إليها.. فيلتفت تارة عن يمينه ليملأ عينيه بمناظر النهر الخلابة وبساتينه اليانعة على طول ضفتيه، ويتنشق ليُشحن صدره بهوائها العليل.. وأنفاسه بأريجها الطيب، وتارة يلتفت عن يساره فيرى السور السامق.. ومن خلفه القصر الأبي يتباعد رويداً. مع نهاية الرصيف ألفا نفسه قُبالة باب الحديد[1] فأنشأ ينظر إليه ويتأمل رونق عقديه وزخرفة طرتيه كأنما يشاهدهم لأول مرة. سمع لجواده الحبيب حمحمة؛ ففهم رغبته -التي وافقت هَوَى نفسه- فجذب لجامه بيسراه جذباً رفيقاً بعد أن تجاوز الركن الشرقي للسور ليستوي على طريق المحجة العظمى[2]..

---

[1].. أحد أبواب الضلع الجنوبي لسور المدينة ويقع في أقصى الركن الشرقي منه –ويسمى أيضاً الباب الجديد وباب الرصيف-، وقد أمر بفتحه في السور الأميرُ الحكم الربضي بن هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل، والأمير الحكم الربضي هذا هو الجد الرابع للخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله.

[2].. وتسمى أيضاً: السكة العظمى.. وهي طريق واسعة (قديمة منذ العهد الروماني) تمتد -خارج السور الشرقي- متجهة شمالاً لتصل بين قرطبة وبين الطريق إلى سرقسطة وطليطلة.

جاعلاً باب رومية[1] عن يساره.. مستدبراً النهر.. مستقبلاً الصحراء شمال المدينة. استوى الجواد الشاب على المحجة.. وكأنَّما أخبر فارسه بمراده؛ فرفع جذعه قليلاً عن صهوته وأرخى له العنان وهو ينكزه؛ فتحمس الحصان الأرن للعَدْو –كما كان يفعل آنفاً في ذات المكان- فراح يهذب برجليه: اليسرى فاليمنى.. فيده اليسرى فماداً يده اليمنى بأقصى خطوة، وهكذا أنشأ يهذب بتسارع حتى تحوَّل هذبه لعَدْوٍ مجنون كأنَّ الخالق –سبحانه وتعالى- صوَّره من الريح، حالما يضغط فارسه بركبتين رفيقتين على جنبيه في تناغم حاذق مع حركته المجنونة.. متهيء بجذع مرفوع ورأس مشرئب بمحاذة عنقه الطويل الممدود. شعر وكأن الرياح تركض خلفه عاجزة عن اللحاق به أو الإمساك بذنبه طويل الشعر قصير العسيب.. أو حتى شق غباره الكثيف، وكلما اجتهدتْ هي لتُبطِّئ من سرعته؛ زاد حماسه وجنونه.. إلى أن انعطف –لا إرادياً بحكم العادة- يساراً مع السور ليتجه غرباً حيث الطريق إلى جبل العروس كما اعتاد في الماضي القريب. أطلق حمدون العنان لصيحاته تُلهب حماسة الجواد الشاب.. وللرياح التي تحملهما تعبث بشعر رأسه الحاسر وقميصه الفضفاض، أغمض عينيه في نشوة.. فكم اشتاق لهذه الجولة مثلما اشتاق إليها جواده الأصيل؛ ثم فتحهما وتلفَّت حوله فرأى باب ليون[2] –عن يساره- يبتعد للخلف فيما تلوح أمامه في الأفق البعيد جنات الرصافة وأسوار الزهراء وعن يمينهما جبله المحبوب، رجع بصره لينظر عن يساره فاصطدمت عيناه بالسور الشاهق؛ فانتبه إلى غياب ظل جواده العادي: (تُرى! هل سبق ديجورُ ظلَّه؟!!). بيد أنَّه ما لبث أنْ أفاق من غفلته:.

-[1].. أحد أبواب الضلع الشرقي لسور المدينة ويقع في الطرف الجنوبي منه -على مسافة حوالي ستمائة متر من باب الحديد- مُطلاً على المحجة العظمى، وله عدة أسماء منها: باب طليطلة وباب عبد الجبار.

-[2].. باب ليون هو: أحد أبواب الضلع الشمالي لسور المدينة ويقع في شرقه، ويمتد منه الطريق الشمالي المتجه إلى الرصافة، وله أسماء أخرى: باب طلبيرة وباب اليهود.

(بل.. إنه الزوال؛ لقد دخل وقت الظهر.. فانحسر الظل!)؛ فتذكَّر موعده.. لقد كاد أن ينسى.. بل ربما نسي فعلاً مبعث خروجه من القصر في هذا الوقت: إنَّه موعده مع أبي زيدون البنَّاء.. في صلاة الظهر بمسجد الربض. همس في أُذن جواده الوفي وضغط على جنبه بركبته وهو يكبحه؛ فأخذ يتباطأ حتى هدأت سرعته في حين يتردد ضبحه في جوفه مختلطاً بأنفاس فارسه المتهدجة، مسح بيمينه على عنقه وجعل يربت عليه مثنياً على جهده المشكور وحماسه الموفور.. ثم غمغم معتذراً: "لقد اشتقتُ مثلك لهذا الجبل العزيز يا ديجور؛ لكن عذراً! لدينا موعد ينبغي ألا نخلفه"، ثم استدار قافلاً إلى الشرق حيث الربض الكائنة به دار جدته: فاطمة المروانية.

****

-المشهد الثاني-

بالكاد أدرك صلاةَ الظهر مع الإمام في مسجد الربض، ثم التقى بأبي زيدون البنَّاء: (هو البنَّاء الذي اتفق معه على إعادة بناء دار جدته، أو الأحرى: بناء الجزء الجديد الذي أُلحق بها).
حياه أبو زيدون بتوقير؛ فبادله التحية بمثلها ثم نقده ماله المتفق عليه بعد أن أنجز عمله؛ بل.. زاده وتفضَّل عليه. شكره أبو زيدون بامتنان ثم استدرك مُتحسِّراً بنبرةٍ معتذرة: "كم وددتُ –أيها الأمير- أن ابني لك داراً عظيمةً تليق بمكانتك الجديدة؛ لكني صنعتُ ما أرادتْه السيدةُ (فاطمة المروانية).. كما أمرتَني!". فابتسم حمدون وقال بملاطفة: "لستُ أميراً.. أيها السيد الطيب؛ إنَّما أنا رجلٌ من أوساط الناس، وحسبنا الدار التي بنيتَ لنا.. جزاك الله خيراً!".

اعتدل في طريقه إلى البيت، وعلى وقع خَبَب ديجور المتبختر.. شرع يبتسم مستحضراً مواقف جدته خلال الأسابيع القليلة الماضية.. غمغم في خاطره بمحبة: "يا لكِ من سيدة مستبدة!". تذكر حينما احتفلت قرطبةُ بنجاح ثورة بني مروان وقضائهم على شنجول، وحين كان أهلُ الربض يحتفلون به هو خاصة لحسن بلائه في الثورة..

ولمكانته الجديدة في قصر الخلافة كأحد المقربين من الخليفة المهدي[1]؛ الكلُ يحتفل به.. الكلُ سعيدٌ به إلا هي: (جدته)! فما انفكتْ تصيح فيه بلهجة مؤنبة محذرة: "لا تفرح! لا يغرنَّك ما وصلتَ إليه من علو منزلة.. فإنَّك جاهل! هلا تفقهتم في دينكم قبل أن تُؤمَروا؟!". تذكَّر –بعد مدة يسيرة من تولي المهدي الخلافة- يوم جاءها ومعه مالاً كثيراً اِمْتَنَّ الخليفةُ عليه به؛ ثم قال: "الخليفة المهدي أمرني أن أشتري داراً فاخرةً.. تليق بالمنصب الجديد!؟"، فابتسمتْ هازئة: "أوا أضحى ابنُ عبد الجبار خليفةً يأمر وينهى، ويعطي ويحرم.. سبحان الله!!"، ثم ما زادتْ عن أن قالت: "لن أترك بيت جدك الفقيه عبد البر المصري!"، فأجابها بتودد: "وأنا لن أتركِكِ وحدكِ أبداً؛ فما العمل؟؟!". بعد جدالٍ طويل.. غمغمتْ: "ذرني يومين أتدبَّر أمري!". عاوده الابتسام بصورة أشد حين جالتْ بخاطره ذكرى صورتها وهي تُقْبِل عليه بهمةٍ وحماس –وبوجهٍ غير الذي تركها به- لتهتف بحميَّة ونشاط: "لا تشتري دار جديدة! حسبنا دار جدك هذه؛ سأُعيد بناءها.. وسأضم إليها الأرضَ الفضاء التي في حَوْزها لتصير داراً واسعةً.. كما تُحب!".

استرجع شعوره ساعتئذ: لقد كان مبهوتاً. لا غرو! بهتته المفاجأة! فلم يكن يتوقع أن يتغيَّر حالها هكذا.. من النقيض إلى النقيض، بل لم يفهم لماذا تحمست لتجديد الدار العتيقة بعد أن كانت رافضة للفكرة سنوات طويلة بحجة الوفاء للبيت الذي تزوجتْ وعاشت فيه أسعد أيام حياتها! وادكر حين استأنفت كلامها صائحةً بحزم وصرامة: "لكن لي شروط: أولها.. أنْ ترد المال الذي أخذتَه من قصر الخلافة؛ فإني سأبني داري من مالي الخاص، وثانيها.. أنْ تُبنى الدار وِفق رغبتي وتدبيري!". (كم أنتِ صارمة مستبدة يا جدتي! وكم أنا ضعيفٌ وديعٌ أمامكِ.. كالطفل الصغير!). تذكَّر كيف أسخط المهدي برده الهبة، وتذكَّر إصراره -رغم استياء الخليفة- على ردها إلى بيت المال تلبيةً لرغبتها.

---

[1].. هو: أبو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ الثائر المرواني في الرواية الأولى من هذه الملحمة: (رواية: شنجول).

عندما بدأ العملُ في البناء.. كم كانت جادةً في تحفيزه والتعجيل بإتمامه! لقد كانت حماستها كحماسة الشباب؛ بل.. إنَّ همتها العالية ونشاطها الزائد أرهقا الشبان من العمال والصناع، ومع ذلك.. لم تخلُ أسابيع العمل الدؤوب –التي وصلت فيها الليل بالنهار- من مشاحنات وخلافات بينها وبين أبي زيدون ورجاله.. حتى حسان الخشَّاب لم يسلم من ملاحظاتها عليه وعلى صنعته.. "يا لكِ من امرأةٍ جبارة.. يا أم هشام!".

توقف ديجور كالمتحير! وحق له التحير؛ فهو لم يألف –بعدُ- المشهدَ الجديد لواجهة الدار.. شأنه في ذلك شأن أهل الدار أنفسهم.. بل والجيران. شرع حمدون يطالع الجدار الحجري الجديد (المرتفع نسبياً) هامساً في سريرته: "سبحان من يُغيِّر.. ولا يتغير!". فقبل شهر واحد فقط.. كان هذا الجدارُ الحجري الراسخ سياجاً واهناً من أعواد البلوط المربوطة بحبال الحلفاء يحيط بتلك الأرض الفضاء القابعة أمام البيت الصغير، كان يعلم أنها تملكها؛ بيد أنه لم يقتنع –يوماً- بمبرراتها السابقة لعدم توسعة البيت بضمها إليه رغم مساحتها الكبيرة.

الزائرُ للدار الجديدة القديمة يأتيها من لدن النهر عابراً الدرب الرئيسي المؤدي إلى جوف الربض؛ فيجدها كائنةً على اليمين بمظهرها الجديد؛ فيراها الرائي –من الخارج- كأنها تنقسم إلى قسمين: القسم الأمامي يدل ظاهره على أنَّه هو المبنى الجديد الذي بناه أبو زيدون فوق الأرض الفضاء (حيث أنه: مبني من طوب حجري جديد، ونوافذه جديدة وأكثر ارتفاعاً.. فضلاً على أنه مُقبَّب)، والقسم الآخر هو البيت القديم الذي لم يتغيَّر حاله تقريباً. يتوسط القسمين –من الخارج- بابٌ خشبي ثقيل.. مصارعه من الحديد (حرصت أم هشام على أن يكون بسيطاً غير مزخرف.. وألا تعلوه حلية من عقد أو طرة).

من ذاك الباب –الذي كان مفتوحاً- ولج حمدون إلى ردهةٍ غير متسعة؛ فوجد عن يساره باب قاعة الدرس (بالدار العتيقة) مغلقاً، وعن يمينه باباً آخر مغلقاً ذا مصارع عالية (هو باب القاعة الغربية.. كما سمتها أم هشام، وقد جعلتها لاستقبال الزائرين من الرجال).

سـار خطـوات للأمـام وانعطـف إلى اليمـين (حيـث تنكسـر الردهـة على شـكل زاويـة قائمـة)؛ فتحوَّل إلى بهو صغير مسقوف بالخشب.. يُشرف على فناءٍ واسع.. تتوسطه بئر صغيرة جديـدة (لـم تكـن موجـودة مـن قبـل)؛ فـألفى القاعـة الغربيـة –وبابهـا الثـاني- تشـغل سـائر الجهة اليمنى بين يديه، نظر إلى الجهة الأمامية للفناء فواجهته القاعة القبلية (كذلك سمتها أم هشام لأنها تقع في الجهة القبلية –أي الجنوبية- للدار) وإلى جوارها مرحاض مستور وصهريج صغير، أما على يساره فثمَّة ثلاث غرف متوسطة المساحة (بمحازتهنَّ سلم حجري صغير يصعد إلى السطح): اثنـان منهمـا جديـدتان.. أمـا الأخيرة فهي التي أصبحتْ غرفته بعد أنْ سكنت سلوانُ حجرته بالدار العتيقة التي تقع في الجهة الشمالية لفناء البئر.

تطلع إلى البئر فشاهد أمَ سعدون تقف على شرفته -مرتقيةً درجتين خشبيتين- تجتهد في جـذب سَّجْل المـاء.. مُشـمِّرةً عـن سـاعديها، وقـد تـوارد الـدم لوجههـا الخمـري اللحـيم فاحمرت وجنتيها، ثم طرحت ظهرها للخَلْف قليلاً وهي تلتقط السَّجْل؛ فـانطرح غطـاء رأسـها عـن ذؤابتهـا الشـمطاء، ورأى سـعدونَ إلى جوارهـا مُتحفِّـزاً لمعاونتهـا بإفراغـه في دلـوين، ثـم يحملهمـا ويهـرول بهمـا ليفرغهمـا في الصـهريج ثـم يكـرُّ راجعـاً. لمحـه واقفـاً يراقبهمـا.. فنـاداه بـتهكُّم: "أخيراً أتيـتَ!! أهـلاً ومرحبـاً!". فأجابـه بتلطُّـف.. وبأسـاريرٍ منفرجـةٍ: "أهلاً بـك.. يـا سـعدون!". ثـم دلـف إلى الفنـاء.. واقترب مـن أم الفتى الممرور وهتف بمودة: "السلام عليكِ يا خالة، دعيني أُساعدكِ!".

– وعليكم السـلام ورحمـة الله.. يـا سـيدي! إنْ أردتَ مسـاعدتي حقـاً؛ فـالتمس مـن جدتكَ أنْ نصنع لهذا البئر عريشاً وبَكَرة!
– نصنع إنْ شاء الله.. يا خالة! (قالها وهو يبتسم) ثم أردف: "أين.. هي؟؟"
– هـا أنـا ذا.. مرحبـاً يـا حمـدون! (هتفـتْ جدتُـه.. مقبلـةً علـيهم مـن القاعـة القبليـة) وأردفتْ: "السلام عليكم ورحمة الله!"
– وعليكم السـلام ورحمـة الله وبركاتـه (أجابوهـا جميعـاً بتـوقير في حـين اتجـه إليهـا حمدونُ وقبَّل يدها) ثم قال ممازحاً: "ما قولكِ يا جدتي في التماس أم سعدون؟!".

- سيحدث.. إنَّ شاء الله! تعلمان أننا لم ننتهِ من أعمال البناء بعدُ، الصبر يا امرأة!
- اللهم.. صبراً! (جأرت أم سعدون وهي تتنهَّد)، ثم التفتتْ الجدةُ إلى حفيدها وسألته باهتمام: "هل أعطيتَ الرجل بقية ماله؟؟".
- نعم! والحمد لله!
- هل استرضيتَه؟؟
- .. ومنحتُه الزيادة التي أمرتِ بها!
- أشهدُ أنَّه تعب واجتهد معنا هو ورجاله أيما اجتهاد!
- لقد أنجزوا عمل ثلاثة أشهر في غضون الشهر! (أضافتْ أم سعدون.. ثناءً عليهم)
- وأنا؟!! ألم أتعب وأسهد الليل معهم؟! لماذا تنسونني؟! (صاح سعدون بطفولية)
- بل أنت بطل.. ولولاك لما أنجزنا! (أجابه حمدون يداعبه ويطيب خاطره)
- وسلوان! هل عَزَبَ عنكم جهدُها؟! (سألتْ الجدةُ وهي ترمق حمدونَ بطرف عينها)
- لا يُنكر فضلها إلا جاحد.. وحاشنا أنْ نكون جاحدين! (هتفتْ أم سعدون)

مجرد ذكرها أثار في سريرته شجوناً.. وأحاسيساً متشابكةً كأيك الشجر، (لا جرم أنني جُبلتُ على عدم فهم النساء اللاتي أُحبهنَّ!)، إنَّه كما لم يفهم كثيراً من تصرفات جدته في الفترة الأخيرة؛ فإنَّه –كذلك- لم يفهم سلوان.. ولمَّا يفهم حقيقة مشاعرها نحوه! قد سبق واعتذر لها عن تسويفه لأمر زواجهما، وصارحها –أمام جدته- بحبه، بل وطلب منها الزواج.. بغير تردد؛ ورغم هذا.. ما كان منها غير صمتٍ بارد.. ثم موافقة مشروطة بشرطٍ هو أقرب للمستحيل؟! وها هي ذي تُقيم في دار جدته –على سابق عهدها-، ويلتقي بها مرات ومرات؛ فلا يرى في عينيها سوى الجمود.. ولا يجد منها غير لقاءٍ بارد إنْ لم يكن لامبالاة!! فلم يملك غير أنْ يبادلها: صمت بصمت.. وعدم اكتراث بلامبالاة! بيد أنَّه.. إذ يعجب منها؛ فعجبه من موقف جدته أشد! فهي الأخرى صامتةٌ.. جامدةٌ، لم تحرك ساكناً في أمرهما.. كأنَّما توافقها على سلوكها!!

- أين هي الآن؟؟ (تساءل بانكسار.. وعاطفة مكبوتة)

- إنها فوق السطح.. مشغولة في فرش المصاري[1]! (أجابت أم سعدون غامزةً بطرف عينها).

أما هي.. فقد كانت فعلاً في العليتين اللتين تم بناؤهما حديثاً فوق سطح قاعة الدرس بالدار العتيقة (وهما الشيء الوحيد الذي قبلت أمُ هشام بإحداثه فيها.. ويُصعد إليهما بواسطة السلم الحجري في الجهة الشرقية من الفناء الجديد وعبر سطح الغرف الجديدة التي تليه حيث يتصل السطحان الجديد والقديم). لا جرم.. كانت مشغولةً في ترتيب الأثاث المتواضع للعليتين وتنظيفهما؛ لكن.. بمجرد ما شعرت بقدومه خفق قلبها واضطربتْ حركتها.. وتحيَّرت ماذا تفعل؛ فتشاغلتْ عن لقائه بما بين يديها من عمل. لا عجب من رد فعلها ذاك؛ فهي منه على خجل ووجل: خجل من سلوكها نحوه.. وتظاهرها بعدم الاهتمام به وإصرارها على موقفها.. وشرطها الصعب في قبول الزواج، ووجل من ضعفها أمام حبه.. وتخوُّف من أنْ يسلمها هذا الضعف إلى الاستسلام والتفريط في كبريائها وكرامتها. (آه.. لو تدري -يا حمدون- بما أُكنُّه لك في قلبي! آه.. لو تعلم أني إنما أرجو بتباعدي عنك.. القرب منك!!).

- أبلغيها سلامي يا خالة! (غمغم بتردد مكبوت)، ثم أردف مخاطباً جدته: "أود أن أُحدثكِ على انفراد قبل أن أرحل.. يا جدتي!"
- ترحل؟! (تساءلتْ باستنكار).. ثم أضافتْ: "ألن تبقى.. ريثما نشبع من صُحبتك؟؟"
- لديَّ أعمالٌ عاجلة في القصر؛ سأنتهي منها ثم أعود إليكِ لتشبعي مني كما تحبين! (أجابها بمودة حانية)
- لن ترحل قبل أن تتناول غذاءك!
- صدقيني! لا وقت لديَّ.. يا جدتي! هلمي إليَّ.. أريدك في أمر هام! (صاح بجدية)

---

[1].. المصاري: جمع مصرية وهي الغرفة الصغيرة أعلى سطح البيت، وقد تسمى أيضاً: علية.

انصرفا معاً ليتحدَّثا منفردين؛ في حين تعود أم سعدون لتستكمل عملها دَهِشةً من تعجُّل حمدون، وسعدون يتطلع بفضوله الطفولي إلى القاعة القبلية حيث توجَّها هامساً ببلاهة: "ما عساه هذا الأمر الهام الذي يريده حمدون؟!".

****

-المشهد الثالث-

- الأميرُ هشام[1] بن الخليفة الحكم المستنصر يرغب في زيارتنا.. وقد أذن له الخليفةُ أبو الوليد!! (أَسَرَّ حمدون في أذن جدته باهتمام وحذر) ثم استأنف بذات النبرة الجادة الهامسة: "ينبغي أن يبقى هذا الأمر سراً.. يا جدتي!!"
- تقصد: الخليفة هشام.. المؤيد بالله؟؟! (تساءلتْ جدتُه باندهاش)
- لم يعد هو الخليفة يا جدتي! إنما الخليفة الحالي هو محمد المهدي! ولقد نُهينا عن مناداته: بالخليفة!
- بالله يا ولدي.. لا أسيغ هذا الهراء!! كيف يُعزل الخليفة.. ويقوم مكانه رجلٌ آخر.. وهو لا يزال حيٌّ يسمع ويرى؟!
- قُضي الأمر يا جدتي! وقد انخلع هشام بمحض إرادته.. وتنازل عن الخلافة لمحمد المهدي، ولقد بايعه القضاة والعلماء والفقهاء وجميع أهل قرطبة.. ولن يخالفهم أهل الأندلس فيه إن شاء الله.. وهذا هو الحق الذي لا مراء فيه!
- لله الأمرُ من قبل ومن بعد! ولماذا يزورنا الرجلُ سراً؟!

---

[1]هو الخليفة السابق: المؤيد بالله هشام بن الخليفة الحكم المستنصر بالله بن الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله، تنازل عن الخلافة للثائر المرواني: (محمد بن هشام بن عبد الجبار) الذي لُقب بالخليفة المهدي بعدها.

- هذا كان شرط المهدي عندما وافق على الزيارة.. أحسبه يخشى إنْ علم المتربصون بخروج هشام من القصر.. أن يسعوا لاغتياله! وكما تعلمين.. فإنَّ الحفاظ على حياته كان شرط بيعة المهدي!
- كما قلتَ: إنَّ المؤيد انخلع من تلقاء نفسه، ولا أظن أنَّ له عداوة مع أحد من الناس؛ فلِمَ تخشون عليه الغيلة؟! أرى أنَّ ثمة عِلَّةً أُخرى للتكتُّم!
- لا عليك من هذا.. يا جدتي! إنما أحب الرجلُ زيارتنا ولا سيما بعدما علم بتجديدنا للدار؛ وأُمرتُ –أنا وهو- أن نكتم الخبر، وطاعة ولي الأمر واجبة.. أليس كذلك؟؟
- بلى.. طاعة ولي الأمر واجبةٌ! أمَّا أنْ يكون ولي الأمر هو ابن عبد الجبار الذي أعرفه؛ فقل: على الأندلس العفاء!
- يا أماه.. لا تظلمي الرجل!
- دعكَ منه! كيف أُخفي الأمر.. ولا مناص من أن يعلم به أهل الدار.. والجيران؟!
- كلا! ينبغي ألا يعلم به الجيران، أما سعدون وأمه.. فلا خطر منهما؛ لكن.. حذِّريهما –يا جدتي- أن يخبرا أحداً!
- كيف سنُخفيه عن الأعين.. ألن يزورنا أحدٌ؟! ألن يراه أحدٌ وهو يدخل ويخرج؟!
- سأتدبر الأمر.. إنْ شاء الله! أعدي أنتِ الدار لاستقباله!
- متى سيأتي؟؟ (تساءلتْ باستسلام.. متبرّمة مستاءة)
- ليلة الجمعة.. إذا هدأت الرِجلُ والعين[1]؛ فلا يراه أحد، وقد استأذنني أن يلبث عندنا يومين أو ثلاثة؛ فأذنتُ له.. فما قولكِ؟؟
- على الرحب والسعة.. هل سيأتي وحده؟؟
- قد تأتي معه.. جاريته (شعب) وخادم أو اثنان! أرجو أن نكرم وفادته يا جدتي!
- هل توصيني بإكرام الضيف.. يا حمدون؟! (تساءلتْ باستنكار)
- عفواً يا حبيبتي! أقصد: حبذا لو بالغنا في إكرامه!

---

[1] : أي نام الناس وسكنت حركتهم.

- بعون الله نحسن إليه.. ونبتغي به أجرين: إكرام الضيف.. وصلة الرحم.
- حقاً.. عَزَب عني أنَّكِ بمكانة عمة أبيه! (هتف وهو يبتسم ارتياحاً)
- والرحمة بعزيز قومٍ.. سلبه ابنُ عبد الجبار ملكه فيها أجرٌ ثالث! (أضافت وهي تتنهَّد تحسراً)، فابتسم باقتضاب ولم يعقب على قولها، أطرقا هنيهة.. ثم هتف قائلاً: "ينبغي أن أذهب –يا جدتي-، وموعدنا مساء الجمعة".
- إنْ شاء الله يا بني.. صحبتك السلامة.. وحفظك الله من كل شر!

****

-المشهد الرابع-

"لستُ أدري لِمَ العجلة؟! ما عدنا نهنأ به منذ دخل القصر؛ هل هو منصبٌ نتشرَّف به.. أم اعتقال لولدنا.. يُبعده عنا؟!" (صاحت أم سعدون بتبرُّم).

- يقول: لديه أعمالٌ عاجلةٌ ينبغي ألا تُؤخَر! (غمغمتْ أم هشام وهي شاردة الذهن).
- ألا تتأجَّل هذه الأعمال قليلاً.. ريثما يتناول غذاءه؟! (استدركت أم سعدون باستنكار)؛ بينما ظلَّت أم هشام شاردة الذهن؛ فلم تجبها.. كأنَّما لم تسمعها.

في حين كان سعدونُ يتأرجح راكضاً بالدلوين بين أمه على شرفة البئر وبين الصهريج.. فصاح متسائلاً ببلاهةٍ وفضولية: "ما هذا الأمر الهام الذي انفرد بكِ من أجله؟؟".

- صَه يا غلام! ما شأنك أنت؟!! (نهرته أمه باستياء غاضب)
- دعيه!! (هتفتْ أم هشام بتؤدة.. ولمَّا يزايلها شرودها بعدُ)، ثم توجهت إليه قائلة: "حديث الرجل لأمه.. يا سعدون!".
- فلِمَ أنتِ تائهةٌ هكذا.. كأنَّما أصابه مكروه؟! (تساءل الفتى الممرور بإصرارٍ أبله)
- اغرب من هنا.. يا غلام! (صاحت أمه بتوبيخ)؛ فترك الدلوين وجرى لا يلوي على شيء حالما ترمقه أم هشام وهي تبتسم بخفوت.. ضاحكةً من سلوكه الصبياني.

ثم بعد برهةٍ من الإطراق.. التفتت إلى خادمتها قائلةً: "نادي سلوانَ من فوق السطح؛ والحقا بي في القاعة القبلية.. فإني أريدكما في أمرٍ هام!"

****

-المشهد الخامس-

لم تملك سلوانُ أنْ تكفّ العَبَرات المُلِحَّة على الانسياب من عينيها؛ فأرسلتْ لها العنان فور ما سمعت حمحمةَ الحصان (ديجور) وهو ينطلق منصرفاً بفارسه من أمام الدار، وقامت بتثاقل خَجِل.. فنظرتْ من وراء الشرجب[1] لتتطلّع إليه كأنَّما تُودّعه؛ فرأته يبتعد بجواده في هدوء، بنظرةٍ أسيفة.. تطلّعت إليه حيث ولاها ظهره، وراحت تتساءل في دَخِيلتها بشيءٍ من الإشفاق: (هل ما أفعله صحيحٌ؟ هل من الحكمة أنْ أُصرَّ على شرطي للزواج؟ هل من الحكمة أنْ أُصرَّ على موافقة عم أبي -القاضي أبي الوليد بن عباد-.. وهو لا يعرفني أصلاً؟! وماذا أرجو من حمدون أنْ يفعل؟! هل أطلب منه أنْ يرحل إلى أبي الوليد -قاضي اشبيلية- ويقول له: إنَّ عمر ابن أخيك -الذي طردتَه منذ سنين من اشبيلية- أنجب بنتاً.. أنت لا تعلم عنها شيء، وأريدك أن تعترف بها وتزوِّجها لي؟!! وما الذي أتوقّعه منهما إذا حدث هذا؟! هل سيرحب بي وبه ذلك القاضي –وهو مَن هو- بهذه الهوادة؟! ثم يعترف بي وهو لا يعرفني؛ ويزوِّجني حمدون.. هكذا بسلاسة؟! أي عقل يستوعب هذا الهراء؟! لقد تعجّلتُ؛ فقسَوْتُ على نفسي.. وعلى مَن أحب! فماذا أفعل؟؟!). غاب عن بصرها؛ فقامت من خلف الشرجب لتستكمل عملها؛ ودموعها الواجمة لا تنفك تنفلت من عينيها، وأسئلتها اليائسة تنهال على عقلها:

---

[1]: الشرجب: كلمة أندلسية تعني النافذة أو الشرفة.. وهو عبارة عن نافذة بارزة عن الجدار مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقاطعة. جمعها: شراجيب.. وهي تشبه المشربيات في المنازل المصرية.

(وأم هشام.. جدته: هذه المرأة العجوز الحنونة التي فتحت لي بيتها فصِرتُ كواحدةٍ من أهله، وفتحت لي قلبها فصارت كأمي وأفضل! كيف لم أفكر فيها وفي تألُّمها وأنا أكسر قلب حفيدها الوحيد.. الذي ليس لها سواه في هذه الدنيا؟! كيف أتصرف معها بهذه الأنانية.. وأنا آوي في بيتها.. وآكل من طعامها.. وأنهل من بحر علمها وحكمتها؟! كيف أجحد معروفها بهذا البرود والجفاء؟!).

بيد أنها لم تلبث أنْ تتدارك فتسأل بأنفةٍ واعتزاز نفس: (وماذا أفعل.. كيلا أجحد معروفها؟ ماذا أفعل.. لكيلا أشق بشرطي الصعب على حبيبي؟! هل أخضع لحبي.. وأهدي له نفسي.. فيتزوَّجني سهلةً رخيصة؟!). (إنَّه.. يحبك!). (لا جرم.. أني أيضاً أحبه؛ لكن.. كي يحيا حبنا وينمو؛ لا جناح في أنْ أحفظ كبريائي وكرامتي! فها هو ذا.. صار من وجهاء قرطبة، وصار –في ليلة وضحاها- أحد رجالات قصر الخلافة المرموقين؛ فما يدريني.. لو خضعتُ لضعفي أمام حبه؛ أنْ يزهد هو في هذا الحب بعد حين، ويطمع لنفسه في امرأةٍ عزيزة تليق بمقامه الجديد؟!! لا مناص من أنْ أُصر على شرطي.. حتى يعلم أنَّ لي أهلاً وعشيرةً من الأكابر.. ليسوا أدنى منه مقاماً!).

ما انفكت تسترسل في خَطَراتها المتصارعة؛ حتى نادتها أمُ سعدون: "هلُمّي.. يا سلوان.. إلى أم هشام.. فهي تريدنا في أمرٍ هام!".

****

-المشهد السادس-

دلفت سلوانُ –ومِنْ ورائها أم سعدون- إلى القاعة القبلية حيث تنتظرهما أم هشام التي ابتسمت لها بمودة عطوفة كدأبها معها، ثم هتفت بحنان: "أتعبناكِ معنا يا سلوان!". فأجابتها باستحياء وتواضع: "أستغفر الله.. يا أمي؟!"، "جُزيتِ خيراً يا بُنية!" (أجابتها السيدة بامتنان).. ثم أطرقتْ هنيهة قبل أنْ تخاطبهما قائلة: "لقد أخبرني حمدون بنبأ عظيم ينبغي أنْ أُعلمكما إياه!". فأوجست سلوانُ في نفسها خيفة أنْ يكون قد صرف

عزيمته عن الزواج بها؛ لكن.. ما عتَّمت الجدة أنْ استأنفتْ هامسة: "لقد أخبرني أنَّ الخليفة المؤيد سيأتي لزيارتنا!". لم تنبسا بكلمة.. بل أطرقتا كأنهما لم تسمعا قولها.. أو كأنَّ المفاجأة أخرستهما! فاستطردتْ بذات النبرة العميقة الهامسة: "يجب أنْ يبقى أمر هذه الزيارة سِرياً.. فلا يعلم بها أحدا!". انتشلتْ أم سعدون نفسها من بئر الصمت.. وتساءلت باستعظام وافتخار:

- الخليفةُ.. عينه؟! الخليفةُ الذي يقيم في قصر قرطبة؟!!
- نعم.. يا امرأة! الخليفةُ المؤيدُ بالله هشامُ بن الخليفة الحكم المستنصر بن الخليفة عبد الرحمن الناصر.. المرواني.. الأموي!
- إنَّه لشرفٌ عظيمٌ.. يا سيدتي! (جأرت أم سعدون بحماس).
- وما الشرف في ذلك؟! (تساءلت أم هشام متظاهرة بعدم الاكتراث).
- أي شرف!! الخليفة المؤيد.. الذي لبث أكثر من ثلاثين سنة لا يخرج من قصور الخلافة ولم يره أحدٌ من الرعية.. يأتي لزيارتنا في دارنا؛ ثم تسألين: ما الشرف؟! وأيمُ الله.. إنَّه شرفٌ عظيمٌ خصَّ اللهُ به سيدي حمدون!
- كما قال حمدون: ليس هو الخليفة الآن، وإنَّما محمد بن عبد الجبار.. الذي تلقَّب بالمهدي؛ لذا فزيارة المؤيد لنا.. تُعد زيارة رجلٍ من عامة بني مروان.. وليست زيارة الخليفة! (قالت أم هشام باستخفاف مصطنع).
- ولو!! فهو مازال المؤيد هشام.. الذي كان الخليفة.. وابن الخليفة العظيم (الحكم المستنصر).. وحفيد الخليفة الأعظم (عبد الرحمن الناصر). ولم يشرُف أحدٌ من أهل قرطبة بأنْ زاره المؤيدُ في بيته قبلنا.. ألا يكفينا هذا الشرف؟! (هتفت أم سعدون بإصرار)؛ حالما أضمرت سلوان في دخيلتها: (صدقتِ يا أم سعدون! لم يَشرُف أحدٌ من أهل قرطبة –بل الأندلس كلها- بأنْ زاره الخليفةُ المؤيد في بيته قبل الآن! لقد ارتقى حمدونُ مرتقىً عال!!).
- احذري يا أم سعدون! يجب أنْ يبقى أمر هذه الزيارة سراً بيننا! (هتفت أم هشام).

- ألا نُعلِم الجيران.. ونتباهى بينهم بهذا التشريف؟! (تساءلت باستنكار).
- كلا! بل.. ينبغي الكتمان.. ولقد أكد عليَّ حمدون في ذلك! (أجابت بصرامة).
- ألن يسمع الناس بخروجه من القصر؟! ألن يرى الجيران موكبه.. أمام دارنا؟!
- سيخرج سراً.. ولن يكون له موكب.. هذا ما أكده حمدون.
- لماذا يا سيدتي؟! إنما تكون مثل هذه الزيارة ليُفاخر بها المَزورُ جيرانَه.. والناس!
- هذا ليس شأنكِ يا ثرثارة! احفظي السر.. وفكري معي كيف سنُعد لاستقباله!

فتغضنت شفتا أم سعدون.. ثم غمغمت باستسلامٍ مُتبرِّم: "فكري أنتِ.. ودبري –يا سيدتي- وأنا طَوْع أمركِ!". فأشاحت عنها سيدتُها.. لتسأل سلوانَ: "ما رأيكِ يا سلوان؟". لم تجبها سلوانُ؛ فقد كانت جافلةً.. غارقةً! أغرقها الخبر في بحر من الحيرة والوجل: (هل أفرح لحمدون –حبيبي- أنْ مَنَّ اللهُ عليه بعلو المكانة فصاحب الخلفاءَ إلى حد أنْ يأتي أحدُهم لزيارته في بيته؟! أم أحزن لأنَّ علو شأنه وارتفاع مكانته.. قد يُغرِياه بالزهد فيَّ؟!)، (.. ما هذا الذي أفكر فيه؟! أ إلى هذا الحد صرتُ أنانية: لا أحب إلا ذاتي.. ولا أفكر إلا في نفسي؟!!).

صاحت أمُ هشام فيها كأنها تُوقظها: "هيه.. سلوان! أين أنتِ؟؟!".

- نعم! لبيك يا سيدتي.. أنا معكِ!
- بل لستِ معي! أنتما لا تدركانِ خطورة المسألة: سيأتي المؤيد لزيارتنا في دارنا هذه.. وهي غير لائقة باستقباله.. علاوة على أننا لم ننتهِ من تأثيثها بعدُ!
- أ رأيتِ صدق حدسي.. وصواب رأيي عندما نصحتُكِ ببناء هذه الدار الجديدة لتليق بمكانة سيدي حمدون! (هتفتْ أم سعدون.. معجبةً برأيها).
- ليس هذا شأننا الآن.. إنَّما أريد أنْ نُحسن استقبال الضيف.. فكيف السبيل؟!
- نسارع في الانتهاء من تأثيث الدار.. كما سارعنا في بنائها! (قالت أم سعدون بتحفُّز)
- ليس لدينا متسعٌ من الوقت! (هتفت أم هشام بنبرةٍ يائسة).
- لماذا؟! متى سيأتي؟ (تساءلت أم سعدون بشيءٍ من التوجُّس).

- مساء الجمعة القادمة!
- ليس أمامنا إلا ثلاثة أيام!! كيف سنُهيأ الدار -يا سيدتي- في هذه المدة القصيرة؟!
- إنَّما جمعتُكما لذلك!! ما رأيكِ يا سلوان.. أشيري عليَّ يا بنية! لقد احتار عقلي!!
- نجتهد قدر استطاعتنا! (أجابت سلوان بنبرةٍ مكتومة.. وهي لا تزال في شرودها).

أطبق عليهنَّ سكوتٌ كئيب.. وطالتْ لحظاتُه الثقيلة حتى أيقنت أم هشام أنَّه لا فائدة من اجتماعها بهما؛ فأشارتْ إليهما أنْ انصرفا؛ فهرولتْ سلوان صاعدة إلى السطح.. كأنَّما تفر من التواجد مع حمدون.. لا جدته!!

أما أم سعدون.. فتريّثت.. واستأذنت سيدتَها في القعود إلى جوارها؛ فأذنتْ لها.. لكن أشاحت عنها بوجهها كأنها مشغولة عنها! فاقتربت منها.. وحدَّقتْ فيها وهي تهمس بكياسة وهدوء: "لماذا الحزن.. يا أم هشام؟!".

- لستُ حزينة يا امرأة.. إنما يشغلني أمر الضيف الذي أود إكرامه!
- سيدتي! أنا أعلم الناس بكِ؛ فصارحيني بما يُحزنكِ.. عسى أنْ أخفف عنكِ!

زفرتْ زفرةً حانقة.. وحملقت فيها كأنَّما تتأملها.. ثم همستْ: "تسألين.. كأنَّكِ لا تعلمين ما أنا فيه!". فأجابتها بنبرةٍ ودودة: "الحمد لله.. أنتِ في نعمةٍ من الله.. يا أم هشام!".

- الحمد لله على نعمه.. وإنْ تعدوا نعمة الله لا تحصوها!
- فلِمَ الحزن إذن.. يا سيدتي؟ وما الذي أدعي إني لا أعلمه؟!
- أحوال حمدون.. التي لا تعجبني!!
- ألا.. إنَّه في أسعد حال.. ولقد غدا من أكابر قرطبة.. ومن أهل السلطان!
- وهذا ما يحزنني.. يا امرأة!
- هل يُحزنكِ أنَّ حفيدكِ صار مِن أهل السلطان؟! (تساءلت باندهاش).
- أخشى عليه من فتنة هذا السلطان! أخشى عليه أنْ يظلم به الناسَ.. أو يظلمه الناسُ به! فالأُولى مضيعة لدينه.. والثانية مضيعة لدنياه!

- لماذا هذا التشاؤم؟! هلّا ظننتِ خيراً: أنْ يسير بالعدل والرحمة بين الناس؛ فينل الوجاهة والثناء بينهم في الدنيا.. وحسن الثواب في الآخرة!
- كيف أظن خيراً؟! وقد حملنا هذا السلطان على التخلي عن حياة الزهد التي آثرتُ أنْ أحياها؛ فخضعتُ لرغبته ولنصيحتكِ الخبيثة.. وبنيتُ هذه الدار!
- نصيحتي الخبيثة؟!! متى كنتِ تعملين بنصيحةٍ لا تقتنعين بها؟! إنَّما عملتِ بها لمَّا علمتِ أنَّ رأيي صواب.. ونصيحتي في محلها!
- ....
- بل أردتِ –يا سيدتي- أنْ تجددي الدار وتوسِّعيها لكيلا ينفر حمدون من تضيِّقكِ عليه؛ فيرغب عنكِ ويبتاع دار جديدة بهبة الخليفة التي وهبه إياها.
- وهل يعيبني أني أردتُ استبقاء ولدي معي في بيتي؟!
- حاش لله! بل عين الصواب أنْ تبقيا معاً.
- وأصارحكِ -يا أم سعدون- أني أردتُ أيضاً تجديدَ الدار ترغيباً لسلوان.. فلربما أغراها ذلك بالتنازل عن شرطها!
- وهذه الفتاة.. لا أفهمها هي الأخرى؛ إني أعلم أنها تهتم بحمدون كما يهتم بها؛ غير أني أجدها لا تنفك عن التنائي عنه والتكبُّر عليه كلما علا شأنه؛ ألا يكفيها أنَّه اختارها هي من دون بنات قرطبة.. أم ينبغي أنْ يركع ذليلاً تحت قدميها؟!
- أما أنا فأتفهَّم مبعث سلوكها هذا؛ فإني خبرتُها كأنَّها كتابٌ أقرأه.. مع أنِّي لم أعاشرها إلا بضعة شهور!!
- إذاً خبِّريني.. ماذا تريد من حمدون؟!! (تساءلت أم سعدون بشيءٍ من الاستهجان).
- إنها.. تحبه يا أم سعدون.. تحبه بشدة؛ ولذلك فهي تنأى عنه.. كما تقولين!
- كيف يا سيدتي؟! إنَّ مَن أحب إنسان سعى لأنْ يزداد منه قرباً.. لا ضد ذلك!!
- أقول: إنها تحبه.. إلى حد جعلها تخشى من هذا الحب على كبريائها؛ فآثرتْ أنْ تُكلِّف حمدونَ ثمناً باهظاً لإثبات حبه لها.. فاشترطت عليه شرطها الصعب!
- وهل توافقيها على هذا.. يا سيدتي؟!

- الحق أني في حيرةٍ من أمري! وأنتِ باعث حيرتي.. يا امرأة!
- أنا!! كيف ذاك؟!!
- أنتِ مَن نبّهتني لتزويجهما؛ فكان ما كان!
- ألا ترين أنَّ سلوان لائقةٌ بسيدي حمدون.. يا أم هشام؟!
- بل أرى أنَّ حمدون غير كفء لسلوان!
- إنَّكِ تظلمين ولدكِ.. يا أم هشام؛ أ بعد ما وصل إليه من علو شأن.. تقولين إنَّه غير كُفء لبنت سبيل آويتها في بيتكِ.. ولسنا نعلم لها أصل ولا أهل؟!
- أُصمتي.. يا امرأة! إنها فتاةٌ حسيبة نسيبة.. لا شك عندي في هذا!
- ....
- لكن.. هل سمعتي قولتكِ؟! إنني على يقين أنها تفكر مثلكِ؛ ولهذا أرادت ألا تتزوجه إلا بعد أنْ نعلم كلنا أنها حسيبةٌ نسيبة.. ولها أهل وعشيرة ذوي جاه ومروءة.
- وأرادت أيضاً ألا يعلم أهلها –هؤلاء- بأمرها إلا بعد أنْ تستكمل دروسها معكِ في تعلم القرآن ورسم المصحف؛ وهذا أمر يستغرق سنين عديدة.. فكيف ذاك؟!!
- وهذا سر حيرتي في أمرها يا أم سعدون.. وإني أحتار في أمرهما حيرةً أعجزت عقلي عن التفكير.. وشلَّت قدرتي على التصرف؛ فلستُ أدري ماذا أفعل معهما!!
- أحسب أننا سنظل هكذا في حيرتنا حتى يسأم سيدي حمدون الانتظار؛ فيأتيكِ ذات يوم ويقول: زوجيني -يا جدتي- فلانةَ.. لامرأة أخرى غير سلوان!
- لا تُقلقيني يا امرأة بتشاؤمكِ.. سيأتي الفرج قريباً.. إن شاء الله! دعكِ من هذا الحديث الآن، وذرينا نرتب لاستقبال الضيف المرتقب!
- ماذا تأمرين؟؟
- سنجتهد قدر استطاعتنا كما قالت الفتاة؛ فأرسلي سعدون إلى حسان الخشاب ليخبره أني أريده.. دون إبطاء!

****

_المشهد السابع-

مرت ثلاثة أيام وصلتهن أمُ هشام بلياليهن.. وواصلت فيهن العمل الدؤوب لاستكمال تأثيث الدار –قدر استطاعتها- والاستعداد لاستقبال الضيف الكريم. وها هو ذا مساء الجمعة المرتقبة قد حلَّ، وأوشك الضيف على القدوم. بُعِث سعدونُ إلى أول الدرب ليلتمس خبر الزائر القادم؛ فارتد –بعد حين- مهرولاً ليهتف: "إنهم قادمون.. رأيتُ حمدون وديجور معهم!". "أين هم؟". "أوشكوا على الانعطاف من طريق النهر إلى دربنا!". "ابق في انتظارهم أمام الدار.. وأسرِع بإدخال الركائب إلى الحظيرة قبل أن يلحظها أحد الجيران!". "أمركِ يا سيدتي!".

خرج الفتى ليقف منتظراً أمام باب الدار؛ في حين ظلَّ ثلاثتُهنَّ ينتظرنَّ وسط فناء البئر. وقفت سلوانُ إلى جوار جدة حبيبها؛ بيد أنَّ عقلها لا يزال غارقاً في بحر الحيرة.. تتقاذفها أمواجه المتلاطمة حتى استكانت لها توجهها أنى تشاء؛ ومع هذا.. فليس ثمة برٌ هادئ ولا شاطئ آمن ترسو عليه: (ماذا لو أُعجِب حمدون بإحدى جواري القصر الجميلات –وهن كُثُر- فاستوهبها الخليفةَ؛ فوهبه إياها.. وجاء بها إلى هنا لتكون أم ولده؟؟ لن يتحمل فؤادي أنْ أشاهد هذا بعيني!)، (أو.. ماذا سأفعل لو صرف قلبه عني.. وغدا إلى أحد الوزراء أو الوجهاء ليطلب الزواج من إحدى بناتهم؟! كيف سأتحمل فقدي لحبيبي وانصراف قلبه عني؟! كيف أتدبر أمري؟!!). بينما هي -كذلك- شاردةٌ في أفكارها المحبطة؛ إذ يُباغتها ولوج حمدون إليهنَّ.. وفي صحبته أربع نساء! (هل خشيتُ أنْ يستوهب الخليفةَ إحدى جواري القصر الجميلات؛ فوهبه أربعةً منهنَّ؟!!).

انبعثت ترنو إليهنَّ تتأملهنَّ بعيونٍ قلقة وقلبٍ واجف؛ فألفتهنَّ يرتدين ذات الزي الخارجي: فكل واحدة منهن تتدثَّر ببرنس[1] قِرْمزي اللون مُتْقَن الحياكة والتنميق.. مصنوع من الديباج الفاخر، وقد أخفيت ملامح وجهها خلف برقع مستور من الحرير

[1].. نوع من الثياب الخارجية الأندلسية يشبه المعطف المفتوح وينتهي من أعلى بطاقية تغطي الرأس.

المطرز بخيوط الذهب؛ فلا تكاد تُميز إحداهن عن الأخرى.

توقَّف ثلاثٌ منهنَّ.. في حين تقدم حمدونُ والجاريةُ الرابعة خطوتين.. ثم أشار إليها بتعظيم هاتفاً: "جدتي! يُشرِّفني أنْ أقدم لكِ الأمير المرواني المؤيد بالله هشام بن الحكم!". خلع البرنس عن رأسه ونزع البرقع عن وجهه؛ فإذا بهن يجدنَّ التي ظننَّها جاريةً رابعة.. هي المؤيد هشام متخفي في زي الجواري. تطلعنَّ إليه –أم هشام وأم سعدون وسلوان- فرأينَّه: رجلاً كهلاً، حسن الجسم، متوسط الطول، أبيض.. أشهل.. أعين، لحيته إلى الحمرة. أومأ إليهنَّ يُحيهنَّ بلطفٍ ووقار؛ فبادلنَّه التحية بتعظيمٍ وتوقير.. رغم الزيغ الذي في عيونهنَّ من أثر المفاجأة.

ثم أوعز حمدونُ إلى إحدى الجواري الثلاث فتقدمت خطوة وهو يقول: "وهذه هي الكهرمانة (شعب).. وصيفة سيدنا المؤيد.. وأخص الناس به!". أزاحت برقعها فأسفرت عن وجهٍ صبوح منير كفلك الصبح، ولوَّحت إليهنَّ تحيهنَّ.. فابتسمنَّ لها بترحاب وطالعنَّها بنظراتٍ يشوبها حب الاستطلاع. ثم أشار إلى الجاريتين الأخريين وقال: "أما هاتان.. فهما: سُعدى.. ونجوى!".

ثم تقدم ليقف بجوار جدته، قبَّل يدها وهتف: "أقدم لكَ يا سيدي.. جدتي: أم هشام.. فاطمة بنت أحمد الأصغر بن الأمير عبد الله المرواني!". انفرجت أسارير المؤيد عن ابتسامةٍ وضَّاءة.. وهتف بملاطفة: "مرحباً بكِ يا عمة أبي! كم وددتُ لقائكِ.. ولقاء أمثالكِ من أولي قرابتي!".

– لكل لقاء أوانه.. بقدر الله ومشيئته.. يا سيدي! (هتف حمدون بنبرةٍ مرحة).
– هل تعرف عني من قبلُ.. أيها المؤيد؟! (تساءلتْ أم هشام مغتبطة بتبسطه معها).
– عفواً يا سيدتي، قد كنتُ طوال السنين السابقة في معزلٍ عن أقاربي.. وعن رعيتي! لكن.. حالما أُتيح لي أنْ تُأنس وحشتي بحمدون.. حدَّثني عنكِ كثيراً؛ فاشتقتُ لرؤية عمتي التي أحببتُها قبل أنْ أراها لحديث حفيدها الطيب عنها!
– وَصَلتك رحم.. يا ولدي.. وعفا الله عمن حجزكَ عنا كل هذه السنين!

- أ لن تُكمل تعارفنا.. يا حمدون؟! (هتف المؤيد مشيراً إلى سلوان وأم سعدون).
- بل.. أدع استكماله للجدة!
- هذه أم سعدون.. تابعتي ورفيقة دربي في سنين عمري الطويلة! (قالت وهي تربت على كتف أم سعدون)، ثم التفتت عن يمينها حيث تقف سلوان إلى جوارها؛ فاحتضنتها وقبَّلت رأسها وهي تهتف باسمة: "وهذه سلوان.. حبيبتي وابنتي التي لم تلدها بطني.. وستكون –إنْ شاء الله- خير من ترسم المصحف بقرطبة!".
- مرحباً يا أنسة سلوان! (قالها موماً برأسه تحيةً لها.. وبعينه نظرةٌ كأنَّما تهمس: وأعلم عنكِ شيئاً آخر.. أو هكذا ظنت سلوان)، ثم التفتَ إلى أم سعدون قائلاً وابتسامته الهادئة تنير محياه: "مرحباً يا أم سعدون! وأين سعدون؟!".
- هو الفتى الذي استقبلنا أمام الدار.. يا سيدي. (هتف حمدون)
- أريد أنْ أتعرف به.. وأُصافحه!
- هذا شرفٌ عظيمٌ لنا.. يا مولانا! (هتفت أم سعدون مأخوذةً بتواضعه وتبسطه)
- إنَّه يُدخِل الركائبَ في الحظيرة خلف الدار.. ثم سيأتي!
- ها أنا ذا!! (صاح سعدون من ورائهم).

التفتوا إليه فألفوه يقف خَلْفهم، وإلى جواره بضعة صناديق –ليست بالكبيرة- بها أغراض الضيف ومتاعه الخاص، رمقته الوصيفةُ (شعب) بتحفُّظ مرتابةً في سلامة عقله؛ في حين اتجه إليه المؤيدُ بتؤدة.. قائلاً: "مرحباً بك!". ثم مدَّ إليه يده ليصافحه، أقبل عليه الفتى بحماسةٍ وإكبار. وبعد تردد دحضته سريعاً نظراتُ المؤيد المتسامحة المشجعة.. أمسك بيد الخليفة ولثمها بتعظيمٍ ومحبة، ثم أرسلها خشية أنْ يضايقه.

- ألا نجلس؟! أم سنظل مُنتصبين بقية الليلة! (تساءل الخليفةُ السابق ممازحاً).
- بل.. تجلس على الرحب والسعة! (هتفتْ أم هشام وهي تشير إلى القاعة الغربية) ثم أردفت: "أدخل الخليفةَ يا حمدون إلى قاعة الاستقبال ريثما نهيئ له مخدعه!".

انحنى حمدون للأمام قليلاً وهو يتقدم ليفتح باب القاعة أمام المؤيد مُرحباً به؛ في حين التفت المؤيدُ إلى الجدة ورمقها بنظرة عتابٍ لطيفة.. هامساً بنبرة ودودة تمتزج بشيء من الحسرة: "لم أعد الخليفة.. يا عمتي! الأفضل ناديني: الأمير المؤيد، والأحب إليَّ أنْ تقولي: يا ولدي.. كما ناديتني منذ لحظات!".

****

- المشهد الثامن-

على إحدى الزرابي المبثوثة حول حصيرة كبيرة -تتوسَّط القاعة- مبسوطة فوق أرضيتها المكسوة بالرخام الأبيض جلس المؤيدُ مُتكئً على نمرقة صغيرة قرَّبها إليه حمدون، مضى يجول بناظريه في القاعة متأملاً معالمها؛ فرآها رائقة الجمال.. على بساطتها وتواضع أثاثها.. تَنُمُّ رقتها ونظافتها عن ذوق راق واهتمام بالغ، تطلَّع إلى السقف المُقبَّب الذي يعلو رأسه فأعجبه حسن صنعته.. رغم خُلُوّه من الزخارف التي تُزين أشباهه بقصور الخلافة، التفت إلى أحد الجدران حيث أبصر كوةً واسعةً تحتوي على عددٍ من الرفوف التي صُفَّتْ فوقها الكُتب العديدة بطريقة رائقة، أما أعلى تلك الكوَّة فرأى الحائط مكسُوّ بالزجاج الزليجي[1] ذي الألوان الجذابة والخطوط الهندسية الرائعة، وفي أحد الأركان شاهد مجمرةً نحاسية عظيمة.. وألفى أم هشام تتجه صَوْبها لتشعل فيها العود؛ فما عتَّم أنْ داعبت أنفه رائحةُ العود الزكية التي أضفت على المكان سحراً وبهاءً.. أسر لبه رغم بساطته وتواضعه مقارنةً بما في قصور الخلافة من أبهة وفخامة.

أما الذي أعجبه وأدخل السرور على قلبه حقاً.. فهو ذاك الشعور الجديد بالحرية الذي خامر عقله وغمر قلبه! نعم.. فهذه هي المرة الأولى في حياته التي يشعر فيها بحريته: فها هو ذا -أخيراً- يخرج من سجنه المسمى: (قصر الخلافة).. ويأتي لزيارة

---

[1].. هي قطع صغيرة من الزجاج المفضض والملون وهي ذات أشكال هندسية مختلفة يُضم بعضها إلى بعض لتكوِّن رسومات وأشكال ذات رونق وجمال.. وهي شبيهة الرخام الملون المسمى بالفسيفساء.

إحدى دور قرطبة البسيطة ويخالط أهلها بلا تكلُّف.. وبلا رقابة: (آه.. آه.. لو تعلمون يا آل حمدون كم أنا سعيد بجلوسي بينكم.. على الأرض كما تجلسون.. وكما يجلس البسطاء في قرطبة.. والأندلس!)، (آه.. لو تعلمون أنَّ سعادتي بهذه الجِلسة أشدّ منها بسرير المُلك.. وعرش الخلافة!).

استفاق من خواطره الشاردة على صوت جاريته (شعب) تقول: "مولاي! إإذن لي أنْ أنصرف مع أم سعدون لمعاينة مخدعكم وإعداده لكم!". فلوَّح بيده يأذن لها.. وبصره ما زال يجول في المكان بابتهاجٍ ونشوة؛ لكن.. قاطعتها أم هشام هاتفة: "بل ابقي لتشربي معنا شراب فاطمة المروانية أولاً.. طبعاً إذا سمح سيدنا المؤيد!". أومأ برأسه موافقاً لرغبتها؛ فأشارت إلى أم سعدون هاتفة: "إإتنا بتحية الضيف!". نهضتْ أم سعدون بخفة لتتَّجه إلى غرفة الطهي، وأرادتْ الوصيفة شعبُ أنْ تذهب معها لتُشرف بنفسها على إعداد شراب الخليفة وطعامه كما هي عادتها؛ لكنَّه ألمح إليها ألا تفعل وهتف ملاطفاً: "نحن ضيوف عمتي أم هشام؛ وحقاً على الضيف أن يأكل ويشرب على مذهب مضيفه!". ابتسمت أم هشام ارتياحاً.. في حين نهضت أمُ سعدون لتحضر الشراب للأضياف، فسألته أمُ هشام بمداعبة:

- بماذا حدَّثكَ عني هذا الفتى (تشير إلى حمدون).. أيها المؤيد؟!
- بكل خير.. والحمد لله؛ فلقد علمتُ منه أنكِ بحق: أم مساكين قرطبة!
- استغفر الله.. يا ولدي! (هتفت بتواضع وانكسار حياءً لتلميحه بكرمها وجودها).
- لكن.. أقول لكِ يا عمتي أنَّ أشدّ ما سرني هو أني علمتُ أنكِ سميتِ ولدكِ (هشام) -رحمه الله- باسمي!
- أجل.. هذا صحيح! فلقد ولدتُه بعد أن وُلدتَ ببضعة أيام، ولمَّا كانت قرطبة كلها تحتفل فرحاً بمولدك.. أي مولد هشام بن الخليفة، وكنتُ أنا وزوجي –رحمه الله- مثلهم مسرورين؛ فأردنا أن نسمي ولدنا كاسم ابن الخليفة.. فرحاً وتيمُّناً به!
- فلي الشرف –إذاً- أن تعتبريني مثل ولدكِ.. وتناديني: بولدي!
- بل.. إنَّه تكريمٌ منك لي.. يا ولدي!

قطع تحاورهما دخول أم سعدون ومعها الجاريتان –سُعدى ونجوى- يحملنَّ تحية الضيف؛ فوقفت أم هشام لتقدم الشراب للخليفة بيدها.

اجتف المؤيدُ قدحَ شرابه -الذي كان يرتشفه على مهل مُتلذِّذاً به- هامساً: "الحمد لله الذي سقانا هذا من غير حول منا ولا قوة!". هرعت شعبُ.. فالتقطت القدح من يده وناولته إحدى الجاريتين.. أثناء التفاته إلى أم هشام -التي كانت تراقب انطباعه عن شرابها باهتمام- ليُثني عليها هاتفاً: "سلمتْ يداكِ يا عمتي.. لم أذق في قصور الخلافة شراباً ألذ من شرابكِ هذا!"، "بُوركتَ يا ولدي! هذا إطراءٌ مبالغٌ فيه!"، "بل هو الحق! أليس كذلكِ يا شعب؟؟"؛ فهتفت شعبُ بحماسٍ ظاهر: "الحق ما قال مولانا!". ثم أردفت بنبرة استئذان.. وهي تنهض من مجلسها: "سأذهب لتهيئة مخدعكم يا مولاي!"؛ فلوَّح بيده آذناً لها، قامت معها أم سعدون والجاريتان. وهمَّت سلوان أنْ تقوم معهنَّ بيد أنَّ أم هشام أمسكت يدها وضغطت عليها برفقٍ.. كأنَّما تقول لا تذهبي؛ فقعدت طائعةً وقد أحست أنَّ الجدة أرادت أن تُعلِم الضيف أنها ليست من الخدم.. بل هي من أرباب الدار.. مثلها ومثل حمدون؛ فارتاح قلبها لهذا الإحساس.

بمودةٍ.. رنا الخليفةُ (السابق) إلى الجالسين حوله –حمدون وجدته وسلوان-، ثم أشار إلى سعدون –الذي مازال قابعاً قَيْد خطوات.. بجوار صناديق المتاع- وهتف قائلاً: "آتني بهذين الصندوقين.. أيها الفتى الطيب!" (مشيراً إلى صندوقين فاخرين من صناديق المتاع). فهبَّ الفتى حاملهما إليه.. ووضعهما أمامه بتأدب.

أمسك المؤيدُ أكبرَ الصندوقين بكلتا يديه وتأمَّله بإجلال، ثم لثمه بتقديس، ثم قرَّبه إلى أم هشام هامساً: "هذه هي هديتكِ يا عمتي!". ثم أمسك الصندوق الآخر وفعل به مثل سابقه، ودفعه إلى سلوان قائلاً: "وهذه هديتكِ يا سلوان!". ثم أردف مُتمِّماً: "لم أجد عندي أغلى من هذين لأهديه لكما!". تطلَّعتا إليه بامتنان وجأرتْ أم هشام:

– جودكَ معهود أيها الخليفة.. فلِمَ أجهدتَ نفسكَ؟!

– أنتما خير من أُهديهما هذه النفائس! هلا فتحتي الصندوق.. لتعلمي ما فيه؟

- أياً كان ما بداخله.. فهو هدية كريمة من الخليفة الكريم!
- أنا أُصرُّ أنْ تفتحا الصندوقين.. أمامي!

لم تجدا بُدَّ من فتح الصندوقين اِستجابةً لإلحاحه، بدأت أم هشام تفتح صندوقها أولاً؛ فوجدته مُبطَن من الداخل بقماشٍ غليظ من القطيفة السوداء ويحتوي على شيء هش ملفوف بعناية في ثوب من الديباج الباهظ. همَّت أنْ ترفع اللفافة.. فهبَّ المؤيد صائحاً باهتمام: "برفق يا عمتي.. برفق! فهو رقيق جداً.. لا يتحمَّل!". تناولت اللفافة بلطف وحرص شديدين سُرّ لهما، ثم وضعتها أمامها على الأرض برفق. بدأت تفتحها بتؤدة ورفق –حرصاً على المجهول بداخلها- فيما عيونهم تحملق إليه تربُّصاً وفضولاً، انفتحت اللفافة.. وانجلى ما بداخلها: إنَّها قطعةٌ بالية من الخشب.. امتعضت أمُ هشام لرؤيتها، وتبدلت نظراتهم إحباطاً واندهاشاً إلا المؤيد.. فقد برقت عيناه لرؤية ذاك الشيء ولمعت الدموع فيهما.. وبصوتٍ عميق ونبرة إجلال.. هتف: "ذالكم جزءٌ صغير من أحد ألواح فُلك الرسول نوح عليه السلام!"

- ....!!!
- لقد جهدتُ كثيراً إلى أنْ عثرتُ عليه.. وأنفقتُ مالاً باهظاً للحصول عليه هو واثنين آخرين احتفظتُ بهما في خزانتي الخاصة.. وآثرتُكِ بهذا على غيركِ يا عمتي! (جأر بها وقد ازدادت نبرة صوته حماساً وافتخاراً)، على أنَّه لمَّا رآهم صامتين اندهاشاً.. استأنف هاتفاً بنبرة أهدأ: "وأنتِ يا سلوان.. ألا تفتحي صندوقكِ؟!".

شرعت سلوانُ تفتح صندوقها بحرصٍ ورفق مثلما فعلتْ الجدة.. لكن بنفسٍ زاهدة؛ فوجدته –كالآخر- مبطن بقطيفةٍ غليظة فاخرة ويحتوي على لفافةٍ ثمينة من الديباج.. بيد أنها أصغر حجماً من سابقتها. بشيءٍ من التلطُّف.. وكثيرٍ من الفضول والريبة حملتْ اللفافة ووضعتها على الأرض ثم مضت تفتحها بتأنٍ؛ فوجدت بداخلها: (شيئاً رميماً كأنَّه قرن ثور أو كبش!!)، كبَّر المؤيد إجلالاً لرؤية ذلك الشيء حالما ازدادت العيون المحملقة اندهاشاً وامتعاضاً، شرع يشرح لهم ماهية هذا الشيء

هاتفاً: "أما هذا فقد أعياني طلبه والبحث عنه –هو وأخيه- إعياءً أشد من ألواح فُلك نوح –عليه السلام-؛ فما صادفتُهما إلا عند رجلٍ نصراني.. أبى أنْ يتركهما لي حتى ضاعفتُ له الثمن أضعافاً كثيرة"، تساءلت العيون الحائرة: "ما هذا الشيء.. يا سيدنا؟!!!".

- يقول ذاكم النصراني: أنَّ هذا وأخيه هما قرنا كبش إسحاق –عليه السلام- الذي فداه الربُ به بعد أنْ امتثل –هو وأبوه إبراهيم عليهما السلام- لأمر الذبح؛ فكافأهما الربُ بأنْ عفا عن ذبح إسحاق.. وأبدله هذا الكبش ليذبحه عوضاً عنه!
- وهل تصدق هذا الكلام.. يا سيدنا؟!!
- بالطبع.. لا! إنّما الذبيح هو إسماعيل –عليه السلام- وليس أخاه إسحاق؛ على أني أمرتُ وكيلي في الشراء أنْ يجاريه في قوله كي يرضى أنْ يبيعه لنا!
- أقصد: هل تصدق أنَّ هذا الشيء هو قرن كبش الذبيح؟! أو أنَّ ذاك الشيء هو لوح من سفينة نوح؟؟! (تساءلت أم هشام باستهجان)
- بالتأكيد يا عمتي! فإنَّ لي وكلاءٌ خبراء.. أبعثهم لشراء هذه الأشياء النادرة النفيسة.. فيثابرون على البحث والتمحيص.. وينفقون الأموال الباهظة!
- ولماذا تُجشم نفسك ورجالك كل هذا العناء يا ولدي؟!! (تساءلت باستنكار).
- حرصاً على اكتساب البركات يا عمتي! (هتف بحماس وحسم كأنَّما يُسكتها) ثم أردف متسائلاً: "ألا تُعجبكما الهدايا؟!!".

****

-المشهد التاسع-

بعد أنْ تعرَّفتْ -في عجالة- على معالم الدار.. دلفت الوصيفةُ (شعب) إلى الحجرة التي أُعدَّت لتكون مخدع المؤيد.. وهي إحدى الغرفتين الجديدتين في الجهة الشرقية لفناء البئر. دلفت تتقدمها أمُ سعدون.. وتتبعها الجاريتان، جالت بأبصارها في الغرفة.. وتأمَّلت كل

ركن فيها بإمعانٍ واكتراث. كانت الغرفة أضيق بكثير من مثيلاتها في قصر الخلافة.. وأثاثها حقير مقارنةً بشبيهه في مخدع الخليفة بالقصر إنْ صح أنَّ بها أثاث؛ فإنَّما هو فراشٌ لطيف مغطى بلحاف من القطن.. وفي الركن المواجه للفراش بُسطت سجادة صلاة كبيرة تغطي الأرضية الخشبية.. وإلى جوار الباب مشكاة صغيرة حُفِظ فيها قنديلٌ ضئيل. بغير عين الرضا تطلَّعت شعبُ مرة ثانية للمكان.. وكأنّما تتساءل في دَخيلتها مستنكرةً: (هل سينام الخليفة في هذا المكان الحقير؟!! حجرة عارية من التحف، مجردة من الأثاث، جدرانها الصماء خالية من الزخارف والنقوش!!)؛ بيد أنها آثرت أنْ تُخفي شعورها وتكتم رأيها في صدرها تأدُّباً مع أهل الدار وتلبيةً لرغبة الخليفة في المبيت عندهم؛ فأعادت النظر كَرَّةً أخرى كأنما تُفتِّش عن شيء جيد قد يعجبها؛ فصادفت ضالتها في نظافة المكان وحسن ترتيبه؛ فهتفت بمجاملة ظنتها أمُ سعدون تكبُّراً وسخرية: "ما شاء الله، إنَّكم تهتمون بنظافة داركم اهتماماً واضح!!"

- إنَّ الله جميلٌ يحب الجمال؛ هكذا.. تقول سيدتي أم هشام دائماً.
- حقاً.. فالغرفة جميلة.. ترتاح لها النفس رغم تواضعها!
- نعلم أنَّ بيتنا متواضع الأثاث مقارنةً بقصر الخليفة.. ولا يليق باستقباله؛ لكن ستجدون –إن شاء الله- من حسن استقبال سيدتي وكرمها ما يسركم!
- عفواً يا أم سعدون! لم أقصد التحقير من شأن بيتكم! إنما قصدتُ أن أقول: إنكم تهتمون بداركم اهتماماً محموداً، على أني لا أرى فيه نساءً غيركِ أنتِ وسلوان.. فكيف تحسنون تنظيفه والاهتمام به.. وهو كبير عليكما؟!
- نستعين بالله! وإني أشهد لسيدتي أنها لو أرادت لكان عندها من الجواري والوصيفات العدد الوفير؛ لكنها ما تنفك تشتري إحداهن.. حتى تعتقها، ولربما زوَّجتها وأنفقت عليها وعلى زواجها المال الكثير! (هتفت بنبرةٍ ذات معنى كأنها تقول: تواضعي فما أنتِ إلا جاريةٌ مثل اللاتي تعتقهن أم هشام!!).

تبادلت شعبُ النظرات مع الجاريتين عجباً من فِعل أم هشام.. أو ربما تأفُّفاً من غمز أم سعدون عليها والتلميح بكونها مجرد جارية (مِلك يمين) للخليفة! ثم أوعزت إليهما؛

فانطلقتا.. ثم عادتا ببعض صناديق المتاع، ووقفتا تهيّئان المخدع للخليفة مع وصيفته.. في حين تراقبهنَّ أم سعدون بأنفة المرأة الأندلسية العزيزة الحرة إلى أنْ فرغنَّ فتحولنَّ إلى مخدع الوصيفة في الغرفة المجاورة فهيأنَّها، ثم صعدنَّ جميعاً الدرجَ إلى السطح حيث ستبيت الجاريتان في العليتين ليتأكدنَّ من ملاءمتهما للمبيت فيهما.

*****

ما برحت تجادل المؤيدَ في أمر التبرُّك بمثل هذه الأشياء وتأكد له أنَّ اِتخاذ التمائم منهي عنه شرعاً لقول النبي محمد –ﷺ-: (مَن تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له)؛ وحمدونُ يلامحها بعينه ويوحي إليها خلسة أنْ تُمسك لسانها توقيراً للخليفة، بيد أنها تمادت في جدالها حتى اضطر المؤيدُ أنْ يقول لها أنَّه يؤمن بأنَّ هذه الأشياء لا تنفع ولا تضر بذاتها.. إنما النافع والضار هو الله! لكنَّه يتخذها من باب الاحتفاظ بالآثار المأثورة عن الصالحين. على أنها أصرت على رأيها بأنَّ الأولى بالخليفة هو سد الذرائع التي تفضي إلى الشرك، وحفظ المال وإنفاقه فيما ينفع المسلمين. هنالك.. جأر حمدون حاسماً ليُسكِتها: "لقد أكثرنا على الأمير.. يا جدتي!". رشقته بنظرةٍ شزراء.. لكنَّها آثرت ألا تُعكر صفو ضيفها بكثرة جدالها؛ فسكتت.

أثناء سكوتهم الحَذِر.. دلفت شعبُ –ومن ورائها أم سعدون والجاريتان- فقالت بتوقير: "مخدعكم هُيّأ للنوم وقتما تشاءون.. يا مولاي!". أومأ لهنَّ المؤيدُ بامتنان.. في حين غضَّ بصره عن أم هشام حياءً من جدالها معه.

التفت سعدونُ إلى أمه واخترق غلالة الصمت التي غشيت المكان صائحاً بعفوية كالأطفال: "انظري يا أمي! لقد أهداهما الخليفةُ هدايا نفيسة.. ولم يعطني مثلهما!"؛ فازداد ارتباك الخليفة.. وعلتْ وجهه حمرةُ الخجل، نهرته أمه صائحة: "مَهٍ.. يا أحمق!". غض الفتى بصره ولاذ بالسكوت، بيد أنَّ المؤيد رنا إليه بشفقةٍ وأبوة (وتذكر إخبار حمدون له –ذات يوم- بأنَّ سعدون هو (الفتى الممرور) الذي تكرَّم هو -إبَّان كان الخليفة-

بالعفو عن تطاوله على شنجول)، رَقَّ له وحَثَّه قلبه العطوف على السعي لتطييب خاطره؛ فاندفع قائلاً: "لا تحزن يا سعدون! خذ هذا؛ فهو هديةٌ نفيسة!"، وانتزع من بنصره الأيمن خاتماً فضي ذا فص نفيس.. ومدَّ يده به إليه. أحجم الفتى عن اِلتقاط الخاتم خجلاً من كرم الخليفة.. وخوفاً من نقمة أمه، غير أنَّ المؤيد هزَّ يده بالخاتم يُقرِّبه إليه بحركةٍ مشجعة.. وهتف مُلِحّاً: "امسك يا فتى! لا ترد هدية المؤيد! مُريه -يا عمتي- أنْ يأخذه!". رنت إليه أمُ هشام باختلاط –وقد أصابها الحَرَج من جرأة سعدون البلهاء-، وحاولت أنْ تتدارك الموقف بلباقة.. فهتفت بابتسامةٍ مُجَامِلة: "بارك الله لك في خاتمك أيها المؤيد، إنما الفتى يمزح!". "أما أنا فلستُ أمزح.. وأُصرُّ على إهدائه الخاتم! امسك يا سعدون؛ خذه ولا تبالي أحدا!". اِبتسم الفتى بطفوليةٍ.. ومدَّ يده ببطء والتقطه، وصاح وهو يضعه في أصبعه: "شكراً.. يا مولاي الخليفة!". ثم قام إلى أمه –غير مبالٍ بقول المؤيد: لم أعد الخليفة أيها الفتى- وقال لها متباهياً: "انظري.. انظري يا أمي! إنَّ في أصبع ابنكِ خاتم الخليفة!". فضحك المؤيد ملء شدقيه –فانقشعت سحابة الحَرَج والتشوُّش عنهم- ثم قال مُداعِباً: "إنَّ فصه من أكرم العقيق.. اِحرص عليه جيداً!". فابتسمت أمه ارتياحاً.. وظلَّتْ تدعو للخليفة الدعاء الكثير؛ حتى قال لها مُلاطِفاً: "رفقاً بي يا أم سعدون؛ لقد أخجلتني بدعائكِ!".

آنئذ وقفت شعبُ وخلعت قلادتها الذهبية المرصعة وأهدتها لأم سعدون هاتفة بمودة: "وهذه لكِ أيتها الأم الفاضلة!". رنت إليها بنظرة اعتذارٍ خجلى -كأنَّها تعتذر عن سوء ظنها والتعريض بها منذ قليل-؛ وتردَّدت في قبول الهدية، لكن وصيفة الخليفة ألحَّت عليها؛ فنظرت إلى أم هشام كأنَّما تستأذنها، ثم قبلت الهدية.. وهمَّت أنْ تقبِّل يد الوصيفة؛ فنزعت يدها وقبَّلت هي رأسها. ساعتئذ صاح المؤيدُ يداعب حمدون: "بقيتْ هدية حمدون!". فابتسم له بامتنان قائلاً: "هديتي هي رضاكم عني.. يا سيدي!"؛

"كلا! هديتك محفوظة.. إن شاء الله؛ لكني سأمنحك إياها حالما نعود إلى القصر، وستكون مفاجأةً.. لكم كافّة!"؛ فهتف حمدون: "حفظكم الله ورعاكم.. أيها المؤيد!"؛ حينما ابتسمت أمُ هشام كأنَّها تقول في خاطرها تهكماً: (لعله سيهديه عصا موسى!).

ثم جلسوا يتسامرون في مودة.. إلى أنْ فرَّقهم سلطانُ النوم.. فتَحوَّل كلٌّ إلى مخدعه.

****

-المشهد العاشر-

تنفَّس الصبحُ؛ وأصبحت دار أم هشام نشيطةً دؤوبةً كالمعتاد: فها هي ذي جالسةٌ مع سلوان في قاعة الدرس كدأبهما كل صباح.. لاستكمال دروس العلم في رسم المصحف وعلوم القرآن.

أما أم سعدون فلم تغادر –البارحة- لتبيت في بيتها الصغير بالزقاق القريب كعادتها اليومية؛ بل باتت هي وابنها.. فاضطجعت على الأريكة في الصحن القديم، ونام ولدها في الحظيرة الخارجية مع صويحباته (خراف أم هشام) اللاتي خرج بهنَّ مع تباشير الصباح ليرتعنَّ في المروج. أما أمه فقد صَحَت قبيل الفجر لتقمَّ صحن البيت في عجالة، ثم توجَّهت إلى غرفة الطهي –الكائنة في الجزء القديم من الدار- لتُعِدّ الإفطار الذي أوصتها به أمُ هشام.. ولا سيما خبز الخشكار الذي تساءل عنه الخليفةُ المؤيد البارحة.. ساعة صاحت هي تتهكَّم على نفسها قائلة: "شوفوا يا أهل قرطبة أم سعدون التي تأكل الخشكر.. أمست تلبس الجوهر!!" حين أهدتها وصيفتُه (شعب) قلادتَها؛ فأجابته أمُ هشام: "هو خبز نصنعه من دقيق الحنطة الخشن الذي لم ينخل!"؛ فهتف متحمساً: "أود أنْ أذوقه.. يا عمتي!"؛ فاستنكرت شعبُ قائلة: "إنَّه أقل شأناً من أنْ يأكله مولاي!"؛ لكنَّه أسكتها صائحاً بحزم: "أليس حلالاً؟! إذن لا مانع عندي من أنْ أطعمه!"؛ فهتفت أم هشام بنبرة ترحاب: "نصنعه لكَ غداً مع إفطارك.. إن شاء الله!".

أقبل إليها الجاريتان (سعدى ونجوى) تهرولان وتضحكان، حيَّتاها تحية الصباح ثم سألتا: "كيف نساعدكِ.. يا أم سعدون؟". رنت إليهما بامتنانٍ.. ثم كلَّفت كل منهما بمهمةٍ في إعداد الإفطار؛ فطفقتا يساعدانها وهما لا تزالان تتضاحكان! فأوجستْ منهما؛ وهتفتْ تسألهما: "خير؟؟! علام تضحكان.. إنْ شاء الله؟".

- ألم تشاهدي ما يفعله المؤيدُ.. يا أم سعدون؟!
- وهل استيقظ سيدنا الخليفة؟!
- أجل! إنَّ من دأبه أنْ يستيقظ مبكراً.. يُصلي الفجر.. ولا ينام!
- وماذا يفعل الآن؟
- .... (عاودهما الضحك بصورةٍ أشد قبل أنْ تجيبها سُعدى قائلة: "عليكِ أن تشاهديه بعينكِ!!". في حين أردفت نجوى بملء شدقيها:
- وشاهدي الوصيفة شعب وهي تكاد تنفجر غيظاً!!
- لقد أقلقتماني يا هاتان! ماذا يفعل الخليفة؟!
- حينما استيقظنا ونزلنا من السطح إلى فناء البئر ألفينا شعب تنتظرنا، ثم تأمرنا: املأ الصهريج من البئر! (أجابتها سُعدى وهي تستعيد بعض هدوئها ممسكة عن الضحك)، فقاطعتها أم سعدون قائلة بارتياب:
- إنَّ الصهريج ممتلئ!!!
- ربما أخذتْ منه ماءً فأنقصته! (أجابتها سُعدى)
- إنَّ الخليفة اعتاد أنْ يغتسل حالما يستيقظ كل صباح. (أضافت نجوى)
- فأخذنا ننزع سجل الماء من البئر ونفرغه في الدلاء ونسعى به إلى الصهريج. (استأنفت سُعدى كلامها)، فأضافت نجوى:
- فرآنا الخليفة.. فأعجبه ما نصنع... وأراد أن يفعل مثلنا!
- يريد أنْ يحمل الماء بنفسه؟!! يا ويحي!! (صاحت أم سعدون باستعظام)
- رجته شعبُ ألا يفعل؛ لكنَّه أصر.. وخلع جبته وقميصه، وحسر رأسه وشمَّر عن ساعديه.. ثم أمرنا بالانصراف! (هتفت سُعدى).
- حاول في البداية أنْ يفعل مثلنا؛ فلم يستطع! فجعلتْ تتوسَّل إليه ألا يُجهِد نفسه، وأنْ يدع هذا العمل لنا، غير أنَّه نهرها؛ فلبثت ساكنةً في امتعاض في حين راح السيد حمدون يعاونه! (صاحت نجوى وهي لا زالت تضحك)

- ألهذا تضحكي.. يا فتاة؟! أتهزآنِ من تواضع الخليفة.. ومن حرص وصيفته على راحته؟! (تساءلتْ مُستهجنة) ثم أردفت: "تأدبا.. فإنَّكما في دار فاطمة المروانية!!".
- وما ذنبنا نحن؟! السيدة فاطمة المروانية هي مَن فعلتْ بنا ذلك! (أجابتها نجوى بنبرة مزاحٍ ودلال)، فاستنكرتْ أم سعدون قولها وتساءلت باشمئزاز:
- كيف ذاكِ.. يا عدوة نفسها؟!
- أنتم مَن أسكنتمونا في المصاري فوق السطح.. وليس لها سلم إلا الذي يمر بجوار مخدع الخليفة؛ فلولا ذلك لما رأتنا شعب.. ولما حدث ما حدث!!
- أنتِ! ماذا تقولين يا رعناء؟! (صاحت أم سعدون باستياء).
- أُصمتي يا نجوى! (صاحت سعدى لتُهدِأ حدة المرأة الكَهْلة) ثم أردفت تسألها: "حقا! لماذا سلم المصاري يبعد عنها هكذا يا سيدتي؟".
- أردنا أنْ تطل شراجيبها على الدرب؛ فلم يمكن بناؤها في غير هذا المكان، ولم يمكن بناء سلمها إلا في مكانه ذاكِ! (أجابتها بتأفُّف)
- هل صحيح أنَّ السيدة فاطمة عمةُ الخليفة؟! (تساءلت نجوى بعد أنْ تمالكت نفسها وأمسكت عن الضحك.. وبنبرةٍ أقرب إلى الجدية كأنما تغيِّر مجرى الحديث تطيباً لخاطر المرأة)
- إنَّها في مقام عمة أبيه.. فأبوها هو الأمير أحمد الأصغر عم الخليفة العظيم عبد الرحمن الناصر.. جد سيدنا المؤيد!
- ما شاء الله! إنها أميرة مروانية أصيلة النسب! (صاحت سُعدى)
- لا شك في ذلك! (هتفت أم سعدون بإقرار)، فانطلقت نجوى تسألها باهتمام:
- أحقاً ما قُلتي البارحة.. أنَّها كلما تملك جارية.. ما تلبث أنْ تعتقها؟!
- نعم! وكثيراً ما فعلتْ، وكل قرطبة تعلم هذا!
- يا ليتني جاريتكِ.. يا ست فاطمة!! (جأرتْ نجوى بنبرة تمني)
- هل تفضلينَّ هذه الدار على قصر الخلافة؟ (تساءلت أم سعدون بتفاخر)
- إنَّه لأحب إليَّ أنْ أكون امرأةً حرة في كوخ ريفي مِن أنْ أكون أَمة في قصر عظيم!

- تنبَّهي لما تقولينَّ.. يا عدوة نفسها! (نهرتها سعدى)
- أُسكتا.. وانتهيا من عملكما كي لا نُؤخِر الإفطار عن الأسياد! (هتفت أم سعدون).

****

-المشهد الحادي عشر-

قُبيل الظهر.. جلس المؤيدُ (الخليفة السابق) باسترخاء على طنفسةٍ مُهدَّبة فوق حصباء الأرض وسط فناء البئر ليستمتع بشمس الربيع الدافئة، وإلى جواره.. تقف وصيفتُه (شعب) رهن إشارته لو أراد شيءً، وحمدونُ يجلس قُبالته بعد أنْ جاءه بكتابٍ من مكتبة جدته ليُطالعه، فيما هم جُلوسٌ.. جاءت إحدى الجاريتين تنادي: "سيدي حمدون! بالباب طارقٌ يريدك!"؛ فسألها: "مَن؟؟"؛ "لم يُخبرني!"؛ فاستأذن الخليفةَ السابق.. وتَوَجَّه ليَلقى الطارق.

فتح البابَ الذي واربته الجارية في وجه طارقه؛ فبزغتْ له ابتسامةُ (صاعد[1] بن عبد الوهاب) الماكرة.. تملء وجهه وهو يهتف: "مبارك عليكم الدار الجديدة.. يا حمدون!"

- وعليكم السلام ورحمة الله.. سيد صاعد!؟
- لقد جئتُ أُهنئكم؛ ألا تأذن لي بالدخول؟!

تردَّد حمدون قبل أنْ يُجيبه: "بالطبع.. مرحباً بك.. الدار دارك!". ثم اجتهد أنْ يُخفي انزعاجه وهو يُردف: "أمهلني لحظة.. أُهيئ لك المكان!"، ثم انكفأ مهرولاً إلى الداخل تاركاً إياه خلف الباب الخارجي. توجه مسرعاً إلى المؤيد والتمس منه بتأدُّب أنْ يختفي في مخدعه.. ريثما ينصرف الزائر -ولم ينس أنْ يغلق باب القاعة الغربية المُطِلّ على الفناء-، ثم اِرْتَدَّ إلى زائره ليُدخِله من بابها الثاني.

[1].. هو أحد أهم أعوان الثائر المرواني (الذي أصبح الخليفة المهدي) في ثورته على شنجول، وهو تاجر حرير من عامة أهل قرطبة.

اِتَّكأ صاعدُ على وسادة قريبة، ومكث يجول ببصره في أرجاء القاعة، ثم قال بمجاملة: "ما شاء الله.. لا قوة إلا بالله! مبارك عليكم الدار الجديدة.. يا حمدون!"؛ فأجابه: "أصلحك الله.. يا سيد صاعد.. وبارك في رزقك!". اقترب منه كأنَّما يريد أنْ يُسِره بحديث؛ فدنا حمدونُ مُنصتاً؛ فهمس بنبرة رجاء: "عَمْرَك اللهَ -يا حمدون- دعني أُقابله.. وأُسلم عليه!"، التفت إليه مستبهماً قوله، وتساءل بتوجُّس: "مَن تقصد.. يا سيدي؟!". حدجه بطرف عينه.. وغمغم بنبرةٍ غامضة: "إنَّك تعرف الذي أقصده!".

أطرق حمدون متفكِّراً كأنه لم يفهم مقصده حقاً؛ فاستأنف كلامه هامساً بإصرار: "أقصد الخليفةَ يا حمدون؛ أحب أن أُسلم عليه وأُقبِّل يده!"، آنئذ فهم حمدونُ أنَّه يعني المؤيدَ؛ فارتبك لافتضاح السر، وازداد ضيقه وتوجُّسه.. (لأنَّ صاعد بالأخص هو مَن علم بوجود المؤيد عنده!)، حاول أنْ يتمالك نفسه.. وتظاهر بعدم الفهم هاتفاً: "الخليفةُ المهدي في قصر الخلافة.. يا رجل، ولن يحجبك مثلي عنه؛ فتَوَجَّه إليه!". حملق إليه مُدقِّقاً في عينه، وأَسَرَّ بنبرة عميقة.. لكنها ودودة: "أرغب أنْ ألق الخليفةَ المؤيد –يا حمدون- وأعلم أنَّه عندك هنا؛ فلا تنكره مني!". اعتراه الاضطراب لوهلةٍ قصيرة.. لكنَّه تظاهر بالثبات وهو يجيب: "المؤيد لم يعد الخليفة يا رجل؛ إنَّما الخليفة الآن هو محمد المهدي؛ سيدنا وثائرنا الذي ثُرنا معه على ظلم شنجول وطغيانه!".

– حمدون! لا تراوغ يا رجل! فإنَّك تعلم عِظَم قدر المهدي عندي. (هتف بنبرة تَلطُّف واسترحام ليُنهي بها إنكار حمدون الذي راح يرشقه بنظرات توجُّسٍ صامتة) فاستطرد قائلاً بشيءٍ من التوسُّل: "لَعَمْرُك ما جئتُ أبغي شراً ولا تطفُّلاً، بل جئتُ لصديقي وابن أخي.. (حمدون).. راجياً ألا تحرمني فرصة لقاء الخليفة المؤيد الذي طالما اختفى عن أعين الناس؛ سألتُك بالله.. وبالمحبة التي بيننا: لا تردني خائباً!".
– ألهذا الحد تحب المؤيد وتُبجِّله؟! فلما ثُرتَ عليه.. إذاً؟!
– لم تكن الثورة ضده.. يا حمدون؛ بل.. لأجله! ولستُ أرغب في لقائه محبةً ولا تبجِّيلاً؛ إنما يُحركني حب الاستطلاع لرؤية ذلك الخليفة -ابن الخلفاء- الذي لبث

فينا أكثر من ثلاثين عام نهتف باسمه قائلين: (المؤيدُ خليفتُنا).. ومع هذا لا تجد أحداً من أهل قرطبة.. ولا من أهل الأندلس قد التقى به.. أو حتى رآه من قريب!

- .... ما برح حمدون يحدجه بعيون الارتياب والتوجُّس ملتزماً بالصمت.
- صدِّقني يا ابن أخي! ما ابتغي شراً، إنَّما هو الفضول.. والرغبة في التَمَيُز بين الناس باغتنام ما لا يقدروا على اغتنامه، إنه فضول التاجر.. ليس غيره!
- كيف علمتَ بوجوده في داري؟؟!
- وهل يخفى على الناس نبأُ خروج المؤيد من القصر؟!
- لقد خرج متخفياً.. ولم يعلم أحدٌ بخروجه.. حتى أهل القصر أنفسهم؛ فكيف عرفتَ؟ نبِّئني إنْ أردتَ أنْ أُصدق أنَّكَ لا تريد شراً!
- لن يُنجيني معك غير الصدق؛ قد قابلتُ غلامك سعدون صباحاً.. وعلمتُ منه!
- ذاكَ الأحمق! قد أكدتُ عليه أنْ يبقى الخبر سراً.. بأمرٍ من الخليفة المهدي ذاته!
- لا تظلم الفتى! إنَّما ارتبتُ في أمر الخاتم الذي يضعه في أصبعه، واستدرجتُه.. وتكهَّنتُ بالأمر.. دون أنْ يُخبرني صراحةً!
- إنَّه لمغفل! كيف نسي ما أوقعتَه فيه منذ أشهرٍ معدودات؟!
- هلا نسيتَ أنت!!؟ إنَّما كان ذلك لأجل ثورتنا! ولقد نجاه الله.. ونجحت الثورة، وأصبح محمدُ بن هشام خليفةً عظيماً يتلقَّب بالمهدي، وتبوَأتَ أنت مكانةً مرموقة في قصر الخلافة! وبقيتُ أنا وذاك الغلام البائس.. كما نحن!
- .... (حدَّق فيه باستنكار)
- هيا يا حمدون.. هيا! بالله عليك لا تحرمني لقاء الخليفة الذي كان المنصور أبو عامر حاجبه! (قالها بتوسُّلٍ وهو يربت على كتفه ويَلثِم رأسه)، فابتسم حمدونُ مستسلماً ثم غمغم قائلاً: "ابق هنا ريثما أستأذنه؛ فإنْ أذِن.. فلك ما تريد!".

نهض حمدون وغادر القاعة من بابها الشرقي الكبير المُطل على الفناء تاركاً إياه مفتوحاً، وصاعدُ يُشيِّعه بنظراتٍ يشوبها الأمل والترقُّب.

مرت عليه لحظاتُ الانتظار طويلة؛ فغدا يقطعها في مراقبة شعاع الشمس الوالج إليه من ذاك الباب.. والهباء المنثور خلاله، نكَّس رأسه مُتأمِّلاً آثاره الوامضة فوق رخام الأرضية الأبيض.. وذرات الهباء التي تتبدد عند ملامستها، احتجب شعاع الشمس لوهلة؛ فتنبَّه.. ورفع رأسه نحو الباب فإذا بحمدون.. ومن ورائه ظل شبحٍ جسيم لرجلٍ ذي هيبة.. هذا ما تخيَّله أول ما رآه! لم يشك في أنَّ هذا الشبح هو المؤيد، وثب منتصباً في تبجِّيل.. ومضى يتطلَّع بإكبار لذلك الشبح المُقبل صَوْبه! على استحياء استرق إليه النظر؛ فألفاه رجلاً وسيماً لم يفقد هيبة الخلفاء.. ولا وجاهتهم.

غضَّ طرفه إجلالاً للخليفة.. وانحنى له في توقير؛ في حين هتف حمدون مشيراً إليه: "السيد صاعد.. يلتمس التشرُّف بمصافحتكم.. يا مولانا المؤيد!"؛ فجأر صاعد بحماسة وتعظيم: "إنَّه لشرفٌ كبير تمنُّون به على خادمكم الطائع.. يا سيدنا الخليفة!"، أقبل المؤيدُ.. وربت على كتفه بحنو؛ فرفع رأسه إليه.. وأمسك يده ولثمها في إجلال؛ فنزعها بتواضع.. وبشَّ في وجهه، ثم قعد وأذن لهما بالجلوس، قعد صاعد يحُضّه حب الاستطلاع على إشباع النظر في الخليفة، وشجَّعته سماحته وتواضعه؛ فأخذ ينظر إليه كي يُمتِّع عينيه بجمال محياه وبهاء طلعته، في حين يُجيبه المؤيدُ بتواضع: "إنَّه لمن موجبات سعادتي أنْ يسعى رجلٌ مثلك للقائي.. يا سيد صاعد، لكن اعلم أنني لم أعد خليفتكم.. إنَّما أنا الآن رجلٌ بسيط من بني مروان!".

لم يُجبه صاعد.. بل ظل مُطرِقاً.. كأنَّ لم يسمعه؛ فقد أذهلته المفاجأةُ عن الكلام! {فثمة تشابه كبير بين هذا الخليفة.. وبين (حنوخ اليهودي) كاتب صديقه أبي سهل الجياني التاجر}؛ لم يصدِّق نفسه.. وظنَّ أنَّ عينه خدعته؛ فأعاد البصر كَرةً أخرى مُدقِّقاً في وجهه؛ فازداد يقيناً بتقارب الشبه في الشكل بينهما.. فأبطن في سريرته: (سبحان الله! كيف يُشبه هذا الرجل العظيم ذاك الرجل الحقير!). نبَّه حمدون لأنْ يُجيب المؤيدَ حين سأله: "لماذا تحرص كل هذا الحرص على لقائي؟!"، انتبه.. وأجاب –دون تزلُّف أو مجاملة-: "إذا قيل أنَّ نجماً أو كوكباً عزيز الظهور.. بزغ -فجأةً- في سماء قرطبة؛ فستجدني أول الساعين لرؤيته! فأنا تاجرٌ ذو فضولٍ شديد.. لكل شيءٍ غريب!".

استقبح المؤيدُ الإجابة وشعر فيها بشيءٍ من الإهانة؛ فامتعض.. وسأله مستنكراً: "رغم كل السنين التي كنتُ فيها الخليفة.. لم ترني أبداً؟!!". لاحظ صاعد امتعاض الخليفة.. لكنَّه لم يفطن لعِلَّته.. فاسترسل في إجاباته بصراحةٍ فّجة: "بل حدث وأنْ رأيتُك في الماضي! كان ذلك في زمن الملك المنصور.. حين خرج موكبكم العظيم من القصر ليجوب شوارع قرطبة ودروبها، وخرجتْ جموعٌ غفيرة من الناس لرؤية الموكب.. وقد كنتُ فيهم، وأذكر أنَّ الملك المنصور كان يسايرك راكباً.. وعبد الملك ولده يمشي راجلاً بجانبكما! لقد كان -حقاً- موكباً فخماً.. ويوماً حافلاً.. يا سيدي!!"، لاحظ التأثُّر والامتعاض في وجه الخليفة، بيد أنَّه استرسل بحماسةٍ: "لكن.. كان ذلك من مسافةٍ بعيدة! صحيحٌ.. أني رأيتُ حينها موكب الخليفة؛ لكني لم أره هو! أما الآن.. فأنا أراه عن قُرب.. وأُحدِّثه وجهاً لوجه، بل وصافحتُه وقبَّلتُ يده! هذه مكرمةٌ ستتوارثها عني ذُريتي جيلاً بعد جيل!".

تنبَّه لغمز حمدون له؛ فظنَّ أنَّه أساء الأدب بإطالة الحديث! أو أنَّه أساء الكلام في حضرة الخليفة.. دون تعمد؛ فآثر السلامة.. ونَكَّس رأسه لائذاً بالصمت. بيد أنَّ تطفُّله جَرَّأه على اختلاس النظرات إلى الخليفة ثانيةً؛ فتأكد عنده عِظَم الشبه بينه وبين ذاك اليهودي.. غير أنَّ الخليفة أنضر وجهاً وأعذب صوتاً. ما زال متحصِّناً بالسكوت تهيُّباً.. فهو لم يُجالس خليفةً من قبلُ! (حتى المهدي فإنَّه لم يُجالسه قط كخليفةٍ من الخلفاء!).

جاءت إحدى الجاريتين بتحية الضيف؛ فتناولها على استحياء.. ثم آثر الاستئذان في الانصراف فراراً من نظرات حمدون الغامزة التي أوهمتْه أنَّه أحزن الخليفةَ أو أساء الأدب في حضرته! قام معه حمدونُ مُودِعاً.. ولدى الباب الخارجي للدار أوصاه بكتمان الخبر.. هامساً: "احرص -يا سيد صاعد- ألا يعلم أحدٌ بخروج المؤيد من القصر؛ فإنَّ الخليفة قد شدَّد علينا في الكتمان.. لكيلا ينتهزها المرجفون ذريعة لترويج الشائعات والأراجيف، ويدَّعون أنَّ المهدي طرد المؤيدَ من قصره؛ فيُثيرون الناس ضدنا بغير حق!"، حدجه صاعد ببصره ثم سأل بنبرة ارتياب: "هل

سيرجع إلى القصر؟! أم...."؛ قاطعه حمدون بحميَّةٍ: "لا جرم سيعود يا رجل، وإنَّما أتى لزيارتنا بناءً على طلبه.. رغبةً منه في التعايش مع حياته الجديدة بعد تنازله عن الخلافة، وقد أجابه المهدي إلى طلبه جبراً لخاطره، والمقرر أنْ يقضي عندي ثلاث ليالٍ ثم يعود إلى القصر آمناً مطمئناً!"؛ تطلَّع صاعدُ إليه بريبة.. ثم وعده بألا يُنبأ أحدا.

بعد أنْ ودَّع ضيفَه الثقيل ذا الزيارة المتطفِّلة.. اِرتدَّ حمدونُ إلى الخليفة السابق؛ فرآه قابعاً في سكونٍ ووجوم.. فهتف معتذراً: "أعلم أنَّ سيدي المؤيد مستاءٌ من إفشاء ذاك الفتى الممرور للخبر؛ فإني أعتذر يا سيدي، وأعدكَ أني سأؤدبه.. وسأجزيه شر جزاء.. على فعلته!"، رنا إليه.. ثم قال بانكسار: "لا تُسئ إلى الفتى؛ فلستُ مستاءً منه!".

- فما لي أرى الوجوم والحزن على وجهكم الكريم؟! نضَّر الله وجهك!
- لقد ذكَّرني حديث هذا الرجل بالماضي الذي وددتُ لو أنساه! (غمغم بأسفٍ وحزن)، ثم استأنف حانقاً: "أولم تسمع ما قال؟! لقد علم هذا الرجل بخروجي؛ فسعى لرؤيتي؛ لأنَّها نادرةٌ لم تقع لغيره!! أراد أنْ يراني كما يريد أحدهم أنْ يشاهد شجرةً عتيقة.. أو نبتةً غريبة في جنة الرصافة!! أ لهذا الحد استحلتُ تحفةً من تحف قرطبة؟!! إنِّي لآسفٌ على نفسي.. يا حمدون!! يا ليتني كنتُ نسياً منسيا!".
- هوِّن عليك يا سيدي.. ولا تجعل هذا الحديث يُحزنك! إنَّ صاعد رجلٌ من الدهماء ولا يحسن الكلام بحضرة الخلفاء، وقد تكلم على سجيته.. ولم يقصد الإساءة!!
- إنَّ ما يحزنني أنَّه تكلم على سجيته؛ فهذا يعني أنَّ أمثاله يظنون بي مثل ظنه!
- سيدي! لا تُكلِّف نفسك ما لا تطيق! ولا تنشغل بالناس إلا بقدر ما ينشغلون بك!

زفر المؤيدُ بضيق صدر.. ثم هتف بيأس: "صدقتَ! عليَّ ألا أنشغل بهم! ويا ليتهم لا ينشغلون بي!". سكت هنيهة ثم أردف بنبرة تمني: "أ تدري يا حمدون فيم أرغب الحين؟ أرغب أنْ أخرج إلى شوارع قرطبة؛ فأسير فيها.. وأنظر في وجوه الناس.. وأكلِّمهم ويكلِّمونني.. كأني فرد منهم!". رنا إليه حمدون بنظراتٍ مُعاتِبة.. ثم همس بتلطُّف:

- تعلم -يا سيدي- أنَّه لا يجوز ذلك؛ فقد اشترط الخليفةُ المهدي كتمان خبر خروجك.. وعدم مخالطتك لعامة الناس!
- أعلم! أعلمُ أني ما زلتُ في سجني؛ لكن استبدل السجان! (جأر بها كأنها نفثة مصدور).. ثم أردف مُستسلِماً: "لا تخف يا حمدون؛ لن أُخالف شرط المهدي".

تنهَّد حمدون بارتياح؛ بيد أنَّه أحب أنْ يخفِّف عن ضيفه آلام شعوره بالعزلة والإحباط؛ فبدرت له فكرةٌ.. فهتف: "لو أراد سيدي أنْ يشاهد الناس عن قُرب دون أنْ يخالطهم؛ فيمكن أنْ تشاهدهم وهم يسيرون في الدرب من خلال شراجيب المصاري!"، تهلَّل وجه المؤيد سروراً بالفكرة.. فانبعث يقول بامتنان: "أ حقاً هذا يا حمدون؟! أجل.. أجل! أريد أنْ أرى أهل قرطبة في دروبهم وشوارعهم؛ فلقد سئمتُ منظر الرصيف المشرف على القصر!"، هتف حمدون بتأكيد: "إذاً.. سأُخبر النساء أن يُهيئنَّ العُلية لجلالتكم ريثما نصلي الظهر.. فقد وجب!".

****

-المشهد الثاني عشر-

اتخذ المؤيدُ مقعده جالساً خلف الشرجب، وقد أمر حمدونَ وشعب أنْ يتركاه وحده، ثم بدأ ينظر إلى الدرب وسابلته من وراء النافذة! مدَّ بصره إلى الأفق البعيد.. فاصطدم بالبيوت المتراصة –بتلاحم- فوق خدّي الدرب الطويل الضيق في مشهد مغاير لقرطبة التي عرفها من شرفة قصره المُشرفة على رصيف الوادي وما ورائه من أفق رحب يشمل النهرَ وقنطرته.. وربضَ شقندة وحدائقه وبساتينه! ورغم أنَّ **هناك** الأفق واسعٌ بهيج ترتاح العين لرؤيته.. ويصفو القلب بالتطلُّع إليه، ورغم أنَّه **هنا**.. يضيق مع التواءات الدرب بين الدور -الحقيرة مقارنة بالقصور- الجاثمة على جنبيه! إلا أنَّه وافق المتعةَ والحبور **هنا**.. لا **هناك**! ورغم أنَّه مع إدمان النظر **هنا** تُجهد العين وتسأم جساءةَ المشهد وضيق أفقه؛ إلا أنَّ صدره لم يضق.. ونفسه لم تضجر! بل السآمة كانت **هناك**.. والضيق والضجر كان **هناك**! سبحان من فطر الإنسانَ ملولاً:

يسأم ما يألفه.. ويسعى لغير المألوف.. حتى وإنْ كان أدنى منه! بل.. وقد يسعى للحقير تململاً عن النفيس، وقد يشتري الغثَّ سآمة من السمين! وهكذا كانت حال المؤيد عندما بصرتْ عيونه بيوت الدرب المتراصة بغير انتظام.. وأرضه المُوحلة؛ فاستمتع بجمالها البسيط ولون جدرانها الأبيض الرائق، وظنَّها -على بساطتها وتواضع حال أهلها- خيراً من قصوره المشيَّدة.. وأسوارها الشاهقة! **فهناك** سجنٌ وكآبة.. **وهنا** حريةٌ وسعادة! لا مرية أنَّ أهل هذه البيوت سعداء يتعايشون في محبةٍ وإخاء.. تجمعهم **هنا** مودة الجيران، أما **هناك** في القصر.. فإنَّ أهله يتعايشون في نفاقٍ ورياء.. يجمعهم قهر السلطان!

سمع أصوات الصِبية.. يلعبون ويمرحون؛ فابتهج.. وراح يراقبهم -في اهتمامٍ- وبقلبٍ يخفق بالغبطة، تمنى لو عاد صبياً صغيراً.. فيلعب معهم ويتمرَّغ مثلهم في الطين والأوحال! استرجع في خَلَده ذكريات طفولته وصباه التي قضاها رتيبة مُمِلَّة في قصور الخلافة، تذكَّر أمه (صبح البشكنجية)! زفر زفرةً.. كأنَّما ينفث عن صدره ضيق الماضي وخُنَاقه، استرسلت الذكرياتُ تنساب على خاطره: سامحكِ الله يا أمي! فأنتِ مَن تسبَّبتِ فيما أنا فيه! أقنعتي أبي أنْ يجعلني ولي عهده وأنا لا أزال طفلاً صغيراً، ولمَّا حان أجله تآمرتِ مع المصحفي وأبي عامر على رجالات المروانية لكي تصفو لي الخلافة.. وأنا غض طرير.. لا أدرى ما الخلافة! ثم مكَّنتِ لأبي عامر بحجة أنْ يحفظ لي ملكي؛ فشتَّتَ شمل خصومه، وما أسرع أنْ تفرَّد بالسلطة واستبدَّ بالسلطان! فما أحسستِ بخطره.. ولا أدركتِ أطماعه إلا بعد فوات الأوان! ولمَّا عجزتِ عن مقاومته وانتزاع السلطان منه؛ جئتني تُحرِّضيني على استعادة سلطاني.. وتحمِّسيني لأنْ أكون خليفةً حقيقياً مثل أبي وجدي؛ أ وتذكرتي -الآن- أنني الخليفة.. وأنَّ الخلافة لي؟!! ولمَّا آيستِ مني؛ جئتني غضبى تقولين: "أ ترى ما يصنع هذا الكلب!"؛ فقلتُ بهدوء: "دعيه ينبح لنا.. ولا ينبح علينا!".

اتكئ على كرسيه وأسند رأسه للخلف حين تذكَّر ذلك اليوم، وانتشى لتلك الذكريات –مع أنها مؤلمة-؛ فقد ذكَّره حديثُ صاعد عن موكبه العظيم زمن المنصور

بذلك اليوم الذي جاءه فيه المنصور يشتكي مشاكسات السيدة (أم الخليفة).. وسوء تدبيرها وسوء تصرفها في مال الخلافة (يقصد: سعيها للتآمر عليه بهذا المال)، ويستأذن في مصادرة المال ونقله –بعيداً عن يدها- إلى قصر الزاهرة.. ليكون تحت يده هو.

جاء يستأذنني محاطاً بجنودي وعساكر دولتي الموالين له.. وليس لي قِبَل بهم! جاء يستأذنني في الحجر عليَّ! جاء يستأذنني أنْ أُخلِّي بينه وبين سلطاني يتصرَّف فيه كيفما يشاء؛ فما كان مني غير أنْ وافقتُه رأيه وتابعتُه على هواه.. واعترفتُ له بالفضل في خدمة الدولة.. وأقررتُه على سياسته؛ فخرستْ ألسنة معارضيه.. حتى لسانكِ يا أمي! ساعتئذ هدأتْ نفسُه وقرَّتْ عينُه؛ فخَلا بي اختلاء صديقٍ بصديقه.. بل أبٍ بابنه؛ فتصالحنا وتصافينا وبثَّ كل منا شجونه ومخاوفه للآخر؛ فطمَّأنني وعاهدني على الإخلاص لله ولي.. والنصح لي ولدولتي؛ فبُحتُ له برغبتي في الخروج للناس كي أُشاهدهم ويُشاهدوني.. ووعدتُه لو فعل وسمح لي بالخروج إليهم أنْ تكون الأخيرة؛ ففعل وكان الموكب العظيم يومئذ، ووفيتُ بالعهد فصرتُ بعدها كأسير محبوس في سجنٍ كالقصر.. أو كخليفة محجور في قصر كالسجن.. ليس لي من الخلافة غير ذكر اسمي في خطبة الجمعة.. ونقشه على النقود!

قطع عليه خَطَراته صوتٌ عذب –يأتي من أسفل الدرب- يترنَّم بأهازيج! جذب سمعه؛ فانتبه له؛ اشرأب.. وهبَّ يتلفَّت يميناً ويساراً إلى أنْ رآه: إنّه بائع زهور جوال، ينادي على بضاعته بغناءٍ عذب.. طربت له أذنه؛ فراح يتسمَّعه بنشوةٍ ويراقبه بغبطة من وراء النافذة.. وهو يجول في الدرب يُرجِّع بصوته العذب في غنائه للورد الذي بين يديه، نادته امرأةٌ من الجيران فوقف ببابها.

ما يَنِي ينظر إليهما.. وهو يُردد في خاطره ذات الأغنية ليحفظها.. فراح يُدندن:

لهذا الياسَمِين عليَّ حقُ ... أنا لشبيهه في الحُسْن رِقُّ

فلا زالتْ عَرائِشُه تُحَيَا ... بغاديةٍ لها طلٌّ ووَدْقُ

غمامٌ كالعريش أَحَمُّ غضٌّ   يُنَوِّر منه في الجَنَباتِ بَرْقُ

ولو سَقَّيْتُه من ماءِ وَجْهِي   لمَا يُنَوِّر ما يَسْتَحِقُ

وما انفك يردِّد تلك الأبيات مطروباً بصوت صاحبها وأنغام ترجيعه.. كأنَّ قيَّان القصر لا يُطربنَّ! أبصره يقف بباب الدار –دار أم هشام- فوثب من مجلسه يهمُّ أنْ ينزل إليه يصافحه ويحيه على ترنيمه وغنائه، ويغبطه على سعادته.. وعلى صوته العذب! بل سيشتري منه بضاعته كلها، بل سيأمر بإلحاقه بالقصر وتعينه مطرب الخليفة الخاص! (آه.. لم أعد صاحب القصر.. ولم أعد الخليفة!)؛ اِنهدَّ على كرسيه محبطاً.. وقد تذكَّر شرط المهدي عليه ألا يخالط عوام الناس؛ فعاد يطالع الدرب بعينٍ غير سابقتها، وتسلَّل الضيق إلى صدره.. وغشيته الكآبة!

بعد حين دخلت عليه وصيفتُه (شعب) لتقول: "مولاي! قد أعدتْ السيدةُ أم هشام طعامَ غدائكم بنفسها، وتستأذن إنْ أراد مولاي تناوله الآن؟؟". التفت إليها محاولاً أنْ يطرد عن صدره ذلك الشعور بالضيق والكآبة، ثم تصنَّع الابتسام وأومأ بالإيجاب.

****

-المشهد الثالث عشر-

نزل المؤيدُ عبر الدرج الصخري الهابط إلى فناء البئر.. تتبعه وصيفتُه، وتوجه إلى القاعة القبلية حيث نُضِّد طعامُ الغداء؛ فألفى أم هشام تنتظره لدى الباب وإلى جوارها.. سلوان تحمل طاقةً من الزهور.. على استحياءٍ قدمتها إليه؛ فابتسم لها بأبوة حانية.. وتناول طاقة الورود وتنشق أريجها بابتهاج، ثم هتف مداعباً: "أ هي هدية بهدية؟! هديتكِ رقيقة مثلكِ يا سلوان.. شكراً لكِ!". ابتسمتْ ابتسامة خجلى زادتْ وجهها بهاءً.. واعتصمت بالسكوت حياءً، فأجابته أم هشام بلباقة: "بل.. هذا تقديرٌ متواضعٌ لتشريفكم لنا بالزيارة!"؛ فأجابها: "لله دَرُّكم.. يا عمتي!"؛ ثم التفت إلى سلوان

وأردف: "متى ستنتهين من رسم نسختكِ الأولى من المصحف الشريف؟". أجابته بنبرة خجلى: "حالما تنتهي دروسي مع سيدتي.. إنْ شاء الله!".

- هل تسمحينَّ أنْ اشتريها منكِ؟؟
- .... (انعقد لسانها خجلاً) حالما أجابته أمُ هشام:
- بل.. هي هدية لكم.. إنْ شاء الله!
- وأنا قبلتُ الهدية! وإنَّه لشرفٌ لي أنْ تهديني أول نسخةٍ.. تكتبيها بيدكِ!
- .... (ما زالت سلوان تتحصَّن بالسكوت حياءً)
- يبدو أنَّكِ تنوينَّ إهداءها لشخصٍ آخر؛ لا ضير! سأنتظر نسختكِ الثانية! (هتف ضاحكاً وهو يمازحها)

مع أنها لم تجبه إلا بابتسامةٍ طفيفة إلا أنَّ كلماته المُداعبة وقعتْ في خاطرها موقعاً ذا شأن.. فأضمرتْ في باطنها: (هل يخبط هذا الخليفة خبْط عشواء؟! أم قال قولته تلك على بصيرة؟! أ تُراه يعلم أني –مذ بدأتُ دروسي- أنوي أنْ يكون أول عملي هديةً لحمدون؟! كيف فطن لذلك.. ولا أحد يعلمه إلا الله؟!! بلى.. أحب أنْ يكون أول خطي للقرآن هديةً لحمدون؛ لأنَّ تلاوته كانت أول صوتٍ سمعتُه.. واستبشرتُ به عند عودتي للحياة بعد فراري من وكر الخبيث: ابن الرسان!).

قطع عليها حديثَ نفسها سؤالُه: "هل تأذني لي يا سلوان؟؟"، تطلَّعتْ إليه بعيونٍ حائرة.. فقد كان ذهنها مشغولاً عنه؛ ففطنتْ أمُ هشام لشرودها فحدَّثتها قائلة: "استأذنني الخليفة أنْ يحضر درسنا بعد العصر؛ فأَذنتُ له.. وهو الآن يستأذنكِ؟؟". فأومأتْ برأسها موافقة.. في حين أردفتْ أم هشام: "هَلُمّ إلى طعامك قبل أن يبرد!!".

****

-المشهد الرابع عشر-

بعد أنْ أدى صلاة العصر جماعةً مع حمدون في القاعة الغربية استأذن المؤيدُ في الذهاب إلى قاعة الدرس لحضور درس رسم المصحف كما وعدته أمُ هشام؛ فأُذِن له.

ولج إلى القاعة فألفاها أصغر وأبسط مما كان يتوقَّع! بيد أنها رائقةٌ.. ترتاح النفسُ للمكث فيها مع بساطتها وتواضع أثاثها الذي لا يزيد عن بساطٍ سميكٍ يغطي أرضيتها بُثتْ حوله الزرابي والمتكآت، وتناثرت في أركانها كتب العلم وألواح الدرس، سلَّم عليهما.. فأرادتا أنْ تقوما له؛ فأشار لهما بالبقاء جالستين، واستأذن أنْ يجلس إلى جوارهما فأذنتا له، ثم أمر حمدونَ وشعبَ اللذين دخلا معه بالانصراف؛ فانصرفا كلٌ لشأنه.

مراعاةً لحضور المؤيد ابتغتْ أمُ هشام أنْ يكون درسها اليوم درساً عاماً يفهمه المبتدئ.. وغير المتخصص؛ فانبرتْ تقول: "اسم هذا الفن الذي نتعلمه: (رسم المصحف)، وكلمة (الرسم) تعني في لغة العرب: العلامة أو أثر الشيء.. وقيل بقية الأثر، أما في موضوعنا فتعني: (الخط.. الكتابة.. الهجاء.. الإملاء) وكلها تشير إلى تمثيل الألفاظ برموز مكتوبة. أما كلمة (المصحف) فمعناها في لغة العرب: الجامع للصحف بين الدفتين، أما هنا.. فهو اسمٌ لما يضم الصحف التي كُتب فيها القرآن الكريم. أما تعريفنا لهذا الفن فإنَّه: (الرسم الذي كَتَبَ به الصحابةُ -رضوان الله عليهم- المصحف.. أي العلامات الحرفية المنقوشة فيه أو خطه أو كتابته)، وأكثره يوافق قواعد الإملاء القياسية.. وبعضه يخالفها في أشياء كُتبتْ على هيئة مخصوصة، ومخالفتهم -رضوان الله عليهم- في هذه الأشياء لم تكن إلا لأمورٍ تحققتْ عندهم وأسرارٍ وحِكَمٍ تشهد لهم بأنهم كانوا الغاية القصوى في الذكاء والفطنة!".

التقطتْ أنفاسها قليلاً، واعتدلتْ في جلستها ثم استطردت: "إذاً.. فعلم (رسم المصحف): هو علمٌ تُعرف به مخالفات خط المصاحف العثمانية لأصول وقواعد الرسم القياسي الذي نسميه الخط الإملائي. وهذا الرسم يسمى -أيضاً- الرسم

العثماني نسبةً إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان -ﷺ-، ونسبته إليه لا تعني أنَّه هو الذي ابتدعه من عند نفسه أو خالف به رسماً تم بين يدي النبي محمد -ﷺ-؛ وإنَّما يُنسب إليه لأنَّه هو الذي نشره وأذاعه في الأفاق.. وعمَّمه بعد أنْ نقله من مصحف الخليفة الأول أبي بكر الصديق -ﷺ- الذي أمر بجمعه من صدور الصحابة الحفاظ -رضوان الله عليهم- ومن الصحف التي كُتِب فيها القرآن الكريم بين يدي النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ وما كان عمل أبي بكر -ﷺ- فيها سوى أنْ جمعها في مصحفٍ واحد، أما عمل عثمان -ﷺ- فكان نسخها من مصحف أبي بكر إلى عدة نسخ؛ ثم توزيعها على الأمصار ليجتمع عليها المسلمين، وباختصار: فكتابة المصاحف العثمانية كانت على ذات قاعدة كتابة النسخة النبوية الأولى والحمد لله تعالى الذي قال في كتابه: إنَّا نحن نزلنا الذكر وإنَّا له لحافظون!".

"ويمكن حصر قواعد هذا الفن في ست قواعد هي: الحذف، والزيادة، والهمز، والبدل، والفصل والوصل، وما فيه قراءتان فكُتِب على إحداهما وتُركت الأخرى. والحمد لله قد انتهينا من دراسة الأربع قواعد الأولى بعد أنْ فصَّلنا القول فيها باستفاضةٍ قدر المستطاع، وسنبدأ اليوم في دراسة قاعدة: الفصل والوصل!". حينئذ دخلتْ إحدى الجاريتين تهرول إلى أم هشام.. وأَسَرَّت في أُذنها كلاماً؛ فاستأذنتْ وقامتْ معها!

رغب المؤيدُ أن يُحادث سلوانَ.. ريثما تعود أمُ هشام فهتف متسائلاً بنبرة إعجاب:

- أرى أنَّ هذا الفن صعب التَعلُّم! فلماذا اخترتِه دون غيره.. يا سلوان؟!
- لقول الرسول الكريم -ﷺ-: (خيركم مَن تعلم القرآن وعلمه)، وإنْ شاء الله.. لأكتبه للناس واحتسب الأجر عند الله.. فإنه -سبحانه وتعالى- يُدخل بالسهم الواحد الجنةَ ثلاثة نفر: صانعه، والرامي به، والمُمدّ به.
- صانع السهم يأخذ أجرة على صناعته.. فهل تستحلي أخذ الأجرة على كتابة المصحف؟!

- لفقهاء المسلمين رأيان في هذه المسألة.. وأنا على مذهب معلمتي.. أم هشام!
- وما هو مذهبها؟؟
- جواز أخذ الأجرة على كتابة المصاحف؛ لأنَّ ذلك يكون في مقابل عمل اليد.. وليس ثمناً للقرآن، لكن لا نشارط فيه.. إنَّما نأخذ ما نُعطاه من غير مشارطة!
- وما قولكِ في بيع المصحف؟!
- يا سيدي.. إنَّ أنفس الجواهر تُباع وتشترى، وإنَّما الشيء المبتذل هو الذي لا يُباع!
- في الحديث الشريف أنَّ النبي –ﷺ- قال: "لا تأكلوا به"؟!
- هذا حديث عبد الرحمن بن شبل.. وأحد الرواة في سنده هو: (أبو راشد الحبراني) وهو مجهول.. وعلى هذا فالحديث لا يرقى إلى مرتبة القبول، فضلاً عن أنَّ بيعه يُسهِّل على الناس الانتفاع به وتعميم هدايته، علاوة على أنَّ ما يؤخذ في بيع المصحف إنَّما هو ثمن الورق والخط والأنقاش والدفتين. ولكَوْن الزجر عن بيع المصاحف يُفضي إلى انسداد باب الحصول عليها؛ فالترخيص في بيعها يرفع الحرج ويُيسر تداولها وانتشارها.. وهو مطلبٌ من مطالب الشرع والدين!
- ما شاء الله.. لا قوة إلا بالله! وكأني أسمع القاضي أبا الوليد إسماعيل بن عباد! (ألقى باسم الرجل على مسامعها وهو يراقبها من طرفٍ خفي)، ثم استطرد متسائلاً: "ألم تلتقي بعمك القاضي يوماً.. يا سلوان؟؟!".

أثار حديثه عن عمها قاضي اشبيلية دهشتها: (كيف علم أنَّه عمي؟!).. وأثار حفيظتها: (كيف يسمح لنفسه أنْ يسألني عن علاقتي بأهلي.. وهي من خصوصياتي؟!! أم تراه يسألني من باب الشك في صحة نسبي إلى بني عباد؟!)، (مَن أعلمكَ بنسبي أيها الخليفة؟!).. (وهل أحدٌ غير حمدون؟!!). انقبض قلبها فور أن حضرها هذا الخاطر.. وعبس وجهها هنيهة عبوساً لاحظه المؤيدُ عليها، لكن.. ما أسرع أنْ تبدَّل الانقباض انشراحاً.. والعبوس انبساطاً: (إنْ كان حمدون حدَّثه عني؛ فذاك يعني اهتمامه الزائد بي إلى الحد الذي جعله يُحدِّث الخليفةَ عني وعن نسبي! هل يا تُرى صارحه برغبته في

الزواج مني؟! هل استشاره وطلب رأيه؟! بماذا أشار عليه؟؟ هل يُراوغني –ذاك الخليفة- ليتأكَّد من صحة انتسابي لقاضي اشبيلية؛ فإنْ اكتشف –فيما يظن- أني أكذب عليهم؛ فسيأمر حمدونَ بالابتعاد عني.. وفسخ خطبتي؟!!)، (كلا!! كلا.. أيها الخليفة المؤيد.. لستُ أكذب! وانتمائي إلى بني عباد حقيقةٌ.. أملك الدليل عليها!).

كان يراقب إطراقها كأنَّما يسمع حديث وجدانها، رفعت رأسها.. وبصرته بعيونها الخجلى يرتقب إجابتها بصبر ودود.. وعيون حانية؛ فأجابته بتردُّدٍ مكبوت:

– لم ألتقِ به.. حتى الحين!!
– وما يعرقل ذهابك إليه؟! أو أقله.. إعلامه بوجودكِ؟!!

عاودها حديثُ الوجدان تحليلاً لكلماته: (إنَّه يسأل سؤال مَن يعلم حكايتي؛ وليس ثمة أحدٌ يقصها عليه حاشا حمدون!) (ماذا يريد مني هذا الرجل؟!!) (إنَّه رجلٌ طيب.. أحسبه لا يريد لي إلا الخير؛ أُبصر هذا في نظراته الحنونة.. وأَسمعه في نبرة حديثه الأبوية العطوفة!)؛ (عليَّ –إذاً- أنْ أُشجعه على مساعدتي! سأُخبره حكايتي.. ومبرر شرطي لإتمام زواجنا، سأجلب صندوق أمي.. لأُريه الدليل على صحة حكايتي!).

همَّتْ أنْ تقص عليه حكايتها، وتستأذنه أنْ تجلب من مخدعها صندوق الأدلة؛ لكن دخلت شعبُ عليهما تستغيث بالمؤيد صائحةً في فزع: "مولاي! أدرك حمدون؛ إنَّه.. يبطش بالفتى الممرور وأمه!". حملق المؤيدُ إليها باندهاش غير مُصدِّق مقالتها.. (فهذا ليس من خُلق حمدون الذي يعرفه)؛ فيما انبعثتْ سلوان قائمةً، وسبقتهما إلى الباب تهرول في هلعٍ.. أنساها الخليفةَ وما يتحتم عليها من إظهار الوقار في حضرته.

****

-المشهد الخامس عشر-

جمراتُ الغضب التي تتأجَّج في عينيه ألهبت قلبها.. وأضرمت نيران الخوف والفزع في أحشائها. إنها المرة الأولى التي ترى فيها شيطان الغضب يتملَّك حمدون إلى هذا الحد المخيف. تسمَّرت منتصبةً في مكانها؛ خرساءٌ ترقب -في ذعر- شيطانَ حمدون وهو يصرخ فائراً.. ومحاولاً أنْ يتحاشى جدته التي وقفت أمامه لتحول بينه وبين سعدون الذي انكمش محتمياً بأحضان أمه التي طفقت تولول.. استرحاماً وفزعاً.

ما انفك يندفع صَوْب الفتى وأمه.. يقذفه بالشتائم والسباب غير عابئ بنهي جدته ولا نهرها.. غير منتبه لجسدها الضعيف بين يديه ولا إلى قواها الخائرة التي تدفعه بعيداً حتى كادت أنْ تسقط مغشياً عليها إجهاداً وانفعالاً. انهدتْ الجدةُ ساقطةً على الأرض خائرة القوى.. وما استطاعت أن تصدَّه عنهما؛ فانفجرت عيناها بالبكاء وهي تتضرَّع إليه بإعياء: "اتق الله يا ولدي.. ولا تقهر الأرملة واليتيم!!". وراحتْ تكرِّرها بصياحها الباكي المجهد، لكن.. فورة الغضب صمَّت أُذنيه وأعمت عينيه؛ فلم يلتفت إليها. اقترب منهما.. فدفع الأمَ المُسترحِمةَ بيده حتى أشفت على السقوط، ولم يعد أحدٌ يحول بينه وبين الفتى التعيس الذي نزع خاتم الخليفة عن يده وألقاه تحت قدمي سيده الغضبان كأنَّما يتملَّص من سر سخطه عليه، ثم تكوَّر منكمشاً مرعوباً. لم يلتفت حمدونُ الحانقُ إلى الخاتم المُلقى تحت قدميه؛ بل تقدم إلى الفتى المنكمش وانتزع العصا الطويلة من يده المرتعشة فلم يعد متحصِّناً بشيء.. فتراجع خائفاً حتى التصق بالجدار. لم تشفع له أناته ولا استغاثاته.. ولا ولولة أمه ولا توسلاتها، ولم يرتدع حمدونُ بنهي جدته ولا ببكائها، ولم يرَ الاسترحام الذي في عيني سلوان.. ولم يُشفق على جزعها؛ إنَّما رفع العصا بيده وهمَّ أنْ ينهال بها ضرباً على الفتى المرور.. وهو لم يبرح يصيح فيه حانقاً يسبه ويشتمه! لم يكد يُقرِّعه حتى أفاق من سكرته على المؤيد يصيح بصوتٍ جهوري مخيف: "اتق الله يا حمدون.. واكْفُف عن الضعيف!!"، ويُقبل مهرولاً نحوه.. فينتزع العصا من يده، وشعبُ تلحق به.. وتهرع إلى الفتى المرور؛ فيلوذ بها، انهد حمدون مرتمياً على الأريكة منكس رأسه.. يرتجف جسده.. تتلاحق

أنفاسه. انتبهت سلوانُ إلى أم هشام فأقبلت عليها، حاولت أنْ تسندها لتقوم معها؛ فلم تقدر إعياءً وإجهاداً.. فقعدت إلى جوارها ترأف بها. وقامت أمُ سعدون مجهدةً محزونةً إلى ولدها فانتشلته من بين يدي وصيفة الخليفة؛ فآوى الفتى إلى صدر أمه، وراحت تربت على كتفه وتَلثِم رأسه.. وهما يبكيان حزناً وقهراً.

لحظاتٌ خرساءٌ كئيبة مرت عليهم كالتي تمر على الجرحى المهزومين بعد الفرار من معركةٍ شرسة! التقطت شعب خاتمَ الخليفة من التراب، وباهتمام.. مسحته بطرف ثوبها ثم أعادته برفق إلى الفتى المفزوع، امتنع أنْ يأخذه؛ لكن.. الخليفة أمره باستعادته فهو حقه؛ فامتثل مستسلماً. ثم طفقتْ الوصيفةُ شعب –ومعها الجاريتان- تدور على المنهوكين المفزوعين بالأكواب تُسقيهم ماءً بارداً.. لعله يُطفئ نار الفزع والجزع في صدورهم. تناول المؤيدُ الكوب من يدها وأرغم حمدونَ على شُرب الماء؛ فسمَّ باسم الله.. وابتدأ يتجرَّعه رغماً عنه؛ بينما الخليفةُ يراقبه ويأمره قائلاً بصرامة: "اذكر الله.. واشرب الماءَ عساه أنْ يُطفئ نار غضبك!"، ثم أردف: "إنَّ هذا نزغُ شيطان؛ فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم.. ولا تغضب!". فيتمتم حمدون باستسلام: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!". رمز الخليفةُ إلى جاريته فأتته بكوبٍ آخر؛ فأفرغ بعض الماء في يده ثم أنشأ ينضح به وجه حمدون الذي بُهت وتأذى من الماء في البداية؛ ثم استكان بعدها للخليفة الذي غسل يديه بالماء ثم راح يمسح بها الوجه الغاضب وهو يتمتم بذكر الله.. إلى أنْ سكت الغضب عن حمدون.. وظنَّ الجميعُ أنَّ العاصفةَ قد هدأتْ. أخذ الخليفةُ بيده ليُنهضه؛ فقام معه، تأبط ذراعه.. وقصد به إلى القاعة الغربية، ثم أغلق الباب دونهما ليختلي به، تساءل المؤيدُ باستنكار:

- ما لي أراكَ هكذا.. يا حمدون؟! ليس من طبعكَ الغضب والتجبُّر!!
- عذراً يا سيدي! فقد أثار هذا الفتى المُغفَّل استيائي.. وهيَّج هائجي!!
- ماذا فعل هذا المسكين.. ليُغضبك هكذا؟!! (تساءل المؤيد باندهاشٍ وإشفاق)
- لقد أفشى سرنا الذي استأمنتُه عليه.. يا سيدي!
- أ تغضب هكذا.. لأنَّ ذاك المدعو (صاعد).. علم بخبر وجودي في بيتك؟!!

- كلا يا أميري! إنَّما استفزني إفشاؤه لسرٍ من أسرار الدولة استأمنتُه عليه!
- سرٌ من أسرار الدولة؟!! هل زيارتي لأحد أقاربي أمست.. سراً من أسرار الدولة؟؟! (جأر بها مُتهكِّماً)، ثم استطرد متعجباً: "أ وليس صاعد هذا من رجالكم؟! فلِمَ تخش منه على أسرار الدولة.. كما تقول؟!!".
- صاعد هذا رجلٌ خبيث.. قد ينشر الخبر؛ فيعلم به الخليفة المهدي؛ فيستاء مني لعدم كتمي السر.. كما أمر!!
- يا لَيْتَ شِعْري! لماذا تريدون إخفائي إلى هذا الحد؟!! (تساءل بدهشة واستنكار)
- نخشى عليك الاغتيال.. يا سيدي المؤيد!!
- ممن؟؟؟ هل يسعى صاعدُ هذا.. لاغتيالي؟! (تساءل باستهجانٍ وسخرية).
- ليس صاعد وحده مَن علم بالنبأ.. يا سيدي!! (صارحه بإحباطٍ وأسف)، ثم استأنف بنبرةٍ أعلى.. وقد اعتراه شيءٌ من سخطه السابق: "لقد جاءني عبد الرحمن بن الحكم بعد صلاة العصر -حينما كنتَ أنت في قاعة الدرس- وأخبرني أنهم يعلمون بوجودك عندي.. وبأنَّ عمه (هشام بن سليمان) يريد أنْ يلتقي بك هنا ليلاً! وهدّدني –في طيات كلامه- إنْ لم أوافق.. فسيفعل ويفعل!!
- مَن أولئك؟!! لماذا يتطفَّلون عليَّ.. هكذا؟! (تساءل المؤيدُ.. بامتعاضٍ واندهاش)
- إنهم بنو عمومتك.. يا سيدي! هشام بن عمك سليمان بن جدك الخليفة الناصر!
- نعم! عرفتُه.. إنَّه شيخ المروانيين.. كما يدعي؛ أليس كذلك؟؟!
- نعم هو!! وابنه سليمان هو.. ولي عهد الخليفة المهدي.. كما تعلم!
- فمن عبد الرحمن هذا؟؟
- إنَّه عبد الرحمن بن الحكم بن سليمان بن جدك الناصر، وهو صديقٌ قديمٌ لي!
- إنهم أهلي وعشيرتي.. يا حمدون؛ فلِمَ تخافون عليَّ منهم؟! (تساءل باستنكار)
- تعلم -يا سيدي- أنهم يحسدون محمد المهدي على الخلافة مذ تنازلتَ أنت له عنها طائعاً مختاراً؛ فهم يرون أنَّه غير جدير بها.. وأنهم أحقُ بها منه؛ وأخشى أنْ يعلم المهدي بلقائك بهم في بيتي؛ فيظنّه تآمرٌ عليه!

- إنَّك لا تخش عليَّ.. يا حمدون؛ بل.. تخاف على خليفتك المهدي.. وحظوتك عنده!!
- بل.. أخشى على دولة بني مروان ورجالها.. يا سيدي!
- بماذا أجبتَ عبد الرحمن هذا؟؟
- اضطررتُ أنْ أخضع لإصراره؛ وسمحتُ لعمه هشام أنْ يأتي لزيارتكم هنا الليلة، لكن.. اشترطتُ عليه أنْ تكون الزيارة سراً!
- عساه خيراً.. إنْ شاء الله! فما بال الفتى سعدون تغضب عليه كل هذا الغضب؟؟!
- وهل أذاع سرنا غيره؟! أم تُراهم.. كيف علموا بالخبر؟!!
- وما يدريكَ.. لعلهم علموا من غيره! (قالها بنبرة تَشَكُّك) ثم استأنف: "هيا بنا الآن إلى جدتك وسعدون وأمه؛ فطيِّب خاطرهم واعتذر لهم!".

بعد قليلٍ من التردُّد.. وبكثيرٍ من تأنيب الضمير والخجل أقبل حمدونُ يعتذر إلى سعدون وأمه، طفق يُقبِّل رأس الفتى ويُقبَّل رأس أمه.. ويُطيِّب خاطرها حتى هدأ روعها وصفحت عنه، ثم أقبل إلى جدته التي عبست في وجهه ووبخته؛ فأنصت لها بخجل وتأسُّف، لثم يدها.. وتودَّد إليها حتى عفت عنه، ثم أقسم المؤيدُ عليهم كافّة أنْ يتسامحوا ويعفوا ويصفحوا، ثم أرشدهم أنْ يتقاسموا معاً كسراتٍ من خبز الخشكار –الذي صنعته له أمُ سعدون صباحاً- دليلاً على الصفاء والمحبة.

****

-المشهد السادس عشر-

جنَّ الليلُ.. وسكنتْ دروبُ قرطبة وشوارعها.. وأَوَت دورها إلى مضاجعها؛ فأقبلتْ طرقاتُ ليلٍ خافتة على باب الدار.. كان حمدونُ يترقبها؛ فهرع مسرعاً يفتحه للطارقين.. وأدخلهم قبل أنْ تلحظهم عينٌ مُتلصِّصة.

بعد أنْ رحب بهم ترحيباً فاتراً.. أجلسهم في القاعة الغربية، وغلّق الأبواب. كانوا ثلاثة نفر من بني مروان: والد ولي العهد الجديد.. وشيخ المروانية (هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر)، وولده الأصغر أبو بكر، وابن أخيه عبد الرحمن بن الحكم.

تراشقوا وحمدون بنظراتٍ صامتة باردة.. نمّت عن خصومة دفينة؛ فحبَّذ عبد الرحمن أنْ يجنح للسلم فشرع يُنعش الأجواء الفاترة هاتفاً:

- مرحى.. مرحى.. يا حمدون! كم اشتقتُ إلى داركم؛ فهي تُذكِّرني أيامَ الصِبا!
- أهلاً بك.. يا سيد عبد الرحمن! (قالها بفتور.. وبنظراتٍ يشوبها الحذر والريبة)
- لم آتِ إلى هنا.. منذ زمن بعيد؛ لكني لازلتُ أذكر حين كنتُ أتلقى دروس العلم صغيراً.. على يد جدتك؛ كانت أياماً سعيدة.. ليتها تعود!
- الماضي لا يعود.. أيها السيد! ولا أحسبك جئتَ إليَّ -في مثل هذه الساعة- لنتذاكر الماضي السعيد!! (قالها بنفور)

همَّ عبد الرحمن أنْ يجاوبه؛ لكن عمه هشام غمز له فأسكته.. وتكلّم هو:

- صدقتَ.. يا حمدون! لم نأتِ من أجل الماضي؛ بل جئنا لأجل المستقبل، ولم نأتِ لزيارتك؛ إنَّما جئنا للقاء ابن عمي (المؤيد) كما تعلم؛ فهلَّا جمعتَنا به؟!
- أولاً.. أود أنْ تعلموا أنَّ لقاءكم به في بيتي.. أمرٌ لا أرضى عنه، وإنَّما أرغمتموني عليه! (هتف بصراحة صارمة)، فهزَّ هشامُ رأسه غير مكترث.. ثم هتف بجِدّيّة:
- تالله.. لولا أنْ حجبتموه عنا مذ انتزعتم منه الخلافة.. ما جئنا إليك!!
- تالله.. تعلم أنَّا ما انتزعناها؛ بل تنازل عنها للمهدي مختاراً!
- راجع خياراتك -يا حمدون- واعمل عقلك؛ فإنَّك تقف في الجانب الخطأ، وإني أشفق عليك! (هتف عبد الرحمن بن الحكم)
- هل تهدّدني؟!! (هتف حمدون باستنكارٍ)، فألمح إليه هشام أنْ اهدأ ثم جأر:
- ما جئنا في هذه الساعة من الليل لنهدِّدك يا رجل، ولا داعي لهذا الجدال، إنَّما نريد لقاء الخليفة المؤيد؛ فأتنا به!

- الخليفة السابق!!!
- بلى.. الخليفةُ السابق ابن الخليفة عمنا.. وحفيد الخليفة جدنا! هيا.. هيا!!

غادر المكان.. وغاب عنهم برهة، ثم عاد إليهم بين يدي المؤيد الذي حياهم بمودة فوقفوا له إكباراً.. وسلَّموا عليه بتوقير، تلطَّف معهم وحدَّثهم أحاديث شتى بمودةٍ وترحاب استنكرهما حمدونُ في دخيلته؛ على أنَّه لبث ساكتاً عابساً -لا يشغله من أمر هذا المجلس غير خشيته أنْ يعلم به الخليفةُ المهدي فيظن به السوء.. ويتهمه بالباطل-؛ فلم يلتفت لأغلب حديثهم، ولم يلقِ لهم بالاً إلى أنْ سمع شيخَ المروانية يقول بجِدّيّة:

- ألا ترى -أيها المؤيد- ما صنعه هذا الصعلوك بجيش الأندلس وفوارسها؟!!
- احفظ لسانك.. أيها الشيخ.. ولا تذكر الخليفةَ المهدي.. بسوء! (صاح حمدون بحدة مستنكراً)، فرمقه الشيخ بلا مبالاة.. ثم أردف بنبرة تهكُّم:
- ألم ترَ كيف صنع **الخليـــــفةُ المهدي..** بالبربر وبالصقالبة؟!
- ماذا فعل بهم؟؟! (تساءل المؤيدُ سؤال مَن يبتغي معرفة التفاصيل)
- حين قامت ثورتُنا.. تخلَّوا عن شنجول.. وقد كانوا قادرين أنْ يُثيروا فتنةً عظيمة.. وحرباً لا طاقة لنا بها لو تمسَّكوا به وثبتوا معه ونصروه؛ لكنهم آثروا السلم والمسالمة فوضعوا السلاح ورجعوا إلى دورهم بقرطبة مسالمين فأغلقوها على أنفسهم.. واختاروا مَن اختاره أهلُ قرطبة لأنفسهم. فماذا تظن أنَّه فعل بهم؟؟!
- خفض لهم جناحه.. وضمهم إلى رجاله.. وقرَّبهم إليه! (قال المؤيدُ محدساً)
- لقد غيَّبوا عنك الأخبار تماماً.. أيها المؤيد! بل فعل ذاك الأخرق عكس ما تظن! (صاح شيخُ المروانية بحنق غير عابئ بنظرات حمدون المستاءة من شتمه المهدي)؛ ثم استطرد: "لقد رفض لقاءهم.. وأوعز إلى الزُعْر من رجاله أنْ يَتحرَّشوا بهم ويضايقوهم، ولمَّا صُلبت جثة شنجول هجم بعضهم على كثيرٍ من دور البربر وانتهبوها.. حتى دور أكابرهم -أمثال زاوي بن زيري- لم تسلم من أولئك النهَّابين!".

- .... (جعل المؤيدُ يستمع.. ويمتقع وجهه حزناً وأسفاً)
- فلما قصد (زاوي) [1] وبعض كبراء قومه إلى القصر للشكوى.. أُهينوا ووُبِّخوا وطُردوا من لدن الباب، وإنَّك تعلم.. أيها المؤيد: مَن هو زاوي بن زيري، ومَن هم قبيلة صُنْهاجة؛ كانوا أصحاب إفريقية وملوكها، وصاروا حلفاءنا.. وعماد قواتنا المحاربة الذين ندخرهم لقتال أعدائنا وردعهم.. سواء في الشمال أم في الجنوب!!
- إنَّك تعلم –يا شيخ المروانية- أنَّ المهدي بمجرد أنْ علم بما وقع؛ استنكره وأمر بقتل ثلاثة من أولئك النهَّابين وسجن الآخرين.. واستقبل زاوي وأصحابه واعتذر لهم! (هتف حمدون بحميَّة.. مدافعاً عن خليفته المهدي).
- أجل.. فعل! (أجابه شيخ المروانية بنبرةٍ ساخرة)؛ ثم أردف صائحاً: "ثم أسقط أسماء سبعة آلاف بربري من ديوان الجيش!! كيف هذا؟!! هل يفعلها عاقل؟!! تطرد من جيشك سبعةَ آلاف فارس مُجرّب؟! تطرد ذوي الخبرة في المعارك والحروب.. في يوم واحد؟!! مَن أبقيتَ لأعدائك؟! مَن أبقيتَ لتذُّب عن الأندلس؟؟!
- ....
- لم يزل جيش الدولة به العدد الكثير.. أيها الشيخ المرواني! (هتف حمدون مدافعاً)
- هأ! إنهم رعاعٌ، وإنهم كغثاء السيل!؟ لن تحفظ بهم دولة.. ولن تقاتل بهم عدواً!!
- ومِن قبلُ.. نَهَبَ الزاهرةَ.. وحاز كنوزها لنفسه هو وحاجبه (عبد الجبار بن المغيرة).. وفرَّق أموال الدولة على رجاله وأعوانه. (هتف أبو بكر وهو يتلفَّت حوله في أرجاء المكان تعريضاً بحمدون وداره الجديدة)؛ فصاح أبوه:

---

[1].. هو: زاوي بن زيري بن منادي الصنهاجي.. زعيم قبيلة صنهاجة البربرية في الأندلس، وأصلهم من بربر المغرب، وكان قد قدم مع قومه إلى الأندلس بدعوة من الحاجب المظفر ليتقوى بهم المظفر ويعتمد عليهم في قيادة جيشه الأندلسي إتباعاً لسياسة أبيه الحاجب المنصور في الاستعانة بالبربر في قيادة الجيش بدلاً من الصقالبة والعرب.

- صدقتَ.. والله يا ولدي! (ثم التفت إلى المؤيد قائلاً بصوتٍ عميق يشوبه الترجي): "اسألك بالله.. والرحم يا ابن العم.. هلَّا عدلتَ عن قرارك.. واسترجعتَ الخلافةَ مِن ذاك الصعلوك الأرعن، وإنِّي أُقسم لك وأعاهدك أننا سنكون إلى جوارك؛ ننصرك على عدوك.. ونكون حجابك وأمراءك، ويكون ولدي (سليمان) ولي عهدك!
- ....
- اسألك بالله.. أنْ تدرك الأندلس.. وتُنقذ ملك آبائك أن يُضيِّعه هذا السفيه!

انتفض حمدونُ ضائقاً بما يسمع من اتهامات، ومنكراً أنْ يشهد هذا التآمر على خليفته وسيده، ورافضاً أنْ يتمّ ذلك في بيته.. وأمام عينيه؛ فوثب صائحاً في حنق وصرامة: "كفى! لقد تجاوزتم الحد! ولولا حضرة سيدي المؤيد.. وحق الضيافة لسمعتم مني ما يُخرسكم! لكن انطلقوا راشدين.. يحكم الله بيننا وبينكم!".

- هل تطردنا من بيتك.. يا حمدون؟!! أ وا تجرؤ؟! (صاح أبو بكر باستكبارٍ واستهجان)؛ في حين أسكته أبوه بإشارة من يده.. قائلاً بهدوء:
- لن أُغادر هذا المكان قبل أنْ أسمع ردك علينا.. أيها المؤيد!!
- ماذا تَوَدُّ أنْ تسمع.. يا شيخ المروانية؟! أ جئتنا تجحد المعروف.. وتدعو للتآمر على الخليفة الذي وَلَى ولدَك عهدَه.. وتريد منا أنْ نجيبك؟!! (صاح حمدون مستاءً)؛ ثم أضاف بصرامة: "هيا.. اخرجوا من داري قبل أنْ أفضحكم عند الخليفة!".

على أنَّ الشيخ المرواني لم يلتفت إليه ولم يكترث لتهديده؛ بل راح يراقب المؤيد تَرَقُّباً لإجابته؛ فلم يجد المؤيدُ مهرباً مِن أن يجيبه بوضوح قائلاً: "اسمع مني يا ابن العم! لقد قلتُها لك آنفاً وقد كنتَ –يومئذ- أحدَ الشاهدين عليَّ: إنَّما أتخلى عن الخلافة لمن وعدتُه بها.. ولن أحنث في عهدي ما دمتُ أستوفي شرطي في حفظ روحي! ولقد قلتُها لك

آنفاً: الله مالك الملك.. يؤتيه مَن يشاء.. وينزعه ممن يشاء؛ وقد نزع الله عني الخلافة.. وألبسها محمد المهدي! قُضي الأمرُ.. يا شيخ المروانية!".

أثلجت تلك الكلماتُ صدرَ حمدون، بينما وثب شيخُ المروانية قائماً.. ورمق المؤيدَ وحمدونَ بازدراء، ثم لوَّح إلى ولديه قائلاً: "هيا بنا.. لسنا في مأمن هنا!". ثم التفت إلى حمدون قائلاً بنبرة تحذير جافة: "لقد طلبتَ منا أنْ يكون هذا اللقاء سراً؛ فوعدناك.. ووفينا؛ فعاملنا بالمثل واكتم ما دار بيننا وإلا..."؛ قاطعه حمدونُ هاتفاً بحزم: "لا تهدَّدني.. يا شيخ المروانية! فليس من شيمي أنْ أفضح ضيفي، لكن لا تعودوا لمثلها!". همَّ شيخُ المروانية بالانصراف؛ فبادره المؤيدُ هاتفاً بالسؤال:

- كيف علمتم بوجودي في دار حمدون.. يا أبا سليمان؟؟!
- قصرُ الخلافة مليءٌ بالعيون والجواسيس.. أيها المؤيد! (جأر بها ساخراً.. وهو يحملق إليهما بازدراء وجفاء)، ثم انطلق مغادراً الدار.. يصحبه ولداه.

****

-المشهد السابع عشر-

أُوقيظت أمُ هشام بعد أنْ انقضى هزيع الليل، وجاءتْ تسعى إلى المؤيد حيث يجلس في القاعة الغربية لتُعاتبه.. متسائلةً باستنكار: "كيف تريد أنْ تغادرنا في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل.. يا ولدي؟!!". فتبادل مع حمدون نظراتٍ حائرة مرتبكة ثم أجابها:

- عُذراً يا أم هشام! أقلقنا منامك!!
- هل كنتَ تنوي أنْ ترحل عن بيتي وأنا نائمة.. أيها الأمير؟!! (تساءلت باستهجان)
- قد أثقلنا عليكم.. وأرهقناكم! (أجابها بنبرة اعتذار وأسف)
- بل أسعدتَنا بزيارتكَ.. وأدخلتَ السرور على قلوبنا؛ أليس كذلك.. يا حمدون؟!
- ذَري حمدونَ وشأنه.. يا عمتي! فقد ساءته زيارتي أكثر مما سرته!

- ماذا تقول.. يا ولدي؟! ألا تُجب المؤيدَ.. يا حمدون؟!
- كيف ذاك أيها الأمير؟! بل.. سعدنا بزيارتك! (أجاب حمدون باقتضاب مرتبك)؛

فهبّتْ جدته تصيح فيه بشيءٍ من التأنيب: "أهكذا يكون ردك على الأمير.. يا بُني؟!"؛ ثم التفتت إلى المؤيد وأردفت بحماسٍ حازم: "أقسمتُ عليك ألا تغادر بيتي الليلة! وألا تغادره قبل أنْ تقضي لياليك الثلاثة.. كما اتفقنا! بر قسمي ولا تكثر في جدالي!!". ابتسم لها المؤيدُ بتلطُّف.. ثم غمغم بنبرة اعتذارٍ ودودة:

- لا أُحب أنْ أجلب عليكم سخط المهدي بزيارتي؛ يكفي ما جرى الليلة!!
- وما الذي جرى؟؟! أ لأن أولئك النفر المروانيين جاءوا لزيارتك؟ (تساءلت بلامبالاة)؛ فتنحنح حمدون.. وهتف بتردُّد:
- الحقُ أقول يا جدتي: إنَّ عِلم هؤلاء النفر بوجود سيدي المؤيد هنا.. ولقاءهم به.. يؤكد افتضاح السر الذي اشترط علينا الخليفةُ المهدي كتمه؛ وبالطبع هذا الأمر سيثير سخطه! فضلاً عن أنَّ لقاءهم بسيدي المؤيد أمرٌ لا يحبذه الخليفة!
- لَيْتَ شِعْرِي.. ما هذا الذي تهذي به.. يا حمدون؟!! ما هو الإثم الذي يُضايق خليفتك.. في زيارة الرجل لنا.. أو في لقائه ببعض أقاربه؟؟!
- الأمر أعظم مما تظنينَّ.. يا جدتي!!
- قُضي الأمر! لقد أقسمتُ -أيها الأمير- أنَّك ستبيت عندنا الليلة؛ وينبغي أنْ تبر يميني! (صاحت بحزم وبلهجة صارمة لتقطع الجدال)؛ ثم أردفت: "هيا اذهبا إلى مضجعيكما.. فقد تأخر الليل، وإني عائدةٌ إلى مخدعي، طابت ليلتكما!".

تبادل الرجلان النظر في وجوم.. وشيعاها بنظراتٍ مستسلمة؛ فقد غادرت القاعة إلى مخدعها دون أنْ تدع لهما فرصةً لمراجعتها. راح حمدونُ يحملق إلى المؤيد بيأس وإحباط؛ فبادله النظرات بعيونٍ حائرة، ثم هتف بنبرةٍ مُشبَّعة بالإعجاب:

- حقاً.. إنَّها امرأةٌ صارمة.. يصعب على المرء إثنائها عن عزمها!!
- هكذا هي جدتي دائماً! (هزَّ حمدون كتفيه وهو يهتف باستسلام)

- سأضطر للبقاء عندكم الليلة براً لقسمها!
- عُذراً يا مولاي! لا ريب أنَّك تُقدِّر الموقف الحَرِجَ الذي وَضَعنا فيه شيخُ المروانية بلقائه بك هنا. ولو علم بها الخليفةُ المهدي؛ فسيستاء كثيراً!
- إنْ شاء الله.. لا يصل الخبر إلى المهدي، ولقد أدركتُ باعث تخوُّفك من لقائي بهم!
- ها.. قد سمعتَ –يا سيدي المؤيد- بأُذنكَ رأيهم في المهدي، ورأيتَ بعينك حقدهم عليه وحسدهم له رغم أنَّه قرَّبهم.. وقلَّد ابنهم سليمانَ ولاية عهده!
- أصبتَ يا حمدون! فإنَّ ما دار على ألسنتهم يؤكد أنَّ الخصومة شديدة!؟
- وما تُخفي صدورهم أكبر يا سيدي.. أكبر بكثير! (هتف حمدون بمرارة)
- هيا.. انصرف إلى مضجعك يا رجل، نوماً هنيئاً! (غمغم المؤيد.. وقد أبصر عينيه الحمراوين المجهدتين)؛ فصدح حمدون كأنَّما ينفض النوم عن أذنيه:
- أ لن تنم أنت أيضاً.. يا سيدي؟!
- لقد أفزعني ما رأيتُ في عيني أبي سليمان؛ وإذا فزع الفؤاد.. ذهب الرقاد!!
- ماذا رأيتَ فيهما يا سيدي؟! (هتف محاولاً أنْ يطرد عن عينيه الكرى)
- رأيتُ ازدراءً لي.. وحقداً على المهدي.. وطمعاً في المُلك والسلطان!
- أصبتَ والله يا مولاي! وإني لأخشى أن يتسبَّب بطمعه في شق الصف.. وتفريق بني مروان! (قالها موافقاً لرأي المؤيد.. ومقاوماً لسلطان النوم استحياءً أنْ يذر الخليفة السابق متيقظاً وحده)
- وهذا ما يؤرقني يا حمدون.. فإنَّ مَن زرع الحقد والتنازع والطمع؛ حصد الفُرقة والحسرة والفزع! وإنِّي أتضرع إلى الله ألا يتنازع بنو مروان أمرهم وأنا حيٌّ، وإنِّي لأبرأ إلى ربي ممن يُشعل فتيل الفُرقة والتنازع...
- ....
- ويعلم اللهُ أنِّي ما تنازلتُ عن الخلافة لمحمد المهدي إلا درءً للفتنة.. وعزوفاً عن الخصومة والتنازع.. وحفظاً لميراث الآباء ومُلكهم!

- حفظك الله.. يا سيدي.. وثبَّتك على الحق! (هتف حمدون مزيلاً كلامه بزفرة أسى).. ثم لاذ كلاهما بالسكوت.

كان سكوتُ حمدون سكوتَ إجهادٍ وإحباط؛ أما المؤيدُ فقد كان سكوته تأمُّلاً.. وتفكُّراً في حياته السابقة.. وفي الخلافة والسلطان وتنازع الناس عليهما؛ فما لبث أنْ جأر قائلاً.. كأنَّما يُخاطب ذاته: "أ تدري يا حمدون؟ لقد كنتُ أفكر كثيراً إبان حجابة المنصور لخلافتي.. وأتأمل حاله وحالي، كنتُ أتساءل في ضميري: لِمَ لا أكون مثل عمر بن الخطاب حين عزل خالد بن الوليد؛ فأعزل المنصور.. فيعلم الناس أنني خليفةٌ قوي الشكيمة.. ذو رأي وسطوة؟! لكنني ما جرأتُ أبداً أنْ أفعلها طيلة حياته.. وحتى بعد مماته لم أجرأ أنْ أفعلها مع أبنائه!! هل تدري لماذا يا حمدون؟؟"

- .... (ظلَّ حمدون مُطرِقاً.. كأنَّ السؤال لا يعنيه).
- لأنني كنتُ معجباً بالمنصور.. وبانتصاراته العظيمة على أعداء الأمة، وكنتُ أراه حقاً مثل خالد بن الوليد –ﷺ- قائداً شجاعاً لم تهزم له راية، ولم يخسر معركة، على أني.. أنا الذي لم أكن مثل عمر!!؟
- ....
- هل تدري ماذا فعل خالد حين عزله عمر.. ﷺ؟؟
- ماذا فعل يا سيدي؟! (تساءل حمدون محاولاً أنْ يُظهر الاكتراث والانتباه)
- خضع لقرار عمر.. وقال ببساطة: سمعاً وطاعةً لخليفة المسلمين، ومع أنَّ قرار عزله بلغه عشية انتصاره العظيم في اليرموك؛ إلا أنَّه لم يعترض.. ولم ينقم.. ولم يتمرَّد؛ إنَّما أطاع قرار العزل بسعة صدر وبخلق كريم.. ليضرب لنا أروع مَثَل في إنكار الذات وطاعة الرجل المؤمن لولي الأمر، بل.. ويخرج صبيحة اليوم التالي مقاتلاً في صفوف جيش المسلمين كأنَّه لم يكن قائده المنتصر بالأمس؛ ليصبح خير قدوة لنا في التواضع.. والإخلاص لله والجهاد في سبيله!
- ما شاء الله! رضي الله عنه.. وجزاه وإخوانه من الصحابة عنا خير جزاء!!

- اللهم آمين! وإنني أعتقد أنَّ هذا الموقف العظيم لسيدنا خالد –ﷺ- هو أعظم موقف يُميّزه عن غيره من القادة الأفذاذ؛ فكأين من قائدٍ عبقري ذكره التاريخ.. وذكر انتصاراته العظيمة، لكن لم يرصد التاريخ على مر العصور –على حد علمي- أنَّ أحداً من العظماء عُزِل فور انتصاره الباهر؛ فأصبح سامعاً مطيعاً.. وانضم إلى الصفوف بتواضعٍ جم.. دون احتجاجٍ أو تمرد!!
- أصبتَ يا سيدي! وإني أحسب أنَّه موقف صعب يحتاج إلى إيمان شديد وإخلاص أكيد.. فضلاً عن شجاعة عظيمة.. لا يتمتع بها إلا قليلون.. أمثال سيدنا خالد!
- أ تظن يا حمدون أني لو كنتُ عزلتُ المنصور.. أنَّه كان سيسمع ويطيع مثل خالد؟!
- .... (سكت حمدون حائراً)؛ على أنَّ المؤيد لم يُمهله ليتفكَّر.. بل هتف بثقة:
- بالطبع لا! لم يكن المنصور لِيُذعن لقراري إنْ عزلتُه، ولم يكن ليستسلم لتجريده من سلطانه لمجرد أنَّ الخليفة قرر ذلك.. فضلاً عن أنَّ هذا الخليفة هو المؤيد هشام؛ الغلام الحدث الذي رفعه هو على عرش الخلافة.. وحفظ له ملكه!!
- ....
- فإذا كان الأمر كذلك؛ فهل ترى أنَّه كان من الصواب أنَّ أدفعه إلى التمرد عليَّ.. وإلى شق عصا الطاعة؛ فأُصيِّره عدواً للخلافة.. بعد أن كان حاجبها وحاميها؟!!
- ....
- هل ترى أنَّه كان من الصواب أنْ أُحفِّز المنصور لأنْ يتمرَّد ضد الخلافة، وأُضيِّع على الأمة انتصاراته الفذة التي لم يقدر أنْ يحققها أحدٌ قبله؟! بالطبع.. لا! وألف لا!! لذا فقد آثرتُ أنْ انصاع لتسلُّطه عليَّ.. ولاستبداده بالسلطة دوني! وإني أشهد له أنَّه حفظ الأمانة.. وما ضيعها.. والحمد لله!
- .... (كان حمدون يستمع في سكينة وهو يغالب سلطان النوم.. إلى أنْ انتبه المؤيدُ لاحمرار عينيه ولمجاهدته مارد الكرى المتسلِّط على جفونه؛ فامسك عن الكلام.. وابتسم بأبوة وحنان، ثم ربت على كتف حمدون الذي ارتبك وحاول

أن يعتذر بما أصابه من إجهاد ونصب مصدرهما ما تعرض له اليوم من هياج وإجهاد؛ فرفق به المؤيد.. وقَبِل اعتذاره.. ثم شيَّعه بمودة وهو يخافته:

– لا عليك.. يا حمدون؛ فالنوم سلطان لا يغالبه سلطانٌ إلا غلبه! اغدو إلى مخدعك.. يرحمك الله؛ لا تشق على نفسك بالجلوس معي!

****

-المشهد الثامن عشر-

الأحد الموافق: الثاني عشر من شعبان سنة ٣٩٩هـ؛

قُبيل الظهر.. وبعد أنْ حُجِب برهةً وراء الباب سُمِح لصاعد بن عبد الوهاب أنْ يدخل إلى مجلس المهدي بقصر الخلافة.

وقف صاعدُ بين يدي الخليفة فألقى السلام وهو مطأطئ الرأس محني القامة تعظيماً وإجلالاً. بادله الخليفةُ التحية بترحاب.. ومدَّ يده إليه؛ فاقترب صاعد وتناولها مصافحاً بإكبار.. ثم لثمها بخشوع. رنا إليه الخليفةُ بعين الرضا والمودة؛ فاطمأن قليلاً بعد أنْ كان متوجِّساً من استحضار الخليفة له. أدناه من مجلسه وأمر له بفاكهةٍ وشراب؛ فهدأت نفسه بعد اضطراب، واطمأن قلبه بعد وجوف! وما كان قلقه وخفقان قلبه إلا تخوُّفاً من استجلاب المهدي له على وجه السرعة.. بعد أنْ كان في غطاءٍ عن ذكره الأسابيع العديدة الماضية مذ خَلُصت له الخلافة بتنازل المؤيد له عنها وبدحره لشنجول والعامريين! حتى أنَّه غدا يشكوه قائلاً لبعض جلسائه: (نصرنا المهدي يوم أنْ كان صعلوكاً بأموالنا وأنفسنا.. وحملناه على أكتافنا ليرتقي على عرش الخلافة؛ فما كان جزاؤنا إلا الهجر والنسيان!)، فلما استُدْعى صباح اليوم للقاء الخليفة ظنَّ أنَّه كيد الوشاة.. أو أنَّ خبر زيارته للمؤيد بالأمس قد أُفتضح وبلغ المهدي فنقم عليه لزيارته بغير إذنه؛ فأوجس خيفة وخشي على روحه؛ لكن حسن استقبال المهدي له.. وبشاشته في وجهه طمأنته وهدَّأت روعه.. وأثلجت صدره.

ما يَنِي الخليفةُ يُباشر أعماله ويُصدر أوامره لعماله ويُملي قرارته على كُتَّابه، بينما صاعد ساكت يتحيَّن انتهاءه من مشاغله في خشوع وسكون، وبين الفينة والفينة.. يختلس النظر إليه.. أو إلى أحدهم يهرول تلبيةً لأمر الخليفة.. أو إلى آخر يطوي أغراضه بعد أنْ فرغ منه الخليفة وأذن له بالانصراف؛ ولم يخطر بباله -وهو على تلك الحال- أنْ يُفكر أو يتساءل: (لماذا استدعاه المهدي اليوم بعد فترة من الإهمال والنسيان؟!)؛ بل تبادر إلى ذهنه سؤالٌ آخر.. لم يخطر على قلبه من قبلُ.. إنما حضره -هكذا فجأة- عفو الخاطر: (هل محمد المهدي -هذا الرجل الذي أراه أمامي وعرفتُه قديماً- لائقٌ حقاً بالخلافة؟!)، أغراه السؤال بالتفكُّر؛ لا في إجابته.. بل في مبعث وروده على خاطره: (هل لأنَّه التقى بالخليفة المؤيد أمس في بيت حمدون؛ فأُعجب به؟!)، (وإنْ كان! فلماذا يتساءل عن المهدي؟! هل يعقد مقارنةً لاشعورية بين الرجلين؟!)، (لا جرم أنَّ المؤيد أوجه من المهدي.. وأكثر حشمة ووقار!)، (المؤيد -في نظري- أليق بالخلافة من المهدي!!)، (حسبك يا صاعد! انظر فيما تفكر، تَوَقّ وساوس الشيطان! إنني من رجال المهدي.. وزعيم أنصاره الذين ثاروا معه إلى أنْ رفعوه على عرش الخلافة!)، (لا مِراء.. أنا من أنصار المهدي.. ولا أزال من أنصاره؛ لكننا.. ثُرنا معه ضد شنجول والعامرية.. لا ضد المؤيد!! أما المؤيد فإنَّه مرواني مثل المهدي، وهو أحق منه بالخلافة!!)، (أعوذ بالله من الشيطان ووساوسه! ما هذا الذي أهذي به؟! هل أزدري الرجلَ.. وقد دعاني لمجلسه.. بعد أنْ كنتُ أظنه نسيني.. أو تنساني؟!)، (كُف عن تلك الخَطَرات يا صاعد؛ فإنها خطر! ولا تليق بك.. ولا بإخلاصك لسيدك محمد المهدي!!).

قطع صوتُ المهدي عليه هواجسه المتضاربة؛ فانتبه إليه وهو يسأله: "كيف حالك.. يا ابن عبد الوهاب؟ وكيف أحوال قرطبة؟؟".

- الحمد لله.. نعيش أسعد أيامنا في كنف أمير المؤمنين ورعايته!
- ألا تأتينا إلا إذا طلبناك.. يا رجل؟!
- وأيم الله.. إنني لأشتاق دائماً إلى رؤية مولاي أبي الوليد ومجالسته، وما ينهاني عنه إلا علمي بمشاغله الجسيمة؛ أعانك الله يا مولانا!

- وأنا كذلك اشتقتُ لمجالستك يا صاعد.. كسابق عهدنا! ألا تذكر جبل العروس ولياليه الباردة التي قضيناها معاً!
- أعز الله مولانا أمير المؤمنين! مثلي لا ينسى تلك الأيام الحبيبة! لكن.. اعف عني يا سيدنا؛ فإنَّ شيطاني الأهوج سوَّل لي أنَّ أمير المؤمنين نسيها!
- .... (حدَّق فيه المهدي باشمئزاز؛ فظنَّ أنَّه تجاوز حده؛ فاستطرد بنبرة مُستعطِفة كأنَّما يصحِّح كلامه وهتف:
- لا أقصد أنَّ مولانا نسيها جحوداً! كلا والله! فإنَّكم أكرم وأوفى؛ إنَّما أقصد أنَّ مسئولياتكم العظيمة شغلتكم عنا، قوَّاكم الله.. يا أمير المؤمنين!
- أصبتَ! إنَّ مهام الخلافة شغلتني -الفترة السابقة- عن أمثالك من رفاق الدرب!
- إنَّها لمفخرةٌ عظيمة أنْ يذكرني أمير المؤمنين.. فيقول عني: أني من رفاق دربه!
- وحقٌّ لك أنْ تفخر يا رجل! بل.. إنَّك من أصحابنا المقربين! (هتف بها كأنَّما يخاطب الحاضرين من عماله وخدامه.. كأنَّه يقرُّ أمامهم بفضل صاعد ومكانته؛ فانتشى صاعد لما يسمع وزادت ثقته في نفسه بإطراء الخليفة له أمام جلسائه.

ثم وخزه ضميره على سوء ظنه السابق بسيده؛ فخجل حتى انعقد لسانه فلم يستطع أنْ يجيبه؛ فاستطرد المهدي بمودة: "وإني أعدك يا صاعد؛ لن أغفل عنكم بعد اليوم.. ولن أهمل صحبتكم! لذا فإني أدعوك.. فلتأتينا مساءً —اليوم وأي يوم شئت- لتسمر معنا في مجلس الندماء؛ قد ضممتُك إلى ندمائي من الآن، ولن تُحجب عن دخول القصر! وادع معك الحسن بن حيّ؛ فهو مِن رفاق الأيام الخوالي!"

- إنَّه لشرفٌ نبيل مننتم به علينا.. يا أمير المؤمنين! (جأر بنبرة امتنانٍ حميمية)، وقد أنهضه السرورُ عن مقعده، ثم جعل ينحني ويشير بيده فوق رأسه تعظيماً وتوقيراً للخليفة.. الذي ابتسم له بودٍ، وأمر له بهدية.. ثم أذن له بالانصراف.

****

- المشهد التاسع عشر -

مضى صباحُ يوم المؤيد في بيت حمدون كصباحِ أمسه: استيقظ مبكراً لصلاة الفجر.. ولبث في مخدعه يذكر الله حتى طلعت الشمس فصلى الضحى، ثم دعا حمدونَ.. وجلسا -وسط الفناء- يستمتعا بشروق شمس قرطبة الوفية.. وهبَّات نسائم ربيعها الصباحية اللطيفة.

هذا.. وجاريته شعب بين يديه تهرع لمساعدته وتلبية رغباته، التمس من حمدون أنْ يتلو عليه آياتٍ من القرآن العظيم بصوته النَّدي.. الذي أحبه مذ أول مرة استمع إليه فيها -ذات يومٍ- بقصر الخلافة؛ فكانت وسيلة قربه منه ومحبته له.

مضى حمدون يُرتِّل ترتيلاً عذباً بصوتٍ رخيم.. عانقته تسابيح الطيور التي تطوف من حوله؛ رقَّت لتلاوته القلوب وذرفت لخشيته العيون.. حتى أنَّ بقية النساء اللواتي في الدار –أم هشام وسلوان وأم سعدون وجاريتي المؤيد- اجتمعنَّ حوله.. يستمعنَّ إليه، وينصتنَّ إلى القرآن الكريم في خشوعٍ وسكينة.

بعد أنْ غذَّت روحها بسماع بعض الترتيل.. وقفت أمُ سعدون بهدوء ولمَّحت إلى الجاريتين خفية؛ فرجع ثلاثتهنَّ لأعمالهنَّ المنزلية.. ولإعداد الإفطار. لمَّا قُضِي جزء من الترتيل الخاشع.. تنبَّه المؤيدُ للإجهاد الذي أصاب حمدون؛ فرأف به.. وألمح إليه أنْ (حسبك)؛ فأتم حمدونُ آيته الأخيرة وأنهى تلاوته؛ حالما يكفكف الأخريات عبراتهنَّ الخاشعة كأنَّما يستعدنَّ أرواحهنَّ من ملكوتٍ آخر، ثم همس المؤيدُ: "بارك الله فيك.. يا حمدون، وجزاك عنا وعن القرآن.. خيراً!". فأحنى حمدون رأسه تواضعاً.. وهتف بسكينة: "وجزاكم مثله.. يا سيدنا!"؛ فهتفت أمُ هشام: "نفعنا الله وإياكم بالقرآن العظيم، وجعله حجةً لنا لا حجةً علينا.. وشفيعاً لنا يوم القيامة!". فجأر الجميع: "اللهم آمين".

ثم لاذوا بالصمت الخاشع فيما تغاريد العصافير والطيور -من حولهم- تأتيهم من بعيدٍ وقريبٍ.. لتُأنسهم كأنَّما تخاطبهم: (لستم وحدكم -يا معشر الإنس- مَن تسبحون الخالق -سبحانه وتعالى-؛ بل الجبال يسبحنَّ والطير.. كلٌ علم صلاته وتسبيحه)، بعد برهةٍ يسيرة.. أقبلت أمُ سعدون إليهم.. هاتفةً: "هَلُمُّوا يا سادة.. إلى الإفطار!". فتساءل المؤيد: "أين سعدون ولدكِ؟! ادعيه.. ليأكل معنا!"؛ فابتسمت عيناها الدقيقتان وهي تقول بامتنان: "لقد خرج مبكراً بالأغنام إلى المروج، وأعطيتُه طعامه.. يا سيدنا!".

بعد أنْ تناول الجميعُ الإفطار.. تَوَجَّه كلٌ إلى شأنه: فخرج حمدونُ لزيارة أحد الجيران الذي كان قد التمس منه الزيارة ليُكلِّمه في بعض الشئون؛ فاستسمح المؤيدَ في الانصراف –بعض الوقت- إلى زيارة ذاك الجار. أما الوصيفة شعب والجاريتان فقُمنَّ مع أم سعدون تعاونَّها في مهام الدار بناءً على توجيه المؤيد الذي أشفق عليها لمَّا ألفاها –أمس- تقوم بتلك المهام وحدها دون معينٍ من خادماتٍ أُخر أو جواري. وقد لفت ذلك انتباهه إلى عدم وجود إماءٍ أو عبيد لدى أم هشام؛ فأشفق عليها هي الأخرى، وظنَّ أنَّ العِلَّة هي ضيق ذات اليد؛ فلمَّا صارح وصيفته (شعب) بظنه هذا؛ أخبرته بما قالته أم سعدون أمس: (إنَّها ما تنفك تشتري إحداهنَّ.. حتى تعتقها، ولربما زوَّجتها وأنفقت عليها وعلى زواجها المال الكثير!)؛ فازداد إعجابه بالجدة المروانية وبسخائها، وأمر وصيفتَه أنْ تساعد هي والجاريتان في مهام الدار.. طيلة مكثهم فيها، وأضمر في سريرته حاجة أخرى. أما سلوان فقد قامت إلى قاعة الدرس لتُمارس تدريبها العملي في رسم المصحف، في حين بقيتْ أمُ هشام جالسةً في صحبته.. إلى حين عودة حمدون.

مشى معها إلى صحن البيت القديم.. لينظر إلى أحواض الزهور التي تُزينه، جذبه جمال شُجيرات الأزهار والرياحين التي تحيط بالصحن، وتفوح بشذاها الأخاذ؛ فتفغم المكان بطيب ريحها التي انسابتْ.. لتداعب خياشيمه، استنشق.. وأرسل نفساً عميقاً إلى صدره.. ليملأه بهذا العبير الفَوّاح، ثم عاد معها إلى فناء البئر الأوسع مساحة؛ فأنشأ يتلفَّت حوله كمَن يبحث عن شيءٍ يفتقده.. ثم هتف مُستفهِماً:

- ألا تزرعين بعض الأشجار والنباتات في هذا الفناء أيضاً.. يا عمتي؟!
- لا جرم.. يا ولدي؛ سأزرع.. إنْ شاء الله!
- اسمحي لي أنْ أهديكِ بعض الغرائس.. من جنة الرصافة!
- كرمك معهود.. أيها المؤيد، لا تجهد نفسك.. من أجلنا!
- ألا تُحبين الرمان السفري؟! سأهديكِ فسائل رمان ليس لمذاقها مثيل في الأرض!
- الحمد لله على نعمته.. عندنا في (منية فاطمة المروانية) أشجارٌ عديدة من الرمان السفري. (سكتت لوهلة.. ثم مضت تؤنسه بالحديث ريثما يعود حمدون فتساءلت: "هل تعلم لماذا سُمي رمان الأندلس بالسفري.. أيها المؤيد؟؟".
- لستُ أعلم! خبريني يا عمتي.. زادكِ الله علماً!
- يُقال: أنَّه –قبل ما يزيد عن مائتين وخمسين عاماً- لما استقر الأمر بالأندلس لجدنا الأكبر (عبد الرحمن الداخل) بعث إلى الشام مَن يأتيه بأُختِه (أم الأصبغ)؛ لكنها لم تأتِ.. وتعلَّلت بكبر سنها وقالت: (قد كبرت سني، وأشرفتُ على انقضاء أجلي، ولا طاقة بي على شق القفار والبحار، وحسبي أنْ أعلم ما صار إليه أخي من نعمة الله!)، وأرسلت له هدايا من تحف أهل الشام.. فيها شيءٌ من رمان الشام؛ فلما وصلت الهدايا إلى الأمير عبد الرحمن أهدى منها (رمانة) إلى سفر بن عبيد الكلاعي (وهو من أبناء أنصار رسول الله عليه الصلاة والسلام).. وكان خبيراً بالفلاحة؛ فحملها معه إلى حيث يقيم في كورة (رية) جنوب قرطبة؛ فزرعها واتقن زراعتها واهتم بها.. وصبر عليها سنوات لغاية ما طلعت شجراً.. وأثمرت وأينعت، ثم جاء ببعض ثمارها إلى جدنا (الأمير عبد الرحمن)؛ فاستبرع الأميرُ استنباطه واستنبل همته وشكر صنيعه، وغرس منها بمنية الرصافة؛ ومنها انتشرت في الأندلس، وصار هذا الرمان يعرف باسم (السفري) إلى يومنا هذا.. نسبةً إلى هذا الرجل المبارك!
- ما شاء الله يا عمتي.. إنَّ لكِ في كل علمٍ باع.. بارك الله في علمكِ ونفع بكِ! (هتف بإعجاب).. ثم استطرد متسائلاً: "فما هي.. (منية فاطمة)؟!".

- إنَّها حديقتي التي ورثتها عن والدي –يرحمه الله-؛ أستأجر العمال والفلاحين لزراعتها.. واكتسب رزقي من نتاج ثمارها.
- ما شاء الله! بارك الله لكِ فيها! لكني ما زلتُ أرغب أنْ أُهديكِ من غرائس الرصافة لتزرعيها في هذا الفناء؛ فيتذكَّرني أهل الدار كلما نظروا إليها.. أو أكلوا من ثمرها!
- كما ترغب.. يا سيدي! لن نرد لك هدية؛ بل يسعدنا اهتمامك بنا.. وحدبك علينا!
- إذاً.. عندما نرجع إلى القصر –إن شاء الله- سأرسلها لكِ مع حمدون، ولو شئتي.. أُرسل بعض فلاحي القصر.. يزرعونها لكم!
- أشكرك.. يا ولدي! لا داعي للفلاحين؛ فإني أحب أنْ أغرسها بيدي.. تقرُّباً إلى الله!
- لله دَرُّك.. يا عمتي! لقد تعلمتُ منك الكثير في هذين اليومين.. وإنّي أُعدهما من أسعد أيام حياتي! لكن لابد من الرحيل.. فأذني لي أنْ أرحل عنكم.. الليلة!
- أسعدك الله يا ولدي في الدنيا والآخرة؛ إنْ شئتَ: ابق معنا أيام أُخر.. على الرحب!
- لقد اتفقتُ مع المهدي على الغياب عن القصر لثلاث ليالٍ فقط، ووعدتُه بالعودة بعدها؛ فذريني أوفي بعهدي!
- كما تشاء.. يا ولدي! واعلم أنَّ داري هي دارك، وأنني أسعد باستقبالك في كل حين!

****

-المشهد العشرون-

كانت سلوان تمارس عملها بنشاط وحماس كدأبها، بيد أنها كانت –هذا الصباح- أكثر حبوراً؛ فقد تملَّكها شعورٌ لطيف.. أثاره في وجدانها ترتيلُ حمدون العذبُ للقرآن، لقد ذكَّرها بأيامها معه في جبل العروس حيث كان يرتِّلُ بذاتِ الصوت العذب ذاتَ الترتيل الخاشع.. وهو قابع خارج خبائها بكهف الجبل ليحرسها ويحميها من مخاطره ووحوشه.

ذكَّرها بتلك الأيام الخوالي؛ فأثار في وجدانها شجناً لذيذاً.. وحنيناً صادقاً لتلك الأيام! وشعرت كأنَّ رائحة صخور الكهف الرطبة تداعب خيشومها.. مختلطة برائحة الحطب اليابس وهو يحترق في المجمرة التي وضعها حمدونُ بين يديها لتتدفأ بها.. وتدرأ بحرارتها عن أطرافها برودة الجبل وصقيع شتائه؛ سبحان الله! كيف للإنسان أنْ يشعر بالحنين لأيامٍ مضتْ من حياته.. كان يظنها أيام تعيسة؛ فإذا به حين يذكرها يجد في ذكراها سلوى وسعادة!

حينما كانت مشغولة بين قلمها ومحبرتها ورقاقها.. ومُنتشية بذكرياتها الشجية؛ استأذنتها أم هشام في ولوج المؤيد معها إلى قاعة الدرس ليشاهد ما تفعله؛ فأذنت لهما. دخل القاعة فأبصر بين يديها رقَّ تكتب فيه؛ تطلَّع إليه يريد أن يُعاين خطها؛ فمدَّت يدها به إليه. التقطه منها.. ثم بدأ يُتمتم بقراءة المكتوب، وراح يدقِّق فيه البصر.. ليحكم على حسن خطها، سكت وهلة.. ثم هتف باسماً:

- ما شاء الله! خطكِ حسنٌ.. يا سلوان، وكتابتكِ رائعة؛ إنكِ موهوبةٌ.. حقاً!
- لا جرم.. قد حاباها الله بنعمة الخط الحسن، وإنْ شاء الله.. بالمثابرة على التدريب والتعلُّم.. أحسبها ستكون أفضل كاتبة.. في قرطبة! (هتفت أم هشام بحماس).
- لو أردتُ أنْ أُشبِّه خطك بخط أحد الكُتاب؛ لوجدتُه أقرب إلى خط (لبنى) كاتبة والدي الحكم المستنصر –رحمه الله-؛ فلو اطلَّعتِ على بعض الكتب أو القراطيس التي بخطها في مكتبة أبي المستنصر بمدينة الزهراء؛ لتأكدتِ أنَّ كتابتكِ تشبه كتابتها.. في الخط والتنسيق!
- غفر الله لها.. فقد كانت من خير النساء؛ أحسبها كذلك.. ولا أُزكيها على الله! (هتفت أم هشام بإشفاقٍ وتأثُّر)؛ فتساءل المؤيد بانبهارٍ ودهشة:
- هل تعرفينها.. يا عمتي؟!
- بالطبع يا ولدي! فقد كانت رفيقة دربي في تعلم النحو والكتابة وأصول الخط.. ورسم المصحف في زمن جدكم الخليفة الناصر وأنا صبية صغيرة.. وكان ذلك في

قصر أبيك قبل أنْ يصير الخليفة، وإني أشهد لها بالمهارة في الكتابة.. وحسن الخط، فضلاً عن حذقها في الحساب وعلوم الرياضيات!

- رحمة الله على الجميع!!
- ولا يخفى على أحد أنَّ الفضل كان لله.. ثم لها هي و(حسداي بن شبروط) في إنشاء مكتبة أبيكم –رحمه الله- التي في الزهراء!
- أصبتِ.. يا عمتي! لَعَمْرُكِ إني لأغبطكِ على صحبتكِ لجدي الناصر ووالدي المستنصر.. ولبنى الكاتبة.. وأمثالهم من العظماء!
- اسأل الله أنْ يجمعنا مع الأخيار في الدرجات العلى من الجنة!
- اللهم آمين! (تمتم بها) ثم جعل يتشمم رائحة الرقّ الذي بين يديه، وتناول دواة حبرها.. وجعل يتنشقها ثم هتف: "هل تُضيفي الكافور إلى مدادكِ.. يا سلوان؟!"

على استحياء هزَّت رأسها أنْ: نعم؛ وابتسمتْ أم هشام مسرورةً لأنَّه لاحظ حسن صناعتها في الحبر، إلا أنَّه لم يكتفِ بإماءة سلوان المقتضبة؛ فاستأنف متسائلاً باهتمام: "هل تصنعين الحبر الذي تكتبين به بنفسك؟!"؛ فأجابته: "نعم! لقد علمتني سيدتي أم هشام!"؛ فالتفتَ بانبهار إلى أم هشام وتساءل: "ولماذا تُجهدون أنفسكم في صناعته بأيديكم.. يا عمتي؟!"، فأجابته السيدةُ قائلة بتلطُّف وسعة صدر:

- إنَّما أُعظِم كتاب الله العزيز، لذا.. فإني لا أكتبه في الأوراق؛ بل في الرقاق.. لأنها أطول عمراً فهي أليق بحفظ القرآن، أما المداد الذي أكتبه به؛ فإني أُحب أنْ أطبخه بنفسي.. تعظيماً لكتاب الله.. وتقرباً إلى الله!
- لله دَرُّكِ.. يا عمتي.. لقد أخجلتني بتعظيمك لكتاب الله! (هتف بإعجاب)، ثم التفت إلى سلوان: "خبريني: كيف تصنعين المداد.. أيتها التلميذة النجيبة؟".

استجمعت سلوانُ شجاعتها الأدبية وانطلقت تشرح له طريقة أستاذتها في صناعة الحبر فقالت: "إنَّ سيدتي -أم هشام- اختارت أنْ نصنعه من العفص (ثمار شجرة البلوط)؛ فنأخذ مقداراً محسوباً من العفص ونَدُقُّه إلى أنْ يصير جريشاً ثم يُنقَع في

كمية من الماء ثلاثة أضعاف مقداره تقريباً.. لعدة أيام، ثم يُغلى في طنجرة على نارٍ لينة لغاية ما ينضج ويقل حجم الماء إلى ثُلثيه أو نصفه، ثم يضاف إليه مقدار مناسب من الزاج الأخضر والصمغ.. وقليلاً من السكر أو العسل، وأيضاً.. نضيف إليه الكافور، وقد يحتاج –أحياناً- إلى إضافة بعض الملح.. ليُزيد من شدة سواد الحبر، ثم يُبرد ويُترك في الشمس ثلاثة أيام، ثم يُصفى.. ويُوضع في إناء جديد؛ ويصبح جاهزاً للاستعمال!".

- ما شاء الله! تتكلَّمين.. وكأنَّك خبيرةٌ.. في صناعة الأحبار!!؟
- لقد جعلتني سيدتي أطبخه بيدي.. أكثر من مرة.
- لكن.. هل لي أنْ اسأل عن سر هذا المزيج.. وكل هذه الإضافات عليه.. يا عمتي؟!
- أرى أنَّكَ تُحب المعرفة والاستزادة من العلم أيها المؤيد.. وهذا خُلق طيب! (هتفت أم هشام مثنيةً عليه)؛ فأحنى رأسه تواضعاً وابتسم ممتناً لثنائها ثم استطرد:
- خبريني إذاً.. بأسرار هذا المزيج المتراكب!!
- ليس فيه أسرارٌ.. يا ولدي! ثمة وصفات كثيرة لطبخ الأحبار، ولكل خطاط رأيه ووسيلته الخاصة في مزج المداد، وما أنبأتكَ به سلوانُ هو مزيج الحبر الذي ارتضيتُه لنفسي: فإني أفضل استخلاص لونه بإضافة الزاج الأخضر إلى العفص المطحون، وأنقعه في الماء ليصبح سائلاً فيمكن استخدامه كمداد؛ وأطبخه بهذه الطريقة -التي حدَّثتْكَ سلوانُ عنها- ليكون لونه أسوداً لامعاً.. كما أحب!
- فلماذا تُضيفين الصمغ إليه؟!
- ليُزيد من لزوجة السائل.. فلا يترسب جريش العفص وينفصل عن الماء.
- والسكر؟؟
- يُضاف السكر ليساعد الصمغ في زيادة اللزوجة، وليمنع تصلُّبه بصورةٍ قاسية حيث أنَّه يتكتل بعد فترة من الزمن فيؤدي إلى فساد المداد، وأيضاً ليكون للمداد طراوة بعد جفافه عند الكتابة به فلا يتكسَّر عند طي الصحاف أو الرقاق التي كُتب به فيها. على أني أحبذ إضافة العسل -كبديل للسكر- حيث أنَّ له ذات فِعل السكر كمثخن وملين، ويزيد عليه في أنَّه يحفظ المداد من العطب لزمن أطول.

أما الكافور.. فنُضيفه إلى المداد –أيضاً- ليساعد في حفظه.. علاوةً على رائحته الطيبة التي تُغطي على رائحة العفص والزاج الكريهة. وقد نضيف (الصبر) فإنَّه يفيد في حجز الذباب والحشرات عن الوقوف على المداد والرقاق التي كُتبت به.

- بارك الله في علمكِ.. أيتها السيدة! أشهد أنَّكِ غزيرة العلم، وإني لفخورٌ بأنّي عاصرتُ امرأةً.. في علمكِ وجودكِ وحكمتكِ!
- استغفر الله.. يا ولدي! بل قل: وما أوتيتم من العلم إلا قليلا، وفوق كل ذي علم عليم، والحمد لله تعالى.. فإنَّ في بلدنا الحبيب (قرطبة) نساءً كثيراتٍ خيرٌ مني!!

هنالك.. سمعوا صوت حمدون يُسلِّم عليهم، ثم يدلف إليهم من باب الردهة، ردُّوا عليه التحية بمثلها، ثم التفت إليه المؤيد هاتفاً بإعجابٍ وحماس:

- إنّي أغبطكَ على جدتكَ.. يا حمدون!
- يشرفنا أنْ تكون لك أماً كما هي جدتي.. يا سيدي؛ فهي –بحق- أمٌ لكل مرواني واصل لرحمه.. محب للعلم والتعلُّم! (هتف حمدون بامتنانٍ ومودة)
- بل الشرف لي أنا! وإنَّ من موجبات سعادتي أنْ تسمحي لي بتكرار زياراتي لكِ.. يا عمتي؛ لكي أنهل من بحر علمكِ الفيَّاض!
- على الرحب والسعة.. يا ولدي، الدار داركَ.. فأتنا أنى شئتَ!
- لكن.. اسمحي لي أنْ أرحل عنكم هذا المساء.. في هدأة الليل! ومع أني أحب أنْ أبقى معكِ مدة أطول؛ إلا أني سأرحل مضطراً وفاءً لعهدي مع المهدي، وإنْ شاء الله سأعود قريباً؛ فلا تنفري من تكرار زيارتي!
- بل نسعد بك وبمَن يأتي معك.. إنْ شاء الله!
- والآن.. لي رجاء أود أنْ تقبليه.. ولا ترديني خائباً!
- سل تعطى أيها الأمير؛ إجابة طلبك حقٌ علينا!
- أرجو أنْ تقبلي الجاريتين.. لتبقيا معكم تخدمانكِ.. عوناً لأم سعدون!
- لا تكترث لذلك.. يا ولدي؛ فإني -إن شاء الله- سأجلب لها مَن يعاونها!

- إيه.. يا عمتي! فلقد علمتُ سر عدم احتفاظك بالجواري والإماء؛ لذا.. وحرصاً مني على أنْ تبقيا في خدمتكِ؛ سأُبقيهما مِلْك يميني؛ وبالتالي.. لن تتمكَّني من عتقهما.. كما اعتدتِ أنْ تفعلي! (جأر بها مداعباً وابتسامته تملء وجهه؛ فابتسم حمدون وابتسمت سلوان؛ لكن انقبضت أسارير أم هشام ولم تبتسم.. وظنتها دعابة سخيفة؛ فألح عليها الخليفةُ (السابق).. وسألها بالله وبما له عليها من حق صلةً للرحم.. وبما صار بينهما من ود أنْ تقبل بقاء الجاريتين عندها كهدية؛ فاستجابت لرجائه في النهاية.. وقبلت منه.. ودعتْ له بالخير.

****

-المشهد الحادي والعشرون-

مساءاً.. جاء صاعدُ بن عبد الوهاب إلى القصر وهو لا يزال مبهوتاً.. لا يُصدِّق ما حصل له ظهيرة اليوم: (تذكره الخليفةُ المهدي –فجأة- بعد أسابيع من النسيان؛ فدعاه إلى قصر الخلافة، واستقبله في مجلس حُكمه، وأطعمه وسقاه وأهداه حلةً خليفية فاخرة وهدايا نفيسة، وأعظم من ذلك: ضمه إلى مجلس ندمائه، وسمح له بدخول القصر في أي وقت شاء، وأمر الحراس ألا يحجبوه!)، (هل هي حقيقة واقعة.. أم هو حلم مُتوهَمٌ سرعان ما سيستيقظ منه على مرار واقع النسيان؟! نسيان الخليفة المهدي.. وحاجبه (عبد الجبار بن المغيرة).. وصاحب شرطته (محمد بن المغيرة) لمحرك ثورتهم الناجحة الذي لولاه لمَّا تمكَّن رجلٌ منهم.. وما وصلوا لِما هم فيه من عظمة وأبهة!!)؛ (سترى الحين.. يا صاعد: هل ما يجري محض حلم.. أم حقيقة واقعة!!).

أُدخِل إلى مجلس الندماء فصادفه خالياً.. إلا من بعض الإماء والخدم الذين يهيئون المكان، ظنَّ أنَّه جاء مبكراً؛ تلَّفت بإعجاب في المجلس الفسيح.. فانشده لما فيه من أمارات الأبهة والثراء والترف: نظر فوق رأسه؛ فأخذ بصرَه ضياءُ الثريات الضخمة المتدلِّية من السقف المُقَبَّب الذي روَّعه ارتفاعه الشاهق وبهرته زخارفه المتلألئة كنجوم السماء، راحت عيناه تدوران في محجريهما.. تطوفان وتجولان في الجمال

والبهاء والفخامة من حوله بين أثاث فاخر وبُسُط وثيرة وتحف نفيسة وزخارف براقة ونقوش مزينة للأسقف والجدران؛ حتى كَلَّ بصره وأصاب الدوارُ رأسَه إعجاباً وانبهاراً!!

رغم ارتدائه الحُلة الفاخرة التي أهداه الخليفةُ إياها أول النهار؛ إلا أنَّ أحداً من الخدم لم يعبأ به.. كأنَّه خفي عن أعينهم.. كأنَّه لا أحد! أبصر نافذةً عظيمةً في إحدى جوانب المجلس يهبّ خلالها نسيمٌ لطيف.. هفت روحه إليه؛ فاتجه إليها كأنَّما يفر من خُنَاق الأبهة والفخامة. اقترب من النافذة.. وحبَّذ أنْ يجلس جوارها ليستمتع بنداوة الليل ونسائمه. رنا ببصره إلى النافذة ومصارعها الضخمة المزينة بالذهب والفضة؛ فجذبه حسن جمالها وأخذه رونق صنعتها! لكن.. أشد ما انشده له عقله وكاد يطير من جَرَّائه لبه: هي أستار تلك النافذة؛ فحينما هبَّت نسائمُ لطيفة داعبت الغلائلَ الشفافة التي تستر النافذة؛ انتبه إليها.. فهَبَّ يُحملق إليها وإلى الستائر الغلاظ التي جُمعت على جانبيها؛ فبَرِق بصره لرؤيتها كأنها استفزت غريزة الجشع في كوامن نفسه: (ما هذا الذي تراه عيني؟!! نافذة مذهَّبة.. عليها غلائل من السندس وستائر من الاستبرق؟!! بؤساً لك.. يا ابن عبد الوهاب! لقد لبثتُ أُتاجر في سوق الحرير عُمْراً.. وأبي من قبلي؛ فما جمعنا كمثل ثمن تلك الستائر الباذخة! والله إنَّنا لفقراء.. لم نملك شيئاً!)، (والله.. لإنْ امتلكتُ ستائرَ هذه النافذة فقط؛ لأصبحتُ من أكابر تجار الحرير!)، (يا لك من تعس.. يا صاعد! فأنت من سُقتَ هذا النعيم والجاه لابن هشام، ولولاك لما آلت إليه الخلافة.. ولما حاز كل هذا الثراء والنعيم!)، (لا جرم.. لي حقٌ في هذا النعيم؛ ولن أُفرط فيه! آن الأوان.. كي أحوز نصيبي من غنائم ثورة بني مروان!!).

أفاق من خطراته على الخدم والإماء يرحبون بقدوم الخليفة؛ فهبَّ يسعى إليه بهمَّة حتى مَثَل بين يديه في تواضع، حياه المهدي.. ثم داعبه: "أراك جئتَ.. مبكراً!!".

– ما أعجلني إلا الشوقُ للأُنس بمجالسة مولانا أمير المؤمنين!

- ستنعم بالأنس بي وبمجالستي وحدك الليلة! (هتف يمازحه).. ثم أردف بجدية: "لقد قررتُ ألا ينادمني الليلة أحدٌ سوى صحبتي القديمة.. ورفقاء ثورتي!"
- إنَّه لشرفٌ عظيم مننتم به علينا.. يا أمير المؤمنين!
- لماذا لم يأتِ معك الحسنُ بن حيٍّ؟؟!
- أردتُ أنْ أفوقه بمنادمة سيدنا دونه.. ولو لبضع ليلة!
- يا لك.. من خبيث!! (صاح وهو يضحك ملء شدقيه)، ثم أردف بنبرة جادة: "أم تراه يستنكف أنْ يجلس معي.. في مجلس يُشرب فيه الخمر؟؟!".
- حاشانا -يا سيدنا- أنْ نستنكف عن مجلسكم.. ولو كان في جهنم!!
- بما تهذي.. أيها الرقيع؟! وهل أنا من أهل جهنم؟؟ (صاح بنبرةٍ صارمة، وحنقٌ مصطنع)؛ فارتعد صاعد وخشي على روحه نقمةَ الخليفة.. فجأر بتضرُّعٍ وتوسل:
- رحماك.. يا سيدنا! يمين الله.. لم أقصد إهانتكم؛ إنَّما أردتُ تعظيمكم!! (قالها ترتعش بها شفتاه)، ثم سكت هنيهة.. لكن لم يسكن اضطرابه حتى بدأت قسمات المهدي تنفرج تبسُّماً.. فهدأ جزعه وهتف: "عفا الله عن أمير المؤمنين كما عفا عني!". فانفجر المهدي ضاحكاً وهو يقول:
- لا تفزع.. أيها الرعديد! فلن يمسك مني شرٌّ، لكن جئنِّي بالحسن معك عصر الغد لنتسامر سوياً.. قبل انعقاد مجلس الندماء، وإياك أنْ تأتي بدونه!
- حباً وكرامة! نأتي به يا مولاي! (هتف بانصياع)، ثم أبصر وجه الخليفة الباسم؛ فصدح مُتزلِّفاً: "أدام الله سرور مولانا؛ لم أراكم تضحكون هكذا.. من قبلُ!".
- نعم! لم أضحك هكذا قبل اليوم؛ هل تدري لماذا.. يا صاعد؟؟
- في الأيام الخوالي.. كان مولاي يحمل هموماً ثقيلة: ثأركم لأبيكم.. واسترداد مُلك المروانية ممن سلبوه، والآن.. زال الهم وبقي الفرح والسعادة!
- أصبتَ! لقد شغلتني الرغبة في الثأر والانتقام عن السعادة والنعيم، وجعلتْ مني صعلوكاً هائماً على وجهه؛ سكنتُ أكواخ الريف وكهوف الجبال، وكان السخط والحقد يصدّانني عن الابتسام! وحين نجحت ثورتنا –ودورك فيها ونصحك لنا لا

يُنكر- وآلت لي الخلافة، واستعدتُ مُلك المروانية، وسكنتُ قصر الخلافة توهَّمتُ أنَّ الغم قد زال، ولم يبق إلا السعادة والنعيم! لكن هيهات.. فقد كنتُ مخطئاً!

- لا شك أنَّ مهام الخلافة.. وأمور الدولة هي التي تشغل سيدنا الآن.. وتُؤرقه؟!!
- كلا!! ليس كما تظن.. البتة! (هتف بمرارة)
- روحي فداؤك.. يا أمير المؤمنين! فما الذي يُنغِّص عليك سعادتك؟!!
- سأبوح لك بمكنون صدري.. يا صاعد؛ فإني لا أشك في إخلاصك ونصحك.. وسابقتك عندنا مشكورة! واكتم عني.. ولا تُحدِّث أحدا به!!
- أنا خادمك المخلص.. يا مولانا! سرك في جوفي لا يفارقه حتى تفارقني روحي!!
- آه.. يا صاعد! لقد لبثتُ في هذا القصر مذ آلت لي الخلافة لأسابيع عديدة مضت؛ فما شعرتُ يوماً أنَّه قصري، أو أنني خليفته حقاً إلا الأمس؛ الأمس فقط!! (غمغم بتلك الكلمات وكأنَّما ينفث بها هواءً ثقيلاً جاثم على صدره، أو كأنَّما يُنفِّس بالزفرات الملتهبة المبثوثة بين حروفه عن أوجاع فؤاده!!)؛ لكن صاعد لم يفهم مراده، إلا أنَّه انصب مُتزلِّفاً.. يسأل بشغفٍ مصطنع:
- كيف ذاك يا مولانا؟؟ أي شيطان هذا الذي يدَّعي أنَّك لستَ الخليفة أو أنَّك لستَ صاحب هذا القصر؟؟!
- الكلُ.. يا صاعد! كل أهل هذا القصر: الخدم والعبيد.. الجواري والإماء.. القيَّان والراقصات.. حتى الجنود والحراس!!
- ما بال هؤلاء.. يا أمير المؤمنين؟؟ كيف يدَّعون أنَّك.. لستَ الخليفة؟!!
- ماذا أقول؟!! عندما تنازل المؤيد لي عن الخلافة؛ ظننتُ أنني غدوتُ الخليفة.. وصاحب القصر! إلا أنَّ الحقيقة كانت غير ما ظننتُ!!
- كيف ذاك.. يا أمير المؤمنين؟!! من ذا الذي يُنكر أنَّك خليفة الأندلس؟!!
- بلى! أنا خليفة الأندلس.. وكلمتي نافذة في كل ربوعها! أما هذا القصر.. قصر الخلافة.. فإني أعيش فيه كأني غريب! كأني لستُ الخليفة.. بل هو الخليفة! أُبصر

هذا في نظراتهم المختلسة.. وأسمعه في همساتهم الخفيتة.. وأحسه في لفتاتهم وتصرفاتهم العفوية! الخليفةُ هنا -يا صاعد- هو: (هشام المؤيد).. ولستُ أنا!!

- حاشاك يا سيدنا؟؟ إنَّما الأمر والنهي لك وحدك!!
- أجل! الأمر لي والنهي لي، والخوف من بطشي، والرهبة من سيفي! لكن المحبة والإكبار يكونان له! يجول بينهم في القصر.. يلاطفهم ويلاطفونه.. ويداعبهم ويداعبونه! يُظهرون لي السمع والطاعة، ويُضمرون له المودة والتوقير! أُناديهم فيجهرون: (لبيك.. يا مولانا الخليفة)، وفي سرائرهم ينادون: (المؤيد هو الخليفة)!!
- لا تشق على نفسك.. يا سيدنا! ومادامت الجهائر لك؛ فلا تُفتِّش في السرائر!
- بل يجهرون بها أيضاً.. يا صاعد! ولقد سمعتُ أحدهم بأُذني يناديه: (مولانا الخليفة المؤيد!)؛ فما ملكتُ نفسي من الغيظ: فجاءني هذا الخادم يرتجف ويعتذر بأنها ذلة لسان جرت مجرى العادة؛ فما هدأت فورتي إلا بقطع لسانه، ولولا شفاعة الشافعين لقطعتُ رأسه!
- .... (خرس صاعد ارتياعاً من ذاك الغُلُوّ في العقاب.. على الهنة الهينة).
- الكلُ في هذا القصر يصنع وفق ما يحبه المؤيدُ.. وإتباعاً لهواه وذوقه: (الطهاة وطعامهم.. العازفون وألحانهم.. القيَّان وأغانيهم)، حتى قطع الأثاث والتحف المبثوثة في أنحاء القصر هي من اختيار المؤيد.. وانتظمت وفق ذوقه ومزاجه!!
- لا تنسَ -يا مولانا- أنَّه لبث سيد هذا القصر لسنين طويلة.. تجاوزت الثلاثين!
- إذاً.. أيّان أصير أنا سيد هذا القصر؟!! يكاد صدري يغلي كالمرجل مقتاً وحنقاً.. كلما رأيتُه يتحرَّك فيه ويجول بين الخدم كأنَّه.. مازال صاحب القصر وسيده!!
- هل تريد التخلُّص منه.. يا أمير المؤمنين؟؟! (غمغم متسائلاً بتوجُّس)
- وددتُ لو فعلتُ يا صاعد! لكن حفظ روحه ودمه كان شرط بيعتي، إلا أني لم أعد أُطيق أنْ أراه يتجول في قصري بحرية كأنَّما هو الخليفة.. ولستُ أنا!
- أ لهذا السبب أبعدتَه إلى دار حمدون بن هشام؟؟ (تساءل بتماكر)

- هـل أفشـى حمـدونُ سـراً اسـتأمنتُه عليـه؟!! هـذا ماكنـتُ أخشـاه!! (تسـاءل مُستنكراً).
- لا تظلم حمدون.. يا مولاي؛ فقد كان حريصاً على حفظ سركم أشد الحرص!!
- فكيف علمتَ أنَّ المؤيدَ.. في داره؟؟!

كان هذا السؤال فرصةً مُناسبةً لصاعد لكي يُظهر من خلالها ما يدَّعيه لنفسه من ذكاء وفطنة.. فأراد أنْ يُحسن استغلالها؛ فأجابه:

- صباح أمس.. أثناء ذهابي إلى حانوتي بسوق الحرير كعادتي؛ قابلني سعدون (غلام حمدون) يسعى إلى المروج بأغنامه.. فحياني وقبَّل يدي –كدأبه كلما رآني-، على أني لاحظتُ بأصبعه خاتماً نفيساً –لا يلبسه مثله-، ولا يليق إلا بأمير ذي شأن، أو بالخليفة ذاته؛ فحزنتُ على نفسي ظانّاً أنَّ خليفتنا المهدي وهب ذاك الخاتم لهذا الفتى الممرور.. ونسي خادمه المخلص المطيع: صاعد بن عبد الوهاب!
- هكذا!! (صاح بنبرةٍ ساخرة.. غير مصدِّقٍ لحكايته)
- اغفر لي ذلتي.. يا سيدنا، واعف عن سوء ظني!
- .... أكمل!! (غمغم باقتضاب وهو يحملق إليه ليستوثق من صدق حديثه)
- فسألتُ الفتى لأتأكد من صدق ظني؛ فأنكر أولاً وزعم أنَّه اشتراه من ماله! لكن استدراج غلامٍ كهذا.. لا يصعب عليَّ؛ فاستدرجتُه.. فعلمتُ أنَّ رجلاً عظيماً يزورهم الآن في دارهم، وحدستُ أنَّه لو كان خليفتنا المهدي.. أو حتى حاجبه لذاع الخبر في أهل قرطبة، أمَّا وأنَّه لم يكترث له أحد؛ فتكهَّنتُ أنَّه المؤيد وسعيتُ -من فوري- إلى دار حمدون.. فضولاً ورغبةً في التأكُّد من صدق تكهني!
- إنَّها فراسة عبقري!! (هتف مُتهكِّماً)؛ ثم أردف متسائلاً بارتياب مشكِّكاً في صدق روايته: "هل تريدُ أنْ توهمني أنَّك بديهيٌّ فطنٌ إلى هذا الحد.. يا صاعد؟!!".
- هذه هي الحقيقة.. يا مولاي! وكيف لمثلي أنْ يكذب في حضرة أمير المؤمنين؟!
- .... (سكت برهة)، ثم هتف بنبرة ندم: "لقد أخطأتُ إذ أذنتُ بتلك الزيارة!"

- فلماذا أذنتَ بها.. يا أمير المؤمنين؟؟
- اِدعى المؤيدُ أنَّه سئم الحياة في القصر.. هأ؛ وأراد أنْ يخرج ليتجول في أنحاء قرطبة كأنَّه رجلٌ من عامة أهلها.. كما ادعى؛ فرفضتُ بشدة وتحججتُ أني أخشى عليه الغيلة؛ فلمَّا ألح عليَّ في رجائه، وشفع له حمدونُ مُقترِحاً أنْ يخرج المؤيد من القصر لزيارة إحدى دور قرطبة ليومين أو ثلاثة.. ولتكن دار فاطمة المروانية (جدته)، راقت لي الفكرة.. ورأيتُ فيها مُتنفَّساً لي من إقامته الجاثمة على صدري في القصر! ثم اِشترطتُ عليهما أنْ يبقى الأمر سراً.. فلا يعلم به أحد، وشَدَّدتُ على حمدون؛ فقد خشيتُ أنْ يتحدَّث الناس بأنني طردتُه من القصر بعد أنْ انتزعتُ منه الخلافة! واشترطتُ –أيضاً- ألا يتجاوز غيابه عن القصر ثلاث ليالٍ؛ فلا يفطن أحدهم لغيابه، ويا ليتني لم أشترط! قد انقضت الليال الثلاث.. وما كدتُ استمتع بصفو الحياة في القصر من دونه!
- اعف عني يا أمير المؤمنين؛ فإخلاصي لكم يُلزِمني أن أُصارحكم برأيي!!
- ادل بدلوك يا رجل؛ ولا تخش شيئاً!!؟
- أرى أنَّك تبغض الرجل.. وتستاء من بقائه في قصر الخلافة!!
- لا مِراء! نعم.. أبغضه! كفى به إثماً أنْ ضيَّع مُلك المروانية ومَلَّك أمره وأمرنا للمنصور وأبنائه، ولولا خروجي على شنجول والعامريين لضاعت الخلافة منا إلى الأبد! أما بقاؤه في القصر فيُضايقني.. ويشعرني بأني لستُ الخليفة، وبأنني غريبٌ أو عابر سبيل! ولستُ أدري: ماذا أفعل لأطرد هذا الشعور المرير عن قلبي!!
- نَحِّ الرجلَ عن طريقك.. يا أمير المؤمنين!! (غمغم قائلاً بنبرة عميقة.. رهيبة)
- لو قتلتُه –يا هذا- ستقوم الدنيا ولا تقعد! يكفيني تربُّص ولي العهد (سليمان) بي ومن ورائه أبوه: شيخ المروانية (هشام بن سليمان).. ومن معهما من بني مروان!
- لم أقل: (نقتله).. يا مولاي!!
- فكيف أُنَحِّيه.. إذاً؟؟! (تساءل بتحيُّر وسآمة)
- ما لا يدرك بالقوة.. يا سيدنا؛ يدرك بالحيلة!

- وما الحيلة؟؟! أخبرني.. أيها الحكيم!! (تساءل بشيءٍ من السخرية)
- نتربَّص به ريب المنون! ولو لم تأتنا نوائب الدهر بما نشتهي؛ نتربَّص به الخطأ والغفلة.. فإنْ اقترف إثماً –ولو هيناً- نحاسبه بجريرته.. ولا نعفو عنه؛ وأقل جزاء نجزيه به هو: نفيه خارج القصر، ولو إلى قصر الزهراء وحبسه بها بقية حياته!! فيصفو قصر الخلافة لمولاي.. ولا يكدر صفوه أحدٌ!!
- .... (حملق إليه باندهاش)؛ ثم غمغم قائلاً بنبرة إعجاب: "ويحك من داهية!"، سكت برهة ثم استأنف: "لكني لا أُطيق صبراً ريثما تأتيني نوائبُ الدهر بما أشتهي!! ثم إنَّه رجلٌ خنوع مسالم؛ أحسبه لن يُخطئ أبداً كي أحاسبه وأنفيه!!".
- نصبر.. يا أمير المؤمنين بضعة أيام؛ فإنْ لم يرتكب إثماً؛ دفعنا إليه مَن يُوقِعه في الخطأ والإثم، ونُشهِد عليه الأشهاد؛ فلا تكون له حجة علينا بعدها!!
- لقد خسرتُ كثيراً إذ غفلتُ عنك الأسابيع الماضية.. يا صاعد!! (صاح بإعجاب)
- أنا خادمك المطيع.. يا أمير المؤمنين! (هتف بها غير مُخفي زهوه بنفسه)
- هَلُمَّ.. إذاً.. إلى السمر والغناء والشراب!!

****

-المشهد الثاني والعشرون-

ما انفك المهدي يُنادم صاعد ويحرقان ساعات الليل بالاستمتاع بغناء القيَّان وعزفهنَّ.. ورقص الجواري وهز قدودهنَّ.. يُختِّر روحيهما (الخمرُ الخندريس) الذي عتَّقه بعناية فائقة وحرفية صادقة (فرتونُ) الذي ارتقتْ به بضاعتُه من الخمر المعتَّق إلى مرتبة (الساقي الخاص للخليفة) بعدما كان أحد الحراس؛ فتجاوزت منزلتُه منزلةَ صديقه القديم (طرسوس) الذي لم يزل حارساً من الحراس.

فيما هم كذلك: الخليفةُ ينادم صديقه القديم (صاعد).. ويقف بين يديه ساقيه (فرتونُ) ليملأ له كأسه كلما فرغت؛ إذ أقبل عليهم حاجبُ الخليفة وابن عمه (عبد الجبار بن المغيرة). ألقى التحية بفتور ثم قعد.. وقد اعترى وجهه العبوس والتجهُّم؛ فبادره المهدي بالسؤال: "ما لي أراك عابساً.. يا حاجبنا؟؟".

- إذاً.. أنت تعلم أني حاجبك.. وحاجب هذا القصر؟!! (تساءل بنبرة عتاب)
- نعم.. حاجبي وابن عمي! ماذا بك يا رجل؟؟ هل جئت تكدر عليَّ صفو مجلسي؟!!
- لماذا لم تخبرني أنَّك سمحت للمؤيد بمغادرة القصر؟؟؟ (هتف بنبرة لومٍ حارة)

فتململ صاعدُ تحرُّجاً.. وهمَّ أنْ يخرج؛ لكن.. لوَّح له المهدي بيده أنْ: (ابقَ)، ثم صاح يجيب حاجبه بكبرياءٍ وصرامة: "ولماذا يجب عليَّ إعلامك؟!!".

- لأنني حاجبك.. وشريكك! وقد تعاهدنا -حين ثُرنا على العامرين- على ذلك!!
- لستَ شريكي.. يا هذا! وتلك الثورة كانت ثورتي أنا! ولولا تضحيتي بنفسي وإخلاص رجالي لي (قالها مشيراً إلى صاعد) لمَّا صرتَ أنت حاجباً! أم تحسب أنَّ مثلي ومثلك سنكون كالمؤيد والمنصور؟!! هيهات.. هيهات!! (صاح بحدةٍ ساخطة)
- هل تُنكر فضلي وجهودي التي كانت.. يا محمد؟؟ (تساءل بنبرة عتاب وتحسُّر)
- الزم حدك! أنا الخليفة.. فلا تناديني باسمي مجرداً.. وإلا!!! (صاح باستياء)
- عفواً أيها الخليفة! لكن ألا تذكر أنني وأخي كنا شركاءك في تلك الثورة، ولولانا لمَّا ساندك المروانيون!! (صاح بمرارة وانكسار.. وقد قام عن مقعده آسفاً حانقاً)
- أعوذ بالله من الشيطان! اجلس يا عبد الجبار.. اجلس يا ابن عمي! (هتف بنبرةٍ أقل حِدة وهو يشير إليه بيده يحضُّه على الجلوس؛ فقعد متبرماً)، ثم استرسل بنبرةٍ أهدأ: "إني لم أُنكر جهدك ولا جهد أخيك (محمد)، حاشني أنْ أفعل؛ ولم أنس أنَّكما أول من مدَّ ليَّ يد العون من المروانية، وأنكما أول من وصلني منهم بالنفس والمال؛ ولقد كافأتُكما: فنصَّبتُك حاجباً.. وأخاك صاحب الشرطة!"؛ (سكت

هنيهة).. ثم خافت بنبرة تحذير أقرب إلى التهديد: "فلا تتجاوز حدك بالطمع في أكثر من النعمة التي تتنعم بها؛ فتفقد كل شيء!!".

- معذرةً إنْ كنتُ تجاوزتُ حدي بغير قصد! (نكص عن انفعاله.. وهتف باستكانةٍ واستسلام بديا كأنَّهما حقيقيين)؛ ثم أردف بنبرة اعتذار وتملُّق مصطنعة: "وما حملني على الكلام بالحدة الآنفة سوى حرصي على الخلافة وإخلاصي لها!!".
- لا تثريب عليك! ذلتك مغفورة.. لكن لا تعد لمثلها!! (هتف مُنذِراً)، ثم تظاهر بالود.. مستطرداً: "والمسألة هَيِّنة؛ سئم المؤيد حياته الفارغة في هذا القصر العظيم؛ فتوسَّل إليَّ أنْ يقضي يومين في دار حمدون؛ فأذنتُ له!!"
- الرأي ما يرى.. أمير المؤمنين! (هتف بمداهنة وتزلُّف).
- ابقَ إذاً! وتنادم معنا؛ فقد كدتَ تُفسد عليَّ.. مجلس سمري!

تغضنت شفتا عبد الجبار عن ابتسامة فاترة.. في حين قدَّم له فرتونُ كأساً دِهَّاقا بودٍ خفي ونظراتٍ لها مغزى! سأله الخليفةُ: "هل تذكر السيد صاعد؟؟"

- لا ريب أذكره؛ كان أحد أعواننا من دهماء قرطبة! (هتف بإباء اعتبره صاعد تكبراً، واستاء من كلمته: {دهماء قرطبة}؛ بيد أنَّه أغضى على هذا التحقير من شأنه.. ولم يُعلِق بكلمة؛ على أنَّ الخليفةُ المهدي أجاب عنه هاتفاً:
- بل هو زعيم أهل قرطبة الذي لولاه ما نجحت ثورتنا!!
- مرحباً بك سيد صاعد! (هتف باقتضاب وأومأ له صاعد إماءة فاترة)؛ ثم استأنف بعنايةٍ وحماس وهو يشير إلى فرتون: "وهذا الفارس الهمام أيضاً.. أذكر أنَّه كان من صناديد الثورة وأبطالها!".
- صدقتَ! لقد كان أحد الثلاثة الذين اقتحموا معي مجلس الهالك (ابن عسكلاجة)، وهو من حمل رأسه المقطوع وطاف به بين الثوار يحمِّسهم على اقتحام القصر! لقد كان يوماً حافلاً!!

- أرى أنَّ أمير المؤمنين جعله يحمل الخمر بعد أنْ كان يحمل الرؤوس! (هتف عبد الجبار مازحاً وهو يخالس فرتون نظرات ودية خفية)
- لقد فاق خمرُه موهبتَه في القتال؛ فإنَّه يسقينا خمراً مُعتَّقة لا ندري من أين يأتي بها ولا أيّان عتَّقها!! فكيف نفرط في ساقٍ كهذا؟! (هتف المهدي يمازح فرتون ومثنياً عليه)، ثم استأنف قائلاً بنبرة إشادةٍ ومدح: "ولا ينتقص من قدره أنْ جعلناه ساقينا؛ بل هو أحد ثلاثة لا أثق بأحدٍ غيرهم.. في هذا القصر!".
- مَن الاثنان الآخران.. يا مولانا؟؟ عرِّفني بهما كي أحبهما لثقتكم فيهما! (سأل صاعد مُتملِّقاً)، أجابه.. وهو يبتسم إلى عبد الجبار كأنَّما يغيظه:
- إنَّهما: حمدون.. وطرسوس! ولو أردتُ أنْ أضم لهم رابعاً لكان أنت.. يا صاعد!!

****

-المشهد الثالث والعشرون-

تحت جناح ظلام تلك الليلة.. وأثناء تسامر الخليفة المهدي مع خُلاّنه.. رجع المؤيدُ إلى مخدعه بقصر الخلافة تصحبه وصيفته (شعب).. وحمدون، أذن لوصيفته أنْ تخلد للنوم بعد أنْ مهَّدتْ فراشه وهيَّأتْ له منامته، ثم استبقى حمدونَ.. ليسمر معه!

طفق يدور بعينيه في الحجرة الفسيحة ويتطلَّع بازدراء لأثاثها الفاخر وتحفها الثمينة، ثم رفع بصره عنها كأنما زهد فيها، ومضى يقول بصوتٍ خفيض أسيف: "ألا ترى هذه الزخارف والنفائس.. يا حمدون؟!! في حَدْسك.. ما قيمتها؟؟!".

- لا جرم.. هي باهظة القيمة.. يا سيدنا، ولا أحسب أنَّ أحداً يمكنه تقدير ثمنها!!
- في عيني.. لا تساوي هبوة! لا قيمة لها.. لأنها زخرفٌ زائل: {وإنْ كلُ ذلك لَمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا.. والآخرةُ عند ربك للمتقين}.. صدق الله العظيم!
- أصبتَ والله.. يا سيدنا! هدانا الله إلى الزهد في زخرف الدنيا الزائل، والطمع في نعيم الآخرة المقيم!

- اللهم آمين! أ تعلم –يا حمدون- أنَّ هذه الآية من سورة الزخرف ذكَّرتني بقصةٍ حُكيت لي عن جدي الناصر –رحمه الله-؛ أود لو أقصها عليك.. فنتدبرها معاً!
- إني أسمع.. يا مولاي!!
- يقولون عن جدي أنَّه لمَّا دانت له الأندلس واستتب له أمرها واستفحل ملكه فيها؛ صرف همته إلى العمران وتشييد المباني والقصور.. فقد كان مُحباً للبناء والعمران بطبعه، وكان ينفق على هذا التشييد الأموال الكثيرة إيماناً منه بأنَّ البناء إذا تعاظم قدره أضحى يدل على عظم شأن صاحبه، وصار أحد أسباب تخليد ذكراه. وفي ذات مرة كان يجلس في المجلس الزاهر تحت قبة جديدة –كانت قد تم الانتهاء من تشيدها تواً- وكانت غاية في الفخامة والترف، جُعلت قراميدها من الذهب والفضة، وأُنفق عليها أموالاً باهظة؛ فجلس يقول لمن حوله مفاخراً بتلك القبة: {هل رأيتم أو سمعتم ملكاً فعل مثل هذا.. أو قدر عليه؟؟} فقالوا: لا يا أمير المؤمنين! وبينما هو كذلك في غبطةٍ وسرور.. إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد البلوطي فسأله مثل ما سألهم؛ فدمعت عينا القاضي إلى أنْ خضَّل الدمعُ لحيته.. وقال له: {لا.. والله يا أمير المؤمنين.. ما ظننتُ أنَّ الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ.. مع ما أتاك الله من فضله وفضَّلك به على العالمين.. حتى ينزلك منازل الكافرين}؛ فاستاء جدي وصاح فيه مستهجناً: {انظر ماذا تقول! كيف تجعلني مع الكافرين؟! وكيف أنزلني اللهُ منازلهم؟!!}؛ فقال المنذرُ بخشوع: أليس اللهُ يقول **{ولولا أن يكون الناسُ أمةً واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضةٍ ومعارج عليها يظهرون* ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون* وزخرفاً وإن كلُ ذلك لمَّا متاعُ الحياةِ الدنيا والآخرةُ عند ربك للمتقين}**؛ فوجم جدي.. وأطرق ملياً ثم بكى.. ودعا للقاضي بخير قائلاً: {جزيتَ عني وعن المسلمين خيرا}، ثم وقف وأمر بنقض سقف القبة.. وجعل قراميدها من التراب.
- رحم الله الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ فلقد كان رجَّاعاً للحق!

- ولقد كان موفقاً إذ حاباه الله بحاشية –أمثال القاضي منذر بن سعيد- تأمره بالمعروف.. وتنهاه عن المنكر!
- أصبتَ.. يا سيدي! إنَّ البطانة الصالحة أنفع للسلطان من الأموال والكنوز!
- لقد كان لي -أنا أيضاً- بطانةٌ صالحةٌ ناصحةٌ.. يا حمدون! هل تعلم مَن كان هو؟؟
- أحسب أنَّ سيدنا سيقول: الحاجب المنصور بن أبي عامر!
- بل غيره!!
- مَن.. يا سيدنا؟؟! (سأل بمبالاة)
- القاضي أبو الوليد إسماعيل بن قريش بن عباد!
- قاضي اشبيلية؟!! (تساءل حمدون باندهاشٍ.. لظنه أنَّ لا صلة بينهما)
- وعمٌّ سلوان!! (هتف المؤيدُ ضاغطاً على حروف كلماته كأنما ينكأ جرح قلب حمدون الذي أطرق مندهشاً)؛ فاستأنف المؤيدُ: "في زمن والدي –الخليفة الحكم المستنصر- كان أبو الوليد أحد فقهاء القصر، وكنتُ في صباي ألقاه فأسمع منه – كما كنتُ أسمع من أبي عامر-؛ إلا أني كنتُ أهاب أبا عامر.. وأتوقى شخصيته القوية. أما أبو الوليد فقد كنتُ أحبه وأتأثر بنصحه ووعظه، فلما صرتُ الخليفة طلبتُ من أبي عامر أنْ نوليه قضاء قرطبة.. فولاه، ثم طلبتُ منه بعدها أنْ نوليه إلى جانب القضاء إمامةَ جامع قرطبة.. فولاه! ومرت الأيام والشهور.. وتهيبي من أبي عامر يزداد؛ في حين يزداد حبي لأبي الوليد وتعلقي به؛ إلى أن جاء أبو عامر ذات يوم ليقول: {إنَّ قضاء اشبيلية لا يصلحه إلا أبو الوليد بن عباد؛ فولاه قضاء اشبيلية.. كأنَّه يبعده عني! ومن يومها انقطعت صلتي بأبي الوليد، لكن لم ينقطع عني خبره، وأعلم أنَّه –الحين- أقوى وأهم رجل من رجالات اشبيلية!".
- إنَّ لي رأياً في المنصور أبي عامر.. لا يعجب مولاي!
- أ ترى أنَّه أبعد القاضي ابن عباد عني.. لكي ينفرد بالتأثير فيَّ وحده؟؟
- أجل! وأرى أنَّه سلبكم مُلك أبيكم! معذرةً يا سيدنا.. فهذا رأيي!
- وهو رأي المروانيين الذين ثاروا على بني عامر مع المهدي.. أعلم هذا!!

- ....

- أما أنا.. فأرى أنَّ المنصور أبا عامر حفظ لي مُلك أبي وجدي.. وما خان.. وما ضيع، أرى أنَّ الله رفع شأن خلافة الأندلس بحجابة المنصور.. حتى صارت أغنى وأقوى دولة على الأرض، أرى أنَّ المنصور جاهد في الله حق جهاده.. حتى نصر الله به الإسلام وأعزه! هذا رأيي في المنصور أبي عامر الذي كان حاجبي.. يا حمدون!

لم يجبه حمدونُ إلا بالسكوت.. كعادته إذا اختلفا في جدال كهذا؛ بيد أنَّ المؤيد يعلم أنَّ حمدون أحد رجال المهدي الأوفياء الذين يبغضون المنصور لبغض المهدي له؛ لذا فإنَّه لم يكثر الجدال حول المنصور؛ بل عاود الحديث عن القاضي (ابن عباد) قائلاً:

- أود أنْ تكون رسولي إلى قاضي اشبيلية.. يا حمدون؛ فما قولكَ؟؟
- أنا.. يا سيدنا!
- نعم! ارجع إلى مخدعك الحين؛ فإذا أصبحتَ فانطلق إلى كاتب الخلافة واحضر لي قرطاساً خليفياً.. لأكتب فيه رسالتي التي سأرسلك بها إليه!
- هل لي أنْ أعلم فحوى الرسالة.. يا سيدنا؟؟
- لا جرم.. ستعلمها؛ فهي تخصك أنت!!
- لقد تشوَّقتُ أنْ أعرف ما يدور في رأس سيدي المؤيد؟!!
- سأخبرك.. صباحاً! واعلم أنَّ هذه الرسالة هي هديتي التي وعدتُك في بيت جدتك!
- سيدنا!! (جأر مُتحفِّزاً بقليل من السرور وكثيراً من الريبة وحب الاستطلاع)؛ فقاطعه المؤيد قائلاً بحسم:
- لا تقل شيئاً! انصرف الآن، ثم تعالَ.. في الصباح! هيا.. طابت ليلتك!!

****

-المشهد الرابع والعشرون-

شعورٌ لذيذٌ بالثقة انتاب (نجوى).. ومَلَكَ عليها وجدانها مذ تركها الخليفةُ المؤيد البارحة هي ورفيقتها (سعدى) في دار أم هشام، حتى أنها أصبحت هذا الصباح نشيطة النفس.. باشة الوجه على غير عادتها، تغمرها سعادةٌ تعجَّبت سعدى منها.. فسألتها باستغراب: "ألهذا الحد كنتِ تكرهين الحياة في قصر الخليفة؟!!". فتبسَّمت بدلال وهتفت وهي تنظر عبر الشرجب: "إنَّما أحب الحرية.. وأبغض العبودية!". تطلَّعت إلى الدرب الطويل الملتوي، وحاولت أنْ ترقب الأفق البعيد؛ فبدا لها النهر بضفته من زاويةٍ ضيقة بعيدة كأنَّه سراب؛ على أنَّها تمسَّكت بصورته وراحت تتطلَّع إليه تطلُّعها إلى أملٍ جديد في الحرية، ثم أردفت: "بلا شك سيأتي يوم وتعتقني أم هشام.. كما هي عادتها مع جواريها، وأتزوَّج وأعيش كنساء قرطبة الحرائر، أما القصر.. فليس فيه ثمة حياة إلا العبودية والخدمة الشاقة بأوامر لا تنتهي من ذاك الرجل البغيض.. جؤذر!!؟".

- تتحدَّثين وكأنَّ جؤذر كان يُكلِّفكِ من العمل ما لا تُطيقين؟! أو كأنَّكِ هنا ستكونين سيدة الدار.. لا خادمة فيها!!؟
- تعلمين.. يا سعدى –أيتها الدميمة الغبية- أنَّ أنا وأنتِ كنا سنلبث في ذاك السجن – الذي تسميه قصر- كإماء تخدم إلى أن نموت؛ ننظف ونكنس ونرتب الأثاث، نقتات على خُشارة موائد القيَّان الحسناوات والراقصات الفاتنات اللاتي يجالسنَّ السادة والأمراء ويسامرنَّهم كأنهنَّ من الأسياد! وسنبقى هكذا أبد الدهر.. بلا أمل لنا في الحرية، ولا أمل لمثلكِ في الترقي إلى مرتبة القيَّان أو الراقصات لأنكِ غبية لا تجيدين الغناء.. وقبيحة لن ينظر إليك أحد السادة باستحسان!
- أُقسم: إنَّكِ لأنت الغبية! (هتفت وهي تتمطَّى ثم تنهض من فراشها كأنَّما تدرأ عن جسدها رجْز الكسل وخمول النوم)؛ لم تلتفت نجوى لمقاطعتها واستطردت:

- أما هنا.. فسنكون -كما وعدتنا أم هشام البارحة- مثلنا مثلها.. مثل سيدة الدار: نأكل مما تأكل.. ونلبس مما تلبس، وفوق ذلك: لن تكلِّفنا من العمل ما لا نطيق! وأكيد سيأتي يوم وتعتقني، وسأكون ساعتها امرأةً حرة وأتزوَّج رجلاً حراً؛ وأعيش حياتي كالحرائر.. لا كأَمةٍ محبوسة تخدم في القصور!
- إنَّكِ تتطلَّعين إلى سرابٍ يحسبه الظمآن ماء.. وما هو بشيء! ألم تفهمي ما قالته السيدة فاطمة.. يا حمقاء؟؟
- وماذا قالت غير: {أنتما أمانة المؤيد عندي، ستكونان من أهل الدار مثلكما مثلي ومثل أم سعدون، تأكلان مما نأكل، وتعيشان مثلما نعيش، أما أعمال المنزل فستساعدان أم سعدون، وإن شاء الله لن نكلِّفكما ما لا تطيقان؛ فطبا نفساً.. ولا تحزنا لأنَّكما تركتما القصر العظيم لتعيشا في هذا البيت المتواضع}.. لقد حفظتُ كلامها عن ظهر قلب!
- أنتِ قلتها بلسانكِ: {أنتما أمانة المؤيد عندي}؛ ألا تفهمين معنى هذه العبارة؟؟!
- ما معناها.. أيتها الفقيهة؟؟ (تساءلت بنبرةٍ ساخرة)
- المؤيد قال لها أمامنا –أيتها الخرقاء-حين كان يودعها: {الجاريتان هديتي لكم يا عمتي، وجزيتِ خيراً أنَّكِ قبلتي الهدية! وستبقيانِ مِلْك يميني كما اتفقنا؛ فهما هدية وأمانة، وأعلم أنَّكِ.. خير من يحفظ الأمانة}.. هل فهمتِ يا غبية؟؟
- ما فهمتُ من هرائك هذا شيئاً!!
- نحن ما زلنا مِلْك يمين المؤيد.. يا بلهاء! أي أنَّ السيدة فاطمة لا تملك أن تعتقكِ لأنكِ لستِ جاريتها؛ بل أنا وأنتِ مازلنا مِلْك المؤيد!! أفهمتِ الآن؟؟
- كيف؟!! لماذا يفعل سيدي المؤيد شيئاً كهذا؟ كيف يهبها الجواري دون أنْ ينقل ملكيتهنَّ لها؟ ما هذا البخل؟؟ وكيف ترضى هي بعَيْشنا في بيتها وهي لا تملك التصرف فينا؟؟ يا لضيعة الأمل!!
- أرأيتِ أنَّكِ بلهاء رعناء؛ فضلاً عن أنَّكِ أقبح مني.. وأنكر صوتاً!
- أُسكتِ يا هذه.. ففوكِ لا ينطق إلا شراً!!

- هَلُمِّ إذاً.. أيتها الخادمة الخرقاء لننزل إلى سيدتنا!

عبر الدرج الصخري.. نزلتا إلى الفناء فألفيتا أم سعدون قمَّت الدار والفناء، ثم راحت تنضح حصباء أرضه بالماء؛ فقالتا: "صبَّحكِ الله بالخير يا أم سعدون!"، فحدجتهما بنظراتٍ صارمة ثم صاحت: "اعلما أننا في هذه الدار نستيقظ لأعمالنا مبكرين! لقد جئتُ من بيتي قبل الفجر كعادتي.. وأنتما تبيتان هنا ولمَّا تقوما.. وقد أشرقت الشمس!!"، رمقتها نجوى بضيقٍ وتبرم.. في حين أجابتها سعدى مُعتذرة: "لماذا لم تيقظينا حالما جئتِ.. يا خالة؟؟"، فصاحت المرأة الكهلة بشيء من الحنق: "بالله كنتُ سأفعل لولا أنْ أثنتني سلوان بحجة أنَّكما جديدتان لم تتعودا على نظام الدار بعدُ!"، سكتت هنيهة ثم استأنفت بصرامة: "لكن من الغد ستقومان قبيل الفجر حتى إذا جئتُ لَقيتُكما على استعدادٍ لنبدأ أعمالنا اليومية! أما الآن فاذهبا لعملكما!"؛ ثم وقفت تُكلِّف كل واحدة منهما بعملٍ في جهة بعيدة عن الأخرى.. حتى تم إعداد الإفطار؛ فقعدنَّ على المائدة مع أم هشام وسلوان اللتين كانتا في قاعة الدرس منذ الفجر!

****

-المشهد الخامس والعشرون-

بات حمدونُ ليلته ساهداً يُقلِّب حديث المؤيد في رأسه.. محاولاً أنْ يفضَّ غموضه ويكشف نوايا الخليفة (السابق): (ما عساه يريد أنْ يفعل؟! وأي رسالة تلك التي يريد أنْ يرسلها لقاضي اشبيلية؟؟ أ ويكتبها في قراطيس الخلافة.. كأنَّها كتابٌ رسمي؟! إنَّه لم يعد الخليفة، وليس له صفةٌ تخوِّله أنْ يخاطب القاضي أو يراسله بهذه الكيفية!!). ظلَّ –هكذا- حائراً مُتفكِّراً بغير نتيجة واضحة؛ إلى أن لملم الليلُ ساعاته بطيئاً فانقشعت ظلمته.. دون أنْ تنقشع سحب الحيرة عن رأس حمدون.

أصبح الصباح.. وانتظم عمالُ القصر كلٌ في عمله، قصد حمدون إلى كاتب القصر والتمس منه قرطاساً للمؤيد، تردَّد الكاتبُ وتلكأ –بعض الشيء- في إجابة طلبه بحجة أنَّ القراطيس خاصة بديوان الخليفة.. ولا يحق للمؤيد استعمالها، زجره حمدونُ وأصرَّ على أخذ القرطاس؛ فاضطر لإعطائه إياه.. هاتفاً بحسم: "لن أعطيك غيره يا سيدي بعد الآن إلا بموافقة من الخليفة المهدي!". انتزع القرطاسَ وهرول إلى المؤيد يستحثه حبُ الاستطلاع ليعرف ما يدبِّر له!

استقبله المؤيدُ باسماً مرحاً.. وهتف مداعباً.. حين أبصر عينيه:

- ما لي أرى عينيك تتوقدان احمراراً كأنهما الجمر؟؟!
- لقد أرقتُ البارحة.. ولم يغمض لي جفن الليل كله.. يا سيدنا!
- لماذا.. يا رجل؟!! (تساءل بنبرةٍ مازحة.. متظاهراً أنَّه يجهل السبب)
- حديثك أثار فضولي وحيرتي.. يا مولاي، فبتُ أتساءل: ماذا يريد سيدي من قاضي اشبيلية؟ ولا أرتاح لإجابة.. ولم تهدأ نفسي إلى أنْ أصبحتُ فانطلقتُ إلى الكاتب لأحصل لك على القرطاس؛ إلى حد أني كدتُ أتشاجر معه، وها هو ذا القرطاس بين يديك.. يا سيدي؛ هو وقلبي المضطرب.. فضولاً وتشوُّقاً!

أطال المؤيدُ النظر الصامت في وجهه كأنَّما يذكِّي جذوة الفضول والترقُّب في فؤاده، ثم همس بنبرةٍ أبوية حانية: "ما ظنك يا حمدون؟؟ ماذا أبغي من قاضي اشبيلية؟؟".

- لا أعرف.. يا مولاي! ولو تأذن لي.. فإني أترقب أنْ أطلع على الرسالة.. كما وعدتني!
- ها هي ذي الرسالة! (قالها وهو يعتدل في جلسته ويتناول قلمه ومحبرته ثم يشرع يقرأ ما يكتبه في القرطاس: "**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِن المؤيد بالله هشام بن الخليفة الحكم المستنصر إلى أبي الوليد بن عباد (قاضي اشبيلية): السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعدُ.. يصلكم كتابي هذا مع رجلٍ أثق فيه ثقتي في نفسي؛ فأعره سمعك ولا تُكَذِّب حديثَه، وإذا أردتَ التأكُّد من صدق خبره: فأتني إلى قرطبة في أقرب فرصة.. وستجد ما يثلج صدرك، والسلام ختام!**".

- ما هذا يا سيدي؟ أنا لا أفهم شيئاً؟!! (تساءل حمدون وقد غشيت وجهه السآمة)
- أنت رسولي الذي أثق فيه ثقتي في نفسي! (هتف وهو يبتسم بمودة)
- ثقةُ مولاي فخرٌ لي وشرفٌ أعتز به؛ لكن ما الذي سأُخبر الرجلَ به؟!!
- كنتُ أظنك أفطن من ذلك.. يا حمدون! ستخبره بحكاية سلوان.. وستعرِّفه أنَّ له ابنة أخ تقيم في قرطبة، لكن.. تجنَّب أنْ تفاتحه في الزواج بها قبل أنْ ألقاه!
- سيدي!! (أعجزته المفاجأة عن الكلام.. وشلَّت الحيرة تفكيره!).
- أحبذ أن يعلم بها.. ويُصدِّق ويُسلِّم بأنَّها ابنة أخيه؛ ثم نُزوِّجكما.. إنْ شاء الله!
- ليستْ ابنة أخيه؛ بل أبوها.. هو ابن أخيه! (هتف بعقلٍ مُتخبِّط)
- مهما كانت صلة القرابة؛ فهو في مقام عمها.. وليس لها وَلِيٌّ غيره.. أليس كذلك؟؟
- بلى.. يا سيدنا! لكن..
- لكن ماذا؟؟ ألا تحب أنْ تجتمع مع الفتاة.. على سنة الله ورسوله؟؟!
- بلى.. يا سيدنا!!
- وقد أخبرتَني آنفاً أنَّها اشترطت موافقة عمها القاضي؛ وها نحن أولاء نسعى إليها!
- لكنها.. تُحبذ أنْ تتمكَّن من حرفتها في رسم المصحف.. قبل أنْ يعلم بوجودها!
- دعكَ من هذا! لقد تأكَّدتُ أنَّ رغبتها في الزواج منك كرغبتك.. وأشدّ!
- حقا؟!! كيف ذاك.. يا مولاي؟؟! (هتف بتلُّهف واغتباط)
- لقد كانت لهفتها عليك -يوم نقمتَ على سعدون- أشدّ من أنْ تستطيع إخفاءها.. لكنها تكابر، وأرى أنْ نفاجئها بإعلام عمها عن وجودها؛ ثم اترك لي أمر زواجكما!
- أخشى أنْ تغضب مني.. إذا عَلِمتْ بتلك المكيدة!؟
- حمدون!! هل تهاب غضب المرأة.. من الآن؟!! (صاح مازحاً وهو يضحك)؛ فتبسَّم حمدون وقد تبدَّل قلقه إلى طمأنينة.. وسآمته إلى سرور.. وهتف:
- بل أتوق أنْ أُحزنها.. أو أكسر قلبها!
- لا تخش شيئاً! إني أُجزم أنَّ سعادتها ستكون كسعادتك التي أرى على وجهك الحين.. بل أشد!

- أحسب أنَّها سترفض إذا علمتْ بما سنفعله.. حتى ولو كان يوافق هواها!
- حمدون! استعن على قضاء الحوائج بالكتمان؛ واحفظ هذا الأمر سراً بيننا نحن الاثنين فقط لغاية ما يُتمَّه الله كما نحب، ولا تُعلِم به أحداً.. حتى جدتك!!
- لكن.. كيف سأُسافر إلى اشبيلية خُفية.. ودون إذن الخليفة المهدي؟؟!
- سأستأذن لك أبا الوليد.. ولن يمانع فهو يحبك! أما جدتك وسلوان: فاذهب اليوم لوداعهما وأخبرهما أنَّ الخليفة كلَّفك بمهمة تستوجب السفر، وأخبرهما بجهة سفر أخرى.. غير اشبيلية؛ فلا تثير ريبها!
- أخشى -يا سيدي- أنْ تفاجئني الأيام.. بما لا أحب!!
- لا تكن متشائماً؛ وسيُتم الله لك سعادتك بحُسن توكُّلك عليه!
- توكلتُ على الله!
- هيا خذ القرطاس واخفيه عنهما وأنت تودعهما، وهاك خاتمي عليه.. كي يُصدِّقك القاضي أبو الوليد! (هتف بها).. وهو يقوم إلى خزانته ليُخرج منها خاتمه الخاص، ثم يختم به القرطاس، ثم يطويه.. ويعطيه لحمدون الذي أمسكه بكلتا يديه كأنَّما يحتضنه، وأخفاه في طيات ثيابه، ثم همَّ بمغادرة مخدع المؤيد وعيونه مُترَعة بالامتنان.. ولسانه يلهج بالشكر والعرفان).

****

-المشهد السادس والعشرون-

أثناء جلوس الحاجب (عبد الجبار بن المغيرة) في إيوانه.. ينفث ساعاتِ النهار الثقيلة بأنفاسه الملتهبة ضجراً وسآمة.. استأذن في الدخول إليه فرتونُ؛ فأذن له.

- مرحباً بساقي الخليفة ونديمه! (هتف هازئاً)
- ساقي الخليفة.. نعم! أما نديمه.. فهي منزلةٌ لم أرتق إليها بعدُ.. أيها الحاجب!

- هـأ! لـم تـرق أنـت لهـا؛ ونالهـا صـاعدُ الحـرار.. زعـيم الزُعَّـار!! مـا أقـدمك عليَّ الساعة؟؟
- رأيتُك –البارحة- سيء المزاج، ولم ترتوِ من خمر (فرتون) بما يكفي؛ فوددتُ أنْ أؤثرك بهذه القنينة العتيقة! (همس مُتزلِّفاً وأخرج قنينة من بين طيات ثيابه)
- ألا ترى ما يفعله مولاك الخليفة؟؟! (تساءل بسخرية).
- هل يُحزنك أنَّه ينادم صاعد الحرار ولا ينادمك.. يا سيدي؟؟!
- إنَّه صعلوك؛ فدعه ينادم الصعاليك أمثاله! (قالها بصوت خفيض) ثم أردف: "ما يحزنني أنَّه ينسب نجاح ثورتنا لنفسه.. كأنه قام بها وحيداً؛ كأني لم أشاركه فيها.. أنا وأخي وكل المروانيين!!".
- الحقُ أقول يا سيدي: إنَّ دورك في تلك الثورة العظيمة كان أكبر وأعظم من دوره! (أَسَرَّه فرتون بلهجة تملُّق بيِّنة جعلته يحدجه بارتياب)؛ فاستأنف: "لقد كنتُ معه ساعة اقتحمنا مجلس ابن عسكلاجة في ذات هذا الإيوان الذي نجلس فيه الآن، وإنِّي أشهد أنَّه لم يستل سيفاً.. ولم يرفع سكيناً؛ بل كان ذاك اليومُ كله لي ولطرسوس، لكن يعجبني منك أنَّك تداريه وتهادنه!!".
- لا أملك سوى أنْ أداريه حفاظاً على منصبي ومكانتي.. إلى أنْ يجعل الله لي مخرجاً! وليس عزله لمحمد بن يعلي الزناتي والجنود البربر منا ببعيد!
- ونفيه للصقالبة العامريين.. أيضاً! إلا أني لا أحسبه يفعل معك مثلهم أيها الأمير؛ فأنت ابن عمه وأحد أنصاره، وبطولتك أثناء الثورة لا يُنكرها أحد! فأنت مَن اقتحمت الزاهرة بجيشك.. ورضخ لك عساكرها وجنودها، وأنت من طاردتَ شنجول حتى أَسرتَه.. وأرحتَ قرطبة منه، مَن ينسى لك هذا الفضل يا سيدي؟!!
- هو نسي!؟ بل ونسب الفضل لغيري؛ نسب أسر شنجول لابن ذري، ونسب معركة الزاهرة لفتاه الأحمق: حمدون!!
- لا جرم.. هو حبيبه ومحل ثقته، لم يأتمن منا أحداً غيره على مصاحبة المؤيد.. كما لو كان مرواني مثلكم! (أقرَّه بنبرة تحسُّر كأنَّما يثير حفيظته ضد حمدون)

- آه يا فرتون! كم أمقتُ هذا الفتى المتعجرف، وأمقتُ تعلُّق المهدي به!
- ليس المهدي وحده -يا مولاي- بل المؤيد أيضاً أضحى لا يفارقه!
- أصبتَ! لا أعلم كيف يكيد هذا الفتى للخلفاء حتى يقرِّبوه منهم هكذا! فيستأذن لأحدهما عند الآخر فيأذن له بمغادرة القصر معه.. دون علمي أنا.. وأنا الحاجب!
- وماذا كان يصنع المؤيد في بيت حمدون أثناء تلك الليالي؟؟ (سأله كأنَّما يثير ريبه)
- أنا لا أدري! لم أعد أعلم شيئاً.. يا فرتون، وأخشى أنَّ المهدي يُدبِّر عليَّ لإبعادي عن السلطة، وأصارحك: لم أعد آمنه على روحي! (هتف متغافلاً عن الإجابة)
- لقد دخلتُ هذا القصر معكما –أنت والمهدي- فقط منذ أسابيع قليلة، لكني أشم رائحة الدسائس والمؤامرات في كل أركانه؛ فخذ حذرك.. يا سيدي!
- أ تدري يا فرتون؟ إني أخشاك أنت أيضاً! فمذ دخلنا هذا القصر وأنت تتزلَّف إليَّ، ولا تفوِّت فرصة تسمح لك بمصاحبتي إلا اقتنصتَها! ألا ينبغي أنْ أظنك دسيسة يدسها عليَّ المهدي للإيقاع بي.. أو جاسوس عليَّ لأحدٍ سواه؟؟!
- أجل يا أميري.. إني أسعى للتقرُّب إليك؛ لن أُنكر! ولا جناح عليك أنْ تسأل: لماذا أفعله؟!! وإني سأُجيبك: لقد تدبرتُ أمري.. يا سيدي مذ انضممتُ إلى الثوار فقرَّبني المهدي إليه، غامرتُ بحياتي لأجله -ومعي رفيقي القديم طرسوس- حتى تَملَّك وصار خليفة؛ فنظرتُ فما وجدتُه كافأنا المكافأة التي تليق بجهودنا، ولم يزد على أنْ اتخذنا في حرسه الخاص لنُضحي بأنفسنا لأجله مرات أُخر.. ونموت فداءً له، ولمَّا ذاق خمري المعتَّق.. قرَّبني إليه رغبةً في خمري؛ فأيقنتُ أنَّه يستخدمنا.. ولا يكرمنا! فأحببتُ أنْ أجد لنفسي سيداً غيره.. أنصره؛ فيمنحني ويكرمني!
- يا خبيث! تُضمر لسيدك غير ما تُظهر؛ فهل تحسب أني أثق بك بعد ذمك إياه؟!!
- نعم! هذا عينه ما يحثك على الوثوق بي! لأني أصارحك بمكنون صدري! لن ادَّعي أنني مَلَكٌ كريم أطيع ربي محبةً له؛ بل أنا رجلٌ طموح أسعى لأنْ أرتقي إلى منزلةٍ أعظم من منزلة الخدم! لذا فقد أخترتُك أنت.. لأنصرك وارتقي معك!

- ولماذا اخترتني لترتقي معي.. وتركتَ المهدي.. وليَّ نعمتك؛ مع أنَّه يثق بك.. كما أرى؟؟ هلا نصرتَه هو.. ليمنحك ويُكرمك كما تبغي؟!
- إنّي أوتيتُ فراسة.. وكما أخبرتُك الحين: أيقنتُ أنَّ المهدي يريدني إلى جواره خادماً لا نصيراً، يريد كلباً يحرسه وينبح من أجله.. ولن أرقى عنده فوق تلك المنزلة! ولا أرضى لنفسي أنْ أكون كلباً ذليلاً.. بعد الآن!!
- وأنـــا؟؟!! كيف تراني؟؟!
- أرى أنّك ستجمع حولك الكلاب.. والذئاب.. والسباع! وحسبي أنْ علمتُ بشأن مال الزاهرة الذي خبَّأتَه لنفسك ولم يعلم به المهدي! في ظني أنَّك ستستعمله في شراء هؤلاء! (همس وهو ينظر في عينه بعيون ماكرة جريئة)؛ فاضطرب عبد الجبار وتلعثم للحظات.، ثم استعصم برباطة جأشه وجأر:
- هل تتجسس عليَّ.. يا هذا؟!! حذار أنْ تلعب معي لعبة التهديد والمساومة! فإنَّ كيدي أعظم مما تظن، تالله.. لأسحقنَّك تحت قدمي! هذا المال حقي رغم أنفك وأنف المهدي.. وأنف الجميع!!
- اهدأ.. يا سيدي! اعلم أنَّك تستحق هذا المال.. بل هو بعض حقك! إنَّما أردتُ أنْ أُطلعك على بعض مهارات فرتون في معرفة الأسرار الخفية؛ لتطمئن أنَّك ستعتمد على رجلٍ خبير! أما أمر ذاك المال فسيبقى سراً خفياً لا يعلمه أحدٌ!
- كيف علمتَ بأمر ذاك المال.. أيها الملعون؟؟!
- أعلم خبايا كثيرة عن كثيرين؛ إذا قبلتني رجلاً من رجالك؛ صارت كلها ملك يمينك!
- هل تساومني يا هذا؟؟ ألا تخشى أنْ أكيد لك عند المهدي؟؟!
- حاشني أنْ أساومك.. يا سيدي! بل جئتُك لأني أعلم أنَّك أوتيتَ طموحاً كامناً؛ لذا فإني أسخر لك قدراتي، وأقول لك: لا تكبح طموحك.. واترك له العنان يرتقي بك إلى المكانة اللائقة، وأنا معك.. أرتقي إنْ ارتقيتَ؛ فما قولك.. أيها الأمير؟

- يا لك من شيطان خبيث! إنَّك حقاً خبيث لدرجة أنَّك تدرك كيف توسوس للإنسان فيقتنع برأيك.. ويسلم بحكمتك! (هتف عبد الجبار وهو يحدِّق فيه بنظراتٍ متفاجئة لا تخلو من إعجاب)؛ ثم اعتدل في جلسته ومدَّ يده فانتزع منه القنينة صائحاً: "أعطني هذه.. لأذوق خمرك العاتق!!".
- بالطبع.. هي لك يا سيدنا!!

اتكئ عبد الجبار وشرع يرتشف رشفات متأنِّية كأنَّما يتذوق حديث ذاك الشيطان.. لا خمره، ثم رنا إليه بامتنانٍ دال على تلذذه بالمذاق، ثم أنشأ يتجرعها في هدوء.. وفرتون يراقبه بنظراته الماكرة. مسح شفتيه بظهر كفه ثم حدجه بنظراتٍ مرتابة وسأله: "تزعم أني أوتيتُ طموحاً كامناً يجب ألا أكبحه.. أ ليس لك طموحاً مثله؟؟"

- بلى!
- فما طموحكَ.. إذاً؟ إلى أي منزلة تطمح أنْ ترتقي؟؟
- منزلتكَ هذه! أريد أنْ أكون الحاجب!! (أَسَرَّ بنبرة ماكرة).. انقبض لها قلبُ عبد الجبار؛ فتيقَّظ من غفلته واعتدل في جلسته.. وتساءل مستهماً كلماته الوقحة:
- ماذا تقول أيها الوغد؟؟!
- أقول: أني أطمح أنْ أكون حاجب الخليفة عندما تكون أنت الخليفة.. يا مولاي!!
- يا لك من شيطان خبيث! أ تظن أني أغدر بابن عمي؟؟!
- سيدي! أنا لستُ شيطاناً.. كما أنك لستَ ملاكاً! وأنْ تسترد حقك فهذا ليس غدراً بأحد؛ بل.. واجباً يلزمك السعي إليه! والمُلك عقيم.. لا رحم له.. ولا ولد!!
- هل تدَّعي أنَّ الخلافة حقي من دونه.. يا هذا؟!! كيف؟!!!
- أقول: إنَّك أولى المروانيين بالخلافة؛ أنت أحق بها من المهدي، بل أحق بها من المؤيد ذاته! لأنها كانت حق أبيك (المغيرة).. الشاب المكتمل الرجولة ابن الخليفة الناصر الذي اغتاله العامريون لينتزعوها منه ويقدموها سهلة رخيصة إلى هشام المؤيد.. الصبي المغفل الذي لا يفقه شيئاً من أمور المُلك والسلطان.. إلى الحين!

- ....
- ألا ترى أنَّ الخلافة كانت -منذ سنوات طويلة.. يوم مات الحكم المستنصر- حقاً لأبيك المغيرة.. ثم لك من بعده؟؟ إنها حقك –أيها الأمير- الذي اغتصبوه –آنفاً- من أبيك.. ليُهدوه إلى المؤيد بغير حق، ثم –لاحقاً- سلبه المهدي بحجة الثأر للمروانية!

جفل عبد الجبار.. وظلَّ يُنصت في توتر وحميَّة إلى تلك الكلمات الجهنمية التي اخترقت قلبه لتبعثر مكنوناته كأنَّما تنبث فيها عن بذور الحقد والثأر؛ فصادفتهما كامنين كجمرٍ تحت الرماد، نفضت عنهما تراب الغفلة وأضرمت بهما نيران الغضب التي ألهبت أحشائه، اكفهر وجهه وغشيته الكآبة والعبوس: (كيف كانت عيناه في غطاءٍ عن هذا؟)، (وكيف انساق وراء المهدي.. كفريسة تتبع ضبعها بلا وعي ولا إدراك؟)، (كيف تَوَهم أنَّ الخلافة حقٌ للمهدي.. أو سليمان بن هشام.. أو حتى للمؤيد؛ ونسي أنَّها كانت حقاً أصيلاً لأبيه.. قبل الجميع؟؟!)، (كيف يخدعه المهدي ويستغله ريثما يصل إلى مأربه؛ ثم يهبه الحجابة تفضلاً.. كأنَّما يطعمه خُشارة مائدته؟؟!).

- كيف فررتَ من زبانية جهنم.. يا إبليس؟؟ (سأله بإعجابٍ بيِّن.. وعيونه تعكس اقتناعه بحديثه)؛ ثم استطرد: "لقد أججتَ في قلبي نيران غضب لو أطلقتُ لها العنان.. لأحرقت بحممها الأندلس جمعاء!".
- كلا يا أميري.. كلا! لن نسعى لإحراق الأندلس؛ بل نسعى لاسترداد حقك المغتصب في مُلكها! أما نيران غضبك.. فادخرها لتحرق بها خصومك ومنافسيك!
- أصبتَ أيها الشيطان الداهية! وإني لحائرٌ في أمرك.. كيف غفل عنك المهدي؟؟!
- لو علم بدهائي؛ لتوَجَّس مني وخافني، وقد يُبعدني عنه بالسجن أو بالقتل، لقد خبرتُ باطنه في الشهور القليلة الماضية؛ فعلمتُ أنَّه مستبد.. يخشى الأذكياء والأقوياء، وأيقنتُ أنَّ دهائي لن ينفعني عنده؛ ولهذا آثرتُك عليه!!
- إنَّك تعلم ما تريد.. إلى حدٍ قد يُخيفني منك.. يا فرتون!؟

- لا تخاف مني يا أميري؛ فإني أريد صلاح أمري بصلاح أمرك! ولذا.. فإني أنصحك بادخار نيران غضبك.. لتحرق بها خصومك!!
- ومَن أولئك الخصوم في رأيك؟؟
- في ظنك أنت: مَن هم الخصوم.. يا سيدي؟؟
- لا ريب.. هم منافساي على الخلافة: المهدي.. ووليُّ عهده (سليمان بن هشام)!!
- أصبتَ أيها الأمير! ومعهما ثالث!!
- مَن هو؟!! (تساءل باندهاش)
- إنَّه الخليفة المعزول: المؤيد هشام بن الحكم!
- هذه مبالغة حمقاء.. لا أصدق أنَّ عقلك اللبيب يتصوَّر حدوثها!
- بل هو الحق.. أيها الأمير! إني أؤكد لك أنَّ المؤيد يدبر شيئاً عظيماً.. في الخفاء!!
- كيف ذاك؟؟ هل يستطيع هذا المغفل أنْ يخطط ويدبر؟؟!!
- أقول لك: أجل! ويشاركه في تدبيره الخفي رجلُكم الوفي: حمدون!
- ماذا؟؟ رغم أني أبغض هذا الفتى؛ إلا أني لا أصدق أنَّه يتآمر على المهدي!
- لم أقل أنَّهما يتآمران على المهدي؛ إنَّما أقول: هما يدبران لشيءٍ خفي! ولقد سألتُك منذ برهة: هل ندري ماذا كان يصنع المؤيد في بيت حمدون؟؟ فلم تجبني!!
- هل تعلم أنت؟؟!
- هل تُصدِّق أنَّ المؤيد مَلَّ الحياة في **قصر قرطبة العظيم**؛ فخرج منه ليقضي بضع ليالي في دار حمدون الحقيرة؟؟ ما هذا التغفيل؟!! بل كانا يدبران لشيءٍ خفي بعيداً عن القصر؛ وسأعلمه يا أميري.. لابد أنْ أعلمه!
- ولماذا تُجشِّمنا عناء السعي خلف هذين الأحمقين.. وتدع المهدي.. وسليمان؟!!
- هاك خطتي التي اختمر أغلبها في رأسي.. أيها الأمير: سنسعى لضرب أعدائك بعضهم ببعض.. حتى تضعف شوكتهم؛ فيسهل عليك القضاء عليهم!
- أشعر وأنا أسمعك.. كأني أُنصتُ إلى ابليس يوسوس لحزبه!

- أ تعلم أنَّ حمدون تشاجر -هذا الصباح- مع كاتب القصر وانتزع منه قرطاساً بحجة أنَّ المؤيد سيكتب فيه رسالة خاصة، ورفض أن يفصح عما سيكتبه؟!!
- دون علم المهدي؟! لابد أن يُعاقب الكاتب على هذا التفريط! لكن.. ماذا عساه يريد أنْ يكتب؟ ما الذي يدبره؟؟
- قد أدركتَ الآن -يا سيدي- ماهية ما أخبرك به! لا ريب.. المؤيد يخطط لشيءٍ ما!! ولابد أنْ نعرفه، ثم تفضح أنت مؤامرته عند المهدي؛ فتزداد ثقتُه في ولائك له.. فيسهل عليك التقرُّب إليه وخداعه، ثم نزين له أنْ يبطش بالمؤيد عقاباً على مؤامرته.. فنقضي على المؤيد بيد المهدي..
- فلو لم تكن ثمة مؤامرة.. بل شيء تافه.. كما أظن؟؟ (قاطعه متسائلاً باكتراث)
- نجعلها نحن مؤامرة خبيثة، ونوهم المهدي بأنَّ المؤيد خطرٌ عليه، وساعتها يبطش به، ثم نثير وليَّ العهد –الذي يبغض المهدي أصلاً- ضد المهدي لنقضه العهد في حفظ المؤيد! نضرب الاثنين ببعضهما.. ومن نجا منهما؛ عاقبناه لاعتدائه على صاحبه.. وسيسهل علينا حينها هزيمته لبقائه وحيداً منهك القُوى! {اضرب خصومك ببعضهم تصفُ لك الحياةُ بلا خصومٍ}: هذه هي حكمتنا التي سنعمل بها!!
- يا لك من شقي لعين!! لم أتصوَّر –أبداً- أنَّك تملك هذا العقل وذاك الدهاء؛ لعل أم ابليس كانت مرضعتك! (هتف بنبرة ساخرة ليخفي بها إعجابه بدهائه)
- دعك من مرضعتي.. وأخبرني: هل ستسعى لتحقيق طموحك، أم تتركني ابحث عن سيدٍ آخر أنصره بعقلي ودهائي اللذين تذمهما؟؟!
- أتركك؟!! بل سأُقبِّل رأسك الشيطانية! ابسط يدك وبايعني على الإخلاص والوفاء حتى نصل إلى غايتنا!
- أيها الأمير! هذا الذي نخطط له لا يجمعنا عليه بيعة ولا وفاء؛ إنَّما المصلحة المشتركة فقط هي التي تجمعنا؛ فلا تخشَ مني مادامت مصلحتنا معاً! لكن عاهدني على أنَّك إذا صرتَ الخليفة.. ستجعلني حاجبك المؤتمن!

- أعاهدك أيها الشيطان الطموح! (هتف وهو يضحك ملء فمه)؛ فاستأنف فرتون حديثه هامساً بجدّيّة وحسم:
- ومبالغة في الحيطة.. ينبغي أنْ نتظاهر بأننا لسنا على وفاق.. فلا يفطن أحدهم لما ندبره! فهذا أبلغ في الكتمان.. وأقرب إلى النجاح!

****

-المشهد السابع والعشرون-

قبيل الظهيرة -وبعد أنْ أنهت سلوانُ دروسها الصباحية مع معلمتها (أم هشام) - توجَّهت إلى حيث أم سعدون والجاريتين لتساعدهنَّ فيما يقمنَّ به من أعمال المنزل.

كانت سعدى تراقبها وتلاحظ تصرفاتها كأنَّما تستكشف شخصيتها أو كأنَّها تحاول تكوين فكرة عن أخلاقها من بعيد؛ فعَرفتْها -رغم عناية السيدة فاطمة بها وإكبارها لها- فتاةً متواضعة لا تستنكف عن العمل مع الخدم في تنظيف البيت وترتيبه؛ بل.. سعت لذلك بهمة ونشاط.. دون أنْ يُطلب منها، وألفتها بشوشة الوجه، عفيفة اللسان.. لا تتكلَّم إلا بالكلام الطيب الذي يجبر الخاطر ويُريح القلب؛ فانشرح لها صدرها.. وما تأخر الإعجاب بها أنْ يتغلغل في قلبها.

أما نجوى: فلم تُبالِ بشأن سلوان إلا يسيراً؛ على أنها كانت تتساءل في دَخِيلتها: (مَن سلوان هذه؟ ولماذا تُعظِّم السيدةُ فاطمة قدرها وتعتني بها هكذا؟ أين أهلها؟؟ ولماذا تحيا في الدار حياةً كاملة.. كأنها ليس لها أهل؟!)، ثم تجيب نفسها: (ربما هي فتاة يتيمة من أقارب السيدة تحنو عليها!)، وسرعان ما تنشغل عنها بأم سعدون والسيدة فاطمة.. وحفيدها حمدون! لكن لفت انتباهها -أثناء حديث سلوان معهما- كثرة سؤالها عن حمدون.. وعن أحواله في قصر الخلافة، وعن علاقته بنساء القصر وجواريه، بل لاحظت أنها كلما صُرِف الحديث عن حمدون والقصر.. تعود له سيرة أخرى؛ فأُلقي في روعها أنَّ استفهامات سلوان عن حمدون والقصر ليست مجرد أحاديث للتسلية

أثناء العمل؛ بل هي اهتمام بحمدون.. اهتمام شغوف! فأضمرت في باطنها وهي تبتسم انشراحاً: (لا ريب.. إنها تحبه! كلنا في الحب سواء.. حتى سلوان كاتبة القرآن!!)، تبتسم هازئة وتعود للحديث معها ومع سعدى بفكاهة ومرح.. ولا تدع أمراً من أمور القصر يأتي ذكره إلا تسخر منه وتتهكَّم عليه، ثم أنشأت تلعب لعبتها مع سلوان بأنْ تُكثر من ذكر حمدون ومكانته في القصر وإكبار نسائه له.. وإعجاب كثيرٍ من الجواري به؛ حتى أيقنت بأنَّ له في نفسها شيءٌ -شيء كبير- لِما بدا عليها من انفعالات لم تستطع إخفاءها.

فيما يباشرنَّ عملهنَّ فوق السطح ويتحاورنَّ.. صاحت أمُ سعدون تنادي إحدى الجاريتين لخدمة السيد حمدون؛ فعلمنَّ أنَّه جاء إلى البيت، رشقت نجوى سلوانَ بنظرةٍ خبيثة ذات معنى -كأنما تستفز مشاعرها- ثم انطلقت سعياً لخدمة سيد الدار.

*****

اِختلى حمدون بجدته بعد أنْ رحبتْ به ورحب بها واحتضنته وقبَّل يديها، أطرق برهة ثم قال: "جدتي.. لقد كلفني الخليفةُ المهدي بمهمة تستلزم السفر بضعة أيام!".

- سفر؟!! إلى أين؟؟ (تساءلت باندهاش متباغت)؛ تردد هنيهة ثم أجاب باقتضاب:
- إلى قَرْمُونة!! (قالها ثم أضاف بتلعثم): "رسالةٌ.. أحملها إلى أحد رجاله!"
- وهل من مهامك أنْ تسافر بالرسائل يا ولدي؟! أين صاحب البريد؟؟ (هتفت بوجه مُتجهِّم.. كسا قسماته الكدر.. تَرَوُّعاً للخبر الغير مُتوقَّع).
- إنها رسالة سرية لا يجوز أنْ يطلع عليها أحد، ولم يستأمن الخليفةُ عليها أحداً غيري! (جأر بها.. وقد غضَّ بصره عنها خشية أنْ تلتقي عيونهما فتكتشف خداعه لها)، أطرقت لحظاتٍ حزينة.. ثم تنهدتْ بانكسار وحسرة:
- إني ليحزنني أنْ تذهب عني.. يا ولدي!!
- إنها بضعة أيام قليلة.. يا جدتي، وأعود لكِ سالماً.. إنْ شاء الله! (هتف وقد أقبل عليها وقبَّل يدها)؛ فاحتضنته ولثمته على خده وتساءلت بنبرةٍ يائسة:

- ألا يقوم بهذه المهمة رجلٌ غيرك؟؟!
- إنَّه عملي يا جدتي، وقد وثق فيَّ الخليفةُ؛ فينبغي ألا أُخيِّب ثقته!
- أعانك الله.. يا بُني.. ووفقك للخير والإصلاح!
- اللهم آمين! والله لا يُنجيني من السوء إلا رضاكِ عني.. ودعاؤك لي، اسمحي لي أنْ أحبق بعض المتاع واستعد للسفر!
- هكذا في الحال؟؟
- ينبغي أن أسافر غداً.. يا عزيزتي!
- آه! لا حرمني الله من بقائك جواري طول حياتي.. يا حبيبي! (جأرت تضرُّعاً واشفاقاً.. وقد غشيها الهم)؛ فتبسَّم لها بحنان وهتف وهو يلثِم رأسها:
- اللهم آمين!!

مكثا واجمَين حيناً.. إلى أنْ نهضت وهي تنفض ثيابها بيدها.. كأنَّما تنفض عن روحها الحزن والكدر؛ ساعدها في النهوض واتكأت على ساعده حتى وقفت ثم هتفت:

- ذرني أُعِدُّ لك زاد الطريق قبل أنْ ترحل!
- سلمتْ يداكِ.. يا حبيبتي!

****

-المشهد الثامن والعشرون-

بُعيد العصر.. جاء حمدون إلى قصر الخلافة مستعداً للسفر.. مُتلهِّفاً على الرحيل فور أنْ يُبلغه المؤيدُ بسماح الخليفة المهدي.

دلف إلى مخدع المؤيد بغبطةٍ وحبور، حياه ببشاشة؛ فرد عليه المؤيدُ التحية.. لكن بدا عليه الحزن والتأثُّر؛ فأوجس حمدون في نفسه خيفة.. وتبدَّل حبوره قلقاً: (فلربما قد رفض المهدي السماح له بالسفر إلى اشبيلية!) فأسرع متسائلاً بتلهُّف وتوتر:

- بيَّض الله وجه الأمير! ما لي أرى أمارات الحزن على وجهك؟؟ (قالها).. ثم سكت هنيهة لم يكد المؤيد يجيبه فيها؛ ولم يُتق صبراً.. فأردف: "هل رفض الخليفة المهدي السماح لي بالسفر؟؟".
- لا.. لم يرفض! (هتف باقتضاب وعينه الحزينة تطالع القلق في عيون حمدون؛ ثم غضَّ طرفه عنه.. واستأنف بانكسار: "ولم يأذن بعدُ!!"؛ فتملَّكت الحيرةُ حمدون وغشيه الفضول والتضجُّر.. وهو يجأر:
- ماذا قال.. إذاً؟!! أجبني.. خلاك ذم!!
- إني لم أُقابله بعدُ.. يا حمدون! اهدأ.. ولا تنزعج!
- كيف لا أنزعج يا سيدي.. وأنا أرى الغم على وجهك؟! هل رفض المهدي لقاءك؟؟
- بل سأُقابله.. إنْ شاء الله؛ فحين أرسلتُ جؤذر للاستئذان في اللقاء؛ أخبروه أنَّه يقيل وسيستيقظ عصراً؛ ويمكنني حينها لقاءه!
- فما الخطبُ.. إذاً؟! ما لي أراك مُتجهّماً هكذا؟؟ (جأر حمدون وقد تنفَّس الصعداء بعد أنْ كاد يكتم أنفاسه خوفاً وقلقا).
- إنَّه الفتى فاتن الكبير! علمتُ أنَّه مريض، ومرضه يشتد.. وحالته تسوء؛ فأشفقتُ عليه.. وركبني الغم.. كما ترى!
- شفاه الله وعفاه! لا تحزن.. يا سيدي، وادع له بالشفاء!

*****

وِفق الموعدة التي وعدها للخليفة.. أقبل صاعدُ بن عبد الوهاب إلى قصر الخلافة يصطحب معه الحسن بن حيّ الفقيه (أحد المناصرين للمهدي في ثورته الآنفة على شنجول.. مثل صاعد) ليجتمعا بالخليفة عصراً قبل مجلس السمر الليلي. دخلا أحدَ مجالس الخليفة؛ فكان الحسنُ يُقصر طرفه عن كل شيء في المكان.. حالما يُقلِّب صاعدُ بصره باشتهاء في كل شيء.. وفي كل إنسان؛ دقَّق النظر بانبهار -هذه الكَرَّة- في الخدم -الإماء منهم

والعبيد- فانجذب بصره إلى أناقة هندامهم وبزاتهم المزركشة وبهاء طلعتهم؛ فأكبرهم كأنَّهم سادةٌ.. لا عبيد!

أقبل الخليفة المهدي يرفل في زينته وبهائه.. يجر أذيال كبره وخيلاءه، يسبقه حجابُ الأبواب وساقيه (فرتون)؛ فانتظم الخدم في صفوف جادة وقورة.. إلى أنْ ولج الخليفة واتّكأ في مجلسه ذي الأبهة والفخامة؛ فعادوا لأداء أعمالهم بنشاطٍ وحركاتٍ دؤوبة.. دون أنْ تمسهم عيون الخليفة وصحبته.. أو تسمعهم أذنه؛ كأنَّهم تحوَّلوا ببزاتهم المزركشة إلى كائنات غير مرئية.. وغير مسموعة، بنبرة كبرياء ملوكية -كانت أقرب إلى الغطرسة رغم ما يشوبها من تظاهر بالمودة- هتف المهدي:

- مرحباً بكما.. أيها الرفيقان القدامى!
- مرحباً بسيدنا أمير المؤمنين!
- ما لك تباطأتَ في القدوم إلينا.. يا حسن؟؟ (قالها وهو يميل ليتكئ في مقعده ويمدد رجله فوق طاولةٍ أمامه.. في حين يُناوله فرتون كأساً من شراب الفاكهة)، ارتبك الحسن لِمَا في السؤال من لَوْمٍ مباغت؛ بيد أنَّه لم يلبث أنْ هتف بلباقةٍ:
- كيف لي أنْ أتباطأ عن أمير المؤمنين متى يدعوني؟! لا عشتُ بعدها.. يا مولانا!!
- أردتُك أنْ تأتينا –البارحة- مع صاعد إلى مجلس الندماء؛ فلم تُلبي!؟
- لَعَمْرُك.. يا أمير المؤمنين.. لو علمتُ.. لأتيتُ! لكن هذا الرجل لم يخبرني برغبة سيدنا في مثولي بين يديه!
- أعلم أنَّه لم يخبرك، ولقد اِعترف بإثمه! وعفوتُ عنك وعنه!
- أطال الله بقاء أمير المؤمنين.. فنحن رعيتك وخدامك؛ ولن نتثاقل عن طاعة أوامركم! (جأر صاعد بتعظيم وتزلُّف)؛ حينما أذن المهدي لفرتون أنْ يقدم لهما كأسين من الشراب، ويلتفت إلى الحسن بن حيِّ.. مُداعِباً:
- أحببتُ أنْ نلتقي عصراً.. كيلا أُثقل عليك بالسهر في مجلس الندماء؛ لعلمي أنّك تنام مبكراً، وكيلا أشق عليك بحضورك مجلس الخمر وأنت تمتنع عنها!

- جزا الله مولانا عني خيراً! إنَّما هما حُكم السن.. والشرع؛ وليس لي في أحدهما يد!!
- أمير المؤمنين لا يشرب الخمر ليخالف بها الشرع.. يا حسن! (صاح صاعد بحميَّة ومداهنة للخليفة)؛ ثم أردف ليبرر للمهدي شربه الخمر: "بل هي من المحذورات التي تُبيحها الضرورات! فعقل أمير المؤمنين –زاده الله عقلاً وحكمة- مشغول طيلة النهار بشئون الدولة وأمور الرعية التي لا تنتهي مشاكلها؛ فينبغي له أنْ يريح عقله بعد إجهاد النهار الذي لا يتحمَّله أحدٌ غيره، ولا راحة للعقل إلا بتغيبه بذاك الخمر اللذيذ؛ ليعود صباحاً نشيطاً صافي الذهن فيباشر عمله!
- يا لك من منافق!! (صاح المهدي وهو يضحك ملء فمه حتى كاد ينقلب على ظهره)، في حين همَّ الحسنُ أنْ يقول: {بئس الشراب ما يغيِّب العقل.. وبئس الرأي! لا نستعين على أمر الله بما حرمه الله}؛ بيد أنَّه خاف بطش الخليفة؛ فأمسك عن الرد.. وتحصَّن بالسكوت، حالما تلقَّف فرتونُ تبرير صاعد الواهي باستحسان.. وهتف:
- صدقتَ يا سيد صاعد! فإنَّ رأس أمير المؤمنين تحمل من المهام والهموم ما لا يطيقه عشرات الرجال أمثالنا؛ فحق له أنْ يُخفِّف عن نفسه بشيءٍ من السُكر!

أشار المهدي لهم أنْ أمسكوا عن هذا الكلام، ثم لوَّح بيده في الهواء كمَن تذكَّر شيئاً.. وقال بنوعٍ من التباهي:

- لقد طلب هشامُ بن الحكم المثولَ بين يدي.. لكني نسيتُه؛ استدعوه يا فرتون! فلأقابله جبراً لخاطره.. ومراعاةً للرحم!
- إنَّا لنتعلم حسن الخلق.. من مولانا الذي لا تفوته هذه الصغائر وسط مشاغله الكبار! (هتف صاعد بتزلُّف وتملُّق.. لفتا انتباه فرتون إليه).

*****

دلف الفتى جؤذر –القائم حالياً بمهام الفتى فاتن لحين شفائه- إلى مخدع المؤيد ليخبره أنَّ الخليفة مستعدٌ للقائه، أثناء تهيئه للقاء الوشيك.. سأله حمدون –الذي لا يزال جالساً معه- قائلاً: "كيف ستحدِّثه في هذا الأمر.. يا سيدي؟؟".

- سأُحدِّثه كما حدَّثتني، وسأشفع لك في السفر لمقابلة القاضي أبي الوليد في اشبيلية.. وإعلامه بنبأ سلوان!
- عفواً يا سيدي! أظن أنَّه لا داعي لأنَّ يعرف الخليفةُ –الآن- أنَّها قريبة القاضي!
- لِماذا؟؟!
- أتخوَّف –لا قدر الله- أنْ ينكر القاضي نسبها؛ فنكون قد فضحناها عند الخليفة؛ لذا أُحبذ كتم الأمر ريثما يتم المراد.. فيُعلِمه القاضي بنفسه للخليفة!
- كما تشاء يا حمدون! لكن.. ماذا أقول له؟؟!
- تشفع لي عنده في الذهاب إلى اشبيلية لمقابلة وليِّ الفتاة التي أود أنْ أتزوَّجها؛ دونما أنْ نعلن أنَّه قاضي اشبيلية؛ فقط.. هذا ما أريده!
- فقط هذا ما تريده! (قالها وهو يبتسم بمودةٍ أبوية)؛ ثم أردف بتلطُّفٍ.. وهو يلوح بيده مغادراً: "سأفعل ما تريده -إنْ شاء الله- يا حمدون، السلام عليكم!".
- وعليكم السلام ورحمة الله!

*****

أُذن للمؤيد بالدخول على الخليفة المهدي في مجلسه مع صاحبيه؛ فجاء من أقصى البهو يمشي على مهلٍ.. بوقار الملوك ووجاهتهم، وقف بين أيديهم.. ثم هتف بصوتٍ كريم: "السلام عليكم ورحمة الله!"، فأجابه جميعهم: "وعليكم السلام ورحمة الله!"، وكان صاعد يلكز صديقه (الحسن) خُفية كأنَّما يقول له: (أُنظر إلى المؤيد ووجاهته وبهاء طلعته)؛ في حين كان المهدي يرشق المؤيد بنظراتٍ يَكمُن الحقد تحت ظلالها. همَّ المؤيد بالجلوس؛ فصاح المهدي مُتعجِّلاً وبشيءٍ من الغلظة: "لم اسمح لك بالجلوس!"؛ فوقف المؤيد مُتعجِّباً من هذا التشنُّج الغير مبرر؛ لكن.. ما لبث المهدي أنْ عَدَّل من سلوكه المتحفِّز ومن لهجته المتشنِّجة.. وأشار إليه في كياسة وهو يهتف بنبرةٍ هدأت حدتها: "اِجلس يا ابن العم.. خلاك ذم!"، قعد المؤيد بعد أنْ نفض المقعد بباطن حلته.. كأنَّما ينفض وقاحة المهدي وغطرسته، إلا أنَّه ظلَّ ساكتاً، والقوم مطرقون ينظرون

تـارةً إليـه معجبـون بوجاهتـه وبهـاء طلعتـه، وتـارةً إلى المهـدي مندهشـون مـن تشـنُّجه وتوتُّره؛ إلى أنْ جأر المهدي -بنبرةٍ حرص أنْ يُغلِّفها بكبرياء الملك وصلفه- قائلاً:

- كنتَ قد التمستَ المثول بين يدي؛ هل لك حاجة أقضيها لك.. يا ابن العم؟؟
- نعم.. يا أبا الوليد! إني أرغب في الشفاعة عندكم.. لحمدون بن هشام!
- حمدون؟! وهل يحتاج حمدون لشفاعة أحد؟ إنَّه من أقرب رجالي إلى روحي!!
- إنَّما أشفع في أمرٍ.. يستحي أنْ يُكلِّمك فيه مباشرةً!
- يستحي مني؟!! فما هو هذا الأمر؟؟ (تساءل باستخفافٍ وعدم اكتراث)
- إنَّه يريد.. أنْ يتزوَّج!!
- يتزوَّج؟!! بخٍ بخٍ.. يا حمدون!! (قالها المهدي وهو يُقلِّب بصره في الجلوس كأنَّما يقول لهم: {انظروا كيف صار خليفتكم المؤيد يُخاطبني وهو مطأطأ الرأس تهيُّباً مني}، ثم ارتدَّتْ عينه تُحدِّق في المؤيد بتغيُّظ.. عجز عن إخفائه؛ واستطرد مُستنكراً: "هل أنت أقرب إلى حمدون مني كي يُشفِّعك عندي؟!!".
- لا مرية أنت أعز عليه مني! لكنَّه.. يستحي أنْ يُكلِّمك مباشرةً في أمر كهذا!!
- والعروس.. بنت مَن إذاً؟؟! (تساءل بنبرةٍ شبه ساخرة)
- إنَّها فتاةٌ.. من أهل اشبيلية!
- اشبيلية؟!! وهل يعرف حمدونُ أحداً في اشبيلية ليصاهره؟؟! (تساءل بلامبالاة)
- هذا شأنه.. وهو حرٌ في اختياره! (جأر بصرامة.. تململاً من غطرسته الفارغة)
- يؤسفني –يا ابن العم- أنْ أرد شفاعتك هذه المرة أيضاً.. كما رددتُها في ذاك العبد الوقح الذي قطعتُ لسانه!! (قالها بشيءٍ من التعاظم.. كأنَّما يفخر بها عليه)
- قطعتَ لسان ذاك الفتى المسكين لأنَّه ناداني خطأً بأمير المؤمنين! فهل ستقطع لسان حمدون لأنَّه يريد أنْ يتزوَّج؟؟ (هتف المؤيد باستياءٍ وأنفة أثارا حفيظة المهدي وحميته)؛ فانتفخت أوداجه غضباً واكفهر وجهه وصاح حازماً:
- لا شأن لك! وأبلغه: أنَّ الأحرى به أنْ يلتمس ود خليفته بغير وسيط! (قالها.. وسكت هنيهة)، ثم استأنف زاجراً: "هيا انصرف، وأرسله لي.. إنْ كان عندك!!".

- اِعلم –أيها الخليفة- أنني لم أُرد سوى الخير.. ورفع الحرج عن حمدون، ولم أحسب أنَّك ستستاء كل هذا الاستياء.. لشفاعتي له عندك!
- لا تثريب عليك.. يا ابن العم! (هتف بنبرةٍ اهدأ)؛ ثم استأنف: "إنَّما استأتُ لأني أُعد حمدونَ كأخي الأصغر، ولم أتصوَّر.. أنَّه سيجعل وسيطاً بيني وبينه!!".
- بالله عليك.. لا تكسر خاطره، أسألك بالرحم ألا تردَّه غير مجبور!
- نفعل ما فيه الصلاح.. إن شاء الله! (هتف متظاهراً بالوقار والهيبة)

همَّ المؤيد بالانصراف مطأطئ الرأس أسفاً.. منكسر النفس لشعوره بأنَّه خيَّب رجاء حمدون فيه، وفيما كان يوليهم ظهره منصرفاً بتؤدةٍ ووقار؛ كان صاعد يراقبه خِلسة مُتمتِماً: "سبحان مَن خلق وصوَّر!"؛ لتذكُّره ذاك الشبه القريب في الخِلقة بين الخليفة المؤيد وبين ذلك اليهودي: كاتب صديقه التاجر الجياني.

****

-المشهد التاسع والعشرون-

- أنا.. عاتبٌ عليك يا حمدون!! (هتف المهدي بنبرةٍ لائمة)؛ فغضَّ حمدون طرفه.. وهتف متنصِّلاً: "لك العُتبى يا أمير المؤمنين.. ماذا بدر مني يُغضب مولاي؟؟".
- هل حقاً ترغب في الزواج؟؟
- هو سنة الله في خلقه.. يا أمير المؤمنين؛ وأحسب أنَّ رغبتي في الزواج لا تغضبكم!!
- ليست رغبتك في الزواج ما تغضبني.. وهو ليس غضب؛ إنَّما هو عتابٌ، أعتب عليك أنَّك جعلتَ المؤيد شفيعاً لك عندي.. وأنت تعلم أنَّك أحب إليَّ منه؛ فهل هو أقرب لك مني؟! أم تظنه.. مازال الخليفة الذي إذا أمرنا وجبت علينا طاعته؟؟!
- حاشا لله.. يا أمير المؤمنين! بل أنت خليفتنا.. وتاج رؤوسنا!
- فما خطبك إذاً؟ لماذا تجعله شفيعاً بيني وبينك؟؟!

- اِستحييتُ -يا أمير المؤمنين- أنْ أُفاتحكم في أمر زواجي مباشرةً!
- لقد أخطأتَ مرتين.. يا حمدون! الأولى حينما أحجمتَ عن الاستئذان من خليفتنا في زواجك، والثانية حينما شفَّعتَ عنده المؤيد.. وهو ليس منا! (صاح صاعد بنبرة تأنيب صارمة).. فطن حمدون إلى أنَّ الغرض منها هو التزلُّف إلى الخليفة.. لا الإخلاص في النصيحة؛ فثارت حفيظته ضد هذا المرائي، بيد أنَّه كظم غيظه وتوجَّه بالحديث إلى المهدي مُعرِضاً عن صاعد وسماجته؛ فهتف:
- أعتذر -يا أمير المؤمنين- عن سوء تصرفي، وألتمس عفوك الذي هو أقرب من غضبك، ويعلم الله أني حسن النية، وما فعلتُها إلا تهيُّباً وتوقيراً للخليفة.. واستحياءً من أنْ أشغله بشئوني الخاصة عن شئون الخلافة ومهامها الجسام!
- لا تثريب عليك –يا حمدون- فإنَّك رجلٌ مخموم القلب.. صدوق اللسان! وإنَّما أردتُ أنْ أُنبِّهك إلى أنَّ المؤيد لم يعد الخليفة! وهو ليس أقرب لك.. مني!!
- لا شك في ذلك.. يا أمير المؤمنين!
- إذاً.. مَن العروس؟؟ (هتف بلهجة.. تغيَّرت من التأنيب إلى التلطُّف والمودة)
- إنَّها.. سلوان.. يا سيدنا! (غمغم.. بشيءٍ من التردد)
- ومَن هي.. سلوان؟؟! (تساءل الخليفة وهو يُحاول تذكُّر الاسم كأنَّما سمع به قبل الآن)، تلعثم حمدون قليلاً.. وبشيءٍ من التحفُّظ أجاب:
- إنَّها الآنسة التي استضفناها في جبل العروس.. إبان الثورة!
- شاهدة الذلفاء؟؟ (تساءل المهدي مندهشاً)، ثم ابتسم، وقهقه.. وعلتْ ضحكاته حتى أثارت حفيظة حمدون الذي أطرق.. حالما هتف صاعد:
- أ ومازالت عندكم في الدار.. يا حمدون؟؟!
- أجل!! (أجاب باقتضاب).. كاظماً غيظه الذي لاحظه المهدي؛ فأمسك عن الضحك مراعاة لمشاعره، ثم هتف مُمازحاً.. بنبرةٍ ودودة:
- أرى أنَّك أحببتها.. يا رجل! لكن.. هل عرفتَ مَن هم أهلها؟؟
- نعم.. يا أمير المؤمنين، هي بنت رجلٍ من أهل اشبيلية!

- وما أقدمها إلى قرطبة؟ ولماذا حبسها ذاك الرجل... (هتف وهو يفرك جبهته بأنامله مُحاوِلاً تذكُّر حكايتها)؛ ثم أردف: "ما اسم الرجل؟! هلا ذكَّرتني بحكايتها؟!".

على مضض.. اضطر حمدون إلى أن يقص شيئاً من خبر سلوان عليهم.. استجابةً للخليفة، وحرصاً منه على تجاوز الموقف، ورغبةً في سماح الخليفة له بالسفر؛ فقال:

- إنَّها ابنة تاجرٍ من اشبيلية قدم إلى قرطبة بماله وزوجته وابنته.. رغبةً في سعة الرزق، وبعد مدة من الزمن.. مات؛ فتزوَّج ذاكم الرجلُ الخبيث أرملتَه –التي هي أم سلوان-؛ فلما ماتت الأم طمع –ذاكم الخبيث- في البنت وحبسها في وكره الذي يُعتِّق فيه خمره؛ فشاهدتْ –إنْ تذكَّر مولاي- شنجولَ وهو يقتل القاتل المأجور الذي قتل له أخاه المظفر، وفرَّتْ منهم إلى جبل العروس...
- تذكَّرتُ.. الآن! لقد عاشت في حمايتنا بضعة أيام ثم أنبأت الذلفاء بما شاهدته، وتسبَّبت شهادتها في اِنحياز الذلفاء إلى صفنا؛ فأصبحت معنا.. ضد شنجول!
- إذاً.. هي من أنصار ثورتنا!! (هتف الحسن بن حيّ.. يجامل حمدون)
- لكن.. ما اسم ذاك الخبيث: زوج أمها؟ أريد أن أتذكَّره!! (تساءل الخليفة)
- ابن الرسان.. يا سيدنا! (قال حمدون باقتضاب)
- أجل.. أجل! ابن الرسان! كان حاجب باب شنجول ونديمه؛ أ ليس كذلك؟؟
- بلى.. يا أمير المؤمنين! (هتف حمدون.. في ذات اللحظة التي التقت فيها عيناه بعيني فرتون)؛ فرأى فيهما اندهاشٍ.. وغموض أثار خوفه؛ فهو يعلم أنَّه كان حارس الوكر الذي سُجنتْ فيه؛ فخشي أنْ يتذكَّرها فرتون؛ ولم يدر.. ما سر خشيته!!
- ألا ترغب أنْ أخطبها لك من أهلها.. بنفسي؟؟ (سأله الخليفة بتحضيض).
- إنَّه لشرفٌ عظيمٌ لي.. يا سيدنا! (جأر حمدون بامتنان)، وسكت هنيهة.. ثم هتف بنوع من الاعتذار: "لكني أود أنْ يسمح لي أمير المؤمنين بمقابلة أوليائها من عشيرة أبيها.. وإعلامهم بمكانها بيننا قبل أنْ يتكرَّم سيدنا بالشفاعة لي في زواجها".

- كما ترغب! متى تريد أنْ تسافر إلى اشبيلية؟؟
- لو أذن لي خليفتنا.. أسافر غداً.. إنْ شاء الله!
- إلى هذا الحد نفد صبرك!!؟ (صاح المهدي وهو يضحك ملء فمه)؛ ثم استطرد بتلطُّف: "اذهب كما تشاء يا حمدون؛ فلن نثنيك عما تحب!".
- حفظكم الله.. يا سيدنا.. وبارك فيكم!

****

-المشهد الثلاثـــــون-

لم يكد فرتون يرى ويسمع حتى طار إلى عبد الجبار، جمجم بصوتٍ كفحيح الأفعى: "انكشفت المؤامرة.. أيها الحاجب!"، تساءل بارتياب: "أية مؤامرة.. يا هذا؟!!".

- مؤامرة المؤيد وحمدون على الخليفة!
- كيف؟؟! (سأل باكتراث.. وقد انفرجت أساريره تهلُّلاً).
- لقد جاء المؤيد إلى الخليفة يشفع لحمدون في السفر إلى اشبيلية؛ فلما رد شفاعته.. جاء حمدون بعدها على الفور، واستأذن الخليفة.. فأذن له.
- وما الذي يريدانه من اشبيلية؟!!
- يزعم حمدون أنَّه ذاهبٌ إلى وليِّ فتاةٍ يرغب أنْ يتزوَّجها!
- وهل تُعِد ذلك مؤامرة.. يا فرتون؟؟! (تساءل باستنكارٍ وإحباط)
- وهل تصدِّق أنَّ حمدون ذاهبٌ إلى اشبيلية ليتزوَّج؟!!
- ماذا تقصد؟! إنَّك ستعرضنا بسوء ظنك هذا لنقمة المهدي؛ إنَّ الكل يعلم حسن ولاء ذاك الأبله (حمدون) للمهدي؛ فضلاً عن أنَّ المؤيد رجل ضعيف، ولا يملك من أمر نفسه شيء! فمن ذا الذي يُصدِّق أنهما يتأمران؟!
- ثق بي أيها الحاجب! أنا أشم رائحة مؤامرة تُحاك؛ وعلينا أن نقتنص الفرصة!
- أية فرصة.. أيها المجنون؟!

- أعرني أُذنك! مذ دخل حمدون القصر وهو يزداد قرباً من المؤيد.. حتى صارا لا يفارق أحدهما الآخر، ثم خرجا سراً من القصر وغابا معاً عن أعيننا أكثر من ليلة، ثم عادا إلى القصر في سرية وتخفي، ثم انتزع حمدون قرطاساً خليفياً ليكتب فيه المؤيد شيئاً خاصاً لا نعلمه، ثم يحرصان فجأة على خروج حمدون غداً إلى اشبيلية.. وبهذه السرعة! ألا يثير هذا كله شيءً من الريب!
- لو صدَّقتُك! فما ظنك: ما الذي يدبرانه؟؟ إنَّهما مغفلَين.. لا حول لهما ولا قوة!
- إنْ لم يكونا متآمرين؛ فلنجعلهما نحن متآمرين! هذه فرصتنا.. لإتمام خطتنا!!
- كيف؟؟ فيما تفكر.. يا شيطان؟!
- ينبغي أنْ نعلم ماذا كتب المؤيد في ذاك القرطاس؛ وبعدها.. نرى رأينا! أريدك أن تستدعي حمدون غداً قبل رحيله، وتُحقِّق معه -بصفتك حاجب الخلافة- في انتزاعه القرطاس، ولا تدعه يرحل ريثما نطلع على ما كُتِب فيه.. وحينها يكون لنا تدبير!
- لك ما تشاء! سأستدعيه غداً باكراً!

****

-المشهد الحادي والثلاثون-

مع إشراقات صباح الثلاثاء (الرابع عشر من شعبان).. كان حمدون قد استكمل استعداداته للسفر السعيد بهمة وحماس، يكاد يرقص فرحاً وهو يرتدي ثيابه فيما يُبشر نفسه متخيِّلاً لقائه الناجح بالقاضي (عم سلوان) وترحيبه به لكوْنه رسول المؤيد، بل.. وراح يُمنِّي روحه بتصديق القاضي لحكاية سلوان وإيمانه –دون أنْ يراها- بأنَّها ابنة قريبه الذي فرَّ من اشبيلية.. منذ سنين. ما تَنِي الأماني المبهجة تراود خياله حتى أفاق منها على صوت أحد الحراس يستأذن في الدخول إلى مخدعه، ويلتمس منه أنْ يذهب معه **حالاً** إلى مجلس الحاجب الذي يستدعيه **لأمر هام!** لم يتفاءل حمدون بهذا الاستدعاء الغامض.. وانقبض قلبه حيرةً وترقباً: (إنَّ حسد عبد الجبار له معلوم)! على أنَّه انصاع، وذهب إليه مع الحارس.. بعد أن خبَّأ أمانيه وفرحته في

جوفه. استقبله عبد الجبار ببشاشة لم يرتح لها حمدون؛ بل زادت دهشته، اجلسه.. ثم هتف: "مرحى يا حمدون.. لقد علمنا أنَّك مسافر؛ فهلا أعلمتنا كي نودعك.. يا رجل؟!".

- لم أعلم أنَّ سمو الحاجب.. سيتوق إلى وداعي إلى هذا الحد!!؟
- كيف يا رجل؟! إنَّ قدرك عند الخليفة.. وعندنا عظيم! إلى أين الرحيل؟؟
- إلى اشبيلية.. إنْ شاء الله! (هتف ومازالت أمارات الدهشة لم تزايل وجهه)؛ فجأر عبد الجبار بنبرةٍ يمتزج فيها العتاب بالتكبُّر والسخرية:
- ألم ينبغي أنْ تُعلِم الحاجب بسفرك؟! إنّك أحد أهم العاملين بالقصر؟!!
- لا تؤاخذني.. أيها الحاجب؛ فقد ظننتُ أنَّ استئذاني من الخليفة كافي!!
- لا عليك!! نحن أخوة.. ولا ينبغي أنْ تكون بيننا مثل هذه الإجراءات!
- لا غرو! وإنَّه لشرفٌ لي أنْ تعتبرني أخاً لك.. أيها الأمير!!
- هل لي أنْ أعرف الهدف من رحلتك إلى اشبيلية؟؟ (تساءل بجدية أشد)
- ليست رحلة عمل؛ إنَّما هي زيارةٌ خاصة لبعض المعارف والأصحاب!
- رحلة سعيدة إذاً؛ ولا تنسانا من هدايا اشبيلية!
- بالطبع.. أيها الأمير! هلا أذنتَ لي بالانصراف؛ ينبغي أنْ أرحل.. الحين!
- ثمة مسألةٌ صغيرةٌ.. يجب أنْ ننتهي منها.. قبل رحيلك!
- ما هي؟؟! (تساءل حمدون.. وقد تضاعف الريب المتسلِّل إلى فؤاده)
- لقد شكا لي كاتبُ القصر أنَّك أرغمتَه على إعطائك قرطاساً خليفياً بغير إذن الخليفة؛ فهل هذا صحيح؟؟ (تساءل بنبرةٍ جافة صارمة).. أقلقتْ حمدونَ الذي تردَّد قبل أنْ يقول متلعثماً:
- نعم.. صحيح! لكني أخذتُه.. لا لشيءٍ.. ذي بال!
- يقولون أنَّك اِدعيّتَ أنَّه للمؤيد؛ فهل يحق للمؤيد أن ينتزع قراطيس الخلافة دون إذن خليفتنا المهدي.. حفظه الله؟؟!

- .... (ألجمت الحيرةُ حمدون؛ فلم يجد ما يجيبه به)
- هذا خطأٌ فادحٌ.. لم أتوقعه منك يا حمدون.. ولا سيما أنَّك محل ثقة الخليفة!!
- أعترف بخطئي.. أيها الحاجب! وأعدك أنني لن أكررها! (هتف بنبرة اعتذارٍ يائسة)
- عظيم! هذا ما توقعتُه منك؛ فكل ابن آدم خطّاء، وأنْ تعترف بالخطأ وتُصحِّحه خيرٌ لك من أنْ تكابر! (هتف ببرودٍ صفيق)
- أصبتَ.. أيها الحاجب! هلا أذنتَ لي في الانصراف؛ فقد تأخرتُ.. والطريق طويلة!
- لقد اعترفتَ بخطأك.. يا حمدون؛ وهذا حسن! لكنك لم تُصحِّحه بعدُ؛ فينبغي أنْ تُصحِّحه قبل رحيلك، قد يعلم الخليفة بالأمر في غيابك فيثير ذلك سخطه واستيائه، الأولى بك أنْ تُصحِّح خطأك قبل الرحيل.. كي تبرأ ساحتك!
- كيف ذاك؟؟! (تساءل حمدون باندهاش) وقد تجهَّم وجهه وانعقد حاجبيه نفوراً وقلقاً؛ فقد تكشَّفت له نية عبد الجبار السيئة وإضماره للشر.
- يجب عليك أنْ تعيد القرطاس الذي انتزعتَه بدون وجه حق!
- قد علمتَ أنني أعطيتُه للمؤيد! (جأر بتوتُّرٍ مكبوت)
- وهل تعلم: ماذا فعل به؟؟ (سأله بنبرةٍ باردة جافة).. أحس حمدون أنها تُخفي ورائها نيران حقد تتأجج؛ فآثر أنْ يلتزم الإنكار كيلا يفتضح سر سلوان.. فهتف:
- لستُ أدري.. هذا أمر يخصه.. ولا يعنيني! (قالها عفو الخاطر)
- إذاً.. نستعيده من المؤيد قبل أنْ ترحل! (قالها وعيناه تحدجانه بنظراتٍ مسمومة)، هربت منهما عينا حمدون.. وتمتم مُكرَهاً:
- كما تشاء!
- أيها الحارس! اِستدعي لي الفتى جؤذر.. حالاً! (صاح منادياً أحد حراسه).. وعيناه لم تنفك تعبث في وجه حمدون كأنَّما يفتش عن السر الذي يشك أنَّه يُخفيه.

جاء جؤذر مسرعاً.. يتكفَّأ خوفاً من طلب الحاجب له مبكراً.. في مثل هذا الوقت الغير معتاد؛ فإنَّ دأب عبد الجبار -مذ تولى منصب الحاجب- ألا يحضر في مجلس عمله إلا بعد

انتصاف النهار، (لا ريب أن الأمر خطير!): أضمر في دخيلته حالما انحنى بين يديه تحيةً وتوقيراً؛ فصاح فيه عبد الجبار بصرامةٍ وجفاءٍ –دون أنْ يرد تحيته- قائلاً:

- اذهب يا هذا إلى هشام (يقصد المؤيد) واسأله عن القرطاس الخليفي الذي جاءه به حمدون أمس؛ فإما أنْ يعطيك إياه، أو تأتني به ذليلاً.. حتى نستعيد ذاك الكتاب!
- سمعاً وطاعةً.. يا سيدي!

ربض حمدون مطرقاً في سكون، لكن.. اختلج في صدره أنَّ المسألة تعقدت، وقد ينكشف أمر الرسالة ويفتضح ذهابه بها إلى قاضي اشبيلية؛ وساعتها قد يفتضح سر سلوان الذي أزمع إخفاءه إلى أنْ يُتم الله أمرهما كما يحب، وحينها قد يثير حنق المهدي لأنَّه أخفى عليه ذاك الجانب من القصة، وقد يلومه ويعاتبه عتاباً قاسياً على أنَّه لم يصارحه بأنَّ وليّ سلوان هو قاضي اشبيلية، وقد يتأكَّد عنده سوء الظن بأنَّ المؤيد أقرب له منه! (ستكون وقيعة بيني وبين المهدي وفتنةً.. اللهُ أعلم بنهايتها! قبَّحك الله.. أيها الحاقد عبد الجبار!!): أضمر في سريرته.

ما برحت نظرات عبد الجبار المتحفِّزة تهاجمه، تطل منها الظنون والاتهامات صريحةً مُباغِتة؛ ولم يزل حمدون يهرب منها بسكوته وغض طرفه.. متغافلاً عنها. مرت برهة من الوقت شعرا كأنها زمن مديد؛ إلى أنْ رجع إليهما جؤذر يقول متلعثماً:

- يقول المؤيد أنَّه كتب في ذاكم القرطاس رسالة إلى أحد أصدقائه القدامى.. وأرسلها إليه مع حمدون! (قالها وهو يرمق حمدونَ خلسة)، ثم استطرد هامساً: "إنه يعتقد أنَّ حمدون غادر القصر.. فجر اليوم!".
- آه.. هكذا! فالكتاب مع حمدون؟!! انصرف أنت –الآن- أيها الصقلبي! (هتف عبد الجبار مخاطباً جؤذر).. وقد برقت عيناه بريقاً ألقى الوجل في قلب حمدون الذي لم يزل يستجمع قوى روحه وشتات عقله في سكون، أراد عبد الجبار أنْ يضغط عليه ويرهبه؛ فاستأنف صائحاً: "لماذا أنكرتَ أنَّ الكتاب معك؟؟ كيف تكتم مثل هذا الخبر عنا.. وأنت موضع ثقتنا؟!!".

- كما أخبرتُك –آنفاً- أيها الحاجب: إنَّه شأنٌ غير ذي بال، مجرد رسالة أراد المؤيد أنْ يرسلها معي لأحد أصدقائه، وليس لها علاقةٌ بشئون القصر أو الخلافة!!
- فلماذا أنكرتَ أنها معك؟؟!
- لأنها رسالة خاصة بالمؤيد..
- أليس في قرطبة أوراقٌ غير قراطيس الخلافة.. ليكتب رسالته الخاصة عليها؟؟!
- .... (لم يجبه حمدون.. غير أنَّه نظر في عينيه -بعد أن كان يتحاشاهما- وأطال النظر فيهما بجرأة وتحدي.. كأنما يقول: هات ما عندك من اتهامات؛ فلن أبالي!!)
- لابد أنْ أطلع على الكتاب بنفسي.. يا حمدون؛ فأتني به الآن.. قبل أن ترحل!
- لا يجوز أنْ تطلع على الرسالة بغير إذن صاحبها.. فهي أمانة!!
- إذا كانت قد كُتبت في قراطيس الخلافة دون إذن الخليفة؛ فإنَّه من واجبي أنْ أطلع عليها سواء أذن صاحبها أم لم يأذن! هات الرسالة.. وإلا اتهمتُك بالعصيان!!

لم يجد مفر من إظهار الرسالة.. خشية أنْ يُصعِّد عبد الجبار الأمر تصعيداً أكبر مما يستحق؛ فخضع لتهديده.. وآثر أنْ يُظهر الكتاب؛ فأخرجه وناوله إليه على مضض وهو يتمتم: "لا حول ولا قوة إلا بالله!". فضَّ عبد الجبار الرسالة وأخذ يقرأها بعينيه، وجعلت أسارير وجهه تنفرج وتعلوها أمارات التحفُّز والسرور؛ حتى إذا انتهى من قراءتها.. طواها، ثم اتَّكأ.. وجعلت عيناه ترشقان حمدون بنظراتٍ كنظراتِ المنتصر إلى غريمه اللدود بعد أنْ هزمه وتمكَّن منه. كانت لحظات الصمت قاسيةً على حمدون كحبالٍ غليظة التفت حول رقبته شقَّ عليه احتمالها حتى كادت تخنقه؛ فهمَّ أنْ يتكلَّم ليقطعها.. لولا أنْ بدأه عبد الجبار أخيراً بالحديث؛ وصاح يسأل:

- ألا تعلم لمن هذه الرسالة.. يا حمدون؟؟! وهل تعلم فحواها؟؟
- .... (رمقه حمدون بعيونٍ متحدية)
- إنها لقاضي اشبيلية! لماذا يُكاتب المؤيدُ قاضي اشبيلية مستخدماً قراطيس الخلافة.. كما لو كان هو الخليفة؟؟!

- ....

- إنَّه يقول: {أما بعدُ.. يصلكم كتابي هذا مع رجلٍ أثق فيه ثقتي في نفسي.. فأعره سمعك ولا تُكَذِّب حديثَه.. فإذا أردتَ التأكُّد من صدق خبره فأتني إلى قرطبة في أقرب وقت.. وستجد ما يثلج صدرك!}. لا مِراء! أنت هذا الرجل الذي يثق فيك هشام ثقته في نفسه؛ فما هو الخبر الذي كنتَ ستُخبر به القاضي؟؟ ولماذا يدعوه إلى قرطبة دون أنْ يستأذن الخليفة؟؟

- ....

- أجبني.. يا حمدون! السكوت لا يُنفعك!! (صاح بانفعالٍ وصرامةٍ فظة)

- ....

- إذاً!! لا مناص من أنْ أرفع الأمر للخليفة! (هتف محاولاً أنْ يُخفي أمارات السرور والبشر التي غشيت وجهه)، ثم صاح منادياً: "أيها الحراس!"؛ فأقبل إليه بعض حرسه في توقير مسرعين، أمرهم باصطحاب حمدون إلى حجرته، وأوعز إليهم ألا يخرج منها ريثما يستدعيه؛ فتخلى حمدون –ساعتئذ- عن صمته.. وصاح:

- هل تعتقلني.. أيها الحاجب؟!! أُنظر ماذا تفعل؛ إنَّك تثير فتنة لا حاجة لك بها!

- بل إني أئد الفتنة في مهدها.. يا حمدون! ابقَ في غرفتك حتى أستدعيك، ولا تُحدِّثك نفسك بالإقدام على فعل يضرك ولا ينفعك! (هتف بنبرةٍ شامتة حاقدة)

****

-المشهد الثاني والثلاثون-

زُجَّ بحمدون إلى غرفته وأُوصدتْ دونه، ووقف ببابها حارسان صقلبيان، ما انفك يجول في الغرفة جيئةً وذهاباً.. يعض أصابعه حنقاً وغيظاً. لم يدرِ كم مر عليه من ساعات وهو على هذه الحال.. إلا أنَّه ظنَّها ساعات طويلة بما يكفي لكي يتجه إلى باب الغرفة فيصب عليه احتدام غيظه وسخطه طرقاً وعنفاً.. منادياً الحراس من ورائه: "أنت.. أيها الحارس! اخرجني!! يجب أنْ أُقابل الخليفة!"، لم يجبه أحد.. ولم يعبأ له

أحد؛ فأيس من الصياح، وكَلَّتْ يده من قرعِ الباب؛ فعاد أدراجه ليقعد على طرف فراشه.. ضارباً فخذه بكفه غيظاً وندامة، طفق يفرك لحيته حائراً متفكراً: (قاتلك الله يا عبد الجبار! ماذا تريد مني؟! وما مدعاة كل هذا الحقد والبغض اللذين تكنهما لي؟! لماذا تدبِّر دائماً عليَّ وكأنني غريمك الذي يُنازعك جاهك؟!). انبعث منتصباً كأنَّما سئم القعود على الفراش، وعاد يذرع جنبات الغرفة ذهاباً وإياباً.. حتى ضاقت عليه جنباتها وضاقت بها نفسه؛ فما فتئ يعاود التدبُّر في المسألة.. باحثاً عن مخرج من تلك المكيدة التي يحيكها له الحاجب: (نعم! لا جرم.. مكيدةٌ يدبرها عليَّ ذاك الحاقد! فهو لم يلتمس وداعي قبل سفري، ولم يُرد معاتبتي لأنني سأسافر دون إخباره؛ بل إنَّه علم بحادثة القرطاس؛ فبيَّت الغدر.. وأحب أنْ يستغلها للوقيعة بيني وبين المهدي. أجل! ليس ثمة تفسير آخر لتصرفه، لكن.. لماذا يسعى دائماً للدس عليَّ عند الخليفة؟!)، (أنا من أعطيتُه الفرصة! ويحي.. من أحمق! كيف وافقتُ المؤيد وطاوعتُه؟؟! كيف أنتزع له القرطاس دون إذن الخليفة؟! لابد أنَّ عبد الجبار سيُطلع المهدي على تلك الرسالة.. والله وحده يعلم ما هي الوشاية التي سيشي بها هذا الحاقد!!). أذهلته الحيرة.. وألجأه الإحباط إلى فراشه كَرَّةً أخرى؛ فارتمى عليه، ثم اعتدل قاعداً في توتُّر ويأس.. تتنازعه التساؤلات الحائرة: (ما الذي تُخبئه لي.. يا عبد الجبار؟! وهل سيُصدِّق الخليفة وشايتك؟! لا أحسبه يُصدِّقك دون أن يحقق! فلابد أنَّه سيستدعيني.. وسيسمع قولي، وكذلك المؤيد.. سيستدعيه وسيستمع إليه! ماذا أقول له؟؟! لا جرم الصدق منجى؛ فلأخبره الحقيقة.. لا شيء غير الحقيقة!)، (هل أخبره أنَّ قاضي اشبيلية هو عم سلوان؟ وأنَّ المؤيد أراد أنْ يكون شفيعاً لي عنده لأتزوَّجها؟! إذاً.. سيتأكد عنده أن المؤيد أقرب لي منه؛ وسيُسخطه ذلك عليَّ!!)، (فضلاً على انكشاف سر سلوان، وافتضاح أمرها قبل اعتراف القاضي بنسبها إلى بني عباد.. على عكس ما كنتُ أخططه!!)، (يا الله! لقد تأزَّمت المسألة، وعمَّتْ البلوى.. بسببك أيها الحاسد الحاقد! قبَّحك الله.. من رجلٍ مقيت!!).

****

-المشهد الثالث والثلاثون-

ما برح فرتون يقرأ رسالة المؤيد، ويعاود قراءتها مرات ومرات، وفي كل مرة تنفرج أساريره.. ويهمس مستبشراً: "هذا هو عين التآمر.. هذا عين ما نبتغي!!"، حتى ضَجِر به عبد الجبار فهتف حانقاً: "أعلم أنَّ هذا عين ما نريده؛ بل أفضل مما نريد! لكني ما استدعيتُك كي تطالع الكتاب.. وتهتف كالأبله: هذا عين التآمر؛ بل لتخبرني ما هي خطتك!؟ هيا.. أخبرني كيف نُقنع المهدي بأنَّ المؤيد يتآمر عليه!؟".

- يا سيدي.. الأمر واضحٌ جلي! المؤيد يسعى لاستعادة ملكه؛ وها هو ذا يراسل قاضي اشبيلية ليستنجد به ضد الخليفة المهدي وضدنا، ويعاونه في ذلك حمدون! أليس هذا تآمر على الخليفة ونقض لعهده؟!
- هذه الرسالة دليل دامغ! لكن تساورني الشكوك؛ وأحسب أنَّه ليس ثمة تآمر بين المؤيد وقاضي اشبيلية، وينتابني فضولٌ شديد لأعرف ما الذي سيُخبره به!!
- أما أنا فلا يعنيني إلا إقناع المهدي بتآمر المؤيد عليه.. فيقع ما خططنا له؛ لذا فإنَّه يتوجَّب علينا أنْ نحسن استغلال هذه الرسالة! لو فعلنا؛ فلسوف نزلزل أرض قرطبة تحت أقدام خصومك جميعهم.. أيها الحاجب!!
- أشر عليَّ.. يا داهية! (هتف عبد الجبار بحماس)، فيما يفرك فرتون جبهته ويغرق في تفكيرٍ عميق.. مصوباً نظره إلى إحدى الثريات المتدلية، ثم يقول:
- تقابل الخليفة، وتطلعه على الرسالة، وتُعظِّم له المسألة؛ فيهاب خطر المؤيد على نفسه، وتُقنعه بأنْ تتولى أنت التحقيق مع المؤيد وحمدون.. وقاضي اشبيلية!
- هل نُقحم قاضي اشبيلية أيضاً؟!! (تساءل عبد الجبار بتهيُّب)
- أجل! فحتى يتحرك المهدي ضد المؤيد ليبطش به.. كما نرغب؛ ينبغي أنْ نؤكِّد له بالقرائن خطورته عليه؛ فيفزع منه على نفسه.. ويثب عليه!
- ألا تعلم من هو قاضي اشبيلية.. أيها المجنون؟؟! (سأله باستنكار)

- ومَن في الأندلس كلها لا يعرف أبا الوليد قاضي اشبيلية.. وسمو قدره.. وعظم ماله وثروته. لذا فإنَّ اقتناع المهدي بأنَّه شريك المؤيد في التآمر ضده سيزلزل الأرض تحت قدميه، وسيدفعه لتعجُّل البطش بالمؤيد.. وهذا عين ما نريد!
- إنَّك تلعب بنارٍ قد تحرق الأندلس كلها.. وتقلبها رأساً على عقب!!!
- بهذه النار ستحرق خصومك في آنٍ واحد.. يا أميري! لذا فعليك أنْ تُقنع المهدي بتآمرهم ضده، وتُقنعه بوجوب وأد الفتنة في مهدها.. وسرعة القضاء على المؤيد بأي ثمن؛ وبعدها.. سيأتي دور سليمان ولي العهد.. وأبيه هشام!
- سألتمس مقابلة المهدي.. حالاً!
- لا تنسَ! يجب ألا يُحقق غيرك في القضية، وعليك أنْ تُغريه بالاعتماد عليك أنت وحدك في التحقيق معهما؛ لكي نعطيه النتائج التي تخدم خطتنا!

****

-المشهد الرابع والثلاثون-

رغم اجتهاد عبد الجبار في إقناع المهدي بتآمر المؤيد وحمدون وقاضي اشبيلية إلا أنَّ المهدي لم يثر.. ولم يبدو عليه الاستياء ولا الانفعال كما كان يأمل عبد الجبار وشيطانه (فرتون)، ولم يزد على أنْ عضَّ يده من الغيظ، ثم -بعد إطراقٍ يسير- خفض قائلاً: "ذرني أتدبر المسألة.. يا عبد الجبار!"

- لا تنزعج بأولئك الخونة.. يا أمير المؤمنين، ودعهم لي.. سأُحقق معهم، ثم سأرمي بهم تحت قدميك أذلاء.. حتى تُنزل بهم العقاب الذي يستحقون!!
- كلا! لا تفعل.. ريثما آمرك.. أيها الحاجب! تحفّظ –فقط- على المؤيد وحمدون.. إلى أنْ أرى فيهما رأيي، ولا تُقدم على فعلٍ آخر؛ أ فهمتَ؟؟

*****

فيما يُسامر المهدي ندمائه.. كدأبه كل ليلة؛ جثم عبد الجبار في بيته وحيداً مغتاظاً مُتفكِّراً! لم يكن يتوقَّع أنْ يُجيبه المهدي بهذا الهدوء والثبات.. بل بهذا البرود! (هل عساه لم يصدق؟ لقد جعلتُه يقرأ الرسالة بنفسه ويتأكَّد من أنها خط المؤيد وعليها ختمه، وأعلمتُه بوجود شهود من رجال القصر على أنَّ حمدون كان يحمل الرسالة وهو متهيء للسفر إلى اشبيلية، وليس ثمة دليل أوضح من استئذانهما وإصرارهما على سفر حمدون إلى اشبيلية!؟)، (لقد سوَّلتُ له البطش بهما وأغريتُه بهما.. بعدما بيَّنتُ له ما وراء هذه الرسالة من خطر التآمر ونقض العهد! ومع ذلك لم يحرك ساكناً كأنَّ الأمر لا يعنيه.. أو كأنَّه على علمٍ سابقٍ به!!؟)، (محمد المهدي ليس بهذه السذاجة؛ ربما يدبر لشيءٍ!! ما الذي تدبره.. يا ابن هشام؟؟! اللعبة ليست سهلة.. كما ظننتُ!! لو حقَّق معهما بنفسه.. فقد يُثبتا سلامة نواياهم؛ ويفشل ما أخطط له!!)، (تُرى.. لماذا يُراسل المؤيدُ قاضي اشبيلية؟؟! ربما يتآمران حقاً!! يجب أنْ أعرف الحقيقة؛ سأستجوب حمدون! لا.. بل الأفضل أنْ أبدأ.. باستجواب المؤيد!).

*****

لعبت الخمرُ برؤوس الندماء وختَّرتْ أجسامهم، وصمَّت الألحانُ الصاخبة آذانهم؛ فلم يلتفت منهم أحدٌ لحديث الخليفة الجانبي الهامس مع رفيقه القديم ونديمه الجديد (صاعد بن عبد الوهاب).. خلا ساقي الخليفة (فرتون)، فقد أرهف السمع خلسة ليتسمَّع إليه وهو يخافت في أُذن صاعد قاصً عليه حديث عبد الجبار واتهامه للمؤيد وحمدون بالتآمر عليه، ويعلم بعدم ثقته في رأي حاجبه وعدم تصدِّيقه لهذا الاتهام، وبظنِّه أنَّ الأمر لن يتعدى أنْ يكون وشايةً حاقدةً من عبد الجبار باعثها بغضه القديم لحمدون! ثم يُنصت إليهما؛ فيسمعه يستشيره سائلاً:

- بماذا تُشر عليَّ.. يا صاعد؟ كيف أتصرَّف؟؟ هل ينبغي أنْ أُحقق في المسألة؟ أم الأفضل أنْ أتغافل عنها نكايةً في عبد الجبار.. ووشايته الدنيئة؟!!

- يا أمير المؤمنين! هب أنَّ حاجبك كاذب في اتهامه لهما؛ لكن.. المصلحة تُحتِّم علينا أنْ نُصدِّق هذا الاتهام، وأنْ نتعامل مع المؤيد على أنَّه نقض عهدك!!
- ما المصلحة في ذلك؟!! أفصح عما تريد أنْ تقول!!
- ألم نتفق -يا سيدنا- أنَّ خير وسيلةٍ لإزاحة المؤيد من القصر هي أنْ نتربَّص به الخطأ والغفلة.. فإنْ اقترف إثماً –ولو صغيراً- نحاسبه بجريرته.. ولا نعفو عنه، وحينها يصفو هذا القصر لكم.. ولا يكدر صفوكم فيه أحدٌ! وهذا الاتهام فرصة جاء بها الحاجبُ إلينا؛ فالرأي عندي أنْ نحسن استغلالها!

أسند المهدي رأسه للخَلْف.. واتكئ وغاب في غياهب الصمت، راودته أحلامُ اليقظة وهو يتدبَّر رأي نديمه، ثم رنا إليه بإعجابٍ.. وهتف: "أصبتَ.. أيها الشيخ الشقي! فهذا القصر لا يتسع لرجلين!"، وأمر له بعطاءٍ جزيل يقبضه غداً من بيت المال مكافأةً له على رجاحة عقله.. وأفكاره الخبيثة.

****

-المشهد الخامس والثلاثون-

عبد الجبار لم يطق صبراً، وتملَّكته رغبةٌ عنيفة في الكيد لحمدون والمؤيد؛ وحمله تطلُّعه لمعرفة الأسرار التي بين المؤيد وقاضي اشبيلية على تعجُّل استدعائه صباحاً قبل أنْ يأذن له الخليفة باستجوابه، فأقبل المؤيد إليه جاهلاً بما جرى لحمدون بالأمس. قعد بين يديه قائلاً: "إنها أول مرة تطلب لقائي.. أيها الحاجب! عساه خيراً.. إنْ شاء الله!". حدجه بنظراتٍ يشوبها الاستهزاء.. ثم هتف بفظاظة:

- إنَّما استدعيتُك -يا هشام- للتحقيق معك في قرطاسٍ خليفي انتزعه لك حمدون دون استئذان؛ فما قولك؟؟
- لقد أخبرتُ جؤذر أمس حالما بعثتَه إليَّ: إنها رسالة أرسلتُها مع حمدون إلى صديقٍ يقيم في اشبيلية، ولم أكن أعلم أنَّ استخدامي لأوراق القصر يزعجكم هكذا!؟

- لم أكن أعرف أنَّ لمثلك أصدقاء خارج هذا القصر! (قالها هازئاً) ثم أردف يسأل: "أخبرني: مَن هو صديقك هذا؟ وما فحوى تلك الرسالة؟؟".
- هذا أمر يخصني.. ولا يعنيك في شيء!! (هتف بحزمٍ.. نافراً من استهزائه به)
- بل يعنيني! إذا كان نقضاً للعهد وتآمراً على الخليفة؛ فهو يعنيني بشدة!
- ماذا تقول؟!! أي نقض للعهد.. وأي تآمر؟!! أنا لا أفهم ما الذي تعنيه!!
- هل تُنكر أنَّك أرسلتَ هذه الرسالة.. إلى قاضي اشبيلية؟؟
- كيف علمتَ أنها لقاضي اشبيلية؟! هل اطلعتَ على الكتاب؟؟ كيف تجرؤ على قراءة رسالة تخصني دون إذني؟!! (تساءل المؤيد باستهجان متباغت).
- إذاً.. فأنت تقر أنَّك تراسل قاضي اشبيلية وتستغيث به كي ينصرك على الخليفة المهدي، ألا تُعد هذا نقضاً للعهد وتآمراً على الخليفة؟!!
- ماذا تقول؟! كيف تجرؤ على اتهامي بهذا الاتهام؟!! (تساءل المؤيد بانفعال)
- هذا هو فحوى الرسالة.. وختمك عليها، ولقد اِعترف شريكك حمدون بكل شيء؛ فلا تدعي البراءة والسذاجة، واعترف بذنبك.. خير لك!
- بأي شيء اعترف حمدون؟!! هل اعترف أني أراسل القاضي لأنقض عهدي مع المهدي؟؟ إنَّك لكاذبٌ!! (صاح المؤيد بنبرةٍ صارمة حادة يتهدّجها الحنق والغيظ)
- أ تسبني.. يا ناكث للعهد!! تالله لأجعلنك عبرة لمن يعتبر! (صرخ بفظاظة غليظة) ثم نادى على حرسه، وأمرهم باعتقال المؤيد في مخدعه.. ريثما يرى رأيه فيه.

****

-المشهد السادس والثلاثون-

بعد ليلةٍ ساهدةٍ -اِعتزل فيها المهدي ندماءه وقضاها مُتفكِّراً في أمر المؤيد- أصبح وقد حسم أمره وأزمع على الإقرار باتهام المؤيد وحمدون، أرسل إلى حاجبه يأمره بالتحقيق معهما بعد عزلهما عن الناس.

تلقَّف عبد الجبار أمر الخليفة باستبشار، وهمَّ أنْ يبطش بالمؤيد وحمدون دونما تحقيق معهما؛ لكن.. خالجه خوفٌ من مراسلة المؤيد لقاضي اشبيلية، فهرع إلى فرتون يستشيره ويستعين برأيه. فبادره –فور اجتماعهما سراً- وأَسَرَّ متفائلاً:

- لقد فوَّضني المهدي للتحقيق في القضية.. كما كنا نرغب!
- أعلم.. أيها الأمير!!
- وهممتُ أنْ أحكم بنقض المؤيد للعهد وضلوعه في التآمر مع حمدون والقاضي؛ إلا أني تراجعتُ خشية أنْ يكون الأمر حقيقة، وأنْ يكون ثمة مؤامرة -لا نعلم كُنهها- بينه وبين القاضي! فبماذا تشير عليَّ.. يا إبليس؟؟
- هذا شيءٌ وارد.. يا سيدي، وقد يحتاج إلى تمحيص وتدبُّر! (قالها ثم سكت مُتفكِّراً)؛ فاستطرد عبد الجبار هاتفاً في تحيُّر:
- يجب أنْ نعرف حقيقة العلاقة بينهما.. فكيف ذاك؟؟
- ينبغي استجواب المؤيد وحمدون على الحقيقة؛ وذلك لهدفين هامين.. أولهما: هو معرفة ماهية علاقتهما بالقاضي، والثاني: لكيلا يظن المهدي أنَّك تعجَّلتَ الحُكم على المؤيد تبيتاً للغدر به!
- لا تخش ذلك! فإنَّ المهدي أباح لي حبس المؤيد في مخدعه وسد أبوابه عليه، وإخراج الخدم والجواري من عنده!
- عظيم!! فلتفعل، ولا تنس أنْ يصل الخبر إلى (سليمان) ولي العهد: كأنَّ المهدي هو الذي حبس المؤيدَ وعزل عنه خدمه وجواريه! هذا سينفعنا في التحريش بينهما. (هتف فرتون وعيناه تبرقان دهاءً وخبثاً)، ثم استطرد: "ولا مناص من الاستمرار في التحقيق معهما حتى نتعرَّف على حقيقة علاقة قاضي اشبيلية بالمؤيد!".
- أصبتَ! فلو أنَّ القاضي مناصراً –فعلاً- للمؤيد لصارت فتنة عظيمة.. لن نقدر على التصدي لها!!

****

-المشهد السابع والثلاثون-

هذه المرة.. قصد الحاجب بنفسه –يصحبه كوكبة من حراسه- إلى مخدع المؤيد ليواصل التحقيق معه في القضية. تفاجأ المؤيد بجنود الحاجب يحيطون بالمكان، ثم يطردون الخدم والجواري بغلظةٍ وفظاظة؛ فانبرى لهم في حنقٍ.. وصاح منفعلاً: "يا هؤلاء!! كيف تجرؤون على ما تفعلون؟!! ألا تعلمون أنَّ هذه مقصورة المؤيد هشام بن الحكم؟!!". لم يكترث أحدهم لقوله؛ بل واصلوا تطويق المكان وإخراج أهله منه طاعةً لأمر الحاجب (عبد الجبار) الذي دلف إلى المخدع يجر أذيال كبره.. تئن الأرض تحت وطأة قدمه. جثم في صلف على إحدى الأرائك.. والمؤيد يراقبه مشدوهاً مستاءً، أوعز إلى اثنين من رجاله الغلاظ أنْ يُقرِّباه ليمثُل بين يديه، أفلت المؤيدُ ذراعيه منهما.. وتقدَّم في إباء -يدفعه استياؤه من أولئك الأجلاف وترويعهم لجواريه- إلى حيث يقبع ذلك الجِلْف المتغطرس.. ثم صاح فيه زاجراً:

- لقد جاوزتَ الحد.. يا عبد الجبار! كيف تسمح لرجالك أنْ يقتحموا بيتي هكذا دون استئناس؟! وكيف تجعلهم يُخرجون أهله منه بهذه القسوة؟؟! ألا تستحي؟!!
- صَهْ أيها الأشر.. قطع الله لسانك! هلا استحييتَ أنت!! كيف تنادي حاجب الخليفة باسمه مجرداً؟؟ (صرخ فيه عبد الجبار بغلظة.. ووجهٍ كالح)

تسمَّر المؤيد واجماً مصدوماً.. فتلك هي المرة الأولى في حياته التي يُعنِّفه فيها أحدهم بهذه الوقاحة.. حتى المنصور محمد بن أبي عامر -على عظم قدره وشدة هيبته- لم يجرؤ يوماً أنْ يخاطبه بهذه اللهجة المهينة: (وأسفاه على الدنيا!!).

- ألا تستحي وقد انكشفت مؤامرتك الدنيئة.. واتضحت خيانتك.. ونقضك للعهد! والله لولا قلب الخليفة العطوف وإشفاقه عليك صلةً للرحم؛ لكنتَ مصلوباً على باب السُدة كما سيُفعَل بصاحبيك حمدون وابن عباد جزاءً نكالاً على خيانتكم! (استطرد عبد الجبار باحتدامٍ مفتعل.. يخادعه سعياً إلى معرفة حقيقة أمرهم)

- ماذا تقول؟! عن أي خيانة تتحدَّث؟! لماذا يُصلَب حمدون على باب السُدة؟! (تساءل المؤيد في ارتياع)
- لقد ثبت نقضك للعهد وتآمرك مع ابن عباد على الخليفة؛ والدليل عليه: كتابك الذي يحمله إليه سراً ثالثُكما: حمدون بن هشام! (هتف بشماتةٍ فجة.. ليدغدغ مشاعره بكلماته ونبرة صوته، يلعب به استدراجاً وسعياً لانتزاع اعترافاً بما خفي من أسرار.. بينه وبين حمدون وقاضي اشبيلية)، ثم استطرد بجفاء: "وليس ثمة جزاء لنقض العهد والخيانة.. إلا القتل أو الصلب!".
- أُقسم بربي أني ما نقضتُ عهدي مع المهدي.. وما خنتُ.. ولا بدَّلتُ! أُقسم أنَّا برئاء مما تزعمون! وإنا لله وإنا إليه راجعون!! (صاح المؤيد بحسرةٍ ومرارة)
- فما بال كتابك الذي أرسلتَ به حمدون إلى ابن عباد تدعوه للقدوم إلى قرطبة؟؟!
- وأيم الله.. ما أردتُ به شراً ولا إفسادا! إنَّما أردتُ جمع الشتيتين: القاضي ابن عباد وابنة أخيه الذي رحل عن اشبيلية منذ زمن.. ولم يعلم القاضي بها من قبل!
- أفصح عما تقول!! (هتف عبد الجبار.. وقد أرهف السمع ليعلم حقيقة الأمر)؛ فطاوعه المؤيد.. وبدأ –في انكسارٍ وأسى- يروي له حكاية سلوان –كما علمها من حمدون- بصوت أسيف متهدج.. وشفاه مرتعشة محبطة.

*****

استطاع عبد الجبار -بمخادعته للمؤيد- أنْ ينتزع منه السر وراء رسالته إلى قاضي اشبيلية، واستطاع أنْ يعرف منه جزءاً كبيراً من حكاية سلوان، بيد أنَّه لم يكتفِ بما سمع وعرف؛ بل أراد أنَّ يتأكَّد من صدق تلك القصة؛ فاستدعى حمدون إلى مجلسه وآثر أنْ يخدعه كما خدع المؤيد ويلعب معه ذات اللعبة النفسية.. فيستفز مشاعره ليُخرِج ما يخفيه في صدره؛ فتظاهر أمامه بالتمسُّك بالمروءة ونُبل الخُلق وهو يسأله مستدرجاً: "كيف تُطاوعك نفسك –دونما وازع من دينٍ ولا خُلق كريم- أنْ تخطف فتاةً بريئة لتبتز عمها.. وتُرغمه على خيانة الدولة ومناصرة المؤيد –ذاك الناكث للعهد- في

تمرده ضد الخليفة؟؟". اندهش حمدون من هذا الحديث الباطل.. وتساءل بازدراء ونفور: "عن أي فتاة تتكلَّم؟! وأي خيانة.. وأي نَكْث تعني؟؟!".

- الفتاةُ قريبة القاضي ابن عباد التي اختطفتَها بتحريض من المؤيد لتساوم عليها القاضي كي ينضم إليكما ضد الخليفة! الفتاةُ (سلوان) التي تحبسها في دارك!
- لقد شططتَ في القول.. أيها الحاجب! ما هذا إلا محض افتراء.. وإفك بيِّن!
- فما هو الحق إذاً؟؟ تكلَّم! أريد أنْ أعرف الحقيقة كي أنفي عنكم هذا الاتهام الباطل.. هيا يا حمدون تكلَّم بالصدق.. ولا تُخفي عني شيئاً! (هتف متظاهراً بالمودة).. والتعاطف مع حمدون الذي رضخ لخداعه وراح يقص عليه جانب من حكاية سلوان ومبرر رسالة المؤيد إلى القاضي (ابن عباد).

*****

انفرد عبد الجبار مُتفكِّراً.. ولبث في مجلسه يُقلِّب الأمر في رأسه وهو يسترجع حديث سلوان الذي أنبأه المؤيدُ ببعضه.. ثم حكى حمدون منه بعضاً آخر: (أحد بني عمومة قاضي اشبيلية تشاحن معه منذ سنين؛ فطرده القاضي من اشبيلية كلها فجاء هارباً إلى قرطبة.. ولبث بها مغاضباً دون أنْ يُعلِم القاضي بمكانه، ثم أنجب بنتاً.. ثم مات ولمَّا يعلم القاضي من خبرها شيئاً، وأم هشام المروانية تستضيفها في بيتها.. وترغب أنْ تزوِّجها حفيدها.. وطبعاً ليس لها وليٌّ يُزوِّجها غير عمها (قاضي اشبيلية)؛ فتطوَّع المؤيدُ ليُخبر القاضي بنبأ قريبته المجهولة ويشفع لحمدون في الزواج بها!! أي عاقل يصدق هذا الحديث الساذج؟!!)، (أنا أُصدقه.. ولا سيما أنَّه صادرٌ عن هذين المغفلَين.. ولقد تطابقت أقوالهما بغير اتفاق!)، (وأغلب الظن أنَّ القاضي مازال لا يعلم عن وجود قريبته هذه؛ فرسالة المؤيد لم تصله بعدُ! وأحسب أنَّه لم تكن بينهما رسائل سابقة!)، (ينبغي أنْ ألتقي بتلك الفتاة.. وأتحقق من أمرها!).

(لكن.. لو صحت القصة كما حكيا لي فهذا يعني أنهما بريئان من تهمة التآمر، ولو أخبرتُ المهدي بذلك فلن يُنكِّل بالمؤيد.. وسيفسد عملي الذي خططتُ له.. وقد لا

تـواتيني –عمـا قريـب- فرصـةٌ أخـرى للوقيعـة بينهمـا!!)، (وحمـدون!! فقـد تَصُـبُّ هـذه الحادثة في صالحه.. فيشفق المهدي عليه فيشفع له عند القاضي ويزوِّجه بتلك الفتاة فتسـمو مكانتـه بهـذه المصـاهرة! فمـا أدراك مَـن قـاضـي اشـبيلية.. وسـعة ثـراء قاضـي اشبيلية!!)، (هل أترك لحمدون –ذاك النكرة- تلك الغنيمة الباردة.. ليفوز بها؟!!)، (وهل أترك مُلك أبي وأجدادي لمحمد المهدي –ذاك الصعلوك- يتنعَّم به بغير كدر.. وأصير أنا حاجبه وخادمه؟!!)، (كلا!! لـن أدعهـم يتنعمـون ويتمتعـون.. ثـم أقـف مكتـوف الأيـدي كالمتفرج!! لابد أنْ أنال مأربي.. لابد أنْ أدمرهم قاطِبةً.. فلا يبقى إلا **أنا!**).

هـرع إلى فرتـون –كدأبه مذ توافقا على الكيد للمهـدي- يطلـب مشـورته ويسترشـده؛ فقصَّ عليه ما فعله مع المؤيد وحمدون.. وأخبره بحديثهما عن سلوان وعمها قاضي اشبيلية، ولم يُخفِ –أثناء كلامه- إعجابه بذاته وبأسلوبه الخادع الذي استنبط به منهما الحقيقة؛ فأجابه فرتون باستخفافٍ وتشكيك قائلاً: "وهل صدَّقتَ أنَّ تلك هي الحقيقة.. يا سيادة الحاجب؟! إنَّ فحوى رسالة المؤيد التي قرأناها يُوحي بأنَّ الشأن عظيم.. وأخطر من هذا بكثير!". لم يرتح عبد الجبار لاستخفاف فرتون بقدراته.. بيد أنه تدبَّر قوله فرآه حسناً.. وتغلغل الشك في صدره بعض الشيء! لكن.. اعتزازه الزائد بنفسه.. وعلمه السابق بقلب حمدون المخموم وطموح المؤيد الخامل جعلاه يرجع فيُصرّ على رأيه بحرارة وانفعال.. مما حمل فرتون على مسايرته وموافقته على ما استقر عليه رأيه بأنَّ المؤيد وحمدون غير متآمرين. سكت فرتون.. والتزم عبد الجبار الصمت برهةً لتهدأ حميته.. ثم عاد فسأل: "لو سلَّمنا بصدق حديثهما؛ فكيف سنخبر به المهدي؟ وكيف نسوِّل للمهدي أنْ يبطش بالمؤيد رغم براءته من الاتهام.. ورغم سذاجة فعلته؟!". بعد برهة تَفكُّر.. استجمع فيها فرتون شتات عقله.. أجابه:

- يا أميري! الخليفة المهدي لا يريد الحقيقة! إنَّما يريد إزاحة المؤيد؛ اعطه أنت المبرر.. ولن يفتش في القضية! لكن.. تجنب أنْ يرتاب في نيتك!
- كيف ذاك؟! هل تزعم أنْ المهدي يريد أنْ يحنث في عهده مع المروانيين في حفظ المؤيد؟! هذا كان شرطنا عليه ليتولى الخلافة.. فلا ينازعه أحدنا فيها!!

- أجل! لقد سمعتُه وهو يصارح صاعد الحَرَّار بذلك! غير أنَّه يريد ذريعة يتعلَّل بها أمامكم وأمام الناس ليتخلَّص منه.. دون أن يُتهم بنقض العهد!!
- يا له من شيطانٍ غادر!! (هتف عبد الجبار بتعجب)
- كلنا شياطين غادرون.. أيها الأمير!! (همس فرتون بشيءٍ من السخرية)
- ماذا نفعل.. إذاً؟؟ كيف نعطه ما يريد دونما يرتاب في نوايانا وإخلاصنا؟؟! (تساءل عبد الجبار في تحيُّر)
- فقط ستخبره أنَّ التحقيق مع المؤيد وحمدون لم يُسفِر عن إدانةٍ حقيقية حيث أنَّهما لم يعترفا بالخيانة.. وينكران نقضهما للعهد! على أنَّ حُجج إدانتهما قوية؛ لذا فإنَّك تتوقى أنْ يكون ثمة مؤامرة يُخفيان معالمها بذكاء! وتنصحه -درءً للمفسدة- أنْ يستمر حبس المؤيد عن الناس إلى حين التأكُّد من إخلاصه!
- أصبتَ! ثم ماذا بعد؟!! (تساءل عبد الجبار معجباً بدهاء هذا الصقلبي الخبيث)
- ثم نوحي إلى وليِّ العهد (سليمان) وأبيه (هشام) أنَّ المهدي حبس المؤيد.. ويُبيّت الغدر به.. وهذا نقضٌ منه للعهد الذي بُويع عليه بالخلافة! والباقي.. هما سيفعلانه! وحينها تكون قد ضربتَ خصومك ببعضهم.. وخرجتَ من بينهم سالماً!!
- ويحك.. أيها الشيطان الخبيث!! (هتف عبد الجبار مُصفِقاً بإعجاب)
- بل.. خادمك المخلص.. يا سيدي! (خافت بتواضعٍ مصطنع).

****

-المشهد الثامن والثلاثون-

استأذن الحاجب (عبد الجبار) في المثول بين يدي الخليفة (المهدي) ليخبره بما تَوَصَّل إليه من نتائج في مسألة: (الاتصالات السرية المريبة) بين المؤيد وقاضي اشبيلية.. والضالع فيها -أيضاً- حمدون بن هشام!

طفق عبد الجبار يقصُّ على الخليفة أنباء التحقيقات. ثم أخبره بإصرار المتهمَين على الإنكار رغم أدلة الإدانة.. وشهادة الشهود!! ثم أشار عليه باتخاذ إجراءٍ حازم ضدهما دحضاً للفتنة.. ودرأً للمفسدة!! وذيَّل كلامه قائلاً: "القضاء على رجلٍ نرتاب في خيانته أحفظ للدولة من انتظار الدليل الثابت عليها!".

بعد ساعة خرساء قضاها المهدي مُتفكِّراً.. انفرجتا شفتاه.. قائلاً بتؤدة حكيمة:

- لازلتُ لا أرتاح لاتهامهم.. يا عبد الجبار! فتلك الرسالة –التي نحقق في أمرها- ليست دليلاً كافياً على خيانة المؤيد أو القاضي! وإنَّك تعلم –كما أعلم- حُسن ولاء قاضي اشبيلية لبني مروان، وتعلم -أيضا- أنَّ المؤيد رجلٌ مستضعفٌ خاملٌ.. ولا يطمح لمثل هذا الذي نخشاه، وإخلاص حمدون لنا معروف.. لا يُنكره البصير!!
- هل أُطلق سراحهما.. وأسمح لحمدون بالذهاب إلى قاضي اشبيلية برسالة المؤيد؟! (سأله عبد الجبار في استهجانٍ وريبة.. ونظراتٍ تبرق بالحثِّ على الرفض)
- أنا مقتنعٌ برأيك! فالقضاء على رجلٍ أو رجلين درءً للفتنة أحب إليَّ من الإبقاء عليهما! لكن.. إنَّه المؤيد الذي عاهدتُ بني مروان على حفظ حياته حين بايعوني بالخلافة! وإنَّك تعلم تربُّص سليمان بن هشام (ولي العهد) وأبيه بي!!
- فماذا نفعل بينما مَن نقض العهد وتمادى في الخيانة.. هو المؤيد؟!! هل نتركه حتى ينزع عنا ملكنا.. ثم يمنحه لأحد الرعاع المغمورين أمثال الهالك ابن أبي عامر؟؟!
- بالطبع لا! لكن.. جئني بحجةٍ دامغةٍ ثابتةٍ على تآمر المؤيد؛ وساعتها.. لن يُعارضنا أحدٌ في محاكمته قصاصاً للدولة! أ تستطيع ذلك؟؟
- هل تأذن أنْ أُفتِّش دار حمدون بن هشام؟؟ (سأل عبد الجبار بعد برهة تَفكُّر)
- لماذا؟؟! إنَّها دار فاطمة المروانية.. يا عبد الجبار!! (هتف المهدي مُستهجناً)
- وهل تستعصي فاطمة على الدولة.. يا أبا الوليد؟! (تساءل يحضّه على الموافقة).
- وما الفائدة من ورائه؟!! (تساءل المهدي بتشكيك)

- لقد لبث المؤيد عدة ليالي في هذه الدار سراً، وأشك أنَّه قد يكون خبَّأ عندهم مالاً أو سلاحاً؛ فإنْ كان كما أظن.. فقد ثبتت خيانته ونقضه للعهد!
- أذنتُ لك! (قال المهدي على مضض) ثم أردف: "إيَّاك أنْ تروِّع الآمنين!".
- ماذا أفعل مع المؤيد إلى حين أنْ انتهي من البحث عن الأدلة؟؟
- فليبقى كما أمرتُ: احبسوه في مخدعه.. واخرجوا جواريه وخدمه من عنده.. واغلقوا الأبواب دونه.. فلا يخالط أحداً.. ولا يخالطه أحدٌ!

****

-المشهد التاسع والثلاثون-

أم هشام وسلوان أديَّتا صلاة يوم الجمعة السابع عشر من شعبان في جامع قرطبة حيث التقيتا –بعد الصلاة- بالشاعرة (عائشة القرطبية) تلميذة أم هشام النجيبة.. وأيضاً بالسيدة جويرية زوجة الفقيه المشاور أبي عبد الله.. وأخريات من نساء قرطبة اللاتي اعتادت أم هشام أنْ تلتقي بهنَّ -من آنٍ لآخر- في ذات الموعد وذات المكان، مكثْنَّ معاً بعض الوقت ثم انصرفت أم هشام ترافقها سلوان إلى الدار. أقبلت أم هشام إلى بيتها وهي تقدم قدماً وتؤخر الأخرى؛ لاحظت سلوان ترددها كمَن لا تريد الولوج فسألتها بحنوٍ: "ماذا بكِ يا أمي؟! ألن تدخلي داركِ؟!!".

تمتمت بشيء من الأسى: "لَيْتَ شِعْرِي.. يشق على نفسي أنْ ألج البيت وأنا أعلم أنَّ حمدون مسافرٌ بعيداً عن قرطبة.. ولن يأتيني كعادته بعد صلاة كل جمعة!"، زفرت زفرة مكلوم ثم استأنفت: "حقاً لم يغب عني غير ثلاثة أيام فقط؛ لكنَّه لم يعتد أنْ يغيب عني في يوم الجمعة؛ ويحزنني أنْ أدخل الدار فلا أجده فيها!". هتفت سلوان بإشفاقٍ ومودة: "إنْ شاء الله.. يعود إليكِ سالماً غانماً؛ فاستعيني بالله.. واصبري ولا تجزعي.. يا أمي!". فرددت الجدة: "اللهم آمين! اللهم رده إليَّ سالماً غانماً.. ولا تسوأني فيه أبداً.. يا أرحم الراحمين!".

دخلت الجدة الدار بعد تردد.. وحاولت أنْ تنشغل بأعمالها المنزلية عن اشتياقها إلى حفيدها المسافر وقلقها عليه. بعد ساعة طرق الباب؛ وإذا بأم عبد الواحد البربرية قادمة للزيارة. وقفت لها أمُ هشام مُرحِبة.. وأدلفتها إلى القاعة القبلية حيث مجلس النساء: "مرحباً يا أم عبد الواحد! كيف حالكِ.. يا امرأة؟؟ لِمَا لم نركِ منذ أمد؟!".

- وهل يأمن البربر على أنفسهم في قرطبة هذه الأيام.. فنخرج ونمشي في شوارعها فيرانا أهلها ونراهم؟؟! (تساءلت بمرارةٍ وقد ارتسمت على وجهها أمارات التجهم).
- كيف تقولين هذا.. يا أم عبد الواحد؟! الحمد لله.. قرطبة بلدكم.. كما هي بلدنا! كيف لا يأمن البربر فيها وهم عماد جيشها.. وخيرة مجاهديها؟!!
- كانت.. بلدنا! وكنا جيشها! أما هذه الأيام.. فإننَّا لا نأمن فيها على أبنائنا وأموالنا!!
- كيف ذاك.. يا امرأة؟؟ لِمَ تقولين هذا؟؟! (تساءلت باستهجانٍ واندهاش).
- ألا تعلمين أنَّ خليفتكم (المهدي) طرد أبنائي وقومي من جيش قرطبة؟! ألا تعلمين أنَّ السفَّال والنهَّاب -في أول أيام خلافته- اقتحموا ديارنا وبيوتنا، وروَّعوا النساء والأطفال.. ونهبوا الأثاث والأموال؛ ولم يرد لنا خليفتكم هذا حق.. ولمَّا يقتص لنا من أحد؟! ألا تعلمين أنَّ سوقة قرطبة وسفهاءها يشتموننا ويؤذوننا في النوادي والشوارع والأسواق؛ فلم يعد البربري يأمن على روحه أنْ يمشي وحده إلى المسجد؟! ألا تعلمين أنَّ أبنائي حرَّموا على نساء الدار الخروج.. حتى إلى المسجد خوفاً علينا من أولئك الملاعين؟! ولولا محبتي لكِ ورغبتي في أنْ أُبارك داركم الجديدة لما خرجتُ! ولم يوافق ولدي (عبد الواحد) على خروجي إليكِ إلا أنْ يصحبني أخوه في كوكبةٍ من عبيده خوفاً من تعرض السفهاء لي في الطريق!!
- لا حول ولا قوة إلا بالله! لِمَ آلت حالنا إلى تلك الحال؟! (تساءلت أم هشام بشيءٍ من الحسرة والاشفاق)، حينما قعدت المرأة البربرية تلتقط أنفاسها وترتشف بعض الماء من قدح أتتها به سلوان.. ثم هتفت بامتنانٍ.. وبنبرة هدأت حدتها:

- لا نذكر لهذا الخليفة ولا لأحدٍ من رجاله معروفاً مذ رُزِأنا بثورتهم المشؤمة على شنجول.. غير ما كان من حمدون حفيدكِ –أعزه الله- عندما شفع لولدي عند صاحب الشرطة وأخرجه من السجن!
- إنَّ ولدكِ لم يرتكب إثماً حينما دفع عن نفسه أولئك الهَمَج الأجلاف!
- لم تصدقِي أنَّ أهل قرطبة يؤذوننا إلا بعد أنْ علمتي بتلك الحادثة!!
- وما زلتُ لا أستطيع أنْ أصدق؛ فليس كل أهل قرطبة هكذا.. يا امرأة! إنَّما هم شرذمة قليلة من غوغاء قرطبة وفاسقيها.. ولا تخلو مدينةٌ من أمثالهم! فلا ترتاعي.. ولا تخوّفِي نفسك من أهل بلدك.. فتبغضيهم وتبغضيها!
- كيف أبغضها وهي أجمل بلاد الله.. ولا أعرف لي ولا لأبنائي بلداً سواها؟! (تساءلت بنبرة أسى)، وتناولت حبة فاكهة قدمتها لها سلوان بإلحاح وقضمتها ثم استطردت تقول: "أهلها هم من أبغضونا.. فأمسينا لا نأمن على أنفسنا بينهم: فمَن أمن مِن بطش أيديهم.. لم يأمن أنْ يؤذوه بألسنتهم.. وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!".
- ألهذا الحد لم يعد البربر آمنين في قرطبة؟! (تساءلت أم هشام باندهاش) ثم أردفت: "سأطلب من حمدون أنْ يحدِّث الخليفة في هذا الأمر عساه أنْ يضع حداً رادعاً لتطاول أولئك الفسقة الجهال عليكم.. أيّان يعود من سفره إن شاء الله!
- أمسافرٌ.. هو؟! هل تركتي ولدك يسافر خارج قرطبة.. يا فاطمة؟!! إنَّ هذا لشيءٌ عجيب! كنتِ ترفضي ذلك سابقاً.. فما الذي جرى في الدنيا؟!!
- قال إنَّ الخليفة كلَّفه بالسفر إلى قرمونة.. وإنَّه من مقتضيات عمله؛ فلم أستطع أنْ أحبسه.. يا أم عبد الواحد!! (هتفت بشيءٍ من الاشفاق والتوَجُّع)
- رده الله إليكِ آمناً معافى! (جأرت بمودة) وهي ترد بتلطُّفٍ وامتنانٍ يد سلوان الممدودة بحبة فاكهة أخرى.. ثم أردفت تهتف: "مبارك عليكم تجديد الدار وتوسيعها.. يا فاطمة! أخيراً.. استجبتِ لنصيحتي وضممتِ إليها الفضاء القبلي!"

- آه.. ماذا أقول لكِ يا أختاه؟! (تأوَّهت بانكسارٍ)؛ ثم استأنفت بنبرةٍ أسيفةٍ: "خشيتُ لو لم أفعل أنْ يفارقني حمدون لدار أخرى تليق بمكانته في القصر!".
- أحسنتِ صنعاً.. يا أم هشام! (هتفت بها)، ثم رمقت سلوان بعينٍ غامزة وهي تقول: "ومع هذا.. فإنِّي أحسب أنَّ حمدون لا يفارقكِ أبداً!".

رأت أم هشام نظراتها الغامزة إلى سلوان.. وأدركت مقصدها ولاحظت غفلة سلوان عنه؛ فأرادت أنْ تقطع على ضيفتها الاسترسال في هذا الحديث كيلا تخجل الفتاة.. فانتصبت واقفة وهتفت: "هَلُمِّي أُريكِ الدار الجديدة وأثاثها بعد التوسعة!". فقامت معها بابتهاجٍ.. في حين أذنت لسلوان أنْ تنصرف لبعض شأنها. فيما تدور المرأة البربرية مع مضيفتها -لتتطلع على تجديدات الدار- شاهدت الجاريتين؛ فأشارت إليهما متسائلة: "مَن هاتان.. يا فاطمة؟؟!".

- إنهما: سعدى ونجوى؛ جاريتان جديدتان!
- جاريتان جديدتان؟؟ مكانة حمدون في القصر وسَّعت الدار وجلبت المتاع.. واشترت الإماء! ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. زادكم الله عزاً.. يا أم هشام!
- تعلمين يا امرأة.. أني زاهدةٌ في الدنيا وزخرفها!
- أعلم يا حبيبتي.. أعلم! إنَّما أمازحكِ! على أني ينبغي أنْ أنصحك: الدارُ صارت أوسع من ذي قبل.. فإيَّاكِ أنْ تعودي إلى سيرتكِ الأولى.. فتعتقي هاتين الجاريتين.. وتبقى أم سعدون وحدها لخدمة الدار؛ فلن تقدر عليها وحدها!!
- أصدقكِ القول: أنا لا أملكهما؛ بل أهداهما إليَّ المؤيد هشام لتخدماني دونما ينقل ملكيتهما إليَّ لكيلا أعتقهما.. فأصير بلا خدم!
- صيتكِ في عتق الرقاب وصل إلى الخليفة.. يا أم هشام! (هتفت مازحة)
- المؤيد لم يعد الخليفة.. يا امرأة، إنَّما الخليفة الآن هو: محمد المهدي! (أجابتها بشيءٍ من التَنَدُّر)؛ فزفرت المرأة البربرية بضيقٍ.. ثم جأرت قائلة بتأفُّفٍ:
- لا تذكري هذا الرجل أمامي مرة أخرى.. فأنا وأبنائي لا نحب سيرته!!

****

-المشهد الأربعــون-

سماحُ الخليفة بتفتيش دار حمدون وافق هوى عبد الجبار ورغبته؛ فهو من جهة: إهانةٌ لحمدون.. وفضيحةٌ له بين جيرانه.. وهذا أمرٌ يسعده لمجرد أنه يؤذي غريمه! ومن جهة أخرى: سيُمكِّنه من رؤية تلك الفتاة (سلوان) التي زعم المؤيد أنها قريبة قاضي اشبيلية؛ (فلقد ساوره فضولٌ شديد لرؤيتها والتعرف عليها!). لذا فإنَّه لم يتريَّث إلا يسيراً وسرعان ما جهَّز جماعة من فرسانه.. وانطلق بهم إلى دار حمدون.. واصطحب معه فرتون.. (مستشاره السري)!

فيما تجالس أم هشام صديقتها البربرية -التي ما انفكت متى التقت بأم سعدون تداعبها وتمازحها- أقبلت إحدى الجاريتين.. وقد بدا عليها الاضطراب والذعر.. وهتفت: "سيدتي.. أم هشام! حاجب الخليفة بالخارج.. ويريد لقائك!"، ثم تمتمت بجزع: "يصحبه جندٌ كثيف أمام الدار!!". تبادلت السيدة نظرات القلق والارتياب مع جليستها.. وقامت تسعى إلى باب الدار الخارجي.

- خيراً أيها الحاجب.. لماذا تريدني؟؟! (تساءلت بتحفُّز.. وشيءٍ من الارتياب)
- هلا أذنتِ لنا بالدخول أولاً.. أيتها الجدة المروانية!؟ (هتف بتلطُّف.. مُتصنِعاً الود)
- هل تريد أنْ تدخل داري بأولئك جميعهم؟! (تساءلت باستنكارٍ وشيءٍ من التهكُّم وهي ترمق بلحظها جنوده من خلفه)؛ إفْتَرَّ وجهه عن ابتسامةٍ خبيثة –لم ترتح لها- وأشار إلى فرتون وهو يهتف قائلاً:
- بل سألج.. أنا وهذا الفارس الضخم فقط!
- أُدخلا!! (قالت على مضض).. وأشارت إلى باب القاعة الغربية حيث دلفا وجلسا.

تبادلت نظراتٍ خفية يشوبها الانزعاج والارتياب مع نساء الدار اللاتي وقفنَّ يراقبنَّ المشهد من وراء ستار الردهة.. ثم دلفت خلفهما حيث دخلا. أما سلوان.. فحين

سمعت جلجلة موكب الحاجب تسلَّلت من قاعة الدرس -حيث كانت مُنْكَبّة على كُتبها ودروسها- إلى الردهة فلاقت الأخرياتِ (أم سعدون وأم عبد الواحد والجاريتين) يقفن.. يسترقن السمع -في خفاء وحذر- إلى ما يُقال وراء جدار قاعة الضيف. جاءهنَّ الصوت -من بعيد- خفيتاً؛ فلم يتمكَّنَّ من سماعه يخاطبها قائلاً: "مبارك عليكم الدار الجديدة.. يا أم هشام!"

- أعزك الله أيها الحاجب! والحمد لله على نعمه! خيراً.. إنْ شاء الله؟!!
- لن أُزعجكِ.. ولن أُطيل الحديث، إنَّما أَتيتُ لأسألكِ عن أمر هينٍ.. وسأرحل سريعاً؛ فلا تفزعي.. لكن أصدقيني القول!؟
- تعلم أني لا أقول غير الصدق.. يا عبد الجبار! (هتفت في صرامة).
- لا شك عندي في صدقكِ.. أيتها الجدة!! (هتف.. وقد ضايقه ذكرها اسمه مجرداً)
- زين.. أنَّك تذكر أنني في مقام جدتك!! (هتفت دون أنْ تخفي ضيقها وتبرُّمها)
- هذا واقعٌ لا ينكره إلا قاطع رحم! أخبريني –أيتها الجدة- هل زاركم هشام المؤيد؟!
- هل جئتَ تقتحم عليَّ داري بكل هذا الجيش.. لأجل هذا السؤال؟!!
- عذراً.. فهذا موكبي الذي أسير به! لكن.. أجيبي: هل زاركم المؤيد؟؟!
- أجل! جاءنا مع حمدون قبل أيام.. بإذنٍ من الخليفة! (أجابت بتلقائية يسيرة)
- وما عِلَّة تلك الزيارة؟ (سأل ببرود منفر)؛ فأجابته بنبرةٍ متبرِّمة لا تخلو من تهكُّم.. كأنَّما توحي إليه أنَّه ضيفٌ ثقيل.. وأسئلته غير مُرحَبٍ بها.. قائلة:
- رجلٌ من بنى مروان عاش ما مضى من عمره لا يعرف عشيرته.. فأراد أنْ يتدارك ما فات ويتعرَّف إليهم؛ فسعى إليَّ زائراً ليتعرَّف إليَّ.. فهو يعتبرني عمة أبيه.. كما أنَّك تعتبرني جدتك! هل زيارةٌ كهذه تعكر صفوكم.. يا حاجب الخليفة؟!
- بالطبع لا! ما المدة التي لبثها عندكم؟؟ (سألها.. مُتعمِّداً تجاهل ضيقها وتبرُّمها)
- لم يزد عن ثلاث ليالي! (أجابت بتململ.. كأنها تقول ضقتُ بأسئلتك ذرعاً)
- هل ترك عندكم أمانة.. أو هدية.. أو أي شيء من هذا القبيل؟؟ (لا زال يواصل سؤالها بجفاء.. غير مبالٍ بتململها وضيقها)

- وما شأنك أنت بهذا؟!! (تساءلت باستنكار وضجر)
- أنا حاجب القصر.. وواجبي أنْ أعرف ما يخرج منه.. وما يدخل! (هتف بعُنْجُهِيَّة)
- هلا سألتَه هو عن ذلك!! (أجابت باقتضابٍ غير مكترثة لمنصبه.. ولا كِبْره)
- إني أسألكِ أنتِ.. يا أم هشام! أسألكِ بصفتي الرسمية كحاجب الخلافة؛ فلا تشقي على نفسك وعليَّ بالتهرُّب من الإجابة! (رد عليها ببرود صفيق)
- أ تُرهبني بمنصبك؟! فاعلم أنَّ فاطمة المروانية –والمنة لله وحده- لا تخشى من إجابة أحدٍ أو مواجهته.. مهما كانت صفته ومهما علا شأنه.. وذلك من فضل ربي! (أجابته بحدةٍ وأنفة.. تبادله كِبْراً بكِبْر)
- إذاً.. أجبيني بصدق.. لا تؤذي نفسكِ! (هتف بنبرة تهديدٍ فجة)
- إذا أهدى الرجل بعض أقاربه هدية.. أو ترك عندهم أمانة؛ هل يجب عليهم أنْ يخبروكم بها.. أيها الحاجب؟!! (تساءلت بأنفة.. مبدية الاستهزاء بوعيده)
- أجيبي –أيتها السيدة- دون مراوغة! (هتف بنبرة غيظ وتبرُّم توحي بنفاد صبره)
- عجباً!؟ تأتي إلى داري دون سابق ميعاد.. بجندٍ كثيف وسلاحٍ مخيف.. وتسألني عن هدية خاصة أُهدِيتُها.. ليس لك بها شأن.. ثم تتهمني بالمراوغة؟!! ليس لك عندي إجابة.. أيها الحاجب؛ فانطلق راشداً.. فإنَّ رجلَ الدار مسافرٌ.. ولا يحق لك دخول دارنا واستجوابنا هكذا في غيابه! (هتفت صارمةً قاطعةً كأنَّما تغلق باب الجدال معه.. موحية إليه برغبتها في إنهاء زيارته)
- هل تعلمين أنَّ حمدون مسافر؟؟! متى علمتي؟؟ (تساءل ببرود صفيق.. متغافلاً عن انفعالها.. وعن طردها إياه تواً)
- رجلٌ ليس من عادته الترحال.. ألن يخبر أهله إذا جاءه سفر خارج قرطبة؟!!
- ألم يخبرك إلى أين سيسافر؟ ولماذا يسافر؟ (عاد يسأل بإلحاحٍ باردٍ سخيف)
- إنَّك لحوح.. أيها الحاجب! أليس حمدون يعمل معك في القصر؟! اسأله متى يعود! –إنْ لم تكن تعلم- فقد سافر بأمر من الخليفة.. إلى قرمونة!

- بأمر من الخليفة.. إلى قرمونة؟!! (هتف بضحكة تهكمية مقيتة).. ثم أردف بنبرة تشفي ساخرة: "إنَّ حفيدكِ يخدعكِ.. يا أم هشام!!".
- إيّاك.. يا عبد الجبار! لن اسمح لك أنْ تذكر ولدي بسوء! (هتفت مُحذِّرةً بلهجةٍ صارمةٍ)، فانتفض واقفاً وحدجها بنظراتٍ متحدِّية.. ثم صاح بنبرةٍ شامتة:
- إنَّ ولدكِ متهمٌ.. هو والمؤيد بالتآمر على الخليفة!!
- هل تعي أذنك ما تقول.. أيها الرجل؟!! حمدون.. يتآمر على المهدي!! كيف وهو أشدُّ الناس إخلاصاً له؟! كيف.. وهو ينصره ويؤازره مذ كان ذليلاً.. مطارداً من العامريين؟! (هتفت بثقةٍ وإباءٍ.. مستنكرةً هذا الادعاء الكاذب وهي تنهض منتصبةً في تحفُّزٍ دفاعاً عن حفيدها؛ في حين وقف فرتون –الذي كان صامتاً- إلى جوار سيده وانحنى إلى أذنه هامساً: "ارفق بها.. واستدرجها بلين كي نصل إلى ما نريد!"، فرضخ عبد الجبار فوراً لنصيحته وعدَّل سلوكه.. وتبدَّلت ملامحه إلى الرفق واللين.. وأوعز إليها أنْ تعود لتجلس مطمئنة، وقعد وهو يقول في هدوءٍ وتلطُّف.. وبنبرةٍ توحي بالاعتذار:
- لا مرية عندنا في إخلاص حمدون! وإني لم أصدق تلك الوشاية الخبيثة.. وقلتُ للخليفة: إنَّ حمدون لا يخون أبداً ولا يتآمر، وأخبرتُه أني سأتقصَّى حقيقة المسألة بنفسي.. ولذلك أنا هنا! (هتف يتفاخر بنفسه أكثر مما يدافع عن حمدون)، بينما ألجمت المفاجأةُ والحيرةُ أمَ هشام فالتزمت الصمت للحظات؛ فاستطرد متظاهراً بالمودة الكاذبة والحكمة المصطنعة.. مكراً بها وخداعاً لها: "أُعذريني يا جدتي.. فإنَّ الوشاة لم يتركوا لي خياراً أدافع به عن حمدون عدا أنْ أحقق في المسألة بنفسي.. وأثبتُ بالدليل براءته من هذا الاتهام الباطل!"
- لا حول ولا قوة إلا بالله.. كيف أساعدك أيها الحاجب.. لأجل ولدي؟! (هتفت بعد أنْ استيأست؛ فاستكانت لمجاراته فيما يريد.. قلقاً على حفيدها)
- أجيبي على سؤالي: هل ترك المؤيد عندكم من شيء؟ أو هل تعلمي أنَّه أعطى حمدون أغراضاً على سبيل الأمانة ليحفظها عندكم.. بعيداً عن القصر؟؟

- كلا.. لم يعطه شيئاً على حد علمي!! إلا أنَّه أهدانا بعض الأشياء أيّان زارنا.. وأيضاً ترك عندنا أمانة! (جاوبته بصراحةٍ ساذجةٍ على أسئلته المُلِحَّة.. رغبةً منها في الاطمئنان على حفيدها الذي تسلَّل القلق والخوف عليه إلى قلبها).
- اسمحي لي أنْ أطلع على تلك الهدايا والأمانات!
- إنَّها أشياءٌ خاصة.. لا تنفعك فيما تبحث!
- عفواً يا جدتي! ساعديني لكي أُثبتُ براءة حمدون أمام الخليفة! أُريد أنْ أعرف كل شيءٍ عن صلتكم بالمؤيد.. وعن الأغراض التي تركها عندكم في زيارته تلك!
- أخبرني: هل أبعدتم حمدون إلى قرمونة بذريعة هذا الاتهام؟!! (تساءلت بوجل)
- اطمئني.. حمدون لم يسافر؛ وهو ما زال في القصر تحيُّناً لنتيجة التحقيقات، هيا.. إليَّ بأمانة المؤيد التي عندكم! (أجابها كأنَّما يحفِّزها للتعاون معه)

*****

نظرات حب الاستطلاع والقلق الخرساء المتبادلة بينهنَّ لم تساعدهنَّ في معرفة حقيقة ما يجري وراء الجدار، وآذانهنَّ المُتصنِّتة لم تتمكَّن من فهم ما نمى إلى سمعهنَّ! (هي بعض كلمات مبهمة.. تصِل خافتة فلا تفي بالغرض.. مثل: هل زاركم المؤيد؟ لا أقول إلا الصدق! أنا حاجب القصر! بصفتي الرسمية! أجيبي دون مراوغة! كيف تتهمني بالمراوغة؟ ليس لك عندي إجابة!! رجل الدار مسافر! إنَّك لحوحٌ! حفيدك يخدعك! لا تذكر ولدي بسوء! ينصره ويؤازره مذ كان ذليلاً! الوشاة لم يتركوا خياراً! لا حول ولا قوة إلا بالله! علاقتكم بالمؤيد! مازال في القصر! أمانة المؤيد!)؛ فتسمرنَّ ملتصقات بالجدار.. تتشبث آذانهنَّ به كأنهنَّ تماثيلٌ معلقةٌ.. ثُبِّتت من آذانها الكبيرة في ذاك الجدار. لم يستوعبن ما يجري؛ لكن.. هاجس خفي تسلَّل إلى قلوبهنَّ الوجلة.. يقول: (إنَّ زيارة هذا الرجل لا تبشر بخير.. بل تنذر بالسوء!).

أثناء وقوفهنَّ هكذا في إطراقٍ حَذِر.. جاءهنَّ صوتُ أم هشام ينادي من وراء الباب: "سعدى!!"؛ جاء إليهنَّ كأنَّه باعث للحركة والحياة من جديد؛ فارتجفنَّ معاً رجفةً

لاإرادية تفاعلاً مع النداء، وأجابت سعدى -بعد تردُّد- هامسةً بصوتٍ مكتوم كأنَّما تهاب أنْ تسمعها سيدتها: "نعم.. يا سيدتي!"؛ بيد أنَّها ثبتت مكانها ولم تحرك ساكناً.. كأنَّما ترهب الدخولَ إليهم؛ فهرعت نجوى بدلاً منها إلى داخل القاعة.

أقبلت عليهم.. بتأدُّب الخادم مع السادة، وغضت طرفها وهي تجيب بخفوت: "نعم يا سيدتي!!". فأشارت نحوها –دون أنْ تلتفت إلى أنها ليست الجارية التي نادتها- وخاطبت الحاجب قائلةً: "هذه هي أمانة المؤيد عندنا.. ومعها أختٌ لها.. جاريةٌ أخرى!". أحس عبد الجبار أنَّ المرأة العجوز تسخر منه؛ فأخذته العزة.. وهبَّ قائماً.. وحدجها بعيونٍ تستعر فيها جمرات الغيظ.. وصاح: "هل تهزئين بي.. يا أم هشام؟! تعلمين أني ما جئتُ أسأل عن إماءٍ ولا عبيد!!"، فألمحت إليه أنْ اهدأ واقعد.. ثم أجابته بنبرةٍ واثقةٍ حازمةٍ: "لا ترفع صوتك في بيتي.. يا عبد الجبار!"، ثم أردفت في سكينةٍ وإباء: "جئتَ تسأل عن أمانة المؤيد، وها هي ذي أمامك!!".

جاهد عبد الجبار ليتمالك نفسه ويكبت غيظه؛ فقعد مرة أخرى –يكظم أنفاسه وسخطه- تحدِّثه نفسه: (هذه العجوز إما أنَّها دَهِيَّةٌ شديدة الذكاء والخبث.. أو ساذجةٌ مغفلةٌ إلى حد الغباء! مهما كانت صفتها.. فيلزمني أنْ أصبر عليها.. ريثما أجد ضالتي.. يجب أنْ أجد هنا مالاً أو سلاحاً أو أي شيءٍ أُثبتُ به للمهدي تآمر المؤيد وحمدون!). طال صمته على أم هشام وهي تجده ينظر إليها وكأنَّه لا يبصرها؛ فاضطرت أنْ تستأنف حديثها قائلة: "سألتني عن أمانة المؤيد عندي.. وها هي ذي أمامك! هل انتهينا.. أم لك طلبٌ آخر؟!". بعد لحظات من الإطراق والترقُّب هتف: "لم اسألكِ عن الإماء، إنَّما أسأل عن المال والسلاح!!". انتفضتْ مُستنكِرةً: "سلاح؟!! السلاح عندكم في دار السلاح.. حتى حمدون لا يحتفظ بسلاحه هنا!!".

- إئذني لي -أيتها السيدة- أنْ أُفتِّش الدار.. لكي يطمئن قلبي! (هتف بجفاءٍ حازم)
- لقد شططتَ.. يا عبد الجبار! تريد أنْ تُفتِّش دار فاطمة المروانية.. وتعيث فيها الفساد! لا أنت.. ولا غيرك يجرؤ على هذا!! (احتدَّت عليه باستياء)؛ فوقف فرتون

ليهدئها محاولاً أنْ يوحي إليها أنهم لا يقصدون الإفساد بل تبرئة حمدون.. فقال بتوقير ولباقة مُهذَّبة:

- معاذ الله.. أيتها السيدة الموقَّرة أنْ تمتدَّ أيدينا بسوءٍ إلى دارك التي هي دار سيدنا وأخينا (حمدون)! (سكت هنيهة.. ثم استأنف: "إنَّما يلتمس مولاي الحاجب أنْ نتفقَّد الدار؛ فلربما صادفنا فيها شيئاً ينفع حمدون في دحض هذا الاتهام!".

رمقته بنظراتٍ ثاقبة متأمِّلة.. وقد وقعت كلماته عليها وقع حسن.. فهدأت حدتها يسيراً.. لكنها سألته بشيءٍ من الوجل والارتياب:

- مَن أنت.. أيها الفارس الصقلبي؟!

همَّ أنْ يجيبها حالما أسكته عبد الجبار بنظرةٍ شزراء –فهم منها أنَّه استاء من تدخُّله في حديثهما- فأطرق.. وترك عبد الجبار يجيبها بسخطٍ مكبوت:

- هذا (فرتون).. حارس الخليفة؛ أرسله معي لتتأكدي أنَّه يعتني بالأمر شخصياً.. نظراً لمكانة حمدون عنده! فاسمحي لنا أنْ نتفقَّد الدار.. لتَبْرِئة حمدون!

رغم شكها فيما يزعمان.. ورغم ارتيابها في صدق نصحهما لحمدون.. ورغم ارتياعها من اقتحامهم الدار شاكين السلاح؛ إلا أنَّها لم تجد مناصاً من السماح لهما بالبحث في الدار، فسلَّمت لالتماس عبد الجبار، وأومأت إلى الجارية (نجوى).. وقالت: "أَعلمي أهلَ الدار أنَّ الحاجب سيفتِّشها!".

****

-المشهد الحادي والأربعون-

استدعى فرتونُ ثلاثةَ جنودٍ من وراء الباب.. وانبرى يمخر بهم عباب الدار وحجراتها بحثاً عن شيءٍ لا يعلم كُنْهه.. لا هو ولا عبد الجبار الذي وقف وسط الفناء يختال في حلته الخليفية الفاخرة.. تئن حصباء الدار تحت وطأة قدمه.. تدور عيناه في

محجريهما تكادان تخترقان الجدران تنقيباً عن تلك الفتاة (قريبة القاضي)؛ لكن.. لا أثر لها: (تُرى.. هل هي موجودة حقاً؟! أم أنَّها محض قصة خيالية اختلقها المؤيد ليخدعني بها ويُدلِّس عليَّ.. كيلا أصل إلى دليلٍ على تآمره؟! لا.. لا! المؤيد ليس بهذا الدهاء!)، (إذاً.. من المؤكَّد أنَّها هنا.. فأين هي؟!! تُرى.. لماذا يسعى المؤيد لتزويجها بحمدون؟! أحسب أنَّه يحبها! دون شك.. هي فتاةٌ جميلة، فضلاً عن مكانة عمها قاضي اشبيلية.. وسعة ماله!)، (لابد أنْ أعلم لماذا يريد الزواج بها.. ولماذا ترضى هي بالبقاء في بيته!!)، (لكن.. أين هي.. أين؟؟! لا أرى لها أثراً! هل اسأل هذه العجوز عنها؟! لابد أنْ أراها.. الفضول يأكلني!!).

كان يقف وسط الفناء.. يترقَّب شيئاً غامضاً –لكن يشعره بالإثارة واللذة-، وإلى جواره أم هشام تراقب –بضجر وامتعاض- فرتون وجنوده يجوسون خلال حجرات دارها بلا حياء.. تصحبهم الجاريتان، فيما تختبئ سلوان وأم عبد الواحد في مصاري السطح.. وأم سعدون معهما.. بيد أنَّها مكثت تراقب المشهد خلسة من فوق السطح!

من إحدى الحجرات العتيقة (مخدع سلوان).. خرج فرتونُ تتبعه نجوى.. وأحد الجنود الثلاثة يحمل صندوقاً فاخراً. يضعه تحت قدمي الحاجب.. في حين يخرج الجنديان الآخران –تصحبهما سعدى- من حجرة أم هشام يحملان صندوقاً مثله. يهتف فرتون وهو يكتم فرحته: "عثرنا على هذين الصندوقين.. يا سيدي!"، يتأمَّلهما عبد الجبار.. وهما يُخالسانها نظراتِ التفاؤل والاستبشار الخفية.. ثم يلتفت إليها متسائلاً: "إنهما من صناديق قصر الخلافة!! كيف جاءا إليكم؟؟". ساءتها نبرة الاتهام التي أحستها منه؛ على أنها أجابته وهي تضغط على نفسها لتتمسَّك بسعة الصبر.. وعلى أسنانها كيلا تخرج الكلمات مشحونةٌ بغيظها: "هي هدايا المؤيد التي أخبرتُك بها!".

دونما استئذان أو اعتذار.. أوعز إلى فرتون؛ فأقبل على الصندوقين يفتحهما بشغفٍ وتَطفُّل.. دون مراعاةٍ لحرمة الدار ونسائها، أخرج من أحدهما لفافة ثمينة من الديباج.. لم يحترس ألا يُحطم ما بداخلها.. ولم تجشم أم هشام نفسها عناء تحذيره،

فضَّ اللفافة الثمينة ليجدوا بداخلها حُطاماً بالياً من الخشب العتيق، ويهرع إلى الصندوق الآخر –بعد تبادل نظرات الإحباط والارتياب مع سيده- فيُسرع في فتحه.. ويُخرج بتوتر لفافةً كنظيرتها.. يفضها غير حريصٍ على ما بداخلها؛ فيجده رميماً مهشماً. يحمل الصندوقين بكلتا ذراعيه حملاً ويُقلّبهما ويرجُّهما رجّاً.. فلا يخرج منهما غير ما كان!! فيتساءل الحاجب باشمئزازٍ وتشنُّج.. وقد بلغ الغيظ منه مبلغه:

- ما هذا.. يا أم هشام؟!! أين هدايا المؤيد.. التي تزعمين؟!!
- ها هي ذي أمامك! (أجابته باقتضابٍ.. وأنفة)
- هل أهداكِ الصندوقين فارغين؟!! (تساءل بنبرة توبيخٍ ساخرة)
- ما الصندوق إلا وعاء لحفظ الهدية.. أما الهدية فهي ما رأيتَ بداخله!
- هل أهداكِ قصاصة الديباج.. أم الِرّمَّة البالية؟! (سأل بنبرة غيظ وتهكُّم)؛ فأجابته بذات نبرته.. وكأنَّما سرها تغيُّظه وحنقه الظاهر على وجهه.. قائلة:
- بل الهدية.. هي الِرّمَّة البالية!!
- أ تهزئين بي.. يا امرأة؟! أين المال الذي خبَّأه عندكِ ذاك السفيه الآثم؟!! (صاح مُحتدّاً عليها)؛ فأجابته بنبرة أعلى صوتاً وحنقاً.. صارخة:
- صَهْ.. أيها الجَوَّاظ! كيف تجرؤ أنْ تخاطبني هكذا؟!!
- تسبينني أيتها العجوز.. وأنا الحاجبُ! يمين الله لأؤدبنَّكِ.. ولأسجننَّ ولدكِ حتى تأتيني صاغرةً ترجين عفوي.. ولن أعفو! (صرخ باحتدامٍ وغضب.. كثورٍ هائج)، وتقدم صَوْبها كأنَّما يريد أنْ يبطش بها.. فأدركه فرتون ليحول بينه وبينها.. وصرخت الجاريتان تستغيثان.. وصرخت أم سعدون التي كانت تراقب المشهد من فوق السطح؛ فهرعت إليها سلوان وأم عبد الواحد لتُشاهدا أم هشام تقف وحدها بإباء.. تتحدى الحاجب عبد الجبار وهو يحاول أنْ ينفلت من قبضة الفارس الصقلبي القوية ليبطش بها.

تُبادر سلوان –سافرة الوجه- وتهرول هابطة الدرج لتذُبَّ عن معلمتها، وأم سعدون وأم عبد الواحد تسعيان خلفها تصرخان وتستغيثان بالجيران. حال الجنود الثلاثة بين النساء وبين عبد الجبار.. وأمسك فرتون يد سلوان.. ليكفّها عن وجه عبد الجبار قبل أنْ تصفعه وهي تلعنه بكل ما أوتيت من قوةٍ وحنق، نكص على عقبيه تهيُّباً من شدتها عليه.. ولبث مستكيناً صامتاً.. يحدجها بعينيه ذاهلاً عن أم هشام وبقية نساء الدار، وأضمر في طويته: (لا جرم.. هي الفتاة المنشودة)!

انتزعت أم هشام يد سلوان من براثن ذاك الوحش الصقلبي.. وجبذتها إلى أحضانها وهي تقذف عبد الجبار بحمم مقتها صائحة: "أُخرج من بيتي أيها الشقي.. لا أعزك الله!". لم يُجبها.. بل بقي برهة شاخصاً مبهوتاً يتأمَّل بعيونٍ جاحظة سلوانَ التي وقفت دون أم هشام تمنعها منه.. وتحتضنها تحصُّناً منه ومن رجاله!

أفاق من ذهوله على جماعة من جنوده يقتحمون المكان، أوعز إليهم فرتون أنْ توقَّفوا.. وحمَّلهم الصندوقين، ثم جذبه من ذراعه برفق هامساً: "هيا ننصرف يا سيدي! لا جَدْوَى من البقاء هنا.. بعد الآن!!"، انصرف معه مذعناً رغم بقاء عينيه عالقتين بوجه سلوان التي تنبَّهت لعيونه التي تفترسها؛ فانكمشت وأخفت وجهها.. وتحصَّنت بحضن أمها!

****

-المشهد الثاني والأربعون-

بعد تشوُّشٍ مشحونٍ.. قذف عبد الجبار بجسده فوق صهوة جواده.. وانصرف يتبعه فرسانه وجنوده. احتشد عدد من الجيران يشيعون موكب الحاجب بأبصارهم، لوَّح له بعضهم بالتحية؛ فلم يجبهم سوى بنظرة ازدراء عابرة، حاول بعض كبرائهم الترحيب به وإكرامه؛ فأعرض عنهم تكبُّراً.. ومضى في طريقه بوجهٍ مكفهر، أحجموا عنه.. ووقفوا يشيعون موكبه الذي أذاهم صخبه وغباره.. بنظرات ذمٍ واستهجان.

بعض الجارات اجتمعنَّ حول أم هشام ودارها.. وأنشأنَّ يتساءلنَّ عما حدث وعما جرى؛ فطفقت أم سعدون تصرفهنَّ بإجاباتٍ مبهمة.. لم تفصح عن خبر.. ولم تغنِ عن جهل، ثم انفضَّ الجمع عن أم هشام، وما بقي معها في الدار أحدٌ حاشا سلوان وأم سعدون والجاريتان، أما أم عبد الواحد: فقد انصرفت -هي الأخرى- ساعة أنْ أتى أحد أبنائها ورجاله يهرعون إليها على وجل بعد أنْ علموا بإحاطة عساكر الحاجب للدار؛ فخشي على أمه بطشهم.. فتربَّص ريثما يعلم ما يجري.. ثم سحب أمه مستسمحاً أم هشام وغادرا الدار.. بعد أنْ عانقتها أمه وبكت بين ذراعيها ملياً وهي تواسيها وتصبِّرها.

تفرَّق الناس عنهما.. فانفرجت شفتا سلوان –بعد أنْ سكت عنها الغضب وهدأ روعها- عن سؤالٍ مرتبك: "أين حمدون يا أمي؟! وماذا يريد أولئك العساكر منه؟!!"، جاوبتها بنظرةٍ حائرة خرساء، ثم غدت تنظر في الأرض تحت قدميها.. ذاهلة عما يدور حولها، انفلتت دمعتان ساخطتان من عينها، هوت إحداهما إلى الأرض؛ فأدركت الأخرى ومسحتها بظاهر كفها، تأوهت حين عَلِقت تُحدِّث نفسها –كأنَّما تخاطب سلوان – هامسة: "كم وطَّنتُ نفسي على الزهد في جاه الدنيا وزخرفها، وكم تباعدتُ عن أهل الحكم والسلطان.. رغم تقريبهم لي.. ورغم سعيهم إليَّ لإلحاقي بهم! وليس عهد المنصور بن أبي عامر وزوجه الذلفاء مني ببعيد: كم قرَّبني من أهل بيته.. لكني كنتُ دائماً أضن بروحي وأهلي على السلطة وأهلها! كنتُ أنئ بنفسي كيلا أكون حطباً لنار السلطان؛ فإذا بها تقتحم عليَّ داري.. وتحرق ولدي!!؟".

تركع سلوان بين يديها وتحتضن كفها بكفيها.. وتتساءل بجزع عما تعنيه الجدة: "هل جاءوا يتهمون حمدون بالولاء لبني عامر بعد ما كان من نصرته للمهدي؟!!".

تسترسل الجدة في هذيانها بغير اكترات لسلوان وتساؤلاتها: "إنَّها شهوة السلطان.. تُفرِّق بين الأحباب.. وتجعل الأخلاء بعضهم لبعضٍ عدو! ولطالما اِعتزلتُ السلطان وفتنته، ولطالما أرشدتُك -يا حمدون- إلى اعتزال ذاك المهدي؛ لكنَّك تأبى أنْ تسمع

نصحي!! كم أخبرتُك أنَّ محمدك هذا وحاجبه الحقود من اللئام الجهال، وحذَّرتُك من غدرهما وانقلابهما عليك؛ فلم تبالِ بقولي ولم تعبأ بتحذيري!!".

أجابتها سلوان بهَمْسٍ يتهدجه الوجل والألم: "{وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال} (٤٦ سورة إبراهيم)، أسأل الله اللطيف الخبير أنْ ينجيه من سوء أعمالهم!!". هزت الجدة رأسها بإحباطٍ.. كأنَّما تنفي ذلك الأمل، ثم غمغمت في يأس: " بل هو دين شهوة السلطان الذي طالما أبيتُ أنْ أغرمه.. ها أنت ذا –يا حمدون- تُسَدِّده!! يا حسرتي عليك يا ولدي.. كيف ضيَّعك مني الطمع في السلطان؟!!".

لم تقدر سلوان التماسك؛ فاستسلمت للبكاء دون خجل.. وأرسلت العنان لدموعها المكبوتة تنهمر على خديها وهي تنتحب بصوتٍ واهن: "كلا.. كلا! لا تقولي هذا يا أمي! حمدون لم يضع منا؛ بل.. سيعود، لابد أنْ يعودا!". ثم رفعت كفيها لتحتضن بهما وجه الجدة المكلومة واستطردت تهتف بعاطفةٍ حارة: "أيا أمي.. أُطردي عنكِ وعنا شيطان القنوط، هيا يا أمي.. اِسألي الله النصر والنجاة.. وثقي بأنَّه الرب الرحيم؛ لن يفجعنا في حمدون!". لم تملك المرأة العجوز جزعها؛ بل انهارت قواها الخائرة فارتمت في أحضان حبيبتها.. وأجهشت بالبكاء، ثم راحت تجأر بصوتٍ يتهدَّجه النشيج: "يا رب! يا ربي.. سلم! يا ربي.. أغث ولدي!".

حالما اختبأت الجاريتان –عن عيون أهل الدار الحزينة- في مصاري السطح؛ طفقت أم سعدون تراقب سيدتها -من بعيد- بعيونٍ دامعةٍ وقلب واجف.. حين سمعت صوت ولدها سعدون يدلف بالغنمات إلى الحظيرة عائداً بها من المروج؛ فانطلقت إليه لتخبره خبر حمدون والحاجب، وتحذِّره أنْ يُحدِث فعلاً صبيانياً يُحزِن أم هشام أو يُثير استياءها. رأته يقُم الحظيرة ويُبيِّت الغنمات.. فراحت تقص عليه ما كان، تَلَقَّى الخبر بهلعٍ ووجوم، ثم ارتمى في أحضان أمه.. وانخرط في البكاء والنحيب كطفلٍ صغير، شرعت أمه تهدِّأ من روعه.. وتلاطفه، ثم هتفت بحنانٍ وثقة في الله: "أعلمُ يا

ولدي أنَّك تحب حمدون وتخاف عليه.. وكلنا مثلك؛ فثق بأنَّ الله سينجيه من أيدي الظالمين.. لأنَّ له أحباب مثلنا يدعون له!". مسح الفتى المرور عَبراته.. ورنا بعينيه إلى السماء وتمتم: "يا رب.. لستُ ساخطاً على حمدون لأنَّه ضربني؛ فاللهم سامحه ونجِه من الظالمين!".

****

-المشهد الثالث والأربعون-

بعد عودته من دار حمدون خاوي الوفاض –كما في ظنه- جثم عبد الجبار في مجلسه بقصر الخلافة شاخص البصر يتأمَّل بلا وعي الثريا المدلاة من السقف.. مستسلماً لإحساسٍ جارف بالإحباط، يتملَّكه شعورٌ غامضٌ بالرهبة.

بينما هو على تلك الحال؛ إذ دخل عليه شيطانه ومستشاره السري (فرتون)، أقبل يسعى بحماسٍ ونشاطٍ أخرجا الحاجب عن سكونه الشجي. ألقى عليه التحية؛ ردَّ باقتضاب ثم أطرق، فهتف فرتون:

– لِمَ الانتظار.. أيها الحاجب؟!! تلك هي.. فرصتنا!!
– أي فرصة تزعم؟؟ لقد رجعنا بلا شيء!! (أجابه بنبرة تشاؤمٍ واستيآس)
– بل رجعنا بالدليل القاطع الذي سيجعل الخليفة المهدي يُسلِّم بتآمر المؤيد، وربما يبطش به، ولربما تَحفَّز لقتله.. وتلك أبلغ أمانينا!! (هتف بثقةٍ وابتهاج)؛ في حين رمقه عبد الجبار بفتورٍ يائس، ثم أعرض عنه.. وهو يجأر هازئاً:
– رجعنا بصندوقين فارغين؛ يا لهما من أدلة قاطعة!!
– بل مملوءان بمالٍ (كثير)!! المال الذي أخفاه المؤيد عند حمدون ليستغلاه في الانقلاب على الخليفة! (أَسَرَّ بثقةٍ كأنَّما يتباهى بدهائه وحسن تدبيره للمؤامرات)
– إنَّك تهزي يا فرتون! أين هذا المال المزعوم؟!! لقد رأيتَ معي الصندوقين خاويين.. وفتَّشتَ بنفسك الدار؛ فلم تجد فيها مالاً أو سلاحاً!! (هتف باستنكارٍ وإحباط)

- إليك خطتي.. أيها الحاجب: نملأ نحن الصندوقين بالمال، ونقدِّمهما للمهدي على أننا عثرنا عليهما بما يحويانه من مالٍ.. في بيت حمدون!
- وهل سيصدقك المهدي هكذا ببساطة؟! ألن يشك أنَّك دسستَ الصندوقين وما يحتويان عليه من مال على حمدون والمؤيد؟! (هتف بسخرية.. مستهيناً بالفكرة)؛ فتجاوز فرتون عن لهجته الساخرة.. واستطرد يؤكِّد حسن تخطيطه قائلاً:
- إذا واجهنا المؤيدَ –أمام الخليفة- بالصندوقين مغلقين.. وسألناه: هل أهداهما إلى بيت حمدون؟ فبالتأكيد لن يُنكر، ثم إذا فُتِح الصندوقان ورأى الخليفة فيهما مالاً أكثر بكثير من أنْ يكون هدية! فقد ثبت عليه الاتهام.. وزال شك الخليفة! ثم تتّكئ أنت باسترخاء.. لتشاهد خصومك يأكل بعضهم بعضا!!
- هب أنَّ خطتك سديدة.. فمن أين سنأتي بهذا المال الكثير الذي تريد؟!!
- سيدي! فلتبذل.. شيئاً من.. مال الزاهرة.. الذي خبَّأتَه! (قالها بشيءٍ من التردد)
- قبَّحك الله.. أيها الشيطان! ألا زلت تذكر مال الزاهرة.. أيها الخبيث؟! تالله.. إنِّي أخشاك على نفسي!! (جأر مستنكراً باحتدام)؛ فطمأنه فرتون وهمس بتؤدة:
- ما دامت مصلحتنا مُتفقة.. فلا تخشاني أيها الحاجب! إنَّك تسعى لتكون الخليفة.. ووعدتني أنْ أكون حاجبك المؤتمن؛ فأنا معك وأمينٌ على سرك.. ما لم تحنث!

أعرض عبد الجبار عنه.. وأطرق مُتفكِّراً، طال صمته حتى اِرتاب فرتون أنَّه سينكث عهده! بيد أنَّه –وبعد برهةٍ عميقة الفكر- حدجه بنظراتٍ نافذة، وهتف بحماسٍ شرير: "لا حاجة لإضاعة المال بتكلُّف وضعه في الصندوقين؛ يكفي أنْ نقول: عثرنا على الصندوقين –هكذا- فارغين! وبشيء من التدبُّر سيفهم المهدي أنهما ما كانا فارغين؛ بل.. دون شك.. كان فيهما مالٌ كثير، ولن يشك في أنَّ حمدون أخفاه!".

- إذاً.. لن يهدأ المهدي حتى يبحث عن ذاك المال ويجده، إنَّك تعلم حرصه على جمع الأموال! (هتف فرتون بنبرةٍ توحي بعدم الرضا عن الفكرة)؛ فلوَّح عبد الجبار بيده في الهواء كأنَّما يسكته.. ثم استأنف قائلاً بحماسٍ زائد:
- لذا.. فزيادةٌ في حبك الخدعة.. سأحبس حمدون في سجن المطبق، وسأُعذِّبه بيدي كأني أستجوبه عن ذاك المال: أين هو.. وما كانا سيفعلان به.

لم يرق حماسه الطفولي لفرتون؛ فأسرع يجيبه مشمئزّاً من بخله ومُسفِّهاً أفكاره الساذجة: "لا داعي لتعذيبه أو استجوابه، إنَّما يكفينا اِعتراف المؤيد بأنَّه صاحب الصندوقين.. ثم نترك المهدي يتصرَّف كيفما يشاء، ونراقب –من بعيد- الصراع بينهم وهو يشتعل!"، فاتكئ عبد الجبار في كرسيه بابتهاجٍ.. وهتف بارتياحٍ ونشوة: "سنراقب باستمتاع! لكني -مبالغةً في الاستمتاع- أرغبُ أنْ أُنكِّل بحمدون!!".

****

-المشهد الرابع والأربعون-

صادمةً.. كانت المفاجأة! إلى حد أنَّ المهدي لم يستوعبها، بل.. لم يُصدِّق كلمة واحدة مما اِدَّعاه عبد الجبار على حمدون.. أو على المؤيد! (يستحيل أنْ يتآمر عليَّ حمدون.. أو يخونني! يتآمر عليَّ مع مَن؟! مع هشام المؤيد؟؟ ذلك السفيه الأحمق!! كلا.. كلا! عقلي لا يستوعب هذه الفرية!)، (يستحيل أنْ يسرق حمدون مال القصر ويخبِّأه عنده ليتآمر عليَّ به لصالح المؤيد!! وأيم الله.. إني قد أرتاب في نفسي.. ولا أشك في عفة حمدون وأمانته! ثم إذا كانا –هو والمؤيد- بهذا الدهاء والحنكة؛ فكيف يسرقان المال ويخفيانه.. ثم يتركان الصندوقين في بيت حمدون؟!!)، (يا لك من كاذبٍ مخادع.. يا ابن عمي!! لكن.. لماذا تسعى –يا عبد الجبار- للوقيعة بيني وبينهما؟؟ ما غرضك؟!! لستُ أفهم هذا!)، (هل نسيتُ رسالة المؤيد إلى قاضي اشبيلية؟ لا زال لغزها لم يحل!! وها هو ذا حاجبي وابن عمي يأتيني بلغزٍ جديد بدلاً من أنْ يحلَّ القديم! بئس الحاجب ذاك الذي لا يحلّ ولا يعقد!!)، (لا مناص من أنْ أحقق بنفسي في المسألة، سأستجوب

المؤيد وحمدون غداً بنفسي.. لن أترك أمرهما لذاك الحاجب الأرعن بعد الآن!): ما انفكت نفسه تُكلِّمه وهو جالس مطرقاً شارد الذهن.. ساهياً عن صخب ندمائه من حوله الذين انشغلوا عنه –هم أيضاً- باللهو والطعام والشراب.. والتلذُّذ بمتابعة رقص الراقصات وغناء المطربات؛ إلا ما كان من (صاعد بن عبد الوهاب) الذي ما فتئ يراقبه.. ويراقب شروده كأنَّما يحاول قراءة أفكاره. بتؤدة.. تسلَّل بعيداً عن السُمَّار وصخبهم وبرك إلى جواره ليهمس: "لا نامت عين مَن شغل مولانا الخليفة عن مجلس سمره!!"، فأعاره المهدي التفاتاً.. وابتسم ابتسامة مقتضبة.. قائلاً: "هموم الخلافة لا تنتهي.. يا صاعد!". فأردف صاعد بتجرؤ رفيق:

- لكن.. دأب مولانا.. أنَّه يتناسى هموم الخلافة –ولو لبعض الوقت- في سمره مع الندماء؛ لابد أنْ ما يشغل أمير المؤمنين الحين أمرٌ أخطر من كل أمر؟!
- نعم.. هو أخطر من كل أمر! (هتف باقتضابٍ موحياً بأنَّه لا يرغب في الحديث)، بيد أنَّ صاعد اقترب من أذنه.. واستطرد هامساً بإلحاح:
- هل هي: رسالة المؤيد إلى قاضي اشبيلية؟!!
- أجل!! (هتف وهو يزفر زفرة حيرة.. وشعور بالإحباط)
- لقد اختار أمير المؤمنين أنْ يترك التحقيق في المسألة لحاجبه عبد الجبار؛ فما الذي يشغلكم يا سيدنا؟! أم ثمة شيء جديد؟؟!
- نعم.. ثمة أمرٌ جديدٌ.. وخطير!!
- هل لي أنْ أعلمه؟؟ (بادر بها قبل أنْ يتدبَّر القول)؛ على أنَّه أسرع فتدارك خطأه واستدرك.. فقال متنصِّلاً: "معذرةً.. يا سيدنا! لا يجوز لي أنْ أخاطبكم هكذا!! لكن حرصي الشديد عليكم.. دفعني إلى...".

قبل أنْ يُكمل مقالته.. قاطعه المهدي بإشارةٍ من يده: أنْ أُسكت، وهمس بنبرةٍ لينةٍ رفيقة: "بلى! سأقُصُّ عليك الخبر.. فأنت محل ثقتي.. ورأيك يعجبني!".

- هذا إطراءٌ عظيم -يا سيدي- أخجلتني به! إني مصغ.. يا مولانا!

- ذهب عبد الجبار اليوم ليُفتِّش دار حمدون.. ثم جاءني بصندوقين من صناديق الخلافة.. وادعى أنَّه عثر عليهما في تلك الدار!
- وماذا كان بهما.. يا أمير المؤمنين؟؟!
- كانا خاويين، لكن عبد الجبار يؤكِّد أنَّه –ولابد- كان بهما مالٌ خبَّأه المؤيد عند حمدون.. ثم أخفاه حمدون! ولذلك طلب مني السماح له باستجواب حمدون عن مكان المال.. وإنْ استدعى الأمر حبسه في السجن!
- هل تصدِّق ذلك.. يا سيدنا؟؟ (تساءل صاعد بشيءٍ من الاستنكار)
- ما رأيك أنت.. يا صاعد؟ أُحب أنْ أسمعك! (سأله باكتراث.. واقترب بأذنه منه ليُنصت إليه بانتباه)؛ فتنحنح صاعد بعد أنْ أطرق لحظاتٍ.. ثم همس:
- أرى أنَّه افتراءٌ من حاجبكم.. يا سيدنا! فحتى ولو كان المؤيد يطمح أنْ يسترجع الخلافة؛ فإنَّ حمدون.. لن يخونك، ولو سلَّمنا بأنَّ حمدون سيخون؛ فإنَّه لن يكون أحمقاً فيستقبل المال في بيت فاطمة المروانية التي سترفض دخول المال بيتها –كما نعلم عنها جميعاً-، وإنْ وقع واستحال حمدون شيطاناً خائناً هكذا؛ فهل سيترك الصناديق الخاوية في بيته لتكون دليلاً ضده؟؟ لا أحسبه يفعل!
- هذا هو الرأي!! (جأر بها بنبرة عالية لفتت انتباه بعض الجالسين إليهما)؛ بيد أنَّه عاد فاستطرد بنبرةٍ خفيضة: "هذا ما أراه أنا أيضاً! إنَّه افتراء من عبد الجبار، وإنْ كان هناك متآمر؛ فهو المتآمر! إلا أني لا أزال حائراً: ماذا يريد عبد الجبار بكل هذه الحماقات؟ هل مجرد حقده على حمدون –الذي أعلمه جيداً- هو ما يُزيِّن له افتعال هذه الافتراءات؟ أم تُراه يدبِّر لمكيدةٍ لم أعلمها بعد؟؟".
- .... (ظلَّ صاعد يُنصت إليه.. ويتدبر قوله في هدوء)
- لذا.. فإني سآمره أنْ يترك التحقيق معهما لي؛ فلا أُعطيه فرصةً يصل بها إلى أهدافه الخبيثة المبهمة!
- عفواً.. يا أمير المؤمنين! إنَّ لي رأياً آخر!
- قل!! إني مُنصتٌ!

- الرأي عندي أنْ تدع الحاجب عبد الجبار يفعل بالمؤيد وحمدون ما يشاء.. شريطة أنْ تراقبه –من بعيد- لتعلم حقيقة ما يدبِّره!
- أحسبه.. سيبطش بهما!
- إذاً.. ستكون فرصتنا للقضاء على الاثنين معاً: المؤيد.. والحاجب!
- أصبتَ.. أيها الشيخ اللعين! هذا هو الرأي!

****

-المشهد الخامس والأربعون-

ذات المساء.. تسلَّل زاوي بن زيري (زعيم صنهاجة).. ومعه عبد الواحد بن بلقين (ابن أم عبد الواحد صديقة جدة حمدون) إلى دار الأمير هشام بن سليمان بن الخليفة الناصر (والد ولي عهد المهدي: سليمان بن هشام).

بتحرُّز وبشيءٍ من التجهُّم.. تساءل –قبل أنْ يرحِّب بهما-: "هل عرف أحدٌ أنَّكما آتيان إليَّ؟؟"، فلما أكَّد له الزعيم البربري أنهما جاءاه خفية.. ولم يعلم أحدٌ بقدوهما إليه؛ تنفَّس الصعداء وانفرجت أساريره، ثم رحَّب بهما وأقعدهما.. ثم سأل مُتعجِّباً: "ما الذي أقدمك إليَّ في مثل هذه الساعة من الليل يا شيخ البربر؟!"، تنحنح زاوي قبل أنْ يجيبه هامساً: "نرجو المعذرة -يا شيخ المروانية- إذا قدمنا إليك هكذا بغير ميعاد سابق! لكن الأمر جلل.. ولم نجد في بني مروان أرشد منك ولا أعقل.. لنأتيه بالخبر!"

- أي خبر يا زاوي؟؟ لقد سبق ووعدتُك أنَّ ولدي سليمان (ولي العهد) سيشفع لكم عند المهدي لتعود جماعتكم إلى الجيش ويُجري عليكم أرزاقكم كما كانت، لكن أمهلنا بعض الوقت.. يا رجل!
- لكما جزيل الثناء أيها الشيخ الكريم! فنحن نقدر لك ولولدك الأمير سليمان عنايتكما بنا وصدق نصحكما لنا! لكننا ما أتيناك لهذا.. بل لأمرٍ أخطر!!
- ما ذلكما الأمر الخطير؟!! (تساءل باندهاش.. وأصغى لهما بمبالاة)

- قُص عليه الخبر يا عبد الواحد! (قالها زاوي).. فتكلَّم عبد الواحد بصوتٍ خفيض.. لكن بنبرةٍ ذات ريب:
- أمي صديقةٌ لفاطمة المروانية، وكانت تزورها اليوم –بعد صلاة الجمعة- وفي تلك الأثناء.. داهم الحاجب (عبد الجبار بن المغيرة) الدار بجندٍ كثيف.. وفتَّش رجاله الدار تفتيشاً عنيفاً أمام أعين النساء...

قاطعه هشام بن سليمان متسائلاً بتعجُّب:

- تقصد السيدة فاطمة المروانية بنت أحمد الأصغر عم جدنا الخليفة الناصر؟؟!
- أجل! وجدة حمدون بن هشام بن الفقيه عبد البر المصري!
- عجباً.. عجبا!! لماذا يفعل عبد الجبار ذلك؟!! (تساءل باستقباح)
- الأدهى من هذا.. لقد تشاجر مع السيدة المروانية وأهانها، وكاد يضربها لولا نساء الدار اللواتي منعنها منه!
- ويح الرجل!! كيف يتهوَّر.. ويتعدَّى على النساء الكريمات؟!! (تساءل باشمئزاز)
- يزعم أنَّ المؤيد.. وحمدون متآمران على المهدي، وأحسب أنَّه يحبسهما في القصر!!
- ماذا؟؟! هل أنت واثق مما تقول.. أيها البربري؟!! (تساءل بتوجُّسٍ وارتياع)
- أجل.. يا سيدي! لقد كانت أمي هناك؛ وحكت لي ما وقع.. كما قصصتُه عليك!
- أخشى أنْ يكون المهدي وحاجبه.. يدبران للقضاء على المؤيد!!
- ولهذا أتيناك.. يا أبا سليمان! (هتف زاوي)؛ ثم أضاف: "قد ارتبنا في الأمر وخشينا على المؤيد.. سيدنا وابن سيدنا الحكم المستنصر، ولم نجد ملجأً إلا إليك؛ فأنت كبير المروانية وشيخهم.. وولدك ولي العهد؛ ولا جرم لن ترضيا بإيذاء المؤيد!
- بلا شك.. لن نرضى بنقض عهد المؤيد؛ فلقد سلَّمنا للمهدي بالخلافة لأنَّ المؤيد تنازل له عنها مختاراً غير مجبر.. شريطة أنْ يحفظه؛ فإنْ نكص على عقبيه.. وغدر بالمؤيد؛ فليس له علينا عهدٌ ولا بيعة!!
- إذاً.. فماذا ترى.. يا شيخ المروانية! (تساءل زاوي باكتراث وترقُّب)

- لابد أنْ أُشاور ولدي سليمان وأبا بكر أولاً، ثم نرى رأينا ونحزم أمرنا! (قالها وهو يقبض على لحيته تَفكُّراً)؛ ثم استطرد هامساً: "عودا إلى دياركما.. ولا تُحدِّثا أحداً ريثما نعرف حقيقة الأمر.. ونرى رأينا!".

****

-المشهد السادس والأربعون-

الظلام حالك! يغطي كل جنبات الحجرة الواسعة! لدرجة أنَّ القنديل الصغير المتكئ إلى جوار الفراش.. لم يتمكَّن من مغالبة ذاك الظلام الأسود إلا يسيراً! لكن.. بالكاد استطاع عبد الجبار -على بصيص نوره الخفيت- أنْ يرى خاتمه الذهبي الغليظ ذا الحجر الضخم النفيس.. القابع على المنضدة بجوار فراشه، وضعه في بنصره الأيمن، ثم نهض من الفراش.. يدرأ عن نفسه كسل النوم وخموله، قام.. تَحُثّه رغبةٌ وحشيةٌ – كامنة بين ضلوعه- على مشاهدة غريمه (حمدون) وهو يُعذَّب داخل غياهب سجنه.

بهمةٍ عالية ونشاطٍ زائد.. ورغم الظلام الأعمى.. ارتدى ثيابه وتأنَّق في أبهى زينته.. كأنَّما يخرج إلى مجلس احتفال.. لا إلى زنزانة رطبة مدفونة تحت الأرض!

خرج من باب تلك الحجرة -التي ظنها مخدعه الذي في داره- ليجد نفسه بغتةً في قصر الخلافة، على أنَّه لم يتعجب من هذا الانتقال المفاجئ، ولم يكترث لذاك الظلام المنتشر، ولم يعبأ بذلك الصمت الأجوف القابع في كل الأرجاء؛ بل كان مرتاح النفس مغتبطاً.. يمشي بخطى ثابتة متجهاً إلى مكانٍ معلوم.. كأنَّ عينيه تبصران بذاتيهما.

رغم غطيطهم.. أهلُ القصر أمواتٌ.. حاشا رجاله المتدثرين بالسواد كأنَّهم خفافيش الليل، في أحد الدهاليز.. ظهروا بين يديه.. مُلثَّمين مُعظِّمين مُوقِّرين، انتشى لخضوعهم إليه، وسرَّه التفافهم حوله.. مجلَّلين بالدروع مدججين بالسلاح!

وسط الظلام الأخرس.. مشوا خلفه؛ فانحدر بهم إلى أسفل سافلين.. نزلوا دركات سحيقة إلى حيث تضيق الأنفس وتختنق الأنفاس، حيث تسكن الأصوات والهمسات.. وتسكن الزبانية والشياطين، حيث غيابات السجن السحيق الذي زج فيه حمدون!

صرير باب الزنزانة الغليظ يَصَمُّ الأسماع.. لو كانت تسمع!! أمرهم بإشعال السراج كي تتلذَّذ عيناه برؤية غريمه مكبَّلاً بالأغلال؛ فرآه مصلوباً في خشبةٍ ضخمة البنيان قاسية الأحشاء، حدَّق فيه.. فألفاه جسداً خائر القوى.. أكله التعذيب فلم يُبق منه غير كومة عظمٍ مهشمةٍ استترت بجلدٍ بشريٍ تيبس عطشاً لضوء الشمس ودفئها.. قد تسربل بالدماء.. وأسمال بالية مُزِّعت فلم تعد تدفء بدن أو تستر عورة! انفرجت أساريره ارتياحاً.. وفغر فوه عن ابتسامةٍ آثمةٍ يتساقط منها لعاب الحقد والتشفي!

الصمتُ أعمى.. والظلامُ أخرس.. وزبانيةُ الحقد والضغينة تحرس قعر المكان! صدره يغلي حقداً وحسداً.. وقلبه يستعر غضباً ومقتاً، يقترب من الجسد الواهن الذي مزَّقته السياط وأهلكه الإعياء، يحدجه بعينيه.. تتلاقى أعينهما.. تبرق عيناه شماتةً وتشفي؛ فيما عين حمدون يخبو نورها.. فكأنَّما لا ترى شيئاً. لم يشف غليله خُنُوعُ تلك الجثة ذات الزفرات الخائرة؛ ما زال قلبه الحاقد يريد التشفي أكثر وأكثر: رفع يده.. كوَّر قبضته وطفق يلكم وجهه بحجر خاتمه الغليظ! سال الدم المستصرخ على الخاتم وجوهره النفيس.. وتناثرت قطراته المستغيثة على الحُلة الباهظة! لكن.. مازال لم يُشف غليلُه ولم تخمد نيرانُه، انتزع السوط الفظ من يد الجلاد.. ورفع به يده فشارف أنْ ينطح السقف الخفيض، وبكل العزم والقوة.. وبكل الحقد والقسوة طفق يُمزِّق ظهر غريمه الواهن.. بضربات سوطه الجافي!

الجسد المعذب يئن.. غير أنَّ حقده عليه صمَّ أذنيه؛ فلم يسمع له صراخاً! أخذ يضربه.. ويضربه.. حتى كلَّت يده وتصبَّب عرقه وتلاحقت أنفاسه! (لقد أُجهدتُ.. وأنا الجلاد؛ فما خطبك أيها المجلود.. كيف تشعر؟!! وما خطبك يا قلبي.. أ ما زلتَ لم تشف؟!!). أحس بيدٍ رقيقة –من خلفه- تربت على كتفه بحنان؛ التفت بتؤدة.. فرآها

ترنو إليه بعينيها الزرقاوين الهدباوين، نظراتُها الحانية سحرت لبه.. وأنسته ما به من إعياءٍ وجهد، تطلَّع إلى صفحة وجهها الملائكي الصبوح؛ فذهل قلبُه عما به من ضغينة وحقد، بل أكثر من ذلك.. لقد حلَّ محلهما بهجةٌ وصفاءٌ لم يشعر مثلهما من قبلُ! (إنها هي ذاتها.. إنها الفتاةُ قريبة القاضي.. إنها سلوان!!)، أراد أنْ يبادلها حناناً بحنان.. وصفاءً بصفاء، أراد أنْ يُكلِّمها.. أنْ يقول لها: (ما الذي أتى بكِ إلى هذا القبر المقيت؟ إني أُنزِّهكِ أنْ تمكثي في هذا المكان ولو للحظة واحدة، إنَّكِ أنبل وأرق من أنْ تتحمَّلي جفاءه وقسوته!)، لكن أُرتج عليه.. بل ثقل لسانه: (أصابني الخرس؟! أم بي صمم؟؟! هل تسمعيني.. يا حبيبتي؟؟)، تبسَّم له وجهها العاجي الناعم الوضَّاء.. وانفرج ثغرها الحالم عن بسمةٍ عذبة كأنها تقول: (لا تخش عليَّ.. يا حبيبي؛ فأي مكان أكون معك فيه.. فهو الجنة!)، أسالت بسمتها الحلوة قلبه بين ضلوعه، بل بدَّدت ظلام المكان! أجل.. تلاشى السقف الخفيض ولاح من فوقه البدر ساطعاً.. فغسل بنوره تلك الجدران الجافية الصماء! (كيف ذاكِ؟ كيف استطعتِ -يا حبيبتي- أنْ تُبدِّلي السجن المظلم التعيس إلى جنة رحبة منيرة؟)، لم تجبه.. إنَّما نظرت إلى السوط الغليظ بيده.. ومدَّت يدها باشتهاء كأنَّما تقول: (أعطني السوط.. يا حبيبي!)، (كيف؟ كيف -يا حبيبتي- لمخلوقة رقيقة مثلكِ أنْ تمسك يدُها ذاك السوط الجافي؟)، بيد أنها هزَّت يدها بإصرار وصرامة؛ فلم يملك سوى أن يترك لها السوط!

أمسكت السوط بقوة وعزيمة.. وبرقت عيناها كأنهما جمراتٌ تستعر.. واستحال السوط في يدها إلى عصا خشبية غليظة.. واستحال رأسها كرأس شيطان.. وفغر فوها كأنها تسعى لتأكله؛ فأكل الخوف والرعب قلبه، همَّ أنْ يصرخ من هول الصدمة.. لكنها عاجلته بضربة شديدة.. بعصاها الغليظة كقلبها! انفجر رأسه تألُّماً.. وصرخ صرخةً مكتومة.. أُذناه لم تسمعها! أظلم المكان.. فلم يعد يرى شيئاً!!

أفاق من سُباته ليجد نفسه نائماً على فراشه في مخدعه الذي في داره! على الضوء الخافت للقنديل المتكئ إلى جوار فراشه.. تلفّت حوله؛ فما صادف شيئاً يُريبه.. وما صادف شيئاً تغيَّر؛ فالقنديل كما هو.. والخاتم والمنضدة كما هما.. والحجرة وأثاثها

كما هم.. والفراش ووسائده كما هم.. لم يلحظ شيئاً غريباً ما خلا عرقاً مصبوباً على الوسادة.. وصَبابةً أصابت قلبه: "ما أفظعه من كابوس!!"، شعر بألمٍ شديدٍ في رأسه.. كأنَّه ضُرب عليه حقاً، تحسَّس بيده محل الألم فلم يجد ما يسوءه. حاول أنْ يعود للنوم مرة أخرى، جفاه النوم وبات يتقلَّب في الفراش كأنَّما يتقلَّب على جمر يضطرم.. حتى ملَّ الرُقاد.. وضاق صدره؛ ففزع عن فراشه متكدِّراً، هرع إلى النافذة القريبة ففتحها يبحث عن هبَّة نسيم يتنشَّقها عساها تصرف عنه ما أصابه من ضيق صدر واضطراب قلب، استنشق النسائم الباردة اللطيفة.. ثم أخذ يطالع القمر في السماء الصافية إلى أنْ هدأت نفسه وانشرح صدره، ثم عاودته صورتها التي رآها في منامه منذ قليل.. فلقد ذكَّره القمر بها، إنَّ وجهها الوضَّاء يشرق كالبدر.. وعينيها الزرقاوين تلمعان كنجوم السماء، تذكر ثغرها الباسم.. وبسمتها الباهرة التي أضاءت قبو السجن المظلم.. والكون من حوله، شعر بنشوة غامرة.. تحوَّلت إلى صَبابةٍ تتخلَّل إلى قلبه.. وسرعان ما سرت في كل جوارحه، تساءل في دَخِيلته سؤال شوق ولهفة: (تُرى.. ماذا تعني هذه الرؤيا؟ ما تأويل هذا المنام؟! لابد أنْ أجد مَن يُفسِّره لي!!).

****

-المشهد السابع والأربعون-

باكراً مع تباشير فجر اليوم التالي.. جاءت أم سعدون إلى دار أم هشام لتجد الجاريتين –سعدى ونجوى- ترتقبان قدومها بشغفٍ وتوتر، حيَّتاها تحية الصباح في عجالة.. ولم يمهلاها؛ بل غمغمت إحداهما بوجل: "أحسب أنَّ السيدة فاطمة ستُهلِك نفسها كمداً.. يا خالة!"، حملقت فيها أم سعدون بهلع.. في حين استأنفت الأخرى هامسة: "إنها لم تضع في فمها طعاماً ولا شراباً منذ ظهيرة الأمس.. ولم تنطق بكلمةٍ واحدة مذ غادر الحاجب!!"، فجأرت أم سعدون: "قبَّحه.. الله!!"، ثم استأنفت متسائلة: "أين هي الآن؟؟"، فأجابتها نجوى: "لم تخرج من حجرتها منذ البارحة!"، بيد أنَّ سعدى استدركت هامسة: "بل خرجت عند غَبَش الليل.. ورأيتُها تتوضَّأ.. ثم عادت إلى حجرتها

دون أنْ تنطق بكلمة!". لوَّحت أم سعدون بيدها وهي تخاطبهما هامسة: "سأدخل إليها.. وأنتما تقومان بأعمال المنزل المعتادة.. كأنَّ شيئاً لم يقع!"، سكتت هنيهة ثم استطردت متسائلة: "لكن.. أين سلوان؟؟!"، فأجابتها سعدى: "كانت جاثية إلى جوارها أمس.. طيلة النهار والليل.. تخفف عنها.. وتحاول معها أنْ تُطعمها أو تُسقيها.. لكنها أبت أنْ تتجرَّع شيئاً.. حتى الماء! ثم قامت تترنَّح لتدخل حجرتها.. وأمرت سلوانَ أنْ تتركها وحدها!"، تساءلت المرأة الكهلة بشيءٍ من التبرُّم: "أين سلوان الآن؟؟!"، فهمست نجوى: "أحسبها تبكي في حجرتها!!". جأرت أم سعدون بحسرةٍ وأسى: "وأيم الله.. لقد أصابتنا عينُ حسود، أعوذ بالله من شر حاسدٍ إذا حسد!!"؛ ثم أردفت تخاطبهما بصرامة: "هيا.. انصرفا إلى أعمالكما!".

انطلقت الجاريتان لمباشرة أعمال المنزل.. فيما غدت هي إلى مجمرة صغيرة وأشعلت فيها خشب العود الذي تحب عَرْفَه أمُ هشام، ثم حملتها واتجهت إلى مخدع سيدتها، نقرت الباب نقراً خفيفاً.. ثم دلفت لتجدها جالسةً على سجادة صلاتها ساكنةً مستكينة كأنَّ على رأسها الطير، لم تلتفت إليها؛ فعلمت أنَّها لم تشعر بها.. قد أذهلها الهم عما يجري حولها. هتفت بخفةٍ وفكاهة: "لم تنتبهِ لدخولي لأنّي رشيقةٌ خفيفة الوزن.. لكن ألم تَشُمِّ رائحة العود الطيبة؟!"، التفتت إليها لترمق -بعينها الحزينة- جسدها البدين بنظرةٍ هازئة، ثم ابتسمت ابتسامةً فاترة.. وتمتمت بحشرجة: "أهلاً.. يا أم سعدون!"، ثم عادت ونكَّست رأسها المهموم إلى الأرض. حطَّت أم سعدون المجمرة جانباً.. ثم جثت إلى جوارها وربتت على كتفها ولثمتها على رأسها، ثم هتفت بحنانٍ وعطف: "لمَ الحزن.. يا أم هشام؟!!"، لم تُبالي بها.. ولم تبادلها مودةً بمودةٍ، بل سكتت برهةً قبل أنْ تنفرج شفتاها ببطء عن صوتٍ تتهدَّجه الحشرجات والعَبرات: "أحزن.. لفقد.. ولدي!!".

- لم تفقدي ولدك.. يا سيدتي.. ولن تفقديه! (هتفت أم سعدون بثقة)
- بل فقدتُه مذ تركتُه يركض وراء ابن هشام وابن المغيرة.. حتى ضيَّعاه مني!
- فلتطردي عن نفسك اليأس والحزن، وشمِّري عن ساعديكِ واستردِيه منهما!

- .... (انعقد لسان أم هشام.. وألجمها النشيج والنحيب)، حالما استأنفت أم سعدون هاتفة بنبرة تحفيزٍ وتثبيت:
- حمدون يحتاج إليكِ اليوم –يا سيدتي- أكثر من ذي قبل، لابد أنْ تثبتي وتتشجعي لتشُدِّي من أَزْر ولدكِ في محنته!!
- لقد أسلمتُ أمري إلى الله.. وتركتُه لقدره! (غمغمت بمرارةٍ وحسرة)
- وما هو قدره؟!! مَن مِنا يعرف قدره؟ ومَن مِنا يعرف خبر الغد؟!(تساءلت أم سعدون باستهجان)؛ ثم أردفت هاتفةً بحماسٍ وعزم: "أقول لكِ كما كنتِ تقولين لي في الأيام الخوالي: نعرف منه بقدر ما نأمل فيه.. وبقدر ما نبذل له!".

سمعتا طرقاتٍ رقيقة على الباب؛ أدركت أمُ هشام أنَّها سلوان.. فاجتهدت أنْ تتماسك وهي تقول: "أُدخلي.. يا سلوان!"، دلفت الفتاة وحيَّت أم سعدون تحيةً موجزة بابتسامةٍ عابرة، ثم هرعت إلى معلمتها تطمئن عليها، رمقت جسدها فأحسته هزيلاً ضامراً، نظرت في عينيها.. فأبصرتهما ذابلتين حمراوين من أثر السُّهاد والبكاء، أشفقت عليها ورقَّت لحالها، تبادلت نظراتٍ شفيقةً آسفةً مع أم سعدون، ثم رنت إليها.. وهتفت برأفةٍ ورحمة: "إنَّكِ لم تأكلِ ولم تنمِ منذ الأمس.. يا أمي!"، ثم أردفت بنبرة تشجيعٍ وتحضيض: "ينبغي أنْ تتقوَّتي.. كي نتمكَّن من مواجهة.. هذه المحنة!".

- كيف تطعم بطني.. وتنام عيني.. ولستُ أعلم ما حال ولدي؟؟!
- ثقي بالله –يا سيدتي- واعلمي أنَّ ربكِ معه؛ هو خير منكِ ومن الجميع!
- لا أستطيع.. يا أم سعدون! لا تطاوعني نفسي.. يا سلوان؛ فما العمل؟؟! (جأرت في انكسارٍ كأنَّما تسترحمهما وتستنجد بهما)، فركعت سلوان أمامها وأمسكت يدها برفقٍ.. تساعدها في الوقوف، ثم أسندتها مع أم سعدون ثم أرقدتاها في فراشها، ثم خاطبتها سلوان هاتفةً بمودةٍ:
- إنَّكِ علمتني –يا أمي- أنَّ مَن يقنط ويستكين ويقعد عن العمل زاعماً أنَّ قدره هو اليأس من رحمة الله؛ إنَّما هو عبدٌ سيءُ الظن بربه، وعلمتني أنَّ المؤمن الحق

هو مَن يُشمِّر عن ساعدي العمل.. ويكافح وهو واثقٌ في رحمة الله ونصره وسخاء عطائه! وإني أحسبكِ مؤمنةً حقاً.. يا أمي! فهلمي.. قومي وادرئي عنكِ نزغات الشيطان.. ولا تشمتيه وأعوانه فينا!

– أصبتِ.. والله.. يا سلوان! (هتفت أم سعدون بنبرةٍ مشجعة)، ثم أردفت بشيءٍ من المواساة والتفاؤل: "ألم تقولي لي –ذات يومٍ.. يا سيدتي- أنَّه لولا اشتعال النار في الخشب لَمَا عُرف طيب عَرْف العود؟؟ ألا تشمين رائحته الزكية.. تملأ الحجرة! فإني –والله- أحسب سيدي حمدون طيب العَرْف كالعود، وهذه المحنة ما هي إلا نارٌ ذَكَت لتعلم قرطبةُ كلها طيب عَرْفه وطهارة أصله!

رنت إليهما بعيونٍ أضناها السهر والهَمُّ والبكاء، ثم أسندت رأسها إلى وسادتها، ثم جأرت هاتفةً بصوتٍ مُجهَد: "الحمد لله.. الذي وهبني صحبةً صالحة –مثلكما- تَحُضُّني على الخير.. وتُذكِّرني إذا نسيت! حقاً.. إنَّ المرء قليلٌ بنفسه.. كثيرٌ بإخوانه!"، في حين راحت أم سعدون تُضجِعها برفقٍ في الفراش.. وتُحكِم الغطاء حول جسدها، ثم ابتسمت لها وهي تقول بنبرة تحضيضٍ رؤوفة: "فلتستريحي قليلاً.. ريثما أُعد لكِ طعام الإفطار؛ فلن آكل أنا وسلوان.. إلا أنْ تأكلي معنا؛ أليس كذلكِ.. يا سلوان؟؟".

– بلى يا خالة! إنَّكِ في حاجةٍ إلى النوم والطعام.. يا أمي، حتى إذا رجع إلينا حمدون سالماً؛ سره أنْ يجدكِ بخير وبصحةٍ جيدة! (هتفت سلوان بحنان وتفاؤل)
– أ حقاً سيعود إليَّ ولدي.. يا سلوان؟!! (تساءلت بنبرة تمني)، فيما تجتهد سلوان أنْ تتجلَّد وتكبح عينيها عن الاستعبار؛ فأشاحت بوجهها عنها وهي تهتف بنبرة تفاؤل:
– إنْ شاء الله سيعود إليكِ سالماً سعيداً مطمئناً؛ ليس عندي شكٌ فيه!
– يا ربي! لا تُخيِّب رجائي.. وردّه إليَّ سالماً آمناً.. يا كريم! (جأرت أم هشام بتضرُّع)
– اللهم آمين! (ردَّدت خلفها سلوان وأم سعدون بخشوعٍ وسكينة)، ثم انصرفتا عنها هاتفتين: "سنعدُّ الإفطار، وننتظركِ لنأكل معاً.. بعد أنْ تستيقظي!".

****

-المشهد الثامن والأربعون-

لم تتوقَّع سلوان ولا أم سعدون أنَّ تستيقظ أم هشام من نومها سريعاً هكذا! بشَّت لها أمُ سعدون حالما أخذت سلوانُ بيدها لتُجلِسها –برأفةٍ- في الفناء كي تنعم بدفء شمس الضحى.. ريثما تهيئ أم سعدون والجاريتان سفرة الطعام.

كُنَّ يتناولن لقيماتٍ ضئيلة بينما يراقبنها خُفية؛ لم تكن تأكل بشهية.. وبالكاد كانت تضع اللقمة في فمها، ثم تظلّ تلوكها مدة قبل أنَّ تبتلعها كأنَّما تبتلع علقماً، بيد أنَّ أم سعدون –التي تعرف سيدتها جيداً- أيقنت أنَّ حالتها النفسية أفضل من البارحة.. وأنها في طريقها إلى التجلُّد ومواجهة الأزمة.. فهَبَّت تحفِّزها بإيجابية.. قائلةً:

- ألا ينبغي أنْ تذهبي إلى القصر لنستوثق مما ادعاه ذاك الحاجب عن حمدون؟!
- أجل.. ينبغي أنْ نعلم حقيقة الخبر! لكنّكِ تعلمين أني تناءيتُ عن قصر قرطبة منذ وفاة الخليفة المستنصر، وما دخلتُ إلى هناك مذ حينها!
- لكن.. الأمر الآن.. يستلزم الذهاب إلى القصر للاطمئنان على سيدي حمدون!! فإني لا أصدق حديثه الكاذب، ولستُ أصدق أنَّه يحب سيدي حمدون ويسعى لدرء الاتهامات عنه! أخشى أنها خدعة يُخادعنا بها؛ فينبغي التأكُّد من الخبر!!
- أظن يا أمي أنَّه ينبغي أنْ تقابلي الخليفة لتشتكي إليه مما فعله حاجبه معنا واقتحامه الدار.. وتعديه علينا بالسباب والشتم، وللردِّ على ادعائه الباطل على حمدون! (هتفت سلوان وقد انقبضت أساريرها وهي تتذكَّر مشاهد الأمس)
- إني لا أرجو خيراً من ذاكما الخليفة الملقَّب بالمهدي! (هتفت أم هشام بيأس وتأفُّف)، ثم استطردت بنبرة شك: "فما عساه يفعل.. إنْ قابلتُه؟!!"
- ينبغي أنْ نفعل شيئاً، يجب أنْ نسعى.. لاستنقاذ حمدون من يد ذاك الحاجب الغليظ المتجبر! (جأرت سلوان بتوترٍ مكبوت.. مشفقةً من التخاذل والإحباط الذَين تحسهما في نبرة حديث معلمتها.. وجدة حبيبها)

- لأجل سيدي حمدون.. يجب أنْ تذهبي إلى القصر.. يا أم هشام، عليكِ أنْ تقابلي الخليفة وتشتكي إليه! ومهما كان رأيكِ في الخليفة؛ فإنَّ ولاء سيدي حمدون له لا يخفى، ومناصرته إياه لا تُجحد.. مذ كان شبحاً مطارداً في الجبال!
- أصبتِ.. يا أم سعدون! بالله عليكِ.. يا أمي؛ ينبغي أنْ نسعى لمقابلة الخليفة، وإنْ شئتِ أتيتُ معكِ! (جأرت سلوان بإصرارٍ وعزم)؛ فالتفتت إليها أم هشام إعجاباً بإصرارها على إنقاذ حمدون.. وتعجباً من إظهارها ذلك متخلية عن تحفظها وخجلها السابقين؛ على أنْ سلوان تُقدِّر أنَّ الأمر أكبرُ من أنْ تُخفي حبها لحمدون.. وأجّلُ من أنْ تخجل من سعيها في إنقاذه، نظرت في عيني معلمتها واستأنفت تهتف دونما خجل: "لقد رأيتُ الحقد والضغينة يبرقان في عيني هذا الرجل الحاقد، وأخشى إنْ لم نسارع إلى استنقاذ حمدون من بين يديه أنْ يُدبِّر له مكيدةً تؤذيه.. لا قدر الله!".

هنالك قطع على سلوان حديثها طرقاتٌ على الباب الخارجي للدار.. وصوتُ صهيل فرس يأتي من خارجها؛ فأرهفت السمع هنيهة.. ثم صاحت: "ديجور!!"، نهضت تسعى إلى الباب الخارجي.. فيما عينا أم هشام تشيعانها بلهفةٍ وأملٍ واهن، وأم سعدون تهرول خلفها مصغية السمع لتتأكّد من صدق حدسها.

فتحت الباب فألفت رجلاً عظيم الجسم والرأس في هيئة وثياب حُراس القصر، رأته وحشاً عملاقاً مخيفاً.. مطأطئ الرأس؛ فوجف قلبها لوهلةٍ حتى شعرت كأنَّ خفقاته طبولُ حربٍ تقرع آذانها، بيد أنَّ الحارس العملاق رفع رأسه بعد أنْ أحس بقدومها.. فتلاقت نظراتهما، حملقت إليه في وجوم.. (نظراته البريئة الخجلى طمَّأنتها بعد أنْ روَّعها مظهره)، قدَّرت أنَّها تعرفه آنفاً؛ فشرعت تُفتِّش في ذاكرتها عن صورته: (إنَّه رفيق حمدون القديم الذي كان معه في جبل العروس قبيل ثورة المهدي! ماذا كان اسمه يا تُرى؟! لا أذكره! لكني أذكر أنَّه رجلٌ نورماني!!)، بينما تجتهد عيناها في تفتيش ملامحه بحثاً عن اسمه.. ابتسم هو على استحياءٍ.. وهتف بتوقير وتَأدُّب:

- السلام عليكم يا سيدتي، أنا.. طرسوس.. أحد حُراس القصر.. وصديق حمدون!

ردَّدت سلوان في خاطرها: (نعم.. تذكرتُك: طرسوس المجوسي!)، بيد أنّها ظلَّت مُطرقةً مرتابة.. وما لبثت أم سعدون أنْ لحقت بها فأجابته بنبرةٍ لا تخلو من اللهفة والترقُّب: "خيراً أيها الفارس.. ما بال سيدنا حمدون؟!"، انتاب الرجلَ الارتباكُ والتحرُّج، ولم يدرِ كيف يجيب؛ فأشاح بوجهه عنهما ومال بجسده الجسيم عن الباب وألمح بيده إلى ما وراءه؛ فتراء لهما مِن خَلْفه شبحُ حصانٍ.. كأنَّه ديجور (حصان حمدون). ضغطت سلوان بيدها على فمها لتكبت صرخةً كادت أنْ تنفلت رغماً عنها اشتياقاً وتلهُّفاً على الجواد الأصيل وصاحبه الغائب، في حين.. صاحت أم سعدون بانفعال: "لَعَمْري.. إنَّه ديجور! أين سيدنا حمدون.. أيها الفارس الشهم؟!"، لم يُجبها.. بل جَدَّ أنْ يُخفي عنهما ما في صدره من حزنٍ وألم.. وما يشعر به من تحرُّج. ثم تمتم بتَلعثُم.. بعدما تمالك نفسه بعض الشيء: "اسمحي لي يا سيدتي أنْ نُدخل الحصانَ إلى مربضه!"، فتقدمت أم سعدون بهمَّةٍ لتقوده إلى خَلْف الدار حيث الباب الخارجي للحظيرة قائلة: "تفضل.. من هنا!"، في حين ألمحت إلى سلوان: أنْ افتحي باب الحظيرة من الداخل.

هرولت سلوان إلى داخل الدار لتسألها عيونُ أم هشام الولهى.. بتلهُّف: "ماذا هنالكِ.. يا سلوان؟؟"، توقَّفت سلوان بين يديها.. ثم احتضنتها برفق، لثمت رأسها في حنان، ثم همست.. بنبرة تسكين: "أحدُ حراس القصر جاء ليطمئننا على حمدون، وأتى معه بديجور!"، نفَّست عن نفسها بزفرة ارتياحٍ.. ثم أردفت: "سأفتح باب الحظيرة لديجور!".

ولج ديجور إلى مربضه فشرع يحمحم حمحمةً خافتةً كأنَّما استأنس بعودته إليه، لم تملك سلوان أنْ أقبلت عليه تحتضن رأسه وتلثِم مَعرفته وتمسح على عُنقه.. كأنَّما تبثه شجونها وأشواقها، واستكان هو باطمئنانٍ وألفة إلى يديها الرقيقتين تهدهده وتداعبه.. وإلى دموعها الحانية تغسل وحشتها ووحشته. تركت أمُ سعدون الحصانَ

لسلوان، ثم أخذت طرسوس إلى قاعة الضيف بالجانب الجديد من الدار؛ فألفيا أم هشام تنتظرهما لدى الباب لتسأله بهلعٍ عن حمدون وأخباره.. وعمّا حصل له في القصر.. وعن سفره إلى قرمونة الذي أزمع عليه بأمرٍ من الخليفة.. وعمّا اتهمه الحاجب به زوراً!!

بيد أنَّ طرسوس لم يكن يملك الإجابة على هذه التساؤلات.. ولا على أي سؤال آخر يدور برأسها؛ إنَّما كان يراود عقله الخامل بعضُ شكوكٍ في شواهد يأسف لها.. مفادها: أنَّ (محمد المهدي) اختلف عمّا كان عليه في أيام الجبل الخوالي؛ لم يعد سيده وصديقه –محمد بن هشام بن عبد الجبار- ذلك المرواني الساعي لثأر أبيه.. الثائر على شنجول العامري كي يستعيد مُلك آبائه المروانيين، بل صار (المهدي).. الخليفة المتعجرف المتكبر.. المتنكر لخادمه الوفي (طرسوس).. الجاحد لبطولاته وتضحياته في سبيل ثورته وثأره. كذلك تساوره هواجسٌ خانقةٌ مفادها: أنَّ قصر الخلافة –الذي ينتظم هو في زمرة جنوده وحراسه- يموج بالمكائد والدسائس التي يشمُّ رائحتها دونما يعرف عن حقيقتها شيئاً. شيءٌ آخر يُحِسُّ به ولا يفهم له علة.. ألا وهو: قلبُ الحاجب عبد الجبار المترع حقداً وحسداً على حمدون، حمدون رفيق دربه القديم.. وصديقه الوحيد الذي يحفظ لصلتهما الوشيجة حقها، صلتهما الوشيجة التي حملته على أنْ يأتي إلى هنا اليوم.. ليُخبر جدته وأهلَه بالخبر الفاجع.. الذي فزع له قلبُه أسفاً وكمداً.

بيد أنَّ لسانه الآن عاجزٌ عن النطق به أمام هذه الجدة الولهى.. الواجف قلبها ترقُّباً وهلعاً. أخرست الحيرة لسانه.. ألجمت تفكيره.. وشلَّت عقله: (كيف أُخبرها؟ ماذا أقول لها؟ إنَّها امرأةٌ عجوز؛ لن تتحمل الصدمة! لن أخبرها؛ إنْ أخبرتُها.. فسيقتلها الخبر!). لم تزل تُلح عليه بالأسئلة المرتبكة والتساؤلات الفزعة، لم تعِ أذناه من حديثها المتخبِّط شيئاً، لم يسمع منها غير نحيب يصرخ.. كأنَّما تقول: (أخبرني الحقيقة.. وإياك أنْ تكذب، أخبرنيها بوضوحٍ دون مواربةٍ.. ولا تتردَّد في مصارحتي بها مهما كانت فاجعة!). لم يتق صبراً، ولم يعد يحتمل كلمات الأم القلقة المُلْتاعة؛ فاندفع صائحاً دون مواربة:

"لقد سجنوا حمدون في.. سجن المطبق[1]!"، صرخ بها صريحة مقتضبة، ثم سكت.. فسكن كلُ الكون حول أم هشام!

****

-المشهد التاسع والأربعون-

لبثت أم هشام يوماً آخراً.. وليلته تضرب كفاً بكفٍ حيرةً وارتياعاً، لم تطعم طعاماً أو تشرب شراباً.. ولم يخاطب لسانها أحداً، إنَّما لبثت يومها جله واجمةً مرتبكة.. لا تدري ماذا تفعل، ومع ذلك فإنَّ لسانها لم يزل رطب بذكر الله والاستعانة به.. ولم تفتر عن قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، ما انفكت تتذاكر –في مخيلتها- الخبر المشئوم الذي جاءها على لسان طرسوس: (سجنوا حمدون في سجن المطبق!)؛ (هكذا ببساطة.. يسجنون ولدي ليحرموني منه البقية الشحيحة من عمري، رموه في بئرٍ سحيقٍ.. بعيد قعره.. لم يدخله رجلٌ حي إلا خرج منه ميتاً! يا حسرتي عليك.. يا وحيدي!!)، (يمين الله.. إنني لمحزونة؛ لكن.. لا أقول إلا ما يُرضي ربي.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!).

ابتسمت ابتسامةً مُرةً ساخرةً حالما تردَّد في خاطرها قول طرسوس الساذج وهو يبرر لها عِلَّة إحضاره ديجور إلى الدار: (إنَّه حصانٌ مُطَهَّمٌ؛ فخشيتُ عليه أنْ يطمع فيه الحاجب عبد الجبار.. فيستأثر به لنفسه.. بعد أنْ سجن حمدون.. فجئتُكم به قبل أنْ يفطن أحدٌ إليه فيخبره عنه!)، تمتمت بمرارةٍ وحسرة كأنَّها تخاطب طرسوس: (ليتك تركتَه له.. أيها الفارس! هل يعزيني حصان ولدي.. عن فقده؟!!).. وصارت تبكي ليلها ونهارها.. كأنَّما لم تبكِ من قبلُ.. إلى أنْ أشفقت عليها سلوانُ ومَن معها أنْ تهلك

---

[1].. هو سجن تحت الأرض شديد الحراسة، كان مشقوقاً في جوف خندق أسفل قصر الخلافة بقرطبة.. ليكون نزلاؤه قريبين من الخليفة زيادة في تشديد الرقابة والحراسة عليهم نظراً لخطورة جرائمهم من وجهة نظر مَن أمروا بسجنهم، وكان سجناء هذا السجن في الأغلب من الذين تمردوا على الحاكم أو حاولوا الانقلاب عليه.

نفسها كمداً وحزناً؛ فجعلن يواسينها وينصحنها بالتجلُّد والتمسك بالصبر؛ على أنَّها لم تستجب لمواساتهن.. ولا نصيحتهن!

في صباح اليوم التالي تلاقت عيناها الذابلتان الحمراوان بعيني سلوان المسهودتين؛ أخذت عيون سلوان تتوسَّل إليها ألا تبتئس وأنْ تكف عن البكاء والنشيج.. وأنْ تفيق من أحزانها اليائسة لتفعل شيئاً إيجابياً لأجل حمدون، تسترحمها كأنَّما تقول: (كفى تخاذل وتردُّد، هَلُمِّي بنا إلى القصر، إلى مقابلة الخليفة! ذرينا نفعل أي شيء لإنقاذ حمدون، حتى ولو خالفنا ما عاهدتِ نفسكِ عليه آنفاً! بالله عليكِ يا سيدتي.. لا تتركي حبيبي يضيع مني.. كما رحل عني أبواي!!)، قبيل الظهر.. انتفضت أم هشام كأنَّما تنفض عن جسدها غبار الأحزان القاتم، أو كأنَّما رقت لتوسُّلات سلوان الصامتة، ثم هتفت بعزيمةٍ وحسم: "هَلُمِّي بنا.. يا سلوان.. نغدو معاً إلى ذلكِ القصر! فلن أدع لهم ولدي يُهلكوه، يجب أنْ أُكافحهم.. وأُخلِّصه من أيديهم، والله معنا.. هو حسبنا ونعم الوكيل!". اضطربت سلوان.. بل طربت، وتهلَّل وجهها بمجرد ما سمعت مقالتها، واستبشرت أم سعدون خيراً، وما عتَّمتا أنْ تهيأتا للخروج، ثم انتظمتا في سبيلهما إلى قصر الخلافة؛ وقلوب أم سعدون والجاريتين يشيعونهما بالدعاء والتمني!

****

-المشهد الخمسون-

فيما يقبع عبد الجبار في مجلسه بقصر الخلافة.. يفرك كفيه سروراً واغتباطاً لتمكُّنه من إقناع المهدي باستمرار حبس المؤيد في مخدعه.. وانتقال حمدون إلى سجن المطبق حيث سيتم التحقيق معه في أمر الصندوقين؛ وسيشفي صدره بإذلال حمدون والتنكيل به، بينما هو على تلك الحال.. إذ استأذن عليه أحدُ حراس بابه ليقول:

- سيدي الحاجب! امرأتان بالباب.. تقول إحداهما أنها فاطمة المروانية.. جدة السيد حمدون.. وترغب في مقابلة الخليفة المهدي حالاً.. لأمرٍ هام!

- مقابلة الخليفة حالاً لأمر هام.. ودون أنَّ تلقاني.. **أنا** الحاجب؟! (هتف متسائلاً بسخرية وتهكم)، ثم استطرد آمراً بجفاء وصلف: "اطردوا هذه العجوز البلهاء!".
- أمرك.. سيدي! (هتف الحارس بإذعان وتعظيم)؛ ثم استدار لينصرف.. بينما استرجع عبد الجبار الكلام في خاطره.. وسرعان ما استدرك وناداه متسائلاً:
- أيها الحارس! تقول أنهما امرتان؟! مَن المرأة الثانية؟؟!
- لا أعرف.. يا مولاي! (جأر الحارس بتأدُّب بعد أن استدار ليواجهه توقيراً له)؛ فراح عبد الجبار يتطلَّع إليه كأنما يحاول أن يقرأ صفحة الغيب على وجهه.. فقد خطرت له خاطرة: (عساها تكون الفتاة (قريبة قاضي اشبيلية)، ينبغي ألا أضيِّع فرصة رؤيتها مرة ثانية!!)؛ فاستدرك متسائلاً بعد برهة من التفكُّر:
- هل المرأة الأخرى: فتاةٌ شابة؟؟
- لا أعرف.. يا سيدي.. إنهما تستتران بالحجاب والنقاب!
- إنَّك أحمق.. لا تعرف شيئاً! (صاح مستاءً بتأفُّف)؛ ثم لوَّح بيده قائلاً ببرود وبامتعاض مصطنع: "جئني بهما.. لأنظر في أمرهما!".
- سمعاً وطاعةً.. أيها الأمير!

دلفتا إليه.. فابتدأ يرنو إليها ويتأملها؛ فعرفها رغم البرقع الذي يستر وجهها؛ عرفها من بريق عينيها؛ هما ذاتهما.. عيناها اللتان سحراه في منامه.. هما ذات العينين الهدباوين.. وهنَّ ذات الأهداب التي سُدِّدت إلى قلبه فأصابت منه السويداء.. وغادرته أسير صبابة وهيام. بيد أنَّ أم هشام لم تمهله كي يبثها لوْعَات نفسه؛ إنما بادرت إليه لتقول في حِدة: "أين ولدي.. يا عبد الجبار؟! أين حمدون؟!". لم ترق له حدتها.. وشعر أنها تهين كبره وكبرياءه؛ فشارف أنْ يهمَّ بها لولا أنْ رأى سلوان تتشبث بها وتُكبِرها؛ فتمالك نفسه.. وخفض لها جناحه تجمُّلاً أمام سلوان.. فخاطبها بنبرة رؤوفة قائلاً:

- اجلسي أولاً.. يا جدتي.. واهدئي ولا تجزعي!
- لن أهدأ.. ولن أجلس قبل أنْ أطمئن على حمدون.. وحيدي!

- اطمئني عليه.. أيتها الجدة.. فهو بأمان، كل ما هنالكِ أنه رهن التحقيق.. هنا في القصر.. كما أخبرتُك آنفاً، وثقي أنني لن أتخلى عنه! (هتف ليتجمَّل أمام الفتاة سلوان.. لا ليُطمئن قلب الجدة الوَجِل)، ارتجفت أم هشام استهجاناً وصاحت:
- رهن التحقيق.. في القصر؟! وتزعم أنَّك لن تتخلى عنه؟! ألا تعلم -يا هذا- أنَّ حمدون مسجون في المطبق منذ يومين؟!
- كيف عرفتي؟!! (تساءل بتردد.. وقد أربكته المفاجأة؛ فلم يكن يتوقَّع أنها تعرف عن هذا الخبر شيئاً)؛ ثم سكت.. وقد تسربت الرهبة إلى قلبه تهيباً من تلك المرأة العجوز التي كان يحسبها امرأةً ساذجة غافلة.. وقذتها العبادة وشغلها طلب العلم عن الدنيا؛ لكن ها هي ذي الآن تصارحه بعِلمها خبر حفيدها الذي يخفى على كثيرين من أهل القصر أنفسهم، ثم تساءل في خاطره مُتوجِّساً: (كيف علمتْ بالنبأ بهذه السرعة؟ وكيف تخاطبني بهذه الأنفة والإباء دون أن تخاف بطشي وسطوتي؟! تُرى ما علاقتها بالقصر؟! هل لها عيون وجواسيس هنا.. داخل القصر؟! كنتُ أظنها امرأةً ساهية.. فإذا هي امرأةٌ داهية.. ذات مكرٍ وكيد!!).
- لا تسألني كيف عرفتُ! (صاحت بصرامة)؛ ثم استأنفت صائحة بنبرة انفعالٍ وتحدي: "بل أنا أسألك: كيف طاوعتك نفسك أنْ تسجن ولدي بغير ذنبٍ ولا جريرة؟! أليس لك وازعٌ من دينٍ أو ضمير؟! ألا تصون الرحم التي بيننا؟!".
- لستُ أنا من سجنتُه! (غمغم بانكسار مرتبك)؛ أطرق لحظاتٍ حاول خلالها أن يستجمع شتات أفكاره.. ثم استطرد هاتفاً بتلعثم: "الخليفة.. الخليفة المهدي هو مَن أصرَّ على حبسه في المطبق.. وأبعد من ذلك: لقد أمر بسجن المؤيد في المطبق هو الآخر! الوشاة.. الوشاة –يا جدتي- فعلوا بعقله الأفاعيل!!".

ما انفكت تحدجه بذات النظرات الثاقبة الفاحصة التي كانت ترمقه بها في الزمن الغابر ساعة كان يرتكب إثماً وهو صبي صغير يتعلم العلم بين يديها؛ تلاقت عينه بعيونها الصارمة فشعر كأنها تُجرده من كبريائه وسلطانه.. كأنها تنزع عنه غطاء تلك السنين الطويلة التي ظن أنها طوَّت هيبتها ورهبته منها؛ فانكشف ستره بين يديها..

واكتشف –رغم مرور تلك السنين- أنها هي كما هي.. (فاطمة) المعلمة الحازمة ذات الهيبة والصرامة، وأنه هو كما هو.. (عبد الجبار) الصبي الآثم الكذوب! حوَّل بصره عنها.. وقام من مجلسه ليدور حولها في خطواتٍ وئيدة كأنما يحاول أن يتحرر من قيد نظراتها المخيفة.. تلفَّت في المكان من حوله ليُنبِّه ذاته بأنه لم يعد ذلك الصبي الصغير؛ بل صار هذا الحاجب العظيم الذي تقوم الدنيا بأمره.. ولا تقعد إلا بعد إذنه، استعاد بعض ثقته بذاته.. وهمَّ أن يجيب نظراتها التي زلزلت كبره وسلطانه بعقابٍ مهين؛ بيد أنَّ رغبته في التجمُّل أمام سلوان خوَّرت عزمه.. فآثر أن يستمر في لعب دور الحاجب الطيب الحكيم الذي يسعى بحكمته وجاهه لإنقاذ حمدون صلةً لرحمه ورأفةً بالجدة العجوز؛ فاستأنف محاولاً ستر ارتباكه ورهبته بلباقة ركيكة:

- لكن.. لا تجزعي يا جدتي! **فأنا** لن أدع حفيدكِ لهؤلاء الوشاة، وسأتولى **أنا** بنفسي التحقيق معه.. وسأُثبتُ أنه ليس له يد في تلك المؤامرة الخسيسة، ولو استدعى الأمر سأُخاصم فيه المهدي.. وإنْ لم يأذن بإطلاق سراحه؛ فسأُطلقه **أنا** بنفسي!

لم يقصد بتلك الكلمات الجوفاء طمأنة فاطمة على حفيدها –رغم تظاهره بذلك- بقدر ما كان يقصد التباهي بجاهه وسلطانه أمام سلوان. بيد أنَّ سلوان كانت تسمع كلماته.. وتراقب حركاته بكثيرٍ من الاشمئزاز؛ وزادها اشمئزازاً لفتاتُه المتلصِّصة إليها، فصار كلما تكلَّم ليزداد تجمُّلاً أمامها؛ ازداد قبحاً في عينها، وكلما اختلس النظر إليها من وراء جدة حبيبها؛ ازدادت نفوراً منه ومقتاً لسلوكه، بل.. وهَمَّت أن تصيح فيه مغتاظة لتنهره وتؤدبه؛ لولا أن تذكَّرت حمدون وتَحكُّم هذا العتل البغيض في مصيره، كظمت غيظها.. واكتفت بغض الطرف عن نظراته الخبيثة وتجاهلها والإعراض عنه. أما الجدة: فلم تُصبِّرها كلماتُه الجوفاء؛ وإنما صاحت بجدية وصرامة:

- إذاً! أطلقه الآن.. أيها الحاجب! ولك عليَّ عهد الله إنْ خرج معي الحين إلى الدار ألا يُغادرها إلى أي مكان إلا بإذنكم.. إلى أن تنتهي تلك التحقيقات المزعومة!
- رُوَيْدَكِ.. أيتها الجدة! فقط.. أمهليني بضعة أيام! (هتف بتلعثم مرتبك)

- بضعة أيام؟؟ ألستَ صادقاً في عزمك يا رجل؟!! (تساءلت باستنكار وتشكك)
- بلى.. نيتي في إطلاق حمدون صادقة.. لا مراء فيها! (هتف بتردد)؛ ثم استدرك قائلاً: "على أنَّ الأمر ليس بهذه السهولة؛ فإني لا أُفشي سراً إذ أخبرتُك أنَّ المهدي يخشى مؤامرةً كبرى تُحاك ضده.. وفتنةً خطيرة يشك أن بعض قومه المروانيين ضالعون فيها! ألا تعلمين.. يا جدتي.. أن بعض الأقاليم لم تُرسل كُتب بيعتها للمهدي؟ ولذا فهو قلقٌ مضطرب؛ فينبغي أن نلتمس له العذر.. ونمهله بعض الوقت!!".
- وما شأني –أنا وولدي- بهذا الذي تقول؟! (هتفت بعدم اكتراث)
- كيف ليس له شأن؟! (تساءل بشيء من التهكُّم)؛ ثم استطرد كأنما يغيظها: "إنَّ حمدون رجلٌ من رجالنا.. وهو عامل مرموق من عمال القصر! ولابد للخليفة أن يطمئن: هل هو معه.. أم مع خصومه وأعدائه!!".
- وأيم الله.. قد نبَّأتُه أنه لن يصيبه معكما غير الشر والأذى! حسبنا الله ونعم الوكيل!! (جأرت بأنين مكتوم يتهدجه النشيج)؛ فقد خانها تماسكها.. وأشفى ثباتها على الانهيار جزعاً على وحيدها، وأشفت دموعها على أن تتدفق تحت قدمي هذا المتكبر المتعنت لتتوسل إليه أن يرحم ولدها ويشفع لها وله عند خليفته؛ لولا أن ثبَّتها الله وربط على قلبها بوقوف سلوان جوارها ومواساتها لها؛ فتجلَّدت أمامه لتستر جزعها عنه خلا ما سمع في نبرة حديثها من حشرجة النشيج. إلا أنه لم يرحم قلبها المكلوم ولم يرأف لحالها؛ بل على العكس.. شعر بلذة كبيرة حالما أحس في نبرتها بشيء من الضعف وعجز الحيلة، وغمرته نشوة الانتصار لمَّا رأى دموع الوله تتلألأ في عينيها، ومضى يختلس النظرات الخفية لسلوان لعله يرى في عينيها إعجاباً به وبكبريائه وسطوته وسلطانه، بيد أنها كانت في شغلٍ عنه وعن غروره الصبياني المقيت بمصيبتها في حبيبها ومعلمتها! تنبَّه إلى أنَّه يجب أن يقسو على تلك العجوز التي وصفته تواً بالشؤم.. فاعتدل في مجلسه وصاح بجفاء وصلف:

- حاذري مما تقولين يا أم هشام.. فإنَّ صبري.. قد ينفد!!
- رفقاً بها.. أيها الحاجب.. فمُصابها في وحيدها كبيرٌ! (هتفت سلوان محاولةً أن تخفف وطأة صلفه وجفاءه عن أمها)؛ فطرب وجدانه لسماع صوتها.. ووقع كلامها في قلبه وقوع السحر؛ فرنا إليها هنيهة.. ثم هتف بطرب واضطراب:
- ألا تسمعي مقالتها.. يا آنستي؟!! (ثم استطرد مُتفاخراً): "إنها تتهمني بالشر والإيذاء.. وهي تعلم أني الواصل لرحمي.. البار بأهلي، وها أنا ذا.. مع ما صرتُ إليه من رفعة منصب وعلو مكانة.. أستقبلها في مجلسي وأضع لها جناحي لأسمع شكواها؛ ثم تتهمني؟ هل هذا يليق؟!!".
- أسألك بالله.. يا عبد الجبار.. وبالرحم التي بيننا أنْ تُطلق ولدي الآن.. وإنْ لم تفعل؛ فذرني ألقى الخليفة أتشفع عنده! (هتفت غير مكترثة لغروره وتفاخره)
- ويلكِ يا امرأة! أوا تناديني باسمي مجرداً مرة أخرى! اسمعي.. يا فاطمة.. لن تُجدِي شفاعتك شيئاً! وإنْ أردتِ النجاة لولدكِ؛ فليس لكِ إلا بابي! (صاح حانقاً.. متأذياً من عدم اكتراثها لكبريائه.. وعدم تعظيمها لشأنه)
- بل باب الجبار مفتوح ليتضرع إليه عبادُه! يجبر كسر المظلوم.. ويقصم كبر الظالم! (صاحت تخوّفه بالله.. وقد نفد صبرها على صلفه وغروره).
- لولا أنكِ امرأةٌ عجوز!! (صاح وهو يضغط على أسنانه ضجراً وحنقاً)؛ ثم استأنف: "ليس لولدكِ عندي غير نزاهة التحقيق؛ فإنْ تجلَّت براءتُه من التهمة.. عاد إليكِ راشداً. أما أنتِ.. فاغربي عني.. قبل أن ينفد صبري.. وتصيبكِ نقمتي!!".

****

-المشهد الحادي والخمسون-

قعد الخليفةُ المهدي في إيوانه.. كالح الوجه ضائق الصدر مهموم البال.. يُقلِّب المسألة في رأسه.. فلا يرتاح لرأي مما أشار به وزراؤه ومستشاروه؛ فعلى الرغم من أنَّهم ذوو خبرةٍ كبيرة في سياسة الدولة.. ومشهود لهم بالكفاءة العالية والرأي السديد.. إلا أنه

مازال لا يرتاح لأحدٍ منهم ولا يطمئن لرأيه، والعِلَّة في ذلك –من وجهة نظره- أنهم رجال الدولة القديمة.. دولة المنصور بن أبي عامر! نعم.. فبالرغم من ثورته على شنجول والعامريين.. ورغم طرده للبربر من جيش الدولة إلا أنه لم يتمكن إلى الآن من الاستغناء عن رجال الدولة العامريين أمثال: أحمد[1] بن سعيد بن حزم وأبي الحزم جَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر.. وغيرهما، حتى قاضي القضاة لا يزال هو القاضي أبو العباس أحمد بن ذكوان.. قاضي قضاة بني عامر. والحق.. أنَّ هذا ليس هو الموجب الحقيقي لعدم اطمئنانه لهم؛ بل الأمر أكثر تعقيداً من ذلك: إنَّه شيءٌ في وجدانه.. إنَّه شعورٌ بالدونية والضآلة يشعر به.. فيتأذى به كلما تكلم مع رجلٍ منهم؛ فلقيه أوجه منه.. وأعلم منه بأمور الحُكم والسلطان، أو يتضجر به كلما أراد أن يتخذ قراراً كخليفة الأندلس؛ فينهاه أحدُهم.. وينصحه بالتراجع عن قراره لأنه قرارٌ غير صائب.. بحجة أنه رجل دولته الأمين ومستشاره المخلص.. وأنه أكثر منه خبرةً وإلماماً بأمور الدولة وأسرار سياستها؛ فلا تكون له حيلة إيذاء تلك النصيحة المقيتة -التي يعض منها الأنامل ضيقاً وتبرماً- غير الرضوخ والإذعان!! (إلى متى تبقى الحال كتلك الحال؟! إلى متى أظل ضيفاً على عرش جدي ومملكته؟! إلى متى يظل وزراء بني عامر هم من يحكمون الأندلس!! وغلمانهم هم من يتحكمون في القصر وأهله.. فضلاً عن قلوبهم التي تحب المؤيد وتباركه!!)، يقبض على لحيته بيسراه تجهماً وتحيراً.. ويعض يمناه سخطاً ومقتاً.. ثم يهتف في طويته ساخراً: (وها هي ذي الطامة تأتي بولوج أحدهم إليَّ.. هأ.. ليذكِّرني أنَّ بيعة الأقاليم لم تتم حتى الحين.. ويزعم أنَّ ذلك يُضعِف موقفي إذا تمسَّكت تلك الأقاليم بولائها للمؤيد.. رغم إعلامهم بتنازله لي عن الخلافة طواعيةً!!)، (آه.. آه!! تباً لك أيها الكلب!! تأتيني كأنَّك تنصحني.. بينما التهديد يكمن في طي نصيحتك.. كمثل الشيطان يأتي للإنسان مستتراً برداء القديس!! أيها الوغد.. أيها الأوغاد!! لا محالة يجب أنَّ أقضي عليكم قاطبةً! لكن.. كيف؟ كيف؟؟)، (لابد من رجالٍ أثق بهم وأعتمد عليهم في المرحلة المقبلة! لكن.. مَن.. مَن؟؟).

---

[1] : والد الإمام علي بن حزم الظاهري.

مضى يفتش وينقب في ذاكرته عن رجالٍ.. أو رجلٍ يثق به ليتكئ عليه في مواجهة رجال الدولة القديمة الذين يخشاهم، تراءت له وجوه أعوانه القدامى ورفقاء الجبل.. وأولهم: حمدون بن هشام! (كلا.. حمدون ليس رجل الساعة؛ إنه رجل حرب.. لا رجل سياسة، ثم إنه يتعاطف مع المؤيد؛ لم أعد أثق في ولائه!!)، (طرسوس: إنه يملك جسد ثور.. وعقل عصفور؛ لا يصلح أكثر من أن يكون حارساً لشخصي.. أو حاجباً لبابي!)، (فرتون: مثل طرسوس.. فضلاً عن أنه فتى مريب غامض.. لم أثق فيه مذ عرفته!)، (عبد الجبار بن المغيرة وأخوه محمد: هما أول الغادرين.. مثلهما في ذلك مثل سليمان ولي عهدي.. وأبيه هشام.. وسائر المروانيين!)، (ويحي من خليفةٍ بائس! ملكٌ بلا أعوان؟! ألن أجد في الأندلس جميعها رجلاً يحمل عني هذا العبء؟؟!)، خطرت على قلبه ذكرى (صاعد بن عبد الوهاب الحرار) حينما كان يخطب في الثوار يوم اقتحامهم القصر؛ فعَلِقَ يتذكر في مخيلته تلك الأيام الصعبة الهنيئة: كان ثائراً مغامراً.. لم يثنيه عن عزمه أحدٌ.. واستطاع بأعوانٍ من عامة الناس ودهمائهم أن يُسقط تلك الدولة الراسخة –دولة بني عامر-؛ إذاً.. حل المسألة عند الدهماء؛ هم كانوا وقود ثورته.. وهم مَن أجلسوه على العرش؛ وبهم سيبقى ذاك العرش ثابت الأركان! (ليس لها إلا صاعد.. وأمثاله من الدهماء؛ فلأستدعيه!!).

*****

أُستدعي صاعد إلى قصر الخلافة على غير ميعاد السمر؛ فتوجس قلبه.. وخشي أن يكون ذاك الاستدعاء لخطأ أخطأه.. أو بوشاية واشي؛ فأقبل إلى لقاء الخليفة خائفاً يترقب، وزاده وجلاً أن علم أن الخليفة يريد لقاءه وحده، وزاده قلقاً وجزعاً أن خرج عليه الخليفة.. فاختلس النظر إلى وجهه على استحياء؛ فألفاه مكفهر الوجه.. منقبض القسمات، لمَّح إليه الخليفة: أن اقترب من سريري، ثم أمره بالجلوس قريباً منه؛ فقعد.. ترتعد فرائسه تحت ثيابه، مرت عليه برهةٌ صامتةٌ كأنها عمرٌ ثان.. كاد الهلع فيها يأكل قلبه.. ثم بدأه الخليفةُ بالكلام فقال:

- اعلم –يا صاعد- أنني لم أجحد لك حُسن مساندتك لنا في ثورتنا على شنجول والعامريين، ولم أنسَ لك إخلاصك وولائك؛ ولأجل هذا قرَّبتُك مني.. وضممتُك إلى مجلس سمري.. وصيَّرتُك من ندمائي!
- مولانا أمير المؤمنين هو صاحب الفضل والمِنة!! (هتف بثناءٍ مضطرب)
- على أنِّي أريد منك أكثر مما أنت عليه!!
- رأسي.. وجسدي الذي يحمله.. فداءً لسيدنا! (هتف بتزلُّف يواري به جزعه)
- أريد أن أمنحك منصباً في دولتي.. سأجعلك -رسمياً- مستشاري الخاص!
- هذا كرم عظيم من أمير المؤمنين!! (هتف شاكراً.. ولم يكد يستوعب المفاجأة)
- وإذا أبديتَ الكفاءة.. وأديتَ الأمانة سأمنحك الوزارة.. وبالتأكيد سيزيد عطاؤك من بيت المال. فما قولك؟؟
- قولي؟!! ماذا أقول لسيدنا غير الثناء الجميل والشكر الجزيل؟!! وماذا أفعل إيذاء جودكم وسعة عطائكم حاشا أن أُقبِّل الأرض بين أيديكم؟! (هتف بها بحماسٍ وفرحٍ زائدين).. وخرَّ ليُقبِّل قدمَ سيده الذي مدَّ له يده ليرفعه عن الأرض وقد انفرجت أساريره غبطةً وبهاءً.. ثم خاطبه بوقار الملوك قائلاً:
- لا أريد منك تقبيل الأيدي والأرجل؛ بل أريد المشورة السديدة.. والعزيمة الأكيدة! أريد منك الولاء والوفاء.. والاجتهاد والإخلاص في الرأي والعمل!

سكت برهة.. طارحته فيها سريرته: (يا للمفارقة! افرح.. يا صاعد! لقد جئتُ مُشفقاً من وشاية الوشاة، خائفاً من البطش والعقاب؛ فإذا بي أجد الأمن والأمان.. والجاه والثواب! تيقظ –يا صاعد- ولا تُضيِّع الفرصة.. فقد دانت لك الدنيا!)، ثم انطلق لسانه يُجيب الخليفةَ بلباقته وتزلفه المعهودين:

- ستجدني –يا أمير المؤمنين- أخلص رجالك لك.. وأنبههم في الذب عن مُلكك!
- إذاً.. فإنَّك من الحين قد توليتَ عملك! وإليك أُولى المسائل التي أستشيرك فيها!
- كلي آذانٌ تُصغي إلى أمير المؤمنين!! (هتف والنشوة والفرح يتلألآن في عينيه)

- بـالأمس جـاءني أحـد وزرائي الأكـابر.. وأحسـبه أحـد الموتـورين الـذين لا يزالـون يبكون على بني عـامر! (قالهـا بنبرة تهكـم وسخرية)، سكت هنيهـة.. ثـم اسـتأنف هامساً: "ليس هـذا شـأننا الحين! غاية القـول: أنه جاءني ليُذكِّرني بأنَّه –إلى الآن- لـم تـتم بيعتي بالخلافـة في أغلـب أقـاليم الأنـدلس.. ويُرهِّبني مـن مغبـة ذلـك! فمـا رأيك؟؟".
- وهل خبره صحيح يا سيدنا؟؟! (تساءل بتردد مكبوت).. وقـد اسـتفاق مـن نشـوته إلى فداحة المهمة.. وعِظم المسئولية التي أُلقيتْ على كاهله.
- للأسـف.. لـم يسـارع في مكاتبتنـا بالسـمع والطاعـة.. غـير واضـح الصـقلبي (أمـير طليطلة)؛ فلقد وصلنا كتابه ببيعته هـو ومن تحت يده فـور استوائنا على سرير الخلافـة، أمـا الآخـرون.. فـلا يزالـون يتلكؤون في البيعـة ويسـوفون في إشـهارها.. ويمتنعون عن إرسال كُتب الولاء والطاعة!
- أعلـم أن هـذا القائـد (واضـح الصـقلبي) ينـاصـر مـولاي الخليفـة منـذ البدايـة، ولـم أنـس لـه أنـه أغلـق طليطلـة في وجـه شـنجول وجيشـه.. ممـا سـاعدنا في الانتصـار عليه.. واستئصال شأفته!
- أجل.. أصبتَ! وأنا –أيضاً- لن أنسى للقائد (واضح) تلك المكرمة؛ لكن.. الآخرين.. ماذا أفعل معهم؟؟ لقد احترتُ في أمري –يا صاعد- ولذا.. فإني اطلب مشورتك!!

تـردد صـاعدُ مليـاً.. وغشـيته الحيرةُ والرهبـة قبـل أن يتهـرب مـن إجابـة سـيده متسـائلاً بنبرة إنكار ذات وتواضع مصطنعة:

- هل ينصرف أمير المؤمنين –أطال الله بقاءه- عن عقول أكابر الدولة.. وحكمائها – أمثـال ابـن حـزم وابـن جهـور- ثـم يطلـب مشـورة تـاجر بسـيط مثلي مـن عامـة الناس؟!
- نعم! أنت عندي خيرٌ منهم! إنما هم رجال دولة اصطنعهم الهالك ابن أبي عـامر لنفسه وولده من بعده، وأحسب أنهم على ولائهم له، وما أرى غير أنهم موتورون.. يتمنون هلاكي وذهاب دولتي انتقاماً لما فعلتُه بسيدهم شنجول العامري! أما أنت:

فإنك رفيق ثورتي.. وقد امتحنتُ ولاءك في الملمات آنفاً؛ فما ازددتُ فيك إلا ثقةً؛ لذا فإني أرجو استبدالك بهم كافّة.. لكن بعد حين.. فلكل أجلٍ كتاب!

- ثقةُ سيدنا شرفٌ عظيمٌ.. وأمانةٌ جسيمة.. أسأل الله أن يمكنني من القيام بها!
- هَلُمَّ!! أشر عليَّ كيف أُثبِّت أركان مُلكي.. وأبسط سلطاني على سائر الأندلس!
- أمهلني –يا أمير المؤمنين- بعض الوقت للتفكير والتدبر.. فالأمانة كبيرة.. والأمر خطير! (هتف بها متلعثماً بعد برهة من الصمت والتردد)
- أمهلتُك ساعة.. ولن تغادر هذا المقام حاشا أن تأتيني بالمشورة الصحيحة والرأي السديد، ولديك الخدم هنا كُثُر؛ فاطلب ما شئت من طعامٍ وشراب!
- أمر سيدنا نافذ!! (هتف مذعناً مستسلماً)، فيما نهض الخليفة مغادراً المجلس إلى بعض شئونه الأخرى بالقصر.

****

-المشهد الثاني والخمسون-

خرجت أم هشام من القصر تجر أذيال المرارة والإحباط، قد أذهلها الحزن واليأس عمن حولها فتركت يدها لسلوان تقودها حيث تشاء.. إلى أنْ انتظما سيراً على رصيف الوادي، وسارت بها إلى جوار النهر، تطلَّعت إليه وإلى ضفافه الغنَّاء.. وتنشَّقت نسماته العطرة، ثم انحرفت إلى شجرةٍ باسقة على جرف النهر لتجلس تلتقط أنفاسها تحت ظلها، تأمَّلت المشهد؛ وعلى ما بها من همٍّ وحزن.. داعبتها الذكريات عفو الخاطر؛ فتذكرت: ذاك النهر وهو يحتفل مع قرطبة بيوم الختان، وذاك الرصيف الذي كان يَعِجُّ بالأهالي والمحتفلين؛ كان يوم ختان هشام (المؤيد) ابن الخليفة المستنصر.. وهشام (ولدها)، وسليمان[1]. تذكَّرت ذلك اليوم، يوم كانت تحتفل هنا –في ذات المكان- منذ أكثر من أربعين عاماً، كانت تُوزِّع –بنفسها- ومعها ظبية (أم سليمان) على

[1] : هو: الخليفة المستعين بالله –بعد ذلك-، واسمه: سليمان بن الحكم بن سليمان بن الخليفة عبد الرحمن الناصر، وكنيته: أبو أيوب. (سيأتي ذكره في هذه الرواية.. لاحقاً).

الناس صنوف الحلوى وألوان الطعام.. احتفالاً بولديهما وبولد الخليفة المستنصر، ثم أفاقت من سكرة الذكريات السعيدة على الواقع الكئيب، وَجَف قلبها.. والتفتت إلى سلوان.. ورنت إليها ملياً.. ثم همست بإعياء:

- عُدنا بخفي حُنين! لن يَصْدُق هذا المغرور في وعده؛ والدليل أنه صدَّنا عن لقاء خليفته، بل.. إني -والله- أخشاه على حمدون؛ فلقد خبرتُه مذ كان صبياً صغيراً: إنه جبانٌ حقودٌ حسودٌ.. لا يصدق حديث.. ولا يفي بوعد!
- فما العمل إذاً.. يا أماه؟!! (تساءلت سلوان بتحيُّرٍ وجزع).
- لا ملجأ من الله إلا إليه.. وإنا لله وإنا إليه راجعون! (جأرت بمرارة وانكسار)
- ألا نسعى للشفاعة عند الخليفة من سبيل آخر؟! (تساءلت باضطراب مرتبك)
- وما تلك السبيل.. يا بُنية؟! (أجابتها أم هشام بنبرة يائسة مُحبطة)
- لستُ أدري! لم يعد قلبي يحتمل.. ويعجز عقلي عن التفكير!! (غمغمت سلوان بتوتر كأنَّما نفدت طاقتها عن التجلُّد).. ثم زفرت زفرةً يائسة.. ولم تستطع كبح دموعها المُلِحَّة في الانسياب؛ فهوت لترتمي إلى جوار أمها.. وتدفن وجهها ودموعها الخجلى في أحضانها، ضمتها فاطمةُ إليها.. وطوَّقت عُنُقها بذراعيها.. ثم همست بعيونٍ ذارفة وقلبٍ مكلوم:
- لا حول ولا قوة إلا بالله! أعلم –يا بُنيتي- أنَّ وجيعتكِ كوجيعتي!

مرت برهة شجية حزينة قبل أن تنتبه أم هشام إلى أنهما تقبعان في جانب الطريق.. وقد يراهما السابلة؛ فربتت على كتف سلوان كأنما تُنبهها من غفلة.. ثم تمتمت:

- لا ينبغي أن يرانا أحدٌ على هذه الحال! هيا نغادر هذا المكان!
- إلى أين سنذهب؟! (تساءلت سلوان بلا وعي).. وقد اعتدلت في جلستها وشرعت تمسح الدموع عن وجهها بظاهر كفها؛ فأجابتها معلمتها وقد برقت عيناها بشيء من العزم والأمل.. هامسة باقتضاب وهي تشير بيدها إلى القصر:
- طريقٌ أخير.. سنسعى فيه إلى ذلك الخليفة القابع في هذا القصر!

- وما ذاك الطريق.. يا أمي؟!! (تساءلت باكتراث.. وقد تيقظت من شرودها اليائس)
- أبو العباس.. أحمد بن ذكوان!!
- قاضي القضاة؟!! (تساءلت سلوان بانشداه وتعجُّب)، ثم أردفت تتساءل بشيءٍ من الإنكار: "وهل يقبل قاضي القضاة أنْ يشفع لمثلنا في لقاء الخليفة وهو لا يعرفنا؟!! وكيف يتسنى لنا لقاء القاضي ابتداءً؟؟".
- سنلقاه.. ولن يرفض الشفاعة لنا عند الخليفة؛ فإنَّ لي به سابق صلة.. ولنا عليه أيادي كثيرة.. لا يجحدها رجلٌ شهمٌ مثله!
- .... (رمقتها سلوان بعيون شغوفة بأن تعرف سابقة الصلة بين معلمتها وقاضي القضاة)؛ فاستأنفت أم هشام قائلة:
- قديماً –منذ أكثر من أربعين سنة- كان يختلف -وهو فتى يافع- إلى دارنا ليأخذ العلم عن جدكِ الشيخ (عبد البر)، وكان من أنجب التلاميذ وأكرمهم خلقاً؛ لذا فقد قرَّبه الشيخ منه.. وصارت بينهما أخوة ومحبة! سأسعى إليه.. وأُذكِّره بنفسي.. وبزوجي.. وإنْ شاء الله.. نجد عنده ما يثلج صدرونا.. وما يفرِّج الله به عنا!
- هل يتذكر قاضي القضاة زوجةَ معلم صباه.. بعد كل هذه السنين؟! (تساءلت بنبرة إنكار وشك)؛ فأجابتها أم هشام بعزيمة وثقة.. هاتفة:
- الشيخ عبد البر المصري.. لا يُنسى مهما تطاول الزمان!!
- وأين سنلقاه.. في دار القضاء.. أم في بيته؟! (تساءلت سلوان بعدم اكتراث)
- خيرٌ لنا أن نزوره في بيته؛ على أني أجهل أين داره الحالية!! (هتفت بها وهي تنهض من قعودها)، ثم أنشأت تنفض غبار الأرض العالق بثوبها وهي تتطلع إلى الأفق البعيد حيث يظهر لها طريق المحجة العظمى واضحاً، فوقفت سلوان إلى جوارها تشاركها التطلُّع إلى الطريق الواسعة وهي لا تعلم يقيناً إيلام تنظر؛ ثم استأنفت أم هشام هاتفة بإصرار واثق: "لا جرم أنَّ الحمَّارين هناك.. يعلمون دار قاضي القضاة؛ فانطلقي واستأجري لنا ركوبتين.. نتوجَّه بهما إليه!".

****

-المشهد الثالث والخمسون-

عاد الخليفةُ المهدي إلى الإيوان حيث خلَّف مستشاره (صاعد) يتفكَّر في حل مسألة إتمام بيعة الأقاليم؛ فألفاه مستغرقاً في تفكُّرٍ عميق شغله عمن حوله.. لدرجة أنَّه لم ينتبه لولوج الخليفة إلى المجلس إلا بعد برهة من الوقت؛ فوقف على إِثْر انتباهه للخليفة.. معظماً وموقراً.. فتلقاه المهدي متسائلاً في تحفُّز: "هيه.. ماذا وراءك.. يا صاعد؟؟ أرى أنك لا زلت شارداً.. مستغرقاً في أفكارك!"

- إنَّها معضلةٌ.. بالغة التعقيد.. يا أمير المؤمنين! والأمر يستلزم كثيراً من الأخبار عن الأقاليم وولاتها.. ومزيداً من الوقت للتفكير في حلها!! (هتف باختلاط مكبوت)، لم يكترث الخليفةُ بقوله؛ بل زجره مهدداً:
- الأحرى بك أن تجتهد في البحث عن الحل سريعاً.. لا أنْ تحتج بعدم معرفتك بأخبار ولاة الأقاليم! أم ترى أنَّك غير جديرٍ بثقتي.. وبالمنزلة التي رفعتُك إليها؟!!
- ثقةُ أمير المؤمنين شرفٌ لا يدانيه شرف؛ ولن أفرِّط فيه مهما صار! (هتف متملقاً)، سكت هنيهة.. ثم أردف: "غاية الأمر أني أريد أن أُحكم خطة العمل!".
- لا تحفل بخطة العمل! إنما أريد منك الرأي والمشورة!!
- الرأي عندي –يا سيدي- أنْ نجبرهم على البيعة بحد السيف!
- بئس الرأي! لو فعلتُ كما تقول؛ فستكون فتنة.. ولن ينجو منها أحد!!
- المالُ.. إذاً! لا سبيل غير إغرائهم بالمال! (أَسَرَّ بشيء من التردد)
- يا مستشار السوء! ألا ترى أنهم يتلكؤون في البيعة أملاً في عودة المؤيد للخلافة؟!! كنتُ أضيق به لأنَّه يزاحمني في قصري.. والحين يهدد مُلكي وثبات أركانه!!
- أصبتَ والله.. يا أمير المؤمنين! نعم! إنهم يطمعون في عودة المؤيد {الخليفة الضعيف}.. ويخشون سطوة المهدي {الخليفة القوي}! (هتف بنبرة تزلُّف وتودد)، ثم سكت برهة كأنما يتفكر في الأمر.. ثم انطلق قائلاً بخُبث: "لا مناص من إزاحة المؤيد من طريقكم.. يا سيدي!".

- ويحك.. أيها الشيطان! وكيف أُزيحه؟؟! (صاح المهدي بحيرة وتوتر)
- .... (لم يتكلم صاعد)؛ وإنما مرَّر حد كفه أمام رقبته جيئةً وذهاباً.. يُوحي إليه بقتل المؤيد، فارتجف المهدي انزعاجاً.. ثم صاح مُنفعلاً مستهجناً:
- بؤساً لك! بما تشير عليَّ.. أيها الخبيث؟!! أ تريد أن أقتله كما قتل شنجولُ أخاه المظفر؟! كيف تجرؤ أن تشير عليَّ برأي كهذا؟ وإنَّك تعلم أني أعطيتُه المواثيق أمام الشهود أنْ أحفظ حياته؟؟! وعلى هذا كان تخليه لي عن الخلافة.. وعليه كانت بيعتي!!
- أعلم يا أمير المؤمنين! لكن.. ألم يبدأ هو بالغدر؟!! ألم يزل حاجبكم عبد الجبار يحقق في رسالته الغامضة إلى قاضي اشبيلية؟؟ أليس من المعقول أنه يراسل ولاة الأقاليم ليستوثق من ولائهم له تمهيداً للانقلاب عليكم؟؟! فالرأي عندي.. أنْ نبدأه قبل أن يبدأنا.. ونبادر إليه فنستأصله وأعوانه قبل أن يظهروا علينا!!
- آه.. يا صاعد.. آه! لقد أثرت حفيظتي وشكوكي.. وذكّرتني بما نسيت!!
- ينبغي أن ندبِّر للقضاء عليه.. يا أمير المؤمنين! (همس بثقة وتحفُّز)
- الأمر ليس بهذه السهولة! لو فعلنا؛ فلسوف ينقلب الناس علينا! فمازال البربر يتربَّصون بنا، وولي عهدي (سليمان) وأبوه (هشام).. والمروانيون من ورائهما!!
- لعل الله يطلع علينا.. فيريحنا منه.. ويقبضه إليه غير مقتول! (جمجم صاعد مُتنَدِّراً)، فرمقه المهدي بنظرةٍ ذات هيبة.. ثم تمتم بنبرة تمني:
- يا ليته يمت ميتة ربه.. حتف أنفه[1]؛ فيُريح.. ويستريح! (سكت هنيهة)؛ ثم استطرد: "لكن.. ليس الأمر بالتمني؛ لابد من حل آخر! ها.. بمَ تُشر عليَّ يا رجل؟!".
- رويدك.. يا أمير المؤمنين! أمهلني بضعة أيام.. أتدبر فيها الأمر.. وأدرسه جيداً!

****

---

[1] : مات حتف أنفه: أي.. مات على فراشه بصورة طبيعية لانتهاء أجله.. دون قتل أو خنق أو غرق.

-المشهد الرابع والخمسون-

يستأذن فرتونُ في الدخول إلى الحاجب (عبد الجبار) الذي يأذن له على مضض؛ فقد بدأ عبد الجبار يضيق ذرعاً بهذا الصقلبي الأجلف.. وبتدخُّله في أمور المُلك التي هي أسمى منه شأناً، ولكنه رغم هذا.. يرى له تدبيراً ودهاءً؛ فلا يمكنه الاستغناءِ عنه: (تعالى يا فرتون! تقرَّب إليَّ كما تشاء؛ فسأنتفع بك وبمكرك ودهائك؛ فإذا انتهى دورك.. وفرغتُ من الخصوم؛ فسيكون لي ساعتها معك شأنٌ آخر!): أضمر في طويته فيما يُقبل عليه فرتون، فابتدره قائلاً: "غدوتَ تُكثر الدخول عليَّ –يا فرتون-؛ وأخشى أن تُلفت الأنظار إلى علاقتنا.. وتثير الشكوك حولنا!!".

- لا عليك.. أيها الأمير! فإنما أنا ساقي الخليفة.. وربما يُرسلني إليك –وأنت حاجبه- في بعض الشئون التي لا يرتاب فيها أحد!
- ما الذي أتى بك الآن؟! (هتف عبد الجبار بتأفف)
- علمتُ أنَّ جدة حمدون جاءت إليك؛ فماذا فعلتَ معها؟؟!
- وما شأنك أنت بهذا؟؟! (تساءل عبد الجبار بلامبالاة)
- لا يخفى على سيدي الحاجب أنَّ قولاً صغيراً أو فعلاً بسيطاً لا يؤبه له.. قد يُفسد عملنا كله! فالحذر.. الحذر.. أيها الأمير!!
- أنا لستُ غبياً.. أيها الصقلبي! أما أم هشام؛ فلا تقلق بشأنها.. فقد صبَّرتُها.. ورددتها رداً جميلاً.. إلى حين! (هتف وهو يكتم تغيظه من هذا الصقلبي وعُجْبه)
- أحسنتَ.. أيها الأمير! والآن حان وقت الشق الثاني من خطتنا!!
- وما هو؟؟! (تساءل عبد الجبار بعدم اكتراث)
- ها نحن أولاء قد أثرنا المهدي ضد المؤيد حتى أمر بحبسه في مخدعه! (انبرى فرتون يتكلَّم بثقةٍ.. واعتزازٍ بدهائه)، ثم سكت هنيهة التقط فيها أنفاسه.. ثم دقَّق البصر إلى عبد الجبار الذي أثارت تلك النظراتُ فضوله؛ فأرهف السمع لمحدِّثه

الذي استأنف هامساً: "والآن حان وقتُ الوقيعة بينه وبين ولي عهده (سليمان بن هشام).. ومِن ورائه سائر المروانيين!!".

- وكيف يكون ذلك.. أيها الداهية؟!! (تساءل عبد الجبار بتشوّق وتَطلُّع)
- سأُخبرك.. يا سيدي! فلتنصت إليَّ بانتباه!!

****

-المشهد الخامس والخمسون-

رجعت أمُ هشام -تصحبها سلوان- إلى بيتها بعد أنْ لبثتا في دار قاضي القضاة أكثر مما توقَّعت سلوان بكثير؛ فقد أحسن أهلُ الدار استقبالهما.. فقط لمجرد أنهما امرأتان من قرطبة تريدان لقاء القاضي، ثم لبثتا مدة –في حسن ضيافة وإكرام- إلى أنْ جاء القاضي إلى بيته؛ فعرَّفته أم هشام بنفسها.. وذكَّرته بزوجها؛ فقام لها مُعظِّماً ومُبجِّلاً.. ثم طفقا يتذاكران –معاً- أيام الشيخ الجليل والمعلم الرباني (عبد البر المصري)، ثم سمع منها حكاية الحاجب (عبد الجبار) واتهامه الباطل لحمدون؛ فوضع لها جناحه.. وواساها وصبَّرها.. ثم وعدها أنه سيسعى للقاء الخليفة في أقرب فرصة، والشفاعة عنده لحمدون عسى أنْ يرده الله إليها سالماً معاف.

رجعت أم هشام إلى البيت.. وقد تبدَّلت حالها من اليأس إلى الأمل.. ومن التشاؤم والإحباط إلى التفاؤل والانفراج؛ لدرجة أنَّ أم سعدون نظرت في وجهها؛ فلمست أنها عادت بغير الوجه الذي خرجت به.. فاستبشرت وسألت عما تَمَّ؛ فغدت سلوان تسرد لها لقاءهما الخائب بالحاجب.. ثم ذهابهما إلى قاضي القضاة وحسن استقباله لهما.. وطمأنته لهما على حمدون.. ووعده بالسعي في تبرئته عند الخليفة. فهللَّت أم سعدون سروراً واستبشاراً.. وهللَّت لتهليلها الجاريتان؛ فأسكتتهنَّ أم هشام بإشارةٍ من يدها.. وهي تُخفي ابتسامة ارتياح ندَّت على شفتيها.. ثم جأرت بتضرُّعٍ إلى الله قائلة: "الأمر بيد الله.. لا بيد القاضي.. ولا بيد الخليفة؛ فأوصيكنَّ بالدعاء والابتهال إلى الله أن يبارك في سعى القاضي.. وأن يشرح صدره وصدر الخليفة لما فيه الخير والسلامة لحمدون

ولدنا.. والحمد لله رب العالمين!". فرددنَّ خلفها بخشوع: "الحمد لله.. رب العالمين!"، ثم انصرفنَّ كلٌ لشأنه.

بعد برهة من الوقت ولجت أمُ سعدون إلى أم هشام تقدم قدماً وتؤخر الأخرى تردداً وخجلاً، ثم تنحنحت لتبدأ كلاماً يشق عليها أن تقوله حياءً من أم هشام في مثل هذا الظرف الذي تمر به.. هي وحمدون. التفتت أم هشام إليها.. فعرفت في وجهها أنَّ في حلقها قولاً سيخنقها إنْ لم تلفظه؛ فبشَّت لها وشجَّعتها قائلة:

- ماذا تريدين يا أم سعدون؟؟ تكلَّمي ولا تتحرجي من شيء!
- سيدتي!! إنَّ أحب الأعمال إلى الله أدومها! (هتفت والتردد يهدج صوتها)، ثم طفقت تتنحنح كأنَّما تريد أن تطرد الألفاظ من جوفها وهي تستعصي عليها؛ فزجرتها سيدتها بنظرة شزراء وحثَّتها صائحة:
- تكلَّمي –يا امرأة- فإنَّ صدري ضائقٌ.. وصبري ينفد!!
- مضى من شعبان الكثير، وشهر رمضان آتٍ.. في غضون عشرة أيام!!
- اللهم بارك لنا فيما بقي من شعبان.. وبلغنا رمضان، وما في ذلك؟!!
- منذ سنين –يا سيدتي- وعادتكِ في الاستعداد لرمضان لم تنقطع.. ولم يشغلكِ عنها شاغل.. مهما عظم أمره! (هتفت بتحرُّجٍ وتردد)؛ فرنت إليها أم هشام بنظرةٍ طويلة الوجوم.. ثم تنهَّدت تنهيدة حزينة.. وغمغمت بانكسارٍ وأسف:
- صدقتِ يا أم سعدون! جزاكِ الله خيراً أنْ ذكَّرتني!
- عذراً يا أم هشام إنْ قلتُ هذا.. وسيدي حمدون فيما هو فيه من كرب؛ لكن.. لَعَمْرُكِ قد شق عليَّ أن يدخل علينا الشهر.. وقد انقطعت عادتك الخيِّرة فيه!
- بل أصبتِ يا امرأة! وإنما ينبغي ألا ننقطع عن تعظيم شعائر الله.. وينبغي أن نبذل الخير في كل حين.. ولا سيما الشدة التي نحن فيها؛ فلعل الله يطلع على حالنا.. فيرحمنا.. ويطلق لنا حمدون قبيل الشهر الفضيل!

- آمين.. يا رب! (جأرت أم سعدون)؛ ثم أردفت: "لقد جاءكِ (أبو عثمان القرطبي) كاتب النفقات ليسألكِ عن أسماء من سنمنحهم الصدقات هذا العام، وعن السِّماط[1].. كيف سنُعد له؟!! فأخبرتُه أنكِ لست في الدار؛ فقال سيأتي غداً ظهراً.. إن شاء الله.. ليراجع معكِ النفقات المطلوبة.. وليحسب المال المرصود لها!
- إيّاكِ أن تكوني قد ذكرتِ له ما فيه حمدون من كرب؟! (هتفت أم هشام مُحذِرة)
- كلا.. يا سيدتي! لم أخبره بشيء! ماذا تأمرين بشأن الصدقات والسِّماط؟!
- كما نفعل كل عام بعون الله! وأحب –هذا العام- أن أُشرف على السِّماط بنفسي طيلة الشهر الكريم؛ فاستعدي.. لتكوني معي!
- أعانكِ الله على فعل الخيرات.. وتَقبَّل منكِ صالح الأعمال!

وكان من دأب أم هشام –منذ زمن طويل- أنْ تحتفل بحلول شهر رمضان بأنْ تُعد مالاً مخصوصاً تنفقه على أعمال البر وإطعام الطعام في رمضان، وكانت تستعين في ذلك بأبي عثمان القرطبي هذا -وهو رجلٌ يجيد الحساب والقياس وتدوين الدواوين- نظير أجرٍ تمنحه إياه في كل عام، فكانت تسجل أسماء المساكين والفقراء المستحقين الزكاة والصدقات في ديوان لتمنحهم ما تستطيعه طوال العام.. وتزيدهم في رمضان الفضل الكثير، كذلك كانت تقتطع جزء من ذاك المال لشراء شموع لإنارة مسجد الحي الذي تسكن فيه طيلة ليالي الشهر الكريم، وزيتٍ لقناديل جامع قرطبة الكبير.. وكذلك في كل عام، أما الجزء الآخر من ذاك المال.. فكانت تقيم به سِماطاً في بستانها (المسمى: منية أم هشام المروانية) لإفطار الصائمين وإطعام الطعام طوال أيام الشهر الكريم؛ فتأمر أبا عثمان وعمال البستان بفتح أبوابه لكل الناس طيلة الشهر الكريم.. فلا تُغلَق في وجه أحدٍ سواء كان من أهل البلد أو ضيف غريب أو ابن سبيل. وعندما تُعاتَب في سعة الإنفاق.. كانت تُجيب: "إتباعاً لسنة رسولنا الكريم (ﷺ).. فهو قدوتنا.. وقد كان في رمضان أجود من الريح المرسلة!"، فإنْ لامها عاذلٌ فيما يتكبَّده البستان من نفقاتٍ باهظة.. كانت تجيب: " {ومثل الذين يُنفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله

---

[1] : السِّماط: ما يُمَدُّ ليوضع عليه الطعام في المآدب وغيرها.

وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أُكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير} (٢٦٥ سورة البقرة)".

****

-المشهد السادس والخمسون-

اتباعاً لوساوس الشيطان (فرتون).. وعملاً بخطته في الوقيعة بين منافسيه على الخلافة.. تسلَّل عبد الجبار متستراً بأستار الليل ليزور سليمان (ولي العهد) في بيته.

استقبله سليمان بارتياب.. مستغرباً تلك الزيارة المباغتة والغير مألوفة.. (وبدون سابق ميعاد)، جلس عبد الجبار مع ابن عمه متظاهراً بالاهتمام والأسى، أطرق ملياً حتى سأمه مضيفه وهتف ضَجِراً:

- ما خطبك.. يا عبد الجبار؟! ليس من عادتك أن تأتيني ليلاً في الخفاء!!
- عذراً.. يا ابن العم! ما حملني على هذا سِوَى الإشفاق على البيت المرواني.. والخوف مما قد يعتريه من شر!! (همس بنبرة أسف وأسى زائفة.. يُخادعه بها)
- وما ذاك؟؟ أفصح.. يا رجل!! (هتف سليمان باكتراث)
- ألا تعلم.. يا ابن العم.. أنَّ المهدي أمر بحبس المؤيد في مخدعه؟!
- قد نبَّأني والدي به اليوم فقط، ولقد عجبتُ لذلك عجباً شديداً! (هتف بتحفُّظ)
- وإنْ تعجب.. فعجباً أمره بأن يُسجن في المطبق.. لولا أنني أثنيتُه!
- ولمَ يفعل المهدي ذلك.. يا عبد الجبار؟!! هل هي زيارة المؤيد لبيت فاطمة المروانية؟ أ تُراها كانت رغم إرادة المهدي؟؟! (تساءل بشيءٍ من الشماتة)
- وما علمك بتلك الزيارة؟!! (تساءل عبد الجبار بشغف وحب استطلاع)
- هل نسيتَ أني ولي العهد.. ولا جُناح عليَّ أنْ أعلم بعض أخبار القصر؟!! (تساءل بدهاء)؛ ثم أردف بتماكر: "وأنت حاجبه.. ولابد أنك تعلم ما يجري فيه، ولا أشك أنَّك لا تعلم عِلَّة حبس المؤيد؛ فأنت رجل المهدي المقرَّب.. وأمين أسراره!!".

- آه.. آه! هذا ما أخشاه! أن تحسبني -أنت وأمثالك- مع المهدي.. رغم ما بيني وبينه من اختلافٍ مستور.. لا يعلمه الكثيرون! (هتف متظاهراً بالأسف وخيبة الرجاء)
- ألم تكن سنده وعونه في ثورته.. أنت وأخوك محمد؟؟ ألم يُنصِّبك حاجباً له.. وأخاك صاحباً للشرطة؟؟ فكيف بينكما اختلاف؟! (هتف مُتعجِّباً منكراً)
- بلى فَعَلَ.. كما نصَّبك ولياً لعهده! فأَخْبِرني.. يا وليَّ عهده: أليس بينكما اختلاف؟؟
- .... (سكت سليمان تفكُّراً واستكانةً لكلام عبد الجبار الذي مس شيئاً في صدره)
- أُخبرك أنا: بلى! بينكما اختلاف تجاوز حد الخلاف إلى الجفوة والمشاحنة.. رغم أنك ابن عمه ووليُّ عهده! وأنا مثلك في هذا؛ إلا أني أتمسَّك بالحكمة والأناة؛ فلا أُظهر ما بيني وبينه من خلاف.. حرصاً مني على وحدة البيت المرواني أمام الناس!
- كنتُ أحسبك تؤازره وتناصره.. مذ رأيتُك تنضم إلى جماعته.. وتشترك في ثورته!
- نعم.. انضممتُ إليه.. وشاركتُ في ثورته على شنجول والعامريين ثأراً لأبي.. وإنقاذاً لملك آبائنا وأجدادنا من أيديهم.. بعد أن خضع المؤيد لرغبة ذاك الشنجول.. فولاه عهده؛ وشارف بتلك الفِعلة الشنعاء على أنْ يُضيِّع مُلك أجدادنا الداخل والناصر، فلما هبَّ المهدي ثائراً.. استنقاذاً لمُلك المروانيين: ثُرتُ معه وساعدتُه وآزرتُه.. ولستُ نادماً على شيءٍ من ذلك!!
- فما خلافك معه إذن؟؟ (تساءل سليمان بشيء من الفضول والارتياب)
- كانت ثورتي على شنجول والعامريين.. لا على المؤيد، وإنْ كنتَ تذكر: فقد كان اتفاقنا مع أبيك -حين ثُرنا عليهم- أن نعزل شنجول، وأن نُبقي على المؤيد كما هو: خليفة.. اسم بلا فعل، وأن تكون أنت ولي عهده والمتصرف في شئون ملكه، وأن يكون المهدي حاجبه وشريكك في إدارة الدولة.. ألا تذكر هذا.. أم تُراك نسيتَه؟!!
- لم أنس يا عبد الجبار! بل أنت الذي نسيتَ أنَّك أول مَن شايعه في نقض هذا الاتفاق؛ وعندما اعترضتُ أنا وأبي على توليه الخلافة بدلاً من المؤيد.. كنتَ أنت وأخوك أول مَن وقفتما معه ضدنا.. وتحججتم بأنَّ المؤيد –أخزاه الله- هو مَن تنازل له عن الخلافة بمحض إرادته.. دون إجبار أو إكراه!

- وأذكر أنكما –أنت وأباك- قد أذعنتما لما اتفق عليه أهل الحل والعقد.. وبايعتماه –كما بايعناه- بالخلافة على أن يحفظ حياة المؤيد وماله.. وهذا هو ما جاء بي إليك الليلة! فإني أخشى –يا ابن العم- أنَّ المهدي يُبيّت النية للغدر بالمؤيد، ولقد جئتُك لأُشهِدك أنني بريءٌ من أي كيدٍ يدبره المهدي للمؤيد لأنه لو فعل.. فسيكون نقضاً للبيعة التي بايعناه إياها! (هتف بكلماته الأخيرة) وهو يتأهب للمغادرة.. ثم أردف بنبرةٍ صارمة.. صائحاً باقتضاب: "والسلام!!".

فتشبث به سليمان وألح عليه في البقاء لكي يفهم منه حقيقة مخاوفه ويستوعب أسبابها؛ فلَبَّى عبد الجبار دعوته.. وعاد فقعد وقد انفرجت أساريره اغتباطاً بنجاح تلك المرحلة من خطته في النميمة والوقيعة. بادره سليمان متسائلاً في إلحاح وتوجُّس: "هل تزعم أن المهدي سينكص على عقبيه.. وينكث البيعة؟! أ لهذا حبس المؤيد في مخدعه.. وأبعد عنه جميع مرافقيه حاشا جاريته (شعب)؟!!".

- إنك مخموم القلب يا سليمان بن هشام!! (هتف عبد الجبار بنبرة شفيقة متظاهراً بالحنو على مُحدِّثه)، ثم أردف هامساً بتؤدة: "ألا تعلم أن كثيراً من أقاليم الأندلس لم يرسلوا كتب بيعة المهدي بالخلافة إلى الآن.. وأن أغلب ولاتها يتلكؤون في إظهار الولاء له كخليفة جديد؟!!".
- لا بأس في هذا.. إنها مسألة وقت؛ ثم يذعن الجميع.. وتتم البيعة له بالخلافة.. وبولاية العهد لي؛ فلا تبتئس بهذا! (هتف كأنَّما يُحَقِّر من شأن الخطر الذي يحذِّر منه عبد الجبار)؛ فيستدرك عبد الجبار هامساً بتحسُّرٍ وإشفاقٍ مفتعلين:
- ليت المهدي يقتنع بتلك الحقيقة.. كما نقتنع بها.. أنا وأنت! لكنه يعتقد غير ما تظن يا ابن العم؛ إنه يعتقد أن المؤيد يراسل ولاة الأقاليم سراً لينقلبوا عليه ويعزلوه.. ومن ثَمَّ يعيدون المؤيدَ خليفةً كما كان!!
- وهل من عاقل يصدق هذا؟؟ (هتف سليمان بتهكُّم)؛ ثم أردف قاطعاً: "قد علم أجمعنا أنَّه لا مأرب للمؤيد في الخلافة.. فضلاً عما به من سفاهة وخنوع!".

- ولهذا جئتُك.. يا ابن العم! وأقول لك: لا تذر المهدي يؤذي المؤيدَ -بتهوره - إيذاءً يُوقع العداوةَ بين المروانيين؛ فيشتت شملهم بعد اجتماع.. وبعد أن استعادوا مُلكهم! ولو أردتَ: فإني أُصارحك بما يجيش في صدري!!
- أفصح يا عبد الجبار عما في صدرك! (هتف سليمان بفضول)
- إنِّي أخشى أن يتهور المهدي فيصنع صنيعاً نُعيَّر به –نحن المروانيين- بقية الدهر! فالحذر.. الحذر يا سليمان.. فإنَّك وليُّ عهده؛ والفِعلة الشنيعة التي يدبر لها.. ستُحسب عليك كما تحسب عليه!!
- ما هذا الذي تلغز به يا عبد الجبار؟؟ صرِّحْ.. ولا تُلمِّحْ!!
- أقولها صراحةً: إنَّ ما يفعله المهدي من شَيْن.. لا يفعله باسمه وحده؛ بل باسمه واسم وليّ عهده، وإني أربأ بك أن تتورط معه فيما يشين!!
- ما زلتُ لم أفهم مقصدك يا عبد الجبار! هل تُلمّح أن المهدي ينوي قتل المؤيد؟؟
- وهل غير ذلك؟!! (تساءل عبد الجبار بنبرة استنكارٍ وريبة)؛ بينما عيناه تلمعان بغبطةٍ وارتياحٍ حَرِص على إخفائهما عن مُحدِّثه الذي قفز من مجلسه مذعوراً.. كأنما شقَّ عليه تخيُّل فكرة قتل المؤيد عندما أُثيرت.. ثم هتف بصرامة:
- لن نسمح له بذلك أبداً.. مهما كانت خطيئة المؤيد!
- وأي خطيئة سيرتكبها رجلٌ مقهور لا حيلة له ولا قوة.. كالمؤيد! (غمغم عبد الجبار منكراً)؛ ثم نهض -هو الآخر- مُسلِّماً ومُودعاً.. وهو يستطرد هامساً بتوكيد: "أرجو ألا يعلم أحدٌ بلقائنا هذا –يا ابن العم- حرصاً على وحدة الصف المرواني!".

****

-المشهد السابع والخمسون-

أشرقت الشمس وغربت.. وما برح القومُ كلٌّ يسعى في همه: أم هشام تترصَّد الأخبار عن لقاءٍ مرتقب بين قاضي القضاة (ابن ذكوان) وبين الخليفة المهدي يسفر عن مصير حفيدها (حمدون).. ولم يُفلح تشاغلها بالاستعدادات لشهر رمضان في ستر

لهفتها وجزعها على حفيدها، ومثلها سلوان.. لم يُفلح عملُها الدؤوب ومساعدتها الحثيثة لمعلمتها في التهيؤ للشهر الكريم في إخفاء قلقها ووجلها على حمدون.

والخليفة المهدي: لا هم له ولا شاغل يشغله -هذه الأيام- إلا: (كيف يتملَّص من مزاحمة المؤيد له في قصر الخلافة)، وهواجس متوهّمة تصوِّر له كأنَّ ثمة مؤامرة تحاك -بعيداً عن يديه- في أقاليم الأندلس لإعادة المؤيد إلى عرش الخلافة.. وتحذِّره وتخوِّفه من مغبة التغاضي عن مجابهتها، وكذلك مثله صاعد يشغله المؤيد وكيفية الخلاص منه؛ بيد أن الغاية الحقيقية لصاعد هي: أنْ يصرف عن المهدي أرَق المؤيد فتصفو له الخلافة وتصفو نفسه.. فتصفو له هو الدنيا برضا المهدي عنه وعن صنيعه؛ فبات يُنقِّب عن الوسيلة! ويحلم بالمكافأة والجائزة الكبرى التي تنتظره لو استطاع أن يُزيح المؤيد من حياة المهدي.

والحاجب عبد الجبار: لا هم له ولا شاغل يشغله غير تأجيج الفتنة والخصومة بين منافسيه على الخلافة أملاً وطمعاً في أن تتدحرج الخلافة من بين أيديهم.. فيستقر هو على الدَسْت من دونهم، اِنصَبَّ يكدُّ في التحريش بين الخصوم.. مُتوهِّماً أنَّ فرتون يسعى معه ويدبر له؛ لكن.. ما من أحدٍ يدري خبيئة صدر فرتون.. غير خالقه!

أما ولي العهد (سليمان بن هشام): فقد أثار حديثُ عبد الجبار -البارحة- ريبةَ الشكوك بين ضلوعه.. وهائجةَ الشجون في أحشائه؛ فسعى بخبره إلى أبيه ليشاوره فيه.. ويتدارس الأمر معه لعل أباه يفطن إلى حقيقة ما يرمي إليه عبد الجبار.. فيتدارك الخطر قبل أن يستفحل.. ويقوِّم سلوك المهدي.. ذاك الصعلوك الجاثم على عرش الخلافة التي لا يليق بها، ولا يليق بها مرواني غير أبيه (هشام) أو أحد ولده كما يزعم أبوه.. وهو يؤمن بذاك الزعم. كان يخافت أباه كأنَّما يتهيَّب أن تسمع حديثه الجدران، وكان أبوه يُرهف السمع ويُعمل العقل في كل حرف.. وكل كلمة حدَّثه بها ابنه عن عبد الجبار؛ حتى إذا فرغ من حديثه اعتدل في جلسته.. وتساءل بشيءٍ من الحيرة:
"ما قولك –يا أبتِ- فيما سمعتَ؟؟! هل تظن أن المهدي يتجرأ.. فيقتل المؤيد؟!"

- لا أستبعد هذا.. يا ولدي!!
- فماذا نحن فاعلون؟!! (تساءل مندهشاً)
- الفعلُ.. هو ما أشار به ابن المغيرة (يقصد عبد الجبار)! ينبغي ألا ندع ذاك الصعلوك الأرعن (يقصد المهدي) يفسد عملنا بعد أن أصلحناه، يجب علينا أن نكفَّه عن تكدير صفو مُلكنا بعد أن صفا لنا، وقد كان مُحقاً عندما قال أنَّ عاقبة أفعال المهدي السيئة ستُصيبنا معه؛ فنحن –أمام عامة الناس- معه في ركاب واحد.. فهو الخليفة الذي بايعناه ورضينا به بديلاً لابن الحكم المستنصر!
- وكيف نمنعه من قتله.. وهو عنده في القصر.. ولن نستطيع أن نحول بينهما؟!
- لا أريد أن أمنعه –يا سليمان-؛ بل أتمنى لو يفعل.. فنستريح من الاثنين معاً!!
- ماذا تقول.. يا أبا سليمان؟!! ألم تقر الآن بأن عاقبتها السيئة ستصيبنا نحن أيضاً؟!! (تساءل سليمان باهتياج.. متفاجئاً مستهجناً)
- على هَوْنِكَ يا ولدي! بلى أُقرُّ.. لكن الموقف سيختلف إنْ علم الناس أنَّ المهدي فعلها وحده.. رغم إرادتنا، ولقد أخبرتُك بزيارات زاوي بن زيري (زعيم البربر) المتكررة لي.. وما كان بيني وبينه من وعود وتوافقات، وها هو ذا عبد الجبار بن المغيرة يُصرِّح بأنه لا يوافق المهدي على كثير من أفعاله.. ويتبرأ أمامك منه، وقد علمنا أن أخلص رجاله له –أعني: حمدون بن هشام- لم يسلم من شكه وبطشه؛ فالرأي عندي –يا بُني- أنَّ شمس المهدي آذنت بالأُفول، وقد بطل سحره.. وآن الأوان أن تعود الأمور إلى نصابها.. وأن يسوَّد الأمر أهله.. فالمهدي ليس أهلاً له!
- عَمْرَكَ اللهَ -يا أبتي- أفصح عما تريد أن تقول!
- ما أريد قوله يا سليمان: أنَّ ربك حكيم خبير، وقد اقتضت حكمته أن يمهِّد لنا ذاك الصعلوك –الملَقِب نفسه بالمهدي- تَخْت الخلافة بثورته على العامريين لنستريح منهم ومن تسلُّطهم على ملك آبائنا، أما وقد فعل والحمد لله؛ فقد حان قطاف الثمرة وجاء دورنا.. فنحن الأسياد الحقيقيون.. ونحن أهل المُلك اللائقون به. هذه الخلافة يا ولدي هي ميراث جدك الخليفة الناصر.. ولا أجدر بها مني أنا

وأبنائي.. وأنا أخترتُك لهذا الشأن؛ فشمِّر له.. وأنا معك أشد من أزرك وأعضد من أمرك.. ومن ورائي جميع المروانيين بإذن الله.. وسنستعين بالجنود البربر الذين طردهم المهدي.. ونفَّرهم منه برعونته وغبائه!

- وما جريرة المؤيد؟!! لِمَ نتهاون في قتل الرجل.. وهو عاجز: لا حول له ولا قوة؟!!
- لابد من مبرر قوي لنقض بيعة المهدي والانقلاب عليه!! وقد أعلمتُك بخبر لقائي السري بالمؤيد –أنا وأخيك أبي بكر- حينما كان في دار حمدون، وعرضي الذي عرضتُه عليه: أن نؤازره وننصره حتى يستعيد ملكه من هذا الصعلوك المتسلِّط؛ فما كان منه غير إصرارٍ على الدَنيّة والخذلان.. والخضوع للمهدي!
- أشعر بالشرر يتطاير بين كلماتك يا والدي! أ تريد أنْ نترك المهدي يقتل المؤيد.. ثم ننقلب على المهدي بحجة قتله إياه؟!! أ يرضيك –يا أبتِ- أن أشترك في هذا التآمر وأنا وليّ العهد؟!! هل ترضى لي أن أشق صف المروانيين بعد أن اتحدوا.. واستعين على ابن عمي بالبربر كما فعل ابن أبي عامر؟؟! (تساءل سليمان باستنكار)
- .... التزم الأب السكوت متمسكاً برأيه.. مستقبحاً مثالية ولده وسذاجته.
- كنا نذم المؤيد لأنه تنازل عن الخلافة لشنجول ونقول: قد ضيَّع ملك المروانيين، والحين.. بعد أن تنازل عنها لمرواني منا؛ نذمه أيضاً.. ونغض الطرف عن قتله لنسعى للانقلاب على قاتله؛ فنقوِّض نحن بأيدينا مُلك آبائنا وأجدادنا!! وندِّعي أن هذا من حكمة الرب؛ وسبحانه وتعالى عن أن يأمرنا بالغدر والفُرقة!!
- انتبه لكلامك.. يا سليمان! فإنك تخاطب أباك.. وشيخ المروانية جمعاء!
- أرجو المعذرة يا أبا سليمان! إنما أذهلني قولك.. وطمَّعني حلمك؛ فاعف عني!
- لا عليك يا ولدي! هذا حديث أبٍ وابنه وينبغي أن نتصارح بما يختلج في صدورنا. على أنه حديثٌ عن المُلك.. وحديثُ سياسة؛ والسياسة لا تعرف نبيل الأخلاق، والمُلك لا يستلبه إلا القوي، وإني أُريد لك أن تكون الأقوى.. يا سليمان!!
- إني أربأ بك وبنفسي -يا أبتي- أن يقول الناس عنا: هما أول من فرَّقا المروانيين.. هما أول من غدر وشق الصف!! (هتف بإشفاق الولد وحنوه على أبيه)

- فما قولك أنت فيما نحن فيه؟؟! (تساءل الأب ساتراً غيظه وعدم قناعته برأي ولده)؛ فرنا سليمان إليه ملياً.. ثم هتف بعزيمةٍ صادقة.. واستبشارٍ بالخير:
- سأغدو إلى المهدي.. يا أبتِ! سأسعى إليه ناصحاً؛ عسى أن يثوب إلى رشده.. ويعمل بالنصيحة فينعم بالمُلك.. ونهنأ معه بوحدة الصف المرواني؛ فإنه لا جماعة لمن اختلف.. كما قيل قديماً!
- أرى أنَّك تحسن الظن بذاك الصعلوك.. أكثر مما تُحسن الظن بأبيك!!
- بل أنت عندي خير وأحب يا أبتِ، غير أنَّك ذكَّرتني بالله.. وبمُلك الآباء؛ وإنِّي أرى أنه لن يحفظه سوى الإيثار وإنكار الذات.. وتقديم وحدة الصف المرواني على كل غاية؛ فذرني يا أبتِ أسعى سعي خير.. غير طامعٍ ولا متآمر!!
- لَعَمْرُك.. لا أدري ماذا أقول لك يا ولدي! إنَّك لمخموم القلب.. نقي السريرة؛ لكنّما المتربصون من حولنا.. أسلحتهم الحقد والغدر والخيانة، وأخشى أن ينتكس سعيك للخير والإصلاح إلى شرٍ ووبالٍ عليك وعليَّ.. وعلى إخوتك!!
- ذرني.. يا أبتِ.. أعتذر إلى الله بأن أنصح المهدي؛ فإنْ أبى واستكبر.. فافعل بعدها ما بدا لك، وستجدني حينها رهن إشارتك.. وطَوْع بنانك!!

****

-المشهد الثامن والخمسون-

لم يتلكَّأ سليمان بن هشام؛ بل بادر إلى قصر الخلافة يريد لقاء المهدي.. لعله يمتثل إلى نصحه في المؤيد؛ فيُكفَى المروانيون شراً لا يعلم مداه إلا الله.

ولج أولاً إلى الحاجب (عبد الجبار) في مجلسه -كما هو النظام المتبع في القصر-؛ فقام إليه عبد الجبار باشّاً مرحباً بحرارة، ثم جلسا معاً ليُخبره سليمانُ بأنَّ الهدف من قدومه إلى القصر بعد فترة من الابتعاد هو لقاء المهدي.. وباعثه هي زيارته له البارحة والتي أفصح فيها عن مخاوفه على الإرث المرواني؛ فقد أثارت في قلبه حميَّة

الانتماء للبيت المرواني؛ فآثر على نفسه أن يقوم هو أيضاً بواجبه ليحافظ على ملك المروانيين واستقراره وثبات أركانه؛ فجاء ناصحاً.. يناشد المهدي اللهَ والرحم في المؤيد.. عسى أن يرده عما عزم عليه من شر. أثار هذا الكلام الساذج -والأبله في نظر عبد الجبار- حفيظته.. وخوَّفه على نفسه من مَغَبَّة تلك السذاجة التي لم يكن يتوقَّعها من سليمان؛ فاستحلفه ألا يعلم المهدي بلقائه به البارحة، واستمهله ألا يدخل إلى إيوان الخليفة حتى ينفض مَن حوله من موظفين وعُمال.. ثم ينفرد به؛ فيكون أثر النصيحة أوقع في القلب والعقل، ثم خلَّفه في مجلس الحاجب.. وغدا هو إلى الخليفة ليُعلِمه بأنَّ وليَّ العهد يستأذن في لقائه، يتساءل المهدي بامتعاض: "ما الذي أتى به الحين.. بعد طول مفارقة؟! اصرفه يا عبد الجبار.. فإنِّي في غنى عن لقائه.. وعن لقاء أبيه!!".

- يا أمير المؤمنين! لقد حاولتُ أن أصرفه؛ لكنَّه يُصرُّ على لقائكم.. ويزعم أنَّه لأمر هام وخطير! (هتف عبد الجبار بنبرة بالغة في التوقير والتزلُّف)
- وما ذاك الأمر الخطير؟!! (تساءل المهدي باستخفاف ولامبالاة)
- تحدَّثتُ معه.. يا أبا الوليد؛ فلم يُفصح! على أني استنبطتُ من كلامه أنه يعلم الكثير من أخبار القصر وأسراره.. رغم تظاهره أمامنا بالزهد فيه.. والتنائي عنه!
- كيف؟!! أخبرني بما علمتَه عنه!! (هتف المهدي باكتراث وريبة)
- مثلاً: إنَّه يعلم أننا حبسنا المؤيدَ في مخدعه؛ بل ويزعم أننا سننزله إلى سجن المطبق.. ويُقسم أنه لن يسمح لنا بذلك! ومن قبلها فهمتُ أنه علم بزيارته لدار حمدون بن هشام في حينها.. وبمكثه فيها أياماً!
- له عيونٌ وجواسيسٌ في القصر يُطلعونه على الأخبار؟ لَعَمْري ما صدَّقتُ –يوماً- ادعاءه الكاذب بالرغبة عن المُلك.. ولا تَنَزُّهه الزائف عن التمسُّك بالسلطة! ما أخبثه من منافقٍ خدَّاع!! أدخله إليَّ.. يا عبد الجبار!

ولج سليمان بن هشام إلى مجلس الخليفة المهدي؛ فألفاه متكئاً على سرير مُلكه في زهوٍ وافتخار.. فاستعاد في مخيلته وصف أبيه (هشام) لوجاهة عمه الخليفة المستنصر.. ووصفه لبهاء جده الخليفة الناصر في مجلسهما؛ فتمتم في دَخِيلته

مُتحسِّراً: (وأسفاه على مُلكٍ ورثه هذا الصعلوك!)، ثم جاهد أن يُطهِّر سريرته من أحقادها فغمغم في دخيلته يحثها على الرضا بالقضاء: (سبحان مَن يهب المُلك لمن يشاء.. وينزعه مِمَن يشاء!). جعل المهدي يرمقه بكبرياء كأنَّما يرتقب منه أنْ يُلقي عليه التحية؛ فتنبَّه سليمان وانتزع عقله من شروده في خطراته.. ثم هتف:

- السلام على أمير المؤمنين!
- وعليك السلام! أخبروني أنك تريد لقائي في شأن خطير؛ فما هو يا سليمان؟!
- ألا تناديني بوليِّ العهد.. كما خاطبتُك بأمير المؤمنين؟!!
- جئتَ تذكِّرني.. بأنَّك وليُّ العهد؟! اطمئن.. لم أنس هذا بعدُ!! (هتف ساخراً بنبرة تهكُّم وازدراء)؛ فاستاء سليمان.. بيد أنه تمالك نفسه وهتف بإباء:
- بل جئتُك ناصحاً.. أيها الخليفة؛ فاسمع مني!
- مع أن وقتي لا يتسع؛ لكنَّي سأسمعك.. جبراً لخاطرك! (هتف بتعالي وعدم اكتراث)؛ فأثار حفيظة سليمان الذي اشتد استياؤه لتعالي هذا الصعلوك عليه؛ فتشامخ هو الآخر رداً على خيلاء مُحدِّثه وهتف بحميَّة وشمم:
- أتيتُ أُذكرك أنَّك لستَ خير رجال البيت المرواني، وأنه لولا تنازل المؤيد لك عن الخلافة: ما كنا لنرضا بك خليفةً للأندلس، ولقد بايعناك على شرط اشترطه المؤيد لنفسه.. ألا وهو حفظ حياته وماله، فإيَّاك.. إيَّاك أنْ يخدعك شيطانك.. ويسوِّل لك أن تؤذي الرجل أو تمسه بسوء؛ فساعتئذ.. لن نـــ..!
- صه.. أيها الوقح! كيف تجرؤ أن تهددني وتنذرني.. وأنا الخليفة؟!! (صاح المهدي حانقاً)؛ فتيقَّظ سليمان إلى أنه جاء ساعياً بالخير لا مُناطحاً بالشر.. فزفر زفرة عميقة حاول أن يستجمع بها شتات نفسه.. ثم هتف بهدوء وتلطُّف قائلاً:
- حاش لله.. أيها الخليفة! ما جئتُك مهدداً.. بل ناصحاً، والنصيحة واجبة على الأخ لأخيه؛ وأنا ابن عمك ووليُّ عهدك.. ولا يقبل ضميري أن أكتم عنك نصيحتي!
- بل استمع أنت إلى نصحي واعقله جيداً.. يا سليمان! لقد أكرمتُك ورفعتُ منزلتك ووليتُك عهدي.. صلةً للقربى؛ فإيَّاك أن تجحد المعروف.. وإيَّاك أن تذل عن نهجٍ

أقمتُك عليه؛ فأضطر أنْ أقطع عنك ما وصلتُه بالصارم البتار! هيا انصرف من أمامي؛ فلقد كدرتَ صفوي.. واستفززتَني.. فجعلت صدري أضيق من سَمّ الخياط!

****

-المشهد التاسع والخمسون-

بات (ابن ذكوان) يتحيَّن الالتقاء بالمهدي منفرداً؛ فما تمكَّن من لقائه إلا بعد عدة أيام: في يوم الجمعة (الموافق ٢٤ شعبان) بعد أن انفضَّ اجتماع الخليفة مع القضاة والفقهاء المشاورين؛ فانفرد به وغدا يُطارحه الحديث في مواضيع شتى.. ثم عرَّج على ما جاء من أجله فجأر بنبرة التماس: "لو سألتُ الخليفة أن أشفع عنده في أمرٍ خاص؛ فهل تقبلون شفاعتي.. يا أمير المؤمنين؟!"، فأجابه المهدي هاتفاً بإكبار:

- من ذا الذي يرد شفاعة قاضي القضاة؟!! سل تُعط.. واشفع تُشفَّع!!
- رجلكم الوفي حمدون بن هشام سُجِن في تهمةٍ -هو منها براء إنْ شاء الله-.. بدون حُكم شرع ولا إذن قاضٍ من القضاة؛ وإني ألتمس منكم الأمر بالإفراج عنه رأفةً بجدته –فاطمة المروانية- فهو وحيدها.. وهي ذات رحم لأمير المؤمنين!
- وما أعلمك –أنت- بهذا الأمر.. يا أبا العباس؟!! (تساءل بتأفُّف واستهجان)
- جاءتني جدته باكيةً متوسلة.. بعد أن أيأسها حاجبكم من لقائكم؛ وقد علمتُ أنه لم يُعرض على قاضٍ؛ وإنما سجنه الحاجب دون إذن القاضي أو مشاورته!!
- إنها مسألةٌ أمنيةٌ سرية وشديدة الحساسية خاصة بالقصر؛ لذا لم نعرضها على القضاة، وقد أذنتُ **أنا** للحاجب بسجنه إلى انتهاء التحقيق معه!
- عفواً أيها الخليفة! إنَّ أي قضية قد يُسجن فيها أحد الرعية –مهما كانت سريتها أو حساسيتها-؛ لابد من مشاورة القضاة فيها، وإنِّي أقترح أنْ يسمح أمير المؤمنين بإخراجه من السجن.. والتحفُّظ عليه في داره إلى أنْ ينتهي التحقيق معه!!

- لماذا؟؟ لماذا –يا أبا العباس- كلما نسيتُ أنَّك أنت مَن سوَّغتَ لشنجول انتزاع ولاية العهد من المؤيد.. وأنَّك أنت مَن أغريتَه بالتعدي على حق المروانيين في الخلافة.. وعاونته على استلاب مُلكنا؛ لماذا كلما نسيتُ هذا الأمر.. أو تناسيتُه؛ تعود فتذكِّرني به؟!! (هتف بنبرة عتاب وازدراء لاذعة)؛ فتحرَّج القاضي (ابن ذكوان) وثَقُل عليه أن يسمع مثل هذا الكلام بمثل هذه اللهجة من الخليفة الجديد.. وهو من هو، غير أنه تمالك نفسه واستلهم الحلم والأناة وهو يجيبه هاتفاً بأناةٍ ورَوِيَّة:
- لستُ معصوماً من الخطأ.. أيها الخليفة! وأعترف أنني اجتهدتُ فأخطأتُ، فلمَّا علمتُ خطئي وأيقنتُ أن شنجول ليس أهلاً للخلافة؛ تراجعتُ عن قولي.. وتخلّيتُ عنه وبايعتكم بالخلافة.. وبايع معي أهل الحل والعقد.. وأهل قرطبة كلهم قاطِبةً!
- لا تثريب عليك.. يا أبا العباس! على أني أقترح عليك أن تنشغل أنت والقضاة بالفصل في خصومات الرعية وفقاً لأحكام الشرع، وأن تدع لنا الاشتغال بأمور الحكم؛ فإنكم لستم أهلاً لها.. كما أننا لسنا أهلاً للفقه والقضاء!
- أ هذا منتهى القول عندك.. أيها الخليفة؟!! (تساءل بمرارة وإحباط)
- عفواً –أيها القاضي- إنْ رددتُ شفاعتك! لكنها أحكام السياسة والسلطان!

****

-المشهد الستــون-

مالت الشمس إلى المغيب.. ووثب المهدي من فراشه.. ينتفض من الغيظ عندما اقتحم الخدم عليه خلوته ليخبروه أنَّ صاعد بن عبد الوهاب يُلح في طلب لقائه تَوّاً لأمرٍ خطير؛ ويعتذرون بأنَّه وقف يصيح: "حتى وإنْ كان الخليفة نائماً.. فأيقظوه!".

(أَوْلى لك.. أيها الحَرَّار الجِلْف! تغيب عني هذه المدة بعد أنْ أكرمتُك ورفعتُ منزلتك.. ووعدتُك بجزيل العطايا.. ثم تأتي تبتغي لقائي –بلا توقير ولا أدب- كأنك نظيرٌ لي! قد أخطأتُ حينما ظننتُ بك الحكمة.. وحسبتُك رجلَ مكرٍ ودهاء! قد علمتَ أني لا أُطيق

الانتظار؛ فهل تظن أنَّك ستأتي الآن تخادعني بأعذارٍ ملفقة لتنجو بها من نقمتي؟! هيهات.. هيهات! لتجدنَّ مني ما يسؤك؛ إلا إنْ جئتني بما يُقر عيني!): كانت نفسه المستشيطة توسوس له فتثير حفيظته على نديمه ومستشاره، بيد أنَّ صاعد دخل عليه مهرولاً يكاد يقفز سروراً وابتهاجاً.. وقد انفرجت أساريره تهلُّلاً؛ فاندهش لرؤيته على تلك الحال حتى أنساه حبُ الاستطلاع حنقه عليه؛ فتريَّث في أمره وأنشأ يتطلَّع إليه بفضولية فيما يُقبِل عليه بابتهاج وسرور، اقترب منه وبادره قبل أن يعظِّمه أو يُحييه هاتفاً: "أبشر –والله- يا أمير المؤمنين!!"، فأثار دهشته وفضوله أكثر فعاجله قائلاً بتلهُّف: "ماذا وراءك.. أيها الغَوِيّ؟؟!". التقط صاعد أنفاسه وسكت هنيهة يستجمع فيها شتات نفسه ثم اقترب من أُذنه هامساً: "ينبغي أن أُسره لك وحدك.. يا أمير المؤمنين؛ فاخلِ المكان!"، رمقه باستغراب مُتعجِّباً من جرأته عليه؛ غير أنَّ حالته تلك زادت من تَوْقه لمعرفة النبأ.. فامتثل لطلبه وأمر الحاضرين بالانصراف، ثم التفت إليه مُتوَّعِداً: "تعلم: لإنْ لم يكن نبأك يستحق؛ فستجد مني ما تكره رداً على تجرؤك عليَّ!"، فأجابه بكياسة: "على هونك.. أيها الخليفة! لَعَمْرُك.. لتجدنَّ ما يسرك ويُثلج صدرك!". ثم بدأ يُسره بحديثٍ تهلَّل له وجهه وانفرجت أساريره، ثم نادى حاجبَ بابه: "إأتوني بجؤذر.. أمين القصر حالاً!". أتاه جؤذر مهرولاً.. فلبث ثلاثتهم يتهامسون ويتحاورون ساعة، ثم انصرفا عنه.. فنادى صائحاً: "جئوني بساقينا فرتون حالاً!"، لم يَنْشَبْ فرتون أنْ أقبل إليه مهرولاً.. يهتف: "لبيك.. لبيك يا أمير المؤمنين!".

- مرحباً أيها الساقي الكريم! (هتف بها وقد انفرجت أساريره ولمعت الفرحة في عيونه بشكلٍ أثار فضول فرتون)، سكت هنيهة.. ثم أردف: "آه.. يا فرتون! قد أظلنا شهر الصيام كما تعلم؛ وإني قد أزمعتُ على اعتزال الخمر فيه حياءً من الله؛ لذا فإني أريد أن احتفل الليلة بوداع الخمر؛ فانشط وخذ معك من المساعدين مَن تحتاج.. وجئنا مِن خمرك العواتق بقدر ما يكفي الندماء.. وأهل القصر كلهم!"
- كل هؤلاء يا أمير المؤمنين؟!! (تساءل مشدوهاً.. وقد استكثر عدد الناس)

- لا تخش الفاقة يا فرتون؛ سأمنحك ضعفي ثمنها! (صاح مازحاً مداعباً)
- لا أقصد هذا يا سيدي.. فإني أتقلَّب في سخاء أمير المؤمنين؛ لكنِّي.. لن أتمكن من إعداد ما يكفيهم قبل حلول الليل.. فما بقي إلا سويعات قليلة!!
- تصرَّف يا فرتون.. أعلم أنك لن تعجز! أريدها ليلةً لا مثيل لها.. تُعوِّضنا فيها مُسَبَّقاً عما سنكابده في شهر الصيام، ولنُسمِها: ليلة الوداع.. وداع الخمر!
- وداعك للخمر يحزن ساقيك.. يا سيدنا! لكني سأحتال.. وسأُنجز أمر أمير المؤمنين! (هتف فرتون طائعاً) ثم استأذن وانصرف من بين يديه غير مقتنع ولا مطمئن.. بل أحس بجذوة ريب تتوقد بين ضلوعه!

****

-المشهد الحادي والستون-

ليلةُ الوداع.. دُعِيَ إليها كلُ أهل القصر؛ فلبوا جميعهم الدعوةَ.. احتفالاً بحلول الشهر وتوديعاً للخمر وسهرات السمر خلال مدته؛ حتى الخدم والحَرَس أمرهم الخليفةُ أن يحتفلوا شاربين مِن خمر فرتون وغيره. تجمع القوم في الميقات.. فأمسى مجلس الندماء يَضِجُّ بمَن فيه.. حتى امتلأ؛ فخرج عددٌ من المحتفلين إلى الردهات المجاورة ثم الجنَّات المحيطة وحول البركة القريبة؛ فحُشِدت أنوار القصر وأضواؤه ساطعةً حول ذاك المجلس.. وأظلمت بقية أجنحة القصر إلا من بصيص شعاع.

كان ممن دعاهم الخليفةُ للاحتفال حاجبُه (عبد الجبار بن المغيرة) وأخوه (محمد) صاحب الشرطة فحضرا ومعهما عددٌ من رجالهما.. وعددٌ من الوزراء والوجهاء.. وذوو الهيئات من أهل قرطبة، إلا أنَّه تعمَّد أن يتجاهل دعوة وليِّ عهده (سليمان بن هشام) أو أبيه أو إخوته.. فلم يحضر أحدٌ منهم، أما المؤيد: فقد دعاه رغم احتباسه في مخدعه؛ بيد أنه أرسل جؤذر يعتذر عنه بأنه متوعك. ما انفك الخليفة وندماؤه يسمرون ويلهون.. ويشربون ويستمعون للغناء والطرب. كانت ليلة صاخبة.. لاهية

عابثة؛ أباح فيها المهدي الغناء والرقص والسُكر والمجون والعربدة؛ فانتشى بها أهل الهَوَى وأتباع الملذات.

طرسوس -هو الآخر- كان بين المحتفلين؛ فما لبث أن ضاق بتلك الأجواء الصاخبة.. وشعر بنفورٍ مما يدور حوله.. وتملَّكه إحساسٌ بالوحشة والغربة؛ فحمل كأسه وزِقَّ خمره ومضى يتجوَّل حول المكان؛ ثم تاقت نفسه إلى الاستمتاع بسكون الليل ونسائمه العليلة؛ فخرج بعيداً عن مجلس السمر -كأنه يفر من أضوائه المبهرة وألحانه المزعجة-، وراح يمشي -على غير هدى- بين حدائق القصر وجنَّاته يتتبع هبَّات النسيم المنعشة؛ فارتاحت نفسه وانفض عنه ما به من سأم، انتشى لذةً بالخمر ونداوةِ الليل الصافية.. وانبرت ذكرياتُ جبل العروس وأصحاب جبل العروس تتوارد على خاطره؛ فتحسَّر عليها.. وتملَّكه حنين جارف لذاك الجبل الحبيب وتلك الأيام الحبيبة، وادكر صديقه حمدون وذكرياته معه –في الجبل وغير الجبل- فاغتبط وانشرح صدره لتلك الذكريات المرحة، طفق يبتسم تارة ويقهقه تارة كلما حضرته إحدى الذكريات، ثم التفت بأسى لما آل إليه حالهما: حمدون مسجون في سجن المطبق.. وهو مسجون على باب الخليفة بزعم أنه حاجب بابه وحارسه الشخصي؛ فأحس بأسف عصيب وحنين رهيب إلى صديقه الأثير، حملته قدماه –من غير وعي- إلى الردهة التي بها حجرة حمدون لعله يأنس بها؛ فقعد إلى جوار بابها المغلق يحتسي كأسه ويشكو بَثَّه وحزنه.. إلى أنْ ختَّرته الخمر والأشجان؛ فغفا برهة.. ثم أفاق على أطيافٍ تتراقص في عينه، فَرَكَ عينيه وأخذ يحدِّق البصر.. ويُحملق في الظلام أمامه؛ فإذا به يرى شَّبَح رجلٍ يحمل مشعلاً تتراقص نيرانه يمشي مُحاذِراً.. يتبعه أربعةُ أشباحٍ أخرى تتحسَّس طريقها في الظلام، تسلَّل الريب إلى صدره.. فهبَّ قائماً بتحفُّزٍ لينظر مَن هؤلاء.. يَحُثُّه شعوره بالمسئولية كحارس من حراس القصر. أقبل عليهم شاهراً سيفه وهو يصيح: "قفوا مكانكم! مَن أنتم.. قاتلكم الله؟!"، توقَّف النفر.. وثبتوا في أماكنهم مبهوتين، حملق في صاحب المشعل؛ فإذا هو جؤذر (أمين القصر)، تباغت طرسوس وهتف مُتعجِّباً: "الأمين.. جؤذر؟!! ما الذي جاء بك إلى هنا.. في مثل هذه الساعة؟؟".

- هذه حجرتي! (هتف جؤذر متلعثماً وهو يشير إلى حجرةٍ بجوار حجرة حمدون)؛ وقد أربكته المفاجأة هو أيضاً.. فلم يكن يتوقَّع أن يجد أحداً مثل طرسوس هنا في هذه الساعة؛ بيد أنه حاول أن يبدو رابط الجأش وهو يُردف سائلاً بنبرة اتهام: "ما الذي أتى بك أنت إلى هنا؟؟ ألا تسمر مع السامرين؟؟!".
- عذراً أيها الأمين.. فقد خدَّرت الخمر نفسي؛ فخرجتُ أتمشى بين الجنَّات.. فحملتني قدماي إلى هنا على غير قصد!
- انصرف.. إذاً! وارجع إلى محل سمرك.. هيا! (صاح جؤذر بنبرة صارمة آمرة)؛ لكنَّ طرسوس عرف رجلين من الأربعة.. فهتف مُرحباً بهما دون اكتراث لأوامر جؤذر:
- السيد صاعد.. والفقيه حسن! مَرحباً بكما؛ لماذا أنتما هاهنا؟!! حسبتُ أنكما تسمران مع الخليفة!!
- .... أطرقوا وتبادلوا نظراتِ القلق والارتباك، حالما استأنف طرسوس حديثه وهو ينظر إلى صندوقين كبيرين طويلين لمحهما معهم:
- ما هذان التابوتان؟؟
- وما شأنك أنت كي تسأل؟! (هاجمه جؤذر مُحتدّاً عليه بأنفة واحتدام)؛ فيما أخذ طرسوس يُدقِّق النظر في الصندوقين ويدور حولهما فألفاهما كبيرين إلى حد أن أحدهما يتسع للرجل الطويل الجسيم فيرقد فيه، اغتاظ جؤذر فأعاد عليه السؤال مرة ثانية وهو يضطرب انفعالاً وتوتراً؛ فأجابه بنبرة ثابتة صفيقة:
- شأني: أنني حارس الخليفة الشخصي.. ورائد الثوار، وواجبي يُحتِّم عليَّ حماية هذا القصر من اللصوص والعابثين!!
- احفظ لسانك.. يا حارس السوء! فأنا أمين هذا القصر.. والمستأمن على كل ما فيه.. ومَن فيه؛ فانصرف عنا.. ولا تتدخَّل فيما لا يعنيك!
- لن أنصرف قبل أن أعرف محتوى هذين التابوتين.. وعِلَّة نقلكم لهما خلسة هكذا!! (أجابه طرسوس.. وقد برقت عيناه اصراراً وتحدي).

تَضجَّر به الفتى جؤذر.. وارتعدت فرائص الحسن بن حيَّ الفقيه هلعاً؛ وهمّا به.. وقاربا أنْ يُقاتلاه لولا أنْ غمز لهما صاعد بن عبد الوهاب بعينه: أنْ اتركاه لي، ثم أقبل عليه بأناةٍ ورَّوِيَّة وهمس في أُذنه.. قائلاً بنبرة عتاب:

- ما ظنك بنا أيها المجوسي؟!! هل تراني أنا والفقيه الحسن لصوصاً؟ ونحن.. مَن نحن؟! إننا شركاؤك في الثورة.. ونُدْمان الخليفة! أم ترى أنَّ الفتى الكبير جؤذر يسرق القصر وهو المستأمن عليه وعلى ما فيه؟؟! أما هذان الرجلان: فما هما إلا حمَّالان مستأجران أتيّا معنا!!
- عفواً يا سيد صاعد.. لم أقصد إهانتكم! لكن.. ما قدومكم هنا بهذه الهيئة المريبة؟؟ (تساءل طرسوس بارتياب.. لكن بنبرةٍ يشوبها شيءٍ من التردُّد والاعتذار)
- لوغيرك قالها.. يا طرسوس؟!! منذ متى والحراس يتدخلون في شئون القصر وما يحصل فيه؟ ألا تذكر حين عيَّنك الخليفة حارساً في القصر أنِّي أوصيتُك ألا ترى ولا تسمع شيئاً حاشا ما يتعلَّق بحراسة الخليفة وحمايته؟! (سأله جؤذر مُوبِّخاً)
- على هَوْنِك.. أيها الفتى الكبير جؤذر! فإنَّ طرسوس ليس كغيره من حراس القصر! (هتف صاعد كأنما يُسكِت جؤذر)؛ ثم تأبَّط ذراع طرسوس.. هامساً في أُذنه: "سأُخبرك -يا طرسوس- بما حملنا على الذي تراه؛ ولولا علمي بحبك وإخلاصك للخليفة لما أخبرتُك! لكن.. عدني أولاً أن يبقى الأمر سراً.. وألا تبوح به أبدا!".
- أَسمعُ منك.. أولاً، ثم أعدك.. أيها السيد! (هتف طرسوس.. بشيءٍ من التحرُّز)
- أنصت.. إذاً! كما تُشاهد.. فإنَّ خليفتنا المهدي –أطال الله بقاءه- يحتفل بحلول شهر رمضان.. وهو شهر البر والصدقات؛ لذا فإنَّ أمير المؤمنين أراد –مع إقبال الشهر الكريم- أن يُوسِّع على الفقراء والمحتاجين من أهل قرطبة ويُدخل السرور على قلوبهم بالتصدُّق عليهم بالأموال والثياب والطعام، وحبَّذ –تقبَّل الله منه- أنْ تكون صدقته في الخفاء فلا يعلم بها أحد.. عملاً بقوله: صدقة السر تُطفئ غضب الرب، ولأننا نحن والحمد لله محل ثقته فقد وَكَل إلينا القيام بهذا العمل على أن نلتزم السرية التامة.. ونحرص ألا يعلمه أحدٌ غيرنا!

- وها أنت ذا -قبّحك الله- أرغمتنا على إفشاء سر الخليفة! (هتف جؤذر مستاءً)
- فما بال هذين التابوتين؟؟! (تساءل طرسوس متحفّظاً بنبرةٍ يشوبها الشك وعدم التصديق)؛ فزفر الحسن بن حيٍّ زفرة تأفُّف.. وصاح منتقداً مُوبِّخاً:
- بُعداً لك!! كأنَّك لا تُصدِّق ما سمعتَ؟؟!
- ما خطبك –أيها المجوسي- جئنا بهما لنحمل فيهما الصدقات! (هتف صاعد)
- هيا.. امضِ في سبيلك وخلِّ بيننا وبين عملنا؛ فقد أعقتنا بما فيه الكفاية! (صاح جؤذر بتململ)؛ فرنا إليهم طرسوس وهتف معتذراً مُتنصِّلاً:
- سأنصرف! وافعلوا ما كلَّفكم به أمير المؤمنين؛ جزاه الله وجزاكم خير جزاء!
- لن تنصرف قبل أن تُقسم لنا أنَّك تكتم هذا الذي رأيتَه الآن، ولا تتكلَّم به أبداً مهما حدث! (هتف صاعد وهو يمسك بذراعه.. يستوقفه).

امتثل طرسوس لقول صاعد، وراح يُقسم لهم بأغلظ الأيمان أنه لن يبوح بسرهم ولن يفضحهم وإنْ نُشِر جسده بالمناشير، ثم ولاهم ظهره وهمَّ بالانصراف؛ لكنَّه لم يكد يخطو خطوتين بعيداً عنهم.. حتى ارتدّ إليهم وهم يحملون التابوتين ويتجهون بهما إلى حجرة جؤذر، نظر إليهم من خلفهم؛ فلاحظ أنَّ أحدهما يَنُوء بالحمَّالَيْنِ رغم أنهما يبدوان قويين شديدين.. وأنَّ التابوت الآخر خفيف حمله على صاعد والحسن رغم أنهما كهلين ضعيفين. استوقفهم وهو يهتف بحماس: "هلا أشركتموني معكم في هذا الأجر المبارك؟!!"، فالتفتوا إليه فزعين مبهوتين.. ثم خاطبه صاعد مستيئساً: "ماذا تريد يا طرسوس؟؟ لعَمْري.. قد أزعجتَنا وأكثرت جدالنا!!".

- أرغب أن أشارككم الأجر! (هتف طرسوس بنبرة ترجي بريئة)
- كيف تريد المشاركة؟!! (سأله الحسن بن حيٍّ بضيق وسآمة)
- احمل معكم!

استسلموا لرغبته.. والغيظ والتوتر يكاد ينهب قلوبهم، وفيما يُدخلون الصندوقين إلى حجرة جؤذر.. تساءل طرسوس بلهجةٍ ساذجةٍ.. كالأطفال:

- لماذا هذا التابوت أثقل من ذاكم.. أيها السادة؟!
- وأيم الله.. إنَّك لَجُوجٌ لحوحٌ يا طرسوس! (صاح صاعد مُتبرِّماً)؛ ثم أردف: "هذا التابوت فارغ.. والآخر بداخله الصناديق الصغيرة والعُلَب التي سنوزِّع فيها صدقات أمير المؤمنين.. هل فهمتَ واطمأننتَ.. أم ما زلتَ ترتاب فينا؟؟!

رشقه طرسوس بطرف عينه مبتسماً باقتضاب وهو يساعد في حمل التابوت الثقيل.. والتزم السكوت. أُدخِل التابوتان إلى حجرة جؤذر الذي أمر الجميع بالانتظار خارج الغرفة، بعد لحظاتٍ استدعى صاعدَ.. فولج إليه وبقيا مدةً ملَّ فيها طرسوس الانتظار؛ غير أنَّه آثر أنْ ينتظر حتى يُتم معروفه للنهاية وينال الأجر والثواب كاملاً، في تلك الأثناء لاحظ الاضطراب والتضجُّر على الفقيه الحسن بن حيِّ؛ فقدَّر أنه قد يكون الإعياء الناتج عن الإجهاد والسهر اللذَيْن تحمَّلهما الرجلُ لأجل النهوض بهذا العمل الخيِّر؛ فحبَّذ أنْ يواسيه ويشجِّعه فقال له بنبرةِ ثناءٍ وامتنان: "جُزيتَ خيراً أيها الفقيه على ما بذلتَ من جهد!"، إلا أنَّ الفقيه أعرض عنه مغمغماً في سريرته: (تعساً لك! من أي سماءٍ سقطتَ علينا في هذه الساعة؟!)، وتحاشى الكلام معه.. وتشاغل عنه بتسابيح يُتمتم بها. بعد حين ناداهم صاعد ليحملوا التابوتين.. وقد قدَّر طرسوس أنهما امتلآ بالهبات والصدقات بما أحسه فيهما من ثِقَل، مشوا خطوات مُتلصِّصة وئيدة على هدى مشعل جؤذر الذي قادهم إلى خارج القصر من طريق لا يعرفه طرسوس؛ فقدَّر طرسوس أنه طريقٌ سري للأحوال الطارئة. بعد جهد ومشقة خرجوا بالتابوتين في سلام وخفاء إلى خارج القصر حيث تنتظرهم عجلةٌ[1] ذات زوجين من الخيل، أنزلوا التابوتين فيها ثم ركب الأربعة نفر داخلها.. في حين نكص جؤذر وطرسوس إلى داخل القصر، ثم افترقا وجؤذر يُنذره إنْ علم أحدٌ بما جرى؛ بينما طرسوس يطمئنه ويؤكد له أنَّه لن ينكث يمينه ولن يحنث في عهده، بعدها توجه جؤذر مباشرةً إلى حجرته؛ أما طرسوس فقد عاد ليذوب بين السامرين المحتفلين.

---

[1] : هي شبه ما يسميها أهل مصر: عربة كارو.

****

-المشهد الثاني والستون-

ليلةُ الوداع.. لم تنتهِ بعدُ؛ فما برح السامرون عاكفين على ملذاتهم؛ يثملون ويتضاحكون.. ويرقصون ويغنون، وقد أغرتهم كثرة أعدادهم بأن يتفرقوا إلى جماعات.. تجتمع كلُ جماعةٍ منهم في جهة؛ فبدا القوم كأنهم متحلقون.. وكل حلقة لها شأنها الخاص وسامرها الذي يُطربها. دارت كؤوس الخمر على الندمان بحفاوة وإسراف حتى لعبت برؤوسهم وختَّرت أجسادهم.. مما سَوَّغَ لأحد الظرفاء المتحلِّقين حول الخليفة المهدي أن يُمازحه قائلاً: "وكأني –يا أمير المؤمنين- بالشاعر امرِئ القيس الكندي يجلس معنا.. وكأني أسمعه يقول: لا صحو اليوم ولا سُكر غداً!". فيُجاوبه نديمٌ آخر صادحاً بنبرةٍ ذات تنغيم: "وأنا أسمعه يقول: خليلي لا في اليوم مَصْحىً لشاربٍ*****ولا في غدٍ إذ ذاك ما كان يُشْرَبُ". فضحك المهدي ملء فمه.. ثم هتف مؤكداً وهو يتأرجح بين اليقظة والغفلة: "أجل.. صدقتما! فإني أردتُها كذلكم.. وكما قال هو أيضاً: اليوم خمر.. وغداً أمر!!"، فتساءل أحدهم: "ها هو ذا خمر اليوم بين أيدينا؛ فما أمر الغد.. يا سيدنا؟!!". لاح السؤال كأنه عسير الإجابة.. لدرجة أنَّ المهدي توقَّف ملياً ليبحث عن إجابةٍ له.. قبل أن يجأر: "رمضان.. أيها الأبله! وهل ثمة أمرٌ أشد من شهر الصيام!!"، ثم غرق في نوبة ضحك وقهقهة.. وغرق معه فيها الجالسون حوله. أما فرتون: فكان كدأبه.. يقف بالقرب من الخليفة يملأ له كأسه كلما اجتفها؛ غير أنه كان يراقب الخليفة بشيءٍ من الارتياب! ويختلس النظر إليه بين الفينة والفينة؛ فيُحسّ أنه يتعمَّد إيهام الحاضرين بأنَّه أكثر من الشراب.. وأنه يترنَّح من السُكر؛ بينما الحقيقة غير ذلك.. فهو ساقيه وأعلم بمقدار شرابه المعتاد وبمقدار ما يُسكِره؛ إنه لم يزدد بعدُ عما اعتاد عليه من الشراب آنفاً؛ بل على العكس.. إنه مُقلٌ هذه الليلة. تلك كانت الملاحظة التي لاحظها فرتون على الخليفة؛ إلا أنه تحيَّر في معرفة مبررها؛ فجعل يترقَّب في صمت ويراقب من بعيد.

أثناء هذا الصخب ورغم هذا الزخم.. أقبل جؤذر يهرول إلى الخليفة، حياه في عجالة.. ثم مال على أُذنه يُسر إليه حديثاً؛ قفز المهدي على إثره من مجلسه جزعاً.. وأوعز إلى ابني عمه المغيرة: (عبد الجبار ومحمد) أن يتبعاه، وخرجوا يهرعون إلى جناح المؤيد!!

دلف المهدي مهرولاً إلى مخدع المؤيد.. يتقدمه الفتى جؤذر، ويتبعه ابنا عمه ونفرٌ من السامرين، تلفَّت في الغرفة فأبصر الطبيبَ يقف خاشعاً بجوار الفراش، رمق الفراش فأبصر جسد المؤيد مُسجّى؛ فالتفت إلى الطبيب وتساءل بشيءٍ من الوجل:

- كيف حاله.. أيها الطبيب؟؟
- أحسن الله عزاءك.. يا أمير المؤمنين! (تمتم الطبيب بنبرةٍ مُشبَّعةٍ بالأسى والأسف)؛ فبرقت عينا المهدي انشداهاً.. وارتجفت شفتاه وهو يصيح:
- هل مات؟؟ كيف؟ كيف حدث هذا يا جؤذر؟ تكلَّم!!
- لم يحدث شيءٌ ذو بال.. يا سيدنا! أصابته وعكةٌ بسيطةٌ بُعيد العصر –هي التي أخرته عن احتفال الليلة-؛ لكنها مرت بسلام.. ثم أراد أن يرقد.. فتركناه نائماً إلى أن استيقظ وطلب مني إحضار الطبيب... (هتف جؤذر متلعثماً)؛ فقاطعه الطبيب ليستكمل القصة هاتفاً بأسف:
- فأسرعتُ إليه.. يا سيدنا! إلا أني لم أُدركه؛ فقد نفذ أمر الله.. قبل وصولي!
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! (تمتم المهدي بأسى)؛ ثم اتجه إلى ابني عمه وهتف: "احكما ضبط القصر.. كي لا يطرأنا ما نكره في مثل هذا الظرف الفاجع، وأرسلا تَوّاً في استحضار الوزراء ورجالات القصر: مَن حضر منهم احتفال الليلة ومَن غاب، واحرصا على حضور.. القاضي ابن ذكوان بنفسه!
- لِمَ يتوجَّب حضور كل هؤلاء.. أيها الخليفة؟!! (تساءلا بشيءٍ من الاستغراب)
- سحقاً لكما! كي يشهدوا أنه مات ميتة طبيعية؛ فلا يرتاب فينا مرتاب.. ولا يعذلنا عاذل! (همس بنبرة توبيخٍ صارمة)؛ ثم التفت إلى الطبيب هاتفاً بحزم: "وأنت..

اترك كل وضعٍ على حاله إلى أنْ يحضر الشهود؛ فافحص الجثمان أمامهم فحصاً تاماً.. كي يتأكدوا جميعاً أنَّه مات حتف أنفه!".

*****

انقلب الفرحُ ترحاً، والسامرُ مأتماً؛ فقد تردد صدى الخبر في أرجاء القصر! سكتت الأصوات فلم تعد تسمع إلا همسا.. أو نحيباً مكبوتاً أو أنيناً مكتوماً، ومضى السامرون والندماء يركضون هنا وهناك، وهرع المطربون والمطربات وأصحاب الآلات يُخفون آلاتهم.. وخَفَّ الخدم والإماء يجمعون الموائد وخشارتها.. ويعيدون هندمة المجالس، وراح السُمَّار من ذوي الهيئات يجتمعون إلى الماء.. ويتفرَّقون بين متوضئٍ وغاسل وجهه أو رأسه، واختبأ بعضٌ منهم ليغتسل مستتراً بستار الليل وأشجار الجنان.. عسى أنْ يُذهِب الماء أثار السُكر والعربدة عن عقولهم وأجسادهم، وما لبث القوم أن تحوَّلوا من إنشاد الأغاني والألحان.. إلى الغمغمة بذكر الله وتلاوة القرآن.

انبرى الخليفة المهدي لمن أحاطوا بالخبر الحزين؛ فغدوا إليه يعزونه ويواسونه؛ حينما كان الشهود يجتمعون حول الجثة في مخدعها.. يراقبون الطبيب وهو يفحصها ويُقلِّبها بين يديه ليتأكدوا أنَّ الميتةَ طبيعيةٌ لا شبهة قتلٍ فيها، حتى إذا انتهى من عمله؛ وقفوا فرادى يدعون للمتوفى ويسترحمون ويستغفرون؛ ثم خرجوا إلى الخليفة ليكلموه؛ فكان أول المتكلمين هو قاضي القضاة (ابن ذكوان)، مدَّ يده إلى الخليفة مصافحاً؛ فرنا إليه المهدي ملياً.. ثم هتف بصوتٍ كسير أسيف: "كيف وجدتموه.. يا أبا العباس؟؟"، فربت القاضي على كتفه مواسيً وهو يؤكد بنبرة أسى:

- مات حتف أنفه.. يا أبا الوليد، ليس به أي أثر لجرح أو خنق أو حرق.. وأكد الطبيب أنَّ أمارات التسمُّم غير ظاهرة فلا ثمة شبهة قتل بالسم، ونحن شهود على هذا، كل نفس ذائقة الموت؛ قد انقضى أجله؛ فلله ما أخذ ولله ما أعطى!
- إنَّا لله وإنَّا راجعون! طبتَ حياً وميتاً.. يا هشام! بماذا تأمرنا أن نصنع.. يا أبا العباس؛ فأنت إمامنا في مثل هذه المسائل؟ (هتف المهدي بصوتٍ يتهدَّجه الأسى)

- ينبغي إكرامه.. يا أمير المؤمنين! التعجيل بغسله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه.. على سنة نبينا عليه الصلاة والسلام.. وإنفاذ وصيته إذا كان له وصية!
- صدقتَ.. أيها القاضي! مهما كان بيننا من دَخَن فإنَّه عمنا.. وعلى المرء أن يكرم عمه! (تمتم المهدي مُتحسِّراً)؛ ثم استنشق نفساً عميقاً قبل أن يُنادي فيمن حوله صائحاً: "أكرموا ميتنا.. وعجِّلوا لنُصلِّ عليه ولندفنه.. قبل الصبح!".

في ذات الليلة: (الاثنين الموافق: ٢٧ من شعبان سنة ٣٩٩هـ).. صلى المهدي الجنازة على المؤيد داخل القصر.. وواراه التراب، ثم أمر بإعلان وفاة المؤيد على أهل قرطبة.. وبسرعة إرسال البعوث بالنبأ إلى كل أقاليم الأندلس؛ فخرج الناعي يطوف أرباض قرطبة وأرجاءها لإعلام أهلها بالخبر الحزين، وفرض الحداد عليهم لمدة ثلاثة أيام حزناً واغتماماً، ثم جلس الخليفة لعامة الناس وخاصتهم كي يتقبل العزاء في الفقيد: كان الناظر ينظر إليه.. فيراه واجماً عابساً مهموماً؛ فيحتار في أمره: (هل هو حقاً حزينٌ على المؤيد.. أم يتظاهر بذلك أمام الناس؟؟ ولماذا يتظاهر بالحزن والأسى عليه إلى هذا الحد؟!!)، أما هو فقد كان شارداً في حديث وجدانه مع المؤيد ذاته: (أخيراً.. أعلنوا موتك أيها المؤيد! أخيراً أراحني الموتُ من رُزْئي بك! آه.. آه يا رجل.. وكَأَيٍّ من ليلةٍ مرت عليَّ.. أرقتني فيها جثتُك وأنا أحملها في خاطري وأدور بها حائراً: كيف أُواريها.. ولا أجد إلى ذلك سبيلا! الآن.. شهدوا على موتك.. وصلّوا عليك ودفنوك! أخيراً.. فارقتَني.. وانتهتْ عذاباتي بك! أعلم أنَّك قد تعود من ميتك هذه يوماً من الأيام!! لكن.. لا.. لا!! لن اسمح لك بذلك! بل اذهب بلا رجعة.. فلن أدعك تعود إلى حياتي مرة أخرى لتنغِّصها عليَّ.. أو لتُكدِّر صفوي بها! آه.. آه.. كم كنتُ وما زلتُ أغبطك وأحسدك رغم ما فيك من ضعف وخنوع، وكنتُ وما زلتُ أمقتُك وأبغضك رغم ما ورثتُه عنك من مُلك وسلطان! الآن حق ليَّ أن أتنفس الصعداء.. وحق لي أنْ أقول: قد مَلَكتُ مُلكي!)؛ كان حديثاً يدور في خاطره مع المؤيد.. غير أنَّ المؤيد لا يجيب!!

****

-المشهد الثالث والستون-

ما عتَّم خبر موت المؤيد أنْ ذاع وفشا في أرباض قرطبة، وطار إلى أرجاء الأندلس وأقاليمها، وعلمت به أم هشام المروانية؛ فحزنت هي وسلوان ومن معهما للنبأ الفادح حزناً شديداً، ولا سيما بعدما عايشهم المؤيد في بيتهم أياماً فألفهم وألفوه، وأنس بهم وأنسوا به، وقد ضاعف الحزنُ لموته من عذابات أم هشام؛ فازداد تألُّمها وتفجُّعها!

لكن.. ما لبثوا أنْ أهلَّهم رمضانُ؛ فلملم شعبانُ أحزانه مؤقتاً.. راحلاً عن بيت أم هشام.. ليُخلِّي بينها وبين الاحتفاء بشهر البر والطاعات، فكبتت أحزانها وتوجُّعاتها.. وشمَّرت عن ساعديها للاحتفاء بالشهر الكريم. قضت أغلب نهارها في بستانها (منية فاطمة المروانية) لتُشرف بنفسها على إعداد سِّماط إفطار اليوم الأول.. وعلى تجهيز الهدايا التي أمرت أبا عثمان الكاتب بإرسالها إلى أقاربها وجيرانها وأصدقائها ومعارفها كعادتها كل عام، ولم يفتها إضافة أهل بيت قاضي القضاة فيمن ستهاديهم هذا العام، ما برحت –كدأبها- تعمل بجد ونشاط لا يتناسبان مع سنها الذي تجاوز الستين بعامين؛ تُعينها سلوانُ في ذلك العمل الخيِّر باجتهاد ومثابرة.. وبسعادةٍ لم تُنسها قلقها ولا تألمها لحال حمدون، ومعهما –كالعادة- أم سعدون وولدها.. وانضمتْ إليهم عائشةُ بنت أحمد القرطبية (شاعرة قرطبة المشهورة وتلميذة أم هشام النجيبة) كما هو دأبها في الأعوام السابقة، وجاءتهم اليوم –على غير المعتاد- السيدةُ جويرية (زوجة أبي عبد الله الفقيه المشاور) لتقول: "دعوتُ نفسي إلى سماطكِ يا أم هشام؛ فهل تقبليني؟؟"، بشَّتْ لها أم هشام وهتفت بترحاب: "على الرحب والسعة.. يا حبيبتي!"؛ ثم أردفت تسأل بمبالاة: "ما بال الفقيه أبي عبد الله؟ ألا يفطر معكِ أول يوم من رمضان؟!"، فأجابتها جويرية بنبرةٍ مرحة غلَّفتها بتضجُّر مصطنع: "دعاه الخليفةُ المهدي مع قاضي القضاة إلى مأدبة عظيمة أعدها في القصر للوزراء والقضاة والفقهاء؛ فشَرطتُ عليه إذا لبى دعوة الخليفة أنْ أقضي يومي هذا معكِ؛ فهتف

موافقاً: أجل.. نِعم الرأي! كأنما يريد الهروب من مجالستي!!"، فابتسمت أم هشام وسلوان، وصاحت عائشة القرطبية تمازحها: "سامحه الله! انفلت سالماً من مجالستكِ.. وابتلانا بكِ!"؛ فضحكتْ جويرية وضحكنَّ جميعهنَّ.

قبيل الإفطار.. حالما كانت أم هشام منهمكة مع أم سعدون وأبي عثمان الكاتب في التجهيزات الأخيرة؛ قبعت الباقياتُ ينتظرنَّ المغرب.. ويسترحنَّ قليلاً بعد جهود النهار الصائم المُضنية، هتفت جويرية تخاطب عائشة قائلة:

- أ لن تُنشدينا شيئاً من شعركِ لهذه المناسبة الكريمة؟!!
- حقاً.. لا يحضرني الآن أي خاطرة! لكن.. إنْ كان ولابد؛ فأُنشدكِ شعراً لابن دراج القسطلي نظمه في وداع شعبان واستقبال رمضان!
- هات ما عندكِ.. أيتها الشاعرة النجيبة! (هتفت تُشجِّعها بمرح وفُكاهة)
- فلئن غنمتَ هناك أمثال الدُمى ... فهنا بيوت المسك فاغنم وانتهبْ

تحفا لشعبان جلا لك وجهُه ... عوضا من الورد الذي أهدى رجبْ

فاقبل هديته فقد وافى بها ... قدرا إلى أمد الصيام إذا وجبْ

واستوف بهجتها وطيب نسيمها ... فإذا دنا رمضان فاسجد واقتربْ

صفقتْ جويرية طرباً بما سمعت وهي تهتف: "أحسنتِ –والله- أنتِ وشاعرنا الهمام أيتها الشاعرة النجيبة!"؛ ثم التفتت إلى سلوان –التي كانت ساهيةً عنهما.. شاردةً في حال حبيبها حمدون- وخاطبتها كأنما توقظها.. قائلة:

- سلـــوان.. ما قولكِ فيما سمعتِ؟!
- أحسنتِ.. أيها الشاعرة! (قالتها باقتضاب)؛ فنبَّهتها جويرية بنبرةٍ مداعبةٍ زاجرة:
- إنَّ هذه الأبيات.. لشاعرنا الكبير (ابن دراج)؛ وليستْ لها.. يا أنستي!

فانتبهت لها.. ورمقتها بنظرة تحفُّز وجدية مصطنعين تُبادلها مزاحاً بمزاح؛ ثم هتفت:

- إذا كان ابن دراج هو مَن قَرَضَ هذه الأبيات؛ فعندي أبياتٌ لمن هو خيرٌ منه!

- هاتِ ما عندكِ.. شريطة أن يكون عن شهر الصيام! (جأرت عائشة)
- عـامٌ مَضى من عُمرنا في غفلـةٍ   فتَنَبَّهـوا فـالعُمْر ظلٌّ سَحابِ

وَتهيَّؤوا لتَصَبُّرٍ ومشـــــقةٍ   فأجـورُ مَن صَبَروا بغير حسـابِ

اللهُ يجزي الصـــــائمين لأنهم   مِنْ أجلــه سَخروا بكلِ صعابِ

لا يـدخلُ الريَّـانَ إلا صـائمٌ   أَكْـرمْ ببـابِ الصـومِ في الأبـوابِ

وَوَقـاهم المولى بِحـرِ نهـــارهم   ريـحَ السَّـمومِ وشـرَ كل عـذابِ

وَسُـقوا رحيـقَ السَّلسبيل مزاجُـهُ   من زنجبـيـلٍ فـاق كلَّ شـرابِ

هذا جزاءُ الصائمين لــــــربهم   سَعــــــدوا بخيرِ كرامةٍ وجنابِ

- صدقتِ واللهِ.. يا سلوان؛ فإنَّ الإمام الشافعي –عندي- أعلم وأشعر من ابن دراج وأمثاله من شعراء الأندلس! (جأرت عائشةُ بخشوع وارتياحٍ لِما سمعتْ)؛ في حين تساءلت جويرية باستغرابٍ.. رغم طربها وإعجابها بما سمعتْ:
- مَن الإمام الشافعي.. هذا؟؟!
- بُعداً لـكِ.. يـا خرقـاء! إنَّـه: محمد بـن إدريـس الشـافعي المطلبي القرشي.. إمـام أهـل السنة الذي مات ودُفن بأرض مصر منذ ما يقارب المائتي عام. (هتفت عائشة)
- لا أعلـم إمامـاً –يـا أختـاه- غير الإمـام: مالـك بـن أنـس.. رحمـه الله! (جـأرت جويريـة بشيءٍ من السذاجة الطفولية)؛ فضحكت عائشةُ ساخرةً منها إلى حد القهقهة.. وضحكت جويرية هازئةً من نفسها.. وضحكت معهما سلوان.

****

-المشهد الرابع والستون-

انقضتْ تراويحُ الليلة الرمضانية الثانية بجامع قرطبة الكبير؛ وغادرتْه أم هشام بعد أنْ أقامتْ فيه الصلاة كدأبها، وانقلبتْ عائدةً إلى بيتها بالربض شرق قرطبة تصحبها سلوان، ولأول مرة تشعر بأنَّ في صحبتها ابنةً محبوبةً تشاركها شعائر شهر الطاعة من صيام وإطعام وصلاة وقيام.. كانت بمثابة السلوان الذي أرسله الله ليصبِّرها عن

افتقداها ولدها (حمدون) وجزعها عليه.. وإنْ كان ما زال في القلب أسى وانكسار وحسرة على فراقه وقلقاً عليه. كانتا تسريان.. ودُجى الليل يبدده من حولهما قناديلُ قرطبة المضيئة وأنوارُ المصابيح الصغيرة المحمولة بأَكُفِّ الأطفال يُنيرون بها الطريق للمصلين الخارجين من المسجد بعد الصلاة.. وللسابلة المارين هنا وهناك، كانت أجواء رمضانية احتفالية بهيجة اعتادت عليها دروب قرطبة وشوارعها وأرباضها في رمضان من كل عام، طفقت أم هشام تمشي الهوينى وهي تُحيي المارة.. وتُهادي الأطفال والصبيان بالحلوى التي يحملها بين يديها سعدون وأمه إلى باب الدار، فتحت نجوى لهنَّ الباب، ووَلَّى سعدون ليمرح مع الغلمان كما لو كان غلاماً مثلهم!

ارتمت أم هشام على الأريكة.. وزفرت زفرةً طويلة كأنَّما تبدد بها إرهاق اليوم الطويل وعناء العمل الشاق؛ فجأرت نجوى برأفة:

– يبدو أنَّكِ أُجهدتِ اليوم كثيراً.. يا سيدتي!

– جَهَدَتْ؟!! وأي جهد!! تالله إنَّها أجهدتْ نفسها كأنها شابةٌ في مقتبل العمر! (هتفتْ أم سعدون معجبة بكرم سيدتها وسخائها.. ومشفقةً عليها)؛ حالما اعتدلت أم هشام في جلستها حياءً.. ثم هتفت قائلة بتواضع وتضرع إلى الله:

– نحمد الله أنْ بَلَّغنا الشهر الكريم ونحن في عافيةٍ وسعة، ونسأله –عز وجل- أنْ يتقبَّل منا صالح الأعمال.. وأنْ يُعيننا على طاعته وحسن عبادته!

– اللهم آمين! (جأرنَّ بخشوع وتضرع)

– أين سُعدى.. يا نجوى؟؟ (سألت أم هشام)

– أنا.. ها هنا.. يا سيدتي! (صاحت سُعدى تنادي بصوت مُرتعش)؛ نظرت أم هشام تجاه الصوت فأبصرتها تسعى قادمة من أقصى الدار، وفيما تنتظر اقترابها منهنَّ التفتت إلى أم سعدون لتهتف بترحاب ودود:

– ابقِ لتبيتِ معنا الليلة أيضاً.. فنطعم السحور معاً!

- حباً وكرامة! (صاحت بامتنان)؛ حينما أقبلت إليهنَّ سُعدى، نظرت إليها.. وحملقت في وجهها عن كثب؛ فرأتها ذابلة الوجه مكفهرة.. محتقنة العينين كما لو كانت تبكي بكاءً طويلاً؛ فوَجِل قلبها إشفاقاً على الجارية.. فسألتها بودٍ ولين:
- ما لي أراكِ كأنكِ كنتِ تبكين؟!! ماذا أصابكِ.. يا سُعدى؟؟
- لا تقلقي.. يا سيدتي! ليس إلا مشقة صيام اليوم الأول!
- أعانكِ الله وهوَّن عليكِ.. وتقبَّل منا ومنكِ! أ وليس غير هذا؟؟
- اللهم.. لا! (غمغمتْ سُعدى مؤكدة بنبرةٍ كسيرة)؛ فقاطعتها نجوى.. وهتفت تُكذِّبها -وكأنما تشكوها لسيدتها-:
- بلى! لَعَمْرُكِ يا سيدتي.. إنَّها تبكي من أول النهار.. وأجهل عِلَّة بكائها؛ ظلَّتْ تبكي أغلب اليوم.. دونما يخاطب لسانها لساني إلا يسيرا!

رقَّت لها أم هشام فأجلستها إلى جوارها وخفضت لها جناحها وجعلت تُقبِّلها وتربت على كتفها.. ثم سألتها بإشفاقٍ وحنان:

- لماذا البكاء.. يا بُنية؟!! أنشدتُكِ الله.. هلا أجبتني وطمأنتني عليكِ!

رفعت بصرها.. وشرعت ترنو إليهنَّ بعينيها الحمراوين.. وتتفحَّص وجوههنَّ؛ فوافقتهنَّ يُطالعنها بوجوهٍ وجلة وعيونٍ مشفقة؛ فدهمتها نوبةُ بكاءٍ حارة لم تملك أنْ تكبحها؛ فاستسلمت لبكائها ونشيجها؛ فطفر الدمع من عيون سلوان رغماً عنها وراحت تبكي لبكائها.. وبكت أم هشام وبكت أم سعدون حتى انتحبنَّ.. ولا تدري إحداهنَّ يقيناً: لِمَ تبكِ الأخرى.. فلكلٍ أحزانه وأشجانه، مرت عليهنَّ لحظاتٌ باكية لا يعلم مدتها إلا الله.. تضجَّرت فيها نجوى منهنَّ كلهنَّ وهَمَّت أن تصيح في سُعدى موبخة معنفة.. لولا أنَّ المقام لا يسمح، إلى أنْ هدأنَّ وأحجمتْ سُعدى عن البكاء.. فكفكفت أم هشام دموعها بحنوٍ.. وأعادت عليها السؤال إشفاقاً وحناناً؛ فرنت إليها بعينين تحتقنان احمراراً وأسى.. وبوجه مبثوث الحزن في قسماته؛ ثم اضطرت اضطراراً أن تكاشفها بمكنون صدرها.. فتمتمت بصوت يتهدَّجه النشيج:

- تالله يا سيدتي.. إنني لأبكي رغماً عني، وليس بكائي لأمرٍ يخصني، وإنما.. وأيم الله.. تذكرتُ مولاي الخليفة المؤيد وما كان من حاله معنا في رمضان الأعوام الخوالي.. وحَدَبه علينا ورحمته بنا، وتذكرتُ يوم خلعه الثوار.. وما أصابه من ذُلٍ وإهانة.. ونَزْعهم الخلافة عنه التي هي ميراث أبيه وجده.. فأشفقتُ عليه، ورثيتُ له أنه مات قبل أن يدرك رمضان بأيام معدودة، وعزَّ عليَّ فراقه؛ فما استطعتُ أنْ أَكفَّ عيني عن البكاء عليه سائر اليوم!
- تعساً لكِ! ألهذا ملأتِ عليَّ يومي كدراً وكآبة؟! (صاحت نجوى هازئة بتضجُّر)؛ فرشقتها أمُ هشام بنظرةٍ لائمة.. ونهرتها صائحة:
- أُسكتي.. يا خبيثة! ما لنا وما لكِ وقد نُزعت الرحمةُ والشفقة من قلبكِ! ألا ترين حال أُختكِ؟! هلا رأفتِ بها.. وحزنتِ لحزنها!

ثم التفتت إلى سعدى.. وطفقت تطيِّب خاطرها وتسكِّنها إلى أنْ هدأ جزعها وذهب عنها كثيرٌ من كدرها، ثم انصرفت كلٌ منهنَّ لتأوي إلى مخدعها.. وما أبطأ سلطان النوم أنْ غلبهنَّ؛ بيد أنَّه ما انفك يراوغ أم هشام.. فلم تستطع أن تهجع، وما انفكت تفكر في أمرٍ لم يخطر على بالها قبل الآن.. قد نبَّهتها إليه سُعدى عن غير قصد؛ حتى حسمت الأمر واستقرت على رأيٍ.. أزمعت أن تُنفذه من الغد.. دون الالتفات لرأي أحد!

****

-المشهد الخامس والستون-

انفضت مأدبة الخليفة لهذه الليلة الرمضانية.. وانتقل ومَدعوُّه إلى صلاتي العشاء والتراويح، ثم انصرف المدعوّون كلٌ إلى شأنه مهنئين شاكرين ممتنين للخليفة.. داعين الله أنْ يديم ملكه وسلطانه رمضانات عديدة. الحاجب (عبد الجبار) كان من بين المدعوِّين لتلك المأدبة، غير أنَّه لم ينصرف إلى داره.. فقد كان ضَجِراً ضائق الصدر، ففضَّل أن يبقى وحده في مجلسه بالقصر.. وقرر أنْ يبيت ليلته فيه، قد ضَغِنَ صدره على المهدي، وسلبه حقده عليه عقله فطفق يُحدِّث طويته حانقاً: (مات المؤيد؛ فما

عتم هذا الصعلوك (يقصد المهدي) أن استولى على كل ممتلكاته وميراثه.. حتى الجواري والإماء استحوذ عليهن كلهن لنفسه.. حتى الملابس والثياب!!)، وأخذ يعض أصبعه غيظاً ومقتاً: (لابد أن أنال نصيبي من تركة المؤيد أنا أيضاً! لكن.. كيف!؟ كيف!!؟)

لم يكد ينعم بالخلوة منفرداً.. إلا ودخل عليه فرتون يبتسم ابتسامته الباردة اللزجة، ودونما يبادله التحية صاح فيه رادعاً:

- كيف علمتَ أنني هنا؟!! ارجع عني؛ فإني أرغب أن أمكث وحدي!
- كيف أتركك على هذه الحال يا مولاي الخليفة.. وأنا حاجبك وأمين سرك؟!
- بما تهذي.. أيها اللئيم؟!! (صاح وهو يرمقه بنظرةٍ زاجرة)، ثم زفر زفرة مصدور.. وأردف بنبرة أهدأ: "لا تناديني بهذا اللقب أيها الأرعن.. فتفضحنا وتُودي بنا!".
- إنما أهمس بها سراً بيني وبينك.. يا سيدي!
- لا تعد لمثلها فيسمعك سامع.. فتكن النهاية. ما الذي أتى بك إليَّ في مثل هذه الساعة؟ ماذا تريد؟؟ (هتف عبد الجبار متأفِّفاً متجهّماً)
- أحسستُ أنَّك ضائق الصدر غضبان؛ فأحببتُ أنْ أهديك هذه.. لأُخفف عنك! (أَسَرَّ بنبرة ماكرة) وهو يخرج من طيات ثيابه قنينة خمرٍ معتقة.. ثم وضعها على طاولة أمام عبد الجبار الذي رمقها بعين زائغة.. ثم تساءل مُتصنِّعاً اللامبالاة:
- ما هذا.. يا فرتون؟؟!
- هذا خمرك المفضل.. أيها الأمير! أم تُراك اعتزلتَ الخمر.. كما اعتزلها المهدي؟!!
- أ تحسبه اعتزلها حقاً؟!! (هتف هازئاً بسخرية)؛ حالما امتدت يده وتناول القنينة وقرَّبها من فمه وأنفه.. يتشمم رائحتها، ثم يتنشق شهيقاً عميقاً ويهتف بارتياح: "كنتُ اعتزمتُ أنْ أمكث منفرداً؛ لكن.. لا بأس ابقَ معي.. كرامةً لهذه القنينة المعتقة!"؛ ثم قهقه بضحكة مفتعلة.. بادله جليسه إياها بمداهنة قائلاً:
- أنا خادمك المطيع.. يا أمير المؤمنين!
- صَهْ.. يا مُتَهَوِّر! احذر أن تتفوه بها مرة أخرى فيفتضح أمرنا.. ويكون هلاكاً!

- لا ترتاع.. يا سيدي! فقد اقتربت نهاية المهدي!
- بل قُل: انتهت آمالنا؛ فقد مات المؤيد على فراشه حتف أنفه.. وماتت معه خطتنا! (غمغم بإحباط)، فحدجه فرتون بنظرةٍ ماكرة فاحصة وتساءل بارتياب:
- هل تُصدِّق أنه مات حتف أنفه.. أيها الأمير؟؟!
- ماذا تقصد؟! لقد كنتُ ممن عاينوا جثته مع الطبيب.. ولم أر في جسده أثر لخنق أو جرحٍ أو أي أثر لمحاولة اغتيال.. وشهدتُ بهذا مع الشهود!!
- قد يكون صحيحاً! لكن.. ألا ترى معي أنها مصادفةٌ عجيبة: أن يجمع الخليفةُ أهلَ القصر كلهم –على غير عادته- في احتفال صاخب بمجلس الندماء بعيداً عن جناح المؤيد، وفي ذات الليلة يموت المؤيد في مخدعه.. دون أن يعلم بخبره أحد؟!!
- إنْ تعجب؛ فعَجَبٌ مثله مأدبة الإفطار التي دعانا إليها اليوم.. ومَن حضرها، وما اتخذه في أثنائها من قرارات!! (هتف عبد الجبار ساخطاً مستاءً)
- ما شأنها.. وأي قرارات اُتخذت؟!
- أما شأنها: فقد كانت مأدبة عظيمة البذخ دعا المهدي إليها كل رجالات الدولة والقصر: أنا وأخي محمد وقضاة ووزراء وفقهاء، لكنَّه لم يدع سليمان.. ولا أباه ولا أخوته.. كأنهم ليسوا من بني مروان.. وكأنَّما سليمان لم يعد وليّ عهده!
- أعلم أنه يتعمَّد تجاهلهم.. فهذا دأبه مذ تولى الخلافة، وأنت أعلم الناس بهم وبما بينهم من ضغن؛ فليس في هذا عجباً؛ وهو عين بُغْيَتنا!
- إنَّما العجبُ في حضور أرذال الناس لمأدبةٍ كهذه!!
- مَن؟؟ (تساءل فرتون بفضول وحب استطلاع)
- صاعد بن عبد الوهاب والحسن بن حيّ، دُعيا إلى المأدبة وجلسا معنا عليها.. وهما من زعماء الدهماء.. وأرذال الناس! (هتف باحتقارٍ واستنكار)، كَرِهَ فرتونُ ازدرائه لهما.. وأسر في دَخِيلته: {إذا كان يغمط هذين؛ فما قوله فيَّ؟!}.. غير أنَّه أسرها في نفسه ولم يبدها له.. ثم هتف يجادله:
- ربما دعاهما جبراً للخواطر؛ فكما تعلم: قد كانا من أنصاره المخلصين!

- وهل يوليهم الوزارة جبراً للخواطر أيضاً؟!! (أجابه متسائلاً باستهجان واشمئزاز)، فأخفى فرتون ابتسامته.. وسأل مستدركاً.. كأنَّما يستوثق:
- وَلاهم الوزارة؟! هل تلك هي القرارات التي اتخذها؟؟
- نعم! أعلنها صريحةً على المأدبة: اشهدوا يا سادة أنَّ هذين الرجلين صارا –من اليوم- وزيرين من وزرائي! دون موافقتي وأنا الحاجب.. ودون مشاورة أحد من رجال الدولة! (هتف مُستاءً)؛ ثم أردف بازدراء: "كيف لهذين المغمورين أن يكونا من وزراء الخلافة! حقاً.. إنَّه لصعلوك أرعن.. لا يُواطئ إلا الصعاليك أمثاله!".

انزعج فرتون لما أبداه عبد الجبار من تحقير وازدراء للرجلين؛ لا محبةً لهما.. بل خوفاً على طموحه ومستقبله الذي يخططه، راح يتساءل في دَخِيلته: (إنْ لم تقبل –يا عبد الجبار- بهما في الوزارة؛ فكيف سترضى بي حاجباً لك إنْ صرتَ الخليفة؟! هل أخطأتُ في حق نفسي حين اخترتُ مولاتك دون المهدي؟!)؛ أغمته تلك الخاطرة حينما جالت بذهنه؛ بيد أنه كتم هواجسه في صدره مداراةً للرجل الثاني في السلطة، هتف مستفهماً.. متصنِّع الهدوء والكياسة:

- وماذا ستفعل حيال ذلك.. أيها الحاجب؟! هل سترفض التعامل معهما كوزيرين؟؟ لو فعلتَ يا سيدي؛ قد يغضب الخليفة!!
- ماذا سأفعل؟ لا حيلة عندي غير الرضوخ للأمر الواقع.. إلى حين! (قالها مُزمجراً).

ثم سكت.. وراح يرتشف رشفات متلذذة من قنينته، وكأنَّ الخمر هدَّأت مزاجه العصبي وصرفت عنه بعضاً من سآمته وضجره؛ فأنشأ يُقلِّب بصره في سماء المجلس، وإلى جواره.. فرتون يختلس إليه نظرات الشك والوجل، يساوره شعور غامض يُحدِّسه بأنَّ هذا الرجل لن يفي بما تحالفا عليه، بيد أنه آثر السكوت والتريُّث.

التفت إليه عبد الجبار وهو ما زال يحتسي الخمر مُتلذذاً، همس في صَبْوةٍ ونشوة.. كأنَّما يفضفض: "على أني في شأنٍ عظيم.. يشغلني عن المهدي ودولته.. ووزرائه!!".

- وما ذاك.. أيها الأمير؟!
- إنَّه شيءٌ عظيم.. يُؤسر القلبَ والعقل والروح.. ولا يفهمه أمثالك، إنَّه الحب.. أيها الصقلبي! (تمتم بصوتٍ تُخالطه أنفاسٌ حارة)، فيما يدفن فرتون امتعاضه وخيبة أمله في صدره، ثم يهتف باستعظام مُصطنَع.. مداراةً ومداهنة:
- الحاجب عبد الجبار.. يُحب؟!! أَعْظِم به من نبأ!!
- ولِمَ لا؟؟ ألستُ رجلاً له قلبٌ كسائر البشر؟!
- هل لي أنْ أعرف مَن هذه الملكة التي تُوِّجت على قلب الحاجب الأعلى؟؟!
- ويها يا فرتون.. غادةٌ حسناء! آه.. لو تمكَّنتُ أنْ أملكها في يدي كهذه القنينة؛ لملكتُ سعادة الدنيا كلها.. وما أرضى عنها بديلاً!
- عَرِّفها لي يا سيدي.. وسترى! سآتيك بها جاثيةً تحت قدميك!
- بما تهذر أيها الوغد؟؟ أتحسب أني أشتهيها كالبهائم؟؟ أقول لك أني أحبها.. أحبها! لكن.. أنى لك أن تفهم معنى الحب! لا جدوى من الحديث معك!!
- قد لا أفهم؛ لكني بالتأكيد أقدر أنْ أُحقق لمولاي رغباته، حدِّثني بأمرها.. وأعلمني ماذا تريد منها.. وسترى!
- ماذا ستفعل؟!! (هتف باستهزاء) ثم أردف –وعقله يتأرجح بين السكرة والنشوة- قائلاً: "أريدها أن تحبني كما أُحبها.. فهل تملك أن تجعلها تُحبني؟؟".
- وهل تُوجد -على أرض الأندلس- امرأةٌ تأبى أنْ يحبها الحاجب عبد الجبار وتحبه؟!
- لم تأبَ حبي فهي لا تعلم به؛ بل.. إنها لا تعرفني حق المعرفة.. وأنا أيضاً لم أتعرف عليها بعدُ؛ إنما رأيتُ وجهها مرة واحدة –وكانت ساعتئذ ثائرةً غضبى-؛ فما فارق وجهها المليح –بعدها- أحلامي؛ أراها كل ليلة في منامي، وفي يقظتي.. لا تزايل صورتها خيالي! ولا أدري كيف؟!! كيف نبض قلبي هكذا فجأة بحبها.. ومتى؟! إنَّ ما ينتابني هذه الأيام من حبها.. لشيءٌ عجيب غريب! لقد تجاوزتُ الأربعين من العمر.. لكني أشعر وأنا أفكر فيها كأني غلامٌ أمرد لم أتجاوز أعتاب الرابعة عشر!!

- هذا شيءٌ عجيبٌ.. حقاً!! لم أتخيل أبداً أنَّ قلب الحاجب –مُهاب الجانب- يخفق هكذا لامرأةٍ يراها في المنام.. ولمَّا يتعرَّف بها بعدُ!
- لأنَّك جِلْف غليظ القلب! على أنِّي أتعجب مثلك؛ فإنِّي لم أعهد -من قبلُ- رقةً وصَّبابةً في قلبي كالتي تغشاني عندما أراها في منامي؛ لذا فإنِّي أفكر في استدعاء مُعَبِّر الأحلام.. كي أستشيره فيما أراه من منامات!
- لقد تشوَّقتُ أن أعرف مَن هذه التي صبا لها قلبك كل هذه الصبوة!
- لعلك رأيتها.. يوم كنا في دار أم هشام المروانية!
- عَرفتُها! إنها.. حبيبة حمدون.. التي يتوق إلى زواجها.. و..
- اخرس.. قطع الله لسانك! لا تقل هذا! ليست حبيبةَ أحد! ولن تكون لأحدٍ غيري البتَّة.. أ تفهم لن تكون لغيري! (قاطعه عبد الجبار صائحاً بانفعالٍ وتشنُّج)؛ فانكمش فرتون تهيُّباً من ردة فعله العنيفة.. ثم أجابه مُتنصلاً:
- عفواً.. يا سيدنا! لم أقصد إغضابك؛ إنما أردتُ أن أقول أني أعرفها من قبل مداهمتنا لتلك الدار بمدة!
- ماذا تعرف عنها؟؟ هيا أخبرني! (هتف عبد الجبار بانتباه وشغف)
- لقد أخبرتَني –يا سيدي- أنَّ المؤيد وحمدون حدَّثاك بأنَّها قريبةُ قاضي اشبيلية وأنَّه يرغب في الزواج منها، لكنهما لم يُخبراك كيف عَرَفها.. ولماذا تقيم في داره؟!
- لا.. ولم تطرأ مثل هذه الأسئلة على عقلي!
- أنا أعرف حكايتها من أولها.. أيها الأمير، وأعلم كيف تعرَّف بها حمدون!
- ويحك! أخبرني.. فإني شغوفٌ لمعرفة كل شيءٍ عنها!
- مات أبوها.. فتزوَّج أمها رجلٌ.. كنتُ أعمل عنده قبل الثورة، ثم ماتت أمها؛ فطمع فيها ذلك الخسيس، فلمَّا تمنَّعت عليه.. حبسها في مخزن بضاعته الذي كنتُ أحرسه له، ثم أراد الله أن تفرَّ منا، فطردني من العمل ظناً منه أنني هرَّبتها!
- وما شأني أنا.. إذا كان طردك أم جلدك! خبِّرني عنها هي، ماذا حصل لها؟؟

- غاب عني خبرها، إلى أن جاء حمدون يستأذن الخليفة في السفر إلى اشبيلية ليطلب من أهلها أن يزوِّجوه –وطبعاً لم يخبره أنَّ وليها هو قاضي اشبيلية-، فحكى أمامي ما جرى لها بعد أنْ هربتْ مني!
- ما الذي حكاه عنها؟؟ أخبرني بكل شيء!! (هتف عبد الجبار باهتياج وعصبية)
- بعد أنْ هربت.. قادتها قدماه إلى جبل العروس، فلاذت بالثوار وعاشت في جوارهم أياماً.. علم خلالها المهدي أنها شاهدت شنجول وهو يتآمر على قتل أخيه المظفر، فانتهز الفرصة.. وسعى بها إلى أم المظفر ليؤلِّبها على شنجول.. وكان له ما أراد، ثم انتقلت الفتاة إلى بيت حمدون لتعيش مع جدته المروانية!
- تذكرتُ! (صاح عبد الجبار بانفعالٍ)؛ ثم أردف: "أجل.. وأيم الله قد التقيتُ بها في الجبل.. وسمعتُ حكايتها.. ولم أُصدق مقالتها حينها؛ كم كنتُ أحمقاً!! كيف لم أرَ عينيها الهدباوين ساعتئذ!؟ كيف تركتُها لحمدون يهنأ بجوارها طول هذه المدة دوني!!؟ لَعَمْري.. ما زادني حديثك الآن عنها إلا حباً لها، إنَّها حقي أنا.. ولابد أن أستعيدها من حمدون!".
- ثَمَّةَ حقوق عديدة عليك استعادتها.. يا سيدي! وأعتقد أنَّ أعظمها خطراً: الخلافة! فلو استعدتَ الخلافة؛ فإنَّ الأندلس كلها ستدين لك بالولاء والطاعة، وستُرد لك بقية الحقوق من تلقاء أنفسها.. دون عناء!
- خرجنا من حديث الحب وعدنا لحديث المؤامرات والدسائس! (هتف عبد الجبار مُتبرِّماً)، فابتسم فرتون باستخفاف.. وقال:
- نأخذ من هذه لتلك.. أيها الحاجب! أم سيصرفك الحب عن سعيك لاستعادة حقك المسلوب، هل تقعد عنه وتكتفي بالمرأة التي تحب؟!!
- كلا.. كلا! إنِّي أُريدهما معاً: الخلافة.. والغادة الحسناء!
- إذاً.. نلتفت إلى حديث الخلافة.. فهو ما جئتُك من أجله!
- أُفٍّ لك!! قد علمتُ أنَّك ستكدر صفو خلوتي، ألفظ ما في جوفك!

- كنتَ تقول: مات المؤيد وماتت معه خطتنا، أما أنا فأقول لك: خطتنا كما هي، إنما أراحنا الموتُ من أهون الخصوم، والآن بقي اثنان.. ويجب إزاحتهما من طريقك بالتحريش بينهما!
- تعني: محمد المهدي.. وسليمان بن هشام!
- نعم!!
- فما هي خطتك في إغرائهما ببعض؟؟!
- المهدي يُنحي سليمان (ولي العهد) دائماً عن سياسة الدولة وإدارتها، وسليمان ساهي عن ذلك، يتجنَّب القدوم إلى القصر إلا لماما، ويُعرض عن المشاركة في المجالس والاجتماعات! فينبغي لابن عمه –سيدي الحاجب- الذي يحبه ويخلص له أن ينبّهه ويحذِّره من غدر المهدي، والأدلة على تبيِّته الغدر واضحة: منها إغفال دعوته لمحافل الدولة مثل مأدبة الإفطار هذه! والأنكى منها: أنَّه بعث الرسائل إلى أقاليم الأندلس يخبرهم بموت المؤيد، ويطالب بسرعة إرسال كتب بيعته بالخلافة.. دون البيعة لسليمان بولاية العهد!
- أ حقاً ما تقول؟؟ (تساءل عبد الجبار باستعظام)
- إنْ لم يكن حقيقي؛ نجعله نحن حقيقة! وساعتئذ سترى ما سيفعله سليمان وأبوه (شيخ المروانية)، كما قلتُ لك: قد اقتربت نهاية المهدي!
- ويها لك.. من شيطان خبيث! أحسب أنَّك لو سُلِّطتَ على البحرين لأسعرتهما ناراً بخداعك وإفسادك!
- الحرب خدعة! وأنا جيشك الذي تحارب به!
- أصبت! إنَّك لجيشٌ في جسد رجل، وشيطانٌ في صورة بشر!

****

-المشهد السادس والستون-

مرت أيامٌ.. وأم هشام على حالها: تقضي نهارها عاكفةً على سِّماط إفطار الصائمين وعلى تفاصيل إعداده؛ كأنما تهرب من بيتها إلى بستانها، أو ربما تهرب من حزنها وجزعها على حمدون.. لكن هيهات! فما أنْ يلج الليلُ.. وتلج مخدعَها وتختلي بنفسها حتى تتكالب عليها الأحزان والأشجان وتفترسها، لا تجد مفراً ولا ملاذاً إلا سجادة صلاتها؛ فتهرع إليها وتهوي متذللة بوجهها إلى الأرض تمرِّغه فيها وتغسلها بدموعها، وبقلبها إلى السماء.. تدعو الربَ الرحيم وهي موقنة بالإجابة، تبتهل إلى الله أن يحفظ حفيدها ويؤنس وحشته ويُنجّيه من الظالمين ويرده إليها سالماً معافى! تمكث جل ليلها على تلك الحال إلى أن تدخل إليها سلوان تدعوها لتناول السحور؛ فتلتقي عيناها بعينيها، فترى فيهما ما تجده في صدرها من حزنٍ وكمد؛ فتشفق عليها وعلى حفيدها وعلى نفسها.. فتجهش باكية، تحتضنها سلوان وما تقدر أن تحبس الدمع في عينيها؛ فتبكي وتنتحب معها.. حتى أنَّ الآذان يُرفع.. والسحور يُرفع دون أنْ تطعما منه كسرة!

خلال تلك الأيام العصيبة.. كانت تنتظر لقاءً مرتقب مع القاضي ابن ذكوان، واعدها إياه متى يفرغ من بعض شئون القضاء والفتاوى العاجلة، وما كانت تدري أنه يُسوِّف اللقاء ويُؤجِّله خجلاً منها، يعرف أنها تريد لقاءه لتطمئن على حفيدها وما سيؤول إليه حاله، لكن يشق عليه أن يكسر خاطرها ويقول لها متنصلاً: (عذراً يا أم هشام؛ فقد رد الخليفة شفاعتي، ونهاني عن التدخُّل لإطلاق ولدك!)، يصعب عليه أن يُصرِّح لها بأنَّ المهدي بكَّته وأسمعه كلاماً غليظاً لم يجرؤ أحدٌ قبله على التفوه بمثله في وجهه!

بيد أنه لم يجد مفراً من اللقاء؛ فقرَّر أن يلتقي بها ويتعلَّل لها بحجة مقبولة.. ويسوِّف الأمر إلى حين يجعل الله له منه مخرجا. وها هي ذي تأتي إليه، يُحسِن لقاءها ويُرحب بها، تُفاتحه فيما أتت من أجله هاتفة:

- جئتُك يا سيادة القاضي في حاجتين، أما إحداهما: فحال حمدون ولدي؛ وها.. قد تغير الحال بعد وفاة المؤيد –يرحمه الله-، فبموته قد استقام المنسم.. ومات معه الادعاء الباطل الذي رماه به الحاجبُ زوراً!
- أصبتِ يا أم هشام! قد انتهت القضية بموت المؤيد، ووجب إطلاق حمدون من محبسه ورد اعتباره، سأسعى في هذا لدى الخليفة إن شاء الله. ما حاجتك الثانية؟؟ وهي مقضيةٌ بعون الله!
- حاجتي الأخرى: أمانةٌ التمس منك أن تساعدني في ردها إلى أصحابها!
- وما تلك الأمانة.. ومَن أصحابها؟؟
- قد استبقى المؤيد –يرحمه الله- عندي جاريتين من جواريه وقال: هما عندكِ أمانة، وبما أنَّه مات فقد وجب تأدية الأمانة إلى أهلها، وإني أريد أن أُسارع برد الجاريتين إلى ورثته، فهلا ساعدتني في ذلك؟؟
- وهل نتأخر عن المعروف وتأدية الأمانات؟! لكِ ما تريدين.. أيتها السيدة الموقرة! أمهليني ريثما يحين موعد زيارتي للقصر.. وأنْ ألقى الخليفة أو أحد رجاله.

****

-المشهد السابع والستون-

اِرْتَأَى القاضي (ابن ذكوان) أنْ يعرض حاجة أم هشام على الحاجب (عبد الجبار) عسى أنْ يقضيها دون التعرض لمراجعة الخليفة المهدي مرةً ثانية في أمر حمدون، فجاء إلى القصر والتمس لقاء الحاجب، وآثر أنْ يُكلِّمه بلهجةٍ ودية فقال:

- أيها الحاجب! جاءتني أم هشام المروانية تطلب مني الوساطة عندكم في حاجةٍ ليس فيها إثمٌ ولا خطيئة، بل إنَّك بقضاء حاجتها؛ تكن قد وصلتَ رحماً!

- ما حاجتها.. يا سيادة القاضي؟؟ (هتف عبد الجبار وقد اكفهر وجهه وامتعض تَبرُّماً بما ظنه سيأتي من ذكر حمدون)، لاحظ القاضي تبدُّل ملامحه فحبَّذ أنْ يبدأ بمسألة إعادة الجاريتين.. فهتف قائلاً:
- الحقُ أقول.. إنهما حاجتان: أما الأولى: فأمانة أودعها عندها المؤيد؛ وتريد أنْ تؤدِّيها إلى ورثته بعد أن مات؛ فرأيتُ أنَّ الخليفةَ هو وليُّ المتوفى –عفا الله عنه-، وهو أولى بإعادتها إلى الورثة!
- وما هي تلك الأمانة؟ (تساءل عبد الجبار بفضول واستبشار طامع)
- هما جاريتان من جواريه كان قد أودعهما عندها قبل وفاته!
- .... سكت عبد الجبار محبطاً، فقد توهَّم –لوهلة- أنَّ تلك الأمانةَ مالٌ أو جوهر، بيد أنه لما ذكر القاضي حديث الجاريتين تذكر ما شجر بينه وبينها من مشاحنة عندما داهم بيتها وقدَّمت له الجارية على أنها أمانة المؤيد.. وظنَّ ساعتها أنها تهزأ به، هجس في دخيلته: (يا لكِ من بلهاء.. أيتها المرأة! ما هاتان الجاريتان فيما تركه المؤيد وحازه المهدي كله وحده دونما يعلم به أحد؟! حتى السَرَارِيّ والجواري.. استولى عليهن جميعهن ليحظى بهنَّ وحده كأنَّه وريثه الأوحد! وأنت.. يا قاضي القضاة.. تتكلَّف لقائي والتوسُّط عندي كي أقبل منها أنْ ترد جاريتين؟! وهل يرد عاقلٌ شيئاً يُمنَحه بلا ثمن؟؟ ما أشد حمقكما!!).
- أيها الحاجب.. ألا تُجيبني؟؟ (صاح القاضي وهو يلوح له كأنَّما يُنبِّهه)، فانتبه بعد أن كان شارداً في خَطَراته، اعتدل في جلسته.. وانفرجت أساريره هاتفاً:
- نعم يا سيادة القاضي! نقبل باستعادة الجاريتين، وأبلغ السيدةَ أم هشام امتناننا لها.. وشكرنا على ورعها وأمانتها!
- هل أدعوها أن تأتي بهما إلى القصر غداً؟؟
- كلا! لن نُتعب السيدة، سأُرسل أنا لها من يسترجعهما! (جأر بها بينما أضمر في سريرته: إذا كان المهدي قد استحوذ على كل جواري المؤيد؛ فلا جناح عليَّ –إذاً- أنْ أحوذ أنا هاتين الجاريتين.. وعمَّا قريب سأجعلهما وصيفتين لسلوان!).

- وَصَلتك رحم.. أيها الحاجب! نأتي إلى حاجتها الأخرى!
- فما هي؟؟ (سأل عبد الجبار بارتياب وتوجُّس)
- إنها ترجو إطلاق سراح ولدها حمدون.. لاسيما وأنَّ المؤيد قد مات!!
- .... حملق فيه عبد الجبار بعيون جاحظة يشُبّ منهما الانزعاج والتأفُّف.. ثم عبس وبسر؛ غير أنه ظلَّ صامتاً، فاستدرك القاضي.. محاولاً إقناعه بإلحاح:
- اسألك بالله الذي أمرنا بصلة الأرحام ألا تُخيِّب رجاءها أيها الحاجب؛ فهي امرأةٌ مروانيةٌ من أهلك ودمك، وهي امرأةٌ عجوزٌ.. وحيدةٌ لم يبقَ لها في هذه الدنيا سندٌ إلا وليدها هذا، وهو بعدُ.. رجلٌ من رجالكم وأخوانكم!
- قد جانبك الصواب في هذه.. يا سيادة القاضي! أو لعلك لا تعرف الدافع وراء سجن حمدون؛ إنَّه متهم بالتآمر على الخليفة والشروع في الانقلاب عليه، وذاك ليس من الهنات الهينات، ولا يسقط عن المتهم إلا بجلاء براءته التامة!
- علمتُ أنَّ الاتهام كان تآمراً مع المؤيد؛ وها هو ذا المؤيد قد أفضى إلى ربه، ولم يعد ثمَّةَ خوفٌ من تآمرٍ كهذا، وهو -بعدُ- اتهامٌ لم يثبت؛ فهل من سبيلٍ إلى العفو؟؟
- إني لأستحي منك أنْ أرد شفاعتك.. يا سيادة القاضي! لكن إنْ التمستَ العفو عن حمدون؛ فذاك بيد الخليفة المهدي.. وليس بيدي!
- أصدقك القول يا سيادة الحاجب! قد حدَّثتُ الخليفةَ من قبلُ في هذا الشأن؛ فنهاني عن الخوض فيه مرة ثانية، غير أنَّ هذا كان قبل وفاة المؤيد. أما وقد مات؛ فإنَّ الحال قد تغير، وإنِّي لأرجو أنْ تُتم معروفَك وتكلم أنت الخليفةَ وتشفع عنده أن يعفو عن الفتى!
- .... (تتعشم فيَّ أنْ أشفع أنا لحمدون كي يُطلَق من حبسه؟! ألا تدري أنني أنا من دبَّرتُ عليه، وأنني تحايلتُ حتى أدخلتُه السجن، وأنِّي لو تمكَّنتُ منه لما ترددتُ لحظة واحدة في القضاء عليه! ترجوني أن أعفو عنه -أيها الشيخ الخَرِف- ليخرج حراً طليقاً ويخطف مني فتاتي؟! ينتزع مني تلك الغادة الحسناء التي ملكت

عليَّ فؤادي؟! هيهات.. هيهات!!): كان يُطارح سريرته الحديث في وجوم؛ حينما حملق إليه القاضي متوسماً فيه الخير.. مُنتظراً رده بالإيجاب، ثم هتف مُحفِّزاً:

- أيها الحاجب.. إنَّك أنت الكريم ابن الأكارم؛ وإنَّك أهلٌ لهذا المعروف!
- طب نفساً.. يا سيادة القاضي! سأبذل جهدي لإقناع الخليفة بالعفو عنه، وكما قلتَ: لم يعد ثمة خوفٌ منه بعد موت المؤيد، فضلاً على ما له من رحم؛ فنحن المروانيين أخوالُ أبيه! (أجابه بمخادعة.. متظاهراً بالاقتناع والاستجابة)
- بوركتَ أيها الحاجب.. وسدَّد الله خطاك!

*****

لم يدخر عبد الجبار جهداً في الكيد لحمدون عند المهدي، هرع إليه ليخبره بلقائه المؤسف مع قاضي القضاة.. ويذم سعيه في الشفاعة له؛ لكن يُباغته المهدي قائلاً:

- إنَّ رأيي من رأي ابن ذكوان.. يا عبد الجبار، وقد هممتُ فعلاً أنْ أُطلق حمدون!
- لا تفعل أيها الخليفة! فحتى وإنْ كان المؤيد قد مات؛ لكنَّا لا نأمن ثَمَّة تآمر ما زال يُدبر في الخفاء.. لا سيما وأنَّ كثيراً من أقاليم الأندلس لم تأتنا كتبُ بيعتها بعدُ. لذا فإني أرى التريُّثَ في إطلاق الفتى إلى أن يستتب الأمر وتدين لك الأندلسُ قاطبةً بالبيعة.. خاصةً اشبيلية وقاضيها.. حيث كان يتجه كتاب المؤيد!

أطرق المهدي رأسه تدبُّراً في قول حاجبه؛ ثم رفع إليه بصره هاتفاً: "قد تكون مُحقاً! الأحوط أنْ نُرجئ إطلاقه إلى حين!!".

****

-المشهد الثامن والستون-

انقبض قلبُ نجوى بينما سعدى تُراجع أمَ هشام في ردِّهما إلى ورثة المؤيد؛ لكنها تهمس إليهما.. بإصرارٍ ودود: "على عيني -يا عزيزتي- مفارقتكما! ولولا أنَّكما أمانة المؤيد.. وأنَّا

أُمرنا برد الأمانات إلى أهلها؛ لما فارقتكما!"، وتتساءل سعدى بإلحاحٍ وترجي: "أما من سبيلٍ آخر.. يا سيدتي؟!"، فتجيبها بحنانٍ ورفق: "إنَّكما ستعودان لقصر قرطبة الذي درجتما فيه، هل تؤثري داري المتواضعة على قصر الخلافة؟!!"، فتشهق سعدى هاتفةً بتحسُّر: "إنَّما أُؤثركِ أنتِ –يا سيدتي- على مَن سواكِ!"، تلمع دمعة تأثُّر وود في عين أم هشام وتلتقط الجارية في أحضانها؛ فتذوبان معاً في خضم من المودة والعطف، بيد أنَّه لا يُغيِّر موقف أم هشام ولا إصرارها على ردِّهما.. مما ينقبض له قلب نجوى ويوغر صدرها على أم هشام ويَقلِب مودتها لها غيظاً ومَوْجِدةً!!

يأتي جنود الحاجب إلى دار أم هشام لتسلُّم الجاريتين؛ فتخرجا.. ودموعُ الدار وأهلها تشيعهما إلى أنْ توارى ركبهما عن العيون، تساءلت أم سعدون بشيءٍ من التحسُّر: "أما كان من وسيلة للاحتفاظ بهما؟ كنَّا نبتاعهما من ورثة المؤيد؟!!"، فتجيبها أم هشام بصرامة: "أُسكتي.. يا امرأة! أما علمتي أنَّ المروانيين يتنزَّهون عن بيع إمائهم!"، فتهتف بإصرار ومجادلة: "نستوهبهما منهم؟؟"، فتعاتبها أم هشام باستهجان: "سامحكِ الله.. يا أم سعدون! أنا أستوهب المروانيين الإماءَ؟!!"، ثم تنصرف عنها مغاضبة وتلج إلى مخدعها.. تختلي فيه بأحزانها ودموعها.

*****

تتفاجأ الجاريتان بأنَّهما انتقلتا إلى دار الحاجب الخاصة.. بمَنْأى عن قصر الخلافة وعن ورثة المؤيد الشرعيين، تزداد سُعدى إحباطاً وكمداً.. وتزداد نجوى مقتاً للأسياد وحقداً عليهم.. وعلى الدنيا التي جعلتها أمةً لهم يتحكَّمون في مصيرها كيفما يشاءون!

تمر بهما الأيام في تلك الدار.. لتكتشف سعدى أنَّ بيت الحاجب لا يُداني -في كثيرٍ أو قليلٍ- بيت أم هشام الذي أحبته وأحبت الحياة فيه، ومع الأيام يتضاعف شعورها بالغربة والإحباط.

أما نجوى فقد تَكشَّف لها أملٌ جديد في الترقي من مرتبة الإماء الخادمات إلى رتبة الكهرمانات والوصيفات؛ فقد لاحظت –مذ أول ليلة وطأت فيها قدمها دار الحاجب-

أنَّه رجلٌ وحيد يعاني الوحشة والغربة.. حتى بين أهل بيته.. وفي عقر داره: لا زوجة ولا ولد.. ولا أهل حاشا أمٍ عجوز حبيسة فراشها -يخدمها أمتان وعبد أسود (اسمه: شادن)-، لا تسمع لها حساً ولا ترى لها -في الدار- أثراً، وقلَّما رأته يُجالسها أو يحنو عليها حنو الابن البار على أمه، وعدا أخيه غير الشقيق (محمد).. لم تجد له حبيباً أو أليفا!

على أنَّها تنبَّهت –مذ مثلت بين يديه هي وسعدى- إلى اهتمامه بهما بشكلٍ مختلف عن بقية خدم الدار؛ اهتمام يزداد يقينها به يوماً بعد يوم، بيد أنَّها تَستَشفُّ أنَّه ليس اهتماماً بشخصيهما؛ إنَّما هو شغفٌ ببيت حمدون وآل بيت حمدون، تُقرّر أن تستغل ذلك الشغف لصالحها بإيهامه أنَّها تعرف البيت وأهله وأنَّ لديها أسراراً لا يعلمها عنهم أحدٌ غيرها، تقف بين يديه ملياً.. تقص عليه أخباراً مختلقة وغير مختلقة عن آل حمدون -فراراً من عمل الخادمات- وهو يُنصت إليها باكتراث.. دون ملل أو ضجر، والأدهى.. أنَّها فطنت لحقده الدفين على حمدون وجدته.. وتمنيه الشر والسوء لهما؛ فجعلت تدُسُّ في حديثها عنهما ذمَّاً؛ يطرب هو له.. وتتقرَّب هي به إليه، إلى حد أنَّها حظيت عنده وأمست –في غضون أيام- وصيفته الملازمة له أوقات مكثه في بيته.

تدرك سعدى مآرب قرينتها الخبيثة.. فتلومها وتُحذِّرها، لكنَّها تُعرِض عنها وتستمر في غيّها وخطتها بمداراة الحاجب والتقرُّب إليه ومجاراته في اهتمامه وسؤاله -من الحين للآخر- عن بيت حمدون وأهله، وغايته أنْ يتحوَّل الحديث إلى السؤال صراحةً عن سلوان وعن تفاصيل خاصة بالنساء يستحي الرجال الأكارم من السؤال عنها.. إلا إذا!؟ مع مرور الأيام.. تتأكد شكوكها بأنَّ عبد الجبار شغوفٌ بسلوان وأخبارها!

*****

ذات مساء.. قعد في البيت ينتظر زائراً، وكدأبه يستبقيها معه ليُجاذبها الحديث، لكن في هذه المرة.. شرع يفتح قلبه.. كما لم يفتحه من قبلُ؛ فبشَّرها هاتفاً: "منذ الحين.. قد صيَّرتُك كهرمانة[1] الدار.. يا نجوى! فما قولكِ؟!!"،

---

[1]: مثل: مديرة المنزل.. أو رئيسة الخدم.

انتشت فرحاً.. وصاحت بامتنان: "أنعم الله عليك -يا سيدنا- كما أنعمتَ عليَّ، وأعانني على أنْ أصون أمانتكم!"، فأجاب بارتياح: "نعم!! اطلبي العون من الله؛ فهي أمانةٌ ثقيلة.. وخاصةً: تلك العجوز!!"، فجأرت بمداهنة: "والدتكم في عيوني –يا سيدنا-، وخدمتها هي غاية أمنياتي!!"، زفر زفرة مصدور.. كأنَّما غشيته ذكرى تعيسة، ثم غدا يبوح بأسراره.. ويقص عليها حكايته مع أمه: "كانت جاريةً رومية اتخذها المغيرة (يقصد أباه) أمَ ولد؛ فأنجبتني، عشتُ –في كنف أبي- أيام طفولةٍ سعيدة، إلى أن جاءت ليلةٌ مشؤمة.. لن يمحوها الزمان من ذاكرتي، في تلك الليلة.. اقتحم جنود القصر دارنا، كان يرأسهم رجلٌ مهاب.. علمتُ فيما بعد أنَّه: المنصور ابن أبي عامر، اختلى بأبي.. وتحدَّثا مدة، ثم احتدم بينهما الحوار، وعلا صياح أبي كأنَّه غاضب.. ثم سكن صوته، هرولتْ أمي إليه.. وهرولتُ في ذيلها؛ فرأيتُه مُعلَّقاً من رقبته على الجدار.. مُقيَّد اليدين، شاهدتُ قدميه المتدليتين ترتجفان، لم أفهم ماذا يحدث؛ لكني خشيتُ على أبي من هذا الرجل وجنوده، وخفتُ على نفسي وعلى أمي، صرخت أمي.. وسرعان ما كَبَتَ صرختَها بنظرةٍ شزراء –لم أنساها- من عينيه القاسيتين، ضمتني في أحضانها بشدة.. حتى كادت عظامي تتضعضع، رأيتُه يُسرها بحديثٍ.. لم أفهمه؛ غير أنِّي فهمتُ الخوف والرعب في وجهها، كَتَمَتْ أنفاسَها وأنفاسي، وتَركتْهم يفعلون في البيت ما يفعلون، ثم قال لي الناس: إنَّ أباك قتل نفسَه لكيلا يُبايع المؤيدَ بالخلافة؛ سألتُها.. فلم تُجبني، لكنِّي كبرتُ.. ووعيتُ.. وعلمتُ أنَّهم قتلوه، وأنَّها لم تدافع عنه، ولم تقاوم قاتليه، حتى أنَّها لم تصرخ لتستغيث بالجيران، تَركتْ أبي يُقتَل غيلةً، ثم سَكَتَتْ ليُدنَس شرفُه.. وليُقال عنه: مات مُنتحِراً، تباً لها من زوجة!! تباً لها من أم!!".

رنت إليه باندهاش.. ولبثت حيناً مشدوهةً مما سمعت، لم تتوقَّع أنَّ يقص الحاجب المرواني على مسامع جاريةٍ مثلها حكايةً كهذه، ولم تكن تتصوَّر أنَّه يحقد على أمه هكذا، بعد برهةٍ صامتةٍ.. أحبت أن تُطيِّب خاطره.. وتُرقِّق قلبه على أمه؛ فهمست:

- يا سيدي! لعل الوالدة –شفاها الله- خافت عليك من هؤلاء القتلة، أو أنْ يُصيبك ما أصاب أباك؛ فآثرت أنْ تكتم حزنها وولهها في نفسها.. لتنجو أنت!

- صه.. يا جارية! وما النجاة في أنْ أعيش حياتي خائفاً من بطش ابن أبي عامر.. مُعيَّراً -زوراً وبهتاناً- بقتل المغيرة.. لنفسه؟!!

لم يُمهلها طارقُ باب الدار.. لتجيب سيدها، قامت إليه؛ فإذا هو الزائر المرتقب.

****

-المشهد التاسع والستون-

أقبل الزائر؛ فقام الحاجب للقائه، وأمر نجوى أن تُحضر تحية الضيف، ثم استبقاها بعد أنْ أمرها بتغليق الأبواب، أما الزائر فقد كان (مُعَبِّر الأحلام) الذي استدعاه ليستشيره في الرؤى التي يراها في منامه!

يُنصت المُعَبِّر بانتباه وعناية لرواية الحاجب لمناماته وأحلامه، ثم يعتدل في جلسته مُتفكِّراً في تجهُّمٍ يُقلِق الحاجبَ ويُثير حفيظته؛ فيتعجَّل هامساً بتَلَهُّف: "هَلُمّ.. خبِّرني ما تأويلك.. يا رجل!"، يرفع المعبِّر بصره إلى الحاجب.. ويختلس نظرةً خفية إلى الجارية، ثم يرسم على شفتيه ابتسامة.. مُتصنِّع الابتهاج والتفاؤل.. ويهتف:

- أبشر بالخير.. يا سيدي الحاجب! إنَّ ما سمعتُه منك أحلامٌ متداخلة؛ بعضها أضغاث أحلام، وبعضها رؤى صالحة.. إن شاء الله!
- هل عندك تفسيرٌ لها؟؟ (تساءل بلهفة وانتباه)
- عندي بعون الله: أما المكان شديد الظلمة الذي كان فيه الرائي فهو يرمز إلى التحذير والتنبيه من مواجهة بعض المواقف الصعبة والعوائق؛ لكن رؤية شعاع النور وسط هذا الظلام الحالك يشير إلى نجاح الرائي في مواجهة هذه الصعوبات، والظلام يدل –أيضاً يا سيدي- على أنَّ الرائي يشعر بالوحدة ولا يجد مَن يشاركه أفراحه وأتراحه!
- صدقتَ.. أكمل أيها المُنَجِّم! (هتف ارتياحاً)؛ مما اغتبط به المُعبِّر فانطلق قائلاً:

- أما الخاتم الذي تكررت رؤيته؛ فإنَّه يشير إلى مسئولياتٍ جديدة ستُلقى على عاتقك. وقد يرمز كذلك إلى الزواج –وهذا الذي أُرجحه- لأنَّك ترتدي معه ملابس جيدة فخيمة وهي إشارة إلى الخطبة أو الزواج، وحيث أنَّ الخاتم كان جذاباً.. فإنَّه يشير إلى أنَّها ستكون زيجة سعيدة.
- أكمل.. بشَّرك الله! (صاح.. متهللةً بها أساريره)؛ فقدَّر المُعبِّرُ أنَّ الحاجب يشتهي الزواج من امرأة بعينها.. هي التي يراها في المنام.. فاستطرد هاتفاً:
- أما رؤية المرأة الجميلة في المنام والسرور بها فهي ترمز إلى بشرى سارة وأخبار سعيدة، وتكرارها يؤكد على الخير والراحة والأمل والتفاؤل، وعموماً.. يدل على الخير الواسع والرزق الوفير!
- لكنِّي رأيتُها تضربني في بعض أحلامي؟! (تساءل باستدراك وتحيُّر)
- هذا قد يشير إلى دعاء الضارب للمضروب ورغبته في وعظه وإرشاده، ولاسيما مع الشعور الذي وصفتَ بالصمم والخرس؛ فإنَّه يشير إلى وجود مشاعر من الألفة والتفاهم والود بين المتحابَّيْن!
- فما قولك في رؤية الأعوان مدججين بالسلاح.. وضربي الأعداء ضرباً مُبرحاً؟؟
- رؤية السلاح في المنام وضرب الأعداء يشير إلى الانتصار عليهم، ويدل أيضاً على الصحة البدنية والشفاء من الأمراض! وكما وصفتَ لي فإنَّ ضربك عدوك إلى حد البكاء دلالة على انتصارك عليه، أما ضربك ظهره فإشارة إلى سعة تأتي في مالك!
- فما قولك في القمر الذي أراه بدراً.. وكذلك السوط الذي أمسكه بيدي وأضرب به، وتكرار ذلك في أغلب المنامات؟؟
- رؤية القمر بدراً تشير إلى المنصب والسلطان.. وقدوم الخير الوفير للرائي، أما السوط فإنه يشير أيضاً إلى السلطان، وضربك لرجلٍ بالسوط يدل على أنك تعظه وتُرشده.
- أحسنتَ التأويل والتفسير.. أيها العالم! (هتف بانشراح وتفاؤل)
- عندي نصيحةٌ أخيرة.. يا سيدي الحاجب!

- هات ما عندك!
- الهدوء الشديد والظلام الحالك اللذان يحيطان بالرائي.. يشيران إلى حاجة صاحب الرؤيا إلى وقفةٍ للتفكير والتَبصُّر فيما سيتخذ من قرارات وفيما سيخطو من خطوات مستقبلية، وتشير إلى التنبيه لبعض الآثام التي قد تُرتكب!
- قد نصحتَ! هيا.. انصرف مشكوراً! (صاح باقتضاب ملوحاً بيده مشيراً إلى الباب)

تلكئ الرجل في النهوض كأنما لم يفهم إشارة الحاجب، أو كأنما لم يُصدِّق أنه سيخرج خالي اليدين.. فأخذ يتباطأ انتظاراً لاستلام مكافأته المتوقعة. على أنه أذعن بالمغادرة خلف الجارية (نجوى).. وراح يلملم شعث نفسه وخيبة أمله.. ذاهلاً عما حوله، خرج من باب الدار خاوي الوِفَاض.. كأنه مطرود، انصب على دابته يسبها ويقذفها ساخطاً ناقماً، ابتعد عن دار الحاجب؛ فالتفت إليها.. وتمتم حانقاً: "لعن الله دابةً حملتني إليك.. أيها البخيل!"، راح يخترق طرقات المدينة ودروبها عائداً إلى داره آيساً قانطاً.. مخاطباً طويته بنبرة لوم ساخرة: "ماذا أقول لزوجتي الجشعة التي ترتقب عودتي إليها من لدى الحاجب الأعلى محملاً بالعطايا والهدايا؟! وهي التي أوصتني مراراً –مذ عَلمتْ بطلبه إياي- أن أُبشره ولا أُنفره؛ فأهل السلطان إذا بشرتهم بالخير منحوك وأجزلوا لك العطاء، وإنْ أنذرتهم ونفَّرتهم منعوك.. ولا تأمن أن تصيبك نقمتهم!"، "هأ.. أَقْصِري أيتها المرأة الجشعة؛ فقد جئتُك من عند القتور الشحيح الذي لا يُرجى عطاؤه.. ولا تُؤمن بوائقه!"، "بُعداً لك.. أيها الحاجب.. وسُحقاً لأحلامك! لَعَمْرُي.. لإنْ استشارني تاجرٌ مغمور من تجار السوق فبشَّرتُه بما بشَّرتُك به لمنحني ولأجزل لي العطاء، تالله.. لقد صدق مَن قالوا عنك: أنَّك شحيحٌ حقودٌ لجوج!".

"هل أعود إليه يا ربي.. فأُخبره الحقيقة؟! أقول له: إنَّ الظلام الذي تراه محيطاً بك يشير إلى سوء عاقبة أفعالك وآثامك التي ترتكبها! والخاتم الذي تضعه في يدك لا خير في رؤيته في المنام.. لأنه خاتمٌ من الذهب وهو دلالة على التعب والنكد الذي سيصيبك! وأنَّ ضربك لعدوك حتى أدميتَه يشير إلى أنك تظلمه وتجور عليه! وأما عدم قدرتك على الكلام –في منامك- فهو دلالة على قلة حيلتك وعجزك وفشلك

وفسقك وفساد دينك! وأنَّ رؤيتك المرأة الجميلة تتحوَّل إلى قبيحة شريرة وتنكُّرها لك يُشير إلى وقوعك في المشاكل والكوارث والشقاء! وأنَّ ضربها لك بعصا من الخشب ليس دلالة خير؛ بل قد يشير إلى أنها ستعدك وعداً لن تفي به، وأنَّ ضربك بالعصا يعني أنَّك ستفقد المنصب الذي ارتقيتَ إليه! أما الخرس والصمم الذي يُصيبك دائماً فإنَّما يشير إلى عجزك عن حل أمورك.. وتخبطك في بحر من الهموم والمتاعب!".

يجذب لجام دابته بكلتا يديه جذباً شديداً ليكبحها؛ تتوقف به الدابة وسط الطريق.. وتهجس نفسه بصرامة: "وأَيْمُ اللهِ.. لأعود إليه وأُنكِّد عيشه.. وأُخبره حقيقة تأويل أحلامه.. فيبتئس؛ فأكون قد انتقمتُ لنفسي!!"، يستدير بدابته قافلاً إلى دار الحاجب؛ بيد أنَّ عقله وجُبْنَه يُثنياه عما عزم عليه ويخوّفانه بطش الحاجب؛ فيرتد إلى بيته خائباً.. قد خشي على نفسه سوء العاقبة.

****

-المشهد السبعون-

نفث عبد الجبار سمومه في أُذن سليمان (وليَّ العهد) حيث التقى به سراً عدة مرات ليُصرّحِ له بمخاوفه المزعومة من غدر المهدي بهما وبأهلهما، وليبوح له بهواجسه وشكوكه الملفقة مُدعياً أنَّ شواهدها: انفراد المهدي بكل السلطات، واستدعاؤه لكتب البيعة له بالخلافة.. دون التنويه على بيعة سليمان بولاية العهد أو عبد الجبار بالحجابة، يستمع سليمان إليه مرة تلو مرة دونما يُبالي بمخاوفه، ثم يُصارحه أبوه – شيخ المروانية- بذات الهواجس والمخاوف؛ فيُسكِّن أباه قائلاً: "ليس من العدل سرعة العذل.. يا أبتِ!"، لكنَّه يُدرك أنَّ الواجب يُحتم عليه أنْ يقطع الريبةَ باليقين؛ فيُزمع على الذهاب إلى المهدي ومطالبته بتوضيح موقفه.. وبتقسيم سلطاته بين شركائه في الثورة من المروانيين؛ فلا يتضعضع البيت المرواني.. فإنَّه لا جماعة لمن اختلف! يجأر المهدي باستخفاف.. متسائلاً باستهزاء وعدم اكتراث:

- أي شركاء تزعم؟! إنها لم تكن ثورة المروانيين؛ بل كانت ثورة الدهماء والغوغاء.. وأنا كنتُ زعيمهم! ألم يكن هذا هو قولكم عني وعن رجالي؟!!
- ذاك كان حديث جَدَل في أول الأمر قبل أن تشتعل الأحداث، ثم بعدما جَمعتَ الأعوانَ والأنصار.. اجتمع حولك أهلُك وعشيرتك المروانيون ولم يخذلوك، وليس وصل أبي لك بالمال والرجال ببعيد، وإنّي أُنَزِّهك أنْ تجحد معروفه!
- معروفه؟!! أي معروف؟! وأي وصل وصلنيه أبوك؟!! (صاح مُنكراً بنبرةٍ تهكُّمية)
- تأدب يا محمد! فأبي هذا -الذي تُنكر فضله وتسخر منه- هو شيخُ المروانية وكبيرهم؛ الذي وصلك بماله وجاهه.. وأجلسك على هذا التَخْت!
- خسئتَ! إنما ارتقيتُ بساعدي وسيفي.. وهمة رجالي، وما أبوك إلا رجلٌ حريص قَتُور أفنى عمره في جمع المال.. ببذل الشرف والكرامة تحت أقدام ابن أبي عامر!
- اخرس.. قطع الله لسانك! إنَّ أبي أشرف منك وأكرم، ولو أنصفتَ لقُمتَ وأجلستَه مكانك؛ فهو أحق منك بهذا العرش!!
- قد انكشف سِتْرك!! إنَّك لم تأتِ إلى هنا وغايتك رأب الصدع في صف المروانيين.. كما تزعم؛ بل جئتَ طامعاً في الملك لك ولأبيك! لكن.. هيهات! قد خاب رجاؤكما.. فمن نازعني ملكي.. نازعتُه حياته، ولقد أنذرتُك –آنفاً- أنْ تذل عن النَّهْج الذي أقمتُك عليه؛ لكنَّك تأبى إلا القَطْع! (صاح مُحْتَدّاً عليه في صرامة)؛ ثم صرخ منادياً حُجابه وجنوده، فأحاطوا بسليمان وكبَّلوه في الحديد، ثم انطلقوا به إلى مخدع المؤيد ليحبسوه فيه.. بأمرٍ من الخليفة!

****

-المشهد الحادي والسبعون-

أيامُ الشهر الفضيل تركض سريعاً، وها هي ذي لياليه العشر قد دخلت؛ فازداد المتعبِّدون تعبُّداً، وشمَّر المشمِّرون عن سواعدهم جِدّاً واجتهاداً، فتراهم: ما بين معتكفين في جامع قرطبة قد شدُّوا المؤزر.. وعاكفين على القرآن تلهج به ألسنتهم

يبيتون سجداً وقياما، وأصحاب أيادي سخية تجود بالصدقات والنفقات. الكل يجتهد صياماً وصلاةً وزكاة وإطعاماً؛ فتلك الليالي المباركة موسمٌ للتهجُّد والطاعات والقربات، وفيها ليلة القدر.. التي بشَّرهم ربهم بأنها خيرٌ من ألف شهر.

أم هشام كانت من أولئك المجتهدين المشمِّرين؛ فقد وصلت ليلها بنهارها ذكراً لله وصلاةً ودعاءً.. يَحُثُّها أملٌ موصول في رحمة الله.. طامعةً أن يستجيب دعاءها ويُنعِم عليها ويُفرِّج كربتها ويجمعها بحمدون عمَّا قريب، ومثلها كانت سلوان.. وقد طوت كتب العلم –مؤقتاً- وأقبلت على العبادة والتهجُّد والدعاء والاستغفار.

ومن أولئك المشمِّرين أيضاً.. كان عبد الجبار! شمَّر عن ساعديه اجتهاداً في السِعايَة بين هشام بن سليمان –والد (سليمان) ولي العهد- وبين المهدي.. ولاسيما بعد اعتقال سليمان في القصر، سعى إلى الأب ليسفح بين يديه دموع الرأفة والوجل الكاذبة تحسُّراً على ما أوقعه المهدي بالابن، وخشيةً على مآل المروانيين ومُلكهم إذا لم يقفوا وقفة رجلٍ واحد ضد تهور المهدي وسوء تصرفه. يُطالعه الشيخ الوالد بارتياب وتوجُّس.. ثم يهتف بنبرة استهجان مُشبَّعةٍ باللوم والعتاب:

- كيف تدعه يعتقل ولدي.. يا عبد الجبار؟!! ألا تَذِبّ عن ابن عمك؟!!
- حاولتُ يا أبا سليمان أن أُثنيه عن عزمه.. وأنْ أُصلح بينهما؛ لكنَّ المهدي.. استكبر وعاند.. وأصر على مواصلة حبس سليمان.. إلى أن ينظر فيه رأيه!
- ينظر رأيه في ابني أنا؟! لَعَمْري.. قد هلك المروانيون وضاع مُلكهم بالأندلس.. إنْ تركوا هذا الأهوج يعبث بالخلافة ويبزهم بها!
- ماذا ترى أنْ نفعل.. يا شيخ المروانية؟؟ (سأله بمداهنة)
- أعاجزٌ أنت عنه حقاً.. يا عبد الجبار.. وإنَّك لحاجب الخلافة؟! (تساءل بارتياب واستنكار)؛ فأثارت كلمتُه حَميّة عبد الجبار.. غير أنه تجلَّد وتمسك بالحلم وهتف قائلاً بوداعة ومخادعة:

- وماذا بوسعي أنْ أفعل؟! إنَّه الخليفة.. وقد بايعتُه على السمع والطاعة! وإنْ كان أحدٌ من المروانيين يبزه أو يدانيه مكانة؛ فهو أنت.. يا عم! فأنت شيخ المروانية وكبيرهم.. ولك حق النصح والإرشاد.. وعليه واجب الاستماع والإذعان!
- هلّا نصحتَه أنت.. وحذَّرتَه مَغَبّة التحفُّظ على ولدي بهذا الشكل المهين!!؟
- قد فعلتُ مراراً؛ لكنَّ أُذنه لا تسمع نصيحتي؛ ولهذا جئتُ إليك!
- ماذا تريدني أنْ أفعل؟ هل أمضي إليه خاضعاً مُتوسِّلاً.. ليعتقلني بجوار ولدي؟!!
- تالله.. قد احترتُ.. يا أبا سليمان! ولا أدري ما الذي ينبغي أنْ يُفعَل، على أني أتيتُ إليك لأعتذر منك، وأُعلِمك- رفضي لاعتقال ولدك.. وأتنصل مما فعله به المهدي!
- قد أعذرناك.. يا عبد الجبار! هيا.. انصرف.. ودع الأمر لي!!

لم يساور عبدَ الجبار شكٌ -ساعة انصرف وفارق شيخَ المروانية- في نقمته على المهدي وعزمه على الكيد له والانتقام منه، بيد أنه لم يتمكَّن من استجلاء خطته، ولم يستطع أنْ ينتزع من فمه كلمةَ عداء.. أو تصريح بتهديد يتلقَّفه عنه فيكيد له به عند المهدي.. ويُحرِّش به بينهما: (لا جرم أنَّك رجلٌ مُحاذِر شديد الحيطة.. يا أبا سليمان!).

أما أبو سليمان.. فلم ينشغل كثيراً بعبد الجبار وحديثه المُخادِع؛ فهو يعي نفاقه وكذبه.. ويتوقى كيده ومكره، إنّما ظَلَّ يعض أصابع الغيظِ.. سُخطاً على المهدي وامتعاضاً من نقاء سريرة ولده (سليمان) التي ليست كُفء للؤم محمد المهدي وخبثه.. ولا كذب عبد الجبار وتدليسه. بعد تفكير ورَّوِيَّة.. لم يجد مفر من إتمام ما كان قد أزمع عليه آنفاً؛ ألا وهو الاتفاق مع البربر على المناصرة والمؤازرة ضد المهدي؛ فإنَّ قومه المروانيين لن ينصروه عليه لو لم يكن معه قوة شديدة تنصره، والبربر.. هم الركن الشديد الذي ينبغي أنْ يأوي إليه. من فوره.. شرع سراً في الاتصال بزاوي بن زيري (زعيم بربر صنهاجة)، والتعجيل بالتخطيط والعمل فيما اتفقا عليه للوثوب على المهدي.. وانتزاع سلطان الخلافة منه.

****

-المشهد الثاني والسبعون-

ثبتت رؤية هلال شوال؛ فأمست قرطبة تحتفي بعيد الفطر.. ولسان حالها يردد قول الشاعر (المتنبي): **"عيدُ.. بأيةِ حالٍ عُدتَ يا عيدُ *** بمَا مَضَى أمْ بأمْرٍ فيك تجْديدُ"**؛ فقبل سنةٍ واحدة: كان الخليفة هو (المؤيد بالله).. وحاجبه هو (الملك المظفر) الجوّاد الكريم، كان الاستقرار والازدهار، كان الرخاء والأمل الموصول في الرزق الواسع، كان الحلم بالغد البهيج والعيش الرغيد! أما اليوم: فالخليفةُ صعلوكٌ مرواني نكرة.. وحاجبه: مرواني ثاني؛ غير أنَّه رجلٌ ضنين متكبر لا خبرة له ولا دراية، تملَّكا بثورة غوغاء هدمت الزاهرة ونهبت كنوزها، مستقبلٌ مجهول.. وحلمٌ ضائع!

لكنَّ العيدَ عيدٌ؛ أُمرنا بالابتهاج به والفرح فيه؛ لذا.. فقد طال السهر بقرطبة وأهلها استقبالاً وابتهاجاً بالعيد السعيد، وكذلك أم هشام.. ألزمت روحها الابتهاجَ بفرحة العيد امتثالاً لشريعة الدين؛ بيد أنَّها كانت فرحةً ذات غصة.. لغياب حمدون عنها وجزعها عليه.. وانقطاع أملها في عودته إليها بين يدي العيد؛ على أنَّها لم تيأس من روح الله: إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون!

أما محمد المهدي.. ففرحتُه تكافئ أضعاف فرحات أعياده السالفة؛ ففي هذا العيد أصبح **خليفةَ الأندلس** بلا منازع بعدما وافته كتبُ البيعة من سائر أقاليمها، وسكن قصر قرطبة.. وصار سيده الأوحد والآمر الأول فيه بعدما خرج من مزاحمة المؤيد، ومما زاد من سروره وحبوره.. ذاك الذي كان ليلة العيد: فقد التمس الفتى الكبير فاتن –أمين القصر الذي أقعده المرض- لقاءه لأمر هام وخطير؛ وبعث إليه قائلاً: "ما لي طاقةٌ بالنهوض إلى أمير المؤمنين، وأريدُ إعلامَه بما لا تسعه المكاتبة!"، واستأذن أن يحضر إليه الخليفةُ لأنَّ مرضه يمنعه من مفارقة فراشه؛ فذهب إليه المهدي ليلتها.. وحب الاستطلاع والفضول يسوقانه سوقاً، يعتذر فاتنُ بشدة مرضه واحساسه باقتراب أجله عن جعله الخليفة يأتيه بنفسه لأنَّه يجب -بعد وفاة المؤيد- أنْ يُعلِم الخليفةَ المهدي بما عنده من أسرار، ثم يدفع إليه كتاباً قد سُجّل فيه جميعُ ما تركه الخلفاءُ

الأمويون من كنوز وذخائر مما لم يقف عليه المهدي ولا اهتدى إلى موضعه من صناديق الأموال ونفائس الأعلاق والجواهر والأمتعة الثمينة؛ فاحتوى المهدي على جميع ذلك في تستُّرٍ، وبات ليلته فرحاً.. كمثل قارون أتاه الله من الكنوز ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة.

مع إشراقات صباح العيد.. يُحْيي المهدي سُنةَ أجداده في الاحتفال.. ويصلي العيد مع الناس، ثم يجلس في مجلسه العظيم لاستقبال المهنئين بالعيد وقد وقف بين يديه رجالاتُ دولته في أكمل زينتهم وأبهاها.. واصطف أكابرُ قومه من حوله يستقبلون معه المهنئين كلاً حسب مرتبته ورفعة قدره، مِن بين رجال الدولة المصطفين بين يدي الخليفة.. كانا الوزيران –صاعد بن عبد الوهاب والحسن بن الحي الفقيه-؛ التفت صاعد إلى الحسن فلاحظ عليه الانزعاج والاضطراب.. فتحايل إلى أنْ اقترب منه ووقف إلى جواره.. وخافته مؤنباً: "ما لي أراك مضطرباً يا وزير الخليفة؟؟"، فطفق الحسن يخالس النظر الناس مِن حولهما بعيونٍ زائغة.. وهما يتهامسان؛ وأجابه:

- عذراً يا ابن عبد الوهاب! لم اعتد –بعدُ- على هذه الاحتفالات الرسمية!!
- يجب عليك أن تعتادها من الآن، وينبغي -في مثل هذا المقام- أن تُظهر الاتزان والمهابة.. لا أنْ تقف كما اللص يهاب أن يمسكه الناسُ بسرقته!
- إنَّك تعلم عِلَّة اضطرابي.. يا صاعد، وتعلم السرقةَ التي سرقناها معاً!!
- صه يا أخرق.. يسمعك سامع! لا تتحدَّث في هذا الأمر هنا!
- لقد مضى أكثر من شهر يا ابن عبد الوهاب؛ ولم يفي الخليفة بوعده رغم أنَّ الأمر استتب وأتته كتب البيعة كاملة! وإنَّ كاهلي ينوء بالأمانةِ التي يُخفيها عندي!
- أ تعجز عن ضيافة شخصين.. رغم أنَّ الخليفة أعطاك ما يكفي لنفقتهما؟!! أ بعد أنْ رفع الخليفة منزلتك.. وجعلك في جملة وزرائه تجحد معروفه؟!!
- لو علم أحدٌ بوجوده عندي لـ.... (خَفَتَ صوته بها)؛ غير أنَّ صاعد لم يُمهله وقاطعه هامساً بصرامةٍ.. وبنبرةِ توبيخٍ قاسية:

- يا وزير السوء! لو علم أحدٌ أنَّه حيٌّ لهلكنا!! اتق سَخيمة الخليفة.. يا حسن؛ واحفظ حياتك بحفظك لسره!
- لم أعد أقدر على التحمُّل.. يا ابن العم! كلما رأيتَه.. أو جال بخاطري أنَّه مخفي في داري؛ تذكرتُ ما فعلناه.. وأنبني ضميري وافترستني الهواجسُ والأفكار السيئة!!
- بُعداً لك! أ لم أقل لك: أمسك عن هذا الكلام؟!! إلتزم الوقار والسكينة الآن! ولا تنطق بهذا الحديث ثانيةً.. ولا في باطنك، وتَذكَّر جيداً: أنْ يؤنبك ضميرك أهون لك مِن أنْ يؤنبك الخليفة بسيف جلاده! (أَسَرَّ بها صاعد منذراً مهدداً)، ثم انصرف من جواره لكيلا يلفت الأنظار إلى تحاورهما.

*****

بعد انتهاء مراسم الاحتفال.. انفرد الخليفة بالقاضي (ابن ذكوان) في حضور حاجبه (عبد الجبار) إذ أنَّ القاضي كان قد التمس الاختلاء به لمسألةٍ فيها خير وبر. بعد الثناء على الخليفة.. هتف قاضي القضاة راجياً:

- سألتُك بالله –يا أمير المؤمنين- أنْ تُدخل السرور على رهطٍ من أهلك كما أدخلتَه علينا باجتماعك بنا!
- وما ذاك.. يا قاضي القضاة؟؟ (سأله بإكبار وإجلال)
- أنْ تجمعهم مع أحبةٍ لهم.. قد فارقوهم! (جأر باستبشار وتفاؤل)
- ومَن هؤلاء؟؟! (تساءل بلين وتلطف)
- أم هشام فاطمة بنت أحمد المروانية.. وأبو سليمان هشام بن سليمان بن الناصر؛ تجمعهما بولديهما: حمدون.. وسليمان!
- ألم أُرشدك إلى عدم التدخل في مثل هذه الشئون.. يا سيادة القاضي؟ (تساءل بنبرة عتاب لينة)؛ وقبل أنْ يجيبه القاضي أردف قائلاً بتلطف: "غير أننا في يوم العيد.. نُحبذ وَصل ما قُطِع؛ فلن أرد شفاعتك.. يا سيادة القاضي!".
- نحمد الله الذي لم يخيِّب رجاءنا في سعة صدر أمير المؤمنين وعفوه!

- أما حمدون.. فسنأمر بإطلاقه.. وسيعود راشداً إلى ما كان عليه! (جأر المهدي بابتهاج)؛ ثم أردف بنبرة خداعٍ ومراوغة: "أما سليمان فإنَّه مقيمٌ معنا في القصر معززاً مكرَّماً، وسأجمعه بأبيه وأخوته عمَّا قريب!".

تهلَّل وجه القاضي رضاً بوعد الخليفة، ثم حيَّاه وحاجبَه.. وانصرف مستبشراً، واكفَهَرَّ وجه الحاجب وقعد بين يدي الخليفة جامداً ساكتاً كأنَّما أصابته صاعقةٌ من السماء فأردته! وَجَمَ ملياً حتى أثار فضول المهدي ودهشته؛ فصاح فيه.. متسائلاً:

- يا حاجبنا.. ما لي أراك واجماً؟؟ عبوسك هذا لا يليق بين يدي في يوم كهذا!!
- أسألك بالله وبما لي من رحم.. ألا تفعل يا أمير المؤمنين! (جأر بنبرة انكسار وتوسل)، استعجم المهدي كلماته كما استغرب حالته.. فتساءل بتعجُّب:
- ماذا دهاك يا عبد الجبار؟! ما ذاك الذي تريدني ألا أفعله؟؟!
- لا تطلق حمدون من سجنه!!
- حسبتُك ستنهاني عن استبقاء سليمان في محبسه!!؟
- أما حبس سليمان؛ فلن أخالفك فيه! أما حمدون؛ فأرجوك –أيها الخليفة- لا تطلقه.. أرجوك لا تُطلقه!! (جأر بشفاه مرتعشة)؛ فاستهجن المهدي قوله.. وحدَّق فيه بتجهُّم؛ بيد أنه ألفاه ممتقع الوجه.. مرتجف اليد.. مضطرب الجسد كمن مسَّه شيطان؛ فراعه أن يراه بهذه الحال.. فرقَّ له.. وسأله بتؤدة ورفق:
- ماذا بك يا عبد الجبار؟! لَعَمْري ما رأيتُك على مثل هذه الحال من قبلُ! صارحني بما في داخلك –يا ابن العم- لعلي أخفف عنك!

انتصب عبد الجبار واقفاً.. ثم مشى صَوْبه.. متباطئً، نظر إليه بعيونٍ حزينةٍ أسيفة.. ثم جمع كلتا يديه إلى عنقه.. وهتف بصوتٍ مرتعشٍ.. يخالجه الابتئاس والانكسار:

- إنْ أطلقتَه؛ فهاك أنا ذا.. يداي حول عنقي.. فقيِّدني وضعني في سجنك بدلاً منه!
- ما هذا الذي تهزي به؟؟! أنا أسجنك!!؟ أسجن حاجبي وابن عمي.. هل جننتَ؟؟!

- أستحلفك بالله ألا تطلقه.. يا ابن العم، أتوسل إليك بما لي عندك من رحم.. لا تطلقه! (جأر بها وهو يهمُّ بإمساك يد المهدي ليُقبِّلها)، انتزع المهدي يده.. وحدجه بنظراتٍ حائرة، وقد ازداد اندهاشاً وتوجساً.. فهتف جازماً:
- لا أستطيع أنْ أفعل يا عبد الجبار! قد وعدتُ قاضي القضاة أمامك بإطلاقه؛ ولن أحنث في عهدي؛ إلا أن تصارحني بما يختلج في صدرك.. وتخبرني الحقيقة!
- لا أقدر غير أن أقول لك أنَّ في إطلاقه هلاك نفسي.. لشيءٍ يضيق به صدري.. ولا يمكنني أن أبوح لك به! (غمغم باضطراب).. وهو يمسح دمعة خانته وأشفت على الانفلات من عينه رغماً عنه.. لاحظها المهدي؛ فهاله أن يراه وقد طفر الدمع من عينه.. فهتف باندهاش واستعظام:
- عبد الجبار! إنَّك تبكي.. وأنت الفظ الغليظ؟! أ إلى هذا الحد يُفزعك إخراجُ حمدون من سجنه؟!! لكن ما ذنب الفتى؟؟ كيف أُبقيه حبيساً وقد تمت بيعتي بالخلافة في سائر أقاليم الأندلس، ولم نعد نهابه بعد موت المؤيد.. لاسيما وإنه لم يثبت عليه اتهام بتآمر أو خيانة؟! ماذا أقول لإخوانه من رجالي؟! كيف يُخلصون لي وهم يشاهدونني أسجن أخاً لهم بلا خطأ ولا جريرة؟؟! كلا.. كلا يا عبد الجبار! لا محيص من إطلاقه.. وفاءً بوعدي للقاضي.. وصِلةً للجدة (فاطمة المروانية)!
- قد قتلتَني إذاً.. ولم يعد لي مكانٌ على هذه الأرض.. إلا في غياهب سجنك ريثما يُريحني الموت من عذابي! (هتف بنبرة يائسة أسيفة) ومدَّ كلتا يديه أمامه كأنما يشير إليه أنْ كبِّل يديي واسجني!

أمام إصراره العنيد وحالته الكئيبة.. سكت المهدي مشدوهاً حائراً: (ماذا يفعل؟؟ هل يكسر بخاطر عبد الجبار.. ابن عمه وحاجبه ونصيره، أم يُضحي بحمدون وهو رجله المخلص ورفيق دربه لسنوات؟؟!)، أفزعته الحيرة وعجز عن الاختيار.. فجأر باهتياج وتوتر ليقطع حبل الحيرة الذي يوشك أن يخنقه:

- هل تطلب مني أن يستمر سجن حمدون بلا جريرة إلى أن يموت هو في سجنه.. وأبقى أنا بعده ألوم نفسي على إهلاكه من غير أنْ أعلم لذلك ذريعة؟!!

- كلا.. يا أبا الوليد! لَعَمْرُك لن أُطالبك بمثل هذا، بل أسألك أن تُبقيه في حبسه شهرين أو ثلاثة.. وبعدها تُطلقه.. ولا تثريب عليك!
- تالله لو اضطرني غيرك لمثل هذا الفعل؛ لكنتُ وجأتُ عنقه.. لكنَّك عبد الجبار! (صاح باضطراب كأنما يتهيأ مُكرهاً لاتخاذ قرارٍ صعب)؛ ثم تنحنح وهتف بحزم وصرامة: "لك ما تريد! نرجئ إطلاقه من محبسه؛ لكن.. لمدة شهرٍ واحدٍ فقط.. وبعدها لا رأي ولا توسل في هذا الشأن.. قد قطعتُ أمري!".
- كما تحب أيها الخليفة! (هتف بامتنان كأنما رُدَّتْ الروح إلى جسده بعد مفارقة).

****

-المشهد الثالث والسبعون-

أسرعت البشرى طائرة من دار قاضي القضاة إلى بيت أم هشام؛ فغدت تلهج بالحمد والثناء على الله أنْ بشَّرها بتلك البشرى في يوم العيد، وسجدت لله شكراً أنْ عجَّل لها إجابة دعائها، وتهلّل وجه سلوان.. وما خجلت أن تُظهر فرحتها لجدة حمدون.. ولا لأم سعدون التي راحت تزغرد وتُهلل بصوتٍ عال كاد أن يصل إلى مسامع الجيران؛ فنهرتها أم هشام، وأمرتها أنْ تُمسك عن إذاعة الخبر ريثما يتأكَّد رجوع حمدون سالماً، وذيَّلت كلامها قائلة: "يا أم سعدون.. نستعين بالكتمان.. ولا نأمن مكر الله!"، أما سلوان.. فعجزها عن كتمان فرحتها.. حملها إلى مربض الدواب.. حيث (ديجور).. حصان حمدون الحبيب! ركضت إليه.. تبثه لواعج نفسها وأشواقها إلى فارسه.. وسعادتها ببشرى عودته.. وهي تُغسِّله وتطعمه وتلاعبه.. وتعتني به كما دأبها مذ عاد دون فارسه!

*****

أما عبد الجبار.. فقد صادف نفسه في صراعٍ عسير مع الزمن؛ فينبغي أن يُنهي ما أزمع عليه –بأن يتزوج سلوان- قبل أنْ تنتهي المهلة التي أمهله المهدي إياها بحبس حمدون شهراً إضافياً! (لكن.. كيف ذلك؟! كيف سينتزع الفتاة من بيت فاطمة

المروانية؟ وكيف سيطلبها من عمها (قاضي اشبيلية) الذي لمَّا يعلم بعد أنه عمها؟! وهل ستقبل هي الزواج منه؟؟)، (كيف لا ترضى بي زوجاً؟! كيف ترفضني.. وأنا سليل الأكرمين والمجد الواسع التليد؟!! كيف تُفضِّل عليَّ غيري وأنا الحاجب الأعلى.. ومن بعدها سأكون الخليفة؟!)، (لابد أن يكون لي في باطنها كما لها في باطني؛ بل يجب أن تكون محبتها لي أشد!! لابد أنْ أتزوجها.. لن يمنعني مانعٌ مهما كان! لكن.. كيف يتم ذلك؟؟!)، ما انفكت رأسه تدور في بحر من الحيرة والتردد؛ وما صادف شاطئً يظن فيه هداية وحزم ليرسو عليه غير فرتون ومكره ودهاءه (على قدر ما أضيق بك؛ على قدر ما احتاج إليك.. أيها الصقلبي الداهية!)، لم يجد مغيثاً غير اللجوء إلى هذا الصقلبي الداهية؛ فاستحضره.. وحكى له حواره مع المهدي.. وصارحه بما في صدره من اشتهاءٍ لتلك الغادة الحسناء وصبابةٍ إليها، وطالبه بمساعدته في السعي للزواج بها قبل أن يُطلَق حمدونُ من سجنه فيُنغِّص عليه وينافسه على الفوز بها.

يُطرق فرتون تَفكُّراً.. ويتوقف متأملاً في شأنه وشأن عبد الجبار.. ويتساءل في دخيلته: (هل يجب عليَّ أن أكون طوع بنانه إلى هذا الحد؟! إلى حد أن أدبر له الخطط لاستلاب امرأةٍ يتنافس عليها مع رجلٍ آخر سجنه ظلماً ليظفر هو بها!!)، (هل يتحتم عليَّ أن أنصاع لرغباته إلى هذا الحد بعد أن تجلى لي كبره وبخله؟!)، (وهل لي خيار آخر بعد ما صار بيني وبينه من الأسرار التي لو أراد أن يُهلكني بها لفعل؟؟ لا مفر من أن أستكمل هذا الطريق إلى نهايته.. لا سبيل لي غير هذا!).

شقَّ حبل الصمت على عبد الجبار.. فقطعه صائحاً:

- ما كل هذا السكوت.. أيها الصقلبي؟! أم عجز دهاؤك عن حل تلك المسألة؟!!
- إنَّما أُتدبرها لك.. يا سيدي! ينبغي أنْ نُحبِّك لهذه المعضلة خطةً حاذقة!
- وما تلك الخطة؟ أخبرني بما يدور في رأسك!
- لقد عنَّ لي بعض الأسئلة ينبغي أن نعي إجابتها قبل الشروع في أي تدبير! أولاً: هل هذه الآنسة ذات قربى لقاضي اشبيلية حقاً أم أنَّه ادعاءٌ غير صادق؟؟

- لا مِراء.. هو عمها.. ووليها بعد موت أبيها؛ لا أشك في ذلك! فحذار أنْ تُثير مثل هذا السؤال أمامي مرة أخرى!! (صاح عبد الجبار باحتدامٍ وتشنُّج)؛ فانصاع فرتون لرغبته وأحنى رأسه متنصلاً ثم استرسل قائلاً:
- إذاً.. يتراءى لنا سؤال آخر: هل سيكون من اليسير إثبات صلة قرابتها بالقاضي وإقناعه بها؟ وكيف نتمكن من إخراجها من دار حمدون بينما تقيم هناك بمحض إرادتها.. كما تبين؟؟!
- هذا ما احترتُ فيه يا فرتون، ولهذا استدعيتُك، علينا أن نُعلم القاضي ابن عباد بخبرها.. ومن ثمَّ أطلب منه الزواج بها، وينبغي أن يكون هذا خلال مدة لا تجاوز الشهر.. قبل أنْ يفسد ذاك الفتى (حمدون) الأمر بظهوره! (تمتم عبد الجبار بنبرةٍ مشبعةٍ بالحيرة والقلق)؛ فيما سكت فرتون تَفكُّراً.. وطال إطراقه برهة قبل أن تضيق حدقتاه مكراً وخبثاً.. ثم يهتف قائلاً بحسم وثقة:
- قد خطرت لي فكرة.. لو نجحت لتمَّ لك مرادك –أيها الأمير- بسهولة ويسر!
- وما ذاك؟؟ هات ما عندك!
- ابن الرسان.. هو حل المعضلة!!
- مَن.. ابن الرسان؟؟!
- إنَّه زوج أمها.. وهو الأحق بها بعد وفاة أمها وأبيها.. لا حمدون ولا جدته!
- الأحق بها.. قاضي اشبيلية أيها الجاهل! فهو عمها ووليها بعد أبيها!
- هذا صحيح.. إنْ كنا ندري أنه عمها!! لكننا لم نكن نعرف حين زوَّجكها أرملُ أمها!
- أنا لا أفهمك! وضِّح قولك.. وأفصح عن خطتك!
- الخطة سهلة واضحة يا سيدي! نُخفي –مؤقتاً- صلتها بقاضي اشبيلية، ويَظهر في تلك الأثناء زوجُ أمها الغائب.. ومن ثمَّ يطلب استعادة ربيبته من دار حمدون، وساعتها لن يمنعها منه أحدٌ مهما كان؛ القاضي ذاته سيحكم له باستعادتها لأنها لا محرم لها غيره، ثم تطلب أنت منه الزواج بها.. وتتزوجها، وبعدها تراسل قاضي

اشبيلية وتُخبره بأمر ابنة أخيه التي صارت زوجة حاجب الخلافة الأعلى، ولا أرى إلا أنه سيسعد بها كثيراً.. وبمصاهرته لحاجب الأندلس المرواني!

- يا لك من شيطان داهية! ومَن ظئرها هذا؟؟
- قلتُ لك.. إنَّه ابن الرسان!!
- ومَن ابن الرسان هذا؟ وكيف سنصل إليه؟؟
- إنه تابع شنجول ونديمه الذي سجناه بعد الثورة، وهو مازال حبيساً في السجن!
- سآمر بإطلاقه على الفور، ولتباشر أنت هذه المسألة بنفسك.. ثم جئني به!

****

-المشهد الرابع والسبعون-

في تكتم وتحرُّز.. يرصد فرتونُ أخبار ابن الرسان حتى يصل إلى مكانه حيث سُجِن في حبس الدويرة[1]، يتحين الفرصة لرؤيته، وها هو ذا يزوره –خُفية- في محبسه، يُطلِع السجَّانَ على مرسوم الحاجب بالعفو عنه.. ويطلب الانفراد بلقائه والتحاور معه.

ينظر إليه ويتأمله ملياً؛ فيجده جسداً خانعاً متهدلاً.. امتقع لونه وشَعِث شعره الأشمط.. وامتدت أظفاره.. وتيبَّس جلده وادلهمَّت بشرته، رآه شبحاً أكلته أيامُ السجن الكالحة ولياليه المظلمة؛ فلم تُبق من جسده البدين غير هيكلٍ واهن لعظام آدمي! (كم مرَّ من السنين على هذا السجين الهَرِيء؟!!)، (إنَّها محض أسابيعٍ معدودة؛ ربما لم تتجاوز ثلاثة شهور!)، (كيف آلت حالته إلى تلك الحال؟!).

يحدجه بنظراتٍ مشبَّعة بالتشفي.. ويعبث بعيونه الشامتة في هيئته الرثَّة كأنما يُفتِّش

---

[1].. حبس الدويرة: هو أحد سجون قرطبة ويقع في غربها على ضفة النهر، وهو سجن قديم.. منذ عهد الأمير عبد الرحمن الداخل.

في طياتها عن سيده القديم الذي كان يُذِّله ويوبخه ويسبه لأهون خطأ، يُحملق في قسماته المنقبضة وملامح وجهه المتكدرة وعينيه الذاهلتين اللتين انطفأ بريقهما؛ لعله يجد ذاك السيد القديم الذي طرده وشرَّده منذ قرابة العام لذنبٍ لم يُذنبه، سيده.. ابن الرسان.. اليهودي الذي أسلم وما مس الإسلام ما تحت جلده! يقترب منه وينحني إليه.. ثم يرهف السمع عسى أنْ يسمع له صوتاً يُذكِّره بأيامه البائسة التي كان يخدمه فيها خدمة العبد الوفي للسيد الجَشِع؛ فلا يسمع سوى نفساً قصيراً متلاحق.

يعتدل باعتزاز نفس.. ثم يجلس مزهواً في مقعد السجَّان الوثير.. ثم يهتف سائلاً بتهكم وازدراء: "كيف حالك.. يا ابن اليهودي؟؟"، ينفث ابن الرسان نفثة مصدور واهنة.. ثم يُطرق هنيهة قبل أن ترتجف شفتاه لتهمس بمرارة ويأس:

- حالي كما ترى –أيها السيد- نفسٌ ميتة في جسدٍ نصف حيّ!
- هل لك حاجة.. فنقضيها لك؟؟
- حاجتي أنْ يُعجِّل إليَّ الموتُ.. فيُريحني!
- الموتُ قضاءُ الله.. ولكل أجلٍ كتاب، هل لك حاجةٌ غير هذا؟؟
- أرجو أن يُخفف عني السجَّانُ بعض العذاب.. ويرحمني من ضرب السياط؛ فقد ضعف جسدي.. ووهن عظمي.. ولم يعد بي طاقة للتحمُّل!
- أنت الذي فعلتَ هذا بنفسك.. حين اخترتَ خدمة شنجول!
- مثلي يُختَار.. ولا يَختار أيها السيد المبجل! إنني أحقر من أن أختار أسيادي!
- صدقتَ في هذه! أنت حقاً حقير!! (صاح ضاحكاً مستهزئاً)؛ ثم أردف بنبرة شبه جادة: "لذا فقد أختارك الأمير ليهب لك الحياة.. ويُعيدك إلى الدنيا مرة ثانية!".
- .... أطرق ابن الرسان ولم يظهر عليه أي تأثر للخبر كأنما لم يسمع أو كأنه لم يفهم، فيعيد فرتون عليه قوله.. ثم يصيح موبخاً:
- أيْش بك أيها الأبله؟! ألم تسمع مقالتي؟؟! ألا تُجيبني؟؟!
- أعزك الله أيها السيد المحترم! بمَّ تريد أن أُجيبك وقد جئتَ تسخر مني؟!!

- تالله إنَّك لفي ضلالك القديم! (صدح فرتون بسخرية)؛ ثم أشار إليه أنْ اقترب مني ثم وقف في مواجهته وحسر له عن رأسه.. وهتف قائلاً بتحضيض: "انظر إليَّ.. يا ابن الرسان، انظر جيداً.. ألا تتذكرني؟؟"، يرفع ابن الرسان إليه بصره الكليل.. يدقق فيه البصر.. ثم يفرك جبهته كأنما يُفتِّش في رأسه عن صورة سابقة لهذا الرجل المجهول، لكن يرتد إليه بصره خاسئاً.. وتعجز ذاكرته عن التعرف عليه؛ فيخفض آيساً بنبرة حائرة مهزومة:
- للأسف.. لا أستطيع أنْ أتذكرك.. أيها السيد الوجيه؛ فقد أضعفت ظلماتُ السجن بصري.. وأعجز التعذيبُ ذاكرتي وعقلي!!
- قد كنتَ رجلاً ذا فراسة! إنْ لم تذكرني؛ فما ظنك بي؟! خمن: مَن أنا؟؟ (تساءل فرتون بفكاهة.. متلاعباً بأعصابه)؛ فجمجم ابن الرسان.. مُخفياً ضيقه:
- مِن زِّيك وهيئتك.. أحسبك أحد رجال القصر!
- أصبتَ أيها الكهل الخبيث! حَزَر -إذاً- ما هي الصلة التي كانت تجمعنا آنفاً!
- لا جرم.. أنَّك كنتَ أحد ندماء شنجول؛ وتلك هي التي جمعتنا!!
- خسئتَ أيها اللئيم! بعد ثورتنا الظافرة.. كل ندماء شنجول صاروا قتلى.. أو منفيين.. أو صاروا إلى ما صرتَ إليه!
- صدقني يا سيدي.. أنا لا أتذكرك؛ فأرجوك.. ارحمني.. وأعدني إلى زنزانتي؛ فرجلاي تعجزان عن الوقوف بين يديك! (هتف بانكسار ووهن.. مخفياً تضجره وسخطه).
- معذرةً! اجلس.. فالحديث بيننا سوف يطول! (قالها وهو يشير إلى مقعد ضئيل في أحد الأركان)؛ أجلسه.. ثم استأنف بشيءٍ من الرفق المصطنع: "ما جئتُ إلى هنا إلا ساعياً لخيرك وصلاحك.. صَوْناً للعشرة القديمة وحفظاً للمودة التي كانت بيننا، لكنَّك وأسفاه.. لا تتذكرني!!".
- أيها السيد الكريم.. جُزيتَ خيراً على حفظك المودة القديمة؛ لكن.. لا يليق بكريمٍ مثلك مصاحبة اللئام أمثالي!! (جأر بها غير مُخفي سخريته وتضجره من تلاعبه به)؛ فأجابه فرتون بضحكات مصطنعة وهو يهتف هازئاً:

- ها هي ذي روحك الفكاهية تنبعث فيك من جديد!
- لعل هذه الروح هي رمقي الأخير!
- ألا تتذكرني حقاً.. يا ابن الرسان؟!! (تساءل متصنع التودد والعطف)
- لعمرك يا سيدي.. لا أذكرك!
- أنا فرتون.. أيها الوغد! فرتون.. خادمك القديم.. حارس وكر الخمر المخفي!
- فرتون!! (جأر متفاجئاً باستعظام وإنكار)؛ ثم أردف بانكسار بائس: "إذاً.. قد جئتَ شامتاً؟!"؛ فابتسم فرتون مُتفاخراً.. ثم هتف متصنعاً المودة والوفاء:
- بل جئتُ مُبشراً ومُخلِّصاً!
- كيف؟؟! (تساءل ابن الرسان بتوجس وارتياب)
- سنعقد معك صفقة؛ لو وافقتَ عليها.. فسيكون نصيبك فيها: الحرية.. وأنْ تعود إلى حياتك التي كنتَ عليها!
- أوافق! فأيَّما كانت تلك الصفقة؛ فليس عندي شيئاً أخسره!
- لطالما عرفتُك تاجراً رابحاً.. أيها الوغد! لكن.. قبل الحديث عن الصفقة.. لي شرطان يجب عليك الالتزام بهما!
- سألتزم.. دون أن أعلمهما! غير أني أخمن أن أحدهما: أن يبقى أمر تلك الصفقة سراً بيننا! (هتف.. وقد تحمَّس ليستعيد شيئاً من بديهته وصفاء ذهنه)
- أحسنتَ! ها أنت ذا تستعيد نشاطك وقواك العقلية، أما الشرط الثاني فهو: أنْ تبيعني وكر الخمر الذي كنتُ أحرسه لك.. وما يحتويه من خمور عتيقة!
- تالله.. لا أدري: أ ما زال موجوداً.. أم سطا عليه ساطٍ؟!!
- اطمئن.. لم يزل محفوظاً في أمان! ستبيعه لي بثمنه وسنكتب صكاً بذلك.. وطبعاً بتاريخ قديم.. يسبق دخولك السجن!
- نكتب به صكاً؟!! وهل يجوز لمسلمَيْن أنْ يتبايعا الخمر؟؟
- ما علمتُك فقيهاً قبل اليوم؟! سنكتب أنَّك بعتني الدار ومحتوياتها!
- وبالطبع.. لن أقبض الثمن؟!!

- وقديماً.. كان في الناس الجشع!! (جأر بها بنبرة استهجان وتعجب)؛ ثم أردف متسائلاً بنبرة لوم وتوبيخ: "في أي ثمن تطمع.. وقد أعدتُك من الموت إلى الحياة!".
- إنما أُمازحك.. يا صديقي العزيز! (هتف ابن الرسان بتزلف مصطنع)؛ ثم استطرد متسائلاً: "وما تلك الصفقة التي سنعقدها معاً؟؟".
- ليست الصفقة معي.. بل مع الأمير؛ وستعلمها في حينها! (صاح بصرامة)؛ ثم سكت هنيهة قبل أنْ يستطرد هاتفاً: "بقي شيءٌ أخير قبل أنْ تخرج معي من هنا!".
- أنا طوع بنانك؛ افعل بي ما تشاء! (هتف ابن الرسان بانصياع متحمس)؛ فوثب فرتون منتصباً وسعى إليه في جدية وحزم، ثم وقف أمامه بعزة وكبرياء؛ فنهض ابن الرسان قائماً بين يديه في تردد؛ فصفعه فرتون على وجهه صفعةً قوية ألهبت خده وأدمت شفته.. فطفق مشدوهاً يمسح الدم عن فمه ويتحسس خده مبهوتاً من الألم؛ فيما يبتسم له فرتون ببرود ويربت على كتفه قائلاً:
- هذه الصفعة نظير ما عانيتُه في خدمتك من إذلال وإهانة.. لكي تصفو لك نفسي!
- .... (يرمقه ابن الرسان بنظرةٍ دَهِشة جامدة.. دُفِن تحتها حقدٌ وضغنٌ إلى حين)؛ وسكت عنه فلم يجبه ببنت شفة، يتطلع فيه فرتون بازدراء ثم يناديه:
- هيا.. لنذهب بك أولاً إلى الحمام كي تغتسل ونُهندمك.. قبل أن تلتقي بالأمير!

****

-المشهد الخامس والسبعون-

بازدراء وتأفف.. يُرجِع عبد الجبار البصرَ كرة أخرى في ابن الرسان الذي مَثَل بين يديه خاشعاً مُطأطئ الرأس.. وإلى جواره فرتون يرتقب رأي الحاجب فيه، يلتفت الحاجب إلى فرتون ويتساءل بنبرة توبيخ واستنكار: "أ ذاك الوضيع سيكون صهري أمام الناس.. أيها الخبيث؟! تباً لك.. ولأفكارك الدنيئة!!"،

يختلس ابن الرسان نظرات الاستغراب وعدم الإدراك إلى فرتون؛ فيما يستمهل فرتون الحاجبَ ريثما يُتم خطته هاتفاً: "أيا سيدي! لن نُظهره للناس بهذه الصورة؛ إنما سنهندمه ونحسِّن من هيئته إلى أنْ ترضى عنه!"، يوافقه عبد الجبار صائحاً بامتعاض: "لا جرم يجب تحسين هندامه حتى يليق بمصاهرة الحاجب الأعلى!".

يُباغَت ابن الرسان بما يسمع.. ويهجس في دخيلته: (هل هذا الرجل هو الحاجب؟! وهل أخرجني من السجن لأكون صهره؟! كيف هذا؟! هل لي أختٌ أو بنتٌ يعرفانها؛ ولا أعرفها!!؟)، بيد أنه يظل ساكناً مطرقاً في تحشُّمٍ واستكانة.. إلى أن توجه إليه عبد الجبار سائلاً: "ما اسمك أيها الرجل؟ وما هي حكايتك؟؟".

- أُدعى: ابن الرسان.. يا مولاي! وحكايتي: أني كنتُ تاجراً بسيط في سوق قرطبة.. وكنتُ أَشْرُف بخدمة الحاجب في قصر الخلافة؛ فظنَّ القوم خطأً أني من أعوان شنجول –لعنه الله- فاتهمتُ بجريرة أنا منها بريء.. وحبستُ ظلماً كأني من أعوان العامري؛ ويعلم الله كم أبغض العامريين.. ويشهد لي السيد فرتون بذلك، لكنْ.. عفا الله عمن ظلموني.. فمؤكد أنهم -مثلي- فعلوا ما فعلوه نصرةً لبني مروان أعزهم الله.. ولخليفتهم أطال الله بقاءه.. ولحاجبه العظيم جعلني الله فداءً له!

تبادل عبد الجبار نظرة ارتياح يشوبها بعض التوجس مع فرتون الذي ابتسم اطمئناناً، ثم التفت عبد الجبار إلى ابن الرسان وقال:

- رغم أنَّك أطلت الكلام؛ إلا أنَّ لباقتك أعجبتني.. أيها الرجل! لكن.. مظهرك ينفرني.. وهيئتك تثير اشمئزازي!
- أيا مولاي الحاجب المعظم! قد كنتُ وجيهاً فيما مضى؛ غير أنَّ أيام السجن هي التي فعلت بي ما ترى!
- أقترح أن نُخفيه بضعة أيام يسترد فيها عافيته ورونقه.. ونهندم فيها ثيابه ومظهره قبل أن يراه الناس، وإنْ يأذن لي سيدنا؛ أتولاه أنا! (جأر فرتون بتحضيض)

- لا مرية.. هذا ما سوف يتم، لكن.. اتركه لي، أنا سأتولى أمره بنفسي! (هتف عبد الجبار وهو ينهض من مجلسه كأنما يُنهي اللقاء)؛ ثم أردف: "انصرف أنت الآن يا فرتون؛ وحذار أن تُحدِّث أحداً بخبره قبل أنْ آذن لك!".
- أمرك.. سيدي! (يجأر بها فرتون).. ثم يهمُّ منصرفاً حينما يومئ عبد الجبار إلى ابن الرسان: أن تعال معي!

ثم أسكنه أحد أجنحة داره.. وأَوْكَل مهمة الاعتناء به وخدمته إلى الكهرمانة (نجوى).. وأكدَّ عليها في العناية به والاستجابة لطلباته!

****

-المشهد السادس والسبعون-

الأيامُ بعد عيد الفطر.. تَمُرُّ على أم هشام وسلوان بطيئةً مضطربة، ولياليها تَمُرُّ عليهما ساهدةً ثقيلة بما تحمله من أشواقٍ ولهفة.. وترقب لعودة حمدون كما بشَّر بها قاضي القضاة (ابن ذكوان).

بيد أنَّ نفس الأيام وذات الليالي انطلقت تمضي سريعةً متلاحقة على الخليفة المهدي وقصره.. ورجال دولته تأهباً واستعداداً لعيد المهرجان[1] الذي أقترب موعده في غضون أسبوعين فقط من الآن؛ فلقد أصدر الخليفة أوامره الصارمة بالإعداد الجيد والاستعداد التام لعيد المهرجان كأفضل وأحسن ما يمكن.

ودعا للاحتفال معه رسلَ ملوك الإفرنج وأوروبا.. وسفراءهم الذين قَدِموا تباعاً إلى قرطبة لتهنئته بالخلافة.. ولتجديد العهود والمواثيق مع خليفة الأندلس الجديد،

---

[1].. هو عيدٌ سنوي يوافق: ٢٤ يونيو من كل عام، كان نصارى الأندلس يحتفلون فيه بميلاد القديس يوحنا.. وكان المسلمون يحتفلون به معهم.. ويعدونه البداية الحقيقية لفصل الصيف في بلادهم؛ ولذا يعتبرونه ميعاد استبدال الملابس الصيفية الخفيفة البيضاء بالملابس الشتوية الثقيلة.

ومثلهم سفراء أمراء المغرب وأفريقية.. ومنهم رسل (فلفل[1] بن سعيد بن خزرون الزناتي) الذين جاءوا إلى الخليفة الجديد لتوثيق العهود وتجديد البيعة، وأيضاً مبعوثي أقاليم الأندلس وثغورها الذين أرسلهم ولاتُها بتجديد البيعة وبتقديم فروض الولاء والطاعة للخليفة الجديد؛ لذا فقد أراد المهدي أنْ يحتفل مع هؤلاء جميعهم بتمكُّنه على عرش الخلافة في (عيد المهرجان)؛ وأراده أن يكون احتفالاً عظيماً يليق بخليفة الأندلس وضيوفه المكرمين.. واعتنى بالأمر أبلغ اعتناء، وكَرَّسَ له كل طاقات رجاله.. وكل إمكانيات قرطبة.

شرع قصر الخلافة وأهل قرطبة في الاحتفال بالمهرجان مبكراً قبل موعده بأيام؛ فاقتظت الأسواق والحدائق والجنَّات بالمحتفلين والمتنزهين.. حتى إذا جاء اليوم المشهود خرج الخليفة المهدي بنفسه وحاشيته إلى الناس يحتفل بينهم ومعهم.. ويتناول الحلوى والمعجنات الأندلسية من أيدي نساء العامة وأطفالهن، ومبالغةً في الاحتفال: استعمل مائة بوق للزمر.. ومائة عود للضرب والغناء.. وراجت جِرار الشراب والخمر بين يديه بغير حساب؛ بل.. واحتسى منها أمام الناس، وانتشى وتواضع لضيوفه وللمحيطين به.. فانبرى يراقصهم ويغني معهم.. حتى تحدَّث به الناس: فمدح تواضعه وتبسَّطه مَن مدح، وذمَّ خلاعته وسفاهته مَن ذمَّ!

ثم.. انتهى اليوم كما تنتهي سائر الأيام!

وانفضت جموع المحتفلين بذلك العيد الحاشد.. وعاد أهل قرطبة لممارسة حياتهم العادية ولمتابعة شئونهم الخاصة، واستأذن سفراءُ الدول ومبعوثو الملوك والأمراء والولاة في الرحيل؛ فأذن لهم الخليفةُ بالرحيل مكرمين.. محملين بالهدايا والمنح..

---

[1].. هو فلفول بن سعيد الزناتي: زعيم بني خزرون الزناتيين الموالين لملوك الأندلس ضد الفاطميين حيث أنه زحف إلى طرابلس (في ليبيا الآن) سنة ٣٩١ هـ وانتزعها من يد الفاطميين بالقاهرة، لكنهم استعادوها منه وقتلوه بُعيد أن عادت رسله محملين بالهدايا من عند الخليفة المهدي بالأندلس سنة ٣٩٩هـ، ولم ترجع من بعدها لحوزة الأندلس أبداً.

والعطايا.. وبمواثيق وعهود التفاهم والسلام، وخصَّ واضحَ الصقلبي -عامله على طليطلة- بكثيرٍ من العطايا المميزة.. وأرسل إليه يوليه الثغر الأوسط كله؛ وهذا عرفان منه للفتى (واضح) بالفضل لأنه أول ولاة الأقاليم مسارعة إلى بيعته، ومكافأة له على صدَّه شنجول وجيشه البربري عن دخول طليطلة أبان ثورته على شنجول.

****

-المشهد السابع والسبعون-

فيما يربض المهدي مُتَّكِئاً على عرشه في استرخاء -منتشياً بما أحرزه بإثبات صفته كخليفة الأندلس أمام سفراء العالم في عيد (المهرجان)- دخل عليه عبد الجبار معاتباً:

- أنَّى لك كل هذا المال الذي أنفقتَه في عيد المهرجان.. أيها المهدي؟؟!
- وما شأنك أنت بما أنفقتُه على ضيوفي.. يوم (المهرجان) أو في أي مناسبة سواه!!؟ (تساءل المهدي زاجراً مستنكراً)؛ فأجابه بإصرار.. غير مُخفي ارتيابه وتوجسه:
- حقٌّ لي أن أعرف.. لأني حاجب الخلافة، وذاك المال يجب أن يُنفق بعلمي وتحت رقابتي، هذا عملي الذي وكلتَه إليَّ.. أيها الخليفة! أم تُراك نسيتَ؟!
- كان كل ذاك من مالي الخاص.. يا حاجبنا الأمين!! (جأر المهدي بتهكم واستهزاء)
- لا أظن أنَّك تملك كل مثل هذا المال في خزانتك الخاصة؛ فصارحني: من أين جئتَ بكل هذا.. كيلا تثير شكوكي وحيرتي!! (أجابه بنبرة تبكيِّت وازدراء).
- تباً لتطفلك! إنَّك حقاً تتدخل فيما لا يعنيك! (هتف المهدي بتأفف وتضجُّر)؛ فحدجه عبد الجبار بنظرة إصرار ثاقبة؛ فابتسم المهدي ابتسامة متبرمة.. ثم استأنف قائلاً بنوع من الاستسلام: "هذه كنوز جدنا الخليفة الناصر وعمنا المستنصر.. التي كانت مخفية ودلني عليها الفتى فاتن (أمين القصر) مخافة أن يموت في مرضه.. فتضيع علينا كل هذه الثروة!"، ثم ذيَّل كلامه بتنهيدة رضا.. وأضاف: "لقد اثبت لي أنه –بحق- خير أمين لهذا القصر المبارك!".

- كل هـذا المـال كـان مخفيـاً.. ولـم نكـن نعلـم عنـه شـيئاً؟! (تسـاءل عبـد الجبـار بتعجب)؛ ثم أردف باستهجان: "وأنفقتَه أنت كله على ذاك الاحتفال؟!!".
- حسبك يا عبد الجبار.. قد أكثرتَ عليَّ! ولقد مللتُ فضولك وتطفلك! هذا المال مـال الخلافـة؛ ولقـد أنفقتُـه فيمـا أرى أنـه لصـالح الخلافـة! (صـاح بنبرة تأنيـب وتـوبيخ)؛ ثـم أردف بشـيءٍ مـن التسـكين: "واطمـئن.. لـم أُنفـق المـال كلـه؛ بـل بقـي عندي شيءٌ منه! ولن اسمح لك بمجادلتي في هذا الأمر أكثر من ذلك!".
- لا بأس! إنما أردتُ الاطمئنان على مال الخلافة؛ فالمال –كما تعلم- هـو قوتنا التي يتوجب علينا الحرص عليها أشد الحرص!
- لا مرية في حرصك على المال.. يا عبد الجبار! (هتف.. يلمز بها بخله)، ثم أردف بنبرة أشـد حزمـاً وصرامة.. ومُحـولاً دفـة الحـوار إلى اتجـاهٍ آخـر ليـتهم ابـن عمـه بالتقصـير في مهامـه: "حسـبتُك جئتني.. لتخبرني كيـف سـتواجه تجمهـر البربـر واحتشادهم علينا في فحص السرادق[1]!
- ذاك أمرٌ غير ذي بال.. يا أبا الوليد!! (هتـف عبـد الجبـار بتردد وقد تغيَّرت ملامحه إلى الامتعاض والتحرُّج)؛ فصاح فيه المهدي موبخاً:
- معلوماتك قاصرة.. يا عبد الجبار! (ثم رمقه باستهانة).. وصاح هازئاً: "أ ليس من عملك –أيضاً- أن تقمع المتمردين.. وتردع المشاغبين؟!".
- ليس ثمة تمرد.. أو شغب.. أيها الخليفة! (جأر عبد الجبار متزعزعاً)
- أنت حقاً في غطاءٍ عما يدور حولنا يا حاجبنا الأعلى! إنَّ البربر يتجمعون في فحص السرادق منذ انفضاض المهرجان.. وأعدادهم تزداد.. وعيوننا رصدت مع بعضهم

[1].. الفحص هـو: كل موضع يمكن السكن فيـه سـواء سـهل أو جبـل بشـرط أن يـزرع، وهـو أحـد التقسـيمات الإدارية المعروفة في دولة الأندلس. أما فحص السرادق: فإنه يقع في شرق قرطبة على نهر الـوادي.. وأرضـه واسعة خصبة، به متنزهات معروفة عند أهل قرطبة، وسُميَّ بالسرادق لأن الخليفة الناصر –إبان خلافته- كان يُقيم فيه سرادق قبل خروجه للغزو ليجمع فيه جيشه.

سلاحاً، البربر يدبرون للتمرد والشغب! (صاح فيه بانفعالٍ)، ثم صرخ غاضباً باستهجان: "فماذا أنت فاعل.. يا حاجب الخلافة؟!!".

- اسمح لي أيها الخليفة.. سأهرع تَوّاً إلى حل هذه المسألة! (هتف بتعجل مرتبك)؛ فصاح فيه المهدي يحثه بصرامة وحزم:

- نعم.. اذهب! واستعن بأخيك محمد (صاحب الشرطة)؛ وخيرٌ لكما أن تفضا ذاك الجمع.. وتقمعا هذا التمرد حالاً.. قبل أن يقع ما لا تُؤمن عاقبته!

*****

في صباح اليوم التالي جاءت إلى المهدي أخبارٌ مشؤمة تنذر بأنَّ بعض المروانيين ومعهم بعض الجنود الصقالبة المعزولون قد تجمَّعوا بشكل مريب في ربض شقندة[1] قريباً من القنطرة.. ويتزعم جمعهم: شيخ المروانية.. والد ولي العهد المعتقل في قصر الخلافة.

تثور ثائرة المهدي.. ويتساءل في باطنه حانقاً: (ما هذا الذي يجري من حولي؟! هل يتكالب المتمردون عليَّ.. ورجال دولتي نائمون غافلون)، ثم يصرخ في حاجب بابه: "إليَّ بالوزير الأكبر (ابن حزم).. وصاعد بن عبد الوهاب.. حالاً!".

يهرع إليه الرجلان.. ويمثلان بين يديه في خشوع، فينبري واقفاً باحتدامٍ.. ويُبادههما متسائلاً بنبرة عتاب وتبكِّيت:

- هل علمتما بتجمهر البربر في فحص السرادق.. وباحتشاد الصقالبة العامريين مع شرذمة ضالة من المروانيين في شقندة!؟

---

[1].. هو الربض –أي الحي أو الضاحية- الجنوبي لقرطبة، ويقع على الضفة اليسرى من نهر الوادي قبالة قصر الخلافة والمسجد الجامع، ويصل بينه وبين المدينةِ قنطرةُ قرطبة المشهورة، وبه مقبرة عظيمة هي (الجبانة الكبرى).. ومصلى للعيد والاستسقاء (هو المصلى الجديد حيث أن المصلى العتيق يقع في فحص المصارة غرب قرطبة)، وبه حدائق وجنات واسعة خلابة.

- قد علمتُ بهم.. يا أبا الوليد؛ فنشطتُ إلى الحاجب الأعلى لأخبره بأمرهم.. لكنّه أعرض عني.. وسوّف لقائي بحجة أنَّه مشغولٌ بأمورٍ جثام! (هتف ابن حزم)
- مشغول بأمور جثام!! (جأر المهدي بسخرية وتهكم)، ثم استطرد صائحاً بانفعال: "هذا حدثٌ خطير لا يُؤجل.. فكان يجب أنْ تأتيني أنا.. أيها الوزير الأكبر! فأنا الخليفة هنا.. لا عبد الجبار بن المغيرة!".
- أصبتَ يا أمير المؤمنين! ولقد أخطأتُ في هذه.. وأعتذر عن خطئي! (هتف ابن حزم بإذعان)، أعرض عنه الخليفة والتفت إلى صاعد الذي ما زال صامتاً.. وصاح فيه بنبرة لوم وتأنيب يشوبها التهكم:
- وأنت! هل كنتَ غافلاً عما يجري؟ أم كنتَ تتحيَّن لقاء الحاجب؟؟!
- حنانيك يا مولاي! فلعمرك.. ما كنتُ غافلاً! ولا غفلتُ يوماً عن الذب عنكم وعن مُلككم! ولقد علمتُ باجتماع الصقالبة والمروانية في شقندة.. ولي الآن بينهم جواسيس وعيون تأتيني بخبرهم أولاً بأولٍ، غير أنّي لم أُرد أن أعكر صفوكم بعد ذلك الاحتفال العظيم بالمهرجان!
- لم تُرد أن تعكر صفوي؟!! (صاح مستنكراً بضحكة هازئة)، ثم أردف بسخرية: "هل كنتما تنتظران دخولهم إلى هنا شاهرين سيوفهم في وجهي.. ثم تخبراني!!؟".
- نعترف أنَّا أخطأنا يا مولانا! ونطمع في حلمك وعفوك! (جأر صاعد معتذراً مسترحماً)، حالما تطلَّع الوزير ابن حزم إلى الخليفة ببعض الوجل وهتف متردداً:
- لم يزل الأمر بأيدينا يا أمير المؤمنين! مُرنا.. فنفض جمعهم ولنفعل بهم ما تشاء!

يعود المهدي فيقعد على تخته.. ويستعيد بعض هدوءه، ثم يهتف بنبرةٍ أكثر تلطفاً وبحدةٍ أقل: "يجب أن تعلما أني لستُ -كسلفي (يقصد الخليفة المؤيد) - خليفةً يُحكَم ولا يَحكُم؛ بل إنَّ هذا الملك ملكي.. والدولة دولتي.. والسلطان سلطاني، فأيما صغير أو كبير يقع في دولتي.. يجب أن أعلم به! هل تفهمان؟؟!".

- أجل.. أجل.. يا سيدنا! فالأمر لك.. والدولة دولتك.. والسلطان سلطانك! (جأر صاعد بإذعان وتملُّق)؛ فاستطرد المهدي قائلاً بعزم وحسم:
- أما كلاب البربر.. فقد وكلتُهم إلى الحاجب وصاحب الشرطة، وسنأخذهم بالشدة والصرامة. أما المروانيون.. فسأدع أمرهم لك أيها الوزير ابن حزم، اذهب إلى ذاك الشيخ المخبول (هشام بن سليمان)؛ واسأله: ماذا يريد؟ ولماذا يجمع الناس حوله هكذا؟! وخوِّفه بطشنا وسوء عاقبة فعلته تلك. أما الفتيان الصقالبة الذين التفوا حوله؛ فقد وكلتُهم إليك.. يا صاعد.. لما أعلمه من صلتك ببعضهم، فاعمد إليهم وخذِّلهم عنه حتى يتفرَّقوا من حوله.. وينفض جمعه!"، (سكت هنيهة كأنما يلتقط أنفاسه ثم صاح فيهما: "هيا انصرفا إلى عملكما ولا تتوانيا فيما أمرتُ!!".

****

-المشهد الثامن والسبعون-

خرج الوزير (ابن حزم) من عند الخليفة متوجهاً إلى القاضي (ابن ذكوان)، وأخبره الخبر.. والتمس منه الذهاب معه إلى هشام بن سليمان (شيخ المروانية) لمحاورته وسؤاله عن أسباب حشده الناس بهذا الشكل المريب.

غير أن القاضي اعتذر للوزير بأنَّ المهدي نهاه آنفاً عن التدخل في سياسة الدولة.. وأمره أن ينشغل فقط.. بأمور القضاء؛ لكن الوزير مازال به حتى أقنعه بأنَّ هذه المسألة ليست من سياسة الدولة التي ينصرف عنها القاضي.. بل هي من القضايا التي يجب أن يفصل فيها القاضي لأنها إصلاح بين الناس، ولوأد فتنةٍ قد تُدمر البلادَ وتُهلك العبادَ، فاقتنع القاضي.. وجاء معه إلى شيخ المروانية.

عاتباه قائلين: "كيف تُؤلب الناسَ على الخليفة وتحشد الجنود ضده؟! هذا فعلٌ لا يجوز من رجلٍ في مكانتك.. ولا يليق برجلٍ ذي عقلٍ مثلك!!".

فأجابهما وهو يتميَّز غيظاً وحنقاً على المهدي: "ظُلمتُ وأوذيتُ، وسُجِن ولدي على غير شيءٍ.. وهو (ولي العهد)، وأجهل ماذا صنع خليفتكم به.. فأخاف عليه! فماذا تريدان مني أن أفعل غير الذي فعلتُ؟!!".

ما انفكا يعاتبانه ويُقبِّحان فعله؛ فلا يُجيبهما إلا هاتفاً بتسخُّط: "حُبِس ولدي ظلماً.. وأخاف على روحه، ولن ينفض هذا الجمع.. ريثما أستعيده سالماً!!".

فلانا له.. ووعداه بالشفاعة لولده عند الخليفة، وأكد له القاضي (ابن ذكوان) أنَّ الخليفة قد صرح أمامه منذ أيامٍ سابقة بأنَّه سيجمعه بولده؛ لكنَّه تعجَّل الأمر بفعله هذا. وطلب منه الوزير (ابن حزم) عهداً صريحاً بأنْ يصرف الناسَ بسلام إذا رجع إليه ولده؛ فامتنع أنْ يلتزم لهما بوعدٍ قبل أنْ يرجع ولده (سليمان) سالماً.. ويطمئن عليه!

فلمَّا استيأسا منه؛ انصرفا عنه إلى الخليفة المهدي ليُخبراه بمطلبه، فاغتاظ المهدي وتضجر: (كيف يفرض عليه هذا الرجل شروطه؟!)، وسألهما باستنكار: "أ وكلما عاقب السلطانُ رجلاً من الرعية.. تجمهر أهله وعشيرته مزمجرين مهددين.. ليجبروا السلطانَ أنْ يعفو عنه؟!! كيف تُحكَم الرعيةُ إذاً؟! أين هيبة الدولة والخليفة؟!!".

بيد أنَّهما جعلا يتلاطفان معه ويشفعان عنده لابن عمه وولي عهده ويذكِّرانه صلة الرحم ويحثانه على المعروف والإحسان؛ حتى رقَّ قلبه –أو هكذا ظنَّا- وأمر بإطلاق سليمان وإعادته إلى بيته وأهله؛ فشكراه وأثنيا عليه وعلى سعة صدره وحلمه؛ فأجابهما بأنَّ هذه هي المرة الأولى التي يرضخ فيها لابتزاز أحدٍ.. وستكون الأخيرة، وتوعد أمامهما شيخ المروانية: (إنْ عاد لمثلها فليس له عنده غير السيف القاطع البتار).

****

-المشهد التاسع والسبعون-

أما جنود البربر المتجمعون في فحص السرادق.. فقد أرسل إليهم صاحبُ الشرطة بناءً على توجيهات أخيه الحاجب رجلين من رجاله هما: (محمد بن ذُري – وخالد بن طريف)،

سألا عن (محمد بن يعلي) –قائد البربر في عهد شنجول-؛ فقيل لهم أنَّه مذ عزل المهدي البربرَ عن الجيش وهو قعيد حبيس في داره لا يخرج منها ولا يقابل أحداً.. كمداً وغماً!! فسألا: مَن ذا الذي يتزعم هذا الحشد المتجمهر؟؟! فأُخِذا إلى (زاوي بن زيري)؛ فسألاه باستهجان واستنكار: "لماذا تحشد البربر في هذا المكان؟ ولماذا نسمعكم تنادون: لا طاعة للمهدي؟!". وأضاف خالد بن طريف قائلاً بغلظة: "هل تنقضون بيعة الخليفة التي في رقابكم؟! هل تخونون عهد الله ورسوله؟؟!!".

فيجيبهما زاوي بن زيري هاتفاً بحميَّة واهتياج: "تالله.. كُنَّا قد جئنا نُبايع خليفتكم هذا؛ فطُردنا من لَدُن بابه.. بعد أنْ تخلينا عن شنجول من أجله، وغمدنا سيوفنا في قِرابها رغبةً منَّا في مسالمته.. وتَطَلُّعاً إلى خدمته بإخلاص كما كنا نخدم سلفه!!"، ثم أردف صائحاً في حنقٍ وسخط: "فما كان منه ومنكم غير التنكر لنا والتهجم علينا وإهانتنا ونهب دورنا وأهلينا.. ثم طردنا من الخدمة في الجيش وقطع أرزاقنا. فأي بيعة بعد هذا كله تطالبنا أن نحفظها.. يا ابن طريف؟؟!".

- فماذا تريدون؟؟ لماذا تحتشدون هاهنا؟!! (هتف ابن ذري)
- نريد أن يرد لنا خليفتكم اعتبارنا.. ويردنا إلى خدمتنا السابقة في جيش قرطبة كما كنا.. ويؤدي لنا أرزاقنا المتأخرة منذ عهد شنجول!
- هل تظن –يا شيخ البربر- أنَّ الخليفة المهدي سيرضخ لمطالبك تلك؟!!
- لا يملك خليفتكم إلا الاستجابة لمطالبنا العادلة!! هيا انصرفا من هنا.. قبل أن يفتك بكما الرجال!! (صاح بصرامة.. صارفاً لهما بجفاء)

انكفأ الرجلان إلى الحاجب عبد الجبار فأخبراه بمطالب زاوي والبربر.. وانبريا يُقبِّحان له عاقبة الاستجابة لتلك المطالب، ثم ذيلا كلامهما قائلين: "قد أظهر البربرُ التمردَ –يا سيدنا- ولا نرى إلا أنهم عازمون على الخروج على الخلافة، فلا محيص من مجابهتهم بالسيف!!"؛ فتلقى عبدُ الجبار النبأ بهدوء وبرود.. ثم صرفهما قائلاً: "ذروني أُروِّي في المسألة.. وانتظرا ما سآمركما به!!".

****

-المشهد الثمانون-

في المساء.. دلف عبد الجبار إلى داره، واختلى بذاته.. قاعداً يُقلِّب الأحداث الجارية في رأسه: (ها هو ذا ما كنتُ أرجوه وأخطط له أوشك أن يتحقق! وها هي ذي الفتنة بين خصميّ –محمد المهدي وهشام شيخ المروانية- قد وقعت!! ولم يبق سوى أنْ أتحسس لخطواتي القادمة!)، (لكن.. لم أكن أحسب أنْ ينضم البربرُ إلى اللعبة! وما أدراك ما البربر؟! جنودٌ أكفاء مخضرمون، موتورون.. حانقين على المهدي لِما فعله بهم.. وبسيدهم شنجول من قبلهم!)، (مع أيهم ينبغي أنْ أكون؟!! مع المهدي.. لأني حاجبه؟! أم مع شيخ المروانية لأني لا أرضى عن تنكيل المهدي بابن عمنا وولي عهده؟! أم مع البربر لأني الأمير المرواني الشهم الذي لا يرضى بالضيم.. ولا يقبل عزل جنود الخلافة الأكفاء عن جيشها؟!)، (هذا الأمر مُحيِر جداً!! ليت لي مثل دهاء ذاك الصقلبي اللعين (فرتون)! لا مناص من اللجوء إلى دهائه ومكره مرة أخرى!).

ساعتئذ استأذن ابنُ الرسان في الولوج إليه، وقف بين يديه؛ فأنشأ يتطلَّع إليه ويتفحصه.. ثم قال باستحسان: "قد بدأت تظهر النعمةُ عليك.. يا هذا!".

- الفضل والمنة لسيدنا الحاجب! (هتف بتملُّقٍ غير مُخفي زهوه بذاته)؛ فاستطرد عبد الجبار بنبرة مَـنٍّ يشوبها الضيق والانزعاج:
- لكنَّ.. هذه النعمة التي تتنعَّم بها.. تكلفني الكثير!!
- سيدنا الحاجب سليل الشرف والجود، ولن أنسى –أبداً- فضلكم عليَّ وكرمكم معي، ولو سمح لي مولاي؛ أرغب أن أصارحه بما يجيش في صدري!
- هات ما عندك!! (جأر بها في شيءٍ من التأفف لم يخفيه)
- رغم امتناني لك –يا سيدنا- لكرمك معي، ورغم أني لن أوفيك حقك عليَّ مهما خدمتُك من الحين.. ولغاية آخر العمر؛ إلا أني لا أحب أن أظل عبءً عليكم أكثر ويُصيبني بالخجل منكم.. ومن نفسي!

- هل ستخرج إلى الغابة فتحتطب.. كي تكفينا نفقتك؟! (تساءل بسخرية)؛ فابتسم ابن رسان ابتسامة مداهنة ثم استطرد هامساً وهو يتصنَّع الاستحياء والخجل:
- بل.. يأذن مولانا الحاجب أن استرد أموالي وممتلكاتي التي صُودرت؛ فإني كنتُ تاجراً ذا مال، وحينها سأكون أنا وتلك الأموال ملكاً لسيدنا يفعل بنا ما يشاء، وساعتئذ سأكون لائقاً بما يريده مولاي الحاجب مني!!
- وهل تعرف: ما الذي أريده منك؟؟!
- مهما يكن.. يا سيدي؛ فستجدني عند حسن ظنك وطوع بنانك!
- حدِّثني إذاً عن أموالك وممتلكاتك تلك: ما هي؟ وكم كنتَ تملك؟؟

وقف ابن الرسان يتحدَّث بلباقةٍ واسهاب عما كان يملكه من أموال ومقتنيات.. وتجارة رابحة غابت أخبارُها عنه أثناء مدة سجنه، وحكى ما دار بينه وبين فرتون من حديث، وألمح –بتمسْكُن وتحسر- إلى ابتزاز فرتون له لكي يخرجه من السجن.. ومساومته له على رأس مال تجارته –ألا وهي ذخائر خمره المعتق- وسلبه إياها نظير الإفراج عنه، ثم غدا يُلمع –بمداهنة وتملُّق- في طيات كلامه مرة أخرى بأنَّه بعد أن يستعيد تلك الأموال والمقتنيات سيضعها ملك يمين الحاجب ورهن إشارته.. وسيكون هو مجرد أمينٌ له عليها. رمقه عبد الجبار باعجاب واستبشار، ثم صرفه قائلاً بعنجهية: "ذرني أتأكد من حقيقة قولك؛ ثم أُرَوِّي في أمرك!".

****

-المشهد الحادي والثمـــانـــون-

في اليوم التالي.. ينطلق عبد الجبار إلى مقره بقصر الخلافة، ثم يستدعي فرتون إلى مجلسه؛ فيأتيه بخطواتٍ متثاقلة.

يسأله عبد الجبار باكتراث: "ما قولك فيما ترى وتسمع من أحداث.. أيها الداهية؟؟!"، فيُجيبه متسائلاً بفتور وعدم اكتراث:

- تقصد: اعتصام شيخ المروانية وبعض الجنود الصقالبة في شقندة؟ وتجمهر جنود البربر واحتشادهم في فحص السرادق؟!
- أجل! وهل غير ذلك؟!! (يهتف بنبرة تحضيض وتحفيز)
- أحسب أنَّ هذا ما كنا نخطط له: الوقيعة بين المهدي وشيخ المروانية!
- لكن.. لم نحسب حساب البربر، وأخشى أنَّ بروزهم إلى ساحة الصراع قد يعوق ما كنا نخطط له!! (يجأر بنبرة يشوبها التوجس والرهبة)
- أرى –أيها الحاجب- أن البربر لم يخرجوا على المهدي من تلقاء أنفسهم؛ بل.. هذا أمرٌ مبيت النية!! وأكاد أُجزم أن: شيخ المروانية تحالف مع الجنود المطرودين من الجيش –بربر وصقالبة-، ولا محالة أنهم قد اتفقوا على الخروج معاً في ذات الوقت.. كما هو حادث الحين!
- إذا كان كما تظن؛ فإنَّ كِفَّة شيخ المروانية ستكون الراجحة! (هتف بتوتر وارتياب)، ثم استطرد متسائلاً في توجس: "فكيف أتصرف أنا؟ ومع من أكون؟؟".
- أنت الحاجب.. وينبغي أن تواجه هذا التمرد وتقمعه!!
- تعساً لك! تريدني أن أواجه هؤلاء وأحاربهم مخاطراً بروحي لأجل المهدي؟!
- بل.. لأجل منصبك فأنت الحاجب، وحفاظاً على مُلك عشيرتك (المروانيين)؛ فإنِّي أتوقع: لو ظهر شيخ المروانية على المهدي –وطبعاً- معه البربر؛ فإنَّهم سيتصلتون على الخلافة وسيصبح الأمر كله لهم دون المروانيين.. كما كان حال العامريين من قبلهم! لذا فالرأي عندي أن تساند المهدي وتناصره عليهم! (قال فرتون بثقةٍ زائدة واعتزازٍ برأي)؛ شعر بهما عبد الجبار، بل.. وأحس منه زهواً وصلفاً لم يروقا له فهتف كأنما يزجره على صلفه واختياله بفطنته ودهائه:
- بئس الرأي! قد خدعتك نفسُك.. يا فرتون، وأوهمك غرورك وكبرك أنَّك أنت الأذكى.. وأنَّك أنت الداهية! لكن رأيك فاسد هذه المرة.. وقد خانك دهاؤك!
- .... (رمقه فرتون باستخفاف خفي ولم يُجبه)؛ فأردف عبد الجبار:

- أنت تعلم أنَّ الخليفة لا يقاتل بشخصه.. بل حاجبه! فهل تريدني أن أُغامر بروحي في قتال **الجنود البربر** نصرةً للمهدي؟! فإنْ هُزِمتُ ارتاح هو مني؛ وإنْ ظفرتُ حُسِبَ انتصاري نصراً له هو!! لن أُطاوعك في هذه المجازفة الحمقاء!!
- قد أعلمتُك رأيي.. والقرار لك! (هتف بهدوء ونوع من اللامبالاة)
- خيرٌ لي أنْ أُناصر الفريق الأقوى.. ألا وهم: هشام (شيخ المروانية).. ومَن معه من جنود البربر والصقالبة!!
- لن تنفعك مناصرتهم بشيء.. حتى وإنْ انتصروا! هذا رأيي.. والخيار لك!! (هتف بها فرتون بنبرة جازمة كأنما يُنهي الحوار.. ثم سكت)

حدجه عبد الجبار بنظراتٍ فاحصة متأملة ولم يجبه، واكتنفتهما لحظاتٌ ثقيلة صامتة؛ تخبَّطت فيها مشاعر أحدهما تجاه الآخر، وأحسا بجفوةٍ غامضة تتولَّد بينهما.. وفجوةٍ عميقة تزداد اتساعاً؛ هل باعثها هو اعتزاز فرتون المفرط بذكائه ودهائه؟ أم استخفافه الخفي بعقل عبد الجبار واشمئزازه من بخله وكبره؟ أم إنَّه: خوف عبد الجبار وتوجسه من دهاء فرتون الزائد.. وعدم اطمئنانه إلى ولائه؟ أم حسده له على ما وهبه الله من دهاء وجرأة كان يتمنى أن يُرزقهما هو دون ذاك الصقلبي المُحتَقَر؟!! لعلها كل تلك البواعث مُجتمعة. على أنَّ فرتون –الحين- يضمر الرغبة في مفارقة عبد الجبار إلى سيدٍ آخر يقدم له خدماته نظير تحقيق طموحاته وأماله الكبيرة، أما عبد الجبار فيتمنى قهره وإذلاله حسداً على دهائه الذي أثار إعجابه.. وحقداً منه على غروره واعتزازه بعقله وفطنته.. رغم أنه –من وجهة نظره- مجرد خادم صقلبي وضيع!

استجابةً لتلك الرغبة الدفينة المُلِحّة في قهر فرتون.. واشتهاءً لمهاجمته وتحجيم طموحه انفرجت شفتا عبد الجبار متسائلاً بنبرةِ تربُّصٍ يشوبها شيءٌ من التوبيخ ولمحةٌ من الاستهانة: "كيف تُحصِّل تلك الخمر المعتقة التي تقدمها للخليفة وندمائه في ليالي السمر.. يا ساقي الخليفة؟؟ إنَّها خوابي الخمر ودِنانها التي غصبتَها ابنَ الرسان؛ أليس كذلك؟؟!".

- كنتُ قد اشتريتُها منه سَلَفاً، فهي الآن ملكي.. يا سيدي الحاجب!
- لم تشتريها! إنما ساومتَه عليها نظير إخراجه من حبسه.. أ ليس كذلك؟!!
- ما أخرجتُه إلا تلبيةً لرغبتك.. يا سيدي! أما خوابي الخمر؛ فقد كنتُ أصنعها له بيدي.. وأحرسها حيث كان يُخبِّئها! قد بذلتُ فيها عمري وجهدي، وهي الحين ملكي.. ولن أُفرط فيها أبداً، وإذا أراد سيدي الحاجب؛ فإنِّي أهديك منها ما تشتهي!
- أ ترشوني –أيها الشقي- كي أغض الطرف عن ابتزازك لهذا الرجل المستضعف.. وأتجاوز عن أكلك ماله بالباطل؟! كلا.. كلا! لن يكون! ولا منجى لك حاشا أن ترد للرجل بضاعته كاملة.. أو تؤدي له ثمنها!
- سيدي!! قد علمتَ أني لا أملك مالاً كافياً، ثم إنَّ هذا الرجل منافق ماكر، قد كان صديق شنجول المقرب، وكان ينبغي أن نقتله معه، وها أنت ذا قد عفوتَ عنه وأخرجتَه من سجنه؛ ألا يكفيه هذا ثمناً!؟ ولا تنسى –يا سيدي- الغرض الذي أخرجناه لأجله؛ إنَّه مجرد وسيلةٌ مؤقتة تبغي بها الحصول على المرأة التي تشتهي الزواج بها! وأنا مَن أرشدتُك إليه! (طفق يسترسل بنوع من التلعثم والتخبط)
- كيف تخاطبني هكذا.. أيها الفَسْل؟؟! يبدو أن تبسطي معك في الحديث وتواضعي لك قد أنسياك أنَّك خادم صقلبي نكرة.. وأنني أنا الحاجب الأعلى، ويتحتم عليَّ أنْ أرد الحقوق لأصحابها من مغتصبيها!!
- .... (أسكته تفاجؤه بهذا التوبيخ المهين الغير متوقع)؛ فطفق يخالسه النظر بعيون زائغة مرتابة، واستطرد عبد الجبار هاتفاً بغطرسة الآمر المتسلط:
- اسمع القول الفصل! إني سأمنحك مهلةً تجمع فيها ثمن بضاعة الرجل التي استوليت عليها بدون وجه حق؛ وإنْ لم تفعل فلا تلومنَّ إلا نفسك!!

****

-المشهد الثاني والثمانون-

طلب الخليفةُ مثول حاجبَه بين يديه دون إبطاء، لم يُبطء عليه عبد الجبار.. ودخل إليه في إيوانه، رد تحيته باستعجال.. واستحثه سائلاً عما فعله مع البربر المحتشدين في فحص السرادق؛ فقصَّ عليه عبد الجبار ما صار بينهم وبين الرجلين (ابن ذري – وابن طريف)، وأخبره بمطالبهم وشروطهم للرجوع إلى الطاعة.. وأكَّد له وصول التفاوض معهم إلى طريقٍ مسدود، وصارحه بأنَّ رأيه من رأي الرجلين وهو: لابد من أخذ البربر بالشدة.. وردعهم بالسيف!

تريث المهدي برهة متفكراً قبل أن يُجيبه برصانة وعقلانية: "قد أعمى الضَغَنُ أبصاركم.. يا عبد الجبار! فكيف نواجه الجمعين معاً -الجنود البربر المحنكين.. والجنود الصقالبة المتمرسين- وليس لدينا أكفاؤهم!؟ ولا شك عندي في أنَّ هشام بن سليمان هو من جمعهم!!". فتساءل عبد الجبار بانزعاج.. وقد راعته خطورة الموقف:

- فماذا ترى أن نفعل.. يا أبا الوليد؟؟!
- الوقت الآن وقت الدهاء والمكيدة؛ لا وقت المواجهة والحرب! علينا أنْ نخدعهم ونوهمهم أننا نقبل التفاوض معهم.. ونسعى إليه، ثم نماطل في تلك المفاوضات.. وفي تلك الأثناء نحشد أنصارنا من الثوار إلى جانب جنود شرطتنا؛ فإذا أصبحنا أكفاءهم؛ باغتنا الجمعين على حين غرة.. وقضينا عليهم!
- قد يفطنوا لمأربك من تلك المفاوضات.. ولا يستجيبوا لها، وساعتئذ قد يُباغتونا هم.. وتدور علينا الدوائر!!؟
- إذاً.. عليك من اللحظة أنْ تُكرِّس أنت ومحمد أخوك (صاحب الشرطة) خيرةَ رجال شرطتنا في مواجهة البربر ليحولوا بينهم وبين القصر.. فالبربر هم الأكثر والأخطر، أما الذين في شقندة مع ذاك الشيخ الخَرِق: هشام بن سليمان؛ فدعهم لي.. فقد وجدتُ الوسيلة الناجعة لدحرهم!
- كيف ستدحرهم؟!! (تساءل عبد الجبار بفضول وشغف)

- قلتُ لك: دعهم لي! وركز قوتك ضد البربر. واحرص على إيهامهم بأننا نسعى للتفاوض معهم.. لا حصارهم! وإثباتاً لحسن نوايانا: سأستجيب لمطلب شيخ المروانية المخرف وأُطلق ابنه (سليمان) من حبسه.. وأرده إليه!!
- كما ترى.. أيها الخليفة!!
- شيءٌ آخر.. يجب أن أُعلمك به.. يا عبد الجبار! حان وقت إطلاق حمدون -هو الآخر- من محبسه؛ فإنَّي أحتاجه معي في مواجهة هذه الأزمة!

انقبضت أسارير عبد الجبار وتبدَّلت ملامحه إلى الكدر والاستياء.. وهتف بتشنج:

- قد وعدتني ألا تُطلقه.. أيها المهدي!!
- قد أمهلتُك شهراً، وها هو ذا الشهر أشرف على الانتهاء! ولقد أرجأتُه مرغماً.. استجابةً لتوسلاتك وجبراً لخاطرك.. دونما أعلم العِلَّة! لكن الحين.. قد وجب إطلاق الرجل؛ فإنِّي احتاج رجالي المخلصين إلى جواري!!
- وأنا.. ومحمد أخي.. ألسنا من رجالك المخلصين.. يا أبا الوليد؟!! ألسنا أبناء عمومتك؟!! لِمَ تُفضِّل علينا هذا الفتى الوضيع؟؟!
- هذا هو!!! (صاح المهدي بصرامة.. مُلوحاً بسبابته في وجه عبد الجبار بإشارة تأنيب)، ثم استدار وجلس على تخته وأردف: "إنَّك تغمط الفتى وتكرهه.. وتُنكر فضله حقداً وحسداً.. يا عبد الجبار!".
- وأيش يكون هذا النكرة كي أحسده.. وأنا حفيد الخليفة الناصر!! (أجابه بإباء وإنكار)؛ فاستأنف المهدي كلامه مؤكداً صدق رؤيته قائلاً بنبرة أهدأ حدة:
- ألا تذكر منذ سنوات.. في بداية عهد الهالك (الحاجب المظفر).. حين عقد والدي (هشام) -رحمه الله- بيننا منافسةً في الفروسية والرماية؟
- لا جرم أذكر! فقد كان يعقد مثل تلك المنافسات كثيراً، وكنتُ أشارك فيها: أنا وأنت ومحمد أخي! (أجابه عبد الجبار بتلقائية وعدم اكتراث)؛ فأردف المهدي:

- وأبو بكر وسليمان.. ولدا هشام بن سليمان.. وآخرون، وفي ذلك العام شارك معنا –ولأول مرة- فتى أمرد.. استصغرناه واستهنا به؛ كان هذا الفتى هو: حمدون! فما رأينا منه غير الجدية والحماس في المنافسة.. حتى فاقنا كلنا في ركوب الخيل والرماية.. وأبهر أبي وجميع الحاضرين.. ألا تذكر؟؟

سكت عبد الجبار منكراً تذكره لهذه الواقعة، فاستطرد المهدي هاتفاً وهو يتذكر بإعجاب وسرور:

- أذكر يومها أنني أُعجبتُ به وبقدراته.. وكفاءته العالية رغم حداثة سنه.. ومن يومها اتخذتُه صاحباً ورفيقاً؛ فعرفتُه أخاً مخلصاً دمث الخلق.. وفارساً شهماً شجاعاً لا ينقصه حكمة، أما أنت: فقد كنتَ أكبرنا سناً.. وقد رأيتُ عينك – يومها- وأنت تنظر إليه؛ كانت تمتلئ ضغناً وغليلاً.. أحسبهما كبرا في قلبك بتطاول الزمان إلى أنْ امتلأ صدرك حسداً على الفتى؛ حسداً أغراك بالسعي في سجنه.. والكدُّ في الخلاص منه! وإني أُحذرك؛ فلن أدع حقدك يُفقدني رجلاً مخلصاً شهماً ذا ساعدٍ قوي.. وأنا أحتاج إليه!!
- أيها الخليفة! رغم تقديري لعقلك وحكمتك؛ إلا أنَّك قد جانبك الصواب في هذا الشأن؛ وإني أؤكد لك أنَّ هذا الغلام لا يشغل عقلي أو قلبي مثقال خردلة!
- إذاً! قد قررتُ إطلاقه من محبسه؛ فلا تراجعني!!

****

-المشهد الثالث والثمانون-

كان يوماً طويلاً عصيباً.. قضاه الخليفة المهدي في إيوانه مُجتمعاً بأعوانه ورجال دولته رجلاً تلو الرجل وحزباً تلو الحزب؛ وذلك لتدارس الموقف واتخاذ الإجراءات المناسبة لمواجهة هشام بن سليمان ومَن معه.. وكذلك البربر؛ لاسيما وأنَّ العيون والأخبار تؤكد أنَّ احتشادهم ضربٌ من ضروب الشِقاق والتمرد.

كان أحد لقاءاته مع حاجبه عبد الجبار.. وأخيه محمد (صاحب الشرطة)؛ فأمرهما بأن تتموضع قواتُهما شرقاً في مواجهة البربر تمهيداً لتطويقهم ومحاصرتهم.. ولتردعهم عن مهاجمة القصر إنْ قصدوا إلى ذلك سبيلا.

ثم أمر جؤذر بإخراج سليمان (ولي العهد) من محبسه وارساله إلى بيته والتأكد من عودته إلى أهله آمناً، ثم اجتمع بالوزير (ابن حزم) وقاضي القضاة، والتمس منهما أن يرجعا إلى شيخ المروانية حيث يعتصم هو وجموعه في شقندة؛ ليخبراه بأنَّه أطلق له ولده (سليمان)، ويطالباه بفض ذلك الحشد، وأمرهما أن يعودا إليه بالخبر سريعاً.

كذلك التقى بحمدون بعد أن أصدر قراره بإخراجه من السجن، بيد أنَّه ألفاه نافراً واجداً؛ فالتمس له العذر.. وسمح له بالذهاب إلى بيته معززاً مكرماً، وأمهله بضعة أيام يستريح فيها ببيته ويسترد عافيته.

ثم دلف إليه صاعد بن عبد الوهاب ليُحبِّك معه خطةً بديلة لمواجهة هشام بن سليمان (شيخ المروانية) والمتمردين.. إذا فشلت المفاوضات معهم!

فيما يتدارسان الموقف.. استأذن الوزير الأكبر وقاضي القضاة في الدخول إلى الخليفة. ولجا إليه؛ فأمسك عن الكلام مع جليسه.. ورنا إليهما؛ فألفاهما متجهمين كئيبين؛ فقدَّر أنهما فشلا في مسعاهما.. وتبادل نظراتٍ مختلسة مع صاعد.. ثم تساءل: "ما لي أراكما عابسين.. يا سادة!؟ ماذا حدث؟؟! قد أبطأتما عليَّ!!".

- عذراً.. يا أمير المؤمنين! كنتُ أحسب أنَّ شيخ المروانية.. أرشد عقلاً مما رأيتُه عليه اليوم!! (جأر الوزير ابن حزم على استحياء)؛ فجاوبه المهدي مُتندِّراً:
- أما أنا.. فما علمتُ له عقلاً ولا رشداً قط! فلتخبراني بكل ما جرى!!
- ما جرى.. وما قيل.. لا يُحكى ولا يُسمع.. يا أمير المؤمنين!

- أخبرني أنت.. يا سيادة القاضي! فقد ضاق صدري.. ونفد صبري! (صاح المهدي بصرامة.. ممتعضاً من مراوغة وزيره)؛ فيما ولج أحد حُجاب باب الإيوان.. ثم أَسَرَّ في أُذن صاعد بكلمات.. فاستأذن الخليفةَ وخرج مسرعاً وهو يقول:
- عفواً.. يا أمير المؤمنين! إنَّ أحد رجالي بالباب.. ويُلحُّ في إخباري بشيءٍ عاجل!
- اذهب.. ولا تتأخر! (قال له المهدي)؛ ثم التفت إلى القاضي والوزير.. وصاح هاتفاً في حزم: "ها.. إنِّي منصتٌ.. يا سادة!!".
- لقد أخبرنا الرجلَ بأنَّ أمير المؤمنين أطلق ولدَه.. وبأنَّه الآن آمناً في بيته؛ فزعم أنَّه لا يُصدِّقنا، وأمر مَن يذهب إلى دار ولده ليتأكد من صدق الخبر.. واستبقانا في خيمة مجاورة لخيمته وشدّد عليها الحراسة بجنودٍ مدججين بالسلاح!
- ثم استدعانا؛ فولجنا إليه وهو كالح الوجه غضبان.. ليصرخ فينا زاعقاً: (تالله.. قد علمتُ أنَّ خليفتكما غادر! نعم.. رجع ولدي سليمان إلى بيته! لكنَّه عاد سقيماً مريضا!! قد أراد قتله.. والله!! لقد بلغ السيل الزُّبى.. وطفح الكيل! ولن أنتظر حتى يقتلنا.. واحداً تلو الآخر! تالله.. قد وجب خلعه؛ وإنِّي خالعه!!).
- فقلتُ له: استعذ بالله من الشيطان.. يا أبا سليمان! ولا تدع الغضب يسلبك رشدك، ثم أردفتُ: اتق الله يا شيخ المروانية.. مَن لهذا الأمر غير المهدي؟!
- فأجاب صائحاً بإصرارٍ وتبجُّح: (أنا!! فإنِّي أحق به منه وأولى!)، فلعمرك يا أمير المؤمنين قد ألجمتنا المفاجأة. ثم مضينا نعتب عليه ونلومه.. ونحاوره ونعظِّم له الفتنة.. ونحذِّره سوء العاقبة؛ لكنَّه لجَّ في أمره.. وعاند واستكبر!
- بل.. والأنكى أنَّه خرج إلى رجاله.. وأعلن فيهم أنَّه يخلع المهدي ويدعو لنفسه بالخلافة.. وتسمى (بالرشيد).. وأمر جنوده بالاستعداد! لأي شيء؟! لا ندري!!
- ثم أحاط بنا حرسه.. وزجوا بنا إلى خيمة ثانية، ثم ولج هو إلينا ليهددنا قائلاً بوقاحة: (لن تغادرا هذه الخيمة قبل أنْ تخلعا المهدي وتبايعاني!)؛ فأجبناه: القتلُ أهون من هذا، فغادرنا مغتاظاً.. بعد أنْ أمر بتشديد الحراسة علينا إرهاباً لنا!

- فما علمنا ما الذي يجري خارج تلك الخيمة؛ على أننا كنا نسمع جلبة شديدة وحركة مستمرة.. وخشخشة سلاح؛ فقدَّرنا أنهم يتهيؤون للانتقال إلى مكان آخر!! ثم بعد مدة.. جاءنا مَن يقول لنا إنَّ الخليفة أمر بإطلاقنا، وأمرنا أنْ نسارع بالفرار قبل أن يفتك بنا القوم!
- فهرعنا إليك.. يا أمير المؤمنين.. والروح تكاد تبلغ الحلقوم من الهلع!!
- تباً له! وأيم الله لأُنكلنَّ به جزاء ما روَّعكما! يخلعني ويطلب الخلافة لنفسه!!؟ تالله إنَّه لباغي.. وجب قتاله! إنَّ هذا المُلك مُلكي؛ فمَن نازعني فيه.. قصمتُه ولا أبالي! (صاح بها المهدي غاضباً حانقاً)؛

آنئذ ولج صاعد بن عبد الوهاب عائداً من وراء الباب ليقول بنبرة منكسرة:

- جمعُ شقندة سيتحرك الليلة.. وسيعبرون القنطرةَ قادمين إلى الرصيف توطئةً لحصار القصر من الجنوب والغرب!!
- كيف عَرفت.. هذه الأخبار.. يا سيد صاعد؟؟! (تساءل الوزير ابن حزم باندهاش وانبهار)؛ فأجابه صاعد بثقةٍ وجدية هاتفاً:
- إنَّ ليَّ عيوناً بينهم تأتيني بالأخبار أولاً بأول! وليَّ أيضاً بينهم رجالٌ أوفياء.. هم من أخرجوكما من بين أيديهم!! (قالها)؛ ثم أشاح بوجهه عنهما والتفت إلى المهدي متسائلاً: "ماذا تأمرنا أن نفعل.. يا أمير المؤمنين؟؟".
- أسرعِ.. ونفذ ما اتفقنا عليه.. يا صاعد.. واستعن بطرسوس.. ومَن تشاء من رجال القصر!! (صاح المهدي بصرامة يشوبها التفاؤل)

****

-المشهد الرابع والثمانون-

أمست قرطبة كأنّما تضطرم فوق فوهة بركان يتميَّز باطنُه؛ ولمَّا يقذفها بحممه!!

أما قصر الخلافة.. فالحركة الدؤوبة تضطرب فيه جيئةً وذهاباً.. تابعين ومتبوعين.. خدّاماً وجنوداً؛ الكل يشعر بخطرٍ يوشك أن يداهمهم؛ لكنَّهم يجهلون حقيقته!

وأما الخليفة المهدي.. فلم يأوي إلى مخدعه.. ولم يبارح إيوانه منذ الصباح، والحاجب عبد الجبار –كذلك- لم يغادر القصر، بيد أنَّه بعد أن خرج من إيوان الخليفة أوَى إلى مجلسه واستدعى أخاه (صاحب الشرطة).. وأطال الحديث معه في أمورٍ شتى، ثم صرفه وهو يوصيه بإحكام محاصرة البربر.. وتعطيل مبارحتهم فحص السرادق إنْ أرادوا الانتقال عنه؛ لكن دون مقاتلتهم أو الاحتاك المباشر بهم، وألمح إلى أنَّه يفكر في مفاوضات خاصة سيعقدها معهم سراً.. ويود ألا يعلم المهدي بها.

غادر أخوه سامعاً مطيعاً.. وخلَّفه وحده في مجلسه حيث أغلق عليه بابه وقعد يتفكر في حاله وحال خصميه: الخليفة المهدي وشيخ المروانية، وما سيؤول إليه حالهم في خضم تلك الأحداث المحتدمة، ثم راودته أحلام اليقظة بنجاح خطته واستوائه على عرش الخلافة واستتباب ملك الأندلس له، ثم شرد في سلوان وشغفه بها؛ ثم ادَّكر أنَّ المهدي أصدر أمراً بإطلاق حمدون؛ فوجم وتكدر مزاجه.. وراح يسب المهدي وحمدون ويلعنهما.. ويلعن قلبه الذي تعلَّق بتلك الغادة الحسناء!! شرد وجفل.. ثم حزم أمره قائلاً في دخيلته: (لن يَقدِر أحدٌ أن يسلبني شيئاً بعد اليوم! هذه الفتاة لي.. ولن يظفر بها أحدٌ سواي؛ ولو اضطررتُ إلى اختطافها! وسأتزوجها.. حتى وإنْ كانت رافضة!!).

أما هي (سلوان)؛ فقد لاذت بمخدعها أخيراً حينما جنَّ الليل! فأوصدت عليها بابها.. وأطلقت العنان لمشاعرها وجوارحها كي تبتهج وتنتفض مفصحةً عن مكنوناتها ولواعج نفسها التي كَبَتَها الحياءُ والخجلُ طيلة النهار.. مذ طرق بابَ الدار طارقٌ على حين غِرَّة: ففتحته ليُباغتها وجه حمدون المرتقب –وإنْ كان شاحباً- وابتسامته العذبة –وإنْ شابها

كَدَر-، ارتجف قلبها، وتجمدت فرائصها.. رغم أنَّها اشتهت –ساعتئذ- أن تصرخ وتقفز فرحاً وسروراً؛ بيد أنها بقيت ساكنة.. متصلبة الجوارح عدا عينيها اللتين توثبتا إليه تريدان احتضانه والالتصاق به لهفةً عليه واشتياقاً إليه، كادت الأرض تميد بها.. لولا بقيةٌ من جَلَد وفيضٌ من حياء عَصَماها أن تسقط فاقدة الوعي.

لحظاتٌ مرت كدهر.. قبل أن تثوب إلى رشدها.. وتهرول هاربةً من أمامه ناكصةً إلى جدته تناديها: "يا أمي.. يا أم هشام.. لقد جاء الحبيب!!". تهرع إليه أم هشام.. ثم أم سعدون لتندفعا ذاهلتين فرحتين إلى أحضانه، تُقبِّلان يديه وصدره.. ويُقبِّل رأسيهما.. وتغسلان يديه بدموع الشوق الحارة.

تشغلهنَّ اللهفةُ على الحبيب العائد عن صاحبه (طرسوس) الذي جاء معه.. وتنحى واقفاً خلفه في سكينة، تنتبه إليه أمُ سعدون.. فتُرحب به في اقتضاب، وتلتفت إليه أمُ هشام.. فتومئ له برأسها على وَجْل أن يكون قدومه نذير سوء، على أنَّه يُطمئنهن بنظراتٍ ودودة محتشمة.. ويربت على كتف حمدون هامساً: "حمداً لله على عودتك إلى بيتك سالماً.. يا صاحبي!"، ثم يرتد قافلاً من حيث أتى.

يلجُّ معهنَّ إلى الدار تزفُّه دموعُ الفرحة والاشتياق، وتظلُّ سلوان -طيلة النهار- تكبح جماح فرحتها وأشواقها خجلاً وحياءً، إلى أن يدلف إلى حجرته ليستريح؛ فتلجأ هي إلى مخدعها: تجثو على ركبتيها.. ويرتجف جسدها ابتهاجاً.. ويخفق قلبها فرحاً.. وتفيض عيونها دمعاً.. وتُتمتم شفتاها حمداً وشكراً لله على عودة المحبوب.

أما هو (حمدون)؛ فقد فرَّ إلى مخدعه؛ ليس فراراً من فرحة أحبته به؛ بل خوفاً من تكدير تلك الفرحة البريئة بالمرارة التي تملأ جوفه! نعم.. مرارة وغصة أصابت باطنَه، وحرص ألا يُبديها لهنَّ ظاهرُه!

أ بعد أسابيعٍ كئيبة مظلمة قضاها مقهوراً مدفوناً في سجنٍ تحت الأرض!؟ أ بعد كل هذا الشقاء والضيق.. يأتيه مبعوث المهدي ليسحبه إليه مكبلاً بالأغلال!!؟ لأول مرة بعد أسابيعٍ من الظلم والنسيان.. يطلب محمدُ المهدي –صاحبه.. ورفيق دربه- لقاءَه!

يقف بين يديه أبياً.. رغم الخَسْف والشعور بالضَّيْم، يرمقه بنظراتِ اللوم والعتاب؛ فيغض طرفه حياءً منه.. ويصرف الحاضرين -بعد أنْ أمر بتحرير أغلاله- ليمكثا معاً منفردين، يغشاهما صمتٌ كسكون الموت؛ فيريم المهدي بعثَ الحياة في ذاك اللقاء فيُقبِل عليه مُكرِماً.. ويحاول أن يحتضنه أو يصافحه؛ لكنَّ حمدون.. يُقابل ترحابه واحتفاءه بفتور ونفور، يطلب منه الجلوس قريباً منه؛ فيقعد متباعداً عنه!

تَنحْنَح.. ثم هتف يقول بتلعثم: "لا تبتئس.. يا حمدون! فقد أمرتُ.. بإطلاق سراحك!".

- إطلاقي! (صدح مُتهكِّماً)؛ ثم أردف معاتباً: "ولِمَ حبستني قبلُ.. أيها الخليفة؟!!".
- السياسةُ.. قبَّحها الله! تعلم أنَّ لها أحكامها التي قد تضطرنا إلى...
- هل اضطرتك السياسةُ إلى اتهامي زوراً بالخيانة.. وإلى حبسي تحت الأرض كل هذه المدة دون محاكمة حقيقية!!؟ (قاطعه حمدون معاتباً ناقماً)؛ فاستطرد المهدي باختلاج وهو يواري خجله وراء ألفاظه وكلماته:
- قلتُ لك: لا تحزن! قد مات المؤيد.. وقد أطلقتُ سراحك!!
- أطلقتَ سراحي.. فقط لموت المؤيد –يرحمه الله-؛ أم لأنَّني بريءٌ من ذاك الافتراء الباطل؟؟! (تساءل حمدون مستنكراً بانفعالٍ)
- .... (سكت المهدي سكوت المتحفظ)؛ فجأر حمدون بأسى ومرارة ساخرة:
- وأيم الله.. إنَّك تعلم أنني بريء.. ولم أخن.. ولم أحنث؛ لكنَّها المكابرة.. لا السياسة!
- حمدون!! (جأر بامتعاض.. مستاءً من لهجته اللاذعة)؛ ثم أردف قائلاً برفق: "لن أثقل عليك الحين؛ أعلم أنَّك سقيم.. ومشتاقٌ إلى أهلك؛ فاخرج إلى بيتك.. واسترح بضعة أيام تستعيد فيها صحتك ولياقتك.. ثم ارجع إليَّ!".

نهض حمدون واقفاً كأنَّما ينفض عن أُذنيه حديثاً لم يزده إلا حسرةً وابتئاساً؛ فاستأنف المهدي هاتفاً كأنَّه يُطيب خاطره: "إنْ شئت.. عَرِّج على حمام القصر فاغتسل وبدِّل ملابسك؛ لا تراك الجدة فاطمة بهذا المنظر.. فتُحزِنها!!"، رمقه حمدون بنظرة امتعاض آسفة.. ثم رحل في صمت.

كان طرسـوس يترصَّـده خـارج الإيـوان، ومـا أنْ انتبـذ بـه إلا وهجـم عليـه والتقطـه في أحضـانه سـروراً بـالإفراج عنـه، لـم تُسـعفه الكلمـات ليُعبِّر بها عـن فرحتـه بعـد حـزنٍ وأسى؛ لكـن قسـمات وجهـه الصخرية الصلبة تبدَّلت.. وبـدت لحمـدون كصفحةِ مـاءٍ رقراقة قرأ فيها اشتياق صديقه إليه ووَجْده به؛ فـرقَّ له وسعد بلقائه، ثم انزويا معاً يتجاذبا الحديث بحنينٍ وتَوادّ.. إلى أن فطُن طرسـوس لوجوب هندمة مظهر صاحبه قبـل أن يرجـع إلى بيتـه؛ فـاقترح عليـه أن يـزور حمـام القصـر كمـا أراد المهـدي؛ لكـنَّ حمدون رفض إباءً، فآثر أن يتجه به إلى أحد حمامات المدينة؛ فلم يعترض.

خرجـا معـاً مـن ردهـات القصـر بعـد أنْ مـال طرسـوس إلى غرفـة حمـدون.. فحمـل لـه بعـض الثيـاب النظيفـة، مشـيًا بين حـدائق القصـر وجناتـه.. فتـأذت عينـاه مـن شـمس النهـار المبهـرة لأول وهلـة، ثـم مـا عـتَّم أنْ ألفهـا.. واسـتمتع بـدفئها الـذي حُرِمـه أسـابيعاً قاتمة، طفق يستنشق نسمات الهواء الهابّة من جهة النهر.. ويملأ بها صدره حتى يرتوي منها ويعوِّض أشواقه إليها، سأل صاحبَه عن جواده الأثير (ديجور)؛ فطمأنه أنَّه أعاده إلى بيت جدته.. فهو هناك في أمان.

بينما ينفصلان عن أسوار القصر العالية من جهة باب السُدّة.. لاحظ حمدون وجود حراسة مشدَّدة زائدة عن المعتاد، تساءل عن المدعاة؛ فعَلِقَ طرسوس يحكى له أخبار القصـر وقرطبـة ومـا طـرأ عليهمـا مـن أحـداث أثنـاء غيابـه.. وأهمهـا: حـبس المهـدي لـولي عهده في القصـر، ثم تزمر أبيه (شيخ المروانية) وحشـده رجالٍ من المروانيين وجنـودٍ من الصـقالبة العـامرين المعزولين اعتراضـاً على حـبس ولـده.. ومطالبـةً بـإطلاق سـراحه، طفق حمدون يضرب كفاً بكف استنكاراً لقرارات المهدي الغير محسوبة.

فيما يسيران على رصيف النهر تطلَّع حمدون إلى الضفة الأخرى.. حيث ربض شقندة؛ فـرأى –على بُعـد- ثمـة حشـداً حـافلاً مـن الرجـال المسـلحين.. يلتفـون حـول خيـام عسكرية.. كأنَّه معسكر جيش! تساءل بوَجل:

– هل هم أولئك.. يا طرسوس؟؟ إنَّهم عددٌ كثيف!!

- نعم.. هم! (أجابه طرسوس بنبرة أسيفة)، ثم أردف مستعظماً: "ماذا ستقول عن جموع البربر.. لو رأيتهم في فحص السرادق؟!!"
- وهل احتشد البربر ضد المهدي؟!! علامَ يعترضون؟؟! (تساءل متعجباً)
- حشودهم أكثر وأخطر!! يريدون أن يُعيدهم الخليفةُ إلى الجيش كسابق عهدهم.. ويطالبونه أن يُسدِّد لهم أرزاقهم المتأخرة منذ عهد شنجول!!
- هذا هراء! وأحسب أنَّ خروجهم معاً في ذات التوقيت أمرٌ متفقٌ عليه!! (تكهَّن بها حمدون.. متذكراً تلك الزيارة السرية التي زارها شيخُ المروانية للمؤيد عندما كان ضيفاً عليه في دار جدته، وادَّكر ما دار بينهم من حوار ونقاش.. وتحريضه المؤيد للتمرد على المهدي.. ودفاعه عن البربر وإصراره على إعادتهم إلى الجيش كما كانوا على عهد العامريين).
- هذا هو رأي صاعد بن عبد الوهاب.. الذي أقنع به الخليفة! (هتف طرسوس)
- هل يشاور المهدي صاعدَ في هذه الشئون؟؟! (تساءل حمدون باستغراب)
- لقد صار صاعد وزيراً مقرباً للخليفة.. حتى أنَّه لا يقطع أمراً بغير رأيه ومشورته! ولقد أوكل إليه مهمة مواجهة شيخ المروانية وحشده الصقلبي.. وقمعهم!
- ورصد مَن للبربر إذاً؟؟! (تساءل حمدون متهكماً)
- تريد أن تُقاتلهم أنت؟! وحين تهزمهم؛ تكن قد استعدتَ حُظْوتك عند الخليفة.. أليس كذلك؟؟!
- كلا.. والله يا صاحبي! بل في قلبي حسرةٌ ومرارةٌ مما فعله بي المهدي وحاجبه تصدَّاني عن أنْ أَجود بروحي لأجلهما مرة أخرى، وأصارحك قائلاً: إنَّ نفسي لا تطاوعني أنْ أصفو لهما بعد ما كان! على أني أرى أنَّ الموقف يستلزم تَسْوِيَته بالحكمة والسياسة.. لا بالقتال والتَهَوُّر!
- وهل يعرف الحاجب عبد الجبار.. حكمةً أو سياسة!؟؟ (تساءل طرسوس ساخراً)، فاستأنف حمدون متسائلاً باندهاش:
- هل كُلِّف عبد الجبار بقمع البربر؟! هل لديه قوةٌ لردعهم.. أو جيشٌ يغالبهم به؟؟!
- جنودُ شرطة أخيه محمد.. وبعض حرس القصر.. مع رجال ابن ذري وابن طريف!

- وأيم الله.. ليسوا أكفاءً لفوارس البربر المحنكين!!

أثناء اجتيازهم للسكة العظمى شاهد حمدون جنود الشرطة ومتاريسهم حيث تمركزت قوتهم خارج سور المدينة الشرقي لاعتراض تقدم البربر صوب القصر إنْ فعلوا؛ فجأر باستعظام وأسى قائلاً: "يا ربِ سلِّم!! كأنَّ البلد مقبلةٌ على حرب.. يا طرسوس!!"، فهتف صاحبه موافقاً له في الرأي: "نعم.. يا أخي.. هي كذلك! وحشود البربر ومتاريسهم في فحص السرادق.. تُأكد هذا!"، ثم راح –على وقع أقدامهم الحَذِرة- يصف له أحوال البلد المُنتكِسة.. وأسواقها التي كسدت عقب عيد المهرجان، والشظف الذي أصاب الناسَ –في الأيام القليلة الأخيرة- من جَرَّاء اصطفاف تلك الحشود، إلى أن بلغا الحمام الذي ارتضاه حمدون، وبعد حين.. خرجا وقد تهيأ للقاء أهله.. وتوجها إلى بيت جدته.

طالعته عيونُ سلوان.. وآنس من نظراتِها ما استحى لسانُها عن البوح به؛ فهدأ وَجْده واطمأن قلبه، ثم نهضت إليه جدته.. وأقبلت عليه بشوقٍ ولهفة.. وما انفكت تتفحصه وتُفتِش جسده وملامح وجهه.. وتراقب حركاته وسكناته إلى أنْ اطمأنت أنَّه عاد إليها صحيحاً معافاً.. ثم جلست تتكلم وتُثرثر لهفةً عليه وابتهاجاً بنجاته، ثم أعدت له أمُ سعدون طعامه الذي يُحبه؛ فأكل حتى طاب خاطره.. وطابت خَواطِرهنَّ.

رغم الغُصّة العالقة بقلبه استياءً من تخوين المهدي له؛ إلا أنَّ سعادةً غامرة وفرحةً عارمة غشيته لمجرد عودته إلى هذا البيت وإلى أولئك النسوة! عجباً.. لقد كان عقله ذاهلاً.. قبل اليوم.. عن هذا الحب -الدفين في أحشائه- لتلك الدار التي سعد بها حين ولوجه إياها.. كأنَّما تعود روحه إلى جسده!

نعم.. سعد بها وبهنَّ سعادةً أنسته طرسوس.. صديقه الذي لم يتخلَ عنه ولم يتركه حتى جاء به إلى هنا! أجل.. انشغل بهنَّ وباشتياقه لعبق الدار؛ فنسي أنْ يرحب بصديقه أو يُضيّفه.. وتركه يغادر -هكذا- كأنَّه غير مرغوب في وجوده!!

ولقد أدرك طرسوس –رغم مشاعره الباردة وعاطفته الجامدة- أنَّ وجوده غير لائق في مثل هذه اللحظات، ولقد رقَّ قلبه القاسي لمشهد اللهفة والعناق الذي رآهم عليه؛ فحبَّذ أن يترك صديقه وأهله ليهنئوا به وبعودته بعد غياب، وقفل راجعاً إلى القصر حيث كلَّفه الخليفة المهدي أنْ يتعاون مع صاعد في فض جمع شقندة.

****

-المشهد الخامس والثمانون-

ارتدَّ طرسوس إلى القصر ليجد –في انتظاره- رسالةً من الوزير صاعد تطالبه بالتوجه –مساءً- لاجتماعٍ سري في بيت صاعد في جوف قرطبة؛ فسارع إليه.

دلف إليهم.. ليجد صاعدَ مُجتمِعاً بثُلَّةٍ من زعماء الثوار القدامى من عامة أهل قرطبة ودهمائهم ليُنبِّئهم بأنَّ هشام بن سليمان (شيخ المروانية) بغى وأعلن العصيان ونَكَثَ بيعة الخليفة المهدي.. ودعا لنفسه وتسمى بالرشيد، انشده القوم.. وثاروا وتزمروا غضباً وحَميّة لمحمد المهدي (ثائرهم القديم وخليفتهم الجديد)؛ فطالبهم صاعد بالتعقل والهدوء.. وأكد لهم أنَّهم لن يتخلوا عن خليفتهم المهدي الذي ارتقى إلى عرش الخلافة بفضل بثورتهم على شنجول؛ وإنَّما سينصرونه ويؤازرونه.. ولذلك جمعهم! وافقوه الرأي.. فأنشأ يشرح لهم خطته لإحباط تمرد شيخ المروانية وللإيقاع به.. هامساً:

- مقدمة عسكر هشام سيتحركون الليلة –تحت جُنْح الظلام- ليعبروا القنطرة.. يريدون أن يُطوقوا سور القصر من جنوبه وغربه، واعلموا أنهم اتفقوا مع البربر أن يتقدموا –في ذات الوقت- ليحاصروا سور القصر من جهته الشرقية، ثم يعبر إليهم زعيمهم هشام بمَن بقي معه من فريقه.....

قاطعه طرسوس هاتفاً باندهاش:

- هل أنت واثقٌ مما تقول.. أيها الوزير؟! كيف تَعرَّفتَ على خُطَّتهم بهذه الدقة؟!!

- لي بينهم.. عيونٌ وجواسيس.. يا طرسوس؛ لذا فإنني واثقٌ من كل كلمةٍ أقولها!
- .... حدجه طرسوس بإكبار وتعجب.. وأذعن بالسكوت؛ فاستأنف صاعد:
- أعود فأقول: إنَّه سيعبر القنطرة بعد أنْ يتأكد أنَّ رجاله قد أحاطوا بالأسوار!
- كيف تريد أن نجاهدهم.. يا شيخ صاعد؟؟ (تساءل المُجتمِعون بحماس وحَميَّة)؛ فانشرح صدره لتحمسهم وعزمهم على نصرة خليفتهم.. وهتف بجدية:
- أما البربر شرقاً؛ فقد وُكِّل بهم صاحب الشرطة وابن ذري وابن طريف، وأما نحن فسنكمُن في الجهة الغربية.. ونتربَّص بالذين في شقندة ريثما يُطوِّقوا السور ويعبر هشام إليهم.. وتأتينا الإشارة؛ فنُباغتهم وننقض عليهم من خلف ظهورهم.. حتى نحصرهم بيننا وبين أسوار القصر! وأوصيكم بالصبر والمثابرة على مجالدة عدوكم.. إلى أنْ ينادى منادٍ –من وسطهم- بما يُبشِّرنا؛ ساعتها كفوا أيديكم عنهم!
- ما تلك الإشارة؟؟ وأي منادٍ هذا.. يا سيد صاعد؟؟! وما هو نداؤه؟؟! (تساءل طرسوس متحفزاً)؛ فأجابه صاعد هاتفاً بحماسٍ وتشجيع:
- ستعلمها في حينها.. يا طرسوس! أما الآن.. فهيا.. أُخرجوا.. وهَلمُّوا رجالكم وأسلحتكم.. وتجهزوا لليلةٍ عصيبة دامية.. لها ما بعدها!!

تنهَّد تنهيدة عميقة.. ثم هَبَّ يوزع عليهم أكياساً من النقود.. وهو يهتف بإغراءٍ وترغيب: "واعلموا أنَّ العزة والكرامة تكون مع النصرة.. وكذلك المكافأة السخية من الخليفة.. وذلكم جزءٌ منها، أما إنْ انهزمتم؛ فليس لكم إلا الذلة والهوان.. وسوء العقاب!!".

****

-المشهد السادس والثمانون-

سجى الليلُ.. فتستَّر بغطائه جنودُ الرشيد (شيخِ المروانية) الرابضون بشقندة.. وشرعوا في عبور القنطرة.. ثم الاصطفاف حول سور القصر الجنوبي.. وعلى رصيف النهر.

أما في فحص السرادق –على مسافة قريبة لا تتجاوز بضعة أميال شرقاً- فقد كان معسكر البربر ساكناً هادئاً.. إلى أن دخل على زاوي بن زيري حبوسُ وحباسةُ ابنا أخيه ماكسن.. وقائدا حشده وعساكره، سلَّما عليه بإكبار.. ثم همس حبوس قائلاً بجدية:

– يا عمّ.. قد جاءتنا الإشارة! هلا تأمر بالزحف إلى قصر قرطبة!

– تَمهَّل –يا حبوس- ريثما نروِّي في المسألة!! (هتف زاوي وقد عبس وجهه تحيُّراً وتفكُّراً)، فهتف حبوس قائلاً بتحفيز وتحضيض:

– لِمَ التلكؤ –يا عمّ- قد عزمنا أمرنا.. وتلك هي فرصتنا لاسترداد حقوقنا!

– ألا ترى ما نحن فيه؟! لقد نقض هشام بيعة المهدي ونادى لنفسه بالخلافة، فلو تحركنا معه؛ صرنا دعاته وأنصاره ضد خليفةٍ.. صحت بيعته واستتب له الأمر!!

– صحت بيعتُه!!؟ أنت تقول هذا؟!! ألم تكن أنت القائل: ليس له بيعةٌ في رقبتنا بعد أن طُرِدنا من لدن بابه.. ومن جيشه؟!!

– نعم.. قلتُ؛ لا أُنكر! لكن قد تنازل له المؤيد عن الخلافة أمام شهود.. وبايعه القضاة والعلماء والفقهاء وسائر أهل الأندلس؛ فصحّت بذلك بيعتُه، وتلك بيعةٌ تلزمنا.. وإنْ لم نبايعه بأنفسنا!!

– فلِمَ خرجنا عليه.. إذاً؟!! ولِمَ حشدنا الجنود البربر ضده.. هاهنا!؟ (تساءلا بتوجس واستنكار)، همَّت أسارير وجه زاوي أن تنبسط رأفةً بحَمِيَّة ابني أخيه؛ لكنَّ الحيرة لم تلبث أنْ رَدَّته للجد والصرامة وهو يجيبهما قائلاً:

– كنتُ أنشد أن يحتشد جنودُنا البربر بقضِّهم وقضيضهم.. فيرى المهدي وحزبه قوتنا وبأسنا؛ فيرهب جانبنا.. ويندم على إبعاده لنا.. ويطمع في عودتنا إلى جيش الخلافة.. ويُرغِّبنا أن نكون أنصاره، أمَّا أنْ نخرج بالسيف على الخليفة والإمام.. فذلكما أمرٌ عظيم لا تسوغه نفسي!

– قد قطعنا عهدنا لشيخ المروانية؛ فكيف ننكث!!؟

- عاهدناه على النصرة حتى يرجع إليه ولده (ولي العهد).. وقد رجع، وعلى أنْ يشفع لنا ويُؤازرنا حتى يُعيدنا المهدي إلى الجيش ويرد لنا أرزاقنا المتأخرة، لكن لم نعاهد على نقض بيعة الخليفة!!
- فماذا ترى.. يا شيخ البربر ؟!! (تساءلا.. بنفاد صبر وتغيظ مكبوت)
- أرى أن نتَمَهَّل ريثما يرجع إلينا محمد بن المغيرة بإجابة المهدي لمطالبنا المشروعة!
- إنْ تأخرنا عن نصرة هشام بن سليمان.. وجاءتنا إجابة المهدي بالرفض؛ فقد خسرنا كل شيء! (هتف حبوس بتوتر)؛ ثم صاح حباسة مغتاظاً:
- بلى! وساعتها سيتهمنا شيخُ المروانية بخذلانه ونقض عهده.. ويُعادينا، ومِن قبله خاصمنا المهدي واتهمنا بالتمرد! ولن يكون لنا من أحدهما نصير على الآخر!
- وقد يجتمعا علينا.. ونجد أنفسنا نقاتل الفريقين معاً! وليس لنا بهما طاقة! (جأر حبوس معضداً لرأي أخيه ومؤيداً له)؛ فيما أردف حباسة بحميّة:
- ولن يُطيعنا البربر في أمرٍ بعدها أبداً، وينفرط عقد جماعتنا وتكون الهلكة!!

طفقا يجادلانه بإصرارٍ في محاولةٍ مستميتة لإثنائه عن رأيه؛ بيد أنَّه استمع إليهما عابساً واجماً.. ثم زفر زفرة ناقمة وغمغم بكلماتٍ غير واضحة.. ثم هتف باقتضاب: "ليس من الحكمة أن نتعجَّل بالزحف الآن!!".

- أ بعد أن جَمَعنا الناسَ في هذا الصعيد واصطف الفريقان للقتال.. تقول تعجَّلنا!؟؟ إنَّ الجبن والتخاذل.. ليسا -أيضاً- من الحكمة.. يا عمّ!! (جأر بها حباسة بانفعالٍ وتشنُّج)؛ وثب عمه غاضباً.. وصفعه صفعةً قوية.. وصاح:
- أنا جبان.. أيها الشقي؟؟! أ مثلي يُقال له هذه المقالة!!؟

وهمَّ أن يصفعه صفعة ثانية؛ غير أنَّ حبوس حال بينهما وتلقى صفعة عمه على يده وهو يصرخ متوسلاً: "حباسة.. لم يقصد الإهانة يا عمّ! عَمْرَكَ اللهَ إلاَّ هَدأتَ! إنَّما هو الرأي والمشورة!"، فنزع العمُّ يده بحنق.. وتراجع ليقعد على فراشه محاولاً تمالك غضبه؛ فاستأنف حبوس هاتفاً بنبرة اهدأ.. ومحاولاً أنْ يُسكِّن فورة عمه:

- يا عمّ! هذا الأمر أعظم من أن نتقنَّع فيه بالحياء منك، وأجَّل شأناً من أن نجتذب فيه رضاك، أو نجتنب فيه سخطك!!
- فما الرأي عندكما؟! (سأل زاوي على مضض.. ولم يزل الغضب راكداً على وجهه)؛ بينما يرمقه حباسة متألماً مغتاظاً.. وأخوه الأكبر يربت على كتفه تهدئةً لروعه.

أحجما عن إجابته، وبقيا يتطلعان إليه في وجوم، أعرض عنهما.. ونادى على بهلول بن تمايت الدمري (أحد فرسان البربر المغاوير)؛ فجاءه يهرع إليه من خارج الخباء هاتفاً:

- لبيك.. لبيك يا شيخنا!!
- ابعث رسولاً إلى محمد بن المغيرة (صاحب الشرطة) يخبره أننا نريد إجابةً واضحةً من المهدي على مطالبنا.. إما القبول وإما الرفض، وأَنذِره أنَّنا نريدها حالاً.. الآن!!
- أمرك.. يا شيخنا! (هتف بهلول طائعاً)، وهمَّ بالانصراف مسرعاً حالما التفت زاوي إلى ابني أخيه وخاطبهما قائلاً بحسم وصرامة:
- إنْ لم يأتني الحين الردُ الذي أحب؛ فافعلا ما بدا لكما!

****

-المشهد السابع والثمانون-

تحول مُعْظم عساكر شيخ المروانية إلى الضفة اليمنى من النهر.. وتمركزوا في أماكنهم المتفق عليها، ثم دخل عليه الفارسان الصقلبيان –بليق وقيصر- يهتفان:

- الحين يمكنك عبور القنطرة.. أيها الرشيد!
- ألا نصبر ريثما يأتينا خبرٌ من عند البربر؟!
- علينا أن نستغل ظلمة الليل في الانتشار حول الأسوار.. قبل أن يُسفِر الصبح وتنكشف تحركاتُنا لأهل القصر! (أجابه بليق بنبرة ترغيب وتحفيز)

- ينبغي أن نغتنم انشغال صاحب الشرطة بمحاصرة البربر في فحص السرادق، فإذا باغتنا القصر ونجحنا في اقتحامه؛ هان علينا أمر من بقي، وهان على البربر أمر القوات المحاصرة لهم! (أضاف قيصر يُغريه بالتعجيل بالعبور ويرغِّبه فيه).

فاقتنع بقولهما.. وقام معهما.. ثم ركب حصانه وتوجه إلى القنطرة ليعبرها بعدما سبقه ولده أبو بكر إلى الضفة الأخرى مع الآخرين.

بينما يعبر القنطرة محاطاً ببليق وقيصر وجنودهما؛ إذ كَبَا به فرسه فانقطع رِكابه ووقع من عليه! هرع إليه الفارسان يُنهضانه.. فقام معهما وهو يسب دابته متشائماً منها.. ثم صاح: "إليَّ بجوادٍ آخر!"؛ فهمس بليقُ في أذنه بجفوة: "لستَ في حاجةٍ إلى جوادٍ آخر.. يا هشام!"، وخَفَّ قيصرُ فنزع عنه سلاحَه.. وشدَّ بليقُ وثاقَه فيما يحيط به جنودهما الصقالبة إحاطة السوار بالمعصم، ثم طفقوا ينادون بصوت عالٍ: "يا مهدي.. يا أمير المؤمنين!"، "لا طاعة إلا.. للمهدي!"؛ ويكررونها حتى بلغت أصواتُهم إلى أصحاب الرشيد على الضفة الأخرى.. وإلى أصحاب صاعد المتربصين بهم من خلفهم!

(فهذه هي الإشارة التي كان صاعدُ يترقبها).

حصل ذلك خلال لحظاتٍ يسيرة كغمضة العين، والرشيد مبهوتاً من المفاجأة يتساءل في طويته بذهول: (ما معنى هذا؟!! رجالي يخونونني؟!!)، حملوه على دابةٍ أخرى ثم انتبذوا به بعيداً عن أنصاره، سمع أنصارُه على الضفة الأخرى ذاك النداء؛ فتعجبوا واستداروا إليهم ليستوضحوا حقيقة هذا النداء الغريب، وهرع أبو بكر بن الرشيد مشدوهاً.. ليطمئن على أبيه، ساعتئذ خرجت من خلفهم جموعٌ متوالية من دهماء أهل قرطبة من جهة الأرباض الغربية يتقدمهم طرسوس ورفاقه من الثوار القدامى.. وانقضوا عليهم انقضاض الصقر على الفريسة، ودارت بينهم -حول القنطرة- معركة عنيفة.. اختلطت فيها صيحاتُ الرجال بصهيل الخيول.. ونيران المشاعل بظلام الليل وأشباحه، حتى إذا اختلط الحابل بالنابل واشتد الكرب على المتقاتلين؛ جاءهم -من بين صرخات المتأوِّهين والمجروحين- صوتُ زاعق يصرخ في أنصار الرشيد منادياً:

"لا خليفة إلا المهدي! كفوا أيديكم!!"، وأجابهم صاعد وهو في أنصار المهدي صائحاً: "مَن وضع منكم سلاحه؛ فهو آمن.. وسيعود إلى بيته سالم!"، سمع أنصارُ الرشيد تلك النداءات يُترجَّع بها في جنبات الظلام من حولهم؛ فهلعوا.. وفَرُّوا.. وما صبروا، وطفقوا يَنفَضُّون من حول أبي بكر بن هشام وأبيه.. فيما ينادي صاعد أنصاره صائحاً: "كفوا أيديكم عن مَن وضع سلاحه منهم!".

قبل أنْ يشق الفجرُ ظلمةَ الليل وقبيل انبلاج الصبح.. كانت عاصفةُ المعركة قد خمدت.. وقَبَضَ صاعدُ وأنصاره على زمام الأمور، ولم يبقَ من أنصار الرشيد إلا هو وولده أبو بكر أسيرين بين يدي صاعد.. أو دماءٌ تَلطَّخ بها رصيفُ الوادي.. أو جثثٌ هامدة متناثرة على ضفتي النهر، أما بليق وقيصر.. فقد أثنى عليهما صاعدُ ثناءً جميلاً ووعدهما بمكافأةٍ سخية من الخليفة المهدي.. لهما ولمن آزرهما في معسكر الرشيد.

****

-المشهد الثامن والثمانون-

في معسكر فحص السرادق.. وبينما هم ساهون عن المعركة المستعرة من ورائهم تحت أسوار القصر؛ أرسل محمد بن المغيرة (صاحب الشرطة) رجليه –ابن ذري وابن طريف- لمراوغة زاوي بن زيري والبربر، دلفا إليه مع بهلول الدمري.. فلقيا عنده حبوس وحباسة؛ سلَّما عليهم بسماجة وصلف، ثم هتف خالد بن طريف مخاطباً شيخ البربر: "ليس من آداب مخاطبة الملوك أنْ تبعث رسولاً إلى الخليفة ليقول بوقاحة: أريد إجابةً واضحةً الآن!"، ثم أضاف ابن ذري باستخفاف: "ماذا تعني؟! هل تشترط علينا؟! هل تهددنا؟ ماذا ستفعل إنْ لم يأتك رد الخليفة الآن؟!!".

فأجابهما حباسة بأنفة: الزما حدكما وتأدبا.. فأنتما في حضرة شيخ البربر.. وإلا..

فقاطعه عمه مخاطباً إياهما بتنزه ورصانة.. مستهيناً بهما:

- أ أنتما ستعلمانني كيف أخاطب الملوك؟!! وأَيْمُ الله كنَّا ندخل على الملوك ونحسن مخاطبتهم؛ وكانوا يرحبون بنا ويعظمون قدرنا.. ويوقرونّا!
- بل جئنا ننذركم! (صاح ابن طريف بعجرفة)؛ ثم أردف: "إنْ لم تضعوا سلاحكم.. وتُسلِّموا لصاحب الشرطة؛ فلن تنقلبوا إلى أهليكم بسلام!".
- تُهدّدني؟! أ وتجرؤ أنْ تقولها في وجهي يا ابن طريف؟!! (صاح زاوي موبخاً)، فيما صاح حبوس ابن أخيه بحميَّة وخُشونة:
- تالله.. لو نازلناكم؛ لمزَّقناكم تمزيقا!!
- لَعَمْرِي.. قد قلتُ للحاجب رأيي فيكم! لقد غرَّكم تقديمُ المظفر لكم آنفا (يقصد الحاجب المظفر ابن الحاجب المنصور أبي عامر)، ولا يصح فيكم إلا حد السيف! (هتف ابن ذري زاجراً متوعداً)؛ فجاوبه حباسة بنبرةٍ ثائرة ضاغنة:
- ولَعَمْرِي.. لولا أنَّ الرسل لا يُقتلون؛ لقتلتُك بسيفك هذا.. كما قتلتَ شنجولَ وهو أسيرٌ أعزل.. أيها العجول المتبجح!
- ها أنا ذا أمامك! افعلها إنْ استطعتَ! (جأر محمد بن ذري متحدياً) وهو يهبُّ إلى مُحدِّثه.. ليواجهه بعيون تتأجج فيها الشحناء والتحدي؛ فوثب إليه حباسةُ يريد مغالبته، فنهاه عمه.. وأمره أن يُمسك عن المشاحنة.. هاتفاً باستهزاء:
- كُف عن المشاحنة يا حباسة؛ فإنَّه ليس نِدَّ لك!! (قالها).. ثم التفت إلى الرجلين وصاح فيهما مُنذراً ومُتوعداً: "عودا إلى سيدكما قبل أن نفتك بكما، وأَنْذِراه أننا لن ننتظر طويلاً.. فإنَّ صبرنا ينفد سريعاً! أما إذا التقينا وإياكما في ساحة الوَغْي؛ فأشفقا من بأسنا وتهيآ له؛ فإنِّي لن أغفر لكما وقاحتكما معي! هيا.. انصرفا!!".

****

-المشهد التاسع والثمانون-

لم تكد عينا عبد الجبار تغفلان.. ليغفو قليلاً وهو متكئ في مجلسه بالقصر -فهو لم يغادره منذ الأمس-.. حتى جاءه بعض حراسه يُخبرونه أنَّ الخليفة يطلبه -الآن- في

إيوانه، هرع إليه بفضول؛ فهو يعلم أنَّ أحداثاً جثاماً وقعت البارحة.. ومن المؤكد أنَّ أحداثاً أخرى على وشك الحدوث!

دلف إلى الخليفة فلاقى عنده صاعد بن عبد الوهاب.. وثُلَّة من الرجال بينهم طرسوس وبليق وقيصر، تلقاه المهدي بابتهاجٍ واستبشار وهتف باعتزاز:

- تعال.. يا عبد الجبار! اسمع.. ماذا فعل هؤلاء الأبطال! لله دركم.. أيها الرجال!
- قد علمتُ أنَّهم تمكَّنوا من فَضِّ جمع شقندة.. قبيل الفجر! (هتف عبد الجبار)
- ليس هذا فقط؛ وإنَّما أسروا ذاك الباغي (هشام) وولده (أبا بكر).. وهما الحين بين أيدينا، ولقد أرسلتُ في إحضار ثالثهم (ولي العهد) المتمارض ليذوقوا وبال ما فعلوا!
- مبارك.. أيها الخليفة، قد ردعتَ البغاة!! (جأر عبد الجبار باقتضاب مخفيًَ ما أصاب دَخِيلته من خيبة أمل وإحباط)، فصاح المهدي وهو يُنقِّل بصره بين رجاله بكبرياء وشموخ.. مُعظِّماً لشأنهم متباهيً بهم:
- مبارك على هؤلاء الفوارس الشجعان نصرهم وجائزتهم! وأما بليق وقيصر ورجالهما: فقد أمرتُ بعودتهم -من اليوم- إلى الخدمة في جيش الخلافة كسابق عهدهم، وستُرد لهم متأخرات أرزاقهم، ومن الحين هم من رجالنا الثقات!
- نحن رجالك وخدامك.. يا أمير المؤمنين! نفديك بأبنائنا وأموالنا وأرواحنا! (جأر صاعد تبجيلاً وتملقاً للخليفة)؛ فالتفت إليه المهدي وقال مُثْنياً عليه:
- أما أنت يا صاعد: فهذا دأبك دائماً معنا؛ ما كلَّفناك بمهمةٍ إلا وأنجزتَها بنجاح وعلى خير وجه، فلك -أنت خاصة- جميلُ ثنائي وامتناني.. وجزيلُ مكافأتي!
- حفظكم الله.. وأدام بقاءكم.. يا أمير المؤمنين! (جأر صاعد بامتنان)
- والآن!! ما بال البربر في فحص السرادق.. يا عبد الجبار! (صاح الخليفة بجدية مخاطباً حاجبه)؛ فتمالك عبد الجبار انفعالاته كيلا يبدو ارتباكه على قسمات وجهه.. ثم هتف متلعثماً:

- محمد أخي.. (صاحب الشرطة).. يحاصرهم هناك.. وننتظر أمرك بالانقضاض عليهم وتفريقهم.. أيها الخليفة!
- عليكم تبديد جمعهم وتشتيت شملهم، أريد رؤوسَ زعمائهم هنا.. تحت قدميّ.. قبل غروب شمس اليوم! لو صبرنا عليهم؛ فلن يصبر أهلُ قرطبة بعد الآن، فمذ احتشدوا عقب عيد المهرجان.. والأسواقُ منتقضة.. وأحوالُ البلد مضطربة!
- لن ندعهم قبل أن يذوقوا بأسنا.. ويُسلِّموا لنا صاغرين! (جأر عبد الجبار باندفاع وأنفة)، ثم استأذن الخليفة في الانصراف، وخرج من عنده مُضمراً في سريرته: (لن أدع صاعدَ والمهدي يهنآن بهذا النصر وحدهما؛ لابد أنْ أشارك فيه!!).

****

-المشهد التسعون-

بعد أنْ لبث وقتاً يسيراً في القصر مجتمعاً مع أخيه الحاجب.. ليتشاوروا في خطة الهجوم على معسكر البربر.. وفي كيفية تشتيت شَمْلهم وأسر زعمائهم.. **رجع** محمدُ بن المغيرة (صاحب الشرطة) إلى معسكر قواته المحاذي للبربر عند فحص السرادق، استدعى ابنَ طريف وابنَ ذري وقادةَ الجند.. وأعلمهم بتفاصيل ما جرى ليلة أمس تحت أسوار القصر، وأخبرهم بوجوب استكمال العمل ليُصبح النصرُ نصرين بالانقضاض على البربر وإعمال السيف فيهم حتى يُذعنوا ويسلِّموا صاغرين.

رغم أنَّه يعلم أنَّ البربر ليسوا هَيِّنين كالآخرين، وأنَّهم أشد بأساً وأكثر جمعا؛ إلا أنَّه لم يقبل من رجاله أي رأي معارض! ولم يسمح لهم بمراجعته أو مناقشته فيما أمرهم به أخوه الحاجب؛ وإنَّما أمرهم بالاستعداد والتجهز لتنفيذ ما كُلِّفوا به.. والانتهاء من البربر قبل غروب شمس اليوم.

بينما الشمس تستعر في كبد السماء.. وتقذف الأرضَ بلهيب أشعتها، وعلى مرأى ومسمع من الجمعين المتحاذيين.. **حرض** الفارسان (ابن ذري وابن طريف) رجالهما

ليخترقوا معسكرَ البربر طمعاً في تشتيت شمله، لكن خاب فألهما.. فقد اصطدمت طليعتهما الأولى بصناديد البربر فتهشمت واندحرت خائبة، هبَّ ابن ذري باحتدامٍ ونخوة ليتقدم الطليعة الثانية بنفسه.. عازماً على ألا يرجع حتى يصل إلى خباء شيخ البربر ويعود برأسه المقطوعة.. وانبعث وراءه خالد بن طريف بذات الأنفة والعزم، بيد أنَّ شوكتهما انكسرت أمام مَنَعَة الأخوين حبوس وحباسة وشُجَعائهما وشدة بأسهم. ثم كرَّ البربرُ عليهما فتضعضع جمعهما وتفرَّق شمله.. وقُتِلا هما ذاتيهما (ابن ذري وابن طريف) فيمن قُتِل.. وفَزَعَ الباقون فارّين إلى (صاحب الشرطة) محمد بن المغيرة يلوذون بمعسكره؛ وحباسةُ وفرسانه يَجِدُّون في إِثْرهم ضرباً وتقتِّيلا.

اضطرب معسكر محمد بن المغيرة.. وغشيتهم غَمَاماتُ الخوف والذعر.. وهاجوا وماجوا.. وشغبوا ببعضهم بعضا، وركض كثيرون منهم هَلِعين هاربين من كَبْسة البربر عليهم.. فارّين إلى المدينة؛ فاضطر محمد بن المغيرة إلى الصمود وحده –مع شرذمة قليلة من رجاله- أمام كَرَّة البربر التي اجتاحتهم.. فما قدروا على الثبات أمامها؛ فتعَاوَرتهم سيوفُ حباسة وفرسانه ومزَّقتهم تمزِّيقا!!!!

****

-المشهد الحادي والتسعــــــون-

سقط الخبرُ على عبد الجبار فتزلزلت الأرض تحت قدميه زلزالاً شديداً: (يا للفاجعة! قتلوك يا أخي العزيز! قتلوك يا محمد!!)، (لم يعد لي سندٌ في هذه الدنيا؛ فقد كنتَ أنت عضدي وساعدي!!)، (بُعداً لهذا السلطان الذي نفقد أحبتنا من جَرَّائه! ويلٌ لكم.. يا كلاب البربر! يا قتلةُ أخي.. تالله لأُقتِّلنَّكم تقتِّيلا.. ولأُمزِّقنَّكم تمزِّيقا! أقسم بدم أخي الذي هَدَرتموه.. لأنتقمنَّ منكم انتقاماً تتحاكى به الأندلس أبد الدهر!).

كانت غضبتُه كالريح العاصفة؛ عصفت بكل المتواجدين في مجلسه حين حملوا إليه أحدَ جنود أخيه الفارين من وجه البربر ليقصَّ عليه ما حصل.. ويخبره كيف قُتِل

أخوه، بيد أنَّ ذاك الفارس الملْهُوف لم يقوَ على الكلام؛ فقد أذهله الكربُ.. وألجم الخوفُ لسانه.. وأثخنته جراحه! لكن.. لم تشفع له حالتُه البائسة عند عبد الجبار؛ فلم يُشفق على حاله؛ بل همَّ به وطفق يسبه ويقذفه ناقماً.. صارخاً: "كيف تركتَهم يقتلوا أخي؟! لماذا لم تدافع عنه؟!! لماذا تصمد معه؟! كيف لا تفديه بحياتك؟! لماذا فررتَ؟؟ لتُبشرني بمقتل أخي؟!! سُحقاً لك ولمن كانوا معه.. لم تُغنوا عن أخي شيئاً!!"، ثم وثب ثائراً يصفعه ويركله؛ والرجلُ المغموم واجمٌ.. تذرف عيناه الدمع وتنزف جراحه الدم، لم ينفك يبطش به غير آبهٍ لأولئك الذين يحاولون تهدأته وتخليص الرجل المكروب من بين يديه.. والذي كاد يقتله لولا إعياء الانفعال والغضب.. واجتماع الحاضرين عليه إلى أنْ أفلتوه من يده!

مازالت جذوة الغضب تتقد بين جنبيه.. وحُرْقَة الكمد تضطرم في أحشائه؛ فاستل سيفه.. وانبعث يهرول إلى المهدي، دخل إيوان الخليفة والغضب يتوهج في عينيه.. والسيف صلتاً بين يديه، صرخ: "قتلوا أخي.. يا أبا الوليد، قتلوا ابن عمك.. أيها الخليفة!!"؛ فأجابه المهدي بأسفٍ وحزن:

- قد علمتُ الخبر الفاجع.. يا عبد الجبار، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!
- كلا! تالله.. لن استرجع.. ولن تكتحل عيني بنومٍ قبل أنْ أثأر لأخي، ولن أغمد هذا السيف خلا أنْ يلَغ في دماء أولئك البرابر حتى يرتوي؛ ولا أحسبه يرتوي حتى أُقتِّلهم كافّة! (صاح عبد الجبار بحميَّة وهِياج)، فهابه المهدي، ثم اقترب منه يحاول تهدئة فَوْرَته.. وأنشأ يواسيه قائلاً:
- مصابك هو مصابي.. يا ابن العم! فمحمد كان أخي مثلك تماماً.. وكان نصيري ورفيق دربي؛ لكن.. اهدأ الآن ريثما نرى رأينا؛ فالرأي لا تنضجه نيران الغضب!
- لا تقل لي: اهدأ! (صرخ فائراً متشنجاً)؛ وأردف يصيح: "لا يواسيني أحد.. فلن أقبل عزاءً قبل أنْ أُغرِق أولئك الأوغاد في بحور دمائهم!!"

- .... وَجَم المهدي والحاضرون تهيباً من هائجة عبد الجبار، ووَجَلاً من قابِل الأحداث؛ فقد انقطع حبل التفاوض والسِلْم مع البربر ولم يبقَ بينهم غير السيف والدم! استطرد عبد الجبار وقد انتفخت أوداجه واربدَّ وجهه عداوةً وسخطاً:
- مَن كان منكم حزيناً حقاً على محمد بن المغيرة؛ فليستل سيفه على البربر، مَن أراد منكم أن يُعزيني فليحمل معي عليهم إلى أنْ أنتقم منهم! واعلموا أنَّ مَن لم يُناصرني عليهم؛ فهو عدوٌ لي مثلهم.. وستلفحه نار نقمتي!

صرخ بها.. ثم خرج يركض بعقلٍ غائب.. لا يعلمون إلى أين!! فهتف الخليفة منبهراً:

- وأيم الله.. لم يكن أهيب يوماً في عيني من الحين! وما كنتُ أتصور أنَّ محبته لأخيه تصل إلى هذا الحد!!
- سبحان من بيده القلوب! (جأر صاعد متعجباً)، ثم أردف بتوجس: "أخشى –يا مولاي- أنْ يعميه الغضبُ فيخرج وحده لقتال البربر!!".

فتنبَّه المهدي لخطورة الموقف، وهالته المصيبة لو تهور عبدُ الجبار إلى هذا الحد؛ فصاح آمراً: "إِيْ والله! اذهب وأدركه.. يا صاعد؛ لا يفضحنا هذا المجنون.. بتهوره!!".

- أمرك.. يا أمير المؤمنين! (هتف صاعد وهو يثب ليلحق بعبد الجبار)، في حين استأذن فرتونُ الخليفةَ لينطلق معه كي يدرك الحاجبَ؛ فأذن له على مضض.

دخلا إليه في مقامه؛ فلَقِياه لا يزال مُقطّب الجبين منقبض القسمات.. يرتجف فائراً، لم ينفكا يصبِّرانه ويهدِّآنه.. حتى سكت عنه الغضب وخمدت ناره، التقط فرتونُ منه السيف.. وانهد على كرسيه خائر القوى إعياءً من شدة الإِهْتِيَاج والانفعال، قال له صاعد فيما قال: "ثأرك.. ثأرنا أيها الحاجب! وأيم الله.. لئن أذن أميرُ المؤمنين؛ لأجمعنَّ لك قرطبة كلها على أولئك البرابر ثأراً وانتقاماً لأخيك! ولَعَمُرك.. لأملأنَّ لك هذا الوادي رجالاً وسلاحاً خلال يومٍ أو بعض يوم!".

التفت إليه.. وقبض بيديه على ذراعه –كأنما يتشبث به- وجأر متسائلاً بتوسُّل: "أ حقاً ستفعل.. يا سيد صاعد؟!!"، فربت صاعد على يده.. ورمقه بنظرةٍ جافة.. لكنَّها مُطمئِنة؛ فيما هتف فرتون مؤكِّداً: "كلنا معك.. أيها الحاجب، وستُقَرُّ عينُك بالثأر لأخيك!!"، فرشقه عبد الجبار بنظراتٍ مستريبة تنُمُّ عن الازدراء وعدم الرضا؛ ففهمها فرتونُ: كأنما يؤنبه عبدُ الجبار قائلاً في طويته: (تلك هي نتيجة أفكارك وطموحاتك الهادفة للوصول إلى الملك والسلطان؛ فاللعنة عليك وعليها.. ضيَّعتَ مني أخي!)؛ فأطرق ولم يبديها لهم.

ثم ينهض عبد الجبار مُتكِّئاً على صاعد ليرجعا إلى الخليفة، ويلتمس منه الموافقةَ على سرعة جمع الثوار.. وكل مَن قدر على حمل السلاح من أهل قرطبة ضد البربر للانتقام منهم والقضاء على تمردهم، وانبرى صاعدُ يُغريه بهم ويُهوِّن له أمرهم ويُزيِّن لهما قتال البربر هاتفاً: "قد تمردوا على الخليفة وشقوا عصا الطاعة.. وأشرعوا سيوفهم وقاتلوا جنود الحاجب.. وقتلوا أخاه؛ وبتلك الفِعلة الشنيعة لم يتركوا لنا خياراً إلا استنقاذ هيبة الخلافة بمجالدتهم وتشريدهم.. وقطع رؤوس كبرائهم!".

كان عبد الجبار يسمع كلماتِ صاعد مُثلج الصدر متحمساً للانتقام لأخيه؛ فيما أطرق المهدي متفكِّراً.. ثم قال بشيءٍ من التردد: "لكنَّهم عددٌ كبير.. لا يستهان بهم، فضلاً عن حنكتهم ودرايتهم بالحرب التي لا ينكرها خبير!"،

فجاوبه صاعد بحماس: "وما يكون بضعة آلاف بربري أمام عشرات الآلاف من أهل قرطبة، وما هي حنكتهم ودرايتهم أمام تلك الكثرة التي تغلب شجاعة الشجعان!"، في حين قفز عبد الجبار ثائراً.. وصاح جازماً: "وأيم الله يا ابن العم.. لئن لم تأمر بقتالهم؛ لأخرجنَّ لقتالهم وحدي حتى أقتلهم ويقتلوني.. فأكون قد أعذرتُ إلى أخي؛ وتُعيِّر أنت بي وبه!!"، أبرقت عينا المهدي تحيُّراً واندهاشاً عندما صارحه ابنُ عمه بعزمه، واضطر –بعد ما رآه من إصرارهما- أن يوافقهما مُكرهاً؛ فانفرجت أسارير عبد الجبار وتهلل وجهه حالما هتف صاعد مطمئناً للخليفة.. ومُبشِراً بالنصر: "اطمئن –يا أمير المؤمنين- فإنَّ البربر لن يُبطؤوا أن يستسلموا لنا ويضعوا سلاحهم خوفاً من قتال أهل قرطبة

كما فعلوها سابقاً مع شنجول، ولن نرضى منهم -هذه المرة- إلا أن يخضعوا لنا.. ويسلِّمونا زعماءهم نقتص منهم لقتلانا!".

****

-المشهد الثاني والتسعون-

تنفَّس صبحُ اليوم التالي في معسكر فحص السرادق ليَسْتَفِيق زعيمُ البربر من سكرة القتال على آثاره الفادحة؛ لقد قَتَلَ هو وابنا أخيه وجنودُ البربرِ صاحبَ الشرطة (أخا الحاجب الأعلى وابن عم الخليفة) وأعداداً من جنود الخليفة وقواده؛ فتأسَّف لذلك أشد الأسف.. وتمتم بنبرةٍ حائرة منكسرة مخاطباً مَن معه: "لن ينتهي هذا الأمر على خير بعدما أصبنا منهم ذالكم الدم!"، فأجابه حباسة بحميَّةٍ واحتدام: "هم الذين بدأونا، ولقد قتلوا عدداً منا وأصابوا بعض رجالنا! وإنَّما خدعتهم أنفسهم.. فظنُّوا أنَّهم قادرون على قتال فوارس البربر.. صناديد الأندلس.. أسياد ساحات الوَغَى!!".

صاح فيه عمه مستنكراً.. ومُبَكِّتاً: "ماذا تقول أنت؟!! أ في مثل هذا القتال تفخر بنفسك؟! بل إنَّ في سيفك رَهَقا!!". فأجابه ابن أخيه مكابراً: "إنَّ سيفي الذي تذمه –يا عم- كان يذب عنك.. وعن عَشِيرة البربر!"، فصاح فيه أخوه (حبوس) زاجراً: "ارفع لسانك عن عمك.. يا حباسة.. وذرنا نتبصَّر ما نحن صائرين إليه!"؛ ثم التفت إلى عمه وسأل بتوقير.. وبنبرةٍ مشبعةٍ بالحيرة: "ماذا ترى يا عمُّ.. فيما نحن فيه؟؟!".

بعد لحظاتٍ خافتة أطرق فيها الحاضرون ترقباً لرأي زعيمهم وقراره.. انفرجت شفتاه بعد تَفْكُّرٍ وإعمالِ عقل: "أرى أنَّ فحص السرادق لم يعد بالمقام المناسب لنا؛ فهَلُمُّوا بنا نعبر ذاك النُهير إلى أرملاط!"، فتساءلوا باندهاش: "لِمَ.. يا شيخنا؟!!".

- لقد دمرنا جيش الحاجب وقوات شرطتهم؛ وأحسبهم سوف يثبون علينا ثأراً لهزيمتهم وأنفة لأنفسهم، ولن يجدوا غير دهماء قرطبة الذين جمعوهم في ديوانهم ليقاتلونا بهم، وهم كثيرٌ.. لو أحاطوا بنا في هذا السهل الفسيح المنبسط؛

فلن يكون لنا بهم طاقة.. فالكثرة تغلب الشجاعة! أما أرملاط فإنَّ دونها ذاك النهير ومن خلفها الجبل؛ فخيرٌ لنا أنْ نتحصن بها!

- يظنون أننا سنسلم لهم ونسالمهم كما فعلنا يوم شنجول! خاب رجاؤهم.. وخابوا وخسروا! (صاح حباسة بنخوةٍ وإباء)
- إنْ كان كما تقول يا عمُّ؛ فإنَّ قرطبة كلها لم تعد تصلح لنا بمقام، ولن نجد لأنفسنا فيها –على سعتها- مفحصَ قطاة آمناً نعيش فيه! (تَوجَّس حبوس)
- هذا هو ما أخشاه يا أبنائي!! (جأر زاوي بنبرةٍ آسفةٍ منكسرة)؛ فرَهِب حباسة وانقبض قلبه.. وسأل عمه بشيءٍ من الاستهجان:
- هل ستأمرنا بمسالمتهم ووَدْع السيف.. يا شيخ البربر ؟!! لإنْ فعلنا....
- لإنْ فعلنا؛ لتجرأوا علينا كما تجرأوا علينا يومها (يقصد يوم شنجول)، وهذه المرة لن يتركونا أحياء! (قاطعه عمه ليوضح رأيه بصرامة)؛ وأردف صائحاً: "قطعاً لن نُسلِّم لهم ليذبحونا ذبح الخراف.. فدونهم السيف والقتال؛ لكن ينبغي أنْ نُحسن التخطيط لذلك، ويجب أنْ نُؤَمِّن بيوتنا وأهلينا داخل قرطبة قبل أن يُحرضهم الغِلُّ والحقد على الانتقام منا في بيوتنا وحرماتنا!".
- لا أحسب أنَّهم يتخلون عن المروءة والشرف إلى هذا الحد.. يا شيخنا! (قال بهلول الدمري)، ووافقه حباسة هاتفاً بافتخار وثقة:
- قد علموا أنَّهم لو فعلوا فإنَّ انتقامي من قرطبة سيكون رهيباً مخيفا؛ فاطمئن.. لن يجرؤوا على هذا.. يا عمّي!!
- إذاً.. تهيئوا –على بركة الله- للعبور إلى أرملاط والتحصُّن بها.. حتى يفتح الله بيننا وبينهم! (هتف زاوي آمراً بحسم وصرامة).

****

-المشهد الثالث والتسعون-

بعد أنْ عَهِد بمسألة البربر إلى صاعد وعبد الجبار.. أمر الخليفةُ المهدي بمُثُول هشام بن سليمان (شيخ المروانية) وابنيه (سليمان وأبي بكر) بين يديه، جيء بهم مُصفَّدين بالأغلال، وقفوا أمامه مُهْطِعِين مُنكِّسين رؤوسهم، اتَّكأ مُتطلِّعاً إليهم بازدراء وهم مُطْرِقين في خزي وخضوع، ثم التفت إلى هشام مخاطباً بشماتة:

- ها أنت ذا أمامي في الموقف اللائق بك.. أيها الشيخ الأخرق! أجل.. فإنَّه لا يليق بالبغاة الناقضين للعهود أمثالك غير السجن والأصفاد!!
- .... ما برح هشام منكس الرأس في استكانة؛ بينما حثّت النخوةُ ولده سليمان (ولي العهد) للدفاع عن أبيه.. فهتف على تَخَوُّفٍ وحذر:
- اتق الله في عمك.. يا أبا الوليد! وارع القرابةَ والرحمَ!
- لِمَا لم ترعها أنت وأبوك؟!! لِمَا لم تحفظوا معروفي.. وأنْ قرَّبتُكم واتخذتُ منكم وليَّ عهدي؟!! لِمَ استكبرتم ونفرتم ونقضتم عهدي وبغيتم عليّ؟؟ ماذا تنقمون مني؟!! (صاح المهدي مُقرِّعاً مُعَنِّفاً)، فأحجم سليمانُ عن إجابته؛ فيما استنكف أبوه ألا يجيب؛ فزام زَوْماً ساخطاً.. ثم هتف بجرأةٍ وثبات:
- أما العهدُ فأنت الذي نقضتَه؛ فإنني لا أمتري في أنَّك تحايلتَ على المؤيد واغتلتَه، وأما ولايةُ العهد.. فإنَّا لها أهلٌ! وأما الخلافةُ.. فإنَّك لستَ لها بأهل! رغم أنَّك مرواني النسب إلا إنَّك صعلوكٌ أرعن.. قامرتَ برقاب المروانيين في ثورة لو قدَّر الله أنْ فشلتْ؛ لكانوا الآن إما مقتولين أو مسجونين أو مشردين.. لكنَّ الله سلَّم! ثم وَلَّيْناك خلافتنا؛ فما رعيتها حق رعايتها؛ بل تهتكتَ.. وأظهرتَ الخلاعة وضعف العقل واختلال الدين، وليس ما فعلتَه يوم المهرجان ببعيد!

وَقِعت كلماتُه على مسامع الحاضرين وَقَع الصاعقة، ولم يتصور أحدٌ منهم أنَّ رجلاً واقفاً مثل هذا الموقف بين يدي الخليفة يجرؤ أن يتفوه بهذه الكلمات أو ببعضٍ منها؛

حتى سليمان وأبو بكر لم يتخيلا أنَّ أباهما قد يقول قولاً كهذا للخليفة.. وإنْ كان الصعلوك محمد المهدي!!

أمسك شيخُ المروانية عن الكلام.. وخرس الحاضرون وانحبست أنفاسهم ترقباً لردة فعل الخليفة على تلك الكلمات المهينة؛ بيد أنَّ المهدي لم يُظهِر كبيرَ تأثُرٍ أو عظيم اهتمام لما سمعه من خصيمه، إنَّما رمقه باستهزاء.. ثم قال بتؤدةٍ ساخرة: "كنتُ قد أضمرتُ العفو عنكم صلةً للرحم، لكن.. بعد الذي سمعتُه منك بأُذني؛ فإني مشفقٌ عليك أن تحيا وبين جنبيك ذاك القلب الحاقد الحاسد، وإني أُنزهك أنْ تدب رِجْلُك على أرضٍ هذا ظنك بخليفتها!!"، ثم سكت.. وأنفاس الحضور مكبوتة تَوجُّساً من هدوئه وترقُّباً لحكمه، زفر زفرةً طويلة.. ثم صاح بصرامة باردة:

"اضربوا رقابهم بالسيف.. حالاً!!".

****

-المشهد الرابع والتسعون-

رغم تظاهره بالبهجة والسعادة خلال اليومين السابقين إلا أنَّ أهل البيت أحسوا بانكسار وحسرة يختلجان في صدره لم يملك أن يُخفيهما عنهنَّ: فأما أم سعدون.. فقدَّرتْ أنَّه عنت الحبس وإرهاقه؛ ولن تلبث آثاره أنْ تنتهي سريعاً ويعود سيدها حمدون لسابق عهده من النشاط والمرح، وأما جدته.. فحمدت الله أنَّه رجع إليها صحيحاً معافاً.. وأضمرت في طويتها أنَّ ابتعاده عن المهدي وقصر الخلافة هو باعث حسرته وانكساره؛ وهذا –كما في اعتقادها- خيرٌ له وأصلح وإنْ كان هو لا يفهمه الحين.. لكنَّه حتماً سيفهمه لاحقاً؛ فتغافلت عن سحابة الحسرة والانكسار التي تراها راكدةً على وجهه.. كأنَّها لا تراها!

أمَّا سلوان.. فكانت أكثرهنَّ انشغالاً بحاله وتألماً بما تراه مبثوثاً في ملامحه من حزن وغم، وساءها ألا تراه كما عَهِدته نشيطاً بشوشاً، ولم يَرُق لها عُزُوفه الغير مسبوق

عن الناس؛ فقد لاحظت –في هذين اليومين- أنَّه يتعمد عدم مخالطة الناس، فلا يخرج للصلاة في المسجد كعادته الآنفة، ولا يزور أحداً من الجيران ويتهرب من استقبالهم إذا جاءوا لزيارته؛ فانزعجت لذلك بشدة.. وقدَّرت أنَّ حبيبها قد صَدَمه تَخَلي المهدي عنه وشكُه فيه رغم أنَّه نصيره وصديقه القديم، وقدَّرت –أيضاً- أنَّه يحتاج إلى صدمةٍ أخرى مضادة لتلك الصدمة تباغته وتؤكد له أنَّه لم يزل محل الثقة، وأنَّ له أحباباً أُخر -غير محمد المهدي- يهتمون لهمه، وعليه أنْ يكترث بهم! فعزمتْ على أنْ تعالجه هي.. بتلك الصدمة الأخرى، وفكَّرتْ أنَّ خير صدمة مغايرة تصدمه بها هي أنْ تتخلى عن شرطها للزواج.. وتقبل أنْ يتزوجها دون إعلام عمها قاضي اشبيلية أو انتظار موافقته! وتلك –على ما تظن- ستكون صدمةً سعيدة تُنْسِّيه آلامَ صدمته في المهدي.

اتخذت قرارها.. وتنازلت عن كبريائها.. مواساةً لحمدون؛ لكن.. تحيَّرت كيف تُنفِذ ما أزمعت عليه: (هل تصارحه بقرارها مباشرةً تطيّباً لخاطره؟! كلا.. لن تستطيع: سيصدّها الخجل والحياء!)، (أم هل تُكاشف الجدةَ (فاطمة) بما يجيش في صدرها، وتترك لها التصرف بالطريقة المناسبة؟!)، أذهلتها الحيرةُ.. وحبسها التردد والخجل عن أنْ تُنجز أيَّ من الرأيين، ومكثت طيلة اليومين مرتبكة مُشوَّشة كأنَّما قُذِف بها مكتوفةَ الأرجل والأيدي لتُصارع الأمواجَ في بحرِ الحيرةِ اللُجِّيِّ، إلى أنْ طرقت مسامعها جلبةُ موكب حرس الخلافة.. وتفاجأت بصوت منادي القصر -ومِن ورائه غوغاء الرعاع وصياح الغلمان- يأتيها من الدرب خارج الدار، أرهفت السمعَ.. فسمعته يزعق مُبشِراً بمكافأةٍ سخيةٍ لكلِ مَن أتى برأسِ بربري، والحاجبُ (عبد الجبار) زعيمٌ بها.

لم تصدق ما سمعت؛ فهرعت إلى مصاري السطح لتُراقب وتُنصت من خلف الشرجب كي تتثبت من صدق الخبر، نهبت الدرج هرولةً.. وصعدت فألفت أم سعدون قد سبقتها، قعدتا خلف الشراجيب تتصنَّتان وترقبان؛ فراعهما منظرُ الموكب.. وأزعجهما ضجيجه وعَجاجه.. وأدهشهما صدق ما سمعا! بَقِيتا –هكذا- منكبتين خَلْف

الشراجيب في جزعٍ.. تتابعان موكب المنادي وغوغاءه وغباره.. حتى اختفى عن أعينهما؛ تساءلت سلوان بذهول:

- هل سمعتِ ما سمعتُ.. يا أم سعدون؟!!
- نعم!! سمعتُ.. يا بُنية! ويا ليتني ما سمعتُ!!
- أ حقاً يحث الخليفةُ القرطبيين على قتل البربر؟؟ يريد أنْ يقتل الناسُ بعضهم بعضاً؟!! كيف هذا؟!! أ لم نسمع أنهم فَضُّوا المحتشدين في شقندة؟ فلماذا يأمر بقتل الناس؟؟! (طفقت تتساءل بتخبطٍ.. مشدوهةً مبهوتة)
- نعم! علمتُ أنَّهم فرَّقوا معسكر شقندة وقبضوا على شيخ المروانية المتزعم له، لكنَّهم لم يقدروا على البربر في فحص السرادق، وسمعتُ الناسَ يحكون ليلة البارحة أنَّ البربر قتلوا من جنود الحاجب مقتلة عظيمة!! (همست برهبة وذعر)
- يا ربِ سَلِّم! أرى شبح فتنةٍ قاتمة.. تشرئب برأسها.. يا أم سعدون!!
- لا ملجأ منها إلا إلى الله.. يا بُنية! (هتفت أم سعدون بوَجَل)؛ وهي تُطالع الدرب من وراء الشرجب.. فرأت حمدون يسحب جواده (ديجور).. ثم يمتطي صهوته؛ فصاحت تُنبِّه سلوانَ باستغراب: "أليس هذا.. سيدي حمدون؟؟".

التفتت سلوان حيث أشارت أم سعدون؛ فألفته يركض بحصانه صوب ضفة النهر.. فهتفت بلهفةٍ وفزع: "أجل هو! إلى أين يتَّجه؟؟ إنَّه لم يفارق الدار مذ عاد إليها؛ لماذا يخرج الآن.. وسط هذه الأحداث المختلة؟!!".

هرعت هابطةً إلى فناء الدار حيث أبصرت الجدةَ (أم هشام) تقف متكئةً على شرفة البئر، نظرت إليها.. فأبصرت وجهها عابساً مكفهراً، جَسَّت يدها.. فكأنها قطعة ثلج تنتفض، تساءلت بتوجس وهلع: "ماذا بك يا أمي؟! لماذا تقفين هكذا؟؟"، لم تجبها.. وإنَّما مدت يدها تريد أنْ تَتوَكَّأ عليها؛ فأسندتها سلوانُ.. ومشت بها حتى أقعدتها على عتبة القاعة القبلية، ثم جاءتها بكوب ماء.. فشربت، ثم طفقت تزحر وتطحر بأنفاسٍ متهدجة، رمقت سلوانَ بعيونٍ زائغة فألفتها تراقبها بارتياع مترقبة –في شغف-

أنْ تعلم ما أصابها؛ فجأرت بشفاه مرتعشة.. وأنفاس متقطعة: "اطمئني يا سلوان، لا بأس.. إنْ شاء الله!"، رمقتها سلوانُ بوجل.. وحدست أنَّ شيئاً شجر بينها وبين حمدون؛ فتساءلت بارتياب: "لماذا خرج حمدون والبلد هائجة؟ إلى أين يذهب.. يا أمي؟!!"، تأوهت.. ثم أجابتها بصوتٍ كالنشيج:

- إنَّه ذاهبٌ.. إلى الخليفة.. في قصر.. قرطبة!
- لماذا تركتيه يخرج؟؟ لم يعد الطريق آمن.. بعد أنْ دعا وليُّ الأمر الناسَ للإقتتال!!
- بُعداً له! فبئس الراعي يحرِّض رعيتَه على قتل بعضهم بعضا!!
- لماذا تركتي حمدون يسعى إليه؟!! (تساءلت بحيرة واندهاش)
- لَهْفِي عليه.. لقد أصرَّ على الذهاب وقال: أيا جدتي.. كيف ترضين لي أنْ أقعد متخاذلاً في داري.. وهذه الدماء تراق من حولي؟! لابد أن أمضي إلى الخليفة وأطالبه بالتراجع عن قتل البربر؛ فإنْ استجب.. أكن قد نَهيّتُ عن المنكر بلساني.. وحفظ اللهُ بي أرواح المسلمين، وإنْ لم يستجب.. أكن قد أَعْذَرَتُ إلى ربي!
- لكن.. الطريق غير آمنة! فلا شك أنَّ بعد هذا النداء المشؤوم قد عَجَّت الطرقات والدروب باللصوص والقُطَّاع والبطَّالين!! ماذا لو تعرضوا له بسوء وأذى!
- لم أقدر أنْ أحبسه، لكني جَزِعةٌ عليه.. يا سلوان!!
- يا ربي سلِّم.. ونجينا.. يا لطيف.. من الفتن.. ما ظهر منها وما بطن!

****

-المشهد الخامس والتسعون-

انتظم ديجور وفارسه في الطريق نحو القصر، مضى يُهْذِب سائراً على ضفة النهر.. دون أنْ يلتفت فارسُه إلى روعة المشهد: (ماء رائق في بحرٍ رقراقٍ.. تتلألأ الشمسُ بضيائها على صفحته اللامعة.. وعلى ضفتيه تناثرت حدائقُ غنَّاء وبساتينُ عامرة!)؛ لم يكترث لهذا المنظر البديع فقد اعتاد عليه بصرُه وألفته روحُه، وإنَّما يهتَمُّ الآن لما

يغشى قرطبة من فتنٍ واقتتال، وتشغله مخاوفه من مستقبلٍ دامي قد تصير إليه البلد إنْ تمادى هذا الحال!

دبدبت سنابك ديجور على الرصيف؛ فانتبه لما يجري حوله، نظر.. فرأى فرقةً من عبيد القصر وجنوده يطوفون على الرصيف وعلى ضفاف النهر.. مكممين مقفزين، ينتشلون أجساداً وأشلاءً آدمية ميتة أوشكت على التحلل والتعفن.. يحملونها على عجلات، ومثلها جثث لخيولٍ ميتة شرعوا في حرقها! تأذت عينه من بشاعة المشهد.. وتألمت نفسه أسفاً وترحاً حينما تخيَّل ما نشب من اقتتال بين أهل قرطبة (أهل البلدة الواحدة)؛ هذه آثاره يراها على ضفة نهرها تحت أسوار قصرها: **جثث قتلى متعفنة**!!

(هل كانت ثورتنا مع المهدي صائبة؟؟ هل اختياره خليفة كان سديداً؟؟ أم أنَّ رأي جدتي فيه.. كان حصيفاً؟؟!).

دخل القصر.. وطلب مقابلة الخليفة فحبسوه أمام باب الإيوان مدة، فجلس.. يراقب ويترقب! اعتذر له طرسوس –في لَهْوَجةٍ- عن عدم ترحيبه به بالشكل اللائق وعن عدم تمكُّنه من إدخاله سريعاً إلى الخليفة.. أو المكث معه؛ وذلك لأنَّ جؤذر (أمين القصر) حازمٌ صارمٌ لو رآه تاركاً لمحل عمله فقد يُنزِل به أشد العقاب!! (طرسوس صار يتوقى بطش جؤذر؟!! إلى هذا الحد تمكَّن جؤذر وتسلَّط على أهل القصر؟!!): تساءل في خاطره متعجباً.. وهو يُومأ إلى طرسوس مُتقبِّلاً اعتذاره.

طال أَمَدُ الانتظار بما يكفي لكي يتلفَّت حوله مُتأمِّلاً فيما يدور من مشاهد: (لم يعد القصر كما كان من بضعة أسابيعٍ مضت، أرى الوجوه قد تغيَّرت: هي لذات الأشخاص بذات الملامح والقسمات؛ لكن فيها شيئاً تغيَّر.. كانت –آنفاً- وجوهاً بشوشة وأساريرا منبسطة، الآن.. أراها وجوهاً كئيبة وأساريرا منقبضة، كانوا –سابقاً- يتحركون في خفة ونشاط ومرح؛ غير أنهم الحين يمشون هائبين واهنين ثقيلي الخطى!!)، (يا تُرَى.. ماذا حصل لهم؟! لِمَ أحس بالكآبة قد رانت على الوجوه؟!! هل هو حزنٌ متصل لموت المؤيد؟! لا أظن ذلك! هل هو الاهتمام لما جرى في البلدة من

أحداث؟!! كلا.. لم أعهد أهلَ القصر يهتمون بشيءٍ خارج أسواره!)، (فما السبب إذاً؟! ما سر تلك الكآبة وهذا الابتئاس؟! تُرى.. هل هي خلافة المهدي؟!): مُتحيّراً.. كان يتساءل في دخيلته فيما يعبرون أمامه ومن حوله جيئةً وذهاباً إلى الخليفة وإلى الحاجب، يُلقي بعضُهم عليه تحيةً خاطفة.. ويتحاشاه آخرون!

تُعاوده التساؤلاتُ مُتحسِرةً مُحبطةً: (ما بال هؤلاء يتجاهلونني؟!! هل طال أَمَدُ غيابي عنهم إلى حد أنَّهم نسوني؟! كم كانت طويلةً.. أيامُ السجن الظلوم المظلمة!!)، لأول مرة شرع يحسب كم يوماً قضى في سجن المطبق؛ أحصاها.. فوجدها لم تزد عن عشرة أسابيع: (مدةٌ يسيرة بحساب الزمن؛ لكنَّها قاسيةٌ بحساب الألم)؛ بيد أنَّ قسوتها تلك لا تبرر تعاميهم عنه: (أم تُراها كانت مداهنة السلطانِ.. فلمَّا انفض عني السلطانُ؛ انفضوا هم -أيضاً- من حولي!!)، (ما هذا النَّزَق؟!! لم أكن ذا سلطانٍ حقيقي ليداهنوني؛ بل كنتُ مجرد تابعٍ أمين للخليفة! إذاً.. هو دافعٌ آخر: كأن يكون تجنب مقاربةِ مَن نَقِمَ عليه السلطانُ تَوقّياً من نِقمةِ السلطانِ؟! قد يكون هذا هو الأقرب! أحبذ ألا أظلم أحداً.. وألا أُسيئ الظن بأحدٍ!!).

على مبعدةٍ.. شاهد البابَ المُوصَد يُفتَح.. ويخرج من خلاله لفيفٌ من رجال الدولة ووزراء الخليفة.. بعد اجتماعات ومداولات طارئة مع الخليفة والحاجب، كبيرهم (ابن حزم) لمحه من بعيد؛ فأقبل إليه يُسلِّم عليه ويصافحه ويشدُّ على يديه مما آثار دهشة حمدون وامتنانه، انصرف عنه كبيرُ الوزراء.. ثم خفَّ إليه الوزير (الحسن بن حي الفقيه) مهرولاً؛ التقطه في أحضانه بحميمية وترحاب مُهنئاً على سلامته وبراءته.. مما أسعد قلب حمدون وأَطْرَبه!

رآهما الوزيرُ المقرَّب (صاعد بن عبد الوهاب) فمشى إليهما متثاقلاً.. سلَّم عليه بنبرةٍ أحس حمدونُ فيها شيئاً من التعالي؛ فرد السلامَ بفتور، استأنف صاعد هاتفاً بنبرةٍ مشوبة بالغموض: "حمداً لله على عودتك.. يا حمدون! وعظَّم الله أجرك في المؤيد!!".

فأجابه بذات نبرته: "عظَّم الله أجرنا كافّة! ونسأل الله أن يرحمه.. ويغفر لنا وله!!".

تمتم الحسنُ باسم المؤيد، وهمَّ أن يتكلَّم.. كأنَّما يريد أنْ يُكاشف حمدونَ بشيءٍ هام؛ إلا أنَّ صاعد جَبَذه من ذراعه جَبْذة عصبية.. قائلاً بقَحِة: "هيا بنا يا حسن.. تنتظرنا أعمالٌ جثام! نراك لاحقاً.. يا حمدون!!"، فألقى إليه الحسن الفقيه نظرةَ وداعٍ مستغيثةً.. سقطت في جوفه.. وغاصت إلى أعماق سريرته؛ فحرَّكت هواجسَ كانت راكدةً.. لتتساءل عن المؤيد!

****

-المشهد السادس والتسعون-

بعد طول انتظار وترقُّب.. أُذن لحمدون أنْ يلج إلى الخليفة.. فقابل عنده حاجبه -وابن عمه.. عبد الجبار- الذي امتعض لرؤيته؛ بينما بشَّ له المهدي وهتف مُرحِّباً:

- ها هو ذا فارسي الهمام قد عاد إليَّ! أهلاً يا حمدون؛ علمتُ أنَّك لن تتخلى عني!
- مرحباً بك.. يا أمير المؤمنين! حاشا لله أنْ أتخلى عنكم! (جأر حمدون بامتنان مرتبك)، فاستأنف المهدي هاتفاً بنبرةٍ مشبَّعة بالحماس والتحفُّز:
- هَلُمَّ.. انضم إلينا؛ فإنَّا نحتاجك في خطتنا.. لتأديب البرابر!
- أيها الخليفة! ما حاجتنا إلى رجلٍ فرد؟!! ماذا عساه أن يصنع؟!! (صاح عبد الجبار مغتاظاً بتحفظٍ وتبرُّم)؛ فأجابه المهدي بتلطُّف.. ومُشجِّعاً لحمدون:
- إذا كان ذاك الرجل هو: (حمدون)؛ فسيفعل الكثير.. يا عبد الجبار!
- سيدي أبا الوليد! لقد جئتُكم ناصحاً برأيي.. لا بسيفي! (جأر حمدون بشيءٍ من التحرُّج)؛ فانطلق عبد الجبار صائحاً بتوبيخ صفيق:
- مَن أنت.. كي تأتينا ناصحاً؟! إنَّك لا تزيد عن صيادٍ نكرة.. كنتَ أحد أعواننا؛ فبغيتَ علينا وخُنتَنا، ولمَّا نتأكد –بعدُ- من صدق أوبتك!!
- يعلم الله أنَّها فِرْيَة.. وأنني ما خنتُ وما بغيتُ!! (صاح حمدون مُستنفَراً مستاءً)

- على رسلكما! اهدأ يا عبد الجبار، فإنَّ حمدون عندنا غير متهم! (جأر المهدي بنبرةٍ حاسمة)، ثم التفت إلى حمدون وهتف بتلطُّف: "هات ما عندك يا حمدون، لكن.. اعلم أني أريد منك رأيك.. وسيفك!"
- ارفع السيفَ عن البربر.. يا أمير المؤمنين! الفتنةُ نائمة؛ فلا توقظها.. يا سيدنا!
- أ هذه نصيحتك؟! (تساءل عبد الجبار متهكماً)، ثم صاح بنبرةٍ ضاغنةٍ عنيفة: "جئتَ تصرفنا عن ثأرنا.. وتكُفنا عن الانتقام ممن قتل أحبّاءنا؟!! بئس الرأي.. وبئس صاحب الرأي!
- أيها الحاجب! لقد استرعى اللهُ أميرَ المؤمنين هذه الأمة؛ ويلزم الراعي أنْ يحكم بين رعيته بالعدل، وأن يحفظ دماءهم أنْ تُسفك!
- ثأرنا؟!! وانتقامي ممن قتل أخي؟!! (صاح عبد الجبار بحَميّة وتَفجُّع)
- العدلُ في الرعية أولى بأمير المؤمنين! والعدلُ يكون بالقصاص العادل؛ لا بالثأر والانتقام! (جأر حمدون مستأنفاً كلامه)؛ فهتف المهدي مقاطعاً بنبرة عتاب:
- لم يكن هذا رأيك حينما خرجتَ معي على شنجول والعامريين.. يا حمدون؟!!
- بلى.. يا أبا الوليد! قد خرجنا على العامريين طلباً لثأر أبيك المظلوم –رحمه الله- لأنَّ قاتليه كانوا يحتمون بسلطانهم، وإنْ لم نكن فعلنا لضاعت دماءُ والدك هدراً، فضلاً عن أنَّنا كنا نسعى لاسترداد حق المروانيين المسلوب في الخلافة بعد أن أجبر شنجولُ المؤيدَ على توليته عهده!
- ما لنا وكل هذا؟!! قد قال الله في كتابه: {كُتِب عليكم القصاص في القتلى} (١٧٨ البقرة)؛ والقصاص هو الثأر.. والثأر هو القصاص!! (صاح عبد الجبار نافراً مستهجناً)؛ فجاوبه حمدون مجادلاً.. ومُنافحاً عن رأيه:
- كلا.. يا سيادة الحاجب! ليس الثأر هو القصاص! فالله يقول في الآية التي تليها: {ولكم في القصاص حياةٌ يا أولي الألباب لعلكم تتقون} (١٧٩ البقرة)، فهل ترى ثَمّة حياة أو تقوى مرجوة في تحريض أهل قرطبة على قتل بعضهم بعضا؟!! إنْ كنتَ تريد القصاص العادل؛ فاقتل مَن قتل.. مَن تلطخت يداه بالدماء.. دون غيره!

- جئني -إذاً- برؤوس القوم أقتلهم! (صاح عبد الجبار مستهزئاً)؛ ثم أردف بتشنُّج: "إئتني بزاوي بن زيري، وحبوس وحباسة ابني ماكسن، وبهلول بن تمايت، وعبد الواحد بن بلقين! جئني بهؤلاء أقتلهم بأخي، وآنذاك سأكف يدي عن البربر!!".
- قد كان أخوك حريصاً على قتلهم هو أيضاً.. أيها الأمير!
- هل تسمع ما يقول فارسك الهمام.. أيها الخليفة؟؟! لَعَمْري.. إنَّ قلبه معهم.. وسيفه ليس معك عليهم، ولا أدري: كيف اطمأن قلبك لإخراجه من محبسه!!!
- ماذا تقول أنت فيما نحن فيه.. يا حمدون؟؟ (سأله المهدي مُعرِضاً عن قولة عبد الجبار الأخيرة)، رمقهما حمدون بنظرةٍ مرتبكة، ثم أجاب بنبرةٍ يشوبها التردد:
- أرى.. أنَّ: الدِّيَة رقوءُ الدم.. يا أمير المؤمنين!!
- ماذا تقول.. قاتلك الله؟!! هل تطالبني أنْ أقبل الدِّيَة في (محمد بن المغيرة بن الخليفة الناصر)؟!! تريد أنْ أقبل الدِّيَة ممَن قتلوا أخي بالسيف متعمدين؟! ألا تسمع.. أيها المهدي؟!! (صرخ عبد الجبار غاضباً محتداً)؛ وكاد أنْ يهمَّ بحمدون لولا أنْ قاطعهما المهدي واقفاً يصيح بصرامة:
- قد شططتَ وأغربتَ.. يا حمدون! وما كنتُ أرجو أنْ أسمع مثل هذا الحديث منك!! قد أسمعتنا ما لا نُطيق! إنْ لم تكن عوناً لنا فيما عزمنا عليه؛ ففارقنا.. ولا تثبط عزمنا! هيا.. انصرف من هنا قبل أنْ أبدل رأيي.. وأعيدك إلى السجن!
- {فستذكرون ما أقول لكم وأُفوض أمري إلى الله إنَّ الله بصيرٌ بالعباد} (٤٤ سورة غافر) (جأر حمدون باغتمامٍ وشجن)؛ ثم وَلَى منصرفاً.. وقد اتسعت الهُوّة بينه وبين الخليفة المهدي.. وحاجبه!!

****

-المشهد السابع والتسعون-

فارق حمدون القصر.. يكاد يكون مطروداً منبوذاً، توجه شرقاً.. عائداً إلى بيته وقلبه مترع بالإحباط والحسرة: (لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ! يمين الله.. إنَّ أعينهم لَفِي غطاءٍ

عن فتنة مدلهمة!!)، التفت وراءه، رنا إلى القصر المنيف؛ ومِن ورائه.. أبصر الشمسَ تُوشك على المغيب، توقَّف يراقبها في أفقها البعيد للحظات، ثم عاد ديجور يهدج به في استكانة؛ فلاحظ –لأول مرة في حياته- أنَّ شمس قرطبة تغرب خلف قصرها، وقد كان –في سالف الزمان- يحسبها تغرب وراء جبل العروس، راح يرفع إليها بصره ويخفضه متطلعاً إلى أُفقها الدامي.. متسائلاً في خاطره: **(هل لهذا الغروب من إشراقٍ جديد؟!! هل تشرقين غداً.. يا شمس قرطبة؟!! أم تلك هي النهاية!!).**

التفت أمامه ليُبصر طريق العودة؛ فأحس كأنَّ البلدة تنقلب رأساً على عقب، أبصر رجالاً يركضون مذعورين.. ونساءً ذاهلات يصرخن منتحبات، عجلاتٍ تُهرول بها بغالٌ مُرتعبة، وخيولاً فَزِعةً تعدو من حوله هنا وهناك، تجاراً هرعوا يُسكِّرون الدكاكين والحوانيت، حاول أنْ يتبين: (ما الذي يجري؟!)؛ فعلِم أنَّ الزُعّار والسارقين والبطّالين يعتدون على بيوت البربر ومنازلهم غرب المدينة، (إنَّها شرارة الثأر والانتقام قد أشعلت النيران في أرجاء قرطبة!!)، تطلَّع إلى السماء فألفاها كأنَّها تَلَبَّدَت بسحبٍ حمراء قاتمة.. أوشكت أن تمطر الناسَ دماءً ملعونة!! شعر كأنَّ شمسها راحلةٌ عنها تاركةً ظلمات الفتنة تخيِّم على بيوت أهلها وقبورهم.. وتغرقهم في بحورٍ من الدم!

جدَّ في السير مهرولاً إلى دار جدته خوفاً على أهل بيته، صادف بابَ الدار الخارجي مغلقاً –على غير العادة-، لم يكد يطرقه حتى فتحت له سلوانُ.. كأنَّما كانت تنتظره وراء الباب، عاين في عينيها نظراتٍ وَجِلةً مستريبة أثارت القلق والرهبة في صدره، انتهب الردهة في خطوتين واثباً إلى الفناء حيث أبصر جدته وأم سعدون جاثمتين باستكانة، وبصحبتهما امرأتان، عرف إحداهما: إنَّها أم عبد الواحد البربرية؛ سلَّم عليها هاتفاً برَوِيّة: "مرحباً بكِ يا خالة! كيف الحال؟!!"، فأجابته باغتمامٍ مرتعب:

- الحال شِّيْن.. يا ولدي! الحال.. شِّيْن!!
- لا حول ولا قوة إلا بالله! ما الأمر؟؟! (تساءل مندهشاً من سلوكهنَّ)؛ فأشارت جدته –دون أن تتكلم- إلى القاعة الغربية، وهمست سلوان بتؤدة:

- ثَمّة.. ضيفٌ ينتظرك.. في القاعة!

بخُطى وئيدةٍ حَذِرة.. تقدم نحو قاعة الضيف، تنحنح.. ودفع البابَ برفق.. ثم وَلَجَ ليجد سعدون يجلس ساكناً بتأدب مع رجلٍ كهلٍ مهيب.. أسمر البشرة، سلَّم عليهما، وقفا يُحييانه بتوقير، عاينه.. فرآه طويل القامة عريض المنكبين متناسق الأعضاء قوي البنية.. ذا وجه معتدل غائر العينين ناتئ الحاجبين دقيق الأنف.. خفيف العارضين، (إنَّه عبد الواحد! ما الذي أقدمه إليَّ؟!): تساءل في دخيلته بتوجس.

صافحه بتوقير وإكبار، ثم سأله الضيفُ.. بشيءٍ من الجدية والخشونة:

- هل تذكرني.. يا حمدون؟؟
- نعم.. يا سيدي! أنت (عبد الواحد بن بلقين).. فارس البربر المعروف!
- دون شك! تتساءل: ما الذي أقدمني إليك.. الحين!!
- أهلاً وسهلاً بكم في كل حين؛ فإنَّ والدتك صديقةٌ قديمة لجدتي! لكنّي أتساءل: لماذا خرجتم على الخليفة.. يا معشر البربر؟! لماذا تثيرون تلكم الفتنة؟!!
- قد جانبك الصواب.. يا حمدون! لسنا نحن مَن أثار الفتن! (صدح بها) فيما يجمع ثيابه في يده ويتهيأ للجلوس حيث أشار حمدون باحترام؛ ثم أردف هاتفاً: "قد كنتَ مع المهدي في ثورته على شنجول حينما كان غازياً في الشمال، وكنَّا نحن – البربر- عماد جيش شنجول آنذاك.. ولو طاوعناه لانقلبنا معه إلى قرطبة فهدمناها على رؤوسكم ورؤوس أهلها، لكننا -كما يعلم الجميعُ- لم نفعل، وإنَّما انفضضنا عنه ورجعنا –إلى قرطبة- مسالمين.. لَمَّا علمنا أنَّ الخليفة المؤيد تنازل للمهدي عن الخلافة وبايعه أهلُ الحل والعقد وعامةُ أهل قرطبة، ثم وقفنا لَدُن باب الخليفة الجديد مبايعين مهنئين.. مستعدين للالتحاق بخدمته كما خدمنا أسلافه الخلفاء؛ فأعرض عن لقائنا.. وتعرَّض لنا حُجابه بالسوء والأذى، وطُردنا من جيش قرطبة وحُرمنا أرزاقنا المقررة، ثم اعتدى على دورنا وأهلينا المعتدون: فما وجدنا نصيراً ولا منصفا! فهل ترى -بعد هذا كله- أننا مَن أثرنا الفتن؟؟!

- خيرٌ من التجمهر ضد الخليفة والخروج عليه بالسلاح؛ كنتم رفعتم إليه شكواكم.. وتحاورتم معه.. وعرَّفتموه حالكم؛ فيُنصفكم.. ويرد مظالمكم!
- وما أدراك أنَّا لم نحاول أن نفعل، لكنَّ خليفتك -يا حمدون- يُصِرُّ على اعتبارنا جنود شنجول وأنصاره.. حتى بعد هلاكه؛ بل ويحمِّلنا تبعاتِ كيده للمروانيين! فماذا كنا نفعل والحال هكذا؟!! هل ننتظر ريثما نهلك وأهلونا من الجوع والفاقة؟؟ أم إلى أنْ نُطرد من البلد ويُشرَّد أهلونا وأبناؤنا؟؟ وما كان اعتصامنا في فحص السرادق إلا لأجل هذا.. وكان بالاتفاق مع شيخ المروانية.. والد ولي عهده!!
- اتفقتم معه على الاعتصام والخروج على الخليفة بالسيف؟! (تساءل باستنكار)
- لم نسع للخروج بالسيف؛ وإنَّما لجأنا لشيخ المروانية لنشاوره ونعرض عليه أمرنا.. عسى أنْ يشفع لنا عند المهدي أو يجد لنا حلاً منجيا! فالتمس منا أنْ نعتصم بفحص السرادق كي نطالب الخليفةَ بحقوقنا المهضومة؛ فجرى ما جرى.. وما كان يخطر ببالنا أنْ يقع الذي وقع!!
- الذي جرى: أنَّكم قاتلتم جنود الحاجب وأعملتم فيهم السيف.. وقتلتم أخاه.. وابن عم الخليفة! ألا تعي ما في ذلك من فاجعة وكرب.. يا سيدي؟!!
- لم نكن نحن البادئين، هم اضطرونا لقتالهم، وكما تَعلم: إذا أُشرِعت السيوف كانت منية المقاتل على حد سيفه، فلا تلومنَّ القاتلَ على قتله المقتول؛ فإنَّما ينافح عن روحه، وقد كان المقتول –مثل القاتل- حريصاً على قتل خصمه!
- مهما التمستُ لكم من أعذار؛ فقد أوجدتم فتنةً عظيمة.. ويجب عليكم التضحية لوأدها!! (هتف حمدون بصرامة مشوبة بالحيرة)
- وأنا.. على استعداد للتضحية بروحي وأداً لتلك الفتنة؛ لكن.. كيف نئدها يا صاحبي؟!! (صاح عبد الواحد بشيءٍ من الجَلَفِ)؛ فجاوبه حمدون بصراحة فَجّة:
- الحاجب يريد رؤوس رؤسائكم ليقتلهم بأخيه، ورأسك من بين الرؤوس!!!
- أيا حمدون.. اعلم أني لن أتردد في تقديم رأسي إنْ كان في قطعها وأد الفتنة!! (جأر عبد الواحد بمروءة وعزم)؛ ثم أردف بنبرةٍ متشككة: "لكن.. هل تضمن لي أن

تموت الفتنة إلى الأبد؟! هل تضمن لي سلامة أهلي وعشيرتي البربر.. بعد قتلي والاقتصاص مني؟! هل تضمن لي أنْ يعيشوا في سلامٍ.. وألا يُنتقَم منهم.. وألا يُطردوا أو يُشردوا؟! هل تضمن لي كفالة عيالي وعيال أخوتي؟! هل تضمن ألا يعتدي زعارُ قرطبة على ضعفاء البربر ونسائهم؟!".

- .... (عقدت الحيرةُ لسان حمدون.. وأربكته)؛ فاستطرد عبد الواحد بنبرةٍ اهدأ.. لكنَّها مفعمة بالثقة والثبات على الرأي:
- هل تطالبني أنْ أطمئن إلى ذاك الخليفة أو حاجبه بعد أنْ نادى مناديهما في الناس بجائزةٍ سخية لِمَن قتل بربري.. سَواء عندهما المتهم والبريء؟!! اعلم –يا حمدون- أنَّ محمد المهدي وعبد الجبار بن المغيرة يريدان قطع دابر البربر، يريدان طردنا من أرض الأندلس كأننا أعداؤها.. لا عمادة جيشها وناصروها، اعلم أنَّ قلبيهما مترعان بالحقد والحنق على البربر كأنَّنا نحن الذين سلبنا المروانيين ملكهم، وإنّنا –وأيم الله- لنحن الذين ثبَّتناه لهم.. ونصرناهم على عدوهم، واعلم –أيضاً- أنَّهما سيندمان؛ لكن.. ولات حين ندم!
- قد جمع لكم عبد الجبار جنداً كثيفاً، ودعا مناده جميع الناس لقتالكم!!
- أعلم ذلك! ولأجل هذا جئتُك.. مستجيراً!
- عذراً.. يا سيد عبد الواحد! لن أقدر أن أُجيرك من الحاجب.. وهو يطلبك فيمَن يطلبهم بثأر أخيه!! (جأر حمدون متنصلاً ملتاعاً)
- لا أطلب جوارك لنفسي؛ بل للضعيفتين: أمي.. وزوجة أخي الحُبْلَى، أسألك أن تُخفيهما أمانةً عند جدتك.. وتمنعهما أنْ يتعرض لهما أحدٌ بسوء؛ فإنِّي لا أستطيع حملهما معي إلى خارج قرطبة؛ فهما عاجزتان.. لا تتحملان مخاطر المطاردة.. ولا مشاق السفر ومكابدة الهروب!!
- لك ما ترجو.. إنْ شاء الله! هما في جواري وضيافة جدتي، أحميهما كما أحمي روحي وأهلي! (أجابه حمدون بشهامة ومروءة دون ترددٍ أو تلعثم)، سكت هنيهة.. ثم سأل باكتراث وقلق: "لكن.. ماذا أنتم فاعلون؟؟! أقصد الجنود الفارين!".

- قد أزمع شيخنا (زاوي بن زيري) على اللجوء إلى أرملاط.. ونحن في ركابه حتى يأذن الله بانفراج المحنة! (أَسَرَّه باقتضاب)؛ ثم أردف: "والآن.. اسمح لي بالرحيل قبل أنْ يفطن أحدٌ لوجودي عندكم!".

****

-المشهد الثامن والتسعون-

رحل عبدُ الواحد تشيعه دعواتُ أمه المستغيثة وعيونها المستعبرة، كان توديعُها له شجيّاً مؤلماً.. لم يملك أهلُ الدار دموعهم حين حضروه!

كان نهارٌ هائجاً دامياً.. ومساؤه!! أكلت نيرانُ الثأر والانتقام -خلال ساعاتهما- حَصَبها البربري.. حتى تطاير فريقٌ منهم -كهشيمٍ تذروه رياحُ الخوف والهلع- إلى أرملاط، وآخرون لم يقدروا على الفرار—منهم محمد بن يعلي- فاختفوا.. ولم يُعلَم عنهم شيئا!

انقضى اليوم.. ولم ينفك أسافل القرطبيين ينهبون ديار البربر ويهتكون سترهم ويفضحون نساءهم، طفقوا يفعلون من الشَنَائِع ما تستقبحه النفسُ الكريمة، ولم يسلَمْ من شرورهم إلا ما حال ظلامُ الليل دونه!

باتت قرطبةُ ليلةً.. هي أشأم ليلة!! انبَثّت الفتنُ في كل مكان: سكن الرعبُ والفزع البيوتَ، ووَلَّت عنها السكينةُ والطمأنينة، ران الحقدُ والشِّقاق على القلوب.. وطُمِست السماحةُ والأناة، ضاقت الصدور.. وخيَّم عليها الضجرُ والقلق، غشي العقولَ الجهلُ والغضب.. وتسلَّطت عليها الهواجسُ والظنون، رأى الناسُ الشياطينَ رَأْيَ العين.. يمرحون في الطرقات.. راقصين فوق أشلاء قرطبة، يطعمون من لحوم موتاها ويشربون من دماء قتلاها.. كأنَّها لذة للطاعمين والشاربين!!

وباتت دارُ فاطمة المروانية مضطربةً باكيةً شاردة: أمٌ عجوز مختبئة.. ملهوفةٌ على أبنائها المطرودين المطاردين.. لا تدري ماذا يُفعَل بهم؟!! وزوجةٌ حُبْلَى أوهنها المخاضُ الوشيك.. وما تدري: أ تلد ولدَها يتيماً.. أم سيُكتَب له أنْ يرى أباه وأعمامه!!

أما صاحبة الدار.. فقد وجف قلبها وارتجف فَرَقاً من تلك الفتنة المُتَّقِدة التي لو تمادى اشتعالُ نيرانها؛ فحتماً ستلفح قرطبةَ بكل مَن فيها: بربرهم وغير بربرهم.. برهم وفاجرهم؛ فباتت تبكي ضارعةً إلى الله.. تستغيث به: (يا ربي.. لا ملجأ منك إلا إليك!!).

أما حفيدها حمدون: فبات ساهداً مضطرباً ضائق الصدر.. قد أربكته الحيرة وأفقدته القدرة على التفكير، ولم يدرِ: ما ينبغي عليه أنْ يفعل؟! هل يستل سيفه.. أم يغمده؟! ولو استل السيف؛ فمَن يُقاتل؟! هل يُقاتل البربرَ.. أم يُدافع عنهم؟؟! (لقد أقبلت فتنةٌ عمياء.. التبس فيها الحق بالباطل، ولن ينجو منها إلا.. مَن نجاه الله!!).

مع إشراقات صباح الجمعة (وهي الأخيرة من شوال سنة ٣٩٩ هـ).. أعدت أمُ سعدون سفرةَ الإفطار؛ فنقرنَّ منها نقراً خفيفاً.. كطير، ثم أزحنَّه.. ومكثنَّ يتربصنَّ الأخبار!!

مضى الجيرانُ يتكلَّمون ويتناقلون -برهبةٍ وترقب- أخباراً تَقشعِرُّ لها الأبدان: (ليلة البارحة.. ذُبح (وسنارُ البرزالي) على فراشه –وهو رجلٌ بربري مِمَن كانت لهم آثارٌ جميلة في الجهاد- ونُهبت داره!)؛ كان رفيقاً لبلقين (زوج أم عبد الواحد الراحل)؛ فبكته وانتحبت عليه بحُرْقَة.. حتى أشفقت عليها أمُ هشام.. ونهتها قائلةً بتحسُّرٍ وأسى: "كفى يا أم عبد الواحد؛ فلن يرد النحيبُ قتيلا!".

وفي خبرٍ آخر قيل: (قَتلوا سبعةَ عشر رجلاً من أهل تلمسان دفعة واحدة، وهؤلاء قومٌ كانوا قد قدموا –حديثاً- إلى قرطبة رغبةً في الجهاد والغزو، وقُتِل معهم بعض نسائهم.. وكان فيهنَّ نساءٌ حوامل.. ولا حول ولا قوة إلا بالله!)، وفي خبرٍ متصل بالسابق: (اقتحموا على (مسلم بن عبد الله الحسيني) دارَه.. وأخرجوه منها.. وسحبوه مِن رِجْله بحبل إلى حفرة بجوار داره تُعرَف بحفرة طالوت؛ ثم قتلوه وألقوه فيها،

وأُنتهبت داره.. وفُضِح بناته!)؛ وبكته كَنَّةُ أم عبد الواحد بكاءً مفجوعاً؛ فقد كان أحد أخوالها!!

****

-المشهد التاسع والتسعون-

على تخوفٍ ووجل.. تراجعت الجدةُ عن حبس حفيدها عن الخروج إلى جامع قرطبة لإقامة فريضة الجمعة.. بعد أن استحلفته أنْ يتحرَّز لنفسه من المخاطر.. وألا يتلكأ في العودة إلى البيت عقب الصلاة، استودعته الله.. ثم لبثت في مصلاها تدعو له ولأولاد أم عبد الواحد ولأهل قرطبة.. بالهداية والسلامة والصلاح.

لم يخيب حمدونُ رجاء جدته؛ فارْتَدَّ إليها فور الانتهاء من شعائر الجمعة، بيد أنَّه رجع حزيناً مستاءً؛ فقد حجبت هذه الفتنةُ المشتعلة أهلَ قرطبة عن تأدية الفريضة.. إلا قليلاً منهم، على أنَّه أحب أنْ يُبشِّر السيدتين المكروبتين بما يُهدِّئ روعهما ويطمئن قلبهما؛ فراح يروي لهنَّ الأخبار الجديدة التي سمعها.. فهتف باستبشار: "لقد نجح الجنود البربر في الفرار إلى أرملاط سالمين.. بعد محاربةٍ كانت مع بعض الغوغاء!!".

غير أنَّه أخفى عليهنَّ أنَّ جنود الحاجب يطوفون على الدور والبيوت في أرجاء قرطبة بحثاً عمَن تخلَّف مِن فرسان البربر أو أهليهم.. للانتقام منهم والتنكيل بهم!

استجابةً لرغبة جدته في ألا يغادر البيت في هذه الظروف المضطربة.. مكث حمدون في الدار، وبحجةِ أنْ يتركها للنساء الضيفات ليرتعنَّ بحرية.. صعد إلى مصاري السطح ورافقه سعدون.. الذي حبسته أمه –هو الآخر- عن مغادرة الدار.

غير أنَّ الباعث الخفي وراء صعوده إلى السطح هو: هاجسٌ قوي يراود خاطره؛ يُحدِّثه بأنَّ جنود الحاجب سيُداهمون الدار ليفتشوها بحثاً عن فلول البربر، سيطر هذا الهاجس على عقله بشدة.. رغم أنْ دارهم في ربضٍ لا يسكنه البربر!

انقاد لهذا الهاجس.. وصعد إلى مصاري السطح هو ورفيقه، ولبث خَلْف الشراجيب خائفاً يترقب، ولم يبرح يراقب الدرب الخالي من السابلة باهتمام وتوجس، حائراً متردداً: (كيف يفعل إنْ وقع ما يخشاه.. وداهموا الدار؟؟!!).

بعد مدة يسيرة.. صعدت إليه جدته التي تعرف حفيدها حق المعرفة، وتقرأ ما يجول في خاطره بنظرةٍ خاطفةٍ في عينيه، أرادت الاطمئنان عليه؛ فسألته بتؤدة:

- ما الخطب.. يا حمدون؟! ما لي أراك مضطرباً؟؟!
- لا شيء.. يا جدتي! أردتُ فقط تَرْك الدار للضيفتين وسلوان يتصرفنَّ فيها بحرية!!
- ليس هذا فحسب؛ فأخبرني: ماذا بك؟؟ (هتفت بصرامةٍ حانية)؛ فاستسلم لإلحاحها.. وصارحها بما يتوجس منه هامساً:
- جنود الحاجب يطوفون على البيوت والدور.. بحثاً عن البربر للتنكيل بهم، وأخاف أن يقتحموا الدار.. ويجدوا أهلَ عبد الواحد!
- وهل يجرؤون أنْ يقتحموا البيوت ويروِّعوا الآمنين؟ ألا يخافون الله؟!
- كذلك يفعلون -منذ الصباح- يا جدتي!! (جاوبها.. مُؤكِداً بمرارة)
- لا حول ولا قوة إلا بالله! وماذا سنفعل -يا ولدي- إنْ قدِموا إلينا؟!!
- لا أدري.. يا جدتي! لا أدري!! لكني.. لن أرضى أنْ ينتهكوا حرمة داري.. أو أنْ أُضيِّع الأمانة التي استودعنيها السيدُ (عبد الواحد).. ولو فيها ذهاب روحي!!
- أعوذ بالله من شر الفتنة! ها هي ذي تُداهمنا في دارنا!! يا ربي.. سلِمنا!!
- ارجعي أنتِ إلى أضيافكِ.. لا يقلقنَّ! وادعي لنا بالسلامة والنجاة!

****

-المشهد المــــــــائة-

ما برح حمدون مكانه وراء الشرجب.. حتى رآهم في أول الدرب.. قادمين من بعيد: فرقة كثيفة من جند القصر تُجلجل في سلاحها!! (ها هم أولاء يقفون على أبواب الدور.. يطرقونها بعُنف.. يخاطبون أهلها بغلظة، يدخلون بتجرُّؤ، لا شك أنَّهم يبحثون عن البربر.. حتى في ربضنا الخالي من البربر!!؟)، (الحمد لله.. لم يجدوا أحداً: لا في الدار الأولى ولا في الثانية.. ولا في غيرهما!!)، (ها هم أولاء مقبلون.. يقتربون من دارنا! لم يتركوا داراً.. إلا ودخلوها! يا ربي استرنا.. ولا تفضحنا في ضيفنا!)، (مَن هذا الذي يقودهم؟!! إنَّه طرسوس المجوسي! يا للخَطْب!! أكره أنْ يكون الصدام معك.. يا صاحبي! لماذا أنت.. يا طرسوس؟؟!)، (هل أتخلى عن ضعيفٍ استجار بي لأجلك؟! هل أخون عهدي الذي عاهدتُه عبد الواحد البارحة.. وقد استأمنني على نسائه؟!! كلا.. وأيم الله! لن أحنث.. وإنْ كنتَ أنت.. يا طرسوس!!)، (لابد أن أنزل إليهم؛ لن أدعه يطرق الباب بطريقته الفظة.. ليُرَوِّع النساء!!).

بادر إلى الدرج يهبطه مهرولاً.. يتبعه سعدون، أبصر النساءَ يجلسنَّ في فناء البئر؛ فأشار إلى جدته يحثها أنْ تنتقل بهنَّ ليختبئن داخل الصحن القديم، همَّت أنْ تكلمه؛ بيد أنَّه لم يُمهلها.. وأعاد إشارته إليهنَّ بإلحاحٍ حازم؛ فقمنَّ.. وهرعنَّ إلى الداخل!

جاءه طرسوس (صديقه).. مُصلِتاً السيف.. يقتحم البيت.. يفضح الضيف!! (حتى وإنْ كان طرسوس؛ لا محيد عن مواجهته.. حتى ولو كانت يدي عزلاء من السلاح.. وصدري عاري من الدروع!!)؛ أشرع البابَ.. وانتصب بتحفُّز إزاء المقتحمين القادمين!

على مسافة خطوات.. شاهده طرسوسُ؛ فأقبل إليه.. وحياه بسذاجة، فبادهه حمدونُ صائحاً بتشنُّجٍ صارم: "ماذا تريدون من بيتي.. يا طرسوس؟!!".

- أمرنا الحاجبُ بتتبُّع البربر الهاربين.. وتَفَقُّد دور قرطبة تحسباً ألا يعتدي على أهلها هؤلاء الأوغاد! (هتف بعفوية)، غير أنَّه أحس باشمئزاز حمدون وتَطيُّره؛

فحبَّذ أن يخفف وطأة الموقف.. فهتف مداعباً: "جئتُك زائراً.. يا حمدون! أ هكذا تستقبل ضيفك؟!!".

- جئتَ تُفتِّش داري.. يا طرسوس؟؟ لن أسمح لك بهذا!!
- إنَّه أمر الحاجب.. يا صاحبي.. ومن ورائه أمير المؤمنين! فأذن لنا.. واطمئن.. لن نُروِّع أهل الدار!
- لن أدعكم تنتهكون حرمة بيتي.. يا حارس الخليفة!! (هتف بنبرةٍ زاجرة)
- هل تستنكف عن طاعة أمير المؤمنين.. يا حمدون؟!!
- لن تلج قدمُ أحدكم داخل الدار قبل أن تجأ صدري بسيفك!! (جأر باحتداد وحميّة.. والسيف الصلت يبرق أمام عينيه)؛ رمقه طرسوس باندهاش.. متعجباً من حدته وتوتره الغير مبرر!

مرت لحظاتٌ قاسية.. -رغم الخرس الذي أصابهم- ارتبك فيها طرسوس.. وتوقف متحرجاً متردداً: (ماذا يفعل؟ كلَّفه الحاجب بمهمة؛ يجب أنْ يؤديها! لا يحق لحمدون أن يعترض.. أو يحجزه عن تفتيش الدار! كانت أوامر الحاجب واضحة: ابحثوا عن أولئك المتمردين وذويهم.. وإنْ اعترضكم أحدٌ؛ فاعتقلوه!!)، تطلَّع إلى صديقه الواقف بثباتٍ وشجاعة ليحول بينه وبين تأدية مهمته، رنا إليه بنظراتٍ جافية كأنَّه يقول: (لا تضطرني لإهانتك واعتقالك.. يا حمدون!!)، بيد أنَّ حمدون لم يعبأ بهذي النظرات.. ولم يكترث لتلك اليد القوية الباطشة ولا للسيف القابضة عليه؛ وإنَّما ثبت قائماً بإصرار ليصرفه وجنوده عن دخول داره!

بعد لأْيٍ.. اتخذ طرسوس قراره الصعب: تراجع عن عتبة الدار.. وأغمد سيفه.. وأمر جنوده بالانسحاب في هدوء: (حمدون أحب إليَّ من الحاجب.. ومن الخليفة.. ومن نفسي!!)، استدار.. ورحل بمَن معه بعد أنْ رمق صديقه بنظرة عتابٍ آسفة.. وقعت مُوجعة على قلب حمدون أنْ اضطره للتقصير في مهمته.. وعرَّضه لسخط أسياده!

لكن.. رغم إشفاقه على طرسوس.. تنفَّس الصعداء، أوصد الباب.. وانسحب إلى داخل الدار مطمئن الخاطر، أقبلت إليه جدته تسأل باكترات: "ماذا فعلتَ.. يا ولدي؟!!"

– اطمئني.. يا جدتي.. قد انصرفوا.. والحمد لله!
– قد يعودون مرة أخرى!!؟ (هتفت بتغليب ظن)؛ فقاطعها صائحاً بحماس:
– لن اسمح لهم بتفتيش الدار.. ولو أُضطررتُ إلى قتالهم!
– أربع على ظَلْعك[1].. يا بُني! ودعهم يفتشون ويبحثون.. ولا تخشى شيئاً!!
– كيف يا جدتي؟! (تساءل باستنكار)؛ ثم أردف: "حينما يجدون الضيفتين.. ويعرفون -من مظهرهما ومن أغراضهما المبثوثة في الدار- أنَّهما بربريتين؛ ساعتئذ.. ماذا سنفعل؟!! والطامة حقاً.. أنْ يعلموا أنَّهما من أهل عبد الواحد بن بلقين!!".
– سنُخفي أغراضهما الدالة على حقيقتهما.. وسنُلبِسهما أردية أندلسية عربية، ولا تُعرِّض أنت روحك لمجابهة ذاك الحاجب المتجبر وجنوده!!
– لن أُهين ضيفي.. يا أمي! ولن أُفرط في الأمانة!!
– يا ويلي.. يا ليتني مِتُ قبل هذا.. وكنتُ نسياً منسيا!! (أقبلت إليهما أم عبد الواحد تبكي وتولول).. وتعتذر إلى فاطمة وحفيدها أنْ أحدثت لهما هذا الهلع، احتضنتها أم هشام وربتت عليها بحنوٍ ورأفة.. وهي تُتمتم بمودة:
– هَوِني على روحك.. يا حبيبتي! فأنتم أهلونا؛ نحن منكم.. وأنتم منا!

****

[1]: أي: ارفق بنفسك ولا تحمل عليها أكثر مما تطيق.

-المشهد الحادي بعد المــئة-

"اقْررْ عيناً.. أيها الحاجب؛ قد وطئنا البربرَ وطأةً شديدة!": هتف صاعد بن عبد الوهاب مخاطباً عبد الجبار.. بينما يُجالسان الخليفةَ في إيوانه.. يتدارسون آخر أنباء حربهم على البربر، فهزَّ عبد الجبار رأسه موافقاً.. حالما صاح المهدي بارتياح:

- أجل! يحق لنا –الآن- أنْ نعلن الحداد على ابن عمنا (يقصد محمد أخا عبد الجبار).. وأنْ نتقبل العزاء فيه! أليس كذلك.. يا عبد الجبار؟!!
- الرأي ما ترى.. يا أبا الوليد! على أنَّ طائر ثأري لم يكف –بعدُ- عن النواح والاستسقاء من دمائهم! (هتف بنبرة تفاخر ممزوجة بشهوة الانتقام)
- آخر الأنباء: أنَّ المحاربين منهم هربوا إلى أرملاط، وهم -الآن- يعتصمون بها! (قال صاعد)، في حين جأر عبد الجبار بشماتة:
- لعمري.. قد شرَّدناهم! وذاكما أقل عقاب يجب أن يقع عليهم!!
- ينبغي مطاردة فلولهم.. لا تتوانوا فيها.. يا عبد الجبار! أ تعي قولي؟!! (صاح المهدي مخاطباً حاجبه بجدية)؛ ثم التفت إلى وزيره مستطرداً: "هَلُمَّ رجالك –يا صاعد- وضمهم إلى جنود عبد الجبار.. وجِدُّوا في طلب أولئك الملاعين قبل أنْ يُنظِموا صفوفهم ويستجمعوا قوتهم!".
- سمعاً وطاعةً.. يا أمير المؤمنين! (جأر صاعد بانصياعٍ متحمس)؛ ثم لم يُبطئ أنْ نكص وهتف باستحياءٍ مُصطَنع: "عذراً.. يا مولانا! إنَّ الرجال يطمعون في كرمكم المعهود بأنْ تمنحوهم المكافأة التي وعدناهم!".
- لا جناح عليهم في هذا، وحتماً.. سنمنحهم ما وعدناهم! رتِّب ذلك.. مع عبد الجبار! (هتف المهدي).. وهو يومأ لهما أن يتفاهما معاً على الأمر، ثم أردف وهو ينهض من مقامه: "لا تتهاونا في كسر شوكة هؤلاء الأوغاد! أما الآن.. فسأنصرف إلى مخدعي؛ قد كانت الأيام الخوالي عصيبةً.. لم نذق فيها الراحة إلا غراراً!".

- أيا أمير المؤمنين! نَمْ قرير العين.. هادئ البال.. وستجد منا ما يسرك! (جأر صاعد)؛ فيما يقومان –هو وعبد الجبار- توقيراً للخليفة، ثم انصرفوا كلهم.

****

-المشهد الثاني بعد المئة-

عشية الجمعة.. آوى فرسانُ البربر إلى أرملاط، مضى هَزِيع الليل؛ فاجتمع زاوي بن زيري بابني أخيه.. ليسأل عن خبر قومه؛ فجاوبه حباسة متحسراً مغتاظاً: "قد ولينا الأدبار؛ فُضِحنا.. ورب الكعبة!"، فيُعارضه أخوه هاتفاً بنبرةٍ مشوبة بالتأنيب:

- الحرب.. كَرٌّ.. وفَرٌّ!!
- هي الحربُ –إذاً- بيننا وبين قرطبة!!؟ (ردد عمهما زاوي.. بصوتٍ موجوع)
- هل ترى غير الحرب.. يا شيخ البربر؟! وقد هُتكت الستور.. ونُهبت الدور!! (جأر حباسة بمرارة لاذعة)، أرسل عمه تنهيدة تَفَجُّعٍ.. ثم سأل باهتمام:
- هل انتظم الرجال في هذا الملاذ.. واستقر حالهم؟!!
- قد تجمع هاهنا عددٌ –لا بأس به- مِن الفرسان الذين لحقوا بنا.. وبعض أهليهم!!
- هل أحصيتم ما معنا من مال وسلاح؟؟!
- النَّزْرُ اليسير: قد أفلت القومُ.. وليس معهم من السلاح سِوَى السيوف في القِرْب، ومن ناطق المال.. الخيل، ومن صامته.. قليل من الثمين الخفيف!!
- اللهم.. قلةً.. ولا ذلة!! (صدح الشيخ بتَنَزُّهٍ وإباء)
- المصيبةُ الحق.. أننا خلَّفنا وراءنا بيوتنا وضياعنا وجُلَّ أموالنا ليستحوذ عليها أولئك الفُجَّار! (جأر حباسة بتَمَقُّطٍ وتحسر)؛ فيما يستطرد حبوس مُتفجِّعاً:
- والأدهى من ذلك؛ مَن تركناهم خلفنا مِن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان؛ ولا ندري ماذا سيفعل بهم عديمو الشرف والمروءة!!؟
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! لعمري.. قد ضاع كلُ شيء!! (جأر حباسة بنبرة استسلام)

- كلا.. إنَّ من حزم الرجل ألا يدع مصائب يومه تصرفه عن غده! العزيمة الآن –يا أولادي- أنْ نبقى أحياء، ألا نيأس.. ألا نستسلم!!
- وماذا بوسعنا أن نفعل.. يا عماه؟؟! (تساءل حبوس بتحيرٍ ومرارة)
- سنصمد لهم.. ولن نستكين! قد حاربونا وأخرجونا بغير ذنبٍ ولا جريرة، ولا حجة لهم علينا سِوَى أنَّنا بربر!!؟ فلا تثريب علينا –إذاً- إنْ دعونا بعصبيتنا؛ فقد حملونا على ذلك حملاً!
- فبماذا تأمرنا يا عمنا؟؟! (تساءل الفارسان) وقد بعثت كلماتُه الصامدة فيهما روح التفاؤل والمثابرة من جديد؛ فاستطرد الشيخ المجرب هاتفاً:
- أرى ألا نُطل المقام في أرملاط؛ وإنَّما نعمد إلى بني جلدتنا من أهل الثغور.. نجتمع بهم ونعرض عليهم أمرنا.. ونلتمس منهم المعونة، فإذا قويت شوكتنا؛ عدنا أدراجنا إلى قرطبة وطالبنا أهلها بحقوقنا التي سلبوها!!

هنالك.. قطع عليه حديثه استئذانُ بهلول بن تمايت في الدخول؛ فأذن له، ولج بهلول إلى الخباء.. وسلَّم على الشيخ بإجلال.. وحيَّا الأخوين.. ثم قال:

- جاء عبد الواحد بن بلقين –يا شيخنا- يلتمس لقاءك.. ومعه رجلٌ غريب!
- ومَن ذاك الغريب؟؟!
- يأبى أنْ يُفصِح عن نفسه إلا أمامك.. يا شيخنا!
- قد يكون دسيسة دسَّه ذلك الخبيث (صاعد بن عبد الوهاب) كما دسَّ -مِن قبلُ- على شيخ المروانية!! (هتف حباسة بن ماكسن)، حالما جأر أخوه بتوجس:
- لا تُقابله.. يا عمّ، قد يكون قاتلاً اكتروه لاغتيالك!!
- بل تُقابله.. يا عمي! ولعمرك.. لو أظهر شراً؛ لفصلتُ رأسه عن جسده قبل أن يرتد طرفه! (صاح حباسة بنخوة وحماس)؛ فهتف عمهما بهدوءٍ وتلطف:
- على رسلكما! قد آتنا الرجلُ بصحبة عبد الواحد بن بلقين.. (فارسنا الأريب)، ولن تفوته أموراً كهذه؛ فاطمئنّا!

- الأحوط –لو تسمح يا عمنا- أنْ نُقابل عبد الواحد أولاً لنعلم منه: مَن الرجل، وماذا يريد!! (هتف حبوس بشيءٍ من الارتياب والتحرُّز).. ووافقه أخوه بتعقل؛ فاستجاب الشيخُ لرغبتهما.. وأومأ إلى تابعه قائلاً:
- أدخل عبد الواحد وحده أولاً.. يا بهلول!

بعد هنيهة دخل عبد الواحد.. فسلَّم على الجميع، وبتوقيرٍ.. قَبَّلَ يد شيخه الذي بادره:

- مَن هذا الغريب الذي معك؟ ولِمَ يريد لقائي؟؟!
- إنَّه: (أبو أيوب).. سليمان بن الحكم بن سليمان بن الخليفة الناصر!
- ابن أخي هشام (شيخ المروانية)؟!! ما الذي أتى به؟؟ (تساءل الشيخ باستغراب)
- قدومه الحين يثير الشك والريبة!! إنِّي أعلم أنَّه كان مخالفاً لرأي عمه؛ وكان من المروانيين الذين اعتزلوا هذا الصراع بِرُمَّتِه!! (هتف حبوس بارتياب)
- هل تأذن له بلقائك –يا شيخنا- وتسمع منه؟؟ (سأل عبد الواحد بتحضيض)
- ما علاقتك به.. يا عبد الواحد؟ هل لك به سابق معرفة؟؟
- قد كان رفيق صباي، كنَّا نتعلم معاً في مكتب (كُتَّاب) الشيخ عبد البر المصري، وأشهد له: أنَّه رجلٌ ذو عقلٍ وحكمة.. ومحل ثقة؛ فاسمع منه.. يا شيخنا!!
- جئنا به –إذاً- يا عبد الواحد!!

دلف إليهم.. فتطلعوا إليه فرأوه رجلاً كهلاً.. تام القامة.. جميل الوجه.. أسمر.. أعين.. أشم الأنف، ألقى السلام باحترام؛ فقام له زعيمُ البربر.. وقام معه قائديه، رحَّب به.. لكن ترحيباً يشوبه الاحتياط والريبة، تفحَّصه حباسةُ بشيءٍ من الجلافة ليتأكد أنَّه لا يُخفي سلاحاً، وتَفَرَّسه حبوسُ بإمعان؛ فقدَّر أنَّه رجلٌ كيِّس ذو عقل راشد، أشار إليه زعيم البربر أنْ يقعد.. ثم سأله –دون مواربة-:

- لِمَ تبعتنا أيها المرواني؟؟ ماذا تريد منَّا؟!!

- هل ترضى عمَّا فعله المهدي وحاجبه بعمي هشام وولديه (سليمان وأبي بكر).. يا شيخ البربر؟؟ وهل ترضى قتله لأخوتنا البربر العُزل من السلاح؟؟! وهل ترضى – من قبل ذلك- عن طرده فرسان البربر وصناديدهم من جيش قرطبة؟!!
- بالطبع.. لا نرضى!! (أجابوه بتسخُّط)
- وأنا كذلك –مثلكم- لا أرضى! لا أرضى أنْ يُذبح عمي.. حفيد الخليفة الناصر.. في قصر الخلافة.. ولا يتحرك أحد من المروانيين للاقتصاص له!!
- كنتَ قد فارقتَ عمك حين جمع الرجال ضد المهدي؛ فكيف تريد منا أن نُصدِّق أنَّك ناقمٌ –الآن- على قاتله؟!! (سأله حبوس بارتياب)
- كنتُ قد خالفتُ عمي في رأيه لأنني لا أحب إثارة الفتن النائمة، وكنتُ أرى –خيراً من الخروج بالسيف- أن يجتمع أُولو الرأي والحكمة من المروانيين عند المهدي وينصحوه بالاعتدال.. ويُطالبوه بإشراك ولي عهده وأبيه معه في شئون الدولة والحُكم، لكنَّ عمي رفض رأيي؛ فاعتزلتُ.. ولزمتُ بيتي إعتراضاً على تقاتل أهل البلد الواحد!!
- والحين.. لحقتَ بنا إعتراضاً على تقاتل أهل البلد الواحد؟!! (ردد حباسة بنبرة تشكيك هازئة)، تنهَّد أبو أيوب تنهيدةً عميقة.. ثم أجابه هاتفاً بجدية متحمسة:
- بل لأصون مُلكاً ضيعه أهله وعبث به فتيانه! فقد تأكد الظن عندي –بعد تلك الحوادث- بأنَّ المهدي غير خليق بالخلافة، وأحسب أنَّه قد شرد على الله شِراد البعير.. وركب رأسه جامحاً.. ولن يزيده النصح إلا إسرافاً في العناد! وأصارحكم بأنِّي أرى –الحين- بعين بصيرتي مجداً يترنح.. وعرشاً تكاد تسقط قوائمه!! فيا لضيعة بني مروان إنْ لم يقم أحدهم فيضرب على يد هذا الأهوج وينقذ منه ذاكم الملك التليد قبل أن يُضيِّعه بقبيح تصرفه وسوء تدبيره! لابد من ضربةٍ قاصمة مصممة.. تُفرِّق بين الحق والباطل!! وأريد منكم أن تعاونوني فيما عزمتُ عليه؛ أنْ تقوموا بالأمر معي.. وتتحمَّلوا مسئوليتكم نحو هذه الدولة –كما كان

عهـدكم دائمـاً- وأنْ تحفظوهـا مـن عـدوها.. وإنْ كـان مروانيـاً خـدع النـاس.. فبايعوه!!

- وكيف نعاونك.. أبا أيوب؟!! (تساءلوا مستبشرين بحماسته.. وفصاحة قوله)
- بايعوني بالخلافة.. وضعوا أيديكم في يدي؛ فنُصبح يداً واحدة على المهدي؛ ننزع منه ملك المروانية قبل أن يُضيِّعه، ونُعيد الأمور إلى نصابها الصحيح!!

****

-المشهد الثالث بعد المئة-

- سيدي الحاجب! إنَّ أمير المؤمنين يلتمس منكم الحضور إلى مجلسه! (بتوقير.. هتف حاجبُ باب عبد الجبار)،

رمقه بتعجبٍ.. وتساءل في دخيلته: (لماذا يستدعيني في مثل هذا الوقت؟!!)، ثم سأله:

- ألا تعلم.. لماذا يستدعيني الخليفة.. أيها الحارس؟؟
- لم يُفصِح عن غرضه.. يا سيدنا! لكني علمتُ أنَّ قاضي القضاة (ابن ذكوان) جاءه برِفْقَة الوزير الأكبر (أبي عمر بن حزم)، وكان غاضباً مستاءً، وظَلَّا عنده مدة، ثم خرجا من عنده.. وقد هدأت غضبة القاضي وانفرجت أساريره!
- ألا تدري.. ما سر غضب القاضي قبلُ.. أو ارتياحه بعدُ؟؟!
- لستُ أدري.. يا مولاي!!
- يا لك.. من مأفون[1]! هيا.. انصرف عني!! (صاح عبد الجبار بتأفف)..

قعد يتفكَّر؛ فحَدَسَ أنَّ استدعاء المهدي له علاقة بغضب القاضي، وخمَّن أنَّ عِلَّة غضبه هي مطاردتهم للبربر في المدينة وتقتِّيلهم إياهم ومصادرتهم لأموالهم؛ فتملَّكه القلقُ.. وانقبضت أساريره.. وتكدَّر مزاجه، بيد أنَّه قام –متثاقلاً- ليذهب إلى المهدي،

---

[1] : مأفون: غبي ناقص العقل.

لدى باب إيوان الخليفة.. التقى بصاعد بن عبد الوهاب الذي استجلبه الخليفةُ –هو الآخر- دون إبطاء. دلفا إليه؛ فبَدَهَهما هاتفاً بصرامة:

- اعلما أنِّي.. قد عفوتُ عن البربر؛ فارفعوا أيديكم عنهم، وأعلنا في الناس أنَّ من آذى بربرياً –بعد الآن- أو تعرَّض له بسوء؛ فستكون عقوبته السيف!!
- لكن.. يا أمير المؤمنين.. (هَمَّ صاعد أن يتكلم)؛ فأسكته المهدي بنبرةٍ حاسمة:
- لا مجادلة في هذا الأمر.. يا صاعد! ارفع سيفك عن البربر! قد وعدتُ قاضي القضاة.. ولن أحنث!
- قد اصطف الجند لمطاردة الفارين إلى أرملاط؛ فهل ندعهم؟!! (جأر عبد الجبار مُعْترِضاً باستياء)؛ فجاوبه المهدي بنبرةٍ أقل حدة:
- بل سأُرسل إليهم بالأمان.. على أنْ يُفارقونا –دون سلاح- إلى بلادهم فيصيروا حرَّاثين[1] (يحرثون الأرض) كما كانوا!!
- وثأر أخي.. محمد؟!! (صاح عبد الجبار بتفجُّعٍ)؛ فزجره المهدي صائحاً:
- أ ما اكتفَيتَ –بعدُ- من إراقة الدماء؟! قُضِي الأمر.. ولن أسمح بمخالفتي، فإياكم بعد الحين.. إياكم ودماء البربر.. أو أموالهم! قد أعذر مَن أنذر!!

****

-المشهد الرابع بعد المئة-

في خباء زعيم البربر بأرملاط.. ردَّ شيخُ البربر (زاوي بن زيري) على أبي أيوب (سليمان بن الحكم) رداً لَيِّناً، وأرجأ إجابة طلبه إلى الصباح.. والتمس منه أنْ ينتظر في خباء (عبد الواحد بن بلقين) كضيفٍ عزيزٍ مُكرَّمٍ ريثما يتشاور مع قادة الفرسان، ثم ظل مُطرِقاً؛ فلمَّا طال سكوته وشقَّ انتظارُ قراره على القوم.. سأله حباسة ابن أخيه:

---

[1] : حرَّاثين: يحرثون الأرض.

- ما قولك.. فيما سمعتَ.. يا عماه؟!!
- ماذا تقولون أنتم؟؟ (تساءل بنبرةِ مَن أعيته المسألة وعجز عن حلها)
- إنَّها فرصتنا السانحة؛ فينبغي أنْ نتشبَّث بها.. ولا نضيِّعها! (جأر حباسة)
- أرى أنَّ الله قد أرسل هذا الرجل غَوْثاً لنا! فلقد كنتُ أتفكر حائراً: كيف سنُبرر للناس قتالنا المهدي وأهل قرطبة.. وهم يعدوه الخليفة؟! أمَّا إذا بايعنا أبا أيوب بالخلافة؛ فحينئذ يكون لنا مُسَوِّغ مشروع لقتالهم! (هتف حبوس)
- إنَّنا لا نعرف الرجلَ؛ وأخشى إنْ اتخذناه إماماً.. وبايعناه بالخلافة أن نصنع صنماً من لحم ودم؛ فإذا استتب له الأمر وتمكَّن سلطانه؛ تجبر علينا وطالبنا بالركوع له من دون الإله!! (تساءل الشيخ بتحيرٍ مرتبك)
- بل نجعله صنماً من حلوى؛ فإذا جُعنا.. أكلناه! (صاح حباسة بحمِيَّة وأنفة)
- أجل.. يا عماه! لن يكون للرجل نصيرٌ غيرنا، ولا عِزَّةٌ ولا منعةٌ إلا بنا؛ فتَوكَّل على الله.. وابسط إليه يدك وبايعه.. على ألا يقطع أمراً –كبيراً أو صغيراً- إلا عن رأيك ومشورتك!! (هتف حبوس بتحضيض)
- تَوكَّلنا على الله! الرأيُ.. ما رأيتم!! (جأر الشيخ بشيء من الحماسة والتفاؤل)

وبينما القوم يجتمعون بأبي أيوب ليعرضوا عليه شروطهم؛ إذ جاءهم رسولٌ من عند (الخليفة المهدي) يُبشِّرهم بالأمان والعفو.. شريطة أن يرجعوا إلى بلادهم، فلم يرُدُّوا عليه جواباً شافياً؛ وإنَّما عنَّفوا رسوله قائلين: "وأيم الله.. لولا أنَّك رسولٌ -غير محاربٍ- لقتلناك، وسيُجازيه اللهُ بما فعل!"، ثم انطلقوا يحُثُّون الخطى –وبصحبتهم أبو أيوب بعد أن وافق على شروطهم- إلى قلعة رباح في الثغور الشمالية، وفي الطريق بايعوه بالخلافة وتسمى: **(الخليفة المستعين بالله.. سليمان بن الحكم)**

****

-المشهد الخامس بعد المئة-

نادى منادي الخليفة بالأمان للبربر، وطاف أحدُ الوزراء –بتكليفٍ من الخليفة- على قرطبة وأرباضها ليقول: "قد عفا أميرُ المؤمنين عنهم.. على أن يرجعوا إلى بلادهم فيصيروا حرَّاثين كما كانوا!"، فاطمأنَّ الناسُ.. وهدأت الفتنةُ إلى حين.

استبشرت أمُ هشام خيراً.. ورجت من الله أنْ تكون تلك هي نهاية الفتنة.. وأن تعود قرطبة لسابق عهدها من الأمن والطمأنينة، أما أم عبد الواحد.. فانتهبتها الحيرة، وأَقَضَّ عليها مضجعَها خوفُها على أبنائها.. لعلمها أنَّهم لن يقبلوا بهجران قرطبة.. ولا الأندلس، بيد أنَّها لا تملك من أمرها شيئاً.. سوى الانتظار والترقب، ولا لأبنائها.. حاشا الدعاء والتضرع!

نادى منادي الخليفة بكف الأيدي عن البربر.. وتَوَعَّدَ المخالفين؛ فأُسقِط في يد (صاعد بن عبد الوهاب) وأُفسِدت خططه! وتكدَّر مزاج عبد الجبار.. وتملَّكه الغيظ والضيق؛ فغادر القصر مغاضباً، وانصرف إلى بيته عسى أن يصرف عن روحه الكدرَ.

رأى الجاريتين –نجوى وسعدى-؛ فادَّكر صَبابته التي أشفى على نسيانها! تذكَّر الأحلامَ الجميلة.. والخيالات الناعمة التي كانت تؤسر قلبه كلما مرَّ بخلده طيفُ تلك الغادة الحسناء: (سلوان! يا له من شعور لذيذ.. ذاك الذي ينتابني كلما خطرت صورتها بخيالي!! يا له من صفاءٍ بهيج.. ذاك الذي كنتُ أحس به كلما أفقتُ من نومٍ زارني فيه طيفها!)، (لعمري.. قد أصابني من حبها لاعجٌ لا أحب إطفائه، وهُيَامٌ.. لا أرغب في إخفائه! ولِمَ أُخفيه؟!! لن أُخفيه.. ولن أُفرِّط فيها!!)، (فأما انشغالي بالحرب مع البربر.. فكان بمثابة ظرفٍ عارض ثأراً لأخي؛ وقد ثأرتُ!)، (وأما الخلافة ومنافستي عليها.. فقد كانت من نزغات الشيطان! نعم.. نزغات ذلك الشيطان (فرتون).. الذي أراد الوقيعة بين بني العُمومة ليحقق مآربه الخاصة!؟)، (يا له من أهوج وضيع! يطمح أن يأخذ منصبي فيصير حاجب الأندلس!!؟ اخسأ.. أيها الخبيث الحقير! كيف تطمع في مثل هذا الشرف العظيم.. وأنت صقلبي صعلوك.. لا حسب لك ولا نسب؟!).

اتَّكأ في مقعده باسترخاء.. وصَعَّدَ بصره في سماء مجلسه.. كأنَّما يُطالع فيها خيالاً حالماً. نازعته نفسه إلى ذكرى سلوان، تنهَّد تنهيدة مريرة.. وحدَّث طويته: (آه.. آه! لا خير في هذي الدنيا ما لم نغتنم منها فرص التنعُّم بالحياة؛ لقد سبق الموت إلى أخي محمد، وزهقت روحه سُدى في سبيل الملك ولم ينل منه شيئاً!!)، (لِأدع المُلك والسلطان للمهدي يشقى بحفظه وبالتشبث به، ولأنعم أنا بحياتي مع مَن أحب!)، (فليكن السلطان وهمومه نصيبك –يا أبا الوليد- لن أنافسك عليه بعد اليوم، ولتكن الحياة السعيدة الرغيدة نصيبي أهنأ بها مع الغادة الحسناء التي شَغِف بحبها فؤادي!!)،

(.. لكن بيني وبينها حمدون!!؟ كلا.. لن ينتزعها مني!! لن يُفرِّق بيني وبينها أحدٌ مهما كان!! ولابد لهذا الشأن العظيم من تدبير عظيم!!).

استجمع شتات أفكاره.. وعقد عزمه على الانشغال بحبه لسلوان عن كل شيء؛ عن الخلافة.. كأنَّه لم يطمع فيها، وحتى عن الانتقام لأخيه.. كأنَّه لم يمت مقتولاً بأيدي أعدائه. استدعى (ابن الرسان) الذي ما زال يُقيم عنده، بقيا يتهامسان مدة استرعى فيها ابنُ الرسان انتباهه وأثر في دخيلته أبلغ الأثر؛ فزادت حماسته لما أزمع عليه.

****

-المشهد السادس بعد المئة-

متأخراً عن الموعد.. أتى عبدُ الجبار إلى أول مجلس سمر يعقده الخليفةُ المهدي لندمائه.. بعد أنْ هدأت الفتنة فيما يظنون، رآه المهدي.. فبشَّ له ورحَّب به وأقعده إلى جواره، أمر ساقيه (فرتون) أن يملأ لحاجبه الكأس.. وخاطبه هاتفاً:

- هَلُمَّ إلينا –يا ابن العم- ووَدِّعْ الأحزانَ، فالحزن لن يرد ميتاً!
- وصلتك رحم.. أيها الخليفة! سأشرب هذا الكأس كرامةً لك.. رغم أنَّه لا يجوز لي، ولولا أنَّك عَزَمتَ عليَّ.. ما شربتُه!!

- لماذا تشق على روحك.. يا عبد الجبار؟!! فإنّا نشهد: أنَّك ما قصَّرتَ في انتقامك.. وما ضيَّعتَ ثأر أخيك!
- ليس ذاك.. يا أبا الوليد! (جأر بها وهو يحدج فرتون بنظراتٍ خبيثة كأنَّما يتوعَّده)، ثم أردف: "إنَّما يصرفني عنه علمي بأنَّ ساقيكم يسقينا مالاً مغتصباً!".
- بما تهذي.. يا رجل؟! ما هذا القول؟؟ (تساءل المهدي بامتعاض)
- يُجيبك ساقيك.. أيها الخليفة! فاسأله: أنى له كل هذاك الخمر الخندريس؟؟

التفت الخليفة إلى ساقيه.. وصاح بصرامة:

- أجب.. يا فرتون! ذُبَّ عن نفسك الاتهام! كيف حصلتَ عليها؟!
- لم أغتصبها! بل.. اشتريتُها.. يا أمير المؤمنين! (هتف فرتون بتلعثُم)
- إنَّك تسقي الخليفة وندماءه منذ شهور؛ فأنى لك المال الذي اشتريتَ به كل هذا الكمِّ من خوابي الخمر الثمينة؟!! (سأله عبد الجبار بنبرة تأنيب وتَوعُّد)
- .... تبعثرت الحروف بين شفتي فرتون؛ فلم يُسعفه القول.. وخَفَتَ صوته حتى صار سكوتاً، رمقه الخليفةُ بنظرةٍ شزراء.. ثم صاح مغتاظاً:
- نبئني أنت الحقيقةَ.. يا عبد الجبار!!

أخذ عبد الجبار يقص على الخليفة نبأ (ابن الرسان) الذي ادعى عليه فرتونُ –ظلماً وزوراً- أنَّه نصير شنجول ورجله الثقة حتى أفضى إلى سجنه ومصادرة ماله؛ وما ذلك إلا حقداً منه على سيده القديم، وطمعاً في استلاب خمره العتيقة المُخبَّأة التي يعلم سِرَّها لأنَّه كان –ذات يومٍ- حارسها.. فخان الأمانة؛ فلمَّا طرده سيده من جَرَّاء تقصيره وخيانته؛ ضَغِنَ عليه وأضمر الشر.. وبيَّت الغدر والانتقام.

- هذا كذبٌ.. يا مولاي! بل.. إنَّ.. ابن الرسان هذا.. رجلٌ مداهن منافق! ولقد كان نديم شنجول.. ومستشاره المقرب! وكان.. مرابيً.. آكلاً للسحت! صدِّقني.. يا أمير المؤمنين! لقد كنتُ أخدمه خدمة العبد الوفي المخلص، وكان يغمط خدماتي غمط السيد الجاحد الظالم!!

- اصمت.. أيها الخبيث! أما زلتَ تخبط في غيِّك؟!! لن ينفعك إفكك وتزويرك؛ فقد برح الخفاء.. وعرفنا براءة الرجل! ولن يرضى أمير المؤمنين أن يتحاكى الناسُ بأنَّ ساقيه يأكل الأموالَ بالباطل دون أن يعاقبه، ولن يقبل منك –بعد الذي علم- أن تسقيه مالاً مغتصبا!! (صاح عبد الجبار بانفعال مصطنع).. لدرجة أنَّه خدع المهدي وجلساءه؛ فصدَّقوه وكذَّبوا فرتون الذي غشيه التحرُّج والاختلاج.. فعجز عن الدفاع عن ذاته.
- على هَوْنِك.. يا عبد الجبار! قد حدَّثتَ سامعاً! ولن أقبل منك –يا فرتون- إلا أن ترد خوابي الخمر إلى صاحبها.. أو أن تؤدي ثمنها!! (صاح الخليفة بنبرةٍ حانقة)
- عذراً.. يا أمير المؤمنين! لا أستطيع أنْ أفعل!! (امتنع فرتون بصوتٍ خفيض)
- لعمري.. قد أخذتك العزةُ بالإثم، وغرَّتك سماحة أمير المؤمنين! (جأر عبد الجبار بخُبْث).. حالما حدج المهدي ساقيه باستياء وصاح ساخطاً:
- ما أنت بأهلٍ للنعمة! ولقد أرداك طمعك؛ فإنَّ الطمع آخرته حسرة وفزع!! (قالها).. ثم التقط أنفاسه والتفت إلى عبد الجبار قائلاً بنبرة اهدأ: "رُدُّوا إلى الرجل ما بقي عند هذا الخبيث من خوابي، وسأسدّد أنا ثمن ما تبددا!".
- أنصفك الله.. أيها الخليفة.. كما أنصفتَ ضعفاء رعيتك! (هتف عبد الجبار)
- أما أنت.. يا فرتون! فلولا أن يتكلَّم الناس أنَّ المهدي يفتك بأصحابه من الثوار القدامى؛ لكان لي معك شأنٌ آخر! لكن.. سأكتفي بأن ترجع إلى عملك السابق حارساً في القصر؛ فاغرب عن وجهي.. وسَلِم نفسك إلى جؤذر من الغد!!

حالما كان يُلملم أغراضه الضئيلة وينصرف مخزياً مطأطئ الرأس في ذلة.. رمقه عبد الجبار بشماتةٍ فَجَّةٍ.. مبتهجاً بإشباع شهوة انتقامه!

حتى إذا غاب فرتون عن المجلس؛ التفت إلى المهدي وهتف بنبرةٍ مُواسِية: "لا تعبأ.. يا أبا الوليد؛ لك عندي ساقٍ ونديمٌ.. خيرٌ من ذاك الأفَّاك!".

****

-المشهد السابع بعد المئة-

أُستبدِل ابنُ الرسان بفرتون، وفي غضون أُمسياتٍ قليلة.. صار نديمَ الخليفة المُفضَّل، ودعَّمه -في تعجيل الوصول إلى تلك المكانة- طريقتُه في تقديم خمره اللذيذ ونوادرُه الطريفة وفكاهةُ كلامه ولباقته.. ووَسَاطةُ الحاجب (عبد الجبار)!

أما فرتون.. فقد قَبَعَ –منبوذاً- على أبواب القصر في زمرة الحراس المغمورين، عاد خادمٌ نكرة.. كأنَّه لم يكن –ذات ليلة- ساقي الخليفة، أو لم يكن -ذات يومٍ- ثائراً من ثوار المهدي المقرَّبين، وعبثاً حاول أنْ يتصل بالخليفة ليدافع عن نفسه ويستعيد مكانته، فانكفأ إلى الحاجب محاولاً أن يُصلِح ما انكسر بينهما؛ وسُدَى ما حاول.. فإنَّ عبد الجبار قد تنفَّس الصعداء حينما أحس بأنَّه انتهى منه ومن دهائه وغروره، فأذعن واستكان.. وانتصب على الأبواب يحرسها مُنكسِر النفس.. ضاغن الصدر.

لم يُشفق عليه أحدٌ.. ولم يرأف لحاله غير صاحبه القديم (طرسوس المجوسي).. الذي أَقْبَلَ عليه يواسيه هاتفاً بسذاجة: "هَوِّنْ عليك.. يا فرتون! واحمد الله؛ فها أنت ذا قد عُدتَ رفيقي وصديقي من جديد!!"، رمقه فرتون بامتعاضٍ وتَحَسُّرٍ.. ولم يجبه.

ذات مساء.. بعد أن فرغا من نَوْبة حراستهما.. اجتمعا يتسامران معاً، وأحب طرسوس أن يبوح لصاحبه بذنبٍ أذنبه.. يؤرقه ولا يدري كيف يكفِّر عنه؛ فتساءل فرتون بلامبالاة: "وما ذاك؟!!".

- لقد تقاعستُ عن أداء مهمةٍ وَكَلها إليَّ الحاجبُ!!
- هذا.. هو إثمك العظيم؟؟! (هتف فرتون ساخراً)
- إنَّك لا تُقدِّر.. كم يؤرقني هذا الذنب!! (جأر طرسوس بانكسارٍ وتأسف)
- إذاً.. فضفض أمامي.. عسى أنْ يُنفِّس عنك! ما كانت تلك المهمة؟؟ (هتف فرتون بعدم اكتراث)؛ فانبعث طرسوس يهذر:

- منذ أيام -قبل أن يعفو الخليفة عن البربر الملاعين- كُلِّفتُ أنْ أُفتِّش عنهم في الربض الشرقي، وحين توجَّهتُ بجنودي إلى دار (حمدون بن هشام).. أساء لقائي واعترضنا.. وتَأبَّى علينا أنْ نُفتِّش داره؛ فرَقَقْتُ له.. ونكصتُ عن أداء مهمتي.. ورحلتُ عنه.. ولم أُفتِّش بيته!
- أيها الرقيع[1]!! هل هذه هي المهمة التي يؤرقك تقاعسك عنها؟!! لعمري.. إنَّك مُغَفَّلٌ -يا طرسوس- إذ سمحتَ لأولئك اللئام أن يستعبدوك هكذا!
- تقصد مَن باللئام.. الخليفةَ والحاجب؟؟!
- وهل غيرهما؟؟! وإنْ شئتَ.. فاضْمُمْ إليهما: ذاك الحَرَّار: (صاعد)!!
- وَيْحك.. مِن غَوِيٍّ أثيم! كيف تسب الخليفة (المهدي).. وهو وليُّ نعمتك؟!!
- بل.. أنا.. وليُّ نعمته! أنا وأنت وحمدون.. وكل الثوار؛ نحن الذين رفعناه على أكتافنا حتى صار الخليفةَ، ومن بين يديه.. أصبح ذاك الطاووس الحقود حاجباً!!
- أيا فرتون.. امسك عليك لسانك؛ فإنَّ مقتل الرجل بين فكيه!!
- أنا لستُ أخشاهم، ولن استسلم لأنْ أصير كلباً طائعاً لهم.. مثلك!
- تعلم أنِّي لا أخاف أحدا.. وأنِّي لستُ كلباً لأحد! ولكنَّك أنت الذي تحقد عليهم لأنَّهم عاقبوك بجريرتك!! (صاح طرسوس بنخوةٍ وعزة نفس)
- جريرتي!!؟ (جأر فرتون بسخرية)، وارتشف رشفتين من كأسه.. ثم أردف هاتفاً بمرارة: "أنت أعلم الناس بما أصابني من جور وشظَف في خدمة (ابن الرسان)؛ فهل ترى أنِّي مذنبٌ.. إذ استنقذتُ منه بعض حقوقي المسلوبة؟!!
- عارٌ عليك.. يا فرتون.. أنْ تتنكَّب عن الطريق.. وتقلِب الباطل حقاً!
- بل.. عارٌ عليك أنت.. أيها العُتُل! أما ترى ما نحن فيه.. وهم فيه؟! ألا ترى أنَّ ذلك الصعلوك صار خليفة الأندلس بفضلي –أنا وأنت-، ألا ترى أنَّ ذاك البليد الشحيح صار الحاجب الأعلى لأننا ضحينا بأرواحنا وقاتلنا عنهما يوم الثورة؟!! ألا تراهما يستحوذان على كل نفيس، ويستأثرون بكل نعمةٍ من دوننا؟!

---

[1] : الرقيع: الأحمق السمج.

- أنت مخطئ.. يا صاحبي! فإنِّي قد رأيتُ المهدي ينفق ماله لله؛ رأيتُه يُخرِج الصدقات سراً! لكنَّك قلتَ ما قلتَ.. لأنَّك لم ترَ ما رأيتُ ولم تعلم ما علمتُ!
- ماذا رأيتَ؟ وماذا علمتَ.. أيها الخبير؟!! (تساءل بتهكم)
- رأيتُ التابوتَ والاثنين.. يخرجان من قصر الخليفة خُفية.. وقد شُحِنا بالصدقات لتوزع سراً على الفقراء والمحتاجين من أهل قرطبة، ورأيتُ صاعد الحَرَّار –الذي تذمه- يحملها على كتفه.. ليوزعها بنفسه سراً!
- صاعد؟!! ذاك الأفَّاك الأثيم.. الذي استغل جهل عبد الجبار وشهوته للانتقام.. فسلَّط لصوصه وهجَّاميه.. كي ينهبوا بيوت البربر وأموالهم لمصلحته الخاصة.. حتى امتلأت خزائنُه سحتاً وحراماً!؟؟
- بما تهذي.. يا رجل؟!! إنَّ هذا لإفتراءٌ وإفكٌ مبين! لقد رأيتُ صاعد بعيني يحمل صندوق الصدقات الثقيل الضخم على كتفه، ولقد حملتُه معه.. وكان معنا جؤذر.. والحسن بن حي الفقيه، فلا يَجْرِمَنَّك شقاقُ قومٍ على أنْ تبهتهم!!
- ما ذاك الهراء.. يا طرسوس؟! المهدي يتصدق سراً.. وصاعد الحرَّار هو الذي يحمل الصدقة خُفية؛ كيف أُصدق هذا؟! (تساءل باندهاش)
- نعم! تالله.. ما أكذبك! ولقد كان ذلك قبيل رمضان.. ليلة مات المؤيد!
- تقصد: (ليلة وداع الخمر)؟؟! فلتقص عليَّ –إذاً- ما حدث بالضبط!

بدأ طرسوس –بسذاجة- يسرد لصاحبه ما جرى له –تلك الليلة- مع هؤلاء الثلاثة وحمله معهم للتابوتين إلى أنْ خرجوا بهما خلسة إلى خارج القصر ليوزع صاعد ما بهما من صدقات؛ غدا يقص.. وعينا فرتون تزدادان بريقاً وتتسعان اندهاشاً وارتياباً، وقد قدَّر أنَّ في الحكاية شأناً أعظم مما يعتقده المغفَّلُ.. (طرسوس).

****

-المشهد الثامن بعد المئة-

بعد أيام.. رجعت رسلُ المهدي الذين أرسلهم خلف البربر الفارين؛ فأخبروه بامتناعهم عن إجابتهم، وكان بين أولئك الرسل تاجرٌ بربري –يدعى عبَّاس البرزالي- تَتبَّع الفارين إلى مشارف قلعة رباح[1] محاولاً أن يقنعهم بالعودة إلى قرطبة كأنَّ خَطْباً لم يقع؛ بيد أنَّهم أَصَرُّوا على مفارقة قرطبة وأهلها.. وأجابوه بنفورٍ قائلين: "ليس إلى رجوعنا من سبيل؛ لأنَّه إنْ أمَّنَنا لم تُؤمِّنَا رعيَّتُه، وإنْ أمَّنْتنا عامتُه لم يُؤمِّنا جندُه!".

فلما استيأس هذا التاجر منهم؛ تَحَوَّل عنهم، غير أنَّه تلكأ عن العودة إلى قرطبة.. وجعل يَحُوم حولهم خلسة ليتسمَّع أخبارهم؛ فعلم أنَّهم بايعوا أحدَ المروانيين بالخلافة.. ولقبوه (المستعين بالله)، وأنَّه كاتب أهلَ قلعة رباح يدعوهم إلى طاعته وخَلْعِ المهدي.. لكنَّهم أبَوْا عليه ونفروا منه!

فخَفَّ يحثُّ الخطى قافلاً إلى قصر قرطبة ليُخبر الخليفةَ المهدي بما علم؛ فدخل إلى إيوان الخليفة فصادف بين يديه كتاباً مُرسَلاً من قلعة رباح يُحدِّث بذات النبأ.. ويُخبِر بأنَّ المستعين ومعه جنوده البربر قد تَحَوَّلوا إلى وادي الحجارة[2]؛ فتأكدت الأخبار لدى المهدي.. وأَيْقَنَ أنَّ فتنة البربر لم تنتهي؛ بل بدأت!!

استدعى وزراءه ومستشاريه ليتأهب للفتنة القادمة، وبعد التشاور معهم استقر رأيه على استئصال شأفة أولئك المتمردين.. ووأد فتنتهم –هم وذاك المرواني الذي بايعوه- قبل أنْ يستفحل أمرهم، فأمر صاعدَ بتجهيز فرقةٍ ممَن معه من الجنود الصقالبة.. وإرسالهم –دون إبطاء- إلى واضح الصقلبي: (أمير الثغر الأوسط)

---

[1] : مدينة قريبة من الحدود الشمالية.. تقع غرب طليطلة، بها قلعة حصينة ولها عدة قرى ونواحي.

[2] : وهي مدينة حصينة حسنة الأرزاق، تقع إلى الشمال الشرقي من قرطبة وبينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلاً. وبينها وبين مدينة سالم خمسون ميلاً.

ليدعموه في مواجهة هؤلاء المتمردين، وأعطاه مالاً جزيلاً لتتجهَّز به تلك الفرقة.. ومالاً آخر ليمنحوه إلى (واضح) ليتقوى به على أولئك الأعداء.

هرع صاعد إلى الاستجابة لأمر خليفته.. وثابر واجتهد اجتهاداً حسناً.. طامعاً في جوائز الخليفة السخية، وكلَّف (بليقَ الصقلبي) بقيادة تلك الفرقة.. لأنَّه محل ثقته.. ولأنَّه كان أحد غلمان الأمير (واضح الصقلبي).

قبيل انطلاق حملة بليق إلى الثغور.. دخل صاعد إلى مجلس الحاجب عبد الجبار، وانفرد به لمطالبته بالمكافأة التي وعد بها الرجالَ الذين قَطَّعوا رؤوساً بربرية، يتنصل عبدُ الجبار من سداد ثمن تلك الرؤوس المقطوعة.. ويتهرَّب من صاعد صائحاً:

– تلك مكافأةٌ قد وعد بها المهدي؛ فليؤديها لكم من خزانة الدولة.. أو ماله الخاص!!
– قد علمتَ.. يا سيدي الحاجب.. أنِّي حينما سألتُ الخليفةَ تلك الأموال.. قال لي أنَّه ما رصد بنفسه مكافأةً على قطع رؤوس البربر؛ وإنَّما أنت الذي فعلتَ هذا باسمه وهو لم يعترض مراعاةً لرغبتك في الثأر لأخيك، لذا فقد رأى هو أنَّ أموال تلك المكافآت دينٌ عليك أنت لنا.. وليست عليه أو على خزينة الدولة!
– اخسأ.. يا خبيث! أنا أدين لك ولرجالك؟!! يمين الله.. لا أدفع لكم درهماً واحداً! هل تظن أني غافلٌ عما صنعتَ.. أنت ورجالك؟؟! أ تظن أنني أجهل أنَّكم كنتم تستغلون فورةَ ثأرنا لتنتهبوا بيوتهم وأموالهم؟! إنْ شئتَ: حاسبتُك ورجالَك على ما نهبتموه؛ فأسترده منكم.. ثم أُعطيكم ما وعدتُكم!!
– هل هذه هي نهاية القول عندك.. أيها الحاجب؟؟!
– أجل! لا قول لك عندي غير هذا!!

أطرق صاعدُ.. فيما يُوسوس له شيطانُه: (ليتي أغرس خنجراً في أحشاء هذاك البخيل الذي لا تُنَدِّي إحدى يديه الأخرى.. فأستخرج تلك المضغة المتعفنة النابضة بين ضلوعه.. فألُوكها بأسناني!!)، بيد أنَّه اجتهد في كظم غيظه، وانصرف عنه.. إلى حين!

****

-المشهد التاسع بعد المئة-

بعد تفكيرٍ مُتَّسِقٍ مع الواقع.. تَيَقَّنَ ابنُ الرسان أنَّه لن يستعيد -من ممتلكاته التي أجاز الخليفةُ ردَّها إليه- سِوَى وكر الخمر الذي استرجعه من فرتون؛ وذلك لأنَّ الحاجب (عبد الجبار) قد وضع يده على بقية الممتلكات، فطارحته نفسه الحديث بتحسُّرٍ: (وَاهاً على زمانك.. يا شنجول!! أشهد أنَّك كنتَ السخي الكريم! أما عبد الجبار؛ أفٍّ له.. من شحيحٍ جَشِعٍ!!)، غير أنَّه نُكِس على رأسه.. فأجابها: (كفى بخروجي من السجن بعد أنْ كدتُ أهلك فيه!! ولا غَضاضة في أن أبدأ من جديد!)، (لا جرم أنَّ عبد الجبار يرتجي مني شيئاً خطيراً؛ وإلا.. فلِمَ سَعى لإخراجي من السجن بعد أنْ نسيني الناس؟!)، (لكن.. ما هذا الذي يرتجيه؟؟! قد تكلَّم -ذات مرة- عن المصاهرة؛ فكيف يُصاهرني وأنا لا أعلم لي أهلاً ولا نساءً؟!!)، (اصبر يا ابن الرسان! ستكشف لك الأيامُ الأسرارَ عن قريب؛ فلا تُجشِّم روحك عناء التنقِّيب عنها!)، (وما الذي يضرك؟!! وقد أُخرِجتَ من السجن.. واستعدتَ بعض مالك.. وأصبحتَ ساقي الخليفة!).

ذات يومٍ.. إِخْتَلَى به عبدُ الجبار.. وخافت في أذنه قائلاً:

- سأردُّ لك دارك التي في جوف البلد؛ فما قولك؟!
- أقول: جُزيتَ عني خير جزاءٍ.. يا سيدي! لقد صِرتُ صنيعةَ فضلك ومعروفك!!
- ها أنا ذا.. قد أخرجتُك من السجن واسترجعتُ لك مالك ودارك.. وجعلتُك ساقي الخليفة ونديمه؛ فكيف ستُجازي معروفي؟؟
- سأكون خادمك المطيع بقية عمري.. يا سيادة الحاجب!
- بل أريد لك خيراً من هذا؛ أريدك أنْ تكون صهري!
- هذاك شرفٌ عظيمٌ لا أستحقه.. يا مولاي!! ومع هذا.. فإنِّي –وأيم الله- لا أعلم لي أُمّاً ولا بنتاً حَيّة تليق زوجةً لجَنَاب سيادة الحاجب!!؟

- بل لك ابنةٌ.. غادة حسناء! وإنِّي أطلب منك أن تُزوِّجنيها؛ فما قولك؟؟
- مرحى.. مرحى! لكن.. مَن هي.. يا سيدي! لَعَمْرُك.. لا أتذكرها!!
- إنَّها ربيبتك (سلوان).. أيها الرجل! هل نسيتَها.. وليس لها وَلِيٌّ سواك؟؟!
- سلوان بنت عمر الاشبيلي!!؟ كيف أنساها؟؟! لكن...
- نعلم أنَّها ضاعت منك، وأنَّك لا تعرف أين هي!! لكن.. اطمئن؛ فقد بحثنا لك عنها.. ووجدناه بخير، وقد آن الأوان أنْ يجتمع الشتيتان!!
- حباً وكرامة! أوصني بما عليَّ فعله –يا سيدي- وستجدني سامعاً مُطيعاً!
- امضِ إلى القاضي والتمس منه استرجاع ربيبتك، ثم زوِّجنيها بعد أن ترجع إليك!
- على الرحب.. يا سيادة الحاجب! تالله.. أُهديك إيَّاها أَمَةً.. ملك يمنيك!!
- مَهٍ.. يا هذا! إنَّما أريدها زوجتي.. وربة داري!!
- لك ما تشاء.. يا سيدنا! غير أنِّي لا أعرف مكانها.. إلى الحين!
- سأدلُّك عليها!!

****

-المشهد العاشر بعد المئة-

ذات أصيل[1].. خرجت أمُ هشام إلى السوق وبصحبتها حمدون وأم سعدون.. تاركةً أم عبد الواحد راقدةً –كدَأْبِها المُسْتَحْدَث مذ رحل أبناؤها عن قرطبة رحيلاً ليس كارتحالاتهم السابقة- كأنَّما تهرب برُقادها من جزعها عليهم.. وفزعها على مستقبلهم المجهول!

في ذاك الأصيل.. جلست كنتُها وسلوانُ تتجاذبان الحديث؛ فقد تآنستا سريعاً لتقاربهما في السن ولتوافقهما في الرَزَانَة وهدوء الطَبْع، بادرتها سلوانُ سائلةً بمداعبة:

- ما بال اسمك.. يا توسمان؟ هل له معنى في كلام البربر؟؟!

[1]: وقت اصفرار الشمس قبل غروبها.

فابتسمت توسمانُ ابتسامةً حلوة.. وأجابتها بإيناسٍ:

- نعم.. بكل تأكيد! هو اسمٌ أنثوي بربري أصيل.. ومعناه: زهرة الياسمين!
- ما شاء الله! لم أتوقع أن يكون هذا هو معناه!! (هتفت باستحسان)
- فما قولكِ.. لو علمتي معنى اسم أم عبد الواحد؟!!
- أم عبد الواحد؟! هل تُصدِّقِي أني -إلى الآن- لا أعرف ما اسمها؟!!
- ومثلكِ كثيرٌ من الناس.. لا يعرفون غير كُنيتها؛ حتى أنا.. إلى عهدٍ قريب!!
- فما اسمها إذاً؟ وما معناه؟؟
- اسمها: تزيري!! اسمٌ غريب؛ أليس كذلك؟؟!
- تزيري؟!! غريبٌ حقاً! لكن هل له معنى عند البربر؟؟!
- نعم.. ومعناه رائع: هو شكل القمر وضوؤه.. حينما يكتمل ويكون بدراً!
- وَي.. وَي! أشهد أنَّها أسماءٌ رائعةٌ حقاً! وولدك بما ستُنادونه إنْ شاء الله؟؟
- ادعي لي –يا أختاه- أنْ يخرج للدنيا سالماً صحيحاً.. وأنْ يجمعه اللهُ بأبيه! (جأرت بنبرة تمني).. ثم زفرت زفرة توجعٍ لاذعة؛ فاحتضنتها سلوان وهتفت تُبشِّرها:
- اطمئني! لن يخيِّب اللهُ رجاءك؛ فهو الكريم الودود الذي يجيب المضطر، وستنفرج الكربة، وسيعود زوجك وعشيرتك –إنْ شاء الله- إلينا آمنين، وستربيان أولادكما حتى يكبروا.. وستهرمان معاً في فراشٍ واحد!
- اسأل الله أن يستجيب لكِ.. يا سلوان!
- اللهم آمين! لم تخبريني: بِمَ ستنادون المولود؟؟
- أراد زوجي أنْ تكون بنتاً ويسميها: (تزيري) مثل اسم أمه، في حين أنَّ أمه تدعو الله أن يكون ذكراً.. وتسميه: (عبد الواحد).. ليصير فارساً مغواراً مثل عمه الأكبر!
- سبحان من يهب الإناث والذكور! هذا أمرٌ مُقدَّرٌ في كتاب الله!! لكن أنتِ.. ماذا ترغبين؟؟! (تساءلت سلوان بنبرة ودٍ عطوفة)؛ فجأرت بصوتٍ يتهدَّجه الانكسار:
- أشفق عليه.. ألا أملك إلا أنْ أُسميه: صَمْصامة (اسم أبيه)!!

رقَّت لها سلوان وأشفقت عليها؛ فقد فهمت أنَّها تخاف أنْ يُسجن أبوه أو يُقتل دون أن يراه فيسمّونه باسم أبيه فلا ينطمس ذكره بين الناس؛ فكبحت دمعةً شفيقةً أشفت أن تنفلت من عينها.. وأكرهت شفتيها على رسم ابتسامةِ تفاؤلٍ مفتعلة.. وهتفت: "تفاءلي بالخير.. يا توسمان! أحسِني الظن بربك.. وسيردُّ إليك زوجك سالماً صالحاً!".

- يمين الله.. ما أريد غير هذا.. يا سلوان! أريد ألا يأتي ولدي إلى الدنيا يتيماً!!

قطع حديثهما صوتُ قَرْعٍ على الباب؛ فوقفت سلوان تنظر الطارقَ: فلَقِيَتْ أمَ هشام وصحبتها قد حضروا من السوق، سلَّمت عليهما مُتهلِّلة مستبشرة؛ بينما أم سعدون تهدج بما تحمله فوق رأسها من مُشتريات، وضعتها بين أيديهنَّ وأطلقت العنان للسانها ليصدح مُزَغْرِداً.. فيما حيَّاهنَّ حمدون بحِشْمةٍ وتَأدُّبٍ.. وعاود الخروج من الدار.

نهضت أمُ عبد الواحد من فراشها منزعجة.. وأقبلت على أم سعدون تُعاتبها صائحة:

- ما خطبك يا امرأة؟!! تزغردين.. ونحن فيما نحن فيه من كرب؟!!
- كربٌ مفروجٌ.. بإذن الله!! (جأرت أم هشام.. وأَمَّنَ على دعائها النساءُ)، ثم هتفت أم سعدون تُجيب المرأةَ البربرية قائلة:
- الحمد لله.. اشترينا حاجيّات المخاض والمولود، وأعلمنا القَابِلَة[1]، وما بقي إلا أنْ تتشجَّع توسمان.. وتضع مولودَها بالسلامة!
- أجهدتِ نفسك وتكلَّفتِ الكثيرَ من أجلنا.. يا فاطمة! جزاكِ الله عنا خيراً!! (جأرت أم عبد الواحد بامتنانٍ)؛ فابتسمت لها أم هشام.. وهتفت بمودة:
- ما تكلفتُ شيئاً.. يا امرأة! أ وليست توسمان ابنتي؟؟ هلمي.. أُنظري في تلك الأغراض؛ أخشى أن يكون شيءٌ منسيا!!

طفقت أم سعدون تخرج الحاجيّات من سَفْطها وتعرضها على أم عبد الواحد التي طفقت تُعاينها بعنايةٍ وامتنانٍ، طفر الدمعُ من عينها وهي تلتقط أم هشام في أحضانها

[1] : المرأةُ التي تساعد الوالدة وتتلقَّى الولد عند الولادة.

..وتُثني عليها هاتفةً بصوتٍ مرتعش:

- أقسم بالله.. أنَّك خيرُ امرأةٍ في المروانيين، وبيتك خير بيت يُفزع إليه في قرطبة! أغناكم الله.. وكفاكم الشرور والبوائق!
- إيه.. يا ست أم عبد الواحد! كل هذا الثناء لأجل تلك الحاجيات اليسيرة؟! (صدحت أم سعدون تمازحها)؛ فالتفتت إليها.. وغمغمت بانكسار ومرارة:
- يشهد الله.. أنَّا قد جهَّزنا مثلها في دارنا؛ لكن.. أين هي دارنا الآن!!؟
- قبَّح الله من نهب الدور.. وطرد منها أصحابها!! (جأرت أم سعدون بحُرْقة).. حالما ربتت أمُ هشام على كتف أختها البربرية قائلةً لها بمواساة:
- أ وليست داري هي دارك.. يا أم عبد الواحد؟!! أ ولسنا أخوة متحابين؟!!
- إي والله.. إنِّكِ لنِعْم الأخت!

****

-المشهد الحادي عشر بعد المئة-

رفض أهلُ قلعة رباح استقبال اللاجئين البربر؛ فتحوَّلوا عنها إلى وادي الحجارة.. فامتنع أهلُها عليهم بأمرٍ من أمير الثغر (واضح الصقلبي)، فتحوَّلوا عنهم.. واتخذوا لأنفسهم معسكراً مؤقَّتاً بالقرب من وادي الحجارة.. في الطريق بينها وبين مدينة سالم (حيث يتواجد الأمير واضح)، تشاور زعيم البربر (زاوي بن زيري) مع أعوانه.. ثم قرر إرسال رسولٍ إلى (واضح) للتفاوض معه؛ فأرسل إليه (عبد الواحد بن بلقين).

بعد أيام.. رجع عبد الواحد إلى شيخه.. الذي كان يترقَّبه والجمر يَتَّقد في صدره قلقاً، سلَّم على المجتمعين في خباء الشيخ.. وقبَّل يده بتوقير، فبدهه الشيخُ سائلاً بشغف:

- ماذا وراءك.. يا عبد الواحد؟؟!

- أشهدُ –يا شيخي- أنَّ واضحاً هذا.. رجلٌ نَذْلٌ خبيث!! لعمرك.. قد أساء استقبالي –رغم ما كان بيننا من صُحْبَةٍ سالفةٍ-، وأمر رجاله أن يحبسوني ويجوِّعوني، ثم أحضرني بين يديه؛ فأرغى وأزبد[1].. وصاح: (خالفتم الخليفةَ في قرطبة، ثم جئتم إلينا تقولون: لاجئين مظلومين!؟ هل تظنون أنّي سوف أُجيركم من الخليفة؟!! وأيم الله.. لأردُّكم إليه مصفدين في الأغلال!!)؛ فقلتُ: هل لك في أمرٍ يكون فيه صلاح الناس؟! صلحاً.. تعقده بيننا وبين خليفتكم (المهدي) على أن يكون (سليمان المستعين) وليَّ عهده عوضاً عن ابن عمه!!؟)، فأجابني موبخاً ومهدداً: (أنا أعقد بينكم وبين المهدي صلحاً؟! تالله.. لإنْ صالحكم؛ لحاربتُكم.. وحاربتُه!!)، ثم طردني صارخاً: (لإنْ رأيتُك –مرة أخرى- في حِمَى مُلكي؛ لأقتلنَّك!!)، وسمعتُه يأمر مناديه أن ينادي في سائر الثغور: (مَن حمل شيئاً من الطعام إلى محَلِّة البربر فقد حلَّ ماله ودمه!).
- وغدٌ.. خبيث!! (صاح حباسة بن ماكسن وهو يبصق على الأرض تعبيراً عن احتقاره لواضح الصقلبي)، حالما تنهَّد حبوس أخوه.. قبل أنْ يهتف بامتعاض:
- قد أمضى تهديده؛ وامتنع أهلُ وادي الحجارة عن إمدادنا بالطعام والميرة منذ أيام بأزٍّ[2] منه، ولو ظل الموقف كذلك.. فسنأكل حشيشةَ الأرض!!
- تالله.. قد أكلناها! لا محيص من قتال ذاك الصقلبي المتعجرف.. وتأديبه!! (صاح حباسة)؛ حينما التفت حبوس إلى عمه.. وأردف سائلاً:
- ماذا ترى –يا شيخنا- فيما نحن فيه؟؟!

بينما العمُ مطرقٌ.. إذ استأذن بهلول الدمري ودخل الخباء.. ثم هتف مستبشراً:

- قد لحق بنا بعض إخواننا من بربر مدينة سالم؛ كان واضح قد حبسهم عنا!!
- أهلاً ومرحباً بهم! جئني بكبرائهم.. أتحاور معهم! (هتف زاوي مُرحِباً مُستبشِراً)

---

[1] : معناها: ضج غضباً وتوعد وتهدد.

[2] : أي: بإغراء منه وتهيج.

لبث القومُ يتحادثون مع (زاوي بن زيري) حتى وَلّى أغلب الليل.. وقد أعلمه البربر المفارقون لواضح بأنَّ المدد قد جاءه من قرطبة وأنَّه يستعد لمهاجمة مَحلّتهم هذه طمعاً في القضاء عليهم.. وبأنَّه أقسم أنْ يُعيدهم إلى قرطبة مُقَرَّنِين في الأصفاد؛ فأجابهم زاوي بحميّة وحماس: "تَبّاً له!! وخاب أمله!"، ثم انصرفوا عنه إلى أخبيتهم.. وتركوه يُقلِّب المسألة في رأسه ريثما يصل إلى قراره المناسب.

انبلج الفجر.. فاستدعى زاوي كبراء رجاله.. ثم هتف قائلاً:

- قد علمتم أننا لم نبغ الفساد في الأرض.. ولم نسع إلى مفارقة الجماعة.. ولم نتمرَّد على الخلافة؛ وإنَّما دُفِعنا إلى ذلك دفعاً.. لا لذنبٍ ولا لمَثْلبة[1] عدا أنّنا بربر! وإنّي – قبل أنْ أُعلمكم بما أزمعتُ عليه- سائلُكم؛ فأجِبوني بصدقٍ: هل تتخَلَّون عن عصبيتكم.. أم تتمسَّكون بها؟؟!

فصاح حباسة وبهلول صيحةً واحدة قائلين بنخوةٍ: "المَنِيَّة.. لا الدَّنيَّة!"، وهتف الحاضرون كافّتهم صائحين: "بل.. دونها السيف والدم!"، فهتف زاوي مُتهلِّلاً: "هذا هو ظني بكم.. أيها الشرفاء!"، فطفقوا يهيجون ويموجون بحميّة وحماس؛ إلى أنْ أسكتهم بإشارةٍ من يده.. وصاح:

- إذاً.. لا أرى رداً -على هؤلاء الذين منعونا القُوتَ رغبةً في هلاكنا- غير انتزاع ذالكم القوت بالقوة، ولا تثريب علينا؛ فإنَّ البادي أظلم! لذا فإنّي آمركم بمهاجمة (وادي الحجارة).. واستلاب الطعام والميرة منها؛ هيا.. فاستعدوا لها أحسن استعداد!!

****

---

[1] : مثلبة :عيب أو نقيصة.

-المشهد الثاني عشر بعد المئة-

في قصر قرطبة.. تواترت الأخبار على المهدي تقول: {امتنع أهلُ الثغور على المتمردين البربر، وأبى الأميرُ (واضح الصقلبي) إلا أنْ يُضيِّق عليهم ويُسكِنهم العراء ويحرمهم الطعام والميرة.. حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت؛ فما كان منهم إلا أنْ اعتدوا على (وادي الحجارة).. وانتهبوا أقواتها}، ثم جاء كتابٌ من الأمير واضح يلتمس فيه من الخليفةِ الإذنَ بقتالهم ويطلب منه المدد.. حتى يردهم عن الثغر مدحورين.. ويَسُوقهم إلى قرطبة بالأغلال مكبَّلين.

ابتهج الخليفة (المهدي) بتلك الأخبار السعيدة وتفاءل بها.. وكذلك حاجبه (عبد الجبار)، بيد أنَّ الوزير (صاعد بن عبد الوهاب) كان له رأيٌ آخر؛ فسأله المهدي:

- لماذا تُقلقك تلك الأخبار.. يا صاعد؟ ماذا ترى فيها من سوء؟؟!
- سيدي أمير المؤمنين! إنَّ المحارب إذا أيقن بالهلكة وضياع كل شيء؛ قاتل قتال مَن لا يهاب الموت؛ قتال مَن يطلب حياته بموت خصمه؛ لذا فإنِّي أرى أنَّهم اليوم أخطر علينا من ذي قبل!!؟
- أنت قلوقٌ متشائمٌ.. يا صاعد! (صاح عبد الجبار بشيءٍ من الاستهزاء).. ثم أردف بلامبالاة: "ها نحن أولاء قد أرسلنا حملة (بليق) إلى (واضح)؛ وما أرى غير أنَّها بعض أيام.. ثم تأتينا رؤوسُ أولئك الأرذال محمولةً على شَفَراتِ السيوف!".

رمقه صاعد باشمئزاز.. ثم هتف ضاغطاً على حروف كلماته تَغيُّظاً:

- لا تستخف بهم.. يا سيادة الحاجب؛ فإنَّهم أهلُ حربٍ وبأس، وقد أصبحوا جيشاً؛ فينبغي ألا نستهين بهم!!
- أصبتَ.. يا صاعد! يجب ألا نستهين بعدونا مهما كانت ثقتنا بأنفسنا؛ لذا فإنِّي آمركم أن تُجهِّزوا فرقةً أخرى وتُرسلوها لتدعيم (واضح).. بأسرع وقت! (صاح المهدي بحزم)، فأجابه صاعد باكتراث ونشاط:

- سمعاً وطاعةً.. يا سيدنا! سأُجهز فرقةً قوية.. وسأجعل قائدها (قيصر الصقلبي)!
- أحسنتَ الاختيار! (هتف الخليفة باستبشار).. بينما عبد الجبار يعض أنامل الغيظ من استسلام الخليفة لصاعد الذي رمقه باستخفاف فيما يخاطب الخليفةَ هامساً بتوقيرٍ وتزلف:
- أيَّا أمير المؤمنين! إنني أخشى أنْ يخذلنا أهلُ قرطبة في مواجهتنا لهؤلاء الملاعين، لذا -فإنْ يأذن لي سيدنا- أود أنْ أصارحه بخطةٍ تجول في رأسي؛ لو نجحت.. سيكون لها أبلغ الأثر في تحفيز الناس للاصطفاف معنا في مواجهتهم!
- قل.. يا صاعد.. هات ما عندك!! (هتف المهدي بتحضيض)
- نُذيع على الناس كتاباً نُشنّع فيه على البربر بأنَّهم دخلوا (وادي الحجارة) عَنْوة.. واستباحوا أهلها.. وفعلوا القبائح فيهم.. وصنعوا.. وصنعوا؛ فنوغر عليهم الصدور.. ونُهيّج عليهم سخط الناس، ثم نفتح باب التطوُّع لحربهم؛ فيتوافد علينا المتطوِّعة، فيكون ذلك أوثق في حربنا ضدهم!
- ويحك.. أيها الداهية! إنَّها فكرةٌ شيطانية! فلنصنع كما أشرتَ؛ أريد أنْ تشتعل قلوبُ أهل قرطبة حقداً.. وناراً أحرق بها أولئك الكلاب الأوْباش!!

****

-المشهد الثالث عشر بعد المئة-

عاد البريدُ الزاجل –من قرطبة- إلى (واضح الصقلبي) يُبشِّره بإجابة طلبه وخروج الأمداد إليه من قرطبة أرسالاً، ويأمره بمهاجمة المتمردين البربر وعدم الهَوادة في حربهم؛ فشرع في الاستعداد لملاقاتهم، اجتمع معه (بليقُ).. فأشار عليه بخطةٍ تُنهي الصراعَ مبكراً.. وتُوفِّر عليهم إراقة كثيرٍ من الدماء؛ فتساءل واضحُ: "وما ذاك؟؟!"، تنحنح بليقُ.. ثم أنشأ يخافت بصوتٍ كأنَّه فحيحُ أفعى:

- إنَّ حُجَّة البربر –الحين- تكمن في ذاك المرواني الذي بايعوه بالخلافة؛ فإنْ نحن احتلنا عليه على حين غِرَّة منهم.. وقضينا عليه؛ نكون قد أبطلنا حُجَّتهم وأفقدناهم مشروعية تمردهم، وسيهون –بعدها- أمرُهم علينا وعلى الخليفة!!
- فكرةٌ ذكية رائقة! لكن.. كيف سنصل إليه من بينهم؟!!
- نختر طائفةً من شجعان فرساننا المحاربين، فإذا خرجنا للحرب والتحم الجيشان.. نأمرهم أن يتسللوا إليه من دونهم.. ويقتلوه.. ويُعلنوها بينما القتال دائر بين الصفوف؛ فيُسقط في أيدي البربر.. وتنكسر شوكتهم!
- هل لديك مِن الفوارس.. مَن يستطيع فعلها؟؟!
- نعم!! وقد فعلناها –آنفاً في قرطبة- مع هشام بن سليمان.. الذي تلقَّب بالرشيد!
- إذاً.. دونك ما تريد.. يا بليق!!

التقى الجمعان وحمي الوطيس.. وانشغل كلُ مقاتلٍ بخصمه؛ فانتهز فرسانُ (بليق) الفرصةَ للتسلل إلى خباء سليمان المستعين (خليفة البربر)، غير أنَّ عبد الواحد بن بلقين –ذاك الفارس البربري الأريب الفَطِن- كان قد توقَّع حدوث أمرٍ كهذا؛ فتهيَّأ له.. وأمَّن خليفته، وبادر يتصدى لأولئك الفرسان المتسللين.. ومعه طائفةٌ من صناديد البربر؛ فأردوهم جميعاً. **بيد أنَّ عبد الواحد خسر أخاه (صَمْصامة) قتيلاً!!**

****

-المشهد الرابع عشر بعد المئة-

باتت توسمانُ ثلاث ليالي متواصلات بأيامهن تُنازع أوجاعَ المخاض.. وإلى جوارها سلوان تكاد تذهب نفسها قلقاً ولهفةً عليها، بينما الحماة (تزيري) هادئة البال.. تُسقيها من آنٍ لآخر شيئاً من الأعشاب المغلية لتيسير المخاض، وكلما سألتها أم هشام: "يا أم عبد الواحد.. نُرسل في طلب القابلة؟؟"؛ أجابت باطمئنان: "ليس بعدُ!!"، وما انفكت

تحسب لكنتها مدة الطلق والفترات بين الطلقة والأخرى.. حتى إذا بلغت الأمد المطلوب؛ صاحت في أم سعدون: "الحين.. استدعي القابلة؛ فقد آن الأوان!".

هرولت أمُ سعدون إلى القابلة يصحبها ولدها.. وحمدون الذي تركهم على باب البيت وعاد أدراجه ليؤدي صلاة الفجر في المسجد القريب، ثم رجع ليُشاهد الحماة وجدته وأم سعدون يتوسلنَّ إلى القابلة أنْ تقوم بواجبها.. ويناشدنها أنْ تستكمل عملها في توليد السيدة الشابة؛ فيما تراوغهنَّ بتأفُّف وتعتذر إليهنَّ، سمعها تقول بتلعثم: "ليس المال.. يا سيدتي! إنِّي لا أستطيع أنْ أُولد امرأةً بربرية؛ لو علم الحاجب لشنقني!!"، وسمع جدته تجيبها قائلةً باسترحام واستعطاف: "قد علمتي أنَّ الخليفة قد عفا عن البربر!"؛ لكنَّ المرأة الجامدة مستمرة في التَمنُّع، وصرخات الوالدة تَنْصَبُّ على أسماعهم –من وراء باب مخدعها- مؤلمةً مفزعة، وإلى جوارها تأوهات سلوان المستغيثة تسكب في فؤاده الرهبة والاشفاق؛ فانبرى إلى تلك المرأة القاسية القلب بوجهٍ عابسٍ.. ويدٍ تلوّح بسكينٍ حاد، وباليد الأخرى أمسكها من تلابيب ثيابها، ثم صاح زاجراً: "إلى عملك أيتها المرأة.. وإلا سبقتُ إلى قتلك بهذا السكين.. قبل جلاد الحاجب!". حدَّقت المرأةُ في السكين بإرتعاب، ثم تضرعت قائلةً بشفاه مرتعشة:

- حنانيك.. يا سيدي! لعمرك.. ارحم ضعفي؛ لأجل أطفالي اليتامى!
- إنْ أردتِ الرُّجعى إليهم؛ فأدي أمانتك نحو الوالدة! هيا.. أُدخلي إليها! (صاح بصرامة).. وهو يدفعها –برفق- لتدلف إلى مخدع (توسمان)، والتفت إلى النساء وأردف بنبرةٍ أقل حدة: "هيا.. ادخلنَّ معها.. أيتها السيدات!".

ما انفكت لحظاتُ المخاض تمر عليه بطيئةً مؤلمة، وبين الفينة والفينة تأتيه أنَّات الوالدة –من وراء الباب- لاذعةً فاجعة.. تصحبها دعوات النساء الملهوفات من حولها، ما فتئ يذرع فناء الدار جيئةً وذهاباً.. ومن خلف الباب يسمع الكلمات مبهمة والأحاديث مقتضبة هامسة، وصرخاتٍ مُسترحِمة ودعواتٍ مُتضرِّعة!!

حتى أوشك صبره أن ينفد.. وتسلل اليأسُ من نجاتها إلى قلبه، وصرخ القلقُ في صدره: (متى الفرج.. يا رب؟!!)؛ آنذاك.. أنصتَ فسمع بكاء المولود.. وابتهالات الحمد والثناء على الله، فارتمى –بإعياءٍ- حيث انتهى به المجلس.

مرت لحظاتٌ أخرى مريبة لم تخرج إليه إحداهنَّ لتبشره بالخير؛ وإنَّما لبثْنَّ مُدَّة ثانية –استثقل طولها- داخل مخدع الوالدة حتى أخذته الظنون، لكن بعدها.. خرجت إليه أم سعدون مُزَغْرِدة.. تحمل المولود في أحضانها وتصدح باستبشار وسعادة: "الحمد لله.. تمت على خير.. يا سيدي! ورُزِقنا ولداً ذكراً!"، ثم ناولته إياه برفق هاتفة: "احمله.. يا سيدي.. وأَذِنْ في أُذنيه، أحياني اللهُ حتى أحمل ولدك!"، رفعه إلى فمه وهو يتمتم: "الحمد لله! ما شاء الله.. لا قوة إلا بالله!"، ثم أَسَرَّ بالآذان في أذن الصبي اليمنى.. وبإقامة الصلاة في أُذنه اليسرى، أقبلت إليه القابلةُ تصحبها جدته.. وهنَّأته بابتهاجٍ يشوبه بعض التحرج: "عقبى لك.. يا سيدي!"، فأجابها بامتنان: "جزاك الله خيراً.. يا أختاه!"، ثم منحتها جدته بعض المال قائلة: "أحسن الله إليكِ.. كما أحسنتِ إلى ابنتنا!"، شكرتها.. والتقطت ملحفتها[1] معتزمة المغادرة؛ فاستوقفها حمدون وأعطاها –هو الآخر- شيئاً كثيراً من المال هاتفاً بنبرة اعتذار: "هذا نظير ما روَّعتُكِ؛ فسامحيني!"، أجابته بثناءٍ ودود: "سامحك الله.. يا سيدي!"، ثم ألقت على أهل الدار تحية السلام، والتفتت إليه وهي تغادر وهمست: "اطمئن.. يا سيدي.. سركم محفوظ.. إنْ شاء الله!".

خرجت أم عبد الواحد إلى فناء الدار مع أم هشام وأم سعدون؛ فلقيت حمدون يُهنِّأها متهلل الوجه قائلاً: "بارك الله لكم في الموهوب.. وشكرتم الواهب.. يا خالة!"

- بارك الله عليك.. يا ولدي.. ورزقك مثله.. وأجزل ثوابك! (أجابته أم عبد الواحد)
- رزقكم الله بره.. وبلغ أشده.. وجعله الله من عباده الصالحين! (جأرت أم هشام)،

---

[1] : الملحفة: من أزياء عامة نساء الأندلس، وهي عبارة عن: خمار كبير تحتجب به المرأة حين تخرج من منزلها، عرضها تقريباً ثلاثة أذرع.. وطولها ثمانية أو تسعة أذرع، تلف المرأة جسمها به فوق القميص.

في حين صاحت أم سعدون مبتهلة:

- وردَّ الله أباه وأعمامه إلينا.. آمنين سالمين!!
- اللهم آمين! (ردد الجميع)؛ فأردفت أم سعدون متسائلة ببراءة:
- بما ستنادونه.. يا ست أم عبد الواحد؟؟!
- كنتُ أدعو الله أن يرزقنا ذكراً لأُسميه باسم عمه البكري: (عبد الواحد)؛ لكني الحين أرغب أن أُسميه باسم أبيه: صَمْصامة[1].
- مهما كان اسمه؛ فليبارك الله الاسم وأصحابه! (جأرت أم هشام.. بقلبٍ منقبض)

****

-المشهد الخامس عشر بعد المئة-

انتهت تلك المعركة دون أن تسفر عن نصر أكيد لأحد الطرفين، بيد أنَّ أمير الثغر (واضح الصقلبي) استطاع بحنكته العسكرية أن يُزحزح جيش البربر عن معسكرهم؛ فلم يجدوا ملاذاً حاشا اللجوء إلى حصن صغير مُتطرِّف بالقرب من (نهر هنارس) على الحدود بين طليطلة والممالك الإسبانية، وتحصَّن هو في (مدينة سالم)، ثم حشد جيشاً حاصر به مَحَلَّة البربر.. وضيَّق عليهم حتى منع عنهم المؤن؛ فأصبحوا كمثل الوحوش البَرِّيّة التي حبسها صائدها في قفص!!

دلف حبوس إلى عمه هاتفاً بانزعاجٍ وكدر:

- أيا عماه! لقد مرت أيامٌ عصيبة.. ونحن محاصرون ها هنا.. حتى أكلنا الجِيَف وأكلنا حشيشة الأرض!!؟
- لو تمادى الحال؛ فإنَّا هالكون.. لا محالة!! يجب أنْ نجد مخرجاً!!؟ (جأر حباسة)، فيما أنشأ بهلول يهذر –من الجوع- قائلاً:

---

[1] : اسم عربي معناه: مصمم وماضي في الأمر بعزيمة ثابتة.

- قد قطعوا عنَّا كل سبيلٍ إلى أرض الأندلس، وأغلقوا علينا كل الجهات!!؟ فإنْ لم يقتلونا بسيوفهم؛ فسيقتلنا الجوعُ.. محاصرين في هذا الحصن الكئيب!!
- بقيت جهةٌ واحدة لم يغلقوها علينا! وأحسب أنَّه ليس لنا مخرج غير اللجوء إليها!! (تمتم زعيم البربر بشفاه مرتعشة)؛ فأقبل عليه ثلاثتهم متسائلين باكتراث:
- وما تلك الجهة.. يا شيخنا؟؟!
- القومس[1].. ابن مامة[2]. (هتف شيخ البربر بنبرةٍ يائسة مخنوقة)
- .... وجم القومُ.. وحدَّقوا فيه باندهاش؛ فأردف بمرارة:
- لم يتركوا لنا خياراً؛ لذا.. فإنِّي أرى أن نرسل إلى القومس نلتمس منه أنْ يُجيرنا.. أو يتوسط بالصلح بيننا وبين (واضح)!!
- أشك –يا عماه- أنْ يُقحِم القومس نفسه في مثل هذه المسائل!!؟ (جأر حبوس)؛ فزفر الشيخ زفرة استياءٍ وتبرم.. كأنَّه مضطراً للتصريح قائلاً:
- إنْ رفض السعي في الإصلاح بيننا وبينهم؛ فلنستمد منه المؤنة.. والعون ضدهم؛ ولا سيما أنَّه لم يعد حليفاً لهم!!
- .... وقع قوله على أسماعهم صاعقاً؛ فأمسكوا عن الكلام.. كأنهم لا يصدِّقون ما يسمعون؛ فألفى نفسه مرغماً أن يبرر لهم رأيه.. فهتف مُتحرِّجاً:
- لسنا بالخيار بين موالاة الأصدقاء أم الأعداء؛ بل خيارنا –الحين- إما موالاة الأعداء.. أو الهلاك جوعاً!! وإنَّما الأصدقاءُ هم مَن أجبرونا على ذلك!! وأزعم أنَّه لا ملاذ لنا غير (القومس ابن مامة).. فما قولكم؟؟!
- نحن معك.. يا شيخنا؛ فإنَّ البادي أظلم!!

****

---

[1] : قومس أي: "كونت" ومعناها: رئيس مقاطعة أو دير.

[2] : هو: سانشو بن غرسية أمير قشتالة.

-المشهد السادس عشر بعد المئة-

أمَّا في قرطبة.. فقد اتصل خبر تلك المعركة بالخليفة المهدي، وجاءته البشرى من (واضح) بأنَّ البربر محاصرون في محلتهم.. لا حول لهم ولا قوة؛ فاستبشر وتعجَّل النصر.. وأمر صاعدَ بن عبد الوهاب بافتعال كتابٍ وقراءته على أهل قرطبة؛ يُخبرهم فيه بأنَّ البربر قُتِلوا قتلاً ذريعاً.. وأنَّه يصل من رؤوسهم أكثر من ألف رأسٍ مقطوعة نكالاً لهم بما تمرَّدوا على الخليفة.

آمن أهلُ قرطبة بذاك الكتاب المزعوم وبأخباره المكذوبة؛ كما آمنوا –من قبلُ- أنَّ البربر داهموا (وادي الحجارة) ودخلوها عنوةً ونهبوها.. وفعلوا بأهلها الأفاعيل؛ فلعنوا البربرَ ودعَوْا عليهم.. واستبشروا بنصر المهدي ودعَوْا له بدوامه.

حرص حمدون على أن يُخفى تلك الأخبار الصادمة عن أهل بيته، لكن رغم اجتهاده.. تسربت الأخبار إلى مسامع أم عبد الواحد عبر شقوق الجدران؛ فأنكرتها.. وبرَّأت أبناءها أن يكونوا قد فعلوا في (وادي الحجارة) تلك المنكرات المزعومة، واستهجنت تلك الأوصاف المقيتة التي نعتهم بها أهلُ قرطبة، ثم بكت.. وانتحبت لمَّا نمى إليها ذاك الخبر الأخير: (قُتِل البربرُ قتلاً ذريعاً.. ويصل –قريباً- أكثر من ألف رأسٍ من رؤوسهم جزاءً ونكالاً بما تمرَّدوا على الخليفة!)؛ طفقت تولول وتصك وجهها وتصرخ نادبة:

"لهف نفسي عليكم.. يا أبنائي!! يا لضيعتي من بعدكم.. ويا لضيعة البربر!!".

لم تدرِ أم هشام ماذا تفعل.. ولا كيف تواسي أختها البربرية؛ فبقيَّت صامتةً مكظومة.. آسفةً مفجوعة لما أصاب الأندلس وأهلها من فتنٍ وإحن.. ومثلها سلوان وحمدون!!

****

-المشهد السابع عشر بعد المئة-

بشِقِ الأنفس.. استطاع (حبوس بن ماكسن) و(عبد الواحد بن بلقين) –رسولا شيخ البربر- الهروب من الحصار، وتمكَّنا من التسلل إلى قلعة القومس (ابن مامة) مخاطرين بروحيهما رجاء الاستجارة به من (واضح) وحصاره، سلَّما نفسيهما لجنود القومس.. والتمسا أنْ يلتقيا به لشأنٍ خطير، حُبسا أَمَداً في إحدى حجرات القلعة.. ثم سِيقا إليه.

أخذ يتطلع إليهما ويتفرَّس فيهما.. وهما مُطْرِقين، ثم تساءل:

– أنتما من متمردي البربر.. الذين يطلبهم خليفةُ الأندلس؟؟!

– لسنا متمردين.. يا سيادة الكونت؛ بل مظلومين.. فارين ممَن ظلمنا، وحالنا لا يخفى عليكم، ولقد جئنا نُصالحكم ونستجير بكم؛ وأنت المُجِير الكريم!!

– كيف أُجيركم؟؟ وفي تلكما الحجرة المجاورة ينتظرني رسول (الأمير واضح) ومعه هدايا نفيسة؛ قد جاء يعرض علينا الصلح نظير معاونته في القضاء عليكم!!

– هل ترفض –يا سيادة الكونت- أنْ تُجِير المظلومَ؟؟! وترضى أنْ تُعين الظالمَ على ظلمه؟! لَعَمْرُك.. إنَّا نراك أنبل من ذلك.. وأكرم!!

فضحك القومس وتعالت ضحكاته.. حتى دبدب بقدميه على الأرض من فرط الضحك، ثم هتف هازئاً: "**الآن**.. علمتم: أننا نحن الأنبل والأكرم**!؟**"، ثم التفت إلى معاونيه.. وصاح بصرامة: "أرجؤهم أجمعين.. ريثما نتبصر في أمرهم؛ عسى أنْ ننصر مَن في مصلحتنا نصره!".

بعد إمعان تفكُّرٍ وتَدبُّر.. وبعد شدٍّ وجذب في المجادلة والمشاورة مع رجاله.. استدعى القومسُ رسوليّ البربر وسألهما دون مواربة قائلاً: "قد وعدني رسول (الأمير واضح) أن يُعطيني ما أحب من مدائن الثغر -التي فتحها المنصور في سالف الزمان- إنْ أنا نصرتُه عليكم؛ فهل تعداني أن يمنحني البربر تلك المدائن إنْ أجرتُكم ونصرتُكم؟؟!"،

فأجاباه دون ترددٍ أو تفكُّر قائلين: "نعم! نعدك.. أيها الكونت! ولك علينا عهد الله أنْ نفي لك بذلك!"، فصاح القومس مُتهللاً مُستبشراً: "مرحى.. مرحى!"، ثم ردَّ رسولَ (القائد واضح) دون إجابته بشيء.. بل ورفض هداياه، وعزم على مناصرةِ البربر وفكِ الحصار عنهم، ثم أرسل إليهم ألف عَجَلة تحمل الدقيق والشعير والحبوب وأنواع المآكل والأطعمة.. وألف ثور وخمسة آلاف شاة.. وجميع ما يُصلحهم حتى الفحم والعسل.. والألبسة والدروع وسروج الخيل.. وما دون ذلك حتى الحبال والأوتاد؛ فعاش البربر بتلك المؤن.. وقَوِيت نفوسهم.

ثم سار القومس إليهم بنفسه في جمعٍ كثيفٍ من قواته؛ فاستقبلوه بإحسان ورحَّبوا به.. وشكروه بامتنان على إغاثته لهم، ثم اجتمع رأيه معهم على الخروج إلى (مدينة سالم) -معقل واضح- ومحاصرتها، وبينما حشودهم تستعد لذلك؛ إذ أقبل المدد قادماً إلى (واضح) -من قرطبة- بقيادة الفتى الصقلبي (قيصر)؛ فتشجَّع (واضح) وقويت عزيمته، وصَمَّم على المثابرة في محاربة البربر دون تواني.

قبل الاتجاه صَوْب (مدينة سالم).. أرسل شيخُ البربر إلى واضح يُرغِّب إليه في الصلح كراهيةً في القتال.. ولإقامة الحُجَّة عليه وعلى مَن والاه؛ فأبى (واضح) الصلح.. وامتنع عن إجابتهم إليه إلا أنْ يضعوا سلاحهم.. ويُسلِّموا إليه أنفسهم فيسوقهم إلى الخليفة في قرطبة.. فيحكم فيهم بما يشاء!!

****

-المشهد الثامن عشر بعد المئة-

توطدت الصلة بين المهدي وابن الرسان.. وتعلَّق به كأنَّه أَسَرَ قلبه وعقله، ولم يعد ساقي الخليفة فحسب؛ بل غدا نديمه المفضل، واستطاع بما لديه من إمكانياتٍ شيطانية أنْ يملك زمام شهوات المهدي وأهوائه الماجنة، وبفضله.. -أو قل برَذِيلَته وعبثه- بات الخليفة المزعوم لا يفيق من سُكر.. ولا يتورع عن عربدة؛ حتى ضجَّ منهما

أهلُ القصر ذواتهم.. حاشا الحاجب عبد الجبار الذي سَرَّه تقاربُ صهره المُنتظَر من الخليفة؛ فما برح يُجاريهما في أفعالهما المشينة ويُشاركهما فيها، بيد أنَّ ابن الرسان تلكأ في رفع شكواه عند القاضي –كما اتفق معه- للمطالبة باستعادة الولاية على سلوان؛ مما أثار حفيظة عبد الجبار!

ذات ليلة.. جذبه عبد الجبار جذبةً شديدة وتوعده إنْ لم يمضِ -من فوره- صباح الغد إلى دار القضاء ليرفع شكواه؛ فامتثل لرغبة سيده.. وقصد مُكرَهاً إلى القاضي!!

*****

بينما سلوان جالسة إلى جوار توسمان تُهدهد صَمْصامة الصغير، وعلى خطواتٍ منهما.. قابعةٌ أم عبد الواحد تتحرق كَمْداً وشوقاً إلى صَمْصامة الكبير وأخوته؛ إذ جاءتهن أم هشام فَزِعةً مُضطربة.. تُنادي: "إليَّ.. يا سلوان!!"، هرعت سلوان إلى معلمتها وَجِلةً من اضطرابها.. وهتفت: "لبيك يا أماه! خيراً.. إنْ شاء الله؟!!".

مشت معها إلى القاعة الغربية حيث ينتظرهما حمدون قَلِقاً منزعجاً، وما أن رأى سلوان حتى هبَّ إليها، صاحت جدته بتوتر: "أخبرها أنت.. يا ولدي!"، تساءلت سلوان باندهاش: "ماذا هنالك.. يا حمدون؟!!"، رغم التحرُّج.. أجابها متلعثماً: "أتى بعضُ جنود القاضي يقولون: يجب علينا (أنا وأنتِ) أنْ نمُرَّ -خلال يومين أو ثلاثة- على دار القضاء كي أُسلِّمك –أمام القاضي- إلى أرمل أمك المدعو (ابن الرسان)؛ لأنَّ ذاكِ الأثيم.. يُطالب باستعادة ولايته عليكِ!!".

ارتاعت سلوانُ لسماع النبأ العظيم، وارتجفت قدماها.. فخَرَّت جاثيةً على الأرض، ألجمت المفاجأةُ لسانها، ركعت أم هشام إلى جوارها.. وما فتأت تربت على كتفها.. وهي لا تزال خامدةً ذاهلة، خشيت عليها.. فنادتها بانزعاجٍ وتلهف:

- سلوان!! أجبيني –يا بُنَيّة- هل تستسلمين للذهاب مع هذا الرجل الفاسد؟!!

- كيف عاد ذلكما الشيطان إلى الحياة؟!! ألم نكن قد انتهينا منه؟!! (تساءلت سلوان باختلاج.. وقد جمدت الدموع في عينيها)؛ فأجابها حمدون مُتحسِّراً:
- علمتُ –من طرسوس- أنَّ الحاجب أخرجه من السجن.. وردَّ إليه ماله، والأنكى: أنَّه أصبح ساقي الخليفة.. كما كان على عهد الهالك (شنجول بن أبي عامر).. ولا حول ولا قوة إلا بالله!!
- يا ويلي.. يا ويلي!! (صرخت سلوان.. وشرعت تنتحب وهي تُقلِّب كفيها على مصيرها المجهول).. حالما أمعنت أم هشام في احتضانها.. تحاول تهدئتها.

جاءتهم أمُ عبد الواحد جَزِعةً مُهرولة -ثم لحقت بها توسمان بعد أن نَوَّمت رضيعها في قفصه-؛ جاءت تضرب صدرها مفزوعةً لصراخ سلوان.. وتساءلت: "ماذا حدث؟!! ما بالكِ تبكين.. يا سلوان؟؟!"؛ فأخبرتها أم هشام النبأ.. ورَوَت لها بإيجاز حكاية ابن الرسان مع سلوان وأمها، طفقت المرأة البربرية تضرب كفاً بكفٍ.. وتهتف:

- لا حول ولا قوة إلا بالله! قبَّحه الله.. ولا أرقأ الله دمعته[1].
- هل لهذا الخبيث حقٌ في الولاية عليكِ.. يا سلوان؟؟! (تساءلت توسمان باندهاش)
- يَدَّعي أنه محرمها الوحيد؛ وأنَّه أولى الناس بولايتها!! (أجاب حمدون)
- لا أرى خروجاً من هذا المأزق غير أنْ نُزوِّجها رجلاً ترضاه لنفسها! (هتفت أم عبد الواحد)؛ فرمقتها سلوان بامتعاضٍ دون أن تُعلِّق.. فيما جارت أم هشام بيأس:
- لا يجوز أنْ تزوِّج نفسها.. ووليها حاضر بغير إذنه!! (قالتها)؛ ثم التفتت إلى سلوان وأردفت –كأنَّما تستجلي رأي الفتاة: "نصارح القاضي بأنَّ عم أبيكِ في اشبيلية أولى بكِ من هذا الأفّاك!"؛ بيد أنَّ سلوان هزَّت رأسها رافضةً بإصرار.
- فما الحل إذاً؟؟ هل ترضين أنْ تخضعي لهذا الأثيم.. مرة أخرى؟؟!

---

[1] : دعاء عليه أن يستمر دمعه وحزنه.

حفَّتهم لحظاتٌ حرجة صامتة.. وغدا كل منهم يتفكَّر في مخرج، وبدأت سلوان تستعيد هدوءها ورشدها رُوَيْداً.. ثم تَوَهَّجت في ذِهنها فكرةٌ؛ فانطلقت هاتفةً بنوعٍ من الكياسة:

- كلا! لن استسلم لهذا الأفاك الأثيم، وإنَّما ألتمس منك –يا حمدون- أن تُرتب لقاءً هنا بيني وبينه.. قبل أن أذهب إلى دار القضاء، هل تفعل هذا من أجلي؟؟
- أحاول ذلك من الحين.. إنْ شاء الله! (جأر مُذعِناً لرغبتها.. متحيراً في أمرها).

*****

لم يتوان حمدون في الذهاب إلى ابن الرسان –كما رغبة سلوان- ومساومته لقبول الالتقاء بها في دار جدته قبل أن يتوجَّهوا إلى القاضي.

على تخوُّفٍ وارتياب.. جاءها ابنُ الرسان مُتترِّساً بسلاحه.. مُزمِعاً على ألا يطعم عندها حتى شربة الماء مخافة الاغتيال بالسُّمِّ، أدخله حمدون إلى قاعة الضيف؛ ثم أقبلت إليه.. ومعها أم هشام قلِقةً وجِلة!

بعد برهةٍ مُتجهِمةٍ كتَجهُّمِ السماء قبل هبوب العاصفة.. استأذنت سلوانُ معلمتها أن تتركها مع ظئرها، رمقتها أم هشام باستغرابٍ ذاهل؛ بيد أنها امتثلت لرجائها وغادرت المكان، ثم التفتت إلى حمدون والتمست منه –هو الآخر- أنْ يتركهما وحدهما، نظر إليها بارتياب واستهجان؛ فهتفت بنبرةٍ ساخرة: "لا تخاف عليَّ منه؛ فأنا ربيبته.. وهو محرمٌ لي!"، استجاب لرغبتها.. وانسحب قائلاً: "سأكون وراء الباب.. إنْ أردتِني!".

تركهما منفردين.. وانتظر منتصباً في ردهة الدار قَلِقاً متغيظاً؛ تارةً يضرب كفه بكفه.. وتارةً يضرب الجدار بقبضته، تكاد الحيرة تقتله.. والريبة تعصر فؤاده: (ماذا دهاكِ.. يا سلوان؟!! كيف تُخاطرين بمجابهة هذا الشيطان وحدكِ؟!!).

بعد برهةٍ –حسبها حمدون أمداً طويلاً- خرج (ابن الرسان) كالح الوجه.. مُنكّس الرأس، ألقى على حمدون تحيةً عابرة بعقلٍ شارد، وغادر الدار كأنَّه سحابة صيف

غشيت المكانَ.. ثم انقشعت بسلام، دلفت أم هشام إلى سلوان –وعلى إثرها حمدون-؛ فوجداها جالسةً في ثباتٍ وزهو، نظرت إليهما.. وهتفت بنشوة المنتصر:

"الحمد لله.. كفانا اللهُ شرَ الخبيث!".

****

-المشهد التاسع عشر بعد المئة-

بعد أن غادر مَسْكَن ربيبته.. إنْتَبَذَ –وحيداً- يتبصَّر في شأنها وإياه؛ يعض على أنامل الغيظ: (ليت شعري.. كيف تنقلب الفتاةُ التي كانت يمامةً وديعة إلى.. حيةٍ رقطاء!؟ تهددني بأنَّها ستُعلن انتسابها إلى قاضي اشبيلية، كيف غفلتُ على أنَّ معها دليل ذلك؟! وتتوعدني بأنْ تتهمني عنده بقتل أبيها.. ثم أمها.. طمعاً فيها وانتهاكاً لحرمتها وشرفها!؟)، ثم يتساءل في طويته متحيراً: (هل أُذعن لتهديدها.. وأُعلن التنازل عن الولاية أمام القاضي؟!! لو فعلتُ.. لقتلني عبد الجبار!!)، صفع رأسه مغتاظاً.. ثم تمتم باستسلام: (قد أَرغمتني.. لا أملك غير الانصياع لها؛ فإنَّ سخط عبد الجبار أهون مما هددتني به تلك الأفعى!! بُعداً لكِ.. أيتها الخبيثة!)، بعد تَدبُّرٍ وتَرَوٍّ.. سَلَّمَ بأنَّه مُكرَهٌ على الخضوع لتهديدها!!

بأرجلٍ خائرة.. سعى متحرجاً –وبغير علم عبد الجبار ولا موافقته- إلى القاضي ليعلن أمامه تراجعه عن المطالبة باستعادة ربيبته؛ بدعوى أنَّه وجدها مُطمئنةً.. وفي صحبةٍ آمنة، وأنَّه مضطرٌ إلى الترحال والسفر أسفار بعيدة؛ ويحبِّذ أنْ تبقى الفتاةُ آمنةً مستقرة في قرطبة، خرج بتلك الحُجة من مواجهة القاضي؛ لكن.. كيف سيُفلِت من الحاجب؟!! وكيف يتقي سخطه وبطشه؟؟! (لا محيص من التهرُّب منه بالتلفيق والكذب!).

أخفى عنه أنَّه تنازل عن الفتاة عند القاضي، وحينما سأله عن جديد أخبارها؛ أوهمه أنَّ القاضي أَجَّلَ الحكم في استعادته لها شهراً كاملاً دون ذكر الأسباب، رمقه عبد الجبار بارتياب؛ لكنَّه لم يملك غير تصديقه.. منتظراً لشهرٍ آخر تلفح فؤادَه خلاله

نيرانُ رغبته في المحبوبة! ثم ما فتئ ابن الرسان –من بعدها- يتهرب منه، ويتوارى عنه خلف كأس المهدي التي ما عادت تفرغ من الخمر.. إلا سويعات نادرة من النهار.

****

-المشهد العشرون بعد المئة-

أطلَّ عيد الأضحى مشرقاً على قرطبة وقصرها، وخليفتها غافلٌ.. لاهيٌ في عبثه.. ليل نهار، عمَّت فرحةُ العيد قرطبة، وأهلها مستبشرون بانتصار أمير الثغر على البربر المتمردين.. متوهمون أنَّه قد أنهى الفتنة؛ فاحتفلوا بالعيد مسرورين.. مترقبين قدوم رؤوس المتمردين المقطوعة.. التي وعدهم إياها الخليفةُ وحاجبه!

إنقضى العيد وفرحته؛ ولمَّا تأتِ دلائل النصر المزعوم! تسربت الشكوك إلى الصدور، وغدا الناس يتهامسون ويتساءلون: "ما بال الرؤوس المقطوعة.. قد تأخر قدومها؟!! أين المتمردون المأسورون؟! هل خمدت الفتنةُ.. حقاً؟ أم تُراها.. كامنةٌ تحت رماد؟!".

تسلل الوجل إلى القلوب: "مرت أسابيعٌ.. ولا تأكيد لصدق الخبر؟!! بل السبيل إلى ثغور الشمال مقطوعة؛ لم يعد ذاهبٌ.. ولا آت!! وعلى غير المعتاد.. خلت الطريق إلى طليطلة من المسافرين والأخبار؟!! تُرى.. ماذا جرى؟؟!".

مع نهاية الشهر.. وقبيل إطلال العام الهجري الجديد[1].. غشيت قرطبةَ غَيْمٌ كثيفةٌ من الغبار، وارتجَّت أرضها رجةً عنيفةً.. على إثرها هرع الناس (هَلِعين فزِعين).. ينظرون: (ما الذي يجري؟؟ هل قامت الساعةُ.. بغتة؟!!)

كلا!! بل.. هو جيشٌ قادمٌ من ثغور الشَمال: (إنَّهم المنتصرون العائدون بأكاليل النصر فوق رؤوسهم.. ورؤوس المتمردين على أسنة رماحهم.. والأسارى المقبوحين مَسُوقين بين أيديهم!)؛ بُشراكِ يا قرطبة.. قد وأد جيشُ الخليفة الفتنةَ.. وقضى على المتمردين!

---

[1] : كان ذلك في يوم الأحد ٢٧ من ذي الحجة ٣٩٩هـ؛ ويوافق: ٢٧ أغسطس ١٠٠٩ م.

ثم.. انقشعت الأوهام.. وانجلت الحقيقة؛ ليس هؤلاء القادمون جيشاً منتصر؛ بل.. هم فلول جيشٍ مُنهزِم: (مُنهزِم؟!! هل انهزم أمير الثغر؟؟! هل انهزم جيش الخليفة أمام المتمردين؟؟! هل كان منادي الخليفة.. يكذب علينا ؟!!).

*****

داخل القصر.. في إيوان الخليفة.. هبَّ الحاجب (عبد الجبار) ثائراً، ولم يطق أن تسمع أذنه كلمات ذاك الصقلبي المنكود (بليق).. وهو يقص على الخليفة نبأ الهزيمة الفادحة، وثب إليه ساخطاً.. وصفعه صائحاً: "كيف تنهزمون.. أيها الأوغاد؟؟ أ شرذمةٌ قليلةٌ من أولئكم الحُثالَة يهزمونكم؟!! سحقاً لكم أجمع!"، ينصب عليه صاعدُ بن عبد الوهاب وبعض الوزراء يُهدِّئونه ويدفعونه عن الفارس الصقلبي البائس، وينهره الخليفة ويأمره بمغادرة المجلس؛ فيُفارقهم غاضباً.. يسب الصقالبةَ وواضح وجيشه.

يثابر المهدي على إخفاء جزعه مما يسمع؛ غير أنَّ قسمات وجهه واختناق صوته يفضحونه وهو يسأل: "أين القائد (واضح).. الآن.. يا بليق؟؟".

- إنَّه يُعسكِر في فحص السرادق بطائفةٍ قليلةٍ من رجاله! إنَّه موتور.. مكلوم القلب.. يا أمير المؤمنين! قد أقسم ألا يأتي إلى قصركم.. إلا بعد أن يثأر من أولئك الملاعين، وبعد أن يعاقبهم على خيانتهم.. واستعانتهم بالأعداء!!
- استعانتهم بالأعداء؟! بمَن استعانوا؟؟ (تساءل المهدي متفاجئاً مندهشاً)
- نعم.. يا أمير المؤمنين.. لقد لجأ الخونةُ إلى عدوكم (ابن مامة)، وباعوا له دينهم وبلادنا.. وأنفسهم كي يُظاهرهم علينا؛ ولولاه لكنَّا أكلناهم!!
- الأوغاد الملاعين!! تالله.. قد مَرَقوا من الدين! (صاح صاعد والحاضرون)
- قُص علينا –يا بليق- ما وقع.. بشيءٍ من التفصيل! (هتف المهدي بصوتٍ مرتبك)؛ فيما زفر بليق زفرةً متحسرة.. واستأنف يقول:
- لم يجد الفريقان مفراً من المواجهة العسكرية؛ فسعى كل فريقٍ إلى الآخر..

حتى التقينا في شرنبة[1]، كنا قد سبقناهم إليها وأقمنا معسكرنا في انتظارهم، وما عتَّم البربر أن وصلوا إلى أرض المعركة.. ومعهم جحافل قشتالة التي لم نكن نحسب لها حساباً؛ فاختل ميزان المعركة، لكننا لم نتراجع ولم نستسلم.. بل قاتلناهم قتالاً شديداً! على أنَّ قدر الله نفذ بانتصارهم!!

- احكي.. كيف حَصَلَ ذلك!!؟
- دارت بيننا وبينهم معركةٌ شديدة.. حامي وطيسها؛ قُتِل فيها عددٌ كثيفٌ من رجالنا.. منهم (قيصر)، بعدها.. اختل توازننا وتضعضعت صفوفنا؛ فلم نقدر حتى على حماية معسكرنا؛ فاجتاحوه ونهبوا ما به من مالٍ وسلاح!!
- يا للفاجعة!! (ردَّد الحاضرون بأسفٍ وأسى)؛ فيما هتف المهدي بشيءٍ من الصرامة المنكسرة قائلاً:
- لا وقت للتفجُّع! ينبغي أنْ نَكُرَّ عليهم! سأذهب بنفسي إلى القائد واضح.. في فحص السرادق؛ مُروا الحرسَ.. أنْ يتجهَّزوا!

****

-المشهد الحادي والعشرون بعد المئة-

أما على حدود الثغر الأوسط.. قريباً من قاعدته (طليطلة).. فقد تحصَّن المنتصرون داخل قلعة نهر هنارس، وجعلوا يحتفلون بانتصارهم، نصبوا على أبوابها رؤوس قتلاهم من جنود جيش (واضح)، ثم اجتمع مجلسُ حربٍ على مستوى أعلى القيادات البربرية والقشتالية؛ ومضوا يتدارسون الموقف: (ماذا بعد الانتصار على واضح.. وكسر شوكته؟؟!)؛ أول المتكلمين.. كان القومس.. فصاح مُنتشياً:

---

[1] : تقع قريباً من قلعة نهر هنارس التي كانت تسمى في المصادر العربية قلعة عبد السلام.. وتسمى أيضاً قلعة النهر.. وهي تقع بالقرب من طليطلة.. وعلى مسافة حوالي ٣٥ كم شرقي العاصمة الإسبانية الحالية.. مدريد.

- مبارك نصركم الحاسم.. أيها الحلفاء الأعزاء!
- انتصرنا بفضل مؤازرتكم لنا.. أيها الكونت! على أنَّه نصرٌ.. غير مكتمل! (أجابه زاوي بن زيري.. بنبرةٍ يخنقها شيءٌ من التَنَدُّم عجز عن إخفائه)؛ فاستأنف القومس كلامه.. هاتفاً بثبات:
- صحيحٌ ما قلتَ.. أيها الشيخ! أرى أنَّكم تطالبون بخلافة الأندلس لصاحبكم[1]؛ ولن تنالوا غايتكم حتى ترجعوا إلى قرطبة.. وتبسطوا نفوذكم عليها.. وتطردوا المهدي من دَسْت الخلافة.. أليس كذلك؟؟
- بلى.. أصبتَ.. أيها الكونت! (أجابه زعيم البربر).. وأقرَّ الحاضرون معه بسلامة رأي القومس الذي أردف هامساً بنبرةٍ ثاقبةٍ ماكرة:
- إذاً.. علينا أنْ نسارع بالتجهُّز لمباغتة قرطبة قبل أنْ يفيقوا من الصدمة!
- .... انشده القوم متفاجئين بتجرئه على (التصريح برغبته في مهاجمة قرطبة)؛ بيد أنَّهم تَجرَّعوا الصمت مجبورين: (فقد تغير الحال.. ولم تعد قرطبة قصبتهم التي يدافعون عنها؛ ولم يعد هو العدو الضعيف الذي يهاب مناعة قرطبة وعزها)، قرأ القومس ما يدور في رؤوسهم؛ لكنَّه تغافل.. واعتبر سكوتهم موافقةً على اشتراكه معهم في الإغارة على قرطبة؛ فاستطرد:
- هَلُمّوا –إذاً- نتدبر المسألة.. ونضع خطط الهجوم!!
- عفواً.. أيها الكونت! لم نطلب منك أن يغزو جيشُك قرطبةَ؛ وإنَّما قصدنا أنْ تمدّنا بالسلاح والمؤنة!! (هتف عبد الواحد)؛ حينما رمقه شيخه (زاوي) بارتياحٍ مُشجِع.. كأنَّما أعجبته مقالته.
- لا.. أيها الفارس البربري! إنَّكم –الآن- في جواري.. وقد أصبحتم حلفائي، وشرفي العسكري يُحتِّم عليَّ أن أخرج معكم إلى قرطبة.. وأنْ أُقاتل خليفتها معكم حتى يستقر الأمر لخليفتكم؛ لن أتراجع عن ذلك أبداً، هل تفهم ما أقول؟! لن أتراجع!

---

[1] : يقصد: سليمان بن الحكم الملقَّب بالمستعين بالله.

فلَمَّا رأوا عزمه وإصراره؛ طأطأت رؤوسهم.. وتملَّكت الحيرةُ من عقولهم!!

استمهلوه.. ثم خَلَصُوا نَجِيّا، جأر عبد الواحد مُستنكراً: "هل تقبل –يا شيخنا- أنْ يُغِير هؤلاء العلوج على قرطبة؟!". سكت زعيم البربر متحيراً.. وتنهَّد تنهيدةً مغتاظة تنمّ عن ضيق صدر؛ آن هتف حبوس بشيءٍ من الاستسلام:

- ليس لنا خيارٌ.. يا عبد الواحد؛ لقد بدأنا حرباً.. وعلينا استكمالها!!
- هذا العلج الذي يُصرِّح مفتخراً بعزمه على غزو قرطبة.. لم يكن يجرؤ –فيما مضى- أن يزورها إلا صاغراً.. ملبياً لدعوة ملوكها!
- لسنا في زمن المنصور.. ولا المظفر! قد تغيَّر الزمان!!
- إنِّي أُعلنها أمامكم: أرفض أن يغزو هذا الرجل قرطبةَ، أما يكفي ما تعهدنا به له من مدائن الثغر، ألا يكفي أننا سنفرِّط له في أراضي دولتنا!
- دولتنا؟!! لقد علمتَ أنها لم تعد دولتنا!! (جأر حبوس بنبرةٍ ساخرة).. وسكت هنيهة ثم أضاف بنبرةٍ صارمة: "لقد كنتَ معي –يا عبد الواحد- حينما وعدناه تلك المدائن، ولقد وافقتَ له مثلي؛ ألا تذكر؟؟!"
- نعم.. كنتُ معك، ووافقتُه مضطراً.. لما أصابنا من فاقةٍ وجوعٍ.. كدنا نهلك بهما!
- والحين.. إنْ لم نوافقه سنهلك؛ إما بسيوفه.. وإما بسيوف أهل قرطبة؛ لقد بدأنا حرباً –يا عبد الواحد- وعلينا أن نستمر فيها إلى نهايتها!!
- أرى أن نشترط عليه أن يصحبنا.. **للمساندة فقط**؛ ونستغل جيشه في إرهاب أهل قرطبة.. دون أن نخلي بينه وبين حربهم، ونشترط عليه أيضاً ألا يدخل قرطبة محارباً؛ وإنَّما يبقى خارجها ريثما ندخلها نحن ونسيطر عليها؛ فإذا فعلنا دعوناه.. فيدخلها كضيفٍ غير محارب! (قال سليمان المستعين)
- أرى أنَّ هذا رأيٌ حسنٌ!! (هتف حبوس)
- لا أحسبه يكتفي.. بالمساندة فقط!! (جأر عبد الواحد بشيءٍ من التبرم)؛ فتنحنح حباسة –الذي كان يسمع غير آبه- ثم هتف.. بثباتٍ متحمس:

- الرأي عندي –يا أخوتي- ألا نعود إلى قرطبة! أرى أنْ نداهم مدائن الثغر الكبرى (مدينة سالم.. وطليطلة.. وغيرهما) حتى نمتلك الثغر ونسيطر عليه.. ونستقل به عن قرطبة وخليفتها!!
- صه.. يا أرعن! (صاح فيه عمه موبخاً).. ثم أردف: "بئس الرأي! تريد أن نُمزِّق مُلك الأندلس بعد المستنصر والمنصور!!؟ تالله.. إنَّ الفُرْقَة هي الوَهْن بعينه!".
- رأيي من رأيك.. يا شيخ زاوي! ينبغي أنْ تبقى الأندلسُ موحدةً مستقلةً.. أيها السادة! يحكمها خليفةٌ واحد.. كما تطلع عليها شمسٌ واحدة! ولقد بايعتموني على أنْ أكون خليفة الأندلس كلها! (هتف سليمان المستعين.. بكياسة)
- إذاً.. لابد من ضرب الحية على رأسها.. بالزحف إلى قرطبة وإخراج المهدي منها.. ليتربع خليفتنا المأمول على تخت الخلافة، ولا مناص عن إجابة القومس إلى رغبته؛ لأننا نحتاج دعمه وجيشه في حربنا! (صاح حبوس بتقرير)
- ذاكم هو المحذور الذي لا مهرب منه! وكما قلنا: البادي أظلم، أهل قرطبة وخليفتهم.. هم من أجبرونا على هذا المحذور!! (أقر زعيم البربر متأسفاً)

*****

أما في الجناح الآخر من ذات القلعة.. فقد اختلى القومس مع معاونيه وقادة جيشه الذين راحوا يتساءلون.. متعجبين معاتبين:

- لِمَ.. أيها الكونت.. نورط أنفسنا مع أولئك المُطارَدين.. في حربٍ لا طائل من ورائها؟!!
- كيف تظنون أن لا طائل من ورائها؟ كيف لا تدركون ما أرمي إليه؟؟!
- فيما تُفكِر.. يا سيادة الكونت؟؟!
- منذ زمن وأنا أُفكر.. وأحلم بغزو قرطبة!! قرطبة.. يا أعزائي! مدينة النور.. شمس الأندلس الدافئة التي لا تغيب! قصبة العرب المسلمين.. أعدائنا الذين اغتصبوا الأندلس من أجدادنا!! ألا تتفقون معي.. أنَّه حلمٌ جديرٌ بأنْ نسعى لتحقيقه؟!!

- عفواً.. يا سيدي! لو كنا أجبنا واضحاً وخليفته.. فنفوز منهما بالمدائن التي وُعِدنا؛ لكان خيراً لنا من مؤازرة هؤلاء المتمردين المشردين!! لماذا نساند الجانب الضعيف.. ونُعادي القوي؟!! (صارحه أحد رجاله برأيه.. على استحياء)؛ فأجابه الكونت برحابة صدر وثبات رأي.. هاتفاً:
- أجل.. أولئك المشردون هم الفريق الأضعف؛ لذا فإنَّك بدعمهم وتقويتهم على الفريق الآخر.. تُأجج نيران الصراع بين الفريقين.. وتُنمي بذور الفتنة التي ستجعل الأندلسيين يختلفون.. ويتقاتلون حتى يُضعِف بعضهم بعضاً.. فتنكسر شوكتهم التي تعوقنا عن تحقيق حلمنا **بغزو قرطبة**!!
- غزو قرطبة.. حلم يصعب تحقيقه، غزو قرطبة –يا سيدي الكونت- بمثابة قضم ما لا نقدر على هضمه، قد نبدأ حرباً مستعرة.. لا نستطيع الفوز بها!! عذراً.. يا سيدي؛ إنَّها مخاطرة.. -أو قُل: مُقامرةٌ- غير محسوبة!!؟
- قد جانبك الصواب.. يا عزيزي! لستُ مَن يُقامر بجيش كونتيته مقامرةً غير محسوبة، لكن.. فلتقل: أنها مغامرةٌ محسوبة؛ ولا بأس من المغامرة!
- لكننا نغامر بمعاداة خليفة الأندلس؛ ونحن لا نقوى على مجابهته!؟
- يا عزيزي! هذا الخليفة الجديد ليس كجده الناصر، وحاجبه ليس كالمنصور أو المظفر، إني أرى ما لا ترون؛ أرى شمس قرطبة القوية توشك على الأفول، وقد آن الأوان لأنْ نغزوها.. بعدما كانت جيوشها تغزونا!
- هذا حلم صعب المنال!!؟
- إنْ لم يكن حلمك عظيماً؛ فلن تكون رجلاً عظيماً، وإنِّي سأغزو قرطبة.. وسيذكر التاريخ في صفحاته اللامعة أنَّ سانشو غرسيه هو أول أسباني يغزو عاصمة العرب المسلمين في الأندلس!!

****

-المشهد الثاني والعشرون بعد المئة-

غدا الخليفة المهدي –يصحبه بعض رجال دولته- إلى فحص السرادق ليجتمع بالقائد واضح (أمير الثغر المنهزم)، ذاك أول لقاء يجمعهما وجهاً لوجه، تفرَّس كل منهما في وجه الآخر؛ فرأى المهدي في واضح فارساً صقلبياً قوي.. رغم كبر سنه، وتَوَسَّم فيه العزيمة والبأس.. وحنكة الخبير التي هو في حاجة إليها، أما واضح.. فلم يستبشر بوجه خليفته ولا حاجبه؛ وإنَّما استخف بهما.. بل تَوَجَّس منهما، بيد أنَّه أَسَرَّها في نفسه ولم يُبْدِها لهما، بعد التحية والترحاب.. والمواساة على الهزيمة.. سأله المهدي:

- ماذا ترى فيما نحن فيه.. أيها القائد واضح؟؟!
- أرى أننا مُقبلون على خطرٍ داهم، إنْ لم نستعد له؛ فقد يُمزِّق مُلك الأندلس!!
- خطرٌ داهم؟!! يُمزِّق الأندلس؟!! أحسب أنَّ هزيمتك أمام أولئك الآبقين قد أصابتك بالإحباط.. أيها القائد!! إنهم شرذمة قليلون.. لا يقوون على تمزيق ملك جدي الناصر.. الخليفة العظيم!! (هتف عبد الجبار مستهزئاً.. مستكبراً)
- على رِسْلِكَ.. يا عبد الجبار! إنَّ الظرف الحالي.. أعظم شأناً من تهوينك هذا!! (قال المهدي)؛ فجأر واضح موافقاً لرأي خليفته:
- أصبتَ.. يا أمير المؤمنين! إنَّ هؤلاء الذين تظنهم شرذمة قليلين -أيها الحاجب- كانوا عماد جيش الخلافة الباطش.. الذين يؤدبون الأعداء ويفتحون الأمصار؛ فينبغي ألا نستهين بهم أبداً.. ولا سيما وقد تحالفوا مع عدونا (ابن مامة).. وهو رجلٌ طموحٌ ذو بأس!
- كان الأحرى بك –والحال كما تصف- أنْ تُرابط في ثغرك كي تمنعه منهم؛ لا أنْ تفرَّ إلى هنا!! (صاح عبد الجبار بصفاقة)؛ فتجرَّع (واضح) كلماته العائبة بضبط نفس.. مُتظاهراً بعدم الاكتراث لها، وأعرض عنه.. والتفت إلى المهدي قائلاً:
- قدَّرتُ –يا أمير المؤمنين- أنَّ قرطبة في حاجةٍ إلى وجودي معك فيها أكثر من بقائي في مدينة سالم؛ وهذا لأنَّ هؤلاء المتمردين –بالطبع- سيأتون إلى قرطبة لتنصيب

ذاك الرجل الذي بايعوه خليفةً فوق عرشكم، وأعوذ بالله أنْ أسمح لهم بهذا.. وفي جسدي قلبٌ ينبض!!

رمقه عبد الجبار باشمئزاز؛ في حين تطلَّع إليه المهدي بامتنان.. بينما هو يستطرد:

- أما الأوضاع في الثغور.. فإنَّها –يا خليفتنا- كما تحب، ولن يستطيع أولئك البغاة.. ولا حليفهم المغرور كسر شوكة قلعةٍ من قلاعها.. ولا حتى حصن صغير!
- بارك الله فيك.. أيها القائد.. وفي هِمَّة فرسانك ورجالك! (جأر المهدي باستبشار)، ثم تساءل بشيءٍ من التحضيض: "هل.. لديك خطة.. أيها القائد؟!!".
- أنا.. دائماً.. لدى خططٌ.. يا أبا الوليد!!

****

-المشهد الثالث والعشرون بعد المئة-

شاعت أخبار هزيمة شرنبة.. بين أهل قرطبة ولم تعد تخفى على أحدٍ منهم؛ فتشاءموا وتضجَّروا.. لمَّا تأكد عندهم تدليس الخليفة وكذبه عليهم، ظهر الشقاق.. وجاهر الناس بذم الخليفة؛ حتى هجاه بعض شعرائهم قائلين:

أشْأمُ خَلْقٍ على العبـــــادِ والنـــاس من حاضرٍ وبادِ
أبو الوليد الذي اقشعرَّت لنَحْـــسِه شعرةُ البلادِ
كان على قـــومِه جمـــيعاً قُـــــدارَ عادٍ لقوم عادِ

لكن.. مرت أيامٌ؛ فاستوعب أهل قرطبة الصدمة.. واستسلموا للأمر الواقع، ثم تواتر الأخبار؛ فأيقنوا أنَّها مسألة وقت.. ثم سيزحف البربر **(البغاة)** على البلد.. هم وحلفاؤهم **(جيش قشتالة)**؛ فاضطربت الأحوال.. والتجَّ الناس.. وتضاربت آراؤهم بين استيائهم من تدليس خليفتهم وسخطهم عليه.. وبين عداوتهم للبربر!؟

على أنَّ الحكماء منهم تشاوروا.. فقالوا: "اهدئوا.. يا قوم! لا يحلُّ لنا الانفضاض عن المهدي.. قبل أن نقضي على فتنة البربر! الأَقْوَم والأصلح أنْ نتفق مع المهدي.. ونضع أيدينا في يده لمجابهتهم؛ فإذا انتهينا منهم.. واستتب الأمن؛ حقَّ لنا معاتبته.. بعدها!".

أجمعوا أمرهم على مآزرة المهدي في التصدي للبربر؛ ولا سيما بعدما علموا باتفاقهم مع العدو: (قومس قشتالة)، وما لبث أهلُ قرطبة أن تحمَّسوا لقتال الغزاة القادمين (بربرهم المنافقين ورومهم الكافرين)، واعتبروه جهاداً واجباً في سبيل الله والوطن!!

أُعلن النفير العام في أرباض قرطبة ونواحيها.. واجتمع الخليفة مع رجاله ليُدارسهم الموقف.. ولتستعد البلد لصد هجمة البغاة القادمين. ابتدر الحاجب عبد الجبار الكلام.. فصاح باغترار: "أول ما يتوجب علينا فعله.. أنْ نقتل أولئك البرابر الذين بقوا بين أظهرنا في قرطبة.. ونسائهم وأولادهم؛ فإنهم أضر علينا من القادمين إلينا!!"، لم ترق فكرته للمهدي (فقد أصبح على يقين بأنَّ هوة الشقاق بينهم وبين البربر لم تعد في صالحه؛ لذا فعليه ألا يُوسِّعها)؛ فلوَّح بيده رافضاً فكرة حاجبه.. وقال بتشوُّشٍ:

- بل.. نأمرهم أن يُفارقونا.. ويخرجوا إلى الجنوب.. حيث العُدْوَة إلى بلادهم: المغرب!
- أزعم –يا أمير المؤمنين- أنَّ الأولى هو التصدي للمُغِيرين القادمين! (جأر صاعد بن عبد الوهاب بكياسة)؛ فوافقه المهدي الرأي.. هاتفاً بحَمِيَّة:
- نعم.. يا صاعد! ينبغي أن نتصدى لهم بكل قوة، بل يجب أنْ نسارع في التجهّز.. والخروج لملاقاتهم في الثغر.. قبل أن يتجاوزوه إلى مشارف قرطبة!!

فقاطعه القائد (واضح) متسائلاً بشيءٍ من الارتياب والدهشة:

- عفواً.. أيها الخليفة!! أين هي القوات التي ستتصدى لأولئك الغزاة؟؟ أين هو جيش قرطبة الذي سيخرج لملاقاتهم في الثغر.. كما تريد؟!!
- إنَّهم.. الثوار! أهالي قرطبة.. هم أولى بالدفاع عن خليفتهم ومدينتهم.. أيها القائد! وقد أعلنا النفير في البلد.. وأرباضها ونواحيها!! (صاح صاعد بحميَّة وافتخار)

- هل ستواجه جيوشَ البربر المحنكين المتمرسين بأهل البلد؟!! بالصُنَّاع والحطّابين والجَزَّارين.. وأشباههم؟! فضلاً عن مرتزقة قشتالة المحترفين؟!! (تساءل القائد واضح بازدراء)؛ فأجابه الحاجب عبد الجبار هاتفاً بأنفة:
- لا تستهن بأهل قرطبة.. يا هذا!! (ثم أردف مُعرِّضاً بهزيمته في شرنبة): "فإنَّهم.. قد هزموا هؤلاء الذين تهابهم.. في أكثر من لقاء؛ هزمناهم من قبلُ وهم يناصرون شنجول العامري، ثم مرة ثانية طردناهم خارج قرطبة.. فهربوا منها صاغرين، ولولا أنَّك انهزمت أمامهم.. لَمَا فكَّروا في العودة إلى قرطبة!!".
- نعم.. أيها القائد! إنَّ أهل قرطبة.. أهل نجدة وبأس، وقد أمرني أمير المؤمنين بحشد أعواننا من الثوار القدامى.. وهم كثير، وسنجتمع إلى جوارك في فحص السرادق لنخرج معاً لننذب عن مدينتنا.. ونردع أولئك البغاة! (جأر صاعد مزهواً بذاته.. مغتراً بجمعه ورجاله)؛ فأجابهما القائد (واضح) بإصرارٍ ومكاشفة:
- ليس الأمر كما تتخيلون!! إنَّها حربٌ ذات ميدان.. تلتقي فيها الجيوش الخبيرة المنظمة المدربة.. وكلٌ له خططه ومكائده التي يُحسنون أداءها، أما عامة الناس فليسوا مثلهم!! وكما تقول العرب: لا يدرك الظالع شأو الضليع[1].
- شجاعتنا.. وكثرةُ عددنا تُجزئ عن هذا!! (أجابه صاعد بحَمِيَّةٍ وأنفة)، وهمَّ عبد الجبار أنْ يذم جُبْن واضح وتخاذله لولا أنْ غمز له المهدي وأسكته.. ثم التفت إلى واضح وسأله بتؤدة واكتراث:
- الموقف.. كما خَبَرْتَه أيها القائد؛ أولئك الثوار -من أهالي قرطبة- هم قوتنا الحقيقية.. وهم جيشنا الوحيد! فماذا تقترح علينا؟؟!
- أيا أمير المؤمنين! إذا كان الأمر كما يزعم الوزير صاعد؛ فإنِّي أرى ألا نزحف إلى الثغر، وإنَّما نرابط في قرطبة.. إلى أنْ يأتي إليها البغاة فنقاتلهم على مشارفها!
- ما هذا برأي! لماذا لا تخرج جيوشنا لقتالهم في أرض الثغور؛ فنقضي عليهم.. ويرتدع بهم كل مَن تُسوِّل له نفسه بالتمرد!! (صاح عبد الجبار)

---

[1] : الظالع هو الأعرج.. وهو مثل عربي معناه: لا يصل الأعرج إلى مستوى القوي الصحيح.

أطرق القائد (واضح) هنيهة، ثم قلَّب صفحات وجوههم ببصره وهو يقول بحنكة:

- لأنَّ أولئكم الثوار الذين تعتمدون عليهم.. لن يُطاوعوكم في الخروج من قرطبة، فضلاً عن أنهم –إنْ خرجوا - لن يصمدوا أمام هؤلاء المحنَّكِين المحترفين!!
- كيف تجرؤ على قولها؟!! كيف تتهم أهل قرطبة بالجُبْن.. (بَكَّته عبد الجبار)
- لستُ مُتهِماً أحداً! لكنني أنظر في حقيقة المسألة! وأرى أنَّ خطتكم تعتمد على حماسة أولئك الثوار وشجاعتهم في القتال.. لا على حنكتهم وخبرتهم!!
- أصبتَ.. أيها القائد!! (أجابه صاعد بإقرار) حالما بدأ الحاضرون يستمعون إليه بانتباه؛ فاستأنف واضح هاتفاً:
- لذا فإني أتوقع أنَّ خروجهم من قرطبة وابتعادهم عن بيوتهم وأموالهم سيُفقدهم تلكم المزيَّة التي نُعوِّل عليها، فضلاً عن أنهم ليسوا جيشاً نظامياً –أي غير ملتزمين بالانضباط العسكري كجيش عدوهم-؛ مما يُصعِّب علينا السيطرة عليهم خارج قرطبة؛ فقد يتسللون لواذاً أثناء الزحف، أو.. قد يفرون حين اللقاء!!
- قد ثبَّطتَ عزيمتنا.. أيها القائد!! فما العمل.. إذاً؟؟! (جأر المهدي بنبرةٍ حائرة مرتبكة.. وقد تبدلت ملامح وجهه إلى العبوس والجزع)؛ فالتفت إليه واضح بكل جسده.. وشرع يُطمئنه ويشرح خطته قائلاً:
- حاشا لله أنْ أُثبِّط عزيمة الخليفة، لكني.. أنشد نصركم على عدوكم؛ لذا أفكر في المسألة وأتدبر حقيقتها بحيادٍ ونزاهة!
- هل لديك خطة؟!! (قاطعه المهدي متسائلاً بتَمَلْمُلٍ وتضجُر)
- لا جرم.. لدي.. يا أمير المؤمنين! (هتف القائد واضح بثقة)
- هات ما عندك!! (جأر المهدي بتلهفٍ يشوبه كثير من الضيق والكدر)
- نُحصِّن المدينة وأرباضها.. ونضع الرجال والرماة على أبواب المدينة وأسوارها، ونجمع جيشنا المحارب في فحص السرادق ونُخَنْدِق حوله، ثم ننتظرهم؛ فإذا أتوا إلينا ناضحناهم عن المدينة وصددناهم عن دخولها!
- تلك خطةٌ دفاعية؛ كنا نحسبك ستبتدأ بالهجوم!!؟

- لكل حادثة حديث.. أيها السادة.. وسيأتي وقت الهجوم لاحقاً! غير أننا سنعتمد في خطتنا على كثافة أعداد أفراد الجيش.. لنُرهب بهم عدونا!؟؟
- لو أذن أمير المؤمنين؛ فسأحشد لك أهل البلد والبوادي والأقاليم، وسأجمع لك كل مَن بلغ الحُلم من أهل قرطبة! (هتف صاعد بن عبد الوهاب بحمِيَّة وحماس)
- نعم! هَلُمَّ.. يا صاعد! استدعي كل.. مَن يقدر.. على حمل.. السلاح! أُريد أنْ.. أقطع دابر.. أولئك البربر.. إلى الأبد!! (جأر المهدي بنبرة مُشَوَّشة)

****

-المشهد الرابع والعشرون بعد المئة-

لبَّى أهل قرطبة وأرباضها.. ومَن حولهم من أهل البوادي نداءات صاعد وخليفته، وفي خلال أيام.. شرع الناس يتوافدون –من كل حَدَبٍ وصَوْب- على معسكر فحص السرادق، ثم غدوا يُخندقون حول المعسكر.. وكذلك يحفرون الحفائر على أفواه الأرباض.. وحول أبواب المدينة وأسوارها، وظهر السلاح في المدينة.. ولبس المتطوعة من عامة الناس الدروع وحملوا البنود[1] والطبول[2] بين أيديهم.

وبدت قرطبة.. وكأنَّها بركانٌ من أنفة وحماس.. يتميَّز غاضباً في تَرقُّبٍ لهؤلاء البغاة القادمين ليقذفهم بحممه المحرقة.

في تلك الأثناء.. لم يكتف البطَّالون والسفلة بالانضمام لجيش المتطوعين والاستعداد والانتظار؛ بل.. تعجَّلوا.. وما برحوا يهجمون على دور المستضعفين من البربر القرطبيين وبيوت الغائبين منهم.. فينهبونها، ويُؤذّون ويسحلون كل بربري ظفروا به.. مِمَن عَرفوهم مازالوا مقيمين في المدينة أو في ربضٍ من أرباضها، حتى توارى بربر قرطبة عن العيون، وهرعوا يستترون عند مَن يأمنونهم من الأندلسيين.

---

[1]: هي أعلام الحرب.

[2]: يدقونها إعلاناً للحرب وتحفيزاً للناس.

بالغت أم هشام في إخفاء خبر أم عبد الواحد وكنتها ورضيعها؛ لاسيما وأنهم أهل (عبد الواحد بن بلقين) أحد كبراء البربر المتمردين، وانشغلت بحماية ضيفتها عمَّا يكتنف قرطبة من أحداث!!

أما أم عبد الواحد فقد تمزَّقت نياط قلبها بين الخوف والرجاء، وتردد عقلها بين أملٍ انبعث من جديد في لَمِّ شتات أبنائها.. وبين يأسٍ وشيك من رأب الصدع بين قومها البربر وبين أندلسي قرطبة!!

أما حمدون فقد قلاه النومُ.. وما كحَّل جفونه -منذ أيامٍ- إلا غراراً: (لو صحَّ ما سمعتُه من أخبار: أنَّ البربر بايعوا مروانياً آخر بالخلافة.. وأنَّهم تحالفوا مع عدو الأمة (قومس قشتالة) كي يغزو معهم قرطبة لتنصيب خليفتهم المزعوم في قصرها!!)، (إنَّها فتنةٌ حقيقية.. تُطل برأسها تُوشك أن تُهلِك البلاد والعباد!)، (لا بُدَّ من التصدي لهذه الفتنة!)، (لكن.. كيف؟!! وفي أي صفٍ ينبغي أن أكون؟!!)، (لا جرم.. يجب أن أُدافع عن قرطبتي ضد العدو الذي جاء يغزوها.. وإنْ كان في صفه: البربر المسلمون!!)، (لكنني.. وعدتُ عبد الواحد أنْ أجير نساءه وأحميهن؛ فكيف أحفظ نساء البربر في بيتي.. ثم أحاربهم بسيفي؟!!)، (لقد أحترتُ في أمري! ماذا أفعل؟!!)، (قد صدق القائل: الفتنةُ إذا أقبلت اِدْلَهَمَّت!!).

سمع طرقاتٍ على باب الدار: (يا ربي سلم! تُرى.. مَن يأتينا في هذا الوقت؟!)، (هذه الأيام –نجانا الله من شرورها- لا يطرق الأبواب سِوَى الأشرار والفجار!!)، دنا من الباب على حذر.. بعد أن أوعز إلى النساء بالاستتار، ثم همس -واجلاً- بصوتٍ يُسْمِع الطارقَ: "مَن بالباب؟؟"، فأجابه صوتٌ مألوف.. بيد أنه يخافت في ضعف: "افتح.. يا حمدون! إنَّه.. أنا: الحسن بن حيّ!"، تساءل في دهشة: " الوزير؟ الفقيه؟!!"، فأجابه: "نعم!!".

انفتح البابُ؛ فانبعث الطارقُ والجاً، وقف جامداً محتشماً ينتظر أنْ يوجهه صاحبُ الدار؛ فأشار –مُرحِباً بتوقير- إلى قاعة الضيف.

دلف بين يدي حمدون الذي لاحظ الاضطراب والقلق على ضيفه؛ فشرع يلين له ويُهدِّئه.. حتى سكَّنه بعض الشيء، ثم وقف قائلاً: "اسمح لي.. أيها الفقيه.. سألتمس تحية الضيف.. وأعود إليك سريعاً!"، فهتف الضيفُ مُستمهِلاً:

– لا حاجة لنا في هذا الآن! اجلس.. وأعرني انتباهك؛ فقد جئتُك في أمرٍ خطير!!
– خيراً.. إنْ شاء الله! (هتف حمدون متوجساً)
– المؤيد.. هشام.. ابن الحكم.. المستنصر! (خافت.. بشفاه مرتعشة)
– رحمه الله.. وتجاوز عنه.. وأنار قبره! (جأر حمدون بتأسُّفٍ وأسى)
– لم يمت! المؤيد.. لم يمت!! (كررها مقتضبة.. بصوتٍ خفيض)
– ماذا تقول؟؟!! (صاح حمدون متفاجئاً مشدوهاً)
– اخفض صوتك! تلك هي الحقيقة التي كنتُ أكتمها طيلة الأسابيع الماضية؛ غير أني لا أقدر الحين على الكتمان!!
– كيف.. هذا؟؟ أنا لا أُصدق!! (هتف مبهوتاً)
– سأقص عليك القصة.. كلها؛ فأعرني سمعك!

*****

انصرف الضيف بعد أنْ ألقى على عاتق حمدون أمانةً ينوء بحملها أشجع الرجال، وبعد أنْ استحلفه ألا يُعلِم أحداً بأنَّه أخبره بتلك الحقيقة المخزية.

رحل الحسن بن حيّ الفقيه؛ فصَكَّ حمدون البابَ كأنَّما يُغلِّقه دون عاصفةٍ عاتية يحذر منها على نفسه وأهله، لكن.. هيهات!! لم ينفعه تَغْلِيق الأبواب؛ فقد تكالبت عليه عواصفُ الدهشة والحيرة حتى ضاق صدره: (لا حول ولا قوة إلا بالله! ما تلك الفتن التي تعصف بنا؟!!)، (كيف يفعل المهدي هذا؟؟!)، (كيف طاوعه عقله وقلبه.. أنْ يصنع هكذا بعمه.. سلفه على تخت الخلافة؟!!)، (كيف طاوعه دينه أنْ يفعل؛ وقد أعطى المؤيدَ العهودَ والمواثيق أنْ يحفظ حياته وماله؟!!)، (تُرى! هل كنتُ مخدوعاً فيه؟! ألم أكن أعرف حقيقة نفسه الجَشِعة.. رغم عِشْرَة تلك السنين؟؟!)،

(أم أنَّ رفعة المنصب.. وعلو المكانة بدلا حاله إلى هذا السوء؟!!)، (ماذا أفعل الآن؟؟ يا ويلي! قد ازدادت حيرتي أكثر.. وأكثر!!)، (عفا الله عنك.. أيها الحسن الفقيه؛ فقد حمَّلتني ما لا أطيق حمله!!).

سمع صوت جدته تُقبِل عليه.. وتُنادي: "هَلُمَّ إلى الطعام.. يا ولدي!"، لم يجبها.. وإنَّما لوَّح بيده متأففاً.. هامساً في سريرته: (كيف يطيب لي أن أطعم بعد كل ما علمتُ.. يا جدتي؟!!)، (آه.. يا فاطمة المروانية.. آه لو علمتي بما علمتُ!؟)، (هل أخبرها؟؟! والذي رفع السماء.. لو أخبرتُها؛ فقد يُغشى عليها تَفَجُّعاً وذهولاً!)، (خيرٌ لي ولها ألا تعلم! والحين.. لا وقت للحيرة والخَوَر، بل الوقتُ.. وقت النهوض للعمل!)، (لكن!! ما العمل؟! إنْ أنا إلا رجلٌ واحد! لا أقدر وحدي على شيء!؟؟)، (أعوذ بالله من تثبيط الشيطان! عليَّ أنْ أحاول مهما بلغت التضحية!)، (يجب أنْ أتصرف دون تردد أو تأخير، مصير الأندلس ومُلْكها يتوقف عليّ الحين!)، (توكلتُ عليك.. يا ربي؛ اللهم بك أستعين؛ فأعني.. وأرشدني إلى الرشد والصواب!).

وقف.. وهمَّ ليخرج.. فألفى جدته لدى الباب، هتفت باندهاش: "إلى أين؟! ألن تتناول طعام غدائك؟؟"، هتف باقتضاب حازم: "كلا! يجب أن أخرج حالاً!"، ثم أردف بنبرةٍ ودودة: "السلام عليك.. يا جدتي! أسألكِ الدعاء!"، فجأرت باستكانةٍ وحنان: "حفظك الله.. يا ولدي.. ورعاك.. وسَدَّد خطاك!".

****

-المشهد الخامس والعشرون بعد المئة-

امتطى جواده الأثير (ديجور).. واستوى على مَدْرَجَتِه إلى القصر، ما انفكت الحيرة تعصف بعقله سائلة: (لماذا ترجع إلى القصر؟! لِمَ تلقى المهدي؟؟ أ وبعد كل ما فعل؟!!)، لكن.. يُجيبها شيءٌ ما يجيش في صدره هاتفاً: (لا أملك سلطاناً أُغيّر به المنكر.. غير سلطان العِشْرة والود القديم؛ فعسى أنْ يشرح الله لي صدر المهدي إنْ

ناشدتُه اللهَ والمودة القديمة؛ فيُصلِح ما فسد؛ فيُنجِّي اللهُ به البلاد والعباد من شر تلك الفتن!).

نفذ من الأسوار.. ثم تَرَجَّل وانطلق يسعى إلى إيوان الخليفة، عايَن الارتباك والاختلال يجوس خلال الباحات والردهات، راح يُهرول إلى حيث يُمكنه مقابلة الخليفة، بيد أنَّه أحس بأنفاسه تختنق.. وكأنَّما انقبضت نفسه عما أدركه مِن مؤامراتٍ تُحاك في دهاليز هذا القصر؛ فأخذ يهدج متباطئاً.. كأنما يُكره نفسه على المُضِيّ فيما عزم!

التمس لقاءَ الخليفة؛ فما عتَّم أن أذن المهدي بدخوله، أحسن استقباله.. وجاهر بالترحيب به أمام الحاضرين قاطبةً.. غير خاجلٍ أنْ يصدح بامتنان: "قد علمتُ.. يا حمدون.. أنَّك لن تتخلى عني؛ فإنَّك شابٌ نبيل.. لن تجحد عِشْرة السنين!!".

- هل تتَطَلَّع إلى مساندتي.. أيها الخليفة.. وحَوَالَيْك مَن حواليك من الأعوان؟!!
- نعم! حَوْلي الكثيرُ من الأعوان.. ولا أُنكِر فضلهم، لكن.. أنت وأنصاري القدامى شيءٌ آخر! وإنْ كان الشيطان نزغ بيننا.. إلا إنَّك لم تزل محل ثقتي في المُلِمَّات! فهَلُمَّ إليَّ.. يا حمدون؛ فإنِّي ذاهبٌ للمُرابطة في فحص السرادق.. وأُريدك معي!
- ما أنا إلا رجلٌ واحد.. يا أبا الوليد، ولن أُغني عنك من القوم شيئا!!
- بلى.. فيك الغَناء! فما نسيتُ أنَّك نصرتني حين خذلني الناس.. وفديتني بروحك حين بخل عليَّ أهل بيتي بفضول أموالهم، لن أنسى لك الود القديم!
- أَخْرِجْ مَن عندك.. يا أمير المؤمنين؛ أود أن أُسِرَّك بحديث!!
- ماذا؟؟ هل هذا مقام النجوى والأسرار؟! (تساءل المهدي بامتعاض)؛ فبادره حمدون هاتفاً بتحضيض وإصرار:
- أرجوك.. يا أمير المؤمنين! إنَّه أمرٌ خطير! وقد يسؤك أن يطلع عليه أحدٌ سواك؛ فاخْلِ المجلسَ.. خيرٌ لي ولك!

- حسبتُك جئتَ لنُصرتي ومؤازرتي!!؟ (ردد المهدي بخفوتٍ مختلط)؛ بيد أنه أذعن.. وأمر الحاضرين بالانصراف؛ فانفض الجمع من حولهما، ثم التفت إلى حمدون وهتف بشيءٍ من السآمة والازدراء:
- ها أنت ذا قد انفردتَ بالخليفة؛ فاقذف ما في جوفك! لكن.. عجِّل؛ فإنني في شُغلٍ عن مناجاتك!
- على هَوْنِك.. أيها الخليفة! فما حملني على القدوم إليك إلا العِشرة القديمة التي ذكرتَ، وتالله ما ابتغي من حديثي إليك –الحين- سوى نصرتك التي أمر بها النبي الكريم ﷺ حين قال: انصر أخاك ظالماً بأن ترده عن ظلمه!
- أي ظلم تزعم؟!! (ضحك المهدي وهو يتساءل هازئاً)، ثم أردف زاجراً: "كيف تُسوِّل لك نفسُك أن تتهمني بالظلم؟! هل لأني حبستُك بضعة أيامٍ لحاجةٍ في نفسي.. رأيتُ فيها صلاح القصر؟! أ لهذا الحد بلغ الغل والضغن في قلبك؟!! بُعْداً لك!! كنتُ.. والله.. أحسبك مخموم القلب.. صدوق اللسان!".
- لا يدفعك الكِبْر إلى سوء الظن.. يا أبا الوليد؛ فاسمع مني.. وإني سائلك؛ فأجبني!!
- ....
- لماذا صنعتَ بالمؤيد ما صنعتَ؟!! لماذا ادَّعيتَ أنَّه مات.. وأخفيتَه عن الناس؟؟!
- هل جُننتَ.. يا ابن هشام؟؟ كيف تتهمني بذلك؟؟ وأيم الله.. (جأر المهدي مُنكراً بتلعثُم.. وقد اكفهر وجهه.. وتبدَّلت ملامحه إلى الذعر كأنَّما يذبّ عن نفسه سبعاً جسوراً يوشك أن يفترسه)؛ فقاطعه حمدون هاتفاً بصرامة:
- أُسكت! لا تقسم كاذباً! قد عرفتُ الحقيقة كاملةً؛ فلا تُضف إلى آثامك اليمينَ الكاذبة.. فإنَّها غموس! ولعَمْرِي.. إني أكره لك أن تغمس في جهنم؛ أ تدري لماذا؟؟
- ....
- لأنني –كما قلتَ أنت- باقٍ على عِشْرةِ السنين الخوالي.. وعلى المودة القديمة، غير أني أتساءل متعجباً: كيف.. يا أبا الوليد؟؟ كيف غرَّك الشيطانُ.. وألجأك إلى تلك الحيلة المخزية للتخلُّص من المؤيد؟!! ثم كيف استحللتَ أن ترث أمواله

وجواريه؟! وكيف تستبيح التمتُّع بميراثه.. وأنت تعلم أنَّه لا يزال حياً؟!! تالله.. إني حزينٌ عليك.. يا أبا الوليد، وما أحضرني إلى هنا غير إشفاقي عليك، وخشيتي أنْ تخرج إلى لقاء عدوك غداً وأنت غاش لرعيتك؛ فيَخذُلك الله ويُخذَل الذين معك؛ فنُفجَع في قرطبة وأهلها الأبرياء.. من جَرَّاء غشك وخِداعك!

- اخسأ عني.. أيها الفتى؛ فلقد أسمعتني ما لا أغفره لغيرك! ولولا بقية مودةٍ في قلبي؛ لأمرتُ بقطع رأسك في الحال! على أنِّي سأكتفي بإعادتك إلى المطبق؛ عسى أن تثوب –في ظلماته- إلى رشدك!!

بعد لأيٍ.. -سكت أثناءها حمدونُ تفكُّراً وتدبُّراً- ارتأى أنَّ المهدي ماضٍ في غيِّه وكِبْره.. ولن يردعه غير الترهيب والتخويف، رمقه من طرفٍ خفي؛ فألفاه يحدجه بنظراتٍ مستعلية تظن في نفسها الفوز والقوة، آنئذ.. قرر أن يلاعبه ويهدده مثلما يتوعده؛ فتنحنح.. وتظاهر كأنَّما يتهيأ لقول ما لا يحبذه.. ثم هتف:

- إذاً.. قد ألجأتَني إلى ما لا أود اللجوء إليه!! اعلم –أبا الوليد- أنَّ ورائي أقواماً؛ إنْ أنا تأخرتُ عندك عن العودة إليهم؛ فإنَّهم سيعمدون إلى محبس المؤيد.. ويُخرجونه بالقوة.. ويطوفون به قرطبة جمعاء ليفتضح تزويرك وغشك لرعيتك، وساعتئذ.. سينفض عنك الناس؛ بل وينقلبون عليك، وستخسر الخلافة وكل شيء.. وربما خسرتَ حياتك أيضاً! فانظر فيما جئتُك به.. بعين الكيس الفطن!!
- تحالفتَ عليَّ مع البربر.. يا حمدون؟؟! (تساءل معاتباً.. بمرارة وانكسار)
- تعلم أنَّني لم أفعل، وأنَّ هذا ليس لي بخُلق!!
- ماذا كنتَ تريدني أنْ أفعل؟؟! لقد تأخرت كتبُ بيعتي.. وتلكَّأ أهلُ الأقاليم فيها أملاً في عودته للخلافة! وما يدريك: فلربما كانوا يدبرون للوثوب عليَّ.. وإعادته على العرش قسراً؟!! هل كنتَ تُفضِّل أن أتركه في القصر ليتذرع به الطامعون وأهل الفتن ويستغلونه لإثارة الأزمات والاضطرابات في البلاد؟ أم.. هل كنتُ أتأنى حتى يهدموا دولتي.. ويُسقِطوا قوائمَ عرشي؟؟!

- ألم تجد غير هذه الحيلة الرخيصة للحفاظ على عرشك؟؟!
- وما ضره أنْ أشعتُ بين الناس أنَّه مات.. رغبتاً في استقرار الدولة واستتباب الأمن؛ فقد تنازل لي عن العرش مختاراً؟؟ وما يضره أنْ أخرجتُه من القصر إلى مكانٍ آمن أُخفيه فيه حرصاً على حياته.. وتوطيداً لأركان مُلكي؟!!
- إنَّك تُسفِّه الأمر، وإنَّك لتعلم أنَّها فعلةٌ خسيسة.. لا تليق بالخلفاء.. أيها الخليفة!
- تُرى.. هل كنتُ أقتله أفضل؟! تلومني.. لأنَّي وفيتُ له بوعدي؟! حفظتُ حياته.. وحققتُ له حلمه بأنْ يعيش في بيتٍ من بيوت قرطبة.. كما عامة الناس!!
- بل دفنتَه حيّاً في بيتٍ من بيوت قرطبة!! ثم.. ماذا أنت فاعلٌ به الحين.. وقد انقلب عليك الجنودُ البربر، وبايعوا مروانياً غيرك، وقد جمعوا لك ما جمعوا؟!!
- احفظ السر.. يا حمدون، وهو.. كما هو.. مستورٌ في مكانه.. آمناً مُطمئناً!!
- كلا.. يا أبا الوليد! هذا جَنَفٌ[1]عظيمٌ لا يَحِلُّ السكوت عنه.. وينبغي تقويمه بإعلان حياة المؤيد.. ولو لم يرجع إلى القصر!!
- ماذا تقول؟؟! (صاح المهدي منزعجاً مبهوتاً).. ثم أردف: "هل فقدتَ رشدك.. أيها الفتى؟؟ مَن يُجرؤ أن يعيد ميتاً إلى الحياة بعد أن شاع خبر موته بين الناس؟؟ هل تريد أن تفضحني.. يا حمدون؟! هل هذا هو وفاؤك للصلة التي بيننا؟؟!
- فضيحةُ الدنيا.. يا أبا الوليد.. أهون من فضيحة الآخرة.. يوم لا ينفعك مُلكٌ ولاجاه، وإني.. والله.. أشفق عليك أنْ تَلقى اللهَ غاشاً لرعيتك!
- إنَّك تُصعِّب المسألةَ عليَّ.. يا حمدون!! (جأر بانكسار.. ثم أطرق مُتفكِّراً)
- أنت.. مَن صَعَّبتَها.. يا أبا الوليد! لكن.. فلتجعلها توبةً نصوحةً.. تبتغي بها وجه الله، وإنْ شاء الله يُيسرها لك، ولإنْ فعلتَ ما أرجوه منك؛ فستجدني معك.. أنصرك ولا أخذلك، وذاك عهدٌ عليَّ!!
- أَمَا من سبيلٍ آخر يحفظ ماء وجهي أمام رعيتي؟؟! قد أعلمتُك أنَّي فعلتُها أريد بها تثبيت ركائز العرش؛ وما كنتُ ابتغي شراً للمؤيد أبداً؛ ودليلي أنَّه لم يزل حياً!!

---

[1] : جنف: جور وظلم.

- أَعلم أنَّك صادقٌ في هذه.. يا أبا الوليد! لذا.. فإنِّي أظن أنَّك لو عَرضتَ الأمر على قاضي القضاة (ابن ذكوان)؛ فقد يكون عنده حلٌّ حصيف يُخرجنا من تلك الكُرْبَة.. راشدين: فيُعلِن حياةَ المؤيد دونما تشنيع يُقوّض عرشك!!
- رأيٌ لا بأس به! (وافقه بإذعان المُنهزم)، ثم خفض رأسه وأمسك يد حمدون بيدٍ مُرتعشة، وجأر بنبرة توسُّل خائرة: "أيا حمدون.. كن معي.. ولا تتخل عني.. يا صاحبي؛ فأنت رفيق دربي.. وأول نصيرٍ بايعني على الموت؛ ألا تذكر؟؟!".

شدَّ حمدونُ على يده بمودة.. وربت على كتفه بأُخوةٍ وهو يُنهِضه، ثم هتف بشهامةٍ:

- يمين الله.. يا أبا الوليد.. إني أحبك وأحب لك الخير –في الدنيا والآخرة-، وما حملني على الإصرار على تصحيح تلك الزَلَّة إلا ذاك الحب!!
- يعلم الله.. أنني –أيضاً- كنتُ أحبك.. يا حمدون! وسأصنع كما تريد -رغم أنَّه قد يؤذيني- إكراماً لك؛ على أنِّي لي رجاء.. عندك!!؟
- سَلْ.. ما شئتَ.. يا أمير المؤمنين!!
- تعلم أنَّ جيوش البغاة وحلفائهم الكفار على وشك غزو قرطبة؛ فأخشى لو أنَّا كاشفنا الناس بكذبنا عليهم في موت المؤيد؛ أنْ يفقدوا ثقتهم فينا وينقلبوا علينا، ولا يخفى عليك ما في ذلك من خطر.. أكره –أنا وأنت- أنْ نُعرِّض له قرطبة!!
- أصبتَ!! فماذا ترى.. أيها الخليفة؟؟!
- أرى أن نُرجئ إعلان حياة المؤيد لحين الانتهاء من فتنة البغاة؛ ثم نفعل كما تشاء!!
- تعاهدني على هذا.. يا أبا الوليد؟؟!
- لك عليَّ عهد الله.. أن أفعل!! لكن.. لِيَّ رجاءٌ آخر!!؟
- وما ذاك؟؟ (استفهم حمدون بابتسامةٍ ودودة)؛ مُتذكِّراً طريقة محمد المهدي الطفولية التي كان يُراوغه بها –في عهد الصبا- ويُشعره بها كأنَّه الأكبر رغم أنَّ المهدي أسن منه بسنوات؛ لذا فقد ابتسم وانشرح صدره استبشاراً كأنَّه استعاد صديقه القديم بعد غياب.
- أُريدك معي.. يا حمدون! أريدك معي في.. فحص السرادق!!

- أنا معك.. إنْ شاء الله.. يا أمير المؤمنين! (صدح حمدون بنخوةٍ ورِضا)
- ها هو ذا السهم قد عاد إلى النَّزَعَة[1]! (هَلَّلَ المهدي مغتبطاً وهو يُقبِل على صديقه القديم يُعانقه ويُقبّل رأسه)، ثم انسحب متراجعاً ليقعد على كرسي عرشه وهو يستأنف آمراً: "والآن.. امضِ إلى خازن بيت المال.. واقبض متأخر عطاك ومثله معه؛ فقد زدتُك من الحين!".
- تعلم.. يا أمير المؤمنين... (همَّ حمدون أن يتنصل من قَبْض العطاء)؛ بيد أنَّ المهدي قاطعه ناهِراً في تَلطُّف:
- إيَّاك أن تمتنع، وتعتذر بحجة أنَّ (فاطمة المروانية) نهتك عنه؛ فلن أقبل منك إلا أن تأخذه؛ ولتستعين به على التجهُّز للمعركة!
- سمعاً وطاعةً.. يا أمير المؤمنين! لن امتنع!!
- هيا.. انصرف راشداً، وعجَّل في التجهُّز، وألقاك –عما قريب- في فحص السرادق!
- حباً وكرامةً.. يا أبا الوليد! السلام عليكم ورحمة الله!! (هتف بتوقيرٍ.. وهو يتهيأ للانصراف)، حالما أشاح المهدي بوجهه عنه.. ونادى حاجب بابه صائحاً:
- إليَّ.. بفرتون الصقلبي.. حالاً!!

****

-المشهد السادس والعشرون بعد المئة-

خرج حمدون من إيوان الخليفة مُنشَرِح الصدر لنجاحه في إنقاذ المؤيد، متفائلاً بإنابة المهدي إلى الله على يديه، وبينما هو عند خازن القصر ليقبض عطاءه؛ إذ ناداه طرسوس هاتفاً: "وَيْهَا يا حمدون! تعود إلى القصر.. ولا تأتي إلى صديقك المخلص.. (طرسوس)؟!!"، التفت إليه بوجهٍ باشّ.. ولوَّح بيده قائلاً: "لم أعد إلى القصر.. يا صديقي؛ وإنَّما جئتُ الخليفةَ في حاجةٍ، والحمد لله.. قُضِيَتْ!".

[1] : مثل عربي معناه: أي عاد الأمر إلى أهله.

أقبل إليه طرسوسُ.. ثم تعانقا، ثم مال به إلى أحد الأركان.. وتساءل باهتمامٍ عطوف: "وما حاجتك.. يا صاحبي؟؟ هل تحتاج.. مالاً؟!!".

- كلا.. كلا! الأمر لا يتعلق بالمال!! (جأر حمدون كأنَّما ينفي عن نفسه مَسَبَّةً)
- إذاً.. لماذا أراك عند الخازن؛ وكأنَّك تنتظر أنْ تقبض عطاءً؟؟!
- هو.. ذاك.. يا طرسوس! قد جئتُ.. أقبض.. عطاءً!! (أَسَرَّ باستحياء)
- لقد كنتَ مُمتنعاً عنه آنفاً.. رغم إلحاح المهدي عليك.. إلى حد أنَّك غاضبتَه؛ فما الذي جدَّ في الأمر؟ أرجو ألا تكون ضائقة.. أحوجتك إلى المال.. يا حمدون!!؟
- ليس المسألة كما تظن.. يا صديقي المُتطفِّل!!
- فما هي.. إذاً؟؟ صارحني.. يا أخي، تعلم أني أحبك.. ويهمني أمرك!
- ذرني أقبض المال، ثم أذهب معك إلى حجرتك.. وأسرد لك الحكاية!

*****

حمل طرسوس المالَ مع حمدون الذي دَهَشَه أنَّ المهدي قد ضاعف عطاءه حقاً، ثم توجها إلى حجرة طرسوس، دلفا.. ثم وَضَعَ المالَ جانباً في غير اكتراث، ثم راح يجول ببصره في جنبات الحجرة.. كأنَّما يُفتِّش في أثاثها وجدرانها، جلسا.. فأشار بعينه إلى فراش فرتون –الذي أمسى يشارك طرسوس الحجرة- متسائلاً: "أين رفيقك الصقلبي؟؟"

- كان هنا؛ لكن طلب الخليفةُ مثوله بين يديه دون إبطاء؛ فهرول إليه!
- ألم يكن المهدي قد سخط عليه.. وطرده من خاصته؟؟!
- بلى!! ولذا فقد تعجبتُ وإياه من هذا الاستدعاء المفاجئ، ولو تراه وهو ذاهب؛ كأنَّ قدميه تعجزان عن حَمْله هلعاً!! (صاح طرسوس ضاحكاً.. متهكماً)
- عساه خيراً.. إنْ شاء الله!!
- ألن تخبرني لماذا تراجعتَ عن رفضك للعطاء؟؟ أرى أنَّك تُخفي سراً.. يا حمدون!!

قام حمدون إلى أكياس المال.. ودفعها بكلتا يديه إلى صاحبه.. وهو يصدح:

- خذ.. يا طرسوس! المال.. كله لك!!
- ماذا؟؟! هل جشَّمتَ نفسك حَمْله.. لتمنحني إياه؟!! إنَّك لمُخادع!!
- وأيم الله.. ما أخدعك! بل.. أهبك إياه.. حقاً! (هتف حمدون مؤكداً بإصرار)
- لماذا؟!! (تساءل متظاهراً بعدم الاكتراث.. محاولاً إخفاء اِشْتهائه المال).
- لأنَّ الخليفة يُصرُّ على أنْ آخذه، وفاطمة المروانية أقسمت عليَّ ألا أنتفع بعطاءٍ من المهدي أبداً؛ أما أنا.. فلا أحب أنْ أُسخِط أحدهما! لذا فقد قبضتُه من خازن المهدي إرضاءً له، وأُعطيه لك.. دون أن تعلم هي عن خبر المال شيئاً!!
- وماذا سأفعل -أنا- بهذا المال؟!! تعلم أنِّي زاهدٌ في متاع الدنيا!!
- أَعلمُ.. أنَّك.. زاهدٌ.. ورع!! (صدح حمدون مُتهكماً)، فيما رمقه صاحبه بتأفُّف؛ فابتسم مواسياً.. واستطرد: "إنْ شئتَ؛ شاركه.. صاحبك الصقلبي!!".

آنئذ.. دخل عليهما فرتون الذي تباغت لوجود حمدون في الحجرة؛ فتجهَّم وجهه للحظات، لكنه.. ما عتَّم أنْ ستر تجهُّمه، وأقبل عليهما محيياً.. متظاهراً بالسرور لرؤية حمدون الذي أشار إليه بمداعبة.. وهتف مخاطباً طرسوس:

- ها هو ذا قد حضر، اسأله لو يقبل أن يشاركك؛ فإنَّ المال كله لكما!!
- أَقبلُ.. بالتأكيد! أين المال؟؟ (صاح فرتون مازحاً.. قبل أنْ يفهم)
- ألا تتَرَيَّث.. كي تعرف فيما ستشاركني؟!! (هتف طرسوس مستهجناً)
- قد شاركتُك تلك الحُجيرة، وأُكابد فيها الصبر كل ليلة على غطيطك المزعج؛ فلن تسوأني بعدها مشاركتك في أي شيء آخر! (أجابه هازلاً.. وهو يضحك سخرية)
- لَعَمْرُك.. إنَّه لا يستحق.. يا حمدون! دع المال كله لي وحدي! (خاطب طرسوسُ حمدونَ ناظراً إلى فرتون باغتياظ)، ثم استطرد زاجراً: "يا خفيف الظل والعقل! إنَّ حمدون وهبني مالاً كثيراً؛ وكنتَ على وشك أنْ تشاركني فيه لولا لسانك الذي ما برح يُوردك الموارد!! فماذا تقول؟؟!".
- أقول: إنَّه رجلٌ كريم، وأنت.. بخيلٌ لئيم؛ وسأشاطرك رغم أنفك!! (هتف مُتندّراً)

- يا رفيق السوء!! ألا تسأل: لماذا يمنحنا كل هذا المال؟؟! (سأله طرسوس مبدياً الاشمئزاز من سماجة مزاحه)، فيما أجابه فرتون بلهجة جادة واثقة:
- المهم الهبة، أما عِلَّتها.. فلا تعنيني! لكن.. لأنَّك مُتَطَفِّلٌ غبي.. فسأُخبرك: إنَّه مالٌ أعطاه إياه الخليفةُ ليتجهَّز به للانضمام إلى عسكر فحص السرادق؛ لكنه يَتَنَزَّه عن أنْ يأخذه لنفسه؛ لذا يمنحك إياه.. أيها الطُفَيْلِّي!!
- .... يُبادل طرسوسُ حمدونَ نظرات التعجُّب، ثم يتساءل بإعجاب:
- كيف عرفتَ.. أيها الفَطِن؟!!
- وأزيدكما؛ لا حاجة لك –يا حمدون- لأن تُحسن التجهُّز لتلك الحرب؛ فإنَّك ستموت في ساعتها الأولى، وأنا قاتلك!!
- فرتون!! انتهِ عن هذا المزاح السخيف!! (صاح طرسوس زاجراً)
- لا أُمازحكما؛ بل.. أقول الحقيقة! هذا ما استدعاني المهدي لأجله، وقد وعدني بمكافأةٍ جزيلة.. وبأن يُعيدني إلى منزلتي السابقة: (ساقي الخليفة الخاص)!!

انتفض حمدون منتصباً في حنق، وأخذ بتلابيب فرتون، ثم صاح فيه مُعنِّفاً: "ما هذا الذي تهذي به.. أيها الوغد[1]؟!! المهدي يسعى لقتلي؟!! إنَّك لكذَّابٌ.. أفَّاك!!".

ردَّ يدَ حمدون عن ثوبه بتؤدة، وأمسك كتفيه بكلتا يديه.. وجعل يهزّه برفق.. ويهتف مؤنباً: "أنا لستُ كاذباً! أفق.. أنت.. أفق قبل أن تقول: ولات حين مندم!".

رشقه حمدون بنظرة تحدي غاضبة صائحاً: "إنْ كنتَ صادقاً؛ فهيا.. افعلها الآن.. لا تنتظر نشوب حرب!"، وأنشأ يصفع عنق نفسه بعصبيةٍ.. مُردفاً باحتدامٍ: "هيا.. اقتلني! ها هي ذي.. دونك رقبتي!!"، قام طرسوس هَلِعاً ليُفرِّق بينهما؛ فأبعد فرتونَ إلى جانب الحجرة.. وجذب حمدونَ محتضناً إياه ليُقعِده إلى جواره في الجانب الآخر، قعد حمدون ولم يزل ينتفض هائجاً، وأخذ يضرب كفاً بكف وهو يُتمتم موبخاً:

---

[1] : الوغد: هو خادم القوم بطعام بطنه.. وهو الأحمق.

- يا حامل الخمر.. يا ملعون! تريد أن تقتلني؟!! وتخادعنا فتقول: بأمرٍ من المهدي؟!! إنَّ المهدي بريءٌ منك.. ومن أفعالك.. أيها الملعون!!
- ارفق بنفسك.. يا حمدون!! وأنت.. يا فرتون! تعال.. اعتذر عن هذا المزاح السمج!
- أنا لا أمزح!! لا تصم أُذنيك.. يا حمدون، وتدبَّر الأمر.. قبل أن تلعنني، فإنْ كنتُ قد حملتُ الخمر؛ فقد كنتُ أحملها وأسقيها للمهدي! المهدي الذي يتوخَّى هو اغتيالك.. لا أنا! وإلا.. فأنى لي أنْ أعرف أنَّك أخذتَ عطاءه لتنضم إلى فحص السرادق عدا أن يكون أنبأني بلسانه؟!!
- لماذا تُخبرني.. إذاً؟؟! لماذا لم تكتمها.. إلى حين أن تفعلها.. كما أمرك؟!!
- لأنني.. لا أُحب أن أقتلك.. يا حمدون!!
- .... حدجه بنظرةٍ صامتة ذات ابتسامةٍ ساخرة غير مُصدِّقٍ لكلامه؛ حالما هتف طرسوس يحاول تهدئة فورة صديقه:
- اسمع منه.. ربما يكون صادقاً؛ احكِ ما دار بينك وبين الخليفة.. يا فرتون!!
- لم يكن بيني وبينه أكثر مما أنبأتُكما به؛ استدعاني.. وأمرني بقتلك غِيلَة حينما نكون في ساحة المعركة.. واعداً بمكافأة سخية.. ومتوعداً إنْ لم أفعل.. أو إنْ علم أحدٌ سواي بمراده!! يحسبني غادراً مثله.. أستبيح قتل أصحابي!!
- ....
- ويتَوَهَّم أني أحمقٌ أيضاً؛ خاب.. وخسر!! لا جرم أنَّه كما سلَّطني عليك.. قد سلَّط عليَّ غيري.. ليقتلني فَوْر أنْ أقتلك؛ فيموت خبرك بموتي معك!!
- وماذا تريد مني.. بعد أنْ أخبرتني؟!! (سأله حمدون محاولاً كظم غيظه)
- أن تحتاط من عدوك، وأن تعلما.. أنني لستُ غادراً لئيماً.. مثلما ظنَّ فيَّ هو!!
- .... لازم حمدون السكوت مبهوتاً بينما تساءل طرسوس بتحسُّر وأسى:
- لكن.. لماذا يُدبِّر المهدي لاغتيال حمدون؟؟ أ وبعد طول الصحبة والعشرة؟!!
- هذا ما ينبغي أن تُجيبنا عنه.. يا حمدون؛ أخبرنا.. ما النبأ!؟؟ (جأر فرتون)

****

-المشهد السابع والعشرون بعد المئة-

سكت حمدون أمداً؛ حتى ظنَّ صاحباه أنَّه خَرِسَ، بيد أنَّه سكت عنه الغضبُ؛ فجعل يتفكَّر.. إلى أنْ فَطُن لحقيقة المسألة: (أراد محمد المهدي –ذاك المخادع اللئيم- أنْ يُغافلني مُسَكِّناً إياي بأنَّه قد أذعن لرغبتي في إعلان حياة المؤيد، والتمس مني بعض التأجيل وهو يُبيِّت الغدر.. عازماً على أنْ يمكر بي ويُدبِّر لاغتيالي في ساحة المعركة.. كأنَّما قتلني العدو؛ فيخرج بها من خطر تهديدي له، ولا يَبعُد أنَّه دبر لقتل المؤيدَ في ذات الوقت!!)، (أَبَعَدك اللهُ.. أيها الشيطان الماكر!! وا حسرتاه على سنوات عمري التي ضيَّعتها في مصاحبتك!!).

تأوه مُتحسِّراً بينما صاحباه متربِّصان به.. يتحيَّنان أنْ يتكلم، رفع بصره إليهما.. ثم خاطب فرتونَ هامساً بانكسار: "أشهد أنَّك خيرٌ منه؛ تستقبح قتلي على قصر مدة صحبتنا، وهو يستبيحه.. رغم صحبة السنين الطويلة!!".

- لا تبتئس.. يا حمدون! ولا تحزن على اللئيم الغادر!! (صدح طرسوس يُطيِّب خاطره)، حالما تساءل فرتون مُلِحّاً.. بنبرةٍ خافتةٍ:
- في ظنِّك: لماذا يريد اغتيالك.. يا حمدون؟!!
- لأنني علمتُ أنَّ.. المؤيد.. حيٌّ!!
- المؤيد.. حيٌّ؟؟!! (تساءلا متفاجأَين مشدوهَين)، ثم أردف فرتون بإقرار:
- لَعَمْري.. كنتُ أشك في قصة موته بِرُمَّتِها منذ البداية؛ احكِ.. يا رجل!
- بلى!! أراد قتلي لأنني أنذرتُه إنْ لم يُعلِن حقيقة حياة المؤيد، وقد أَوهمتُه أنِّي معي أقوامٌ يؤازرونني، وأننا سُنظهر المؤيد للناس عنوة إنْ لم يفعل هو برضاه؛ فتظاهر بالامتثال.. وهو يُضمِر الخيانة! لكن.. قد حاق به مكره.. إن شاء الله!
- كيف عرفتَ أنَّ المؤيد لم يزل حياً؟؟!

- جاءني (الحسن الفقيه) نادماً مرتاعاً ليُصارحني بأنَّ المؤيد محبوسٌ عنده في داره القديمة بأمرٍ من المهدي، وليس معه أحدٌ غير وصيفته (شعب)، وإنَّه يخشى الغِيلَة على المؤيد.. ولا سيما بعدما عَلِمَ أنَّ الغزاة على مشارف قرطبة!
- لكن.. كيف؟!! لقد شهد الشهود والقضاة على وفاته.. وصلّينا عليه؛ فأنى يكون حيّاً؟! هل تأكدتَ من النبأ.. يا حمدون؟؟! (تساءل طرسوس بعقلٍ مُشوَّش)
- قد أقسم لي الحسن بأغلظ الأيمان أنَّها الحقيقة، وآن واجهتُ المهدي لم يُنكر؛ بل أَقَرَّ بحياة المؤيد.. وهَمَّ يسوق المعاذير الواهية ليبرر فعلته الدنيئة!!
- على مَن صَلَّينا إذاً؟؟! ومَن ذا الذي دفنه الناس في قبر المؤيد؟!!
- كانت خُدْعَة احتال بها المهدي.. وشيطانه (صاعد الحرَّار).. ليُضلّا بها الناس، ويوهماهم أنَّه مات، والحقيقة.. أنَّ الجثة ليست جثته؛ بل جُثَّة رجلٍ يهودي نكرة من دهماء السوق، مات.. فانتهزها صاعد فرصة؛ وادَّعَى أنْها جُثَّة المؤيد!
- لكن.. كيف تسللت الجُثَّةُ إلى القصر.. دونما يعلم بها أحدٌ؟؟! وكيف أُخرِجَ المؤيدَ.. دونما يشعر به أحد؟!!
- جؤذر الأمين هو الذي يَسَرَ ذلك، يقول الحسن أنَّ المهدي نظَّم –في ذات الليلة- احتفالاً عظيماً صاخباً، دعا له كل أهل القصر أجمعين.. حتى الحراس والعبيد؛ فانشغل الجميع بالحفل والسمر، وأذهلهم الخمر والطرب عن صاعد والحسن وهما يتسللان دخولاً بجُثَّة الميت.. وخروجاً بجسدي المؤيد ووصيفته!!
- بلى.. إنَّها ليلة وداع الخمر! تالله.. قد صدق حدسي! (هتف فرتون مُهلّلاً.. فَرِحاً بإصابة تخمينه)؛ فيما التبست القصة على طرسوس؛ فسأل مندهشاً:
- كيف لهم أنْ يُدْخِلوا جُثَّة إنسان إلى القصر.. ويخرجوا بآخرَين.. من غير أن يشعر بهم أحدٌ من أهل القصر؟!! لا أكاد أصدق.. هذا!!
- ذاكما.. ما حكاه لي.. الحسن!! (جأر مؤكداً)، حالما خاطب فرتونُ طرسوسَ مُقرّعاً:
- سَلْ نفسك.. أيها الأحمق.. عن توابيت الصدقات التي حملتَها معهم!!
- وما تلك؟؟! (استفهم حمدون بشيء من الاستغراب)؛ فجاوبه فرتون:

- لقد عثر –هذا الأبله- على ثلاثتهم.. ليلتها وهم يحملون تابوتَين، ثم أقنعوه أنها صدقات يُخرجها المهدي سراً! (قالها).. ثم حدج طرسوسَ بنظرة ازدراء.. وصاح مؤنِّباً: "أما أدركتَ أنهما كانا لإدخال الجُثَّة.. ثم لإخراج المخطوفَين!".
- اتفق معك في إدخال الجثة الهامدة.. أيها اللبيب، أما المؤيد.. ألم يقاوم؟ ألم يستغيث؟ ألم تصرخ الجارية لتُنبِّه الغافلين؟!! (تشكَّك طرسوس)
- ربما.. انضم إليهم طبيب القصر.. وسقاهما مخدراً! (أجابه فرتون)
- والطبيب.. أيضاً؟!! الحق أقول: لَعَمْري.. لم أفطن لذلك أبدا!! (انشده طرسوس)
- وما أملك لك أنْ نزع الله الفِطْنَة والذكاء.. من رأسك! (لمزه فرتونُ هازئاً)
- قد انجلى الأمر، وعرفنا: كيف أخفوا المؤيد وأظهروا موته! لكن.. لماذا أَبقى المهدي على حياته.. ولم يقتله؟!! (تساءل حمدون حائراً)
- وما يدريك.. ربما كان يتحيَّن الفرصة السانحة؟!! (قال فرتون)؛ ثم أردف هامساً بارتياب: "وهل فرصة أسنح من أيامنا هذه؟!!".
- هذا يعني أنَّ حياة المؤيد في خطر! (خافت حمدون بتوجُّس)
- لا أشك في ذلك؛ ولا سيما بعد أنْ عرف أنّك علمتَ بسِّره! (أَقَرَّه فرتون)
- إذاً.. فقد وجب عليَّ إنقاذ المؤيد.. مهما كان الثمن!! (صدح حمدون بحميَّة)
- هل تستطيعها.. وحدك؟!! (تساءل فرتون مستنكراً)
- ليس وحده! وإنَّما أنا معه؛ كما كنا دائماً!! (صاح طرسوس بشهامة)، رنا إليه حمدون بامتنان؛ فيما هزَّ فرتون كتفيه وهو يُخاطبهما بانقيادٍ ساخر:
- هكذا.. قد وجب عليَّ أن أكون معكما؛ لأنه لن ينفعني أنْ أكون ضدكما!
- الله أكبر! (صاح حمدون)؛ ثم أردف سائلاً بتحضيض: "تُعاهداني على السعي لنجدته مهما كانت التضحيات؟؟".
- أُعاهدك.. يا أخي.. ولو فيها هلاكي! (جأر طرسوس بحماس)، بينما تَلَكَّأ فرتون يسيراً.. ثم أجاب مُوطِّداً:
- وأنا.. معكما، ولن أخذلكما!!

- هلمَّا.. نردَّ هذا المال إلى المهدي.. فلا نُعيَّر به!! (هتف حمدون بسلامة صدر)
- تَريَّثْ.. يا حمدون! هذا ليس برأي حصيف.. لأنَّك إنْ فعلتَ؛ فكأنَّما تُجاهر المهدي بالعداء، وكأنَّك تفضح سعينا لنجدة المؤيد! (خاطبه فرتون مُعْتَرِضاً)
- أصبتَ.. فما الرأي عندك؟؟! (سأله حمدون بعد هنيهة من التفكير)
- أولاً يتحتم علينا كتمان ما تعاهدنا عليه؛ فلا يُعلَم به حتى نُخرج المؤيد بسلام!!
- لا مناص من ذلك! (أقرَّه حمدون وطرسوس في صوتٍ واحد)
- ثم.. أسألك: هل خَبَرتَ مخبأ المؤيد؟؟
- قد أشرتُ في حديثي إلى أنَّهم أخفوه في دار الحسن القديمة!
- أقصد: هل عاينتَه.. لنَعرف كيف سنطلقه من هناك؟؟!
- كلا.. ليس بعدُ؛ على أنِّي أعرف مكان تلك الدار، وقد أنبأني الحسن في ثنايا حديثه أنَّهم -كي يبرروا عُكوف الحراس حول الدار- أظهروا للجيران كأنَّه أكرى الدار لصاعد الحرَّار كمستودع لبضاعته!
- هل عليه حراسة؟! كم عددهم؟؟ وما هو سلاحهم؟ يجب أن نحيط علماً بكل هذا قبل أن نضع الخطة لاقتحام المكان وإخراج الرجل سالماً!
- أصبتَ! لكن.. كيف نعرف سِوَى أنْ يذهب أحدنا إلى هناك.. ويحزر لنا القوم؟!!
- أنا أفعل.. إنْ شاء الله! (لَبَى طرسوس بشجاعةٍ وتحمُّس)
- تلطَّف.. يا طرسوس.. ولا تُشعرنَّ بك أحدا!!
- سأكون حريصاً.. لا تقلقا!! (أجاب طرسوس)
- على بركة الله! واحترس –يا أخي- أن يصيبك ما نكره!

****

-المشهد الثامن والعشرون بعد المئة-

فارق حمدون صاحبيه.. على مَوعِدةٍ بلقاءٍ يجمعهم تحت غطاء الليل -بعدما يُعاين طرسوس المخبأ خلسة ويحزر العاكفين على حراسته- ليُعِدّوا خطة اقتحامه وإطلاق المؤيد وجاريته سالمَين، ثم انكفأ إلى بيت جدته.. بعد أنْ أَخفى مال العطاء في موضعٍ آمن.

قرع على الباب وصفَّق بيديه تأدُّباً –كعادته مذ أقامت سلوان عندهم- إشعاراً للنساء بقدومه. توجه إلى قاعة الضيف؛ فإذا بجدته قابعة تترصَّد عودته، باغته وجودُها غير المُتوقَع، على أنّه تمالك فزعه سريعاً.. ودنا مُسلِّماً عليها، لم تُرحب به.. ولم تَبشّ له كدأبها؛ إنَّما واجهته بوجهٍ عابس.. وأشارت إلى شيءٍ تُزيحه من تحت قدميها وهي تزمجر بنبرةٍ ساخرة: "حبيبك.. أرسل لك هذي!".

ثَبَتَ محله مشدوهاً من سلوك جدته المريب إلى حدٍ أَعمى عينيه –في الوهلة الأولى- عن إدراك كُنْه ذاك الشيء الغير ضئيل، وأَعجز لسانَه أن يسأل عنه أو أن يستفهم: (مَن هو الحبيب الذي تَعْنِيه؟!)، ولم تُدرك هي أنَّ سكوته جهلٌ بمرادها؛ بل قدّرت أنّه خجلٌ منها واستخزاءً من فِعلته؛ فأردفت تُؤنِّبه وتسفِّه صنيعه صائحة: "هل فقدتَ صوابك.. يا حمدون؟!! كيف تَطمئن لهذا الرجل بعد ما فعله بك؟! كيف ترجع إليه.. وتنضم إلى جيشه بعد أن عرفتَ طيشه وتهوره؟! ثم.. كيف تقبل أن تنخرط في تلك الفتنة؟!! كيف طوَّعت لك نفسُك أنْ تلغ يدك في دماء المسلمين؟! يا أسفى عليك!!".

قبل أنْ يهمَّ بإجابتها.. استرد رشده، وعرف ذاك الشيء –تحت قدميها- الذي كان ينظر إليه ولا يبصره: (إنَّه قوس نُشَّاب من أسلحة القصر! ما الذي أتي به إلى هنا؟!!)، استدرك.. فأجابها: "لا أعلم عمَّن تتكلمين، ولا علاقة لي بهذا النُشّاب!!".

- أَتَكلمُ عن خليفتك (المهدي).. الذي أرسل يُهديك قوساً، ويؤكد أنَّه مُتشوّقٌ إلى رؤيتك تنضح به العدو.. كأيامكما الخوالي! (صاحت بصوتٍ جهير)

- ....

- هيا.. عَجِّلْ.. يا حمدون! خليفتك في انتظارك! اركض إلى فحص السرادق! ارم عدوك! أُقتل البربر؛ إخوانك.. أهل بلدك.. أبناء ملتك!!
- ليس الأمر كما تظنين.. يا جدتي!! (جأر محاولاً ذبّ الاتهام عن نفسه.. وبنبرةٍ منفعلة مُدَوِّية)، بيد أنَّها لم تترك له فرصة؛ بل اعترضته.. هادِرة باستهجان:
- هل ذاك الرسول كاذب؟! ألم تَعِد المهدي بانضمامك إليه؟!! وهذا القوس دليله!!
- اهدئي.. يا جدتي! وسأشرح لكِ المسألة برمتها! ثَمّة مكيدة.. يُدبِّرها لي المهدي!!

كان تحاورهما عالي الصوت بما يكفي لتمسّ بعض كلماته مسامع أم عبد الواحد؛ وتفهم منها أنَّ حمدون سيرحل إلى فحص السرادق ليُقاتل ضد البربر، نَدَّت عنها صرخةُ تَفجُّعٍ مؤلمةٌ.. بثَّت الرعبَ في الدار.

هرعت أم هشام إليها –وخلفها حفيدها- لتنظر: ما الخبر، ألفتها تَصُكّ رأسها مولولة.. وحولها كنتها وسلوان تسألان: "ما بك.. يا خالة؟! لماذا تبكين؟!"، وهي شاردة عنهما.. حتى أَبصرته مُقبِلاً عليها؛ قامت تمشي إليه.. وتعاتبه بحُرقةٍ: "أ حقاً ستقاتل البربر.. يا ولدي؟! ستُقاتل أخوتك.. يا حمدون؟ هل تريد قتل أبنائي؟!".

زفر متأففاً من هذا التشويش والالتباس الذي أحدثه تحاوره مع جدته، دنا من العجوز البربرية بتؤدة.. وأمسك كفها وربت عليه برأفة.. ثم هتف مُطمئِناً:

- اهدئي.. يا خالة.. ولا تجزعي! حاشا لله.. أنْ أسعى لقتل أولادك!!
- فما هذا الكلام الذي سمعته أُذني؟!!، وما ذاك السلاح الذي تراه عيني؟!
- أُصْدُقنا القول.. يا حمدون؛ هل وعدتَ محمد المهدي بالقتال معه؟! (بادرته جدته بسؤالٍ صريح لتقطع الريبة)، لكنَّه أَمسك عن إجابتها تردداً وحيرة؛ فانبثقت أمُ عبد الواحد بالذم على المهدي:
- قاتله الله! اتهمنا بالبغي.. وشرَّدنا وقاتلنا.. وهو الباغي العَادِي! قبَّحه الله وأخزاه!

- يا خالة!! لا يَجْرِمَنّكِ بغضك إياه على ألا تعدلي؛ إنَّ البغاة هم الذين نزعوا أيديهم من الطاعة، وهم الذين اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين.. وتحالفوا معهم ليجتاحوا قرطبة وينتهكوا حرماتها!! (استفزته شكواها؛ فجأر مُصرّحاً باستيائه الذي يختلج في صدره مما سمعه عن تحالف البربر مع كونت قشتالة)؛ فبُهتت جدته والأخريات حاشا أم عبد الواحد التي انبرت تفنِّد قوله هاتفة:
- وهل صدَّقتَ.. يا ولدي؟!! هل صدَّقتَ ما يُشيعونه زوراً عن البربر؟! ألم يُشيعوا من قبلُ.. أنَّهم قَتَّلوهم.. تقتيلاً؟! ثم افتضح كذبهم بقدوم فلول جيشهم المنهزم!!
- كيف لا أُصدِّق.. يا خالة؛ وفي فحص السرادق قد حُشِد المقاتلة والمتطوعة من كل حدب وصوب؟؟! هل حُشِر كل أولئك الناس.. على غير شيء؟!!
- أيا حمدون!! هل تصدِّق أنَّ عبد الواحد وأخوته يتحالفون.. مع عدو الأمة؟! وهم.. مَن هم؟؟ هم الذين كانوا يُقاتلونه نيابةً عنك.. وعن أهل قرطبة أجمعين!!
- كلامك يؤكد صدق شكوكي.. يا حمدون! لقد وعدتَ ذاك الأرعن بالمشاركة في القتال! لِمَ.. يا ولدي؟! لماذا تريد أنْ تفجعني بانغماسك في فتنةٍ لا تَعرف فيها أهلَ الحق من أهل الباطل! (انبعثت جدته تتصدى له وتعاتبه)، لم يرضخ لها؛ بل استرسل -بمكابرة- في مكاشفتهنَّ بضائقة نفسه.. هاتفاً:
- كلا.. يا أماه! قد عرفتُ أهلَ الحق؛ وإنَّهم مرابطون –الآن- في فحص السرادق دفاعاً عن أرضهم وأعراضهم، وعرفتُ أهل الباطل؛ وهم يزحفون –الحين- بصُحْبة الكفار.. إلى قرطبة لانتهاك حرمات المسلمين.. وفضح عوراتهم!
- تعلم أنَّ المهدي وحاجبه وجنودهما.. هم الذين بدأونا؛ وليس ذبحهم (وسنار البرزالي) على فراشه منك ببعيد، أو (مسلم بن عبد الله الحسيني) وما فُعِل به وبأهل بيته، وغيرهما كثير!! (أجابته أم عبد الواحد بتألُّمٍ.. مُتفجِّعة على قومها حينما حضرتها ذكراهم)؛ فجاوبها مُصِرّاً على المجادلة:
- لقد تعاطفنا معكم إذ كنتم مظلومين؛ أَمَّا أنْ يتحالف فرسانكم مع أعداء الأمة ليعتدوا على قرطبة وعلى حرماتها؛ فقد أوجبوا بذلك قتالهم على كل ذي مروءةٍ!!

- وإنْ اِلتقيتَ صمصامةَ في المعركة؛ أ تقتله؛ وتفجعنا في أبٍ غائبٍ.. لمَّا يرى وليده بعدُ؟! (تساءلت توسمان بشفاه مرتعشة وقلبٍ وَجِل)
- اطمئني.. يا سيدتي! لإنْ التقيتُ زوجَكِ؛ فلن يكون هو المقتول!!
- تَفدِيه بروحك وتَدَعه يقتلك؟!! وأنت الذي حفظتَ أهله وأقمتَ على رعايتهنَّ في غيابه، وأَذَّنتَ في أُذن طفله قبل أنْ يراه؟! فنكون كاللئام يجحدون معروف أهل المروءة؟!! (جاوبته بصوتٍ يرتجف تأوُّهاً ونشيجاً)

غشيهم الصمت والرهبة تأثُّراً بكلماتِ الأم الشابة التي لمَّا يفرح زوجها الغائب بوليدها، انبثق الدمع من العيون.. ونشجت النساء وانتحبنَّ، واستفاق حمدون من سكرته.. وثاب إلى رشده؛ فانتبذ عنهنَّ يلوم نفسه: (ما أغناك عما قلتَ! أَحزنتَ جدتكِ لغير ضرورة، وأفزعت نساء كسيرات.. لا ناصر لهن ولا معين!!)، ثم يهجس مُبكِّتاً: (ما كانت حاجتك لهذا المِراء؟! وقد عزمتَ على مفارقة المهدي.. بعد الذي بَدَرَ منه!!)، تجيبه خواطره: (أُنفِّس عن ضيق نفسي؛ قد جاش صدري غيظاً وكدراً مما نحن فيه! هل يسمع ذو شرف ومروءة.. بجنود العدو يزحفون على بلده وأهله؛ ثم يرضى بالدَّنيَّة إعذاراً للذي استقدمهم؟!!)، تجاوبه شجونه: (ليس المهدي بأقل إثماً منهم؛ هو من اضطرهم لما فعلوه، وهو مَن قهر المؤيد وأَماته عند الناس.. واستحل ميراثه حتى جواريه؛ وما هو بميت!!)، (والحين.. يُرسل إلى جدتي سلاحاً يزعم أنه هدية.. رغم أنه وهبني عطاءً مضاعفاً!!؟ لَعَمْري.. ما أراد به غير أنْ يُوقِع الشحناء بيني وبينها، يا له من نمَّامٍ أثيم!!)، (ليت شعري!! ما تلك الدواهي النازلة على رؤوسنا؟!!).

يلملم شعث عقله ويستجمع شتات فكره؛ ثم يهجس في خاطره: (لا مفر من تطيِّب خواطرهن؛ ولو أُضطررتُ لإعلامهن بحقيقة ظلم المهدي للمؤيد، وبعزمي على استنقاذه منه.. وفضح غشه وتدليسه أمام أعين الناس!!)، نهض إليهنَّ.. واستغفر الله.. واستعاذ من الشيطان الذي نزغ بين الأخوة وفرَّق بينهم، ثم أفشى لهنَّ ما كان يُخفيه، وصارحهنَّ بنيته هو وأعوانه واعتزامهم على إنجاد المؤيد وفضح المهدي.

****

-المشهد التاسع والعشرون بعد المئة-

بُثت العيون على طريق الثغور الشمالية لترصد الأخبار؛ فانجلت الحقيقة.. ولم يبق ثمة شكٌ في زحف جيش البربر وقشتالة إلى قرطبة، وتواردت أخبار الزحف على المرابطين في فحص السرادق.. وعلى أهل قرطبة؛ فساد الاضطرابُ المدينةَ وأرباضها، ورانت الكآبةُ على بيوتها.. وتملَّكهم خوف مريب من مستقبل مجهول، اشتدت الفاجعة على المهدي وأرعبته النازلة.. وظهر للناس وَجَله وخوفُه، هجر قصرَ الخلافة ليُقيم في فحص السرادق؛ مُظهراً رغبته في المرابطة مع المحاربين.. مُضمراً التحصُّن بهم، وافترق الناسُ أحزاباً: فانتبذ القائد (واضح) وجنوده.. وأبقى على عسكره منفردين.. لا يُخالطه أحدٌ من العامة، وحزَّب صاعدُ الحرَّار -حول المهدي وفسطاطه- أنصارَه (الثوار القدامى).. ومَن والاهم مِن أهل قرطبة والبوادي.. وهم كثير، وتفرَّق آخرون من المتطوعين حول أسوار المدينة.. والخنادق على أفواه الأرباض، وانسلَّ آخرون –مِمَن تملَّكهم الهلع- ليختفوا في بيوتهم، ويغلِّقوا عليهم أبوابهم دون تلك الداهية النازلة فوق الرؤوس.. منهم: الحاجب (عبد الجبار)!

"لم يبق بينهم وبيننا غير مسيرة يومٍ أو يومين!": قالت العيون الراصدة؛ فازداد المهدي هلعاً وفَرَقاً، وكان.. كلما مرَّ به الوقت؛ كلما كرَّر السؤال عن حمدون.. وفرتون، ويزداد اضطرابه وغضبه.. كلما علِم أنهما لم يصلا بعدُ؛ حتى أنَّه أثار حنق صاعد الحرَّار فصاح فيه: "ما بال هذين تسأل عنهما دون غيرهما.. أيها المهدي؟! إذا لم يكن هذا الجمع.. لك وِقاء؛ فلن يُغنيا هما عنك شيئاً!!"، أراد أن يُطيِّب خاطره؛ فهمَّ أنْ يُنبِّأه بخبرهما؛ بيد أنَّه تراجع.. وسكت.

انفلت من فسطاطه قاصداً القائد (واضح)؛ فبالرغم من كثرة عدد جيش صاعد والمتطوعة إلا أنَّه لا يثق في دراية أحد وحنكته عدا ذلك القائد، انفرد به.. وسأله -غير مُخفي قلقه واضطرابه-: "ماذا ترى.. أيها القائد.. فيما نحن فيه؟!!"

- أرى ظالعاً يقود كسيراً[1].. أيها الخليفة! (قالها بلهجةٍ فَجَّة الصراحة)
- ماذا؟!! أ تعني أنَّ كل تلك الجموع الوافرة من الرجال.. لا تُغني عني شيئاً؟!
- يا أمير المؤمنين! نحن في موقف يتحتَّم علينا فيه المصارحة؛ لذا فإنِّي أصارحك: لا تغتر بكثرة تلك الجموع؛ فإنَّهم لن يثبتوا أمام عدوك.. ساعةً من نهار!!
- وأنت وفرسانك؟! أ ليس فيكم غَناء؟!!
- آفة الرأي الهوى[2] -كما تقول العرب- أيها المهدي! ما فائدة بضعة مئات من فرساني أمام جيش عظيم من فوارس البربر وقشتالة!
- وما قيمة بضعة آلاف من البربر أمام هذه الجموع الغفيرة؟! ألا ترى أنَّ البلد قد غصَّت رحابه وأرباضه حتى المقابر.. بالمحشودين من المتطوعة من أهل البوادي وأقاليم الأندلس؛ الكثرة تغلب الشجاعة.. أيها القائد!!
- يا سيدي! انظر إليهم بعينٍ فاحصة؛ حرَّار.. جزار.. حطّاب.. صيّاد.. طبيب؟! هل أولئك هم جيشك الذي تُعوِّل عليه؟! ألا تبصرهم كيف يلبسون الدروع؟ ألا تشاهدهم وهم يحملون البنود.. ويقرعون الطبول؟! إنَّهم فضيحةٌ وضُحكةٌ لِمَن رآهم!! أيها المهدي.. لا تستاء من صراحتي؛ سيُهزم الجمع.. ويولون الدبر!!
- ماذا تقول؟!! إنَّك تثبطني بتشاؤمك هذا!! (هتف المهدي وقد اشتد جزعه وفَرَقه)
- بل.. إنِّي أُنبِّهك؛ لأنِّي حريصٌ عليك.. وحريصٌ على الثأر من هؤلاء البغاة!
- .... (ارتعشت شفتاه.. وما نبث ببنت شفةٍ.. خوفاً وكمدا)
- أرى أنْ قرطبة.. قد ضاعت منا.. أيها المهدي!! (جأر بنبرةٍ متشائمة)
- بل.. أرى.. أنَّك تَخذُلني.. أيها القائد!! (همس بانكسارٍ وأسى)
- معاذ الله.. أنْ أخذلك.. يا أمير المؤمنين! لكني أرى أنْ أرحل إلى الثغور؛ فهي الأبقى لنا، وأنا أعلم بها وبأهلها، لن يذعنوا للبربر.. ولن يستسلموا لهم، فلو تَمُدَّني

---

[1] : مثل يُضرب للضعيف يقود الأضعف منه، والظالع هو: الأعرج. !

[2] : إحدى أقوال حكيم العرب في الجاهلية: أكثم بن صيفي.

بعشرين أو ثلاثين ألف دينارٍ؛ أنسحب بهن إلى الثغور؛ فإنّي.. أحفظها رِدْءاً لك!

- إنْ انسحبتَ وفرسانك -الحين- ستَفُتّ في عضد القوم وتحبطهم! هلا تنتظر معي.. وتتولى أنت قيادة تلك الجموع؛ لعل الله يُخلِف سوء ظنك فيهم.. وينصرهم؟!! فإنّي أراك أصلح لقيادتهم من صاعد الحرَّار!
- وهل تحسب أنَّ صاعد الحرَّار يتنازل عن قيادتهم؟! أو أنَّهم يتخلون عنه.. ويُطيعوني؟! يا سيدي.. أولئك القوم لو كانوا في جيش (طالوت) لشربوا من النهر أجمعون، وهم معذورون؛ فإنَّهم لا يعرفون حرباً ولا قتالاً!!
- إذاً.. أمنحك خمسين ألفاً.. لا ثلاثين؛ ترجع بها إلى الثغور تحفظها لنا.. كما وعدتَ، لكن.. ألتمس أنْ تتريَّث إلى أن يلتقي الجمعان؛ عسى الله أن يُخلِف الظنون المتشائمة.. وينتصر أهل قرطبة!
- لك ما تريد.. أيها الخليفة!

****

-المشهد الثلاثون بعد المئة-

نكص المهدي إلى مَضرَبه ليجد (صاعد) في انتظاره -وكان قد علم أنَّه ذهب بنفسه إلى (واضح)- فبادره مُعاتباً: "لِمَ تذهب إليه.. أيها الخليفة؟! هلا.. استدعيته؛ فيأتيك!!".

- أردتُ التشاور معه؛ فمررتُ به! لِمَ تُنكِر ذلك.. يا وزيري؟؟!
- أيا سيدنا! أنت أمير المؤمنين.. وهو خادمٌ من خدّامك؛ فالأحرى أن يهرع هو إليك.. لا أنْ تمشي أنت إلى خبائه الذي اعتزلنا فيه.. هو وفرسانه؛ لا أَحوَّجنا اللهُ إليهم!
- بل.. نحتاج إليهم.. يا صاعد؛ لذا فقد آثرتُ أنْ أقصده بنفسي!
- عفوا.. أيها الخليفة! إنَّك تبخسني.. وتبخس أهلَ قرطبة الذين يرابطون –الآن- حَوْلك ليذبّوا عنك وعن مُلكك! كيف لهذه الألوف التي لا تُحصى من رجال قرطبة أنْ يحتاجوا إلى بضعة مئات من الفرسان الصقالبة؟!

- أ حقاً.. لا تحتاج إلى واضح ورجاله.. يا صاعد؟؟! هل يقدر أهلُ قرطبة على قتال البربر من دون (واضح) وفرسانه؟!! (تساءل كأنَّما يبحث عن باعث تفاؤل)
- أجل.. يا أمير المؤمنين! وكلي ثقة في هذا؛ فاطمئن! (جأر صاعد طامعاً في نصر يُسجَّل باسمه.. لا يشاركه فيه (واضح).. وأمثاله)،

ثم شرع يسرد له خططه لمواجهة الزحف القادم.. ويصف له كثرة رجاله.. وقوتهم وحماستهم، وفيما هما كذلك إذ استأذن أحد رجال صاعد.. ودخل ليقول:

- سيد صاعد! قد التقت طليعتُنا القومَ، وينتظرك أحدُ الطلائع.. خارج الخباء!
- إليَّ به.. حالاً؛ نعرف ماذا وراءه! (صاح المهدي فَزِعاً.. دون انتظار قول صاعد)

دلف الرسول ليُبَلِّغهما آخر الأنباء، تطلَّع إليه المهدي؛ فألفاه لاهثاً من الإجهاد والجزع، حدجه صاعد بنظرةٍ شزراء.. صائحاً بصرامة:

- ما بك.. أيها الجندي؟؟ لِمَ أراك مضطرباً؟! اثبت.. وتشجَّع؛ لا يطمع فيك عدوك!
- قد شاهدنا مُقدمتهم.. يا سيدي! إنهم هناك.. في أرملاط! منظرهم رهيب؛ كتائب فرسان مدرعة.. راياتهم كثيفة.. أسلحتهم مخيفة! (جعل يُهذرم في كلامه بارتباك)
- سَكِّن جزعك.. أيها الفتي! واسرد لنا ما شاهدتَ.. بدقة! (هتف المهدي)
- البارحةُ.. أَحسَّتَ عيوننا بحركاتهم شمالاً على مشارف أرملاط؛ فمضينا نُراقبهم خِلسة.. حتى أصبحنا؛ فوجدناهم قد أحاطوا بنا؛ وما ندري: كيف عثروا علينا!!؟
- ألم تُناضحوهم.. أو تقاوموهم؟!! (تساءل صاعد باستياءٍ وتأفف)
- باغتونا؛ فلم نقدر على شيءٍ، ثم أَسَروا منا مَن شاءوا.. وأَرسلوا مَن شاءوا!!
- تباً لكم من طليعة جند! ما أغنيتم عن جيشكم شيئاً!! (صاح صاعد حانقاً)

ساعتئذ دسَّ المهدي رأسه بين كفيه وجعل أصابعه في أذنيه فَرَقاً مما يسمع.. وأغمض عينيه يأساً وإحباطاً، ثم فتح أُذنه على قول الرسول: "قد.. بعثوا معنا.. هذا الكتاب.. يا سيدي!!"، وعينه على يده الممدودة بالرسالة إلى صاعد، أوعز إليه أنْ اقرأ عليّ:

فضَّ صاعدُ الرسالة وبدأ يقرأ: "**مِن أمير المؤمنين (المستعين بالله.. سليمان بن الحكم) إلى محمد بن هشام بن عبد الجبار المرواني...**". فانتفض المهدي غاضباً.. وقاطعه صارخاً: "أُسكت!! قبَّح الله مَن كتب ومَن قرأ! مَن ذا الذي يُنازعني مُلكي؟!!".

- هَدِّئ من رَوْعِك.. أيها الخليفة! نحن معك، قرطبة كلها معك؛ لن نخذلك!!
- مزِّقْ هذا الكتاب.. أو اقذف به في النهر! (جأر بانفعالٍ صارم)، ثم استطرد: "هذا النكرة يستهين بي.. يا صاعد! قد اغتر بجمعه؛ يجب أنْ يروا بأسنا.. يجب أنْ نُذقهم عذاباً أليما، فمَن تجرَّأ.. ليُنازعني ملكي؛ نازعتُه حياته.. ولا أُبالي!!".
- لن ينفعه جمعه.. يا أمير المؤمنين! إإذن لي.. سأرجع إلى الرجال لأُعيد تنظيمهم وترتيب صفوفهم، فلن نمكث؛ سنُباغتهم قبل أن يستقر بهم المقام في أرملاط، ولن ننتظرهم حتى يعبروا إلينا الوادي؛ بل.. سنعبر نحن إليهم، وأعدك.. يا سيدنا: ما هي إلا ساعةٌ من نهار.. وستجد هذا الأثيم مُكبَّلاً بالأغلال.. بين يديك!

صرف رسول طليعته هاتفاً: "ارجع إلى معسكرك.. أيها الفتى!"، وألمح إلى صاعد أنْ تَمهَّل.. ثم خاطبه: "ثمة أمرٌ آخر –شديد الخطورة- يجب أن أُطلعك عليه.. يا وزيري!"

- خيراً.. يا أمير المؤمنين!؟؟
- كنتَ تنقم مني.. أنِّي أتحرى قدوم حمدون وفرتون!
- معاذ الله.. أنْ أنقم على مولاي، إنما أردتُ أن تعلم –يا أمير المؤمنين- أنَّ في جيشك أُلوفاً تُغنيك عن حمدون و..
- لقد علم حمدونُ بحياة المؤيد.. ويعلم أين نُخفيه!! (قاطعه المهدي هاتفاً بتَبَرُّم)
- ماذا؟؟ كيف علم؟!! (اندهش صاعد)
- الأهم من هذا أنَّه هددني: لو لم أُعلن حياته على الملأ؛ فسيظهره هو عنوة!!
- وهل يستطيع فعلها؟!! (تساءل صاعد بتشكيك)
- يزعم أنَّ معه حزبٌ يعاونونه؛ لذا فقد جاريتُه خشيةَ أنْ يُنجز تهديده، وخادعتُه طالباً منه الانضمام إلينا، ووعدتُه أنْ أفي له بما يريد بعد أن نظفر على عدونا،

ثم أغريتُ فرتون باغتياله أثناء المعركة، وأخشى –الحين.. إذ أنهما لم يأتيا- أنْ يكونا قد اتفقا معاً ويُمضي حمدون وعيده.. ويفضحنا بإعلان حياة المؤيد!!

- لا تعبأ لهذا الأمر.. أيها المهدي! نحن في شأنٍ أعظم من هذا، اعتنِ بحربنا مع ذاك الذي جاء يُنازعك الخلافة، فإذا ظفرنا عليه وقضيتَ على فتنته؛ عدتَ إلى قرطبة وعاقبتَ حمدون على تطاوله؛ بل.. في زهو انتصارك.. تقدر أن تقتله.. وتقتل المؤيد دون أنْ يعارضك أحدٌ!!
- ليست المسألة هينةً كما تصف.. يا صاعد! ينبغي أنْ أرجع إلى القصر لأمنعه من أولئك المتطاولين، وابق أنت هنا لتقود معركة النصر.. وتأتيني بهذا الخبيث مكبلاً.. كما وعدتَ!!
- كيف تذهب.. أيها المهدي؟! كيف تنسحب.. وتتخلى عن الرجال الذين يبذلون أرواحهم من أجلك؟؟!
- ماذا تقول.. يا رجل؟! أنا أنسحب؟!! إنها حربٌ؛ وفي الحرب كلٌ له مهمته.. التي يؤديها، وإنَّما أقوم بدوري.. ألا وهو حفظ قصر الخلافة آمناً حتى لا ينتهز أحدهم غيابنا فرصة ويضربنا من ظهورنا! يجب أن أعود إلى القصر.. يا صاعد!
- أ تغيب عن ساحة المعركة أنت وابن عمك (الحاجب)؟!! فماذا يقول الرجال؟؟ سيقولون: خذلنا قادتنا وكبراؤنا!!
- لا تذكر أمامي هذا الرعديد الجبان.. مرة ثانية؛ فقد بخل علينا بنفسه وماله!
- عفواً.. يا أمير المؤمنين! رغم أنَّه ابن عمك.. غير أنَّه غير لائق بمقام حجابتكم!
- سيكون لنا حديثٌ عن هذا الشأن.. في غير هذا المقام؛ فإنَّ لك عندي مكانةٌ أعظم بكثير من الوزارة، ولكن.. ذرنا ننتهي مما نحن فيه، ثم لكل حادثةٍ حديث!!
- أشكرك على ثقتك العزيزة.. يا أمير المؤمنين! على أنْ انسحابك جهاراً من بين الناس قد يكسر شوكتهم.. لا سيما وقد تراءى لهم العدو!

- ليس كما تظن.. يا صاعد! بل.. سأتحيَّن انشغال القوم.. وسوف أتسلل وحدي خفية بلا موكب ولا حرس؛ فلا يشعر أحدهم بغيابي! وسأترك لك الجيش ومعركته أمانة، وإنِّي أعلم أنَّك قادرٌ على حملها.. وقادر على الانتصار على عدونا!
- كن مطمئن.. يا مولاي! سينتصر جيشك، وسيدحر عدوك!!
- حفظكم الله.. نصركم الله.. يا قائد جيشي!

****

-المشهد الحادي والثلاثون بعد المئة-

انطلق صاعد إلى رجاله يأمرهم بالتَهيُّؤ لملاقاة العدو، ثم صعد ربوةً عالية ليراقب عدوه. نظر من بعيد؛ فرآهم قد أقاموا معسكرهم.. وانتشروا في سفح جبل قنتيش[1]؛ فلا يفصلهم عن فريقه غير وادي وَعِر يعبره أحدهما إلى الآخر، ثم أَمعن البصر.. فرأى كتائبهم توزَّعت بنظامٍ بعث –رغم قلة عددهم- الرهبةَ في قلبه وقلوب الناظرين معه، وأثار الدهشة في نفوسهم: (كيف احتلُّوا سفحَ الجبل.. بهذه السرعة وبهذا النظام؟!).

رغماً عنه رمقهم بإعجاب! وبينما يتطلَّع إليهم مُتهيِّباً من مظهرهم.. مُتفكِّراً في كيفية التغلُّب عليهم؛ إذ ارتجَّ الفضاء حوله لسماع داعي البربر ينادي:

"يا أهل قرطبة؛ هذا أمير المؤمنين: (**المستعين بالله**.. سليمان بن الحكم المرواني)، سليل الخليفة الناصر؛ قد عرفتم نسبه وشرفه، ولقد خبرناه؛ فعرفنا خيره وبره.. وورعه وتقواه؛ فبايعناه خليفةً للأندلس، ولقد جاءكم يقول: السلام عليكم ورحمة الله، يبدأكم بالسلام.. ويَسُلّ سخيمة صدوركم بحلمه وعفوه، ويقول: مَن وضع السلاح منكم.. وجاءه مبايعاً مُسلِّماً عليه بالخلافة؛ فهو منا ونحن منه، ومَن وضع سلاحه.. وانصرف إلى بيته فأغلق عليه بابه؛ فهو آمن ما لم يعث في الأرض فساداً..

---

[1]: يقع في شمال شرق قرطبة.

هلمّوا إليه.. فبايعوه؛ وذروا ذلكم الصعلوك الذي أظهر الفساد في الأرض.. وجاهر بالذنب. أمَّا إنْ أبيتم إلا العصيان.. والقتال؛ فقد علمتم أننا نحن أهل البأس والقتال.. وأنكم لستم له بأهل. وإنَّا ننذركم عاقبة الكبر والعناد، قد أعذرنا إلى ربنا. والسلام على مَن اتبع الهدى وأذعن للحق!".

توالت النداءات.. وتكررت الدعوات؛ فبثَّت الرهبةَ في نفوس فريق صاعد، ونثرت بذور التنافر والشقاق فوق رؤوسهم، وأوشك الاختلال أنْ يسود صفوفهم؛ فتَوَجَّس صاعد شراً لمَّا أحسَّ بالاختلاف والتشاحن ينبعثان بين صفوف فريقه.. وخشي أنْ يتفرَّقوا عنه فيخسر معركته قبل أنْ يخوضها؛ فارتأى -بعد أنْ انتهوا من أداء صلاة جُمعتهم ١٣ ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ- أنْ يخطب في رجاله خطبةً عصماء يجمعهم بها على مراده، ويردهم بها إلى الاجتماع حوله وحول خليفته (المهدي)؛ فانبرى ينادي فيهم:

"أيها الناس.. يا أهل قرطبة الشرفاء! احذروا؛ فإنّي أُبصر الثعالب تبول بينكم[1]، وأرى الخلاف والشحناء قد دَبَّا فيما بينكم لمَّا سمعتم داعي هذا المنافق يدعوكم إليه، وإنّها -والله- دعوة إفسادٍ.. لا إصلاح! إنَّه كالذي يُبصر القذى[2] في عين أخيه.. ولا يُبصر الجَذْل[3] في عين نفسه! يعيِّب أميرَ المؤمنين (المهدي).. وينسى قول الله فيه وفي أمثاله: {بشر المنافقين أن لهم عذاباً أليما} (آية: ١٣٨ سورة النساء)؛ أ تدرون مَن هم أولئكم المنافقون؟! يُخبركم ربكم في الآية التي تليها: {الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا} (آية ١٣٩)؛ فانظروا.. أيها الناس! انظروا إليه وإلى عسكره؛ ألا تبصرون رايات الكفار تُرفرف من ورائهم؟ قد تحالف ذاكم المنافق مع الكفار، وجاء بهم إلى قرطبة؛ إليكم.. لينهبوا أموالكم.. ويدنِّسوا بيوتكم.. ويهتكوا أعراضكم، وحاشاكم أنْ تُسلِّموا لهم!".

---

[1] : أي: أنكم تعاديتم بعد الصداقة.

[2] : ما يتكون في العين من وسخ أبيض جامد ويتجمع في مجرى الدمع من العين. !

[3] : الجذل هو أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع.

التقط أنفاسه.. ثم أردف صائحاً بحماس: "ألا تجيبوه.. يا أهل قرطبة؟! يا أهل النخوة والمروءة!"، فصدح السامعون سائلين: "بماذا نجيبه.. يا قائدنا.. يا حبيبنا؟؟"، فصرخ: "قولوا له: {إن العزة لله جميعا}، لن نُسلِّم لك.. لنَبِيت فنجد حرث قرطبة.. قد نفشت فيه خنازير قشتالة!"، "هيا.. ارفعوا أصواتكم معي.. أَسمِعوه.. وأَسمِعوهم معه: لن نرضى الدنية في ديننا.. لن نرضى الدنية في ديننا!".

ضَجَّ الوادي بصياح القوم وعجيجهم، ثم تعالى هتافهم: "لا خليفة إلا المهدي.. لا خليفة إلا المهدي!"، توارت الشمس بالحجاب أو تكاد.. ولم ينقطع عجيج القوم وهتافهم.. حتى أشار إليهم صاعدُ أنْ أمسكوا عن الصياح واستعدوا للقاء العدو، ثم جمع قادة جنده ليقول لهم: "إذا انتشر صباح الغد.. يا سادة؛ سنعبر الوادي إليهم.. وسنهاجمهم.. ونغلب بكثرتنا شجاعتهم! أيها السادة.. أقولها لكم: {قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين} (سورة التوبة. الآية ١٤)!".

في الجانب الآخر من فحص السرادق –بعيداً عن مواجهة البربر- حيث تنحى القائد (واضح) وفوارسه.. دخل إليه فارسه (بليق) ليسأله بتردد مكبوت:

- ألا تسمع ما نسمع.. أيها القائد؟!! ألا تسمع ضجيج أهل قرطبة؟؟ منذ الظهيرة.. لم يهدؤوا.. ولم يملُّوا الصياح والهتاف!! أحسب أنَّ كثرة عددهم سترهب عدوهم، وأنَّ حماس هتافهم سيُلقي الرعب في قلبه، وأخشى لو انتصروا على البربر صباحاً؛ أنْ نكون نحن طُعمتهم مساءً!!
- أخالفك الرأي.. يا بليق! إنِّي لا أَسمع غمغمة أبطال؛ بل أسمع جعجعة رحى، ولا أرى لها طحناً، وأقول لك مؤكداً: هذا جمعٌ منهزم!
- رب قَوْل أنفذ من صَوْل! قد خطبهم (صاعد) فأثار حماستهم؛ حتى أن بعضهم أقسم: لا يرجع إلى قرطبة.. إلا وجماجم البربر وقشتالة.. قلائد يتزيَّن بها!!
- الحرب أحوَج إلى قائد فعَّال منها إلى قائد قوَّال! وإنني لا أشك قيد خردلة في هزيمته هو وجماعته أنكى هزيمة!!

- فماذا نحن فاعلون؟؟! لماذا نمكث.. ولا ننسحب إلى ثغورنا؟!!
- أيها الفارس المحنك! لو تحركنا الحين إلى الشمال؛ لظن بنا البربر الالتفاف حولهم سعياً لتطويقهم؛ وساعتئذ.. سينقضون علينا.. ولن يتركونا وإلا ونحن حاث باث[1].
- تعني أنَّ نتحيَّن الفرصة بعد أنْ يصطدم الجمعان؛ ثم نتحرك؟!!
- بل.. سنتوقَّف ونُراقب حتى يظهر البربر ويخلو سبيلهم إلى قرطبة فيطمعوا في دخولها وينشغلوا بها عما سواها؛ فننطلق إلى الثغر بأمان واطمئنان!
- عجبتُ لك.. أيها القائد (واضح)؛ ما رأيتُ أدهى منك!!

****

-المشهد الثاني والثلاثون بعد المئة-

تراجع المهدي إلى القصر متسللاً.. وتوَّعد خُدّامه إنْ علم أحدٌ بنبأ عودته! رجع وقد وَقَرَت مقولةُ واضح[2] في قلبه؛ فملأت صدره رعباً ويأسا. طفق يُسكِّن اضطرابه ويداوي فزعه.. بالاستسقاء من خمره، ثم استدعى أمين القصر (جؤذر)؛ فما عتَّم أنْ هرع إليه.. وبادهه قائلاً: "علمتُ تَوْاً.. يا أمير المؤمنين.. أنْ المؤيد اختفى من مخبأه!!"، وثب صائحاً وعيونه ترسل صواعق الغضب: "ماذا تقول؟!! بؤساً لكم من رهط سوء!!"، ثم قعد واجماً.. وجؤذر بين يديه مُطرِقاً.. حتى خبت جذوة غضبه؛ قال هامساً: "لا جرم أنَّه.. حمدون!"، لم يدرك أمينُ القصر مقصدَ خليفته؛ فالتزم الصمت، بعد برهة عميقة من التردد لم يجد بُدّاً من أنْ يجنح إلى طوق النجاة الوحيد الذي بقي أمامه.. مُحدِثاً ذاته: (لأضربنَّ الخصوم ببعضهم، ولأنسفنَّ دعوى سليمان المستعين نسفاً!)، ثم هتف: "يا جؤذر.. أرسل إلى القاضي (ابن ذكوان)!!".

*****

---

[1] : أي متفرقين مبددين.

[2] : قال عن جيش صاعد: (سيُهزم الجمع ويولون الدبر!)

انفصل القاضي (ابن ذكوان) عن القصر بعد أنْ قضى مدة.. انعزل به خلالها المهدي عن المسامع.. ولبثا يتناجيان مليًّا، ما انفك يؤنب نفسه.. ويؤنبها ساخطاً: (كيف غُرِّرَ بي؟!! كيف خُدِعتُ.. وأنا قاضي القضاة؟!).. حتى بلَغ داره، بدَّل ثيابه.. وخرج قاصداً دار حمدون، وما برح يضرب كفاً بكف –ساهياً عمن يلقاهم في طريقه- حتى انتهي إلى باب الدار، توقَّف متردداً: (هل أطرق الباب.. أم أرجع؟!)، مرت عليه لحظاتٌ عسيرة من الارتباك والحيرة.. حتى قرر قَرْع الباب قبل أنْ يرتاب فيه الجيران.

انفتح الباب، عَرَّف بنفسه، أُدخِل بترحابٍ إلى قاعة الضيف، قعد ينتظر حمدون بقلبٍ خافق وعقلٍ مشوَّش: (ماذا أقول؟! كيف أُبرِئ نفسي؟! كيف أدفع الريبة؟! هل يصدِّق أحدهم أنَّ قاضي القضاة يُخدَع بمثل هذه الخدعة الدنيئة؟!).

سَلَّمتْ عليه؛ فعَرَف صوتها.. قبل أنْ يرفع بصره إليها، إنَّها أم هشام (أرملة شيخه الأول)، ردَّ التحية.. وابتدر سائلاً: "أين حمدون.. يا سيدتي؟؟"، أجابته بنبرةٍ يُطلُّ من ثناياها العتاب: "خيراً.. يا سيدي القاضي؟ ما حاجتُك إلى شابٍ نكرة.. مثل ولدي؟!"، تَكَهَّن من نبرة كلامها أنَّها عليمةٌ بالخديعة المخزية: (لا جرم أنَّ حمدون أعلمها، وأنها تظن أني مُتواطئٌ مع المهدي!)؛ فغشيه صمتٌ ستر به خجلاً من المواجهة، وعلاه تَجهُّمٌ أخفى وراءه ندماً مكبوتاً.

سكت ملياً.. حتى أشفقت عليه أنْ تذهب نفسه حسرات؛ فأعادت عليه السؤال مرة أخرى –لكن بنبرةٍ ليِّنةٍ شفيقة-: "ماذا تريد من حمدون.. يا أبا العباس؟؟".

- وأيم الله.. يا أم هشام.. قد خُدِعتُ.. وظننتُ أنَّ المؤيد مات حقاً، وما علمتُ بحقيقة ما صار إلا اليوم إذ اِعترف لي به المهدي! (همس بنبرةٍ مشبعةٍ بالخزي)
- أُصدِّقك.. يا سيادة القاضي! سامحك الله!!
- وما جئتُ –الآن- لأُبرأ نفسي.. أو لأُبرأ المهدي؛ وإنَّما جئتُ لأعرض على حمدون والمؤيد أمر رشد نتدارك به ما فات.. ويكون فيه –إنْ شاء الله- الصلاح والإصلاح، ولنجمع الناس على أمرٍ جامعٍ.. لا فرقة فيه ولا شحناء!!

- حمدون بعيدٌ عن الدار، ولا يمكنك لقاءه الحين؛ لكن أنبأني عن أمر الرشد ذاك.. وأنا أُرسل به إلى حمدون والمؤيد؛ عسى الله يُفرِّج عنا به الكرب!!
- يعرض المهدي أنْ يُعلن أنَّ المؤيد حيٌّ، ويُعلن أنَّ المؤيد هو الخليفة، وما المهدي إلا حاجبٌ له، وإذا قبل منه ذلك؛ أرسلَ إلى البربر يسترضيهم ويعيدهم إلى صفوف الجيش، وإنْ شاءوا أشرك معه (سليمان المستعين)!
- هل تظن أنَّ أحداً يُصدِّق ذاك الرجل الذي تَلقَّب بالمهدي بعدما أقترفه من آثام؟!
- النازلة شديدة.. يا أم هشام! والمسألة أعظم من تصديق المهدي أو تكذيبه! لقد اصطف الفريقان للقتال؛ وأعلم أنَّك تكرهين إراقة الدماء في فتنةٍ كهذه!!
- أصبتَ في هذه.. يا قاضي القضاة!!
- هلاَّ.. دَلْلتني على مكان حمدون؛ أسعى إليه بنفسي.. لعلني أُقنعه!!
- أمَّا هذه.. فلا، لكن.. ارجع.. وسأرسل إليك بجوابه!
- إذاً.. عَجِّلي.. يا سيدتي؛ عسى أنْ نستدرك ما فات!!

*****

انصرف القاضي تُشيِّعه أم هشام بنظراتٍ متأرجحة المشاعر بين الملامة والشفقة، ثم انضَوَت إلى نساء الدار لتقص عليهنَّ ما دار بينها وبينه؛ فعقَّبتْ أم سعدون متسائلة بتحفُّظ: "هل تُصدِّقي.. يا سيدتي.. أنَّه خُدِعَ.. وأنَّه لم يتفق معهم على مولاي (المؤيد)؟!"، زجرتها أم هشام هاتفةً باستهجان: "أُسكتي.. يا امرأة! هل نُكذِّب قاضي القضاة.. بعد أنْ أقسم بالله؟!!".

- عذراً.. يا سيدتي! إنَّما......
- كفى! إذا جاء ولدك (سعدون)؛ أرسليه إلى حمدون بالخبر، ومُريه.. فلينتظر الجواب! (قاطعتها أم هشام بصرامة)، بيد أنَّ أم عبد الواحد تدخَّلتْ.. لتهمس:
- تمهلي.. يا أم هشام!! ينبغي أن نتحرَّز؛ فلربما يتربَّص بسعدون عيونٌ تتبعه ليصلوا إلى حمدون والمؤيد!!

- يا أم عبد الواحد.. القاضي أبو العباس أشد ورعاً من أنْ يفعل ذلك!!
- ومَن قال: القاضي؟! بل قد يكون ذاك الخبيث هو الذي سلَّط عيونه لتُغافل القاضي وترصده حتى تصل إلى حمدون والمؤيد!!
- أ ويجرؤ أنْ يمكر بقاضي القضاة.. مكراً كهذا؟! (تساءلت أم هشام باستنكار)
- قد مكر به أسوأ من ذلك حين زيَّف له موت المؤيد؛ فضلَّله.. وضلَّل الناسَ معه!
- صَدَقتي.. وربي! فما العمل إذاً؟! قد حَذَّر حمدون أنْ يفطن المهدي إلى مخبأهم!!
- عندي حيلة.. يا أماه! (هتفت سلوان)
- هات.. ما عندكِ.. يا بُنية!
- بعد أن يأتي سعدون يخرج من الدار وكأنَّه ذاهبٌ إلى حمدون فتنجذب خلفه العيون الراصدة؛ لكنَّه لا يَؤُمّه، بل أذهب أنا إليه!
- كلا! هذا خطر؛ ولن يرضى حمدون أن نخاطر بكِ! (أجابت أم هشام على البديهة)؛ فابتسمت ابتسامةً حيّية اغتباطاً بمقولتها التلقائية، ثم هتفت بإلحاح:
- تعلمين.. يا أماه.. أنِّي أقمتُ معهم في ذلك الجبل من قبلُ، وأعرف كيف أروح وأرجع، وإذا أذنتِ لي؛ سأمتطي (ديجور).. فهو عليم به أيضاً!
- إنْ أردتِ الإصلاح كما عرض عليكِ القاضي؛ فليس ثمة حلٌ آخر غير ما تطوَّعت به سلوان!! (أَقرّتْ أم عبد الواحد)
- لَهْفِي عليكِ.. يا بُنيتي! حفظكِ الله.. ورعاكِ!!

****

-المشهد الثالث والثلاثون بعد المئة-

فوق إحدى آكام جبل العروس.. والتي تُشرف على السَّفْح من بعيد.. جلس حمدون وصاحباه -طرسوس وفرتون- متواريين خلف الأشجار، يحرسون كهفاً على خطواتٍ

منهم.. يختبئ فيه المؤيدُ ووصيفته (شعب)، ويراقبون الممر الملتَوي الصاعد إليهم من أسفل الجبل، نظر حمدون إلى طرسوس متسائلاً بتلطُّف:

- كيف حال جرحك الحين.. أيها البطل؟؟
- لا تعبأ.. يا أخي؛ سيندمل قريباً.. إنْ شاء الله! (أجابه وهو يتحسس الجرح)
- غرورك هو الذي أَذَّاك.. أيها المتكبِّر! لو أطعتني وتركتني أكون معك؛ لما غلبوك ولا جرحوك!! (خاطبه فرتون مُتهكماً)، فأجابه طرسوس مُحتدّاً:
- خسئتَ! تالله.. ما غلبوني، وإنَّك تعلم أني ما تركتُهم إلا مُجنَدلين مُقيَّدين؛ ولولا ذلك.. لما كنا هنا الآن آمنين.. ومعنا مولانا المؤيد!!
- بارك الله في ساعدك.. يا طرسوس؛ صَرَعَتَ ستة نفر وحدك، وشغلتهم عنا حتى تسلقنا سور الدار من خلفهم وأخرجنا سيدي المؤيد وجاريته! (هتف حمدون مثنياً عليه).. ورامزاً إلى فرتون أنْ لا يبخسه حقه؛ فاعتدل فرتون بعد أن كان متكئاً.. وقال بجدية ودودة:
- أشهد لك.. يا طرسوس.. أنَّك شهمٌ قويٌّ.. شجاع، حماك الله.. يا بطل!
- الحمد لله.. تمت على خير! ولقد كان ثلاثتنا فريقاً متناغماً! وظني أنَّ صاعد الحرّار لم يُشدِّد الحراسة على الدار واكتفى بهؤلاء الستة كيلا يثير الشكوك حولها؛ مما هوَّن علينا أمرهم؛ فإنهم ليسوا بشيء أمام مصارعنا القوي: طرسوس!! (استأنف حمدون)، فيما قهقه فرتون ضاحكاً وهو يتذكَّر قائلاً:
- لكنَّه لم يُتقن التظاهر بأنَّه سكران؛ ولهذا اكتشفوا أمره.. وهمُّوا به يضربونه، ولو تمكَّنوا منه ساعتها.. لسلَّموه إلى الشرطة.. بتهمة التلصص على بيوت الناس!
- وهذا هو ما هَيَّأ لكما الفرصة السانحة للتسلُّل من خلفهم إلى الداخل وإنقاذ مولاي المؤيد؛ فلولا انشغالهم بي وبمصارعتي.. لما استطعتما الانسلال دون أن يلاحظكما أحدٌ منهم! (جأر طرسوس مزهواً بذاته)
- صدقتَ.. يا طرسوس! ولقد أبليتَ بلاءً حسناً! (قال حمدون) وهو ينتصب قائماً ليرجع إلى الكهف وراءهم حيث يستتر المؤيد وجاريته.. ملبياً لنداء سيده.

دلف إليهما؛ فألفاها تُقرِّب إلى سيدها شيئاً من طعامٍ كان قد جاءهما به آنفاً؛ فأَصرَّ المؤيدُ أنْ يطعم معه، وأقسم ألا تمتد يده إلى السُّفرة إلا إذا جلس بجواره عليها؛ فاستجاب حمدون إلى إلحاحه.. وقعد.

سَمَّ الله ومدَّ يده.. فنهش نهشة، ثم نفض يده.. وهتف مُتحسِّراً:

- لَعَمْرُي.. لا أدري: أي خطأ ارتكبتُه جعل المهدي يدّعي موتي.. وأنا ما زلتُ حيّاً!
- وأنا أتساءل.. يا سيدي: لماذا استسلمتَ ورضيتَ بحبسهم لك طيلة هذه المدة؟؟
- في مساء تلك الليلة تَوَعَّك سيدي (المؤيد)؛ فأتى الطبيب وسقاه شراباً وقال لي: (دَعِ الأميرَ يرقد، وإنْ شاء الله.. يستيقظ مُعافى؛ لكن اشربي أنتِ أيضاً هذا الدواء؛ فإني أخشى أن يكون داؤه ذا عدوى)؛ فشربتُ! ثم رقدتُ تحت قدمي مولاي؛ ولم أَصْحُ إلا في ذاك المكان حيث عثرتم علينا! (همست شعب بتَأسُّف)
- استيقظتُ؛ فوجدتُ عند رأسي رجلاً يقول: (الحمد لله أنْ عافاك.. يا سيدي)، وعرَّفني نفسه زاعماً أنَّه وزيرٌ أو فقيهٌ.. واسمه: حسن! (جأر المؤيد متذكِّراً)
- لا جرم هو: (الحسن بن حي) الفقيه، أحد وزراء المهدي! (أجابه حمدون)
- نظرتُ حولي، رأيتُ الوصيفة (شعب)! لكني استوحشتُ المكانَ، وخشيتُ على روحي وعليها؛ فابتسم وهمس مُطمئناً: (لا ترتاع.. يا سيدنا؛ إنَّكما في بيتي، وإنَّكما آمنان.. إنْ شاء الله)، فقلتُ مندهشاً: (لماذا نحن هنا؟ كيف أخرجتمونا من القصر؟!)؛ فهمس بصوتٍ مخيف: علم سيدنا الخليفة (المهدي) –أطال الله بقاءه- أنَّ في القصر مَن يتربَّصون بك ويُدبِّرون لاغتيالك؛ فخاف عليك.. وأمرني بنقلكما إلى مكانٍ آمنٍ لحين القضاء على المتآمرين!! (كان المؤيد يحكي بانكسار وأسى).. حتى اختنقتْ كلماتُه بالنشيج والحشرجة.. فسكتَ مُبتئساً، أشفقتْ عليه وصيفته؛ فانبعثتْ تستكمل سرد الحكاية:
- ومن ساعتها.. يا سيد حمدون.. ونحن –كما وجدتَنا- حبيسان ذاك البيت، لا يلج إلينا أحدٌ ولا يخرج؛ حتى سَئمنا.. وكاد سيدي (المؤيد) يهلك كمداً!

- يا له من ماكرٍ.. مخادع! الحمد لله.. على سلامتكما.. يا سيدي!
- لكن.. لماذا؟؟ لماذا.. يا حمدون.. يصنع صاحبك بي.. هكذا؟! هل أسأتُ إليه في شيءٍ؟؟! (تساءل المؤيد بكلماتٍ آسفةٍ تتهدجها العَبَرات)

بينما هم على تلك الحال.. إذ نادى طرسوسُ من الخارج: "يا حمدون! تعال!!"، استأذن المؤيدَ وخرج إلى صاحبيه، صعد إليهما حيث يقفان على صخرةٍ ناتئة تُطِلُّ من بعيد على الممر في سفح الجبل، اعتدل واقفاً إلى جوارهما.. وشرع يتطلَّع إلى حيث ينظران، أشار طرسوس إلى أسفل وقال: "أليس هذا هو جوادك (ديجور)؟!"، أمعن حمدون البصر ودقَّقه، ثم قال مُتعجباً: "أجل هو!! ما الذي جاء به إلى هنا؟!!"، فصاح فرتونُ ليُلفت انتباهه: "مَن هذا المُلثم الذي يمتطي جوادك.. يا رجل؟!!". أَرجع حمدونُ البصر كَرّةً أخرى.. ليتأمل الجوادَ وراكبه!

لم تَعرفها عينُه؛ فقد أتقنتْ التخفي في زي الرجال، بيد أنَّه عرفها بحَدْسه وفؤاده؛ فتمتم مذهولاً: "إنَّها.. سلوان!!"، انقبض قلبه قلقاً عليها وعلى أهل بيته: (ما الذي حملها على المجازفة بالقدوم إلى هنا؟!). انطلق هابطاً إلى حيث يصل إليها.. صائحاً يخاطبهما: "لا ترتاعا؛ سأهبط.. فأنظر مَن هذا!!"، ناداه طرسوس: "سنراقبك من بعيد، ولكن خذ حذرك!"، فأجابه حمدون وهو يركض هابطاً: "الله خيرٌ حافظا!".

لمحتْه على مسافة؛ فخفق قلبها، اقترب.. فلم يفصله عنها غير خطواتٍ معدودة، رنا إليها؛ فعرفتْ اللهفة في عينيه، طمأنته عيونها: (لا تفزع.. جئتُ في خير)؛ ثم غضت طرفها استحياءً؛ فالتفت إلى حصانه.. وربت على عنقه كأنَّما يُسلِّم عليه ويُرحِّب به، أَسلمتْ له العنان؛ فشرع يصعد بهما إلى أصحابه دون أنْ يتفوه بكلمة.

بلغ بها مرتقى صاحبيه اللذَيْن كانا يراقبانهما من أعلى، اقتربت منهما؛ فعرفها طرسوس، على أنَّه لم يُرحِّب بها؛ بل ابتدرها سائلاً بصرامة: "أ واثقةٌ أنَّه لم يتبعك أحدٌ يا آنستي؟!"، أوعزتْ إليهم: أنْ اطمئنوا لم يتبعني ما يُريبكم، ترجَّلتْ عن الجواد.. ليُدخِلها حمدونُ الكهفَ إلى المؤيد؛ حالما سأل فرتونُ طرسوسَ: "مَن الفتاة؟!!"، همَّ

أنْ يقول: (هي الفتاة التي تغيَّرت بسببها حياتك، هي الفتاة التي هربت منك ومن ابن الرسان!)؛ لكنه تراجع فابتلع كلماته، ثم أجابه باقتضاب: "امرأةٌ من آل بيت حمدون!"

وقفتْ على فم الكهف تنظر إلى المؤيد ووصيفته؛ فأشفقتْ على حال الخليفة.. ابن الخلفاء الذي ذلَّ بعد عزٍّ، قبل أن يتكلم حمدون.. صدحت: "أنا سلوان.. يا سيدي المؤيد!!"، رفع بصره إليها؛ فتهلَّل وجهه اغتباطاً لرؤيتها، قامتْ إليها شعبُ، اقتربتْ لتتأكد من شخصها، رفعت لثامها كاشفةً عن وجهها؛ فعرفتها الوصيفةُ.. وارتمت في أحضانها باكية، ما انفكتا تبكيان حتى استفزتا الدمع في مُقَل الرجلين، ثم تَيَقَّظ حمدون.. فقال: "تفضلي بالجلوس.. يا سلوان.. وأخبرينا عن سبب مجيئكِ!!".

- قبلُ.. اجلسي؛ تلتقطي أنفاسك.. وتأكلي معنا، ثم تُخبرينا بما تشائين! (هتف المؤيد) رامقاً حمدون بنظرة عتابٍ كأنَّما يلومه على التهاون في إكرام الضيف.
- شكراً لك.. سيدي! لكن.. لا وقت! لقد جئتُ إليكم برسالةٍ عاجلة؛ فاسمعوا مني! (هتفت سلوان) حالما أعطتها شعبُ كوباً من ماء.

ثم أبلغتهم رسالة المهدي وقاضي القضاة؛ فانقبض قلب المؤيد.. فيما استبشر حمدون استبشاراً حَذِراً، ثم خَتَمَتْ كلامها: "وهما يرتقبان جواباً عاجلاً!".

- لا أوافق! لا أحب أنْ أعود خليفة!! (جأر المؤيد بتَأَفُّف)
- سيدي المؤيد! قد يكون في رجوعك للخلافة وأدٌ للفتنة؛ ألا تحب أنْ يحقن الله بك دماء رعيتك؟!! (هتفت سلوان بحكمةٍ وفطنة)؛ فوافقها حمدون قائلاً:
- أحسنتِ.. والله.. يا سلوان! بلى.. يا سيدي! عسى الله أنْ يجمع عليك الناس ويصلح بك بين الفريقين، فافعل ما يرضي الله.. ولو كنتَ لا تحبه!!
- ....سكت المؤيد وقد امتقع وجهه رهبةً وحيرة
- على أنِّي أخشى أنْ تكون مكيدةً من المهدي للإيقاع بنا! (هتف حمدون مُتَفكِّراً)
- لا أحسب أن قاضي القضاة يشترك في المكر السيء! (اعترضت سلوان)

- قد يمكر به وبنا معاً! يمين الله.. لم أعد أثق في المهدي مثقال ذرة! (جأر حمدون)
- كيف التصرف إذاً؟؟! (تساءلت سلوان بوَجَلٍ)
- أذهبُ إلى القاضي (ابن ذكوان) بنفسي؛ فأُكلِّمه!! (أجاب حمدون)
- قد يكون في دخولك قرطبة خطرٌ عليك.. يا حمدون! (همس المؤيد)
- لا مفر من المخاطرة.. يا سيدي! لكن.. قبلُ.. سأُعيدكِ –يا سلوان- إلى الدار!
- لا تنشغل بي، سأعود كما جئتُ؛ لكن.. احترز أنت لنفسك!
- الله.. المستعان؛ هو خيرٌ حافظاً وهو أرحم الراحمين!

*****

رغم أنَّها مخاطرةٌ.. جازف حمدون بروحه نازلاً إلى قرطبة ليقابل القاضي (ابن ذكوان).. رجاء أن يتعاونا معاً لتَخْليص المؤيد.. ولإغاثة قرطبة وأهلها من فتنةٍ ماحقة.

كان اللقاء الأول بينهما، ورغم أنهما اتفقا في النهاية.. إلا أنَّه كان لقاءً فاتراً.. بارد المشاعر، تَكلَّم حمدون بحزم وصرامة.. فقال:

- سيدي قاضي القضاة! لو صدق عزم المهدي على الإصلاح؛ فإنِّي أشترط لسيدي المؤيد أنْ تكون أنت الضامن والوكيل، فهل تقبل؟؟!
- أقبل –إنْ شاء الله-! ولا أدخر جهداً!
- إذاً.. إليك ما نشترطه على المهدي –وأنت عليه وكيل-: سيأتي إلى دارك وحده.. كما سآتي أنا وسيدي المؤيد، ويُبايعه بالخلافة.. ونكون أنا وأنت شاهدَيْن عليهما، وفيما نحن كذلك إذ يُعلِن مناديه بين الناس أنَّ المؤيد حيٌّ، وأنَّه هو الخليفة، ومَن أراد أنْ يراه فليجتمع عند بابي القنطرة والشَّكال، ويُعلِن أنَّ الخليفة (المؤيد) سيُشرف على الناس من فوق السطح في ساعة كذا، ثم يغدو أربعتنا إلى القصر ونصعد السطح؛ فنُشْرِف بالمؤيد على الناس.. ليكونوا كلهم علينا شهودا، ولتُنْذره –يا سيادة القاضي- أنَّه لو مكر بنا؛ فسيكون هلاكه!

لم يُتح فرصةً للقاضي أنْ يعترض على ما قال؛ فلم يملك غير الامتثال لشروطه، ووعده بالذهاب إلى المهدي.. والاجتهاد في إقناعه بالاستجابة إلى مطالبه.

****

-المشهد الرابع والثلاثون بعد المئة-

السبت: ١٤ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ (نوفمبر ١٠٠٩م)

انبلج النهار، وعمَّت الشمسُ جبلَ قنتيش والوادي السحيق أسفله بضيائها، هبَّتْ ريحٌ مُنعِشة بعثتْ النشاط والحماسة في نفوس كلا الفريقين، وأشعل الشيطان فتيله؛ فتوقَّدتْ نيران الحقد والغرور في نفوس صاعد الحرَّار وأهل قرطبة، ونهضت أفواجهم الغاضبة تقتحم الوادي لملاقاة عدوهم.

نظر حبوس في الحشود الهادرة المتقدمة نحوه، ثم ارتدَّ إلى فوارسه فطاف عليهم مُشجِّعاً: "يا صناديد البربر! لا يَهُولنَّكم ما ترونه من كثرة عدد عدوكم؛ فإنَّه ليس بكم، والحمد لله.. قلة ولا ذلة؛ فتهيؤوا لملاقاتهم، صفوا صفوفكم واثبتوا في أمكنتكم.. حتى إذا جاءتكم إشارتي؛ فشدُّوا عليهم يتطايرون أمامكم تطاير الهشيم في الريح؛ فهم أضعف من القصب الأجوف، وكروا ولا تفروا!"، ثم مضى يصفّ الصفوف ويوزّع المهام.. يشاركه أخوه (حباسة) بجدية وعزم.. وكذلك (بهلول الدمري).

تقدمت جموع أهل قرطبة الغفيرة زاحفةً إلى عدوهم تَؤُزّهم كثرتهم حتى تجاوزوا منتصف الوادي الوَعِر؛ فتَوَقَّفوا.. ظانِّين أنَّ العدو سيقتحم الوادي.. ليشتبك معهم، لكن قائد البربر لم يأذن بالاقتحام، وإنَّما أمر فرسانه بالثبات والصبر.

انتصف النهار، وطال الترقُّب والانتظار، وشقَّ الموقف على أهل قرطبة، احتلَّتْ الشمسُ كبد السماء، وصبَّتْ عليهم حرارتها صَبّاً؛ فانصب العرق يلذع أجسادهم تحت الدروع لَذْعاً، انحبست أنفاسهم وتضجَّروا حتى كادوا يطرحون سلاحهم المُرهِق

ويخلعون دروعهم الثقيلة، سئموا الانتظار الخانق.. وظَنّوا أنَّ هذا النهار العصيب لن ينقضي، وما برح فوارس البربر على مرأى منهم ثابتين راسخين.. يحملقون فيهم باستهزاء دون أن يتقدموا إليهم عَدْوة فرس.

لم يُطق صاعد صبراً وهو يعاين رجاله يتأرجحون بين اليقظة والإغفاء تَمَلْمُلاً، ويشاهد بعضهم يتطوَّح إعياءً وإجهاداً؛ فانبرى يصرخ فيهم مُحفّزاً: "يا أهل قرطبة.. يا أهل الشدة والبسالة! إنَّ عدوكم محجمٌ عنكم، يهابون أنْ يعبروا إليكم؛ فهَلُمُّوا إليهم؛ احصروهم عند سفح الجبل، مزِّقوهم بسيوفكم، اقطعوا رؤوسهم!".

تطلَّع حباسة بن ماكسن إلى الأفواج المتلاحقة.. تستأنف الزحف نحوهم؛ غير أنَّه زحفٌ مُتقاعسٌ؛ فهانوا في عينه.. وتهاووا في نظره، ثارت حماسته.. وحثَّتْه شهوة القتال على الخَوْض إليهم بفرسانه ليفترسوهم افتراساً، بيد أنَّ أخوه الأكبر (حبوس) أوعز إليه أنْ اثبت.. ولا تتحرك؛ فهتف مُتحمِّساً.. يُحرّضه على القتال: "لِمَ التلكُّؤ.. يا أخي؟! ألا تنظر إليهم؟؟ إنَّهم لُقْمَةٌ سائغة!!".

- تريَّث.. يا حباسة.. ولا تتعجَّل! فإني –رغم زحفهم إلينا- أبصر الخوف في أعينهم، وأحس –من مقامي هذا- بالرعب يجثم على صدورهم؛ فاصبر حتى يتجاوزوا الوادي.. ويواجهونا؛ فنكون أمامهم.. ويصير الوادي السحيق من خلفهم، ووقتئذ.. هم لك ولفرسانك.. لقمةٌ شهية!

****

-المشهد الخامس والثلاثون بعد المئة-

مُنعزلاً عن الأحداث.. قعد عبد الجبار محتبساً في بيته.. واهن العزيمة، نائيً بنفسه عن معركةٍ وشيكة في سفح (قنتيش)، ومتباعداً عن صراعٍ صائرٍ –لا محالة- في قلب قصر قرطبة. جلس يحتسي كأسه.. ويتجرَّع صبابته:

(ها أنا ذا أشقى بحبكِ.. يا سلوان؛ وأنتِ لا تدرين عن شَقْوَتي شيئاً! صدق القائل: ويلٌ للشَّجِي من الخَلّي[1])، (آه.. لو تعلمي أنّي زهدتُ في المُلك والسلطان لأجل حبكِ، وعزفتُ عن ملذات الدنيا عدا أنْ تَلْتذَّ عيني برؤية وجهكِ!)، (آه.. لو تعلمي أنّي أحبس روحي في بيتي كالنساء وأمتنع عن الحرب.. خشية أنْ أموت؛ فأُحْرَم نعمة الأمل والشوق إلى رؤياكِ!)، (كيف السبيل إليكِ؟!! تَباً للخبيث.. ابن اليهودية! زعم أنَّه سيُقرِّبني منكِ، وما انفك يَعدني ويُمنّيني حتى تَمكّن لدى المهدي؛ ثم اختبأ مني وراء كأسه وحفلات سمره!! آه.. لو وقعتَ تحت يدي.. يا ابن الرسان؛ تالله.. لأُنكِّلنَّ بك!!).

فرغت كأسه، تَحَسَّس الزَقَّ؛ فوجد خمره نافداً، صاح منادياً: "يا نجوى.. يا نجوى! إئتني بزَقٍّ آخر!"، بعد هنيهة.. جاءته تمشي بتوانٍ، ناولته الزَّقَّ الجديد بوجهٍ ممتعض، وانكفأت تَهمُّ بمفارقته على عجل، استوقفها شاجباً: "يا جارية السوء؟! ألا تبتسمين في وجه سيدكِ؟!"، استدارت لتواجهه بنظرةٍ لا مبالية.. وبفمٍ فاغرٍ عن ابتسامةٍ بلهاءٍ مفتعلة، حدجها بنظرةٍ شزراء.. وزعق مُوَبِّخاً: "ما هذا.. يا بلهاء؟! أ تسخرين مني؟! تالله.. لأؤدبنَّكِ!!"، رمقته ببرود.. وهتفت: "افعل ما بدا لك!"، ثم همَّت بالانصراف.

استمهلها.. وقام إليها، أمسك يدها برفق.. وهو يتوسَّل معتذراً: "بربك.. يا نجوى.. تعالي.. اجلسي معي!"، أجلسها إلى جواره؛ فلم تمتنع رغم تظاهرها بالتأفف، ناولها الكأسَ الفارغة؛ فأفرغت له فيها من الَّزقِّ الجديد دون أن تنطق بكلمة، ارتشف رشفات.. ثم خاطبها هامساً: "هل تدرين لما أصبر عليكِ وعلى سوء خُلُقكِ.. يا جارية!".

- .... سكتت ولم تجبه خلا نظرةٍ متعالية.. مترفِّعةٍ عن نعته لها بالجارية.
- لأنّي كلما رأيتُكِ.. ذكَّرتني سلوانَ؛ فأصابتني لذةٌ حلوة، وغشيتني نشوةٌ رهيبةٌ.. كأني أطير بجناحين.. بين السماء والأرض!
- تالله.. تفتأ تذكرها حتى تكون من الهالكين!!
- وما يضرني إنْ هَلَكَتْ نفسي في حبها!!؟

---

[1] : مثل معناه: ويل للمهموم من محبوبه الذي لا يهتم له.

- يا سيدي! إنَّك الحاجب الأعلى للدولة التي تتقاتل جيوشُها –الحين- على مقربةٍ منك.. وأنت جالسٌ في بيتك.. لا تُحرِّك ساكناً، ولا تفعل شيئاً حاشا البكاء على محبوبةٍ ما علمتْ.. بعدُ.. بحبك لها!!
- سُحقاً لمُلكٍ يُبعدني عنها! لا أحب من الدنيا سوى رؤية محياها!!
- عفواً.. سيدي! بئس الحب الذي يفعل بصاحبه ما فُعِل بك!!
- بل.. أَنْعِم به من حب! (صاح منفعلاً)، ثم أردف بنبرةٍ اهدأ: "ألا تفهمين؟! لقد مضتْ سنون العمر تركض، ومضيتُ أركض معها.. لاهثاً وراء مُلكٍ هَلَكَ أبي (المغيرة) في طلبه.. وثأرٍ قُتِل أخي (محمد) في سبيله، لقد تجاوزتُ الأربعين من عمري؛ ولا زوجة.. ولا ولد.. ولا حياة! وعلى مَرِّ تلك السنين الطويلة.. لم ينبض قلبي لأحدٍ ولم يرق لامرأةٍ ما خلا سلوان، حين وقع حبها في قلبي.. انبعث في روحي أملٌ جديد في الحياة، وبدون حبها.. ليس لقلبي حياة...

قاطعه صراخُ سعدى آتيةً من الخارج تهرول.. لتقول: "سيدنا المؤيد حيٌّ! سيدنا.. حيٌّ!"

****

-المشهد السادس والثلاثون بعد المئة-

بشِقِّ الأنفس.. بلغت الأفواجُ الأولى من أغرار[1] قرطبة الطرفَ الآخر من الوادي واصلين إلى سفح جبل (قنتيش)؛ فألفوا أنفسهم بين أيدي فوارس البربر المتحفِّزين.. وعلى بُعد عَدْوةِ[2] فرس من القشتاليين المتربِّصين، جاءتْ إشارة القائد (حبوس) لفرسانه؛ فاستلوا سيوفهم.. ونَخَسوا خيولهم.. وزلزلت صيحاتُهم قلوبَ خصومهم؛ فما قدروا أن يثبتوا، برقت بضعة عشراتٍ من السيوف البربرية الصارمة.. وأخرى قشتاليةٍ حاقدة، وطافت على مئات الرقاب القرطبية؛ فحصد الموتُ أرواحاً غرَّها

---

[1] : الغِرّ: مَن ينخدع إذا خُدِع.
[2] : عدوة فرس: مسافة خطوة من خطوات الفرس.

الشيطان؛ فبرزت إلى مضاجعها، وانكفأ الآخرون هاربين.. يُوَلُّون الأدبار فَزِعين؛ فاصطدموا بمَن وراءهم من إخوانهم، انفرط عِقْد جيش قرطبة.. وتضعضع في ساعة من نهار، نكص جنوده فارين فرادى وجماعات.. مُتشرذِمين في غير انتظام، وأَتْبَعَهم حباسة وبهلول وجنودهما.. يضربون الرقاب بسيوفهم ورماحهم.. ويطؤون الأجساد والأشلاء بسنابك خيولهم.

هلك الآلاف من جيش قرطبة؛ فمَن لم تحصده سيوف البربر أو القشتاليين.. سقط في قَعْر الوادي السحيق مُتهشِّم العظام.. أو مدهوساً تحت السنابك والأقدام، ومَن نَفَذَ من الوادي.. سقط غريقاً في نهر الوادي (نهر قرطبة)، **لم ينج إلا القليل الخائف!**

****

-المشهد السابع والثلاثون بعد المئة-

"ماذا تقولين.. يا مخبولة؟!!": صاحت نجوى مُستنكِرة، فيما تلهث سعدى من المفاجأة.. وتسكب عيونها الدمع من الفرحة، أما عبد الجبار.. فقد خَتَّرَتْه الخمرُ؛ فلم يزد عن أنْ عَلَّق هامساً: "ما الفارق؟!! فما الحياةُ سوى الوجه الآخر للموت!!".

التفتت نجوى إليه.. لتصيح بغَيْظٍ مكبوت: "أفق.. يا سيد عبد الجبار! إنَّها تقول: المؤيد حيٌّ؛ المؤيد.. الذي مات وصلى عليه الناس ودفنوه في القبر.. منذ شهورا!".

- لَعَمْرُك.. يا سيدي.. أقول الحقيقة! أنصتا؛ ها هو ذا منادي القصر يجوب الشوارع والدروب ليُعلِنها للناس؛ بل.. ويقول: مَن أراد أنْ يشاهده عِيَاناً؛ فلينتظر عند باب الشَّكال؛ سيُشرف على الناس من شرفته!
- أ حقاً.. ما تقولين.. يا سعدى؟؟ كيف يكون هذا؟!! (تساءلت نجوى باستغراب)
- وأيم الله.. إنَّه.. لصدقٌ! تعالي.. نرتقي السطح؛ لنسمع!!

صعدتا سطح الدار، وعبد الجبار لاهٍ في كأسه.. غافلٌ عما يجري حوله، أرهفت نجوى السمع؛ فجاءها صوتُ المنادي يُعلِن بوضوح: "أيها الناس! إنَّ مولانا أمير المؤمنين: (المؤيد بالله: هشام بن الخليفة الحكم المستنصر بالله).. حيٌ يُرزَق.. صحيحٌ معاف، وما سيدنا (محمد المهدي) إلا قائمٌ دونه ونائبٌ عنه؛ كالخليفة وحاجبه، ولقد شهد عليهما قاضي القضاة (ابن ذكوان) والوزراء والفقهاء؛ فمَن سره أنْ ينظر إلى مولانا الخليفة (المؤيد) –أطال الله بقاءه- فلينتظر عند باب القنطرة أو باب الشَّكال؛ فإنَّ مولانا سيتفضَّل.. وسيَطْلُع علينا من شرفته هناك!".

بانفعالٍ غاضب.. ركضتْ نجوى عائدةً إلى حيث ينحبس عبد الجبار، تسعى خلفها سعدى مندهشةً: (ما سر غضبها؟!!)، رأتها تَهُزُّ سيدها هَزّاً، وسمعتها تزجره صائحة: "أفق.. يا تعيس! قم.. انظر في شأنك؛ لقد عاد المؤيد إلى الحياة ليصبح الخليفة، وصار المهدي حاجباً؛ فما تكون أنت؟!!"؛ وهو –كما هو- غائبٌ في سكره.

- أَقْصِري.. يا نجوى! كيف تخاطبين سيدكِ.. هكذا؟!! (نهرتها سعدى)
- لم يعد لنا بسيد.. يا غبية! ألا تفهمين؟! المؤيد حيٌّ؛ وأنا وأنتِ من جملة إمائه، وانتقالنا إلى هذا المخمور الجَشِع.. كان ميراثاً؛ وهو الحين باطل!
- أصبتِ.. والله! عجبتُ لفطنتكِ التي تحضر حيناً.. وتغيب أحياناً! لكن.. هل تظني أنَّه يرضى أنْ يعيدنا إلى المؤيد؟ لا سيما وأنتِ تعلمين بخله.. كما أعلمه!!
- يمين الله.. أقتله؛ إنْ فعل!!
- ماذا؟؟! بؤساً لك! أ تُؤثرين هذا القتور.. على مولانا المؤيد؟!!
- يا بلهاء!! أنا هنا كهرمانةُ الدار؛ بل.. ربتها، وهذا السِكِّير يعاملني كسيدة، أما عند مؤيدكِ.. في قصر الخلافة؛ فكما تعلمين: أَمةٌ تَخْدِم.. ولا تُخْدَم!
- هل ستمتنعين عن العودة إلى سيدكِ المؤيد.. إنْ أمر بردِّنا إلى القصر؟!!
- ليس الوقتُ.. وقتَ حديثٍ كهذا! أيقظي معي هذا التعيس حتى يفيق؛ فينظر في أمره: هل هو الحاجب.. أم المهدي؟!

- .... رمقتها باستغراب ولم تحرك ساكناً؛ فالتفتت نجوى إلى سيدها وراحت تنضح الماء في وجهه، ثم تَخُضُّه.. وتَحُضُّه.. مُنادية:
- سيد.. عبد الجبار! أفق.. بالله عليك! انظر المصيبة التي سقطت فوق رأسك!!

****

-المشهد الثامن والثلاثون بعد المئة-

أَفَلَتْ الشمسُ.. وجنَّ الليلُ، ارتقى البدرُ صهوةَ السماء.. وبدا في عليائه يتطلَّع حانقاً إلى شراذم المنهزمين المُتبعثِرة تتهافت إلى قرطبة.. لائذين بها، تُلاحقهم -إلى قُعُور بيوتهم- أفواجٌ من الرعب إِثْر أفواج، وأصداءُ دعوى المستعين بالخلافة لنفسه.

اطلَّع البدر إليهم؛ فرآهم هَلِعين فارين من معركةٍ؛ خَلَّفوا أرضَها.. مكسوَّةً بجثث إخوانهم الهامدة.. مفروشةً بأشلائهم المُمَزَّعة، تلوَّنت تربتها بدمائهم.. وامتزج ترابها بتلك الدماء المتخثِّرة حتى أوحلت؛ أوحلت بالدماء!!
تطاول الليل.. وأَظلمتْ مدينة النور ألماً وحسرة، ولاح البدر في سمائها رهيباً مخيفاً!!

مع تَمادِي الظلام.. سَكَنَ كلُ شيءٍ في قرطبة ما خلا رَجَفاتِ قلبٍ واجف.. أو أَنَّاتِ مَكْلوم.. أو نواحِ ثكلى.. أو عَوِيلِ يتيم!

تَوَّغل الليل بظلمته.. وتَغَوَّلتْ برودته، وعَصَفتْ ريحٌ عقيم.. آتيةٌ من لَدُن سفح (قنتيش).. محملةٌ بالخزي والأسى.. تفوح برائحة الموت المقيتة!

نزلت الكُرْبَةُ على قرطبة؛ فحَلَّ الخزي في الدُور، وأحالها الهَمُّ والحزن إلى قبور، وبات الناس على سطوح بيوتهم في وجلٍ وخوف!

مثل غيرها من دور قرطبة.. كانت دار فاطمة المروانية: باتت أم سعدون على سطح الدار.. واجفاً قلبها.. مُتشبِّثاً بها ولدها، وأم عبد الواحد في حُجْرتها.. فؤادها هواء، وفي حَجْرها حفيدها.. قد ذَرَعَه البكاء، وإلى جوارها كَنَّتها ذاهلة عن رضيعها.. لا

تنفك تقوم وتقعد اضطراباً وقلقاً على زوجها وعشيرتها، وليست سلوان بأقل منها وَلْهاً مما أصاب قرطبة.. ولا انزعاجاً على حمدون والمؤيد.

أما أم هشام؛ فقد كانت أشدهنَّ أسى.. وأعظمهنَّ حسرة: (يا ليتني متُ قبل أن أشهد هذا اليوم الفاجع! الموت خيَّم على كل بيتٍ فيكِ.. يا قرطبة؛ ولستُ أدري: علاما اقتتل الناس؟! وفيما قُتِل مَن قُتِل؟!! أ على الدنيا ومُلْكها الزائل.. يقتتلون؟!!)، (ليت شعري.. هل أولئك القتلى شهداءٌ في الجنة؛ فنصبر ونحتسب؟! أم غير ذلك؛ فنجزع ونضطرب؟!!)، (ليت شعري.. مَن مِن الناجين.. مجاهدٌ مأجور؛ فنهنيه؟! ومَن منهم.. غير ذلك؛ فنعزيه؟! مَن منهم نسأل الله له القبول؟! ومَن ندعو له بالتوبة والإنابة؟!)،

(برحى.. برحى! تالله.. إنها لفتنةٌ؛ مات فيها مَن مات، ومَن بَقِيَ؛ سيعيش ميتاً!)،

(وا أسفاه -يا قرطبة- على أهلك ورجالك.. وعلى جيشك وجنودك!!).

****

-المشهد التاسع والثلاثون بعد المئة-

بعد أنْ أبرز نفسه –في شرفة القصر- إلى جوار المؤيد كأنَّه حاجبه، وأبصرهما الناظرون من لَدُن باب الشَّكال على هذه الحال.. **انقلب** المهدي لينفرد بلقاء قاضي القضاة (ابن ذكوان)، طفق يُبرّر ويُجادل.. كأنَّما يَنْشُد ورقاً يخصف منه على سَوْءة غشه وتضليله؛ لكن.. صَدَّه القاضي باستياء؛ فانقَلَب يعتذر ويلتمس منه الشفاعة عند البربر؛ فما قَبِل القاضي منه.. وما عَبَأ به، سُقِطَ في يده.. فبكى يائساً، وتحت قدمي القاضي خَرَّ مستغيثاً.. متوسلاً أنْ يَفِد إلى البربر ليُراجعهم ويتوافق معهم على ما فيه الإصلاح والنجاء، على مَضَض.. استجاب القاضي حِرْصاً على درء الفتنة.. واستجلاباً للعافية.

فَوْر أنْ انشق الفجر؛ شقَّ طريقه إلى جبل (قنتيش) حيث معسكر البربر المُتغلِّبين.

التمس أن يلتقي بالمستعين (سليمان بن الحكم)؛ فأجابوه: "هيهات! إلا أنْ تُبايعه.. وتُسلِّم عليه بالخلافة!!"، بيد أنَّه تَأَبَّى عليهم؛ فأَحَالوه إلى زعيم البربر (زاوي بن زيري).

لم يرد عليه السلام؛ وإنَّما رمقه بجفاء.. وسأله باستنكار:

- لِمَ ترفض مبايعة الخليفة (المستعين بالله).. يا قاضي القضاة؟؟!
- كيف أُبايعه وفي عنقي بيعةٌ لغيره.. يا شيخ البربر؟!!
- وهل تَصِحّ بيعة ذاك الذي تَلقَّب بالمهدي بعد الذي صنع؟!
- لم أعنِ المهدي؛ إنَّما عَنيتُ: المؤيد (هشام بن الحكم المستنصر)!!
- ألا تذكر.. يا سيادة القاضي؟! ذاك ميتٌ منذ شهور! (هتف حباسة مُتهكِّماً)؛ تضايق القاضي من لهجته؛ لكنَّه.. تمسَّك بضبط النفس.. وأجابه في أناة:
- بل.. هو حيٌ –والحمد لله- أيها الفارس، ودون ريب.. قد بَلَغَكم نبؤه!!
- سبحان الله! يا قاضي القضاة! بالأمس.. يموت وتُصلي عليه أنت وغيرك، واليوم.. يعيش وترجع الخلافة إليه؟!! (تساءلوا باستقباحٍ.. ساخرين)
- كانت خدعة خُدِعتُ بها؛ أعتذر عنها، ولقد رأيتُه وكلَّمتُه وتَيَقَّنتُ أنَّه حيٌّ؛ فهو أمير المؤمنين، والمهدي قائمٌ دونه كالحاجب يحجبه.. و..
- بئس ما جئتَنا به.. يا قاضي! ارجع إلى أميرك الذي يموت ويصحو؛ لعله مات مرة ثانية!! (قاطعه حباسة هازئاً ضاحكاً)، اغتاظ القاضي وتأذى منه؛ فصاح منفعلاً بأنفةٍ وإباء:
- تَأَدَّبْ.. أيها الفارس! ما هكذا.. يُخاطب.. قاضي القضاة!!
- مَهْ.. يا حباسة! لا تُغضِب أبا العباس! (هتف زعيم البربر رادعاً ابن أخيه)، ثم التفت إلى القاضي وخاطبه بنبرةٍ لَيِّنة:
- ارجع.. يا سيادة القاضي.. لا نحب أنْ نؤذيك بألسنتنا ولا بأيدينا، ارجع.. فمُرْهم أنْ يُهيِّئوا القصر ويُمهِّدوا العرش.. لأمير المؤمنين: المستعين بالله.. سليمان!

- .... طالعه بنظراتٍ محبطةٍ متأففة، وعجز لسانه عن الإجابة؛ فاستدار منصرفاً، استوقفه زعيم البربر.. هاتفاً بتطيِّب خاطر:
- أبا العباس! سندخل قرطبة.. غداً، وإكراماً لك.. فإنَّا نُجير مَن اِستجار بك؛ حاشا محمد (المهدي).. وحاجبه: عبد الجبار بن المغيرة!!

****

-المشهد الأربعون بعد المئة-

لليوم الثاني.. أشرف المؤيدُ على المحتشدين لَدُن باب الشَّكال وباب القنطرة.. لينظروا إليه، ومنادي القصر بين يديه يُعلن للناس: "يا أهل قرطبة! ليُعلم الشاهدُ الغائبَ.. وليُبلغ الداني القاصي: هذا أمير المؤمنين (المؤيد: هشام بن الخليفة الحكم المستنصر).. حيٌّ، ومحمد (المهدي) نائبٌ عنه؛ هما كالخليفة وحاجبه!!".

تكبكب الناس حول باب الشَّكال، وتزايدت أعداد المحتشدين اليوم.. عن الأمس، طفقوا ينظرون ويتعجبون: "هذا الذي عاد من الموت.. بعد أنْ قُبِر.. ليعتلي عرش الخلافة من جديد؛ كأنَّ ثورة المروانيين لم تكن، كأنَّ شهوراً تسع لم تَمُرْ؟!!".

"والعَجَب العُجَاب؛ ذاك الذي يقف بين يديه كأنَّه حاجبه!! ألا يستحي؟! كنا منذ بضعة شهور نصرخ ضارعين: يا ربنا.. نجنا من شنجول.. بالثائر المرواني المجهول؛ فانظروا ماذا فعل لَمَّا ظهر وظفر؛ بايعناه خليفةً.. وتَلقَّب بالمهدي؛ فأَضلَّ وما اهتدى!! قبَّحه الله وأخزاه!! تالله.. إنَّه لا يسير بالسَّرية، ولا يقسم بالسَّوية، ولا يَعْدل في القضية؛ فأنى له أنْ يكون حاجب الخلافة؟! أ وبعد (المنصور) و(المظفر)؟!".

وما فتئوا ينادونه هازئين: "يا مهدي.. يا سخنة[1] كل عينٍ، يا مَن تسكر كل يومٍ سكرتَيْن، يا أشأم خلق الله على عباده، يا ضعيف العقل.. شَيْن.. غير زَيْن!!".

---

[1]: سخنة: ضد قرة.

ما استطاع أنْ يجيبهم؛ فاندحر وتنحى عن الأعين، ثم اختفى؛ فلم يُعثَر له على أثر.

*****

انثنى سعدون عائداً إلى دار (فاطمة المروانية)؛ لينادي أمه لاهثاً من الفرح: "رأيتُ سيدي المؤيد، إنَّه هو عينه الذي زارنا وأقام عندنا –هنا- أياماً، إنَّه حيٌّ.. لم يمت!!"، ثم ينادي أم هشام وسلوان: "ورأيتُ حمدون واقفاً وراءه ثابتاً كالليث.. وعيونه كالصقر!!"، ثم ينادي أم عبد الواحد وحفيدها الرضيع: "ورأيتُ المهدي –قبَّحه الله- يقف بين يديه ذليلاً مخزياً.. والناس يسبونه ويلعنونه!!"، كَبَّرتْ أمه وهَلَّلتْ استبشاراً وسروراً.. حالما عقد القلقُ لسانَ أم هشام، بينما جأرت أم عبد الواحد:

- يا ربي.. سلم! الحين صار في البلدة خليفتان: (المؤيد.. والمستعين)؛ وهذا لا يجوز!!
- لا.. يا أم عبد الواحد! هو خليفةٌ واحد، هو المؤيد.. وقد رُدَّت إليه الخلافةُ بعد أنْ اغتصبها المهدي؛ فلا يحق لسليمان بن الحكم أنْ يُنازعه إياها! (قالت أم هشام)
- قد بايعه جيش الأندلس: البربر.. ومَن والاهم؛ هو المُتغلِّب.. يا أم هشام!!
- أولئك الذين تزعمين ليسوا أهل الحل والعقد بالأندلس، وليس لهم حقٌّ في فرض خليفتهم على الناس؛ إنَّما الخليفة الحق.. مَن بايعه أهل الحل والعقد!!
- أهلُ الحل والعقد؟!! لَعَمْرُكِ.. إنَّهم ألعوبةٌ في يد ذلك الفاسق المُتلقِّب بالمهدي، ألم ترِ أنَّهم –بإشارةٍ من إصبعه- خلعوا المؤيدَ.. وبايعوه، ثم أعلنوا موته وصَلُّوا عليه وقَبَروه، ثم أعلنوا أنَّه حيٌّ.. وبايعوه؟!! تالله.. إنَّهم أضحوكة الزمان!!
- أَقْصِري.. يا أم عبد الواحد.. وارفعي لسانكِ عن خيار الناس!!
- نعم! هم خيار الناس: علماء وقضاة.. وفقهاء.. ورؤساء ووجهاء؛ فهلا يستحون من الله فيما استرعاهم.. ويُقدمون للناس الخليفةَ الذي يرضاه الله!
- هل هذا قولكِ في (المؤيد بالله)؟؟!
- وما قولكِ أنتِ.. يا فاطمة؟! أيهما خيرٌ للأندلس: المؤيد الذي كان –طيلة خلافته- مَطيَّة حاجبه، أم.. (سليمان) الذي تعرفين عقله ودينه وخلقه.. كما أعرف!!

- .... أمسكت أم هشام عن الجدال، فيما.. سألتها سلوان:
- هل تعرفينه.. حقاً.. يا أماه؟؟!
- تعرفه حق المعرفة؛ فقد رَبَّته وعَلَّمته صبياً صغيراً مع ولدها هشام –رحمه الله- وولدي عبد الواحد، وإنَّما تعلم أنَّه كان مِن أنبغ أقرانه.. وأعقلهم وأرشدهم!!
- ندعو الله أنْ يولي أمرنا الصالحين المصلحين، وأنْ يُنجينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن! (جأرت أم هشام ضارعةً إلى الله.. وقد أعجزتها الحيرة عن التفكير)

****

-المشهد الحادي والأربعون بعد المئة-

لمَّا سُقِطَ في أيديهم.. ورَأَوْا أنَّ قرطبة ساقطةٌ –لا محالة- في أيدي البربر وحلفائهم؛ تآلف أصحاب الرأي من أهل قرطبة، والتأم جمعهم عند قاضي القضاة (ابن ذكوان)؛ فسألهم: "يا قوم! ماذا تقولون فيما نحن فيه؟؟!".

- قد جئناك.. يا قاضي القضاة.. وفي قلوبنا ثُلَمٌ لن تُسدَّ وجراحٌ لن تندمل، ما من رجلٍ منا إلا وراءه جثة حبيبٍ أو قريبٍ لمَّا يدفنها بعدُ، جئناك.. وقد خلَّفنا في البيوت الثكالى واليتامى والأراملَ.. ينوحون وينتحبون!!
- عَظَّم الله أجر الجميع! أعلم أنَّ الفاجعة عظيمة والمصيبة شديدة؛ لكن.. إنَّ من الحزم ألا ندع مصيبة الأمس تصرفنا عن إصلاح الغد، ينبغي أنْ نسعى لأمر رشدٍ نتوافق عليه.. يكون فيه الصلاح والإصلاح.. بعون الله!
- ولأَجْل ذلك.. جئناك.. يا أبا العباس؛ فامضِ بنا إلى ما فيه الرشاد!
- وما هو؟؟!
- نرى أنَّ (المستعين) قد تَغلَّب، وأنَّ العُصْبَة معه؛ فلنُعاهده ويُعاهدنا؛ فإنَّه مروانيٌ راشد.. ليس ابن البارحة[1]!

---

[1] : ليس ابن البارحة: أي ليس جاهلاً غر؛ بل خبير محنك.

- ألن يُخالف أحدُكم ويأتيني فيقول: كيف ترضى لنا.. يا قاضي القضاة.. أنْ نُذِلَّ رقابَنا للبربر.. ونخضع لخليفتهم ونُعاهده؟؟!
- كلا! قد حزمنا أمرنا.. يا أبا العباس! فلنخزي شيطان الكِبْر، وندع الأنفة والفخر؛ فإنَّهما ما درآ مفسدةً، ولا جلبا منفعةً.
- فماذا تريدون؟؟!
- قد بلغنا أنَّهم أزمعوا على دخول قرطبة غداً، وكما تعلم: إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها.. وجعلوا أعزة أهلها أذلة؛ إلا أنْ نسبقهم وتخرج بنا إلى سليمان (المستعين)؛ فنبايعه بالخلافة.. ونأخذ منه العهد بالأمان!
- إنْ كان هذا ما تآلفتم عليه؛ فاعلموا أنَّ ذلكم يعني: أنْ نُبايعه بالخلافة، وأنْ نتعهد له ألا نُعِين أحداً يُنازعه إياها؛ على أنْ يتعهد لنا بالأمن والاطمئنان.. والعدل والاستقرار، وأنْ يحكم بكتاب الله وسنة رسوله!
- وأخرى نحبها.. ولا غنى عنها.. يا أبا العباس!!؟
- وما هي؟؟!
- أنْ يسمح لنا أنْ ندفن قتلانا الذين قُتِلوا بالأمس.. عند سفح قنتيش!
- لا جناح علينا إنْ طالبنا بهذا؛ فهو أقل الإنصاف!
- لله الأمر من قبلُ.. ومن بعدُ! قد ارتضينا.. يا أبا العباس!

****

-المشهد الثاني والأربعون بعد المئة-

مُذ غادر الدارَ ضَحْوَةً.. لم يرجع؛ وها قد مضى أغلب الليل.. ولم يأتِ!؟ وكان قد اصطحب معه شادن (العبد الأسود).. والأمتين (خادمتي أمه الخاصتين).

لم تغفل عين نجوى إلا غراراً؛ بل باتت مضطربة.. مُتقلِّبة في فراشها، ليس جزعاً أو قلقاً على سيدها (عبد الجبار)؛ وإنَّما فضولاً ورغبةً في الاطلاع على ما انتهى إليه

أمره: فإنَّه بعد أنْ أفاق من سكرته.. وعَلِمَ ما عَلِمَ.. وألفى نفسه خارج القصر.. (لا في العير ولا في النفير.. كما يُقال)؛ انتفخت أوداجه غضباً.. وأَرْغَى وأَزْبَد.. وراح يتهدَّد ويتوعَّد: "فعلتَها.. يا محمد (يقصد: المهدي)؟! قد خدعتني مِراراً وتَكْراراً! إلى متى أصبر عليك وعلى غشك وخِداعك.. أيها الصعلوك؟!! أقسم برب أجدادي (الداخل) و(الناصر).. لأنتقمنَّ منك.. أيها الماكر؛ ولا أُبالي!!"، ثم انطلق.. ومن ساعتها لم يعد، ومن ساعتها والفضول يفترسها: (ماذا سيفعل هذا البخيل الأرعن؟؟! ولماذا اصطحب معه فتاه الأسود؟؟!)، (والجاريتان اللتان تخدمان أمه.. لماذا أخذهما معه؟!! لقد سئمتُ من خدمة هذه العجوز وحدي.. طيلة النهار!!)، (لن يهدأ بالي، ولن تَقرَّ عيني.. حتى أعلم: على ما عزمتَ.. يا عبد الجبار!!).

أحستْ بوقع أقدامٍ مُتلصِّصة تلج بابَ الدار، حدستْ أنَّه هو؛ فنهضت إليه.. لتُحييه وتُرحِّب به.. رغبةً في استدراجه لتعرف ما أحدثه، خرجت من حجرتها؛ فصادفته مُنهمِكاً.. في شُغلٍ عن أنْ يَحُسَّ بها، رَأَتْه: يتخفَّف من ثيابه.. ويُطفئ السُرج إلا بصيصاً باهتاً، ثم يحمل صندوقاً ضخماً ينوء به من ثقله. ارتابت في أمره فُضُولاً: (بحق الله.. ماذا يفعل.. هذا الرجل.. في مثل هذه الساعة من الليل؟!! وأين شادن والجاريتان؟؟!)؛ كتمت أنفاسها واستترت عنه.. لترى ما يصنع دون أن ينتبه إليها!

على شعاع الضوء الخافت.. توَّجه إلى الداخل حيث حديقة الدار، واثباً على أطراف أقدامه.. تَسلَّل راغباً ألا يشعر به أهل الدار، راقبته من بعيد.. وبالكاد تُبصر ما يفعل: وضع الصندوق جانباً، ثم تناول معولاً واتجه إلى إحدى الأشجار، مضى يضرب الأرض تحتها.. كأنَّه يحفر حفرةً، ثم حمل الصندوق ودَسَّه فيها، وأهال عليه التراب، ثم راح يُعيد التربة لأصلها التي كانت عليه، ثم طفق يرسم علامات –لم تدركها- كأنَّما يُميِّز موضع تلك الشجرة عن الأخريات، (إنَّه يُخبِّئ صندوقاً، ويريد ألا يعلم به أحدٌ.. حتى أنا وأمه!!): حدَّثت نفسها :(تُرى.. ما هذا الصندوق؟ وما محتوياته؟ لابد أنْ أعرف!!).

قبل أنْ يعود إلى صحن الدار.. انسَلَّت إلى حجرتها كيلا ينتبه إليها، بعد لَأْيٍ.. أحست به يفتح باب حجرتها.. ثم يُناديها بصوتٍ خافتٍ مرتعش، تظاهرت بالنوم؛ ثم أجابته: "لبيك.. سيدي!"، فهمس: "أفيقي وقومي؛ أريدكِ في شأنٍ هام؛ سأنتظركِ في مجلسي!!".

تباطأت قليلاً.. لتُوحي إليه كأنَّها ران عليها النُعاس، ثم سعت إليه؛ فوجدته قد أشعل السُرج.. وأعاد المكان سيرته الأولى، دلفت إلى المجلس؛ فرأته مُتكئاً يواري كَدَّه -في حمل الصندوق ودفنه- خلف سكوتٍ مُشوَّش، لكن.. عرقه المُتصبِّب الذي لم يجف بعدُ.. وأنفاسه الحارة التي لم تزل تتلاحق.. يفضحونه؛ بيد أنَّها تغافلت، ابتسمت.. ابتسامة الجارية الطائعة لسيدها.. وهمست بتؤدة:

– لبيك.. سيدي! هل أُعد لك طعام عشاءك؟؟
– كلا! بل.. اجلسي.. واسمعي مني!!
– حباً وكرامة! إنِّي.. أسمع! (قالتها.. وهي تتظاهر بالتثاؤب)

نظر إليها بعيونٍ زائغة.. ووجهٍ بُثَّ في قسماته الاضطراب والإعياء، ثم شرع يهمس بشفاه مرتعشة: "هلك جيش المهدي، وغنم البربرُ قرطبة، ضاع كل شيءٍ، لم يبق لي ملجأٌ ألوذ به!!"، شعرت –وهي تسمعه- بجسده يرتجف وركبتاه تصطكان تحت ثيابه؛ فاقشعر بدنها وفغر فاها.. ولم تدرِ بماذا تجيبه، أطرقتْ.. فأردف –بذات النبرة الهامسة المرتعشة-: "لو ظفر بي البربر؛ لفتكوا بي، أعلم أنهم يريدونني –كما يريدون المهدي- لينتقموا مني! لابد أنْ أهرب من قرطبة!!".

– وأين.. المهدي؟!! (تساءلت منزعجة)
– اختفى!! أحسبه.. فرَّ من القصر.. وربما من قرطبة كلها، يجب أنْ أختفي أنا أيضاً!
– يا سيدي! عش عزيزاً.. أو مت وأنت كريم! (ألقت الكلمة بداهةً دون فِكْر)؛ فاستاء منها.. وهتف مُعنِّفاً:

- تُلقي الكلامَ على عواهنه[1]؟!! لستُ خوَّاراً.. ولا جباناً.. يا جارية!!
- لم أقصد الإساءة.. يا سيدي! لكن.. إلى أين سترحل؟! وهل ستترك أمك وحدها هنا.. وهي عجوز قعيدة.. لا حول لها ولا قوة؟!!
- قد حسمتُ أمري! لو بقيتُ؛ لهلكتُ.. ولهلكتم معي، سأرحل عن قرطبة إلى حين؛ لكني.. سأعود، أعدكِ.. يا نجوى.. أني سأعود لأمي ولكِ، لقرطبة.. ولسلوان!
- عُدنا لحديث سلوان؟!! ألا تَملّ من ذِكرها؟؟! (هتفت بتأفف)
- دعِ عنكِ هذا الحديث الآن! إنَّما أرجو منكِ ما هو أهم!!
- .... طالعتْه بنظرة تبرُّم وامتعاض؛ فتغافل عن نظرتها.. واسترسل قائلاً:
- أوصيكِ بأمي.. يا نجوى؛ اعتني بها.. واحفظيها، واحفظي الدار في غيابي، لن أستأمن عليهما أحداً سواكِ!!
- وأين شادن والجاريتان؟ قد اصطحبتَهم معك صباحاً؛ فلِمَ لم يعودوا معك؟؟!
- قد بعتُ الأمتين!! (همس بكبرياءٍ منكسر.. بعد أنْ سكت برهة)
- بعتَهما؟؟! لماذا؟؟ ومَن ذا الذي سيخدم أمك؟!! (هتفت باستهجان)
- اضطررتُ لبيعهما لأُحصِّل مالاً، وفيكِما -أنتِ وسعدى- الكفاية للدار ولأمي!!
- هل افتقرتَ إلى هذا الحد.. يا حاجب الخلافة؟؟! (تساءلت بتَشكُّك)
- تأدبي مع سيدكِ.. يا جارية! كان يجب أنْ أفعل هذا في مثل تلك الظروف الجديدة!
- وهل بعتَ العبد الأسود.. هو الآخر؟!!
- كلا!! لكنِّي كلَّفتُه بمهمة سيؤديها الليلة؛ وسيعود إليكِنَّ من الغد، أما أنتِ؛ فإنني أكرر عليكِ وصيتي: احفظ أمي وداري في غيابي؛ إنَّهما أمانةٌ في رقبتك.. يا نجوى!!
- وكيف أصون الأمانة؟!! وأنت تتركنا هكذا بغير مال؟؟! كيف أُطعم السيدة أمك؟ كيف أعتني بها؟!!

---

[1] : ألقى الكلام على عواهنه: أي قاله من غير فكر ولا روية.

- لا تتعجلي.. يا كهرمانة داري! خذي هذا المال؛ أنفقي منه في غيابي.. واقتصدي!! (همس بها) ماداً يده إلى صندوقٍ صغير بجواره ليستخرج منه كيسين من النقود ويدفعهما في حجرها، أمسكتهما بيدها كأنَّما تزنهما، ثم هتفت باستنكار:
- أحسبك ستغيب شهوراً؛ فهل هذه الدُريهمات تكفي؟! اترك لي الصندوق كله!!
- كلا! هذا ما سأستعين به في رحلة هَرَبي؛ فإنِّي أجهل ما قد يَعِنُّ لي من نوازل، أما أنتِ؛ فإنْ نفد المال؛ فلن تعجزي أنْ تجدي في قرطبة من يعطيك ويطعمكِ!!
- أ تريد أنْ أَتسوَّل على أمك.. يا ابن الأكرمين؟؟! (صاحت باشمئزاز)
- اخفضي صوتك.. يا جارية السوء! إنْ شاء الله.. لن أغيب عنكم طويلاً، لابد أنْ أعود، لن أذر قرطبة للبربر، ولن أذر سلوان لحمدون!
- سلوان.. مرة أخرى!! (هتفت بامتعاض)
- الوقت يُداهمني؛ يجب أن أُفارق قرطبة قبل انبلاج الصبح، سأنصرف الحين!
- ألن تُودِّع أمك.. وسعدى؟؟! (همست بنوعٍ من الاشفاق)
- إنِّي أتشاءم من الوداع! أخبري أمي -صباحاً- أنني سأغيب أياماً، وسأعود قريباً!
- إلى أين ستغادرنا؟؟!
- خيرٌ لي ولكِ ألا تعرفي؛ لا جرم.. أنَّ البربر سيلاحقونني، ولا أحب لكِ أن يؤذوكِ!
- الوداع –إذاً- يا سيد عبد الجبار!
- لا تقولي: وادعاً! بل.. إلى لقاءٍ قريبٍ.. إنْ شاء الله، واعملي بوصيتي.. يا نجوى.. احفظي لي أمي وداري حتى أعود، وسأمنحكِ مكافأة سخية!

ابتسمت ابتسامة مقتضبة.. متظاهرة بالامتنان والود، بادلها الابتسام.. ثم حمل متاع سفره.. وانصرف؛ لا تدري إلى أين!!

غادر الدار.. وغاب عن ناظريها؛ فغلَّقت الأبواب، قعدت تتفكَّر في شأنه وشأنها: (احترتُ فيك.. يا عبد الجبار: هل أنت رجلٌ غليظ القلب أم طيب القلب؟! هل أنت بخيلٌ كما يقول عنك الناس.. أم غير ذلك؟!)، ضحكت ضحكةً هازئة:

(لا جرم هو بخيلٌ شحيح! انظري -يا بلهاء- للمال الذي تركه لأمه بين يديكِ!!)، شرعت تفتح كيسي النقود وتحصي الدنانير فيها، ثم تأففت.. وهتفت كأنها تخاطبه: "أف لك! هل هذا ما تركتَه لأمك المريضة القعيدة لتنفق منه في غيابك؟!!"، كظمت غيظها وأضمرت في دخيلتها: (لعمري.. إنَّك بخيلٌ شحيح.. قتور، هذا المال لا يكفي نفقة أمك والدار أكثر من أسبوعين!!)، (أين بقية مالك.. يا حاجب الخلافة؟؟ قد علمتُ أنَّك جشعٌ.. جمَّاعٌ للمال؛ فهلا وَسَّعتَ على أمك وأهل بيتك.. أثناء غيابك!!).

طرأت على خاطرها فكرةٌ: (الصندوق المدفون تحت الشجرة!! لا ريب أنَّه يُخفي فيه ماله الذي كَنَزَه!)، (يا لك من خبيث! تزعم أنَّك تستأمني على أمك وبيتك؟! فلِمَ لَمْ تخبرني بأمر هذا الصندوق الذي دفنتَه؟؟!)، (سأُنقِّب عنه.. حتى أجده وأعرف ما هذا الكنز الذي تُخفيه.. يا عبد الجبار!)، (كنا –نحن الإماء- متاعاً ترثونه.. أيها الأسياد؛ الحين.. سأرث أنا كنزك.. يا سيدي!)، (لكن احذري.. يا نجوى.. أنْ يطلع أحدٌ على هذا السر؛ لا شادن.. ولا حتى الغبية: (سعدى)؛ ينبغي ألا تعلم بأمره؛ فإنَّها إنْ علمت.. تدثَّرتْ بعباءة قاضي القضاة وصاحت: هذا ليس مالك وإنَّه أمانة؛ حرام تأكليه!! حمقاء!).

طالت ليلتها.. وشرد عقلها في أفكارٍ شتى.. وفي أحلامٍ يقظة، إلى أنْ نبَّهها صياح الديك إلى دنو انبلاج الصبح، خشيت أن تستيقظ سعدى فتفطن إلى ما حدث؛ فآثرت أن تضجع في فراشها، تَدثَّرت بلحافها.. وما أسرع أنْ غشيها النعاس.

****

-المشهد الثالث والأربعون بعد المئة-

الاثنين: ١٦ ربيع الأول سنة ٤٠٠ هـ، الموافق: ٧ نوفمبر سنة ١٠٠٩ م.

خرج أهل قرطبة مُغلِّسين[1] إلى سليمان (المستعين)، والبغال المتوانية مطاياهم.. بعدما كانت –أول الأمس- خيولاً عاديات، جاءوا إليه.. وهم لا يأمنون أنْ تحصدهم سيوف

[1] : أي: ساروا بغلس؛ والغلس: هو.. ظلمة آخر الليل إذا اختلط بضوء الصباح.

جنوده البربر أو رماح حلفائه القشتاليين، بيد أنَّه أحسن استقبالهم ولان لهم وأَكْبَر زعماءهم، ووعدهم بكل جميل، واستأذنهم في دخول قصر جده؛ فأكبروه.. وأثنوا عليه.. ووعدوه بالبيعة فور ولوجه قصر الخلافة.

رجع أهل قرطبة من عند (المستعين).. وقد استقرت أرواحهم في أجسادهم بعد أن كادت تفارقها هلعاً وفزعا، وعلى إثرهم دخل زعيم البربر (زاوي بن زيري) بفريقٍ من جنوده إلى القصر ليُؤمِّنوه ويُهيِّئوه للخليفة الجديد، وانتشر آخرون من جنوده حول أرباض المدينة، واحتبس عامة أهل قرطبة في بيوتهم مهابةً ووجلاً.

شرع زاوي ورجاله يقتفون أثر (المهدي)؛ لكن انتفى أثره.. وكذلك حاجبه (عبد الجبار)، وللأسف –أثناء ذلك- نهب بعضُ عبيد البربر دوراً من أرباض قرطبة.

ثم دخل (المستعين) إلى قصر أجداده، ووفد عليه زعماء قرطبة وكبراؤها؛ فبايعوه بالخلافة.. وقَبِل منهم، ثم شكوا إليه ما فُعِل بالدور في الأرباض؛ فأمر بمَن فعل ذلك.. فضُرِبت رقاب بعضهم؛ فسكن الناس، ثم التمسوا منه دفن جثث قتلاهم التي في سفح (قنتيش)؛ فأذن لهم.. وأباح لهم الحداد ثلاثة أيام، وأمر بإنزال جثة (شنجول) عن خشبته؛ فغُسِّل وكُفِّن.. ودُفِن في دار أبيه المنصور.

أمَّا المؤيد؛ فقد أَخَّرَ لقاءه إلى بعد ما ينتهي من مبايعة الناس، ثم طلبه.. فمَثُلَ بين يديه. لم يدم لقاؤهما طويلاً.. ولم يستطع أحدٌ أنْ يتنبَّأ بما دار بينهما؛ لكن.. المستعين –بعدها- وَكَّلَ صقالبتَه بحفظ المؤيد في بعض حُجَر القصر؛ فانبرى حمدون مُعترِضاً إلا أنْ يُحبَس معه، حاول عبد الواحد أن يُثنيه عن عزمه؛ بيد أنَّه أصر إصراراً شديداً؛ فشفع له عبد الواحد عند (المستعين)؛ فضموه إلى المؤيد حيث حُبِس.

*****

هبَّت رياح الخريف العقيمة على تلال قرطبة؛ فزلزلت أشجارها.. وجَثَلَتْ[1] أوراقها؛

---

[1] : جثلتها: أي.. طيَّرتها.

فتناثرت على تربة أرضها التي امتزجت بدماءٍ مُتخثِّرة.. حتى أوحلت، وغدا أهل قرطبة إلى الوادي في سفح (قنتيش)؛ فألفوا أشلاءً وجثثاً مُتعفِنة.. ذبحتها السيوف، ثم مزَّقتها مخالب الجوارح وأنياب السباع.. ومضغتها فُكُوك الضباع، فزعت قلوبهم.. وطفقوا يُفزِّعون عنها الجوارح والهوام ويطردون السباع، انفطرت الأكباد ألماً وحزناً، وزرفت العيونُ الدموعَ غزيرةً.. تُغسِّل بها جثث الأحبة، وبذلت أهدابها أكفاناً.. تُكفِّن بها الأشلاء، ثم دفنتها في سويداء الفؤاد.. قبل أنْ تُواريها التراب.

*****

آثر المستعين أنْ يغادر القصر عائداً إلى معسكره حتى تهدأ أحزان قرطبة على قتلاها وتنتهي مدة الحداد، ثم نودي في عَوَامِّ الناس بالحضور في جامع قرطبة ليُبايعوا الخليفةَ الجديد: **(المستعين بالله: أبا أيوب.. سليمان بن حَكَم بن سليمان بن الخليفة عبد الرحمن الناصر)**؛ ففعلوا.. وبايعوه كلهم أجمعون؛ فقَبِل منهم وشرط لهم شروطاً سرتهم، وأختار القاضي (ابن ذكوان) ليكون قاضي القضاة، وأنزل البربر بمدينة الزهراء كيلا يتشاحنوا معهم؛ فرضي أهلُ قرطبة بذلك وسكنت قلوبهم.

ثم رجع إلى القصر؛ فركب إليه (قومس قشتالة)، فأحسن استقباله وأكرمه.. وخلع عليه وعلى أصحابه، ثم سأله القومسُ أنْ يُعطيه الحصونَ التي كان قد اشترطها؛ فأجابه: "لن نحنث بالعهد، وسنفي لك بما اشترطتَ علينا.. إنْ شاء الله، لكن –كما تعلم- تلك الحصون ليست –الآن- بأيدينا؛ فاصبر؛ فإذا تمهَّد سلطانُنا أنجزنا لك ما وافقناك عليه!". فرضي القومس بوعد الخليفة.. ومكث في ضيافته أسبوعاً مُكرَماً، ثم رحل إلى بلاده.. بعد أنْ خلَّف من أصحابه مائة فارس أنزلهم المستعين في قصر (منية العقاب).. قريباً من سفح جبل (قنتيش).

****

-المشهد الرابع والأربعون بعد المئة-

جاء عبد الواحد بن بلقين إلى دار (فاطمة المروانية) ليسترد أمانته: (أمه.. وزوج أخيه ورضيعها)، كان لقاءً شجي مُتْرَعاً بالأتراح.. رغم الفرحة الأولية باللقاء؛ فقد علمتْ الأم العجوز بموت ولدها الأصغر (صمصامة)؛ فانكرب قلبها، وفُجِعت فيه زوجتُه الشابة ودهمها الكمد.. حتى انطرحت في الفراش سقيمةً مصدومةً.. ذاهلةً حتى عن رضيعها الذي لم يرَ أباه ولم يعرفه.

منعه مرض (توسمان) –الذي ألزمها الفراش- أنْ يأخذها ورضيعها –ابن أخيه- وأمه (تزيري).. إلى الزهراء؛ فانصرف.. ثم عاد بعد أيامٍ ليجد أنْ بدن أرملة أخيه قد تحسَّنت صحته؛ لكن القلب ما زال سقيماً، سأل أمه أنْ تنصرفا معه إلى الزهراء؛ غير أنَّها أبت إلا أنْ يعود حمدون لجدته، وصاحت فيه مُعاتِبةً:

- كيف ترضى –يا عبد الواحد- أنْ يُحبَس حمدون عن أهله.. بعد أن حفظ لك أهلك؟!! أين مروءتك؟؟!
- لَعَمْرُكِ.. يا أماه.. ما رضيتُ؛ بل.. حاولتُ إخراجه مراراً؛ لكنَّه هو الذي يأبى إلا أنْ يبقى مع المؤيد في محبسه!!
- وأنا –كذلك- أرفض أن أترك فاطمة وحدها قَلِقَةً على حفيدها.. بعد الذي كان منه ومنها، سأبقى –هنا- أنا وتوسمان.. **وصمصامة**!! (قالتها بتفجُّعٍ على صمصامة الأب)، احتضنها وقبَّل رأسها.. ثم همس بنبرةٍ لينة:
- لكن!! بقاؤكم بين القرطبيين –الحين- خطرٌ عليهم وعلينا.. يا أمي!!
- ليس صمصامة هو ولدي الأول الذي أفقده في الحرب؛ بل.. فُجِعتُ قبله في أخويك.. وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، وأحمد الله أنْ مَنَّ عليَّ بحياتك وحياة مَن بقي أولاداً وأحفاداً، أما فاطمة.. فيا لهفي عليها؛ ليس لها –في دنياها- غير.. حمدون!!
- لكِ عليَّ ألا يمسه سوء.. ما لم يعص أمير المؤمنين!
- وهل أسوأ من احتباسه عن بيته.. وأهله؟!!

- يا أماه.. هو مَن أراد ذلك لنفسه، لم يجبره أحدٌ منا؛ ولو أراد الخروج.. لخرج!!
- إذاً.. فلتشفع لأمه أنْ تراه.. وتطمئن عليه!
- لكما هذا! سأسأل الخليفةَ (المستعين) أنْ يأذن لها برؤيته.

****

-المشهد الخامس والأربعون بعد المئة-

اختفى المهدي.. وحُبِس المؤيد، وظنَّ المستعين أنَّ الخلافة قد صفت له؛ فشرع يُفرِّق العمال ويُولي الولايات.. ويأمر وينهي.. ويحكم ويقضي.

أما جنوده البربر.. فأنزلهم بمدينة الزهراء على تخوِّفٍ من عَوَام القرطبيين وبغضهم لهم وحقدهم عليهم؛ ما خلا أم عبد الواحد.. التي صمَّمتْ ألا تفارق دار فاطمة المروانية.. وألا تمضي -مع أهلها- إلى الزهراء قبل أنْ تطمئن أمُ هشام على حفيدها؛ فشفع لها عبد الواحد لدى الخليفة؛ فجاءت إلى القصر والتقت بحفيدها وبالمؤيد.. واطمأنت عليهما، وامتثلت هي والمؤيد لإصرار حمدون على البقاء بجواره، ثم مَثُلتْ بين يدي الخليفة (المستعين) الذي أحسن لقاءها.. ووضع لها جناحه وذكَّرها بما لم تنسَ؛ ذكَّرها بأيام صداقتها لأمه (ظبية)، وبأيام صباه حينما كان يلعب ويلهو مع ولدها (هشام)، وبمكتب زوجها –الفقيه عبد البر المصري- حيث كان يتعلم؛ فشكرته وأثنت عليه.. ودعت له ولأهل قرطبة والأندلس بالفلاح والسداد.

ثم مرت الأيام –بعدئذ- بطيئة حذرة، وبات الناس يكتمون الأنفاس، يرتقبون الغد على تخوِّفٍ ووَجَل، ولسان حال قرطبة يتساءل: (هل انتهت الفتنة؟!! هل عاد الأمن والاطمئنان؟!! كيف.. والقلوب لم تزل مكلومة؟! كيف.. ونيران الأحقاد والضغائن لم تنفك تشتعل في الصدور.. وتأكل الأكباد؟!!).

انقضى (ربيع الأول).. فالثاني؛ ثم أقبلت الأنباء –في مطلع جمادى الأولى- تُنذر بظهور المهدي في طليطلة.. واستقبال أهلها له استقبالاً حسناً وموالاتهم له.. وردّهم لعمال المستعين رداً سيئاً!!

وجف قلب المستعين.. وشمَّر عن ساعد الجد، وعزم على وأد الفتنة العائدة.. في مهدها؛ لكن.. بالسياسة واللين.. لا بالقسوة والعنف، فأنفذ أحد قواده –وهو: أحمد بن وداعة- إلى طليطلة بجيشٍ؛ لا لحربهم.. وإنَّما ليُعذِر إليهم.. ويُزيل شبح الفتنة.

رجع ابن وداعة يقول آسفاً: "قد خالفوا –يا أمير المؤمنين- وأظهروا العصيان لكم.. والموالاة للمهدي! وقالوا: أ تريدنا أنْ نبايع خليفتَك كي يسلبنا ضياعنا وأموالنا التي في الحصون ليمنحها القشتاليين؟! أبداً والله.. لن نفعل!! هل يظن أنَّا غافلون عن اتفاقه معهم أو ما تعهد به إليهم؟!! هل يظن أنَّا لا ندري أنَّه باعنا لأعدائنا؟!".

كظم المستعين غيظه وعاود المحاولة باللين والسياسة مرة أخرى؛ فأرسل إلى أهل طليطلة جماعةً من الوزراء والفقهاء، لكنهم رجعوا بما رجع به (ابن وداعة).. ولم يجدوا فيهم قبولاً لطاعته، آنئذ.. لم يجد المستعينُ مفراً من قصد طليطلة وسائر الثغر بنفسه؛ فشرع يتأهَّب لذلك.

****

-المشهد السادس والأربعون بعد المئة-

مضى قرابةُ الشهرين على فرار عبد الجبار؛ قضت نجوى أيامهما في رعاية أمه وبيته.. عملاً بوصيته، أما لياليهما.. فاختلستها لتقضيها –في حديقة الدار- ساهدةً عاملةً ناصبةً؛ تنبُش أرضها.. باحثةً عن كنزه الذي أخفاه تحت الشجرة؛ لكن.. تحت أي شجرة؟!! لم تدرِ بعدُ، لم تبح بسرها لأحدٍ.. حتى رفيقة دربها (سعدى)؛ فجعلت كلَّما تنبُش تحت شجرة فلا تجد شيئاً.. تعود فتردم ما حفرت لتُعيد التربة سيرتها الأولى.. حتى لا تفطن سعدى –ولا أحدٌ سواها- لما تصنع.

أما شادن؛ فقد عاد صباحاً.. بعد رحيل سيدها عبد الجبار بساعات؛ فسألته: "أين كنت غائباً البارحة.. يا شادن؟؟!"، لم يُفصِح لها في البداية؛ غير أنَّها ألحَّت عليه.. ولم تهدأ حتى أخبرها هامساً: "أمرني سيدي الحاجب أنْ أمكث في ضيعة أخيه محمد –رحمه الله- يوماً وليلة، وألا أرجع إلى الدار إلا حينما رجعتُ الآن!!".

– لِمَ أمرك بهذا؟؟ هل ثمة عملاً.. قمتَ به في الضيعة؟؟: (تساءلت بفضول)
– كلا!!
– فلِمَ تراوغني في الإجابة.. إذاً؟؟!
– قد حذرني سيدي الحاجب.. ألا أخبر أحداً أني كنتُ أبيتُ في الضيعة!!

أُلقي في رُوعها: (ما أراد عبد الجبار بإبعاد هذا العبد عن الدار سوى أنْ يُخفي كنزه دون أنْ يُعلِمه به!! وينبغي أنْ أُبعده -أنا أيضاً- أثناء بحثي عنه!! لكن.. بأي حجة؟!!)، ثم أوحى إليها شيطانها: (الأفضل أنْ أتخلَّص منه نهائياً! أطرده من الدار؟! كلا! بل.. أُوسوس إليه بالهروب؛ فيرحل تاركاً الدار.. لأفعل بها ما أريد، وإنْ عاد عبد الجبار.. وبحث عن كنزه ولم يجده؛ فلن يساوره شكٌّ في أنَّ السارق.. هو (شادن).. ذلك العبد الآبق الخائن!!)، (مرحى.. مرحى.. يا نجوى! قد غلبتي إبليس في التخطيط والتآمر!!): حدَّثت نفسها باغتباط، ثم تحفَّزت للتنفيذ، أتت إلى شادن بقناع الناصح الأمين.. وهمست: "اسمع.. يا شادن! إنَّك أخٌ عزيز، وإنِّي أخشى عليك أنْ يفتك بك البربر لأنَّك فتى عبد الجبار الذي قتَّلهم وأخرجهم من قرطبة، وإنِّي ناصحةٌ لك؛ فاخرج من قرطبة.. ولا ترجع إليها!!".

– كيف أفارقكنَّ.. يا نجوى.. وقد أوصاني سيدي الحاجب بأمه وبالدار؟؟ لو فعلتُ؛ فقد خنتُ وصية سيدي!!
– يا فتى.. إنِّي لك من الناصحين! أين سيدك الآن؟؟ تالله.. إنِّي لا أستبعد أنَّ البربر أمسكوا به وقتلوه، هَلُمَّ.. يا شادن! انج بروحك.. يا أخي!!

وما زالت بالرجل تُحذِّره وتُخوِّفه وتُغريه بالهروب من قرطبة.. حتى أذعن لها وعزم على الهرب، أعطته مالاً -من الذي تركه لها سيدها- كي يتزود به في رحلة هربه، فخرج فاراً.. مستتراً بستار الليل مُمتناً لها على صدق النصيحة؛ فخلت لها الدار من المتطفلين.. خلا سعدى التي لا تخشى فضولها ولا كيدها، فشمَّرت من فورها عن سواعدها وشرعت في التنقِّيب عن الكنز المزعوم.

رغم مكابدة الاعياء وليالي الشتاء وبرودة الأجواء.. لم تصل إلى غايتها.. ولمَّا تعثر على ما تُنقِّب عنه، على أنَّها لم تيأس، وإنَّما كانت كُلَّما أعياها الحفر والتنقِّيب.. وقرصها برد الشتاء وأعشاها ظلام الليل، وكُلَّما تَسَلَّل إلى قلبها شيءٌ من اليأس والإحباط؛ انتفضت.. ونفضت عن ثوبها التراب وعن قلبها اليأس والاستسلام، وحدَّثت نفسها محفِّزة: (إيَّاكِ واليأس.. يا نجوى! تأكدي أنَّ ذلك الكنز.. مَدْسوسٌ تحت شجرةٍ من أولئك! كيف لا.. وقد رأيتُه بعيني وهو يدفنه؟!)، (ما أدراني أنَّه دفن شيئاً ذا قيمة؟!!)، (كلا! كيف يكون بلا قيمة وقد تحرى ألا يعلم به أحدٌ.. كما فعل: أَبْعَدَ شادنَ عن الدار.. وجاء مُتلصصاً وأهلها نيام.. ودفنه في مكانٍ خفي في الحديقة الخلفية!!؟)، (هل يُتعمَد إخفاءُ شيءٍ بهذا الشكل إلا إذا كان عزيزاً ذا قيمة؟!!)، (آه.. لو كنتُ دقَّقتُ النظر إليه؛ لأبصرتُ العلامات التي كان يرسمها.. ولعرفتُ تلك الشجرة!! لكن.. لن استسلم، ولن أتوانى.. حتى أحصل على ذلك الكنز.. واستأثر به لنفسي!)، (لن أخدم أمك بلا مقابل.. أيها البخيل!).

ذات ليلة من تلك الليالي.. أخرجتْ كيسَ النقود لتحسب الدريهمات المتبقِّية؛ فألفتها أوشكت على النفاد، انزعجت.. وتأففت.. ولطمت وجهها مغتاظة، ثم هَدَّأت من سُخْطها وجزعها.. قائلةً لنفسها: (كنتُ أعلم أنَّ المال قليلٌ؛ لن يكفي نفقتنا لأسبوعين أو ثلاثة، ورغم ذلك.. كفانا قرابة الشهرين بحسن تدبيري واقتصادي في الإنفاق، وما في وسعي أنْ أقتصد أكثر!)، (لكن.. ها هي ذي الدراهم قد نفدت.. أو تكاد؛ فماذا أفعل؟؟! كيف سنأكل؟! كيف سأرعى هذه العجوز القعيدة؟! كيف استمر.. حتى أعثر على ذلك الكنز؟!!).

أشركت سعدى معها في الخَطْب.. وشاورتها؛ فما أشارت عليها برأي، ولا أغنت عنها شيئاً.. سوى أنْ اقترحت اللجوء إلى بيت الكرم والجود.. والاستدانة من السيدة الكريمة (فاطمة المروانية)، بيد أنَّ الفكرة لم ترق لنجوى في البداية؛ لعِلمها أنَّ اللجوء إلى جدة حمدون.. سيُغضب عبد الجبار؛ وعِلة ذلك: (حمدون.. وسلوان!!)، فراحت تبحث عن حلٍ آخر، ولمَّا لم تجد حلَّاً بديلاً؛ هتفت في خاطرها: (أين منا عبد الجبار.. الحين؟!! تَبّاً له! أ يُضيّق علينا حاضراً.. وغائباً؟!!)، ثم استسلمت لاقتراح سعدى.. وقالت لها: "لا نملك غير أنْ تذهبي –يا سعدى- إلى زيارة أم هشام، والتمسي منها المعونة في النفقة؛ فإنّي أحسبها أكرم من عبد الجبار.. وأرأف منه.. بنا وبأمه!!".

*****

رغم ليالي الشتاء الطويلة وبردها القارس، ورغم الحزن والإحباط، ورغم الهم والخوف من الغد المجهول؛ لم تتوانِ سلوان.. ولم تُهمل ولم تُقصِّر في طلب العلم والمثابرة على الدروس والانتهال من علم أم هشام التي كَرَّسَت -هي الأخرى- جُلَّ وقتها لتلك الدروس.. وكأنَّها تهرب من قلقها وجزعها على حفيدها (حمدون).

ذات يومٍ.. وفيما تجلسان –كدأبهما- في قاعة الدرس؛ إذ طُرِق باب الدار، فتحت أم سعدون؛ فسمعتاها ترحب بالطارق ترحيباً حاراً، وتهتف بتحضيض مُتحمِّسٍ: "ادخلي.. يا بُنية؛ أم هشام بالداخل، ستفرح فرحاً شديداً بزيارتكِ!"، أنهضهما الفضول.. وهرولتا للقاء الطارق؛ فكانت سعدى، اندفعت سلوان لتُرحِّب بها وتلتقطها في أحضانها، وأقبلت عليها أمُ هشام بحفاوة، سرتها حفاوتهن، وشجَّعها احتفاؤهن بها على المكث عندهن مدةً.. تذاكرنَّ فيها –بغبطةٍ وانشراح- الأيام الخوالي، وسألنَّها عن أخبارها.. وعن أختها (نجوى)، تفاجأنَّ بأنَّهما لم تعودا إلى القصر؛ وإنَّما التحقتا بدار الحاجب (عبد الجبار)، حكت لهنَّ مأساة أمه العجوز القعيدة.. ولا سيما بعد فرار ابنها من قرطبة دون أنْ يترك لها نفقةً.. ولا عائلاً سواهما: هي ونجوى.

أثنت أم هشام عليهما خيراً، وأشادت بوفائهما لأم عبد الجبار القعيدة وعدم تخليهما عنها في محنتها.. رغم ضيق العيش وصعوبة الظروف؛ فاعترفت لهنَّ –بإنكار ذات- أنَّ الفضل لنجوى –عكس ما ظنَّن- وإصرارها على بقائهما بجوار المرأة العجوز لرعايتها وحمايتها بعد أنْ هجرها الآخرون وفارقوها، ثم بكت.. وما استطاعت أن تكبح جماح عَبراتها التي انساحت على وجنتيها.. وعلى قلب أم هشام وصاحبتيها؛ فأثارت شفقتهنَّ.. وحرَّكت مشاعرهنَّ تَحسُّراً على عزيز قومٍ ذل، دنت سلوان منها.. ومسحت عَبراتها بكفٍ رؤوفة، وربتت أم هشام على كتفها.. وهمست بحنو: "لا تجزعي.. يا سعدى، إنْ شاء الله.. سيجعل بعد العسر يسرا!"، وأومأت إلى أم سعدون؛ فذهبت.. ثم عادت بكيس نقود، أعطتها إياه.. وهتفت بمودة: "خذي.. يا سعدى؛ تزوَّدوا بهذا!"، أمسكت الكيس بيد.. ورفعت الأخرى ضارعةً إلى السماء تدعو بالخير والبركة للسيدة الكريمة، ثم هتفت: "جزاكِ الله عنا خيراً.. يا سيدتي، دينٌ مقضي.. إنْ شاء الله!"، فأجابتها بكرمٍ عطوف: "كلا.. يا بُنية؛ بل هو هدية.. وهبةٌ لا ترد، وأخبري أمَ عبد الجبار أنِّي سأزورها خلال أيام!"، رنت إليها بامتنانٍ وإكبار، ثم أجابتها –باستحياء- بعد أنْ جفت دموعها اطمئناناً: "لكنها طريحة الفراش.. يا سيدتي، ولا تكاد تدري شيئاً.. ولا تكاد تعرف أحداً!"، فابتسمت أم هشام ابتسامة ودودة.. وهتفت: "وإنْ! فإنَّها يجب زيارتها بعد ما علمتُ بحالها، شفاها الله وعفاها!"، ثم أردفت: "وأيضاً.. لنرى نجوى.. كما رأيناكِ!"، جأرت سعدى بامتنان: "جزاكِ الله عنَّا خيراً.. يا أكرم سيدات قرطبة!!".

*****

غادرت سعدى دار أم هشام بعد أنْ خلَّفتْ أهلها يضربنَّ كفاً بكفٍ اتِّعاظاً.. وتحسُّراً على عبد الجبار وأمه، هتفت أم هشام مُعتبِرة:

- عبد الجبار.. ذاك الذي كان يقول مُتفاخراً: **أنا الحاجب الأعلى**، كأنَّ ملكه سيكون ملكاً سرمداً؛ سبحان المعز المذل.. انظرا: أين هو الآن؟ وأين ملكه؟!
- أحسبه.. كان يظنُّ أنَّ الحجابة قلادةٌ.. يُزين بها رقبته!! (جأرت سلوان)

- ها هي ذي انقلبت إلى حجرٍ جلمود.. ثقيل حمله؛ سحبه وغاص به إلى أعماق الهلاك، ولا ندري: في أي هُوَّةٍ سحيقة هوى؟!! (أجابتها أم هشام)
- هل تُصدِّقي.. يا سيدتي.. أنَّ الجاريتين وفيتان لأسيادهما.. إلى هذا الحد؟؟! (تساءلت أم سعدون)، رمقتها أم هشام باندهاش سائلة:
- إلى ما تُلمِّحين.. يا امرأة؟؟!
- أعني: هلا تمهَّلتِ في إعطائها المال حتى نتأكد من صدق خبرها؟!!
- إيَّاك وسوء الظن.. يا أم سعدون! (خاطبتها أم هشام بنبرة تأنيب)، ثم أردفت بسماحة نفس: "ولو كانت كاذبة؛ فإنِّي أُسامحها، وليُبارك الله لها فيما أخذت!".
- ألا نتحرى.. لكيلا نعطي الصدقة غير مستحقها؟!!
- أفٍ لسوء ظنك.. أيتها المرأة! (جأرت أم هشام)، ثم استأنفت: "ومع معارضتي لرأيكِ؛ فإنِّي ذاهبةٌ –إن شاء الله- لزيارة أم عبد الجبار، وسنتأكد –ساعتئذ- من صدق الخبر!!".

****

-المشهد السابع والأربعون بعد المئة-

بعد أيامٍ قليلة.. أمرت أمُ هشام خادمتها.. أمَ سعدون: فجمعت ما قدرت عليه من مال وهدايا استعداداً لزيارة أم عبد الجبار، بيد أنَّها تثاقلت عن الذهاب مع سيدتها وتَذَرَّعت بأعذارٍ واهية؛ حتى أيست منها أمُ هشام.. والتمست من سلوان أنْ تصحبها.

كم كانت فرحةُ سعدى شديدةً بزيارة السيدة (فاطمة المروانية) وسلوان؛ لكن.. فرحة نجوى بالمال والهدايا.. كانت أشد.

باحتفاءٍ وترحاب.. أجلستهما سعدى في مجلس الضيف، وقدمت لهما نجوى تحية الضيف، ثم مضينَّ يتجاذبنَّ الحديث والسؤال عن الأنباء والحوادث، طمأنتهما أنَّها

معهما بنفسها وبمالها لرعاية تلك المرأة البائسة؛ فشكرتاها وأثنيتا عليها، ثم علمتا منها أنَّ حمدون حبس نفسه مع المؤيد وفاءً لصحبته؛ فدعتا له بالسلامة والنجاة.

ثم التمست أمُ هشام أنْ ترى أمَ عبد الجبار؛ فصحبتها نجوى إلى مخدعها، سلَّمت عليها، ذكَّرتها بنفسها؛ فما عرفتها، اجتهدت أنْ تُذِّكرها بأيامهما الخوالي؛ فكأنَّما خيطٌ رفيعٌ من شعاع الذكريات التمع في رأسها؛ فالتمعت في عينيها فرحةٌ واهية بلقاء صديقةٍ قديمة، ومع هذا انصدع قلبُ أم هشام إشفاقاً وحزناً على المرأة الجميلة الراشدة.. التي هَدَّتها نوائبُ الدهر.

*****

شهرٌ ثالثٌ.. مَرَّ على غياب عبد الجبار، ولمَّا تُحصِّل نجوى غايتها.. رغم جديتها في البحث والتنقِّيب.. حتى كادت تيأس، ولولا أنْ كَفتها أمُ هشام النفقةَ لوَدَّعت الأمر برمته، ولهربت -كما هرب شادن- مُفارقةً هذه العجوز القعيدة.. مُرتاحةً من خدمتها الشاقة، على أنَّه نما إلى علمها –هذه الأيام- نبأٌ جديد قد يُغيِّر مجرى الأحداث؛ فقد ذاع في قرطبة أنَّ المهدي ظهر في طليطلة.. وأنَّ أهلها رحبوا به وأعلنوا ولاءهم له، وأنَّ المستعين يتجهَّز للخروج بنفسه إلى طليطلة.

كذَّبت الخبرَ في البداية، وحدَّثت نفسَها أنَّه محض شائعات يروجها القلائل الموالون للمهدي، بيد أنَّها تأكَّدت من صدق الخبر حينما أُعلِن في يوم الاثنين: (١٢ جمادى الآخرة سنة ٤٠٠هـ الموافق: ٥ فبراير ١٠١٠م) أنَّ الخليفة (المستعين) عقد ألوية جيشه في جامع قرطبة، وأنَّه راحلٌ إلى الشمال.

ساعتئذ راودها خاطرٌ.. لم تدرِ هل تفرح له أم تحزن: (قد يكون عبد الجبار مع المهدي في طليطلة، وقد ينتصران على المستعين والبربر، ثم يعودان إلى قرطبة.. ليرجع عبد الجبار (حاجباً أعلى) وسيداً مطاعاً.. كما كان!!)، ثم تسترسل في خواطرها: (وقد يهزمهما المستعينُ، ويقضي عليهما!!)، ثم تتساءل: (فماذا عليَّ أنْ أفعل؟!!)، بعد تفكُّرٍ وتدبُّرٍ.. تُجيب في دخيلتها: (أبقى –كما أنا- أرعى أمه وأحفظ بيته.. كما أوصاني؛ فعساه

يعود منتصراً، وحينها.. يمنحني المكافأة التي وعدني!!)، (ويحك.. يا نجوى!! أي مكافأة تنتظرين من هذا الشحيح؟!!)، (بُعداً له! ليته ينهزم.. ولا يرجع إلينا أبداًا!)، (الأفضل.. أنْ أحصل على كنوزه التي أخفاها؛ وبعدها يكون التصرف حسب ما تُحدِّثنا به الحوادث!!)، (أجل!! سأستمر في التنقِّيب عن ذلك الكنز، لابد أن أعثر عليه قبل أن يستقر خبره على نجاةٍ أم هلاك!!).

****

-المشهد الثامن والأربعون بعد المئة-

رحل المستعين بجيشٍ من البربر إلى الثغور الشمالية.. في وقت ضيقٍ وشدة؛ شتاءٌ ذو سماواتٍ غائمة.. وأجواءٍ باردة، ومِيرَةٍ[1] قليلة.. ما لبثت أنْ أهلكها الطريقُ ونَدْفُ السماء، وقد خَلَّف وراءه قرطبةَ وأهلها.. يكابدون شتاءً قارساً.. وترقُّباً حائراً.

أما حمدون فقد حثَّه الوفاء.. وبرودة الأجواء على الالتصاق بالمؤيد حرصاً وخوفاً على حياته من الغدر والغيلة، فكان لا يطرق بابَ مِحْبَسهما طارقٌ إلا هَبَّ مُتحفِّزاً اتقاء أنْ يكون عدواً يريد بالمؤيد شراً، لا يأتيهما طعامٌ إلا ذاقه قبل أنْ يقضم المؤيدُ منه قضمةً خشيةَ أنْ يكون مسموماً، إلى حد أنْ أشفق عليه المؤيد.. فكان يُلاطفه هامساً: "هَوِّنْ عليك.. يا حمدون؛ فلن تموت نفسٌ حتى تستوفي أجلها!!"، فيُمازحه هاتفاً: "حتى وإنْ كان حرصي.. يا سيدي.. لا يمنع عنك قَدَرك؛ لكني أُعذر به عند ربي!".

أما أم عبد الواحد فقد حبسها بردُ الشتاء القارس.. وقِصَرُ النهار الغائم عن النزول إلى قرطبة لزيارة حبيبتها (فاطمة المروانية).. وحتى عن الخروج من الزهراء، إضافةً إلى ما شاع في قرطبة من مشاحناتٍ وحوادث بين دَهْمائها وبين البربر –ولا سيما بعدما رحل أغلب جنودهم مع المستعين- إلى حد أنَّ البربري صار يخاف على نفسه الغيلة

[1]: الميرة: الطعام يُجمع للسفر.

إذا مشى منفرداً في أسواق البلد، وإلى حد لو صهل فرسٌ على فرسٍ؛ لقامت نَفْرةٌ لتَعصُّب العامَّة على البربر وبغضهم فيهم.

*****

بعد أنْ استغرقت قرابةَ الشهرين والنصف شهر -وعلى الرغم من مجالدة السبيل ومشقتها والأجواء واكفهرارها- باءت رحلة الخليفة (المستعين) إلى طليطلة بالفشل والإخفاق؛ فقد أبى أهلها الامتثال إلى طاعته.. وتمسَّكوا بالولاء للمهدي، ومثلهم أهل مدينة سالم؛ فيأس منهم جميعاً، ولم يَلبث أنْ رحل عنهم مُحبَطاً.. عائداً إلى قرطبة، فوصلها يوم الجمعة: (٢٧ شعبان.. في مطلع فصل الربيع من تلك السنة).

أتى شهر رمضان على قرطبة.. مُواكِباً لموسم الربيع الباسم؛ فاحتفلت به الطبيعة بأجواءٍ ربيعية دافئة منعشة.. وأشجارٍ مورقة.. وزهورٍ متفتحة.. وجناتٍ مثمرة، بيد أنَّ احتفاء أهل قرطبة بالشهر الكريم لم يكن مُبتهِجاً.. كما دأبهم في كل عام!!

لكن نوعاً ما.. هدأت المشاحنات تعظيماً للشهر الجليل، وانشغل الناس بصومهم وعبادتهم؛ لكن.. على تخوُّفٍ وكدر. في تلك الأثناء.. جاء خطابٌ من (واضح الصقلبي) يعتذر فيه إلى المستعين عما بدر من أهل مدينة سالم وأهل طليطلة، ويتبرَّأ فيه منهم ومن إعراضهم عن مبايعة الخليفة، ويُخبر فيه أنَّه فارق (مدينة سالم) مُغاضِباً أهلها إلى طَرْطُوشة[1] راغباً في المعافاة من الخدمة، ويستأذنه أن يسكن مَيُورقة[2] لينقطع عن الناس ويتعبَّد بها.

استبشر (المستعين) بخطاب (واضح).. وسُرَّ به اطمئناناً لولاء القائد الصقلبي، ولم يكترث لتوجُّس وزيره (زاوي بن زيري).. ولم يستجب لتحذيراته من المكر والغدر، ولم يسمع لنصيحته بعدم الثقة في ذلك الصقلبي؛

[1] : طرطوشة: إحدى مدن منطقة كتالونيا في شمال شرق إسبانيا، على نهر أبرة.

[2] : مَيُورَقَة: هي أكبر جزر إسبانيا .وهي تقع في البحر المتوسط وتعتبر جزء من أرخبيل جزر البليار.

بل خالفه.. وأرسل إلى (واضح) يُثني عليه خيراً.. ويُؤَمِّره على سائر الثغر.. ويُوصيه بملاينة أهل الثغور ومجاهدة عدوه وعدوهم، ثم أرسل إليه أحمد بن وداعة بفرقةٍ محاربة.. وبأموالٍ ليستعين بها في عمله.

*****

أم هشام.. ومثلها الأخْيَار والعُباد من أهل قرطبة.. لم تصرفهم الأخبار المُقلِقة –ولا الأحداث المُحبِطة- عمّا اعتادوا عليه في شهر رمضان من بذلٍ وعطاء.. واجتهادٍ وتَنَسُّك، وها هو ذا الشهر الفضيل يمضي بسلامٍ حتى دخلت لياليه الأخيرة.. ليُشمِّر فيها المشمِّرون.. ويجتهد المجتهدون.

تطلَّعت سعدى أنْ تُحيي تلك الليالي المباركة في جامع قرطبة –لأول مرة في حياتها- مع أم هشام وسلوان؛ فرحَّبت بها أم هشام مغتبطةً مسرورة، أظهرت سعدى هِمَّةً واجتهاداً، ثم غدت تحضُّ رفيقتها على الذهاب معها؛ فاعتذرت نجوى.. وتذرَّعت بأم عبد الجبار قائلة: "كيف أترك هذه العجوز القعيدة وحدها في الدار؟!!"، ثم أردفت بإيثار: "انطلقي أنتِ –يا أختاه-، وتعبَّدي.. وصَلِّ ما شاء الله لكِ أنْ تصلي!".

- لستُ أنانيَّة كي أستأثر بالفضل دونكِ.. يا نجوى! بل.. نتقاسم العمل؛ فتذهب إحدانا ليلةً إلى الجامع.. وتبقى الأخرى لترعى السيدة، وفي الليلة التي تليها.. تبقى التي ذهبت، فما قولكِ؟؟!
- بارك الله فيك.. يا سعدى! لطالما كنتِ تحبين لي الخير كما تحبيه لنفسكِ، لكنَّكِ أصبر مني على القيام والصلاة في المسجد؛ فامضِ إلى صلاتك.. ودعِ لي أجر رعاية هذه المرأة البائسة في غيابك، لكن.. لا تنسيني من دعائك!!
- لم أكن أعلم أنَّ بين أضلعكِ قلبٌ رحيمٌ عطوفٌ هكذا.. يا أختاه!! بما تحبين أنْ أدعو لكِ؟؟! (جأرت بمودةٍ خالصة)
- اسألي اللهَ لي أن يوفقني.. وأعثر على ضالتي المنشودة!
- وما ضالتكِ المنشودة.. تلك؟!! (تساءلت.. بنبرة دعابة)

- لا تسألي عما لا يَعْنِيكِ.. يا سعدى! قولي فقط هكذا في دعائك؛ والله يستجيب!!
- سأدعو لكِ بما تشائين!! (هتفت.. وعلى ثغرها ابتسامةٌ ودودة)
- أسأل الله أنْ يهديكِ.. ويقبل منكِ صالح دعائكِ!!

قضت سعدى الليالي العشر –بسرور نفس وانشراح صدر- في صحبة أم هشام وسلوان ونساء قرطبة اللَّوَاتي يُعمِّرنَّ مسجدها الجامع بالتنسُّك والصلاة، وشمَّرت عن سواعد الجد والاجتهاد والإخلاص لله، وشمَّرت –مثلها- نجوى عن سواعدها.. لتنتهز فرصة غياب رفيقتها عن الدار –في تلك الليالي- وتجتهد في البحث والتنقِّيب عن ضالتها المنشودة.

ذات ليلة من تلك الليالي.. وفيما تهوي بمعولها –كدأبها كل ليلة- نابشةً تحت إحدى أشجار الحديقة.. إذ اصطدم معولها بشيءٍ صَلْد، برقت عيناها استبشاراً، واندفعت بكل همَّةٍ وشغف.. وبكل قوتها لتنبث بأظفارها عن كُنْه هذا الشيء الصلد، يحدوها أملٌ بَرَّاق.. هامساً في خاطرها: (عسى أنْ يكون هو الكنز المنشود!).

(مرحى.. مرحى!! هذا هو.. صندوقٌ عظيم، أخيراً.. وجدتُه!!)، وَسَّعت الحفرة، ثم انقضّت على الصندوق، احتضنته بكلتا ذراعيها، ثم استخرجته بجهدٍ جهيد، ركعت تلتقط أنفاسها إلى جواره، رنت إليه بلهفة، تتلاحق أنفاسها إعياءً واشتهاءً، تُمني نفسها: (أجل! إنَّه صندوقٌ كبير الحجم.. ثقيل الوزن!)، سارعت تحاول فتحه: (لقد أحكم الخبيث قَفْله!!)، حاولت.. وحاولت.. حتى انفتح لها، وانبهرت عيناها بما ترى: (ما كل هذا؟!! ما هذه الجواهر النفيسة؟!! وما كل هذه الأكياس؟؟ إنَّها مملوءة بالدنانير الذهبية!!؟)، طفقت تُقلِّب بصرها وكفيها في محتويات الصندوق، وبين أَضْلُعها يتقلَّب قلبها صارخاً من فَرْط الفرحة واللهفة: (ما توَّقعتُ أنْ يكون كنزك بهذا الفُحْش.. يا عبد الجبار!!)، شرعت تُسكِّن هلعها وتُهدِّئ رَوْعها: (يجب أنْ يصير هذا الصندوق لي وحدي!)، قعدت تتفكَّر كيف تستأثر لنفسها بذلك الكنز العظيم: (ها أنا ذا قد عثرتُ على الكنز المنشود؛ كيف احتفظ به لنفسي؟؟! كيف أنقله من هنا إلى مكانٍ آمن.. لا

يعلم به غيري؟؟!)، (ويحكِ.. يا نجوى! سقطي على كنزٍ ثمين؛ كيف ستنتفعين به؟؟! لابد أنْ أهرب به خارج قرطبة!!)، (كيف.. يا حمقاء؟!! إنّكِ أمةٌ حقيرة.. وجاريةٌ ضعيفة؛ فأنى لكِ أن تغادري قرطبة دون أنْ يترصَّدكِ الراصدون؟؟! أو كيف تأمني أنْ يطمع فيكِ الطامعون؟!!)، (وا حسرتاه!! هل أعجز أنْ أنعم بالدنيا بعدما باتت كنوزها ملك يميني؟؟!)، قاطعها صوتٌ واهنٌ.. أتاها من مخدع أم عبد الجبار؛ إنَّها تُنادي عليها.. تستغيث بها، نهضت مُتبرّمة: (أفٍ لك ولولدكِ.. أيتها العجوز!!)، توجَّهت إليها، وفي تضجُّرٍ وتعجُّلٍ.. قضت للمرأة حاجتها، ثم انكفأت –على تخوُّفٍ من عودة سعدى- إلى كنزها فأعادت دَسَّه في مكانه، ثم سوَّت التربة فوقه.. وأعادت هيئتها كما كانت، ولم تسهُ عن تَميِّز موضعه حتى ترجع إليه مرة ثانية.

رجعت سعدى من صلاتها مُنشرحة الصدر، أبصرت رفيقتها مقبلةً عليها من الحديقة بوجهٍ شاحبٍ مُمتعض.. وثوبٍ مُشعَّثٍ مُغبَّر، طالعتها باستنكارٍ مُرتاع:

– ما بك.. يا نجوى؟؟ ما لي أراكِ كأنَّكِ أُنْشِرتِ من قبر؟!!
– أعوذ بالله! لا تُبشِّري في وجهي!! قد علمتي أنّي أتطيَّر بذكر الموت والقبور!!
– عفواً!! لم أقصد أنْ أُثير تشاؤمكِ! لكن.. انظري إلى نفسك؛ ماذا دهاكِ؟؟!
– ماذا بي!!؟ إنَّها أسعد ليلةً.. في حياتي!! (جأرت.. وهي تقعد لتلتقط أنفاسها)؛ حالما جال في خاطرها أنَّها -لتوِّها- صارت أغنى امرأةً في قرطبة، بينما ترنو إليها رفيقتها بتَعجُّب، ثم تساءلت باغتباط: "أي ليلة تلك.. يا سعدى؟؟ أ هي ليلة القدر؟؟!".
– الله.. أعلم! إنَّما نتحراها في هؤلاء العشر؛ ولا يستطيع أحدنا أنْ يُجزم أنها أيُهم!!
– كلا! أنا متأكدةٌ.. أنَّ الليلةَ.. هي ليلةُ القدر؛ فلقد استجاب الله فيها دعائي!!
– وما كان دعاؤك؟؟! هل سألتي اللهَ أنْ يَتَترَّب جلبابُكِ.. كما أرى؟؟! (هتفت مازحة)

انتبهت نجوى إلى غُبار النَبْش والردم الذي التصق بثيابها؛ فبُهتت، لكنَّها استدركت.. وحاولت التعمية على رفيقتها؛ فهتفت بشيءٍ من الارتباك:

- أما التراب.. فإنَّه من أرض الحديقة؛ اشتهت أم عبد الجبار البرتقال، فذهبتُ أجمع لها بعض الثمرات؛ فسقط مني قُرْطي؛ فتغبَّر ثوبي وأنا أبحث عنه! وأما الدعوة المجابة؛ فإنَّها بيني وبين ربي!!
- وهل وجدتِ القُرْط؟؟!
- أجل!! ها هو ذا في أذني.. كما كان!

*****

في أُصْبوحة عيد الفطر.. وفيما ترتجُّ أرجاء قرطبة بتكبيرات المصلين المتوافدين على ساحات المصلى.. ومن بينهم سعدى؛ إذ غدت نجوى تنقل صندوق كنزها لتُخبِّئه تحت شجرةٍ أخرى داخل الحديقة احتياطاً وحرصاً منها ألا يصل إليه أحدٌ غيرها: (حتى عبد الجبار.. إنْ عاد إلينا –وأسأل اللهَ ألا يعود-؛ يجب ألا يعثر عليه!!)، ثم غرتها الأماني.. هامسة في خاطرها: (سأُخفيه ها هنا إلى أنْ أُقرر: كيف سأخرج به من هذه الدار.. ومن قرطبة.. قاطِبَةً!!).

****

-المشهد التاسع والأربعون بعد المئة-

فيما يحتفلون بالعيد؛ إذ غشيتْ قرطبةَ أنباءٌ انكرب لها المستعينُ.. وسُقِط في يده، عاتبه وزيره (زاوي) مُغتاظاً: "ألم أُحذرك -أيها الخليفة- من ذاك الأفَّاك الأثيم؟!! ألم أُنذرك.. أنَّه منافقٌ غادر؟!!"؛ فأجابه مُتنصِّلاً.. والندم والأسى مَبثوثان في كلماته:

- لم يَدُرْ في خَلَدي أنَّه يغدر بي بعدما أمَّنته! يُخلي (مدينة سالم) من أهلها المسلمين ليُقدمها هديةً رخيصة للأفرنج؟!! وكيف يرضى أهلها بذلك وهم مَن تأبّوا علينا لأننا حالفنا القشتاليين؟!! أو ليس الإفرنجي عدواً لهم.. كالقشتالي؟!!

– قَدَّموا (مدينة سالم) هديةً سهلة لأمراء القطلانيين[1] ليرشوهم بها لكي ينضموا إلى المهدي لقتالنا؟!!

– وهل يقبلون أن تطأ أقدامُ الكفار قبرَ الحاجب المنصور[2]؟!!

– وما أدراك ما صنع أولئك الكفار في المدينة.. وفي سرقسطة[3] بعد أن دخلوها؛ طردوا أهلها من ديارهم.. وساموهم سوء العذاب في عبيدهم وذراريهم وتجارتهم، وحوَّلوا قبلة المسجد ورشوا حيطانه بالخمر.. وضربوا فيه الناقوس!!

– لا حول ولا قوة إلا بالله! لماذا يا (واضح)؟!! لماذا أيها الصقلبي اللئيم تتنكَّر لمعروفي بعدما أكرمتُك.. ووليتُك؟!!

– قد حذَّرتُك من غدره.. يا أبا أيوب!

– إنْ أعجب من غدره وجحوده؛ فالأعجب منه.. ذاك الكلب الخائن -ابن وداعة- الذي رحل بجنودنا وأموالنا -بعد أن استأمناه عليها- لينزع إلى المهدي.. كأنَّما ليس بيننا وبينه عهدٌ ولا بيعة!! سحقاً لهما.. وبُعداً!!

– دعك منهما.. أيها الخليفة! الحين.. يجب أن نفكِّر: ماذا سنفعل؟ لابد من مواجهة البَلْوَى.. والاستعداد لملاقاة أولئك الغادرين ومقاتلتهم قبل أن يستفحل شأنهم!

– ماذا ترى.. يا شيخ البربر؟؟!

---

[1] : الأمراء القطلانيين: هم كونتات إقليم كتالونيا في شمال شرق أسبانيا، وكان يسمونهم: الإفرنج.

[2] : قبر الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر يقع في مدينة سالم. !

[3] : سرقسطة :بالإسبانية (Zaragoza:هي عاصمة مقاطعة سرقسطة وهي أيضا قاعدة الثغر الأعلى.. قريبة من أراغون في شمال شرق إسبانيا، تقع على نهر إبرة.

- أخبرتنا العيون أنَّ واضح الصقلبي عقد اتفاقاً مع قومس برشلونة[1] وقومس أورقلة[2] أنْ يُناصراه ويمداه بجيش يحاربنا به، وقصد مع وفدٍ منهما إلى المهدي في طليطلة، وعقدوا معاهدة بذلك!
- وما المقابل؟!! ما الذي يملكه هو أو صعلوكه -المهدي- ليرشوهم به؟!!
- لم نعلم.. بعدُ.. غير أنّه سلَّم لهم (مدينة سالم)، لكن.. ليس هذا بشيء؛ الأولى بنا الحين أنْ نستعد ونتجهَّز لهم، وأرى –يا أمير المؤمنين- أنَّ عدد جنودنا البربر لا يكفي لملاقاة هذه الجيوش منفرداً؛ فينبغي أنْ نستمد أهل قرطبة!
- وهل أغنى أهل قرطبة –من قبلُ- عن أنفسهم شيئاً؟!!
- إنَّ خروجهم معنا يؤكد صدق بيعتهم لكم، ويدحض دعوى المهدي بالخلافة.
- أصبتَ.. يا شيخ البربر! فلتجمع لي كبراءهم ووجهاءهم لأُشاورهم في الأمر!

في يوم الاثنين: (٦ شوال.. الموافق: ٢٨ مايو ١٠١٠م) اجتمع الخليفة (المستعين) بكبراء أهل قرطبة.. واستنفرهم لقتال الإفرنج؛ فأظهروا العجز وجبنوا.. واعتذروا له، والتمسوا منه معافاتهم من الاشتراك في القتال.. سواء بأنفسهم أو بأموالهم؛ فعافاهم.. كاظماً غيظه، ورنا إلى وزيره (زاوي)؛ فقرأ في عينيه: (خذ حذرك؛ فذاك أول الغدر!!)، ثم جمعا مَن استطاعا جمعه من فوارس وجنود البربر، وفي يوم الأربعاء: (١٥ شوال.. الموافق: ٦ يونية) خرجوا من قرطبة.. إلى قتال المهدي وحلفائه (الإفرنج).

****

---

[1] : هو: الكونت رامون بوريل، و(برشلونة)بالإسبانية والكاتالانية (Barcelona :مدينة إسبانية تقع في الجزء الشمالي الشرقي من شبه جزيرة أيبيريا على شاطئ البحر المتوسط بين مصبي نهري يوبريغات وبيزيوس. تبعد ١٦٠ كم عن جبال البرانس، وهي عاصمة إقليم كتالونيا.

[2] : هو الكونت أرمنجو؛ أو كما في الرواية العربية: القومس أرمقند.

-المشهد الخمســـــــــــون بعد المئة-

لَدُن (عقبة البقر).. وعلى مسافة (عشرين كليو متر) شَمال قرطبة.. تراءى الجمعان: جيش (المستعين) ومن معه من فوارس وجنود البربر يقودهم زعيمهم: (زاوي بن زيري)، وجيش (المهدي) الذي اشتمل على جنود الثغور الذين جمعهم القائدُ (واضح).. وكذلك حلفائهم الإفرنج (قوات قومس برشلونة وقوات قومس أورقلة).

تطلَّع (حبوس بن ماكسن) إلى جموع أعدائه، وبعث بعض فرسانه الثقات خُفْيَة ليحزروا[1] له العدو، ثم دلف إلى خباء عمه ليُصارحه:

- إنَّهم أكثر جمعاً!! وبعدُ.. هم محاربون مُتمرِّسون، وليسوا أغراراً.. كأهل قرطبة!
- كم من فئةٍ قليلة.. غلبت فئةً كثيرة!
- لن تكون الغلبة بالمواجهة؛ فكِفَّتهم أرجح!! لابد من حيلةٍ.. نهزمهم بها!

سكت زعيم البربر تَفكُّراً، وقطَّب جبينه، وطفق يُمشِّط لحيته بأنامله.. كأنَّما يُفتِّش فيها عن خطة فَلَاح، ثم التفت إلى ابن أخيه –الذي كان يرقبه صامتاً- وهتف بجدية:

- اسْتَدْعِ أخاك (حباسة).. وبهلول الدمري.. وأكابر الفرسان، سأجتمع بهم حالاً!
- ألا أدعو (المستعين).. أيضاً؟؟! (تساءل حبوس)
- كلا.. كلا!! أُحبِذ ألا يحضر هذا اللقاء!!

اجتمع صفوة أكابر جيش البربر مع زعيمهم؛ فبادرهم بالسؤال:

- هل تدرون: مَن أشجع هؤلاء القوم؟؟!
- أظن أنَّه: أمير أورقلة.. (القومس أرمقند)[2]، وأحسبه شجاعاً إلى حد التهوُّر!! (أجابه بهلول بن تمايت الدمري)

---

[1]: حزر الشيء: أي قدَّره بالتخمين والحدس.

[2]: القومس أرمقند.. هو: الكونت أرمنجو.

- أحسنتَ!! هذا.. هو الذي أريده! (صاح زعيم البربر متحمِّساً)، ثم أردف: "اسمعوا مني –إذاً- وتدبَّروا تلكم الخطة!".
- نسمعك.. يا شيخنا!!
- سوف نقسم جيشنا قسمين: مقدمة.. أكون أنا وأنتم وصناديد الفرسان فيها، وساقة.. يكون عِدادها (المستعين) والمغاربة، ولنُظهِر لذلكم الأرمقند علامةَ (المستعين) واضحةً.. حتى يتعرَّف عليها ويتأكد أنَّها لخليفتنا وصاحب جيشنا!
- وما فائدة ذلك.. يا شيخنا؟؟! إنَّه خطرٌ على (المستعين).. ولا سيما وأنَّ الجنود المغاربة ليسوا بالكفاءة المرجوة!؟؟
- أهدف إلى أنْ يطمع ذلكم الإفرنجي الأرعن في انتصارٍ خاطف بانقضاضه علينا بقواته.. ليخلص إلى (المستعين).. تائقاً إلى أنْ يقضي عليه ويُنهي المعركةَ لصالحه!
- وماذا نحن فاعلون.. حينها؟؟!
- نثبت له مدة؛ ثم نتظاهر بالانهزام والفرار.. مُفرِّجين له فرجة ينفذ منها إلى فسطاط (المستعين) وحراسه المغاربة!
- ثم نلتف وننقض عليه من خلفه؛ فنُعمِل السيفَ فيه وفي فريقه! (هتف حباسة -بتحمُّسٍ- مغتبطاً بحنكة عمه)، ويستأنف زعيمُ البربر قائلاً:
- أجل! نُباغته من ورائه، ونفصل بينه وبين الباقين.. ونُخلخل صفوفهم، وحينها.. يتشرذمون، وينهزم الجمع ويولون الأدبار بإذن الله وبفضل بسالتكم وشجاعتكم!!
- قد علمنا أنَّك حديد الفؤاد[1].. يا شيخنا.. يا داهية البربر! كم وددتُ لو أُقبِّل هذا الرأس الذي عقمت النساء أن تلد مثله!! (جأر بهلول بإعجابٍ شديد)
- لكن.. يا عماه! نجاح تلك الخطة يتوقَّف على صمود عسكر (المستعين) أمام الإفرنج؛ وأخشى ألا يثبتوا.. خاصةً وأنَّ المغاربة غير مدربين! (هتف حبوس)
- نُعلِمه خطتنا.. ونَمُدّه بفريقٍ من فوارسنا الأكفاء! (قال حباسة)

---

[1] : حديد الفؤاد: متوقد الذهن.. ذكي ونبيه.

- لا أحبذ أنْ يعلم هو أو أحد المغاربة بتلك الخطة! والأفضل أنْ نتكتم على تدبيرنا.. حتى يتحقق المراد! (هتف زعيم البربر بحسم.. رافضاً اقتراح حباسة)، فيُجيبه حبوس متوجساً:
- أيا عمي! أزعم أنَّنا –هكذا- نغامر بروح (المستعين)!!
- سيكون كالطُعمة السائغة.. التي يُغري بها الصيَّادُ فريسته ليقتنصها!!
- لا زلتُ أخشى ألا يصمد (المستعين) وعسكره!! (هتف حبوس مُتخوِّفاً)
- دعه لي! (صاح عمه مُطمئناً).. وهو يُشير لهم بعصاته أنْ ينصرفوا، ثم خاطب حبوسَ هاتفاً: "أبلغ (المستعينَ) أنّي قادمٌ إليه، وأود أنْ ألقاه منفرداً!".

دلف (زاوي) إلى خباء المستعين، رحَّب به.. وأجلسه إلى جواره، ثم صرف الذين عنده حتى بقيا وحيدين، ثم التفت إليه مُنصِتاً؛ فتنحنح شيخ البربر قبل أنْ يقول:

- قد حزمنا أمرنا.. يا أبا أيوب.. ووضعنا خطتنا للقاء القوم!
- هلا أطلعتني على هذه الخطة.. يا وزيرنا؟!!
- لنا طريقتنا في القتال.. والكَرِّ والفَرِّ، ولا أحب أنْ أُثقِل على الخليفة.. بالتفاصيل!!
- أليس لعسكري دور في تدبيركم؟؟!
- لا جرم –أيها الخليفة- عليهم حماية أمير المؤمنين وفسطاطه!
- أفصح عما يدور في عقلكِ.. يا شيخ البربر!!؟
- أيا أمير المؤمنين! ستكونون في الساقة، وسأقود أنا المقدمة بنفسي حتى يفتح الله لنا، وكل ما ألتمسه منكم ألا تبرح موضعك، وإنْ وطئتنا الخيل.. ولو رأيتنا نهزم!
- حفظكم الله.. أيها الوزير! نصركم الله.. وأَيَّدكم!

****

-المشهد الحادي والخمسون بعد المئة-

لم يمكث القوم طويلاً؛ فسرعان ما اصطفّت الصفوف للقتال، وتواجه الجمعان.. صبيحة يوم الجمعة: (١٧ شوال.. الموافق: ٨ يونية)، حالما بدت السماء صافية.. وبينما تنشر شمسها الدافئة أشعتها اللامعة فوق الرؤوس؛ إذ استل (حباسة بن ماكسن) سيفه.. وصاح في فوارسه يُحرِّضهم مُندفِعاً بهم نحو (أرمقند)، جاوبه القومس بشجاعة.. وجرد سيفه.. واقتحم بفرسانه ساحة المعركة حتى تلاحموا معهم.

تصاول الفريقان؛ فغمغم الأبطال وتدافعت الخيول.. وارتفع الغُبار، واختلط الصهيل بالصليل.. والصيحات بالصرخات، وبُترت الأطراف وتمزَّقت الأجساد وتناثرت الأشلاء؛ فدهستها السنابكُ.. ومُزِج بدمائها الترابُ.

تَوَهجَّت شمسُ الظهيرة.. وحمي الغضبُ في الوجوه المتلطخة بالدماء والقَتَرات، كَلَّت السواعد وكَهَمت السيوف، وأَزِفت الساعةُ التي حَدَّدها زعيم البربر لرجاله؛ فلَمْلَمَ حباسةُ فوارسه.. وانزوى كأنَّه ينهزم، سعى (أرمقند) لاقتناص الفرصة.. ونادى فرسانه مُشجِّعاً على الثبات والصبر.. والاندفاع نحو العدو الذي تظاهر قائده بالهلع والانكسار، لاحت للقومس الشجاع فرجة في صفوف البربر، وأبصر من ورائهم فسطاط خليفتهم؛ فحَمِيت شهوة القتال بين جنبيه، واشتهى أنْ يُعجِّل بحسم اللقاء انقضاضاً على خليفة البربر؛ فوقع في الفخ الذي نصبه حباسة.

بيد أنَّ العيون الراصدة التي بثَّها قائدُ المغاربة المُكلَّف بحماية (المستعين).. فزعت إليه مُرتعبة؛ فبادر ليُشرف على ساحة المعركة من بعيد، طفق ينظر؛ فرمق فرسان الإفرنج يُبدِّدون البربرَ من حَوَالَيهم.. حتى خلت سبيلهم إلى فسطاط الخليفة من الروادع والعوائق.. أو تكاد، هرع إلى (المستعين) مرتاعاً: "مولاي الخليفة! لقد اصْطُلِم[1] البربرُ، وأَقْبَلت خيول الإفرنج تعدو نحونا!".

---

[1] : اصطلموا: أي: انهزموا وتبدَّدوا.

أخرستْ المفاجأةُ المستعينَ فما ملك أنْ يُجيبه؛ فاستطرد القائد:

- قد حُصِرنا.. يا أمير المؤمنين؛ وينبغي أنْ ننسحب.. الآن!!
- ألا نصمد في مواجهة العدو؟؟!
- قد اجتاحوا صناديد البربر في ساعة من نهار؛ فهل نصمد لهم نحن؟! (تساءل القائد مستيئساً من الفكرة)؛ فصاح المستعين ملتاعاً:
- فما العمل.. إذاً؟؟!
- النجاءُ.. في الفرار من وجوههم.. يا مولاي!!
- الفرار!! كيف السبيل إليه.. وقد حُصِرنا وقُطِعت المسالك.. كما تقول؟؟!
- ما زال ثمة مخرجاً إلى جهة الشرق؛ سأشغلهم عنك أنا ورجالي، وانطلق بفرسك النجيبة، واحذر أنْ يُدركك الأعداء!!
- إلى أين الرحيل.. أيها القائد، أين أذهب شرقاً؟؟!
- انطلق.. إلى شاطبة[1].
- كلا!! استقبال الموت خير من استدباره، ولأنْ يقولوا: قُتِل.. رحمه الله؛ خير من أنْ يقولوا: فرَّ.. أخزاه الله!! (جأر المستعين مستقبحاً الفرار)
- مولاي الخليفة!! العزيمة –الآن- ألا تسقط في قبضة عدوك، وأنْ تبقى حياً!! هيا.. انطلق؛ الوقت يتسرَّب من أيدينا!!

بادر المستعين بالفرار حالما نجح الفارس المغوار (حباسة).. في تنفيذ خطة عمه (زعيم البربر)، وها هو ذا قد أفلح في استدراج القومس (أرمقند) الذي غَرَّه انتصاره المزيَّف؛ فتسرَّع.. وانفصل عن إخوانه، وها هو ذا أخوه (حبوس) وقواته البربرية يخترقون الصفوف الإفرنجية، أما هو فقد أشار إلى فوارسه فارتدُّوا يَكُرّون على مؤخرة (أرمقند).. لينفذوا خلال صفوفها ضاربون يميناً وشمالاً.. حتى اصطدموا بأرمقند نفسه وخيَّالته الخاصة.. وارتوت سيوفهم بالدماء الإفرنجية،

[1] : مدينة كبيرة تقع في شرق أسبانيا قريباً من بلنسية.. وفي حوض نهر البيضاء.

وصرخ (حباسة) مُنتشياً: **"قتلنا (أرمقند)! مات قومس أورقلة!!".**

****

-المشهد الثاني والخمسون بعد المئة-

لم يُدرك المستعينُ كُنْهَ خطة البربر لدَحْر العدو.. ولا فَطِن لها قائدُ حرسه المغربي، ولم يتريَّثا إلى أنْ ينقشع قتام المعركة الدائرة؛ فيُقرِّرا: الإدبار أم الاستمرار، وعلى الرغم من قتل حباسة لأرمقند؛ إلا أنَّ قتام القتال انجلى لحباسة وفرسانه عن طائفةٍ من الإفرنج يقتحمون فسطاط الخليفة.. ويحوزون على ما فيه من متاعٍ وسلاح، ويعيثون فيه فساداً.. وهم يُنادون: **"فرَّ (المستعين).. هرب خليفةُ البربر!!".**

سُقِط في أيدي فرسان حباسة.. وكادوا يضعون السلاح مُحبَطين؛ وكرب بعضهم يزعق نائحاً: "إنَّها خيانة! لقد خاننا (المستعينُ) وجنوده!!".

بيد أنَّ (حبوس) يتدارك الموقف.. ومن ورائه عمه (زاوي)، ويصمد في مواجهة قوات (واضح) ومن معهم من الإفرنج (قوات قومس برشلونة).. الذين عادوا فتراصُّوا في صفوفٍ للكَرِّ على البربر مرة ثانية، ثم يصيح منادياً أخاه (حباسة) وفرسانه: "أنْ تحيَّزوا إلينا".

انصرمت سويعاتٌ عصيبة قبل أنْ يلتئم جيشُ البربر من جديد، وإشتَدّوا في قتال مهاجميهم حتى صَدُّوا غاراتهم، ثم اتخذ زعيم البربر قراره الصعب بحسم: "لم يبق لنا نصيبٌ في مُلْك قرطبة بعد أنْ فرَّ ذلكم الخليفة الرعديد!!"، ثم أمر قواته بالانسحاب المُنظَم إلى الزهراء[1].

---

[1] : الزهراء: هي المدينة الملكية التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله لتكون حاضرة ملكه، وتقع على بعد حوالي (٧) كيلو متر غرب قرطبة، وكانت غاية الروعة في العمارة والفخامة والجمال (وصفها المؤرخ ابن حيان قائلاً: كانت أهول ما بناه الإنس وأجله خطراً وأعظمه شأناً)، استمر بناؤها (٤٠) عاماً في عهدي الناصر وولده المستنصر، لكن حينما استبد المنصور بالسلطة أبان حجابته للخليفة المؤيد (حفيد الناصر)؛ بنى مدينة تضاهيها في شرق قرطبة هي مدينة (الزاهرة) وجعلها =

****

-المشهد الثالث والخمسون بعد المئة-

هبَّت ريح الخوف والخَوَر على فسطاط (المستعين)؛ فانكفأ هارباً.. وتبعه جنوده المغاربة، هبَّت.. فعصفت بأحلام البربر، وتطاير الخبر –راكباً ذَنَبها- إلى قرطبة.

وإلى الزهراء.. طار النذير يستصرخ ساكنيها البربر: "هَلُمّوا إلى الفرار.. قد انهزم جيشنا!!".

بتكليّف من الشيخ (زاوي).. انقلب عبد الواحد بن بلقين –مُتعجِّلاً- بفرقةٍ من الجنود ليُخرِجَ عيالَ البربر ونساءهم وأموالهم من الزهراء، ولينفلت راحلاً بهم إلى طريق الجنوب ريثما تلحق به قِطَع الجيش المنسحب، ثم يتوجهون –جميعاً- إلى الجزيرة الخضراء[1].

بادر الرجال مُهطعين إلى ما خَفَّ حمله وغلا ثمنه، وهرعت النساء ملهوفات إلى أطفالهنَّ المذعورين يحتوينهم في أحضانهنَّ ويُجهِّزنهم للارتحال.

على أنَّ أم عبد الواحد قبعت في منزلها.. كأنَّما عجزت رِجلاها أنْ تحملاها، ما انفكت النساء حواليها طائفات؛ يُلملمنَّ الفرش الثمينة.. ويجمعنَّ قطع الأثاث العزيزة والثياب الطريفة.. ويرتبنَهنَّ في توابيتٍ وصناديق، يُهيّئنَّ الأطفال ويُلْبِسنهم برانِس الرحلة.. ويُحبِّقنَّ الأمتعة، اجتهدنَّ في احتواء الحلي والأعلاق النفيسة، ومن ورائهنَّ الرجال راكضون.. يصيحون: "هيا.. هيا.. أسرعوا.. عَجِّلوا!!".

=بمثابة العاصمة الإدارية للدولة؛ فانشغل الناس بها عن الزهراء.. وخبا ذكرها شيئاً فشيئاً، إلى أنْ جاءت الفتنة؛ فاتخذها البربر –في ذلك الزمان- لتكون محلتهم حتى يمتنعوا فيها وليتجنبوا مخالطة عوام أهل قرطبة والتشاحن معهم بعد الأحداث الدامية التي كانت.

[1] : مدينة ساحلية عظيمة وميناء أندلسي هام على البحر المتوسط، تقع في الجنوب الشرقي من الأندلس.

خفَّ عبد الواحد إلى أمه ليستوثق أنَّها تهيَّأت للارتحال، وليعرض عليها أنْ تتكئ على ساعده حتى يخرجوا سالمين من المدينة، لكنَّه ألفاها واجمةً ساكنةً -كأنَّما على رأسها الطير-، لم تسعَ لأي عملٍ مثلما سعت بقية النساء، كانت خامدةً شاردة، بل.. لم تُحِسَّ بولوجه عليها، سمعها تُحدِّث نفسها هامسةً: "الكَرْبُ شديدٌ.. يا قرطبة!! كربت[1] شمسك تغيب!!".

- أجل.. يا أم عبد الواحد.. الكرب شديد، يجب أنْ نخرج من قرطبة –حالاً- قبل أن يَؤُمَّها الإفرنج وجيش المهدي!!
- أرى نوركِ –يا قرطبتي- يتوارى خلف سحبٍ قاتمة من الفرقة والشقاق!! (استرسلت في حديث النفس كأنَّما لم تعِ لوجوده)، فصاح مُنبِّهاً:
- يا أماه!! لم تعد قرطبة لنا بدار مُقام، هَلُمّي.. نرحل قبل فوات الأوان!
- عبد الواحد؟؟! (تساءلت.. كأنَّها شعرت به للتو)، ثم استطردت: "تقول: نرحل؟؟! أ تريدني أنْ أرحل عن قرطبة؟؟! كيف.. يا ولدي؟؟! كيف أُفارقها.. ومن تربتها نبت لحمي، ومن نهرها ينبع دمي، وفيها عشتُ أسعد أيامي؟؟!".
- يا أمي!! لا طائل من هذا الحديث الآن! قد فرَّ المستعين مُنهزِماً، ولم يبق لنا مَقامٌ في قرطبة! لم تعد لنا.. دار؛ ألا تفهمين؟؟!!
- هل أُفارق.. فاطمةَ المروانية؟!! لا أحتمل الحياة بغير صحبتها!!
- البِدار[2].. يا أم عبد الواحد! ألا تسمعين بكاء الأطفال؟!! ألا تنتبهين إلى عويل النساء؟!! البربر –أهلكِ وعشيرتكِ- يجمعون أغراضهم ويستعدون، يوضِّبون أمورهم للارتحال الليلة، هيّا.. انهضي معي.. قبل أنْ يُدركنا عدوٌّ خسيسٌ.. لا يرحم!!

---

[1] : كربت: أي: دنت أو قاربت، وهو من أفعال المقاربة مثل: كاد وأوشك.

[2] : البدار: أي: هلم وأسرع.

جذبها جذبةً غير عنيفة؛ فاستسلمت وقامت معه وهي تُتمتم بأسى: "لا حول ولا قوة إلا بالله، إنَّا لله.. وإنَّا إليه راجعون!".

****

-المشهد الرابع والخمسون بعد المئة-

ادلهم الليلُ، وثَقُلت ظلمتُه على السماء وبدت نجومُها عاجزةً عن رفع تلك الظلمة.. وكمثلهنَّ عجز بدرُ قرطبة! وكيف لا يعجز.. وقد بات يتناقص؟؟! نعم!! (لم يَكْمُل شيءٌ إلا نَقَص)؛ وكذلك قمر قرطبة.. اكتمل بدراً؛ ثم ها هو ذا ينحدر مُتَّئِداً إلى منزلته الخامسة.. ليصير أحدباً، وما هي سوى ليالي معدودة ويؤول إلى المُحاق.

"وأَيْمُ الله.. إنَّها ليلةٌ قائظة!!": زمجرتْ أم سعدون بتَأَفُّف، ثم شرعت تقتفي أثر نسيم الهواء صاعدةً إلى سطح الدار، وعلى أثرها.. أم هشام مُتكِئة على كتف سلوان.

انطرحنَّ على الأرض مُستلقياتٍ متباعداتٍ.. لاهثاتٍ؛ حاولنَّ تَنَشُّق النسيم الشحيح؛ فما عثرت عليه أنوفهنَّ.. حتى ضاقت صدورهنَّ.. واختنقت أنفاسهنَّ، تَضجَّرت أم سعدون صائحة: "لم أعهد ليالي قرطبة بهذا الوهج!!؟".

- لا تنسِ.. أنَّنا في الصيف.. يا أم سعدون!! (خاطبتها سلوان.. تُسكِّن تَبرُّمها)
- لطالما كان صيف قرطبة لطيفاً.. ولياليه رهيفة، أما هذه الليلة.. أفٍ لها! ما عَرفتُ مثلها قط، أشعر كأنِّي أختنق، كأنَّ الهواء نَزُر من السماء!!
- لا إله إلا الله، اللهم أُلطف بنا.. يا لطيف! انظري –يا أم سعدون- ماذا فعلت بنا ليلةٌ قائظةٌ من ليالي الدنيا؛ فما بالك وقَيْظ جهنم.. أعاذنا الله جميعاً من حَرّها.
- اللهم إنَّا نعوذ بك من حَرِّ جهنم!! (جأرت سلوان بخشوع)
- اللهم.. آمين!! (صدحت أم سعدون.. كمَن تطرد فَيْح الحَرِّ بصُداحها)، ثم راوَدها شعورٌ.. كأنَّ ريحاً تتنسَّم عليهنَّ من جهة الشَمال: (عقبة البقر)؛ فوثبت تتعرَّض لها.

غير أنَّها جاءت ريحاً سموما؛ لها عويلٌ[1].. كفحيح الأفعى، تشاءمت بها أم سعدون، واستعاذت منها أم هشام.. ووَجِل لها قلب سلوان، ثم سمعنَّ زاعقاً يتبعها منادياً: "انتصر الإفرنج في (عقبة البقر)، وهرب المستعين، والبربر يرحلون عن الزهراء!"، ثم تلاه نداءٌ آخر: "المهدي وأنصاره.. داخلون القصر.. الليلة!!".

تُردد أم سعدون: "أ سمعتي.. يا سيدتي؟! رجع المهدي.. وسيدخل القصر!!".

- لهفي عليك يا ولدي! كيف سيفعل بك هذا الخسيس؟!! (تجأر أم هشام مُتلهِّفة على حمدون)، آنئذ.. تضرب سلوان على صدرها بارتياع، وتهتف بصوت مُرتعِب:
- ماذا سيفعل به.. يا أمي؟؟ هل يجرؤ على الانتقام منه؟!!
- ألم يُدَبِّر عليه.. مِن قبلُ؟؟ الليلة.. سوف يمسي أسيره في القصر!! (غمغمت أم هشام بنبرةٍ يخنقها النشيج)، صاحت أم سعدون.. والدمع يتلألأ في عينيها:
- وجعتي قلبي.. يا أم هشام؛ بالله عليكِ.. لا تتحدِّثي هكذا!!

رنت سلوان إلى السماء وهمست مُتضرعة: "اللهم.. نجِ حمدون، اللهم.. اكفه عبدك (محمد المهدي).. بما شئت وكيف شئت!!"، وما تمالكت أنْ طفرت العَبَراتُ من عينها، غشيهنَّ الوجومُ برهة.. شعرنَّ فيها كأنَّ أفئدتهن هواء، عجزنَّ عن الكلام، عجزنَّ عن النحيب، عجزنَّ عن التفكير، مكثنَّ ساعة تتردد في صدورهنَّ الأنفاسُ الحارة الموجوعة مُطرِقاتٍ.. تتحاشى إحداهنَّ أن تلتفت إلى الأخرى؛ ثم مسحت أم سعدون دمعتها بكفٍ متفائلةٍ.. وهمست: "ألا نُحسن الظن بالله.. يا سيدتي.. كما علمتني؟!!".

- حاشا أنْ نُسيئ الظن بك.. يا الله! لا إله إلا أنت سبحانك إنَّا كنَّا من الظالمين، أنت القادر –يا ربي- أنْ تُنجي ولدي من قبضة عدوه؛ كما نجيتَ يونسَ من الغم!!
- اللهم آمين!! أ وما كنَّا استرحنا من ذاك الذي لقَّب نفسه بالمهدي زوراً، وقلنا: الحمد لله.. أدبر ولن يرجع؟!! (تساءلت سلوان بانكسار).

---

[1] : عويل الريح: أنينها.

****

-المشهد الخامس والخمسون بعد المئة-

دنا المهدي من قصر قرطبة.. وعلم جؤذر (أمين القصر)؛ فعمد إلى آثار (المستعين) بالقصر.. فمحاها؛ ليبدو القصر –في عين سيده العائد- كأنَّه لم يطأه سيدٌ آخر خلال الأشهر السبعة الأخيرة.

وبلغ فرتون الخبرُ؛ فهرول إلى طرسوس صائحاً: "البِدار.. البِدار.. يا عدو نفسك! يجب أنْ نختفي من وجه المهدي، لو ظفر بنا؛ لأذاقنا أشد العذاب!!"، يتساءل طرسوس بلامبالاة: "وما الجُرْم الذي اقترفناه ليُعذِبنا به.. أيها الأهوج؟؟!"، يتضجَّر منه صديقه ويهتف زاجراً: "أ نسيتَ.. يا غافل.. أننا نحن مَن أخرجنا المؤيدَ للناس، وفضحنا كذبه.. وأخزيناه؟!!"، صك طرسوس وجهه مُتعجِباً: "صحيح!! كيف غاب هذا عن عقلي؟!!"، فيبادره فرتون موبخاً: "ذلك.. لأنَّك لا عقل لك! هَلُمَّ بنا.. يا مُغَفَّل! الفرار.. الفرار!!".

- أنى لنا الفرار؟!! لقد عاد المهدي خليفةً منتصراً، أينما نذهب؛ ستنالنا يده!
- إلا أن نختبئ في المغارات؛ هيا.. لنهرب إلى جبل العروس!!
- لن أُفارق القصر دون حمدون؛ لن أهرب.. وأتركه لمصيرٍ مجهول!! (قالها بصرامة)
- هَلُمَّ إليه إذاً.. في مخدع المؤيد! (استجاب له مُتأفِّفاً)

هرول طرسوس.. وفرتون بحذرٍ إلى المخدع حيث حُدِّدت إقامة المؤيد.. وبصحبته حمدون، التقيا بحمدون.. وأسراه بالحديث، بيد أنَّه تأبَّى أنْ يرحل معهما دون المؤيد، زمجر فرتون.. وقال: "لو أخذناه معنا؛ لانقلبت علينا قرطبة جمعاء، ولقتلنا المهدي.. ولصلبنا على باب السدة!!"، فهتف حمدون حاسماً:

- لن أتخلى عن سيدي المؤيد؛ هو اليوم أحوج لحمايتي.. منه أمس!!
- ما غَنَاءك عنه.. وأنت رجلٌ فرد؟! لن تستطيع حمايته؛ إنَّما تُهلِك نفسك معه!

- أنْ أموت معه أحب إليَّ من أنْ أهرب بدونه!! (جأر بصرامة)، فنزع فرتون يده مستيئساً منه، وجذب طرسوسَ من ذراعه هامساً:
- افعل ما تشاء بنفسك.. يا حمدون! لكن.. سننجو نحن! (ثم أردف مخاطباً طرسوس): "ينبغي أن ننطلق.. الآن!".

توقَّف طرسوس يودع حمدون.. الذي عانقه بمودة، ودعا لهما بالسلامة والنجاة، وكذلك أوصاه طرسوس بالحرص على نفسه وعلى المؤيد، وبالحذر من المهدي.. وعدم الثقة في أحدٍ ممن في القصر، ثم انطلقا متخفيين.. توجساً أنْ يعلم جؤذر بسعيهما للهروب.. فيقبض عليهما.

*****

دلف المهدي إلى القصر؛ فوجد جؤذرَ -وخدم القصر جميعهم- يستقبلونه بتعظيمٍ وإجلال، وألفاهم قد هيَّئوا له القصر.. كأنَّه لم يرحل عنه إلا في رحلةٍ قصيرة، سَرَّه ما رأى.. وانتشى به.. وشعر كأنَّما استتب له الأمر، بيد أنَّه أسرها في نفسه.. ولم يبدها لهم، بل.. بادر إلى كرسي العرش؛ فجلس عليه.. واتكئ، ثم أوقف جؤذرَ وبعض أفراد الحاشية بين يديه، مكثوا قائمين مطأطئين رؤوسهم.. يرتقبون كلمةً أو نظرةً من الخليفة الذي يعتقدون أنَّه عاد لينتقم ويثأر لنفسه، جاهدوا أنْ يقفوا بين يديه ساكنين؛ غير أنَّ وجوههم الممتقعة وأضلاع صدورهم المُرتجِفة.. تفضح خوفهم.

طفق يتطلع إليهم، ينظر في أعينهم متلذذاً برؤية الخوف على وجوههم، حدَّث نفسه: (ليتني أكشف عن سرائركم أيها المنافقون!؟ يا أتباع كل ناعق.. يا عباد كل رب!!)، لبثوا بين يديه واجمين أمداً.. مرتعبين بما يكفي لأنْ يتشفى منهم، ثم –بعد لأي- صرفهم زاجراً.. متوعداً بأنَّه لن يحلم عن الهفوة.. كوزن الهبوة[1].

استوقف جؤذرَ سائلاً عن (صاعد بن عبد الوهاب الحرار)، تلعثم هنيهة.. ثم أجاب:

---

[1] : الهفوة كوزن الهبوة: أي: الزلة الصغيرة في وزن الغبار الدقيق المتطاير.

- قد قُتِل الكثيرُ من أهل قرطبة يوم (قنتيش).. يا أمير المؤمنين!!
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! لقد كان خير وزير ومستشار، يتحتَّم عليَّ زيارة قبره!!
- ليس له قبرٌ.. يا مولاي!! (همس بتردد وأسى)
- كيف ليس له قبر.. يا هذا؟!! (صاح مندهشاً)
- حينما سُمِح للناس بدفن قتلاهم؛ وجدنا كثيراً من الجثث قد تحلَّلت.. ونهشتها الطيور.. وأكلتها السباع!!
- تفرَّق جُثْمانه في حواصل الطير وبطون السباع؟!! (تساءل بتَفجُّع)؛ فيما أومأ جؤذر برأسه أنْ: نعم، ثم طأطأ رأسه متظاهراً بالحزن؛ فاستطرد المهدي صائحاً: "تعساً لهؤلاء البربر! كلاب أولاد كلاب! فجعوني في مُلكي وأصحابي! وأيم الله.. لا أهدأ حتى أقطع دابرهم.. وأنتقم مِمَن ظاهرهم عليَّ!! استدعي لي القائد (واضح)!!
- أَمْر مولاي.. أمير المؤمنين!

****

-المشهد السادس والخمسون بعد المئة-

دخل القائد (واضح) إلى إيوان (المهدي)؛ فقام إليه مُرحِباً، وأجلسه إلى جواره.. ثم خاطبه صائحاً بحَمِيَّة: "الرَّهَبُوت.. لا الرَّحَمُوت.. أيها القائد! يجب أنْ أنتقم من كل من تَخَلى عني وناصر عدوي، بالله.. لأُذيقنَّ الجميعَ عذابَ نقمتي!!"، تنحنح (واضح).. كأنَّه لم يستحسن هذا الكلام، واستفهم: "ماذا تعني بقولك هذا.. أيها المهدي؟؟!"، فأجابه بأنفةٍ وكبرياء: "كلماتي واضحةٌ صريحة.. أيها القائد! يجب أنْ نُنكِّل بأهل قرطبة أجمعين.. ونُعاقبهم على نَكْثهم عهدي ومبايعتهم عدوي.. حتى يرهبون جانبي.. ولا يعودون لمثلها أبداً!!".

غير أنَّ القائد (واضح) كان له رأيٌ آخر؛ فهتف بتؤدة:

---

[1] : الرَّهَبُوت لا الرَّحَمُوت: أي سأُخوفهم وأرهبهم رهبة شديدة، ولن أرحمهم.

"على رِسْلِكَ.. أيها الخليفة! لا أرى أنَّ هذا مقام انتقام؛ إنَّما هو مقام تأليفٍ وأُلفة!"، يرمقه المهدي باندهاشٍ.. بينما يسترسل: "يا مولاي!! صحيحٌ.. أنَّا هزمنا البربرَ في (عقبة البقر)؛ لكن.. لم يزل خطرهم مُحدِّقاً بنا، وليس من الحكمة أنْ نُكثِّر أعداءنا بإضافة أهل قرطبة إليهم!!".

- فماذا ترى.. أيها القائد؟؟!
- أرى أنْ نُكرِّس جهودنا لمواجهة الخطر الأكبر.. وهم البربر، فإذا انتهينا منهم.. وصفا لك ملكك؛ التفتنا إلى غيرهم، فتعفو عمَن شئتَ.. وتُؤدِّب مَن شئت!!
- .... سكت المهدي تَفكُّراً، بيد أنَّ (واضح) أحس بعدم قناعته؛ فأردف قائلاً:
- أهلُ قرطبة –يا سيدي- رعيةٌ مسالمة، ليسوا أهل حربٍ وقتال كأهل الثغور؛ لذا.. فلا تلومهم إذ مالوا إلى المُتغلِّب!!
- كيف؟!! إنَّ منهم أهل الحل والعقد؛ رأيهم وبَيْعتهم ترفع خليفةً وتضَع آخر.. وأهل الأندلس تبعٌ لهم في ذلك كله، فينبغي عليهم أنْ يتمسَّكوا بخليفتهم الذي بايعوه، ويُضحوا من أجل بيعتهم.. بأنفسهم وأموالهم!!
- إنّي أخالفك الرأي.. أيها الخليفة!! وخير أعوانك من صدقك النصيحة؛ فأعطني الأمان لأُصارحك برأيي ونصيحتي!!
- قديماً قالوا: مَن شاور أهلَ النصيحة سَلِم من الفضيحة! (حدَّث بها نفسه كأنَّما يُسكِّنها)، ثم خاطبه بانصياع: "أيها القائد!! أنت قائدي الناصح المُخلِص الذي ثبت معي في محنتي بعد أنْ تخلى عني الجميع؛ فكيف لا أمنحك الأمان؟! كيف يُغضبني رأيك.. مهما كان يُخالفني؟!".
- إذاً أقول لك.. يا سيدي: إنَّ أهل قرطبة معذورون فيما فعلوا؛ فلا تعتب عليهم!!
- ماذا تقول؟؟! (صاح مستنكراً)؛ فاستأنف (واضح) مُبيِّناً رأيه:
- قد خرجوا لقتال البربر من أجلك في (قنتيش).. وما كان لهم بهم قِبَل، ثم رجعوا إلى قرطبة منهزمين مدحورين ليجدوا أنَّ المؤيدَ حيٌّ!؟، أ بعد أنْ أذاع فيهم مناديك أنَّه مات ودُفِن؟!! كيف ينصرونك بعد هذا.. أيها الخليفة؟؟!

رمقه المهدي مستاءً؛ غير أنَّه تمالك غضبه.. وكظم غيظه، ثم هتف معاتباً:

- وأنت –أيضاً- أيها القائد.. تقول مثل قولهم؟!!
- قد أعطيتني الأمان.. يا أمير المؤمنين.. لأُصارحك الرأي، ولقد خبرتَ إخلاصي لك وصدق نُصحي، وإنّي ناصرك على عدوك؛ فلا يُقلِقك إفصاحي عن رأيي!!
- لا ترتاع.. أيها القائد! لكن بعد الذي قلتَه؛ فإنَّه يتوجب عليَّ أنْ أُصارحك بالباعث وراء ما صنعتُه مع المؤيد.. آنذاك، وإنْ كنتُ أعترف –الآن- أنني أخطأتُ فيه!!
- إنّي أسمعك.. يا أمير المؤمنين!
- بعدما تنازل لي المؤيدُ –طواعيةً- عن الخلافة.. كنتَ أنت أول الذين أرسلوا كتاباً بمبايعتي؛ وهذا نحمده لك، لكن.. أغلب بقية عمال الأقاليم تلكَّأوا عن إرسال كتب البيعة، وبلغتنا أخبارٌ تُنذِر أنَّ بعضهم يتآمر لإعادة المؤيد إلى العرش طمعاً في مكاسبٍ خاصة؛ فارتأينا أنْ نُشيع وفاة المؤيد لنقطع عليهم سبيل التمرد حرصاً على استقرار الدولة.. وسلامة البلاد والعباد، أما المؤيد.. فقد أخفيناه دون أنْ يمسه منا شرٌ أو سوء، وأبلغ دليل على حسن نوايانا أنَّه ظهر صحيحاً معافى!
- فماذا أنت فاعلٌ –الحين- أيها المهدي؟!! وقد كنتَ أعلنتَ حين أظهرتَ المؤيد أنَّه عاد ليكون الخليفةَ.. وما أنت إلا حاجبٌ بين يديه؟؟!
- كان هذا –في حينها- حيلةً لدحض حجة (المستعين) –وأعوانه.. البربر- في المطالبة بالخلافة، وها نحن أولاء قد كسرنا شوكته؛ لذا.. فسأُطالب المؤيدَ بالتنازل لي عن الخلافة مرة ثانية، ولن يمتنع!!
- عفواً.. يا سيدي! لا أرى أنَّ هذا بالتصرُّف الحكيم!!
- لِمَ؟؟! ألم تُبايعني أنت وأهل الثغور بالخلافة؟؟ ألم تأتي معي إلى هنا بجنودك وحلفائك الإفرنج.. لتُعِيد إليَّ عرشي؟؟!
- كان ذلك.. قبل أنْ أرجع معك إلى قرطبة وأعلم بقصة المؤيد وعودته من الموت، أما وقد أعلنتَ أنت رُجْعى الخلافة إليه؛ فقد اختلفت الأمور!!
- كيف اختلفت.. أيها القائد؟؟! (زمجر مستاءً)

- لو أنَّ المؤيد تنازل لك –الحين.. وللمرة الثانية- عن الخلافة؛ لتَذَمَّر الناسُ وقالوا: صارت الخلافةُ ألعوبةً في أيدي المروانيين.. يتقاذفونها كيفما يشاءون، ولهانت الخلافة وهان الخليفة.. في أعينهم، ولضاعت هيبة الخلافة وهيبة المروانيين!!
- فماذا ترى.. يا (واضح)؟؟!
- أرى أنْ يبقى المؤيدُ خليفةً، وتكون أنت وليَّ عهده، وأنْ تُكلِّفني بالحجابة!!
- تطمع في الحجابة العليا.. أيها القائد؟!! (تساءل.. بنبرة اتهام)
- لا تُسيء الظن بي.. أيها المهدي؛ إنَّما أريد أنْ أُوطئ لك عرشك ودولتك!
- بأنْ تُبوِّئ المؤيدَ العرشَ؟؟! (تساءل مستهجناً)
- بل.. بأنْ نعطي الناسَ مُهْلَةً يتناسون فيها زلة (تزيف موته)!!

رمقه المهدي بنظراتٍ حانقة.. تَأَذيّاً من كلماته، على أنَّه أذعن لرأيه؛ لا قناعةً بهذا الرأي، وإنَّما مداهنةً للقائد (واضح) الذي أصبح صاحب السلطان الحقيقي بعد انتصاره الأخير على البربر، وبما يملكه من قوة عسكرية (جيش الثغور الذي يتحرك بأمره)، وكذلك قوته السياسية.. والكامنة في حلفائه الإفرنج وجيوشهم، بعد برهةٍ من الصمت المُتَفَكِّر.. هتف المهدي بانصياع:

- أحسب أنَّ رأيك هو الأقرب.. أيها القائد، وقد أثبتَّ لي أنَّك –بحق- خير ناصح!!
- عفواً.. يا أمير المؤمنين؛ إنَّما أنا عاملك الأمين.. ورجلك المخلص، ولو تسمح لي: أرى أنْ تُسارع بالاجتماع مع المؤيد، وأنْ تتفق معه على ما أزمعنا عليه، وتُعلِمه أنَّ شرط الاتفاق أنْ يُفوِّض سياسة المُلك وتدبيره لك بصفتك (وليّ عهده).. ولي بصفتي (حاجبه)؛ وذلك أمرٌ ليس بالجديد عليه!!
- أصبتَ.. أيها القائد الحكيم!! (هتف بمداراة)

****

-المشهد السابع والخمسون بعد المئة-

فيما ينتظر قدومَ المؤيد إليه.. جلس المهدي مُتفكِّراً: (متى أملك هذا العرش دون مُنازِع؟!! بدايةً يُنازعني فيه المؤيدُ، ثم (هشام بن سليمان).. وولده، ثم المستعين والبربر، وأخيراً المؤيد مرة أخرى!؟؟)، تُجاوبه خَطراته: (كلا!! ليس المؤيدُ مَن يُنازعك هذه المرة؛ بل.. واضح الصقلبي!!)، (ويحك.. أيها الصقلبي! أخشى –بعد أن يستقر لنا الأمر- أنْ تُغالبني عليه.. كما صنع شنجول وأسلافه مع المؤيد!!) .....

قاطعاً عليه حبال خَطراته.. ولج حاجبُ بابه ليقول:

- جاء المؤيد كما طلبتَه.. يا سيدنا؛ ويستأذن في الدخول إليكم، لكن.. حمدون بن هشام يلتمس الولوج معه.. رافضاً أنْ يتركه وحده!؟

(حمدون!! ذاك الفتى.. صنيعتي!؟؟ هو الآخر تخلى عني.. وانضم إلى المؤيد؛ حتى أنَّه أذلني وأخزاني بين الناس لأجله!؟ ولم يزل يدافع عنه!)، (وَي بك[1].. يا حمدون! جزاؤك عندي ليس أقل من الصَلْب أو السجن مدى الحياة.. أيها الخائن!!)، (لكن.. ليس الآن وقته؛ فقد صدق الشيخُ الصقلبي في نصيحته، لنُرجئ –إذاً- حمدون وفرتون.. وأمثالهما إلى ما بعد الانتهاء من البربر، ولا جرم سيأتي دورك متأخراً بعدهم.. أيها القائد الصقلبي الأشيب!!)، بينما يسترسل في خواطره؛ إذ عاود حاجبُه النداءَ: "المؤيد يستأذن في الدخول.. يا سيدنا.. ومعه حمدون!"، ينتبه إليه.. ثم يقول: "أدخلهما.. واحبس غيرهما.. حتى أطلبه!".

دلفا إليه؛ المؤيدُ يمشي في تؤدةٍ ووقار، وحمدونُ يتلفَّت حوله مُتحفِّزاً مُرتاباً، بادههما صائحاً بنبرة ترحاب: "عذراً إنْ طلبتُ أنْ تأتيني.. يا عمي (المؤيد)؛ ولولا كثرة الأشغال.. لتوجَّهتُ أنا إليك!!".

---

[1] : وي بك يا فلان: أسلوب تهديد، وهي اسم فعل مضارع.

- لا بأس.. يا ابن أخي؛ فالأمر سواء!! (قالها وقد تملَّكته الدهشة.. ومثله حمدون)
- كلا! لسنا سواء.. أيها المؤيد؛ فإنَّك أنت الخليفة.. وما أنا إلا عاملك ووليُّ عهدك!

سكت المؤيد دهشةً واستغراباً؛ فقد وَقَرَ في قلبه -وقلب حمدون أيضاً- أنَّه سوف يُسيء استقبالهما.. وقد يُنكِّل بهما، بيد أنَّهما تباغتا بترحابه الكريم وبتوقيره الطارئ للمؤيد؛ والعجب أنَّه يؤكد أنَّ المؤيد هو (**الخليفة**)، لاحظ الدهشة وأمارات الارتياب على وجهيهما؛ فرسم على شفتيه ابتسامةً ودودة.. وهتف مخاطباً حمدون:

- ما لي أراك مُضطرباً؟!! أ حسبتَ أنِّي قد أُوْذِّي عمي.. يا حمدون؟؟!
- ....
- يا لك من سيء الظن.. أيها الفتى!! كيف يجول في خاطرك أنِّي قد أضرّ بعمي (المؤيد).. خليفة الأندلس؟؟!
- منذ متى.. أيها المهدي؟؟! (تساءل المؤيد بنبرة ارتياب.. كأنَّما يَذِبُّ عن حمدون)
- مذ أنْ اتفقتُ مع هذا الفتى، وأشرفنا –أنا وأنت- على الناس عند باب الشكَّال لنُعلِن أمامهم أنَّك أنت الخليفة.. وأنني قائمٌ دونك!
- ظننتُ أنَّ ذلك كان –حينها- لغرضٍ في نفسك؛ وأحسب أنَّ هذا الغرض قد انتهى!
- وأنت –أيضاً- تُسيء الظن بي.. أيها الخليفة؟! (تساءل بنبرة عتابٍ مصطنعة)، ثم التفت إلى حمدون وأردف بلهجةٍ مازحة: "لكن.. ذرني –يا عماه- أسأل هذا الفتى الشجاع: لو كنتُ قاتلَ المؤيد؛ كيف كنتَ ستُدافع عنه بغير سلاحٍ.. يا حمدون؟!".

تَنَبَّه المؤيدُ –الآن فقط- أنَّ حمدون مكث حبيساً معه في مخدعه طوال الأشهر السابقة مُخلِصاً في حمايته.. لكن بغير سلاحٍ يدفع به عنهما، فيما حدج حمدونُ المهدي بنظراتٍ واثقة.. وهتف بإباء:

- تعلم –أيها المهدي- أنِّي لن أعجز عن انتزاع السلاح من خصمي، وأنِّي لن أعجز عن انتزاع روح مَن جاء يريد سيدَنا المؤيدَ بمَكْرُوه!

- مَن يعرفك.. لا يُنكر شجاعتك.. يا حمدون! لكن.. ماذا كنتَ فاعلاً لو تكاثر عليك جنودُ الأعادي؛ إنَّ الكثرة تغلب الشجاعة، أم.. كيف تحذر –مثلاً- أنْ يُدسَّ لكما السم في طعامٍ أو شرابٍ، أم....

أحسَّ المؤيدُ بأنَّه يُراوغ.. ويُلوّحِ لهما بتهديداتٍ لا مُبرّرٍ لها؛ فقاطعه صائحاً:

- {ولكل أمةٍ أجلٌ فإذا جاء أجلُهُم لا يستأخِرُون ساعةً ولا يستقدمون} (آية ٣٤.. سورة الأعراف)، أ لهذا استدعيتني.. أيها المهدي؟؟!
- حاشا لله.. أنْ أستدعيك –يا عماه- وأنت الخليفة؛ إنَّما التمستُ لقاءك لنُرتّب معاً مسئوليات الخلافة، أريدك أنْ تُفوِّضني في تدبير الدولة، وأيضاً.. أردتُ أنْ أُعلِمك أنِّي اخترتُ (واضح الصقلبي) حاجباً للخلافة..

تَطلَّع إليه حمدون باستهجان، في حين عاجله المؤيدُ هاتفاً: "قد فوَّضتُك.. يا محمد!".

****

-المشهد الثامن والخمسون بعد المئة-

انصرف المؤيدُ وحمدون من عنده؛ فجلس يَعُضُّ أصابعَ الغيظ من حمدون، ثم طفق يُصبِّر نوازع الحنق والانتقام هاجساً في نفسه: (لكل أجلٍ كتاب!! وسيأتي أجلك.. يا حمدون؛ لن أنسَ لك فعلتك، ولن أَحِيد عن معاقبتك!!).

جاء جؤذر؛ فأذن له بالدخول، دلف.. وبصحبته (ابن الرسان)، خرَّ تحت قدميه يُقبِّلهما.. ساكباً العَبرات الزائفة فرحاً بعودة الخليفة ظافراً إلى عرشه، ثم جأر مُتزلِفاً:

- عَوْداً أحمداً.. يا أمير المؤمنين! قبَّح اللهُ البربرَ الملاعين.. قد أحزنونا بما فعلوه؛ لكن.. الحمد لله الذي أخزاهم.. وأعزَّ مولانا (أميرَ المؤمنين)!!
- قبَّح اللهُ البربر.. أنْ حُرِمتُ بسببهم خمرك اللذيذ ونوادرك الظريفة.. أيها الأَفَّاق!!

- وهبني الله فداك[1].. يا مولاي! أنا الذي اشتقتُ لصفعةٍ من يدك على وجهي، أو رَكلةٍ من قدمك لمؤخرتي!! (جأر بمداهنةٍ وضيعة)؛ فانفجر المهدي ضاحكاً حتى كاد أنْ يقع على قفاه.. ثم صاح آمراً:
- إذاً.. عَجِّلْ.. وأَعِدْ إلينا ليالي السمر الخوالي، فقد اشتقتُ لها.. أنا أيضاً!
- على الرحب والسعة.. يا أمير المؤمنين!!

*****

نهاراً.. أُذيع في المدينة: (أنَّ المهدي –حفظه الله- وقائده (واضح الصقلبي) والمخلصون من رجاله قد استطاعوا دحر البغاة، واسترجعوا الحق منهم وردُّوه إلى أهله، والحمد لله.. عاد الخليفة المؤيد –أطال الله بقاءه- إلى عرشه.. عزيزاً مكرماً!)، ثم أُعلِن بعدها: (يا أهل قرطبة الكرام! اعلموا أنَّ الخليفة (المؤيد) قد تفضَّل بتفويض النظر في شئون الخلافة وتسيير الدولة إلى وليِّ عهده (محمد المهدي).. يعاونه حاجب الخلافة الجديد (واضح الصقلبي)؛ وذلك لأنَّ أمير المؤمنين (المؤيد) –وفقه الله- حبَّذ أنْ يتفرَّغ للتنسُّك والعبادة شكراً لله على نعمته: أنْ أكرمه برجالٍ مخلصين أنقذوه من أيدي البغاة.. واستنقذوا له عرشه مِمَن نازعه فيه بغير حق! وقد شهد على ذلك القضاة والوزراء!).

ليلاً.. حالما بقي المؤيد حبيس مخدعه برفقة حمدون.. كما كان على عهد المستعين؛ امتلأ سامِر المهدي بالراقصات الخليعات والجواري الماجنات، ودارت كؤوس (ابن الرسان) على السُمّار المعربدين.. احتفالاً بالمهدي وعودته إلى قصره ومجلس سمره.

بينما هم على تلك الحال من الصخب والسُكر والانتشاء؛ إذ ولج إلى السامر عبدُ الجبار بن المغيرة؛ تباغت به المهدي.. وانتبه من نشوته، ثم صاح بلُكْنَةٍ أثقلها السُكر:

- انظروا.. يا أصحاب.. مَن الذي دخل إلينا! مرحباً بك.. يا ابن المغيرة!!

---

[1] : وهبني الله فداك: أي: جعلني فداءك.

- وأنت!! لا مرحباً بك.. يا ابن هشام!! (قالها بنبرةٍ صارمة ووجه عبوس)؛ فاستفاق المهدي.. وكلح وجهه.. وتَجَهَّم غضباً، اعتدل بعد أنْ كان مُتكِأً.. ثم صرخ:
- ماذا تقول.. يا ابن اللخناء[1] ؟!
- اهدأ.. يا أمير المؤمنين! وأنت.. أيها الأمير عبد الجبار.. كيف تُخاطب الخليفة بهذه اللهجة؟!! (هتف ابن الرسان وبعض جلساء المهدي)، حالما خرَّ عبد الجبار جالساً.. وقد بدا كمَن أعياه الحزن والكمد؛ ثم همس معاتباً بانكسار:
- كيف تنزع عني ثوباً ألبسنيه اللهُ.. أيها الخليفة؟!! كيف تنزع الحجابة عني.. وأنا المرواني الشريف؛ وتهبها لذاك الصقلبي النكرة؟!! ألا تتقي الله.. والرحم؟!!
- ألا تتقي –أنت- اللهَ.. أيها السفيه؟؟! تغيب عني كل هذه المدة، ثم تجيء –الحين- لتُعكِّر عليَّ صفو سامري؟!! (صاح المهدي مُغتاظاً)،

ثم لوَّح بيديه للجالسين حوله أنْ ينفضوا؛ فتفرَّقوا عنه في أنحاء المجلس.. خلا ابن الرسان الذي استبقاه ليملأ له كأسه، ثم التفت إلى عبد الجبار الذي احتقن وجهه.. واستطرد ساخطاً موبخاً:

- تعتب عليَّ أنِّي نزعتُ عنك الحجابة؟!! لستُ أنا مَن نزعها عنك؛ بل أنت.. برعونتك وجُبْنك، أخبرني.. أيها الحاجب المرواني: أين كنتَ حين انقلب (هشام بن سليمان)؟؟ أين كنتَ حينما تمرَّد البربر وقاتلوا أهل قرطبة.. وفعلوا الأفاعيل؟؟!
- أ نسيتَ.. أيها المهدي؟؟! لقد قُتِل أخي محمد.. دفاعاً عنك وعن أهل قرطبة!!
- لا تزايد عليَّ بموت أخيك؛ فإنَّه.. وأيم الله.. كان أوفى لي منك وأخلص، أما أنت.. فإنَّك تعرف نفسك؛ أنانيٌ لئيمٌ.. جبانٌ جشعٌ.. جمَّاعٌ للمال!!
- ويحك!! أ تنعتني.. باللئيم.. يا محمد.. بعد كل ما فعلتُه لأجلك؟!!
- مَه.. أيها الرعديد! ماذا فعلتَ لأجلي؟!! هل استللتَ سيفك وقاتلتَ أعدائي؟!

---

[1] : اللخناء: لخن الرجل: أي قَبُح كلامه، واللخناء: هي التي أنتنت أرفاغها؛ والرَّفْغ: هو كل موضع يجتمع فيه الوسخ من البدن.

هل منحتني مالك أستعين به عليهم؟! هل لحقت بي في طليطلة ليكون مصيرك من مصيري؟؟! ألا تدري أنِّي علمتُ بفرارك من قرطبة؟! أ تظن أنِّي لم أكن أعلم أنَّك كنزت الأموال الكثيرة وهربتَ بها إلى (شِلْب)[1].. واختفيتَ فيها حتى علمتَ بظهوري على أعدائي؛ فجئتَ طامعاً في جنى الثمر، بئس الرجل أنت.. تُدبِر وقت الفزع.. وتُقبِل وقت الطمع!!

- إنِّي شريكك في هذا المُلك.. يا محمد! وكما أنَّك عُدتَ خليفة؛ ينبغي أنْ أرجع -أنا أيضاً- حاجباً كما كنتُ، هذا حقي.. ولن أُفرط فيه!!
- حقك؟!! قد خنتَ تلك الشراكة التي تزعم.. بفرارك عني.. يا ابن المغيرة!!
- محمد! لا تدفعني لأن أستعيد حقي بما يسؤك!!
- ها.. ها!! (انبعث المهدي مُقهقهاً بسخرية)، ثم هتف بنبرةٍ هازئة: "افعل ما تقدر عليه، أخرج كل ما في جعبتك.. أيها الرعديد!!".
- .... سكت عبد الجبار مَخزيَّ محتاراً، رمقه المهدي باحتقار.. ثم استطرد:
- إنِّي مُشفقٌ عليك.. يا ابن المغيرة! وكي تعلم شهامتي وحسن صلتي لرحمي؛ فإنني أعفو عنك؛ فلن أقتلك.. ولن أحبسك، بل أزيدك؛ لن أصادر أموال الناس التي جمعتَها لنفسك جشعاً وسحتاً، وإنَّما سأُخلي بينك وبين ما كنزتَ، لكن.. اعمل بنصيحتي وارحل عن قرطبة؛ فإنَّ أهلها يبغضونك –اليوم- كما يبغضون البربر، وأخشى أنَّك لن تُترَك آمناً في هذه البلدة!!
- ....
- هيا.. انصرف.. ونحي عني وجهك الكئيب هذا؛ فإنِّي.. قد كرهتُ رؤيته!!

****

---

[1] : شلب: مدينة أندلسية هامة.. تقع حالياً في جنوب دولة البرتغال.

-المشهد التاسع والخمسون بعد المئة-

رجعت أمُ هشام إلى بيتها.. مكفهرة الوجه.. مقهورة النفس.. موجوعة القلب، واهنة الخطى.. مُتكئةً على ذراع سعدون بعدما خرجت –آنفاً- تمشي إلى جواره ثابتة الخطى.. مغتبطة القلب والنفس. بادرتها أم سعدون متسائلةً: "كيف حال سيدي حمدون.. يا سيدتي؟!!"، أجابتها بنظراتٍ شاجنة وصمتٍ مخيف؛ فيما هتف سعدون مُغتمّاً: "مُنِعنا من لقائه.. ومن لقاء سيدي المؤيد!!"، رمقته أمه باندهاش.. والتفتت إلى سيدتها مُستفهِمة مُستنكِرة: "هل رفض المؤيد لقاءكِ.. بعد أنْ أصبح الخليفة؟!!".

لم تُجبها؛ بينما أقبلت إليهم سلوانُ بعيونٍ مُتلهّفةٍ للاطمئنان على حمدون.. وآذانٍ مُتشوقةٍ لسماع أخبارٍ طيبةٍ عنه، أبصرت معلمتها خائرة القوى؛ فهرعت تسندها وتساعدها في الجلوس على أريكتها، أومأت إلى أم سعدون أنْ إئتني بكوب ماء؛ شربت.. ثم نفثت نفثة مصدور.. محاولةً أنْ تستعيد رشدها وثباتها، ثم همست –لتجيب عيونهما المتلهفة للخبر- لكن.. بصوتٍ واهنٍ:

- ذهبتُ إلى القصر في الموعد –كما اعتدتُ أيام المستعين- لرؤية حمدون والمؤيد والأنس بهما؛ فإذا بأحد فتيان القصر يُقابلني بجفاء ويقول بسماجة: "عذراً.. أيتها السيدة! فقد أمر مولانا المهدي –ولي العهد- بمنع العامة من لقاء أمير المؤمنين!!"، فلما أيستُ من لقاء المؤيد طلبتُ أنْ التقي بحفيدي؛ فأمروني بالمكوث، وانتظرتُ طويلاً حتى كاد قلبي ينصدع قلقاً، ثم جاءني أحدهم ليقول: "نهى ولي العهد أنْ يلتقي أحدٌ بزائريه في القصر، ويقول لكِ: ارجعي راشدةً إلى بيتكِ، وإذا أراد ولدُكِ لقاءك؛ فلن يُمنَع أن يخرج من القصر عائداً إلى بيته!".
- إنَّ ذاك الغادر يُضيّق على لقائك بحمدون ليضغط عليه ويساومه.. حتى يُغادر القصر مُتخلياً عن سيدي المؤيد!! (قالت سلوان.. بمرارة وحنق)
- أصبتِ.. يا بُنية! هذا ما اعتقدتُه.. أنا أيضاً، وحمدون.. لن يرضخ له!!
- لكن.. أ لم تتمكني من الاطمئنان على سيدي حمدون؟؟! (جأرت أم سعدون)

- بلى.. الحمد لله! هداني الله لبعض أهل الخير من فتيان القصر الذي يدين بالوفاء لحمدون؛ فأرسل إليَّ معه السلام وطمأنني على نفسه وعلى المؤيد.. واعتذر بأنَّه يخشى أنْ يترك المؤيد وحده؛ فأرسلتُ إليه سلاماتي.. ودعواتي له بالسداد والصلاح والنجاة، ورغم ذلك.. فإنَّ قلبي موجوع شوقاً لرؤيته!!
- سبحان الله!! ظننا أنَّ المستعين هو الذي سيفتك بسيدي المؤيد وسيدي حمدون؛ فما رأينا منه إلا الإحسان، ولقد لبثتي.. يا سيدتي.. مدة خلافته.. تروحين إليهما في القصر وتجيئين دون أن يضايقكِ أحد أو يُضيّق عليك، أما هذا المهدي.. فلم ينلنا منه غير التضيّق والشرور!
- المستعين رجلٌ رشيدٌ كريم.. والمهدي أهوجٌ لئيم، قد كنتُ أعرف الاثنتين: ظبية (أم المستعين).. ومزنة (أم المهدي)، لكن.. شتان بين الأمين.. وتربيتهما لولديهما!
- كيف يكون المؤيدُ الخليفةَ وهو لا يملك من أمره شيئاً.. حتى أنْ يلقى أحداً من رعيته في قصره؟!! (جأرت سلوان باستهجان)
- يا بُنيتي.. لقد لبث –قبلُ- في الخلافة نيفاً وثلاثين سنة.. لم يملك فيها من أمره شيئاً؛ وإنَّما كان الأمر كله للحاجب!!
- وأمره –الآن- بيد ذلك الرجل اللئيم الغادر؟!! يا أسفى عليه.. من ضعيف!!
- وأيم الله.. أزعم أنَّ (المستعين) خليفةٌ خيرٌ منهما، ولستُ أدري: لماذا يبغضه أهلُ قرطبة كل هذا البغض!! (جأرت أم سعدون)
- ذاك لأنَّهم لم ينسوا أنَّه تغلَّب عليهم بسيوف كفار قشتالة! (هتفت أم هشام)
- وها هو ذا المهدي قد ظهر -هو الآخر- بسيوف كفار الإفرنج!؟ فهذا.. مثل ذاك، ولا فضل له على المستعين؛ بل.. المستعين أكرم وأرشد!! (هتفت أم سعدون)
- أحسب أنَّ أهل قرطبة لا ينقمون من (المستعين) سوى أنَّه فُرِض عليهم من البربر؛ فإنَّه مرواني شريفٌ.. ليس به عيبٌ ظاهرٌ ولا نقيصة!! (قالت سلوان)
- رأيي من رأيك.. يا سلوان! وتلك هي الفتنة التي وقع فيها الناس، واسأل الله أنْ يُنجينا منها، وأنْ يُنجي ولدي حمدون من مكائد ذاك الغادر الذي لا تُؤمن بوائقه!!

****

-المشهد الستـــــــــون بعد المئة-

أتى الحاجب (واضح الصقلبي) ليهمس في أُذن (المهدي):

- تراجع البربر.. سالكين طريق الجنوب، وأحسب أنَّهم سيُجمِّعون فلولهم ليُعاودوا الكَرَّة؛ يتحتَّم علينا أنْ نبادر إلى مهاجمتهم والقضاء عليهم.. قبل أنْ يتجمَّعوا ويَشتدُّوا.. ويعاودوا مقارعتنا!
- أسرِع إذاً.. ولا تتوانى!! (هتف المهدي بحَمِيَّة)
- حلفاؤنا الإفرنج.. يجب أنْ يخرجوا معنا!!
- وما الذي يمنعهم؟؟!
- يسألون أُعْطِيَاتهم التي وعدناهم إياها!!
- أعطياتهم؟!! أنت.. مَن كلَّفني هذا العِبء.. يا واضح!!
- هذا ما أبرمناه معهم؛ ولابد أنْ نفي لهم بما في ذمتنا!!
- لكل رجلٍ منهم ديناران في اليوم عدا طعامه وشرابه، وللقومس.. في كل يوم.. مئة دينار وطعامه وشرابه.. وذلك مذ بدأت الرحلة انطلاقاً من طليطلة؟!! (جأر المهدي مُتسخِّطاً)؛ ثم أردف وهو يَعَضّ أصابعه مغتاظاً: "هذا.. كثير!!".
- ولا تنسَ أنَّهم اشترطوا –أيضاً- أنَّ لهم كل ما حازوه من عسكر البربر من سلاحٍ وكُراعٍ[1] ومال، وأنَّ دماء البربر وأموالهم ونسائهم حلالٌ لهم؛ فلا يُمنَعون منها، والأجدر بك أنْ تفي بما عاهدتَهم عليه!!
- تباً لك.. ولهم!! كيف أُعطيهم كل هذا.. وأنا لا أملكه؟؟! (صاح متوتراً)
- تستعين بأعيان قرطبة.. وتجارها، ألم نأت بالإفرنج لمقاتلة عدوهم.. دفاعاً عنهم؛ فعليهم –إذاً- أنْ يتحمَّلوا معنا بعض الأعباء!!

---

[1] : كراع: اسم يجمع الخيل والسلاح.

سكت المهدي برهةً.. قبل أنْ يُلوّحِ له بالانصراف، ثم أمر جؤذر باستدعاء أُناس من كبراء قرطبة وأعيانها وأغنيائها.

ولم يمض يومٌ أو يومان حتى تَكَدَّست بين يديه أموالٌ كثيرة.. سدَّد بها أعطيات الإفرنج.. وزيادة.

في المساء.. استضاف قومسَ برشلونة ووزيره.. وكذلك خليفة القومس أرمقند على عسكر أورقلة.. وعدد من قواد الإفرنج وفوارسهم؛ ليتملَّقهم ويحتفي بهم في حفل سمر زاخرٍ بالعربدة والمجون.. احتفالاً بالانتصار على البربر في (عقبة البقر).. وبسداده أُعطياتهم، وملاطفةً لهم.. ومداهنةً حتى يوافقوه على الخروج إلى البربر.

كدأبه.. ما برح ابن الرسان يدور بكؤوسه الدهاق وطُرَفه المِلاَح على السامرين وضيوفهم. من بين المدعوين الإفرنج وقعت عينه على (أليازار): الوزير اليهودي لقومس برشلونة، رآه رجلاً كهلاً مُتأنِّقاً.. يبدو –من أول وهلة- للمُتفرِّس فيه أنَّه رجلٌ ذكي وطَمُوح.. ذو رأي ومكانة بين قومه؛ فحثَّته فراستُه على التقرُّب منه والتودُّد إليه.

لم يتلكَّأ ابن الرسان؛ بل سارع –في اليوم التالي- إلى زيارة الوزير المتأنِّق في محلَّته وإهدائه زِقِّ خمرٍ معتقة من كروم قرطبة لتكون فاتحة الصداقة بينهما، أحسن الوزير اليهودي استقباله –ولا سيما مع الهدية النفيسة- وجلسا ساعةً يتعارفان؛ فتأكَّد ابن الرسان أنَّ فراسته لم تَخْذُله، اجتهد أنْ يوثِّق عُرَى الصداقة مع الوزير اليهودي طمعاً في منافع المستقبل؛ فحدَّثه: أنَّه يهودي الأصل والمَحْتِد، وصارحه: أنَّ اعتناقه الإسلام.. لم يكن -أبداً- بُغْضاً في اليهودية ولا تَنصُّلاً منها، وإنَّما كان سعياً على مصلحته ومنفعته في مجتمع قرطبة الذي يرفع المسلم دون سواه.

بيد أنَّ الوزير كاشفه بأنَّه قضى من حياته المبكرة –قبل الوزارة- أعواماً في قرطبة.. تعلم فيها العلوم المختلفة كالطب والحساب والهندسة والفلك وغيرها.. فضلاً عن اللغة العربية وآدابها، وأنَّه وجد من القرطبيين ترحاباً وحفاوةً يحمدون عليها، وعرَّفه أنَّ لديه عديداً من المَعارِف القرطبيين سواءً منهم اليهودي والمسلم والمسيحي، لم

يُعقِّب على قوله بشيءٍ خلا أنْ قال: "أرجو –يا سيدي- أنْ تجعلني أحد أصدقائك القرطبيين!"، فابتسم الوزير بتلطُّفٍ وهتف: "بالطبع! بل.. ستكون من المقربين!!".

****

-المشهد الحادي والستون بعد المئة-

انصرمت أيامٌ ومَرَّت ليالي.. مذ عاد عبد الجبار من غيبته كئيباً حزيناً، حبس نفسه في الدار دونما ينبس إلا بكلماتٍ مُقْتضَبة.. لم تستنبط منها نجوى شيئاً، ولم تقدر أنْ تعرف: (إلى أين هرب آنفاً؟ ولا أين اختفى هذه المدة؟! ولا حتى.. لماذا رجع مرة ثانية؟!).

طفقت تراقبه عن كثب؛ فرأته ساكتاً ساكناً.. كَمِداً كأنَّما جُمِّعت كرباتُ الدنيا فوق رأسه، كانت تظن أنَّه –إنْ عاد- فسيبدأ.. أول ما يبدأ.. بالنَبْش عن كنزه الدفين ليطمئن عليه، لذا.. فقد تملَّكها الذعر والفزع - منذ ليالي- أول ما انسل مُتخفِياً إلى الدار؛ على أنَّها تمالكت جزعها وحدَّثت نفسها: (حيّا الله شادن! نعم العبد الآبق: هو المتهم بالسرقة.. وأنا بريئة!!)، غير أنَّ سيدها لم ينبش عن الكنز حتى الحين، وحينما سأل عن شادن وأجابته سعدى: "استيقظنا ذات صباحٍ؛ فلم نجده!؟".. لم يزد عن أنْ همس بمرارة: "وشادن.. أيضاً!!"، ثم سكت.. وطال سكوته وسكونه.. إلى حد أنَّه لم يشغل باله بنفقة الدار: (كيف كانت تنفق نجوى على أمه وعلى الدار طيلة الشهور السابقة؟ ولا من أين تأتيها النفقة هذه الأيام؟! وإنَّما غاية ما اكترث له أنْ تملأ الجاريةُ كأسه –التي أدمن عليها- إذا فرغت!!)، أمَّا نجوى فقد استراحت -هي وسعدى- إلى الاستجداء من أم هشام كلّما أحوَجتهما الفاقة أو قرصهما الجوع.

مضت أيامه ولياليه -مذ عاد- على ذات النَّسَق.. حتى طُرِق باب الدار ذات يومٍ؛ فكان ابن الرسان، استقبله بفتورٍ.. مُستغرِباً هذه الزيارة الغير متوقعة، ورغم برودة الاستقبال.. أظهر الضيف حرارة الود.. وسمح لنفسه بالقعود متكئاً.. والسؤال مُلِحّاً: "كيف حالك.. يا حبيبي عبد الجبار؟؟ يشهد الله: كم افتقدتُك.. وكم اشتقتُ إليك!".

- منذ متى كان هذا الحب.. وتلك المودة؟!! (تساءل عبد الجبار باندهاش)
- مذ أكرمتني.. يا سيدي.. وأخرجتني من السجن.. وضممتني إلى القصر.. وشفعتَ لي لأكون ساقي الخليفة؛ أم تحسب أنِّي لئيمٌ.. جاحدٌ للمعروف.. كبعضهم؟؟!
- بل.. كلهم جحد معروفي، كلهم.. لئام.. أيها الرجل الأصيل! (جأر مُحبَطاً)
- لا تعبأ باللئام.. يا سيد عبد الجبار! وانشغل بنفسك.. وبحياتك القادمة!
- حياتي؟!! قد سلبني المهدي إياه.. وألقى بها رخيصة تحت قدمي تابعه الصقلبي!؟
- تعني: القائد (واضح الصقلبي)؟؟!
- بل.. قُلْ: الحاجب الأعلى.. واضح الصقلبي!! (صاح بمرارةٍ واحباط)، فيما يضرب ابن الرسان كفاً بكف.. مُتصنِّع التَسخُّط.. ثم يتساءل بنبرة استهجان:
- تالله.. لا أفهم: كيف يُفضِّله عليك.. وأنت: ابن عمه.. سليل الخليفة الناصر؟!!
- كأنَّما ذبحني بسكينٍ ثَلِمٍ.. يا صاحبي! أ وبعد كل ما صنعتُ لأجله؟؟! قد ضيَّعني المهدي.. وأيم الله!!
- بل ضيَّع نفسه.. وضيَّع الخلافة والحجابة معاً! (همس ابن الرسان بملاينة)، وسكت هنيهة.. ثم استطرد بنبرة استنكار ماكرة: "ويقول لك: لن أصادر أموالك؛ بل.. أَترُكها لك، وارحل بها عن قرطبة.. لأني أخشى عليك أهلها!!".
- إنَّه يسخر مني.. ويتلاعب بي.. يا ابن الرسان!!
- سيدي!! أنا لا أخشى عليك أهلَ قرطبة؛ إنَّهم أهلك وقومك، إنَّما أخشاه هو!! أخشى أنْ يكيد لك.. ويدبر مَن يقطع عليك الطريق وأنت راحلٌ عن قرطبة.. ويقتلك.. ويسلبك مالك!! (هتف بنبرة تهويل وتخويف مُصطنَعة)
- أ تُراه.. يفعلها؟؟! (تساءل عبد الجبار باستعظام وإنكار)
- ولِمَ.. لا يفعل؟! الطمع والجشع.. يا سيدي.. يدفعان الرجل أنْ يقتل أخاه! لكن.. اطمئن؛ فإنَّ أخاك –ابن الرسان- موجود، لن أدعه يَمسُّك بسوء، ولو أردتَ الخروج من قرطبة؛ فإنِّي معك.. سأحميك وأنصرك.. حتى تبلغ مأمنك!!

- أنعِم بك من صاحب.. يا ابن الرسان! قد وفيتَ! على أنِّي لا أحب الرحيل عن قرطبة؛ لن أصبر على بعدي عنها وعن أهلها!! (جأر بإشفاق)
- انج بنفسك.. يا سيد عبد الجبار! إنَّي لك ناصحٌ؛ المهدي رجلٌ غادر.. لن تأمن منه في قرطبة، تَسلَّلْ من البلد وحدك خفية.. واترك مالك عندي مصوناً محفوظاً!!
- وأنت أيضاً.. يا ابن الرسان.. تظن أنِّي جمعتُ أموال الناس وكنزتُها لنفسي؟؟!
- حاشا لله.. أنْ أظن بك السوء.. بعد معروفك بي، وحاشاك أنْ تأكل أموال الناس سُحتاً، إنني أقصد خاصة أموالك التي ادخرتَها لتستعين بها على نوائب الدهر!

رنا إليه طويلاً، وحدجه بنظراتٍ مُتوسِّلة.. ثم همس بنبرة تَرجِّي:

- إنْ أردتَ أنْ تُسدي إليَّ معروفاً حقاً؛ فإنِّي لن أرحل عن قرطبة وحدي، أُريد سلوان معي؛ فهل تستطيع أنْ تجمعني بها؟؟!
- ومَن.. سلوان؟؟! (تساءل مُتباغتاً بلهجة مُحدِّثه المُتضرِّعة)
- سلوان بنت عمر! ربيبتك.. أيها الرجل!! ألا تذكر أنَّك وعدتني بالزواج منها؟!! وأنَّك التمستَ من القاضي أنْ ينتزعها من آل بيت حمدون بن هشام ويُلحِقها بك؟!!
- لكنَّ.. القاضي.. أجلَّ وسوَّف!! (هتف مُتلعثِماً.. مستنكراً)
- جئني بها.. يا ابن الرسان؛ هذا هو الجميل الذي أرجوه منك! وساعتها.. ستكون بحق صديقي الذي أمتن له بالإحسان؛ وسأُكافئك مكافأةً جزيلة!!
- إذاً.. أمهلني.. حتى أُحبِّكها لك! (هتف بتردد).. وسرعان ما استأذن وانصرف.

****

-المشهد الثاني والستون بعد المئة-

حضر الحاجب (واضح الصقلبي) إلى إيوان المهدي.. ليهتف بشيءٍ من الحيرة والاضطراب: "ما زال.. قومس برشلونة.. يرفض الخروج لاتِّباع البربر!!".

- رغم كل الأموال التي جمعناها له؟! تعساً له من حليف حرب!! (صاح ذامّاً)
- قد جئتُك بوزيره؛ عسى أنْ يساعدنا في إثنائه عن رأيه، وهو ينتظر بالخارج!
- الوزير اليهودي.. ربيب قرطبة!!؟ أدخله.. إليَّ!!

أُذن لوزير برشلونة.. فدلف إلى الإيوان، طفق يتلفَّت حوله بانبهار.. عاجزاً عن أنْ يغض طرفه عما يشاهده حواليه من فخامة وأُبَّهَة وبهاء، بادهه المهدي مؤنّباً:

- ما خطبكم.. يا (أليازار)؟! لماذا تُحجِمون عن الوفاء بالعهد؟؟!

سكت برهة يحاول فيها أنْ يتمالك نفسه ويستحضر ذهنه، ثم جأر بمهادنة:

- عفواً.. مولاي الخليفة! مَن ذا الذي يجرؤ أنْ يحنث بعهدٍ معك؟؟!
- ألم يمتنع قومس برشلونة عن الخروج معنا لاتِّباع البربر وقتالهم؟!! أ وبعد ما منحناكم الأعطيات التي أبرمنا عليها الاتفاق؟!! (صاح المهدي بأنفةٍ ساخطة)
- الكونت رامون بوريل؟!! حاشاه أنْ يمتنع عن الوفاء بعهدكم.. يا مولاي! لكن.. حقيقة المسألة أنَّ الجنود والفرسان مُتذمِّرون لأنَّهم –إلى الحين- لم يظفروا بغنيمةٍ كما وُعِدوا؛ فأُحبِطوا.. وتخاذلوا!!
- كيف لم تظفروا بغنيمة؟!! ألم نمنح كل رجلٍ منكم دينارين في اليوم.. عدا طعامه وشرابه؟؟! (تساءل المهدي مُستنكِراً.. مُقرِّعاً)
- هذا لا يمثل شيئاً.. في نظرهم؛ إنَّما هو نفقة الرحلة، أمَّا قتال فوارس أشداء محنكين.. كالبربر؛ فتحفِّيزهم إليه.. يتطلَّب ما هو أكثر من الدينارين!!
- وأين ملككم؟؟! ألا يستطيع أنْ يُلزِم جنوده بما التزم به لنا؟! (تساءل مستهجناً)
- قد أَدَّينا ما علينا.. أيها الخليفة.. وقاتلنا البربر في عقبة البقر وهزمناهم، وها قد استعدتم عرشكم، وقد قُتِل في سبيل ذلك الكونت أرمنجو.. والعديد من رجالنا!
- هذا نصرٌ مؤقتٌ.. لو لم نُتبِعه بآخر نقطع به دابر البربر؛ فقد يعودون لقتالنا.. وتهديد ملكنا واستقراره!!

- نحن معك.. أيها الخليفة المهدي.. لن نخذلك! لكن.. لابد أنْ نقدم لفرساننا ما هو أكثر من دينارين في اليوم.. لنُشجِّعهم على القتال والتضحية بأرواحهم، ولابد –كذلك- أنْ تساندوهم بجيوشكم.. كي نُثبِّت قلوبهم وعزائمهم!
- قد حُزتم على ما كان في مِضْرَب[1] سليمان[2] وحدكم.. ولم نشارككم فيه!؟
- ورب موسى ومحمد.. ما كانت غنيمةً تُذكَر!! يا سيدي.. رجالنا ينشدون غنائماً وسبايا تُغريهم بالقتال!
- أنت.. مُماطِل.. أيها اليهودي!! (صاح المهدي مُتأفِّفاً)
- بل.. أنا خادمٌ.. مطيعٌ.. يا مولاي الخليفة!
- اسمع!! سأمنحك.. ثلاثين ألف مثقال.. بشرط أنْ تُقنِع قومسَ برشلونة وفوارسه بالخروج معنا.. للِحاق أولئك البرابر وقتالهم!؟
- هل ترشوني.. أيها الخليفة؟! قد قبلتُ رشوتك؛ لكن.. –كما أقول لك- ينبغي أنْ نُرغِّب الإفرنج في القتال بغنائمٍ عظيمةٍ يغنمونها!!
- سأطلق أيديكم في البرابر من سكان قرطبة، كل بربري في قرطبة حلالٌ لكم؛ دماؤهم وأموالهم ونساؤهم، لا لائمة عليكم فيما تفعلونه فيهم، فما قولك؟؟!
- أمهلني.. حتى أُشاور الكونت رامون.. ثم نُجيب طلبكم!!

انصرف وزير برشلونة.. وارتدَّ المهدي ليتكئ على عرشه، زفر زفرةً حانقة.. وصاح بتبرُّم:

- مرتزقةٌ طمَّاعون.. مُستغِلّون!!
- هل.. حقاً.. ستتركهم يستبيحون بربر قرطبة؟؟! (تساءل واضح باستقباح)
- ليس عندي خيارٌ آخر!!
- لو فعلوا؛ لأثاروا الرعب والهلع.. في كل أرجاء البلد، وهذا سيوغر صدور القرطبيين جميعاً!!

---

[1] : المضرب: هو الفسطاط العظيم.

[2] : يعني: سليمان المستعين.

- كلا!! لا ترتاع لذلك! فالقرطبيون يكرهون البربر.. أنا أعلم بهم منك، بل.. وأزيدك: إنَّ استباحة الإفرنج لهم.. ستشفي صدور كثيرٍ من القرطبيين الموتورين!!
- هذا شيءٌ يثير الاشمئزاز والسخط!! (هتف واضح مُعترِضاً)؛ فأعرض المهدي عن قوله.. واستطرد:
- نُروِّج بين الناس: أنَّ الإفرنج يُطاردون فلول البربر.. وأنَّ مَن دلهم على بربري أو على ماله.. فقد أطاع ولي الأمر، وأنَّ مَن أخفى بربري أو عاونه؛ فإننا منه بَراء!!
- وهل يرضى أهلُ قرطبة بهذا؟!! (تساءل واضح مُنتقِداً)
- سترى أنَّهم يرضون حينما نُبيح لهم الزهراء وذخائر البربر فيها!!
- .... سكت (واضح) سكوت شَجْبٍ وعدم استحسان؛ بينما هتف المهدي:
- ثم.. نُلزِم أهلَ قرطبة بإخراج جيشٍ منهم إلى الجنوب لجهاد البربر ومجالدتهم، واعمل من الآن.. يا واضح.. على أنْ يكون هذا الجيش جيشاً كثيفاً!!

****

-المشهد الثالث والستون بعد المئة-

انقضت بضعةُ أيامٍ على انتصار المهدي وعودته إلى قرطبة؛ مَرَّت تلك الأيام القصيرة في هدوءٍ نسبي، لكن.. ضجَّت الأيام التالية بعدها من العجيج والنحيب والعويل:

فقد أُشيع بين دهماء قرطبة ولصوصها أنَّ الخليفة أباح ممتلكات البربر التي خلَّفوها بالزهراء وغيرها من الأرباض والبوادي؛ فركض النهَّابون إلى الزهراء.. يغتصبونها.

علم فرتونُ بإباحة الزهراء؛ فسال لعابه طمعاً في غنيمةٍ باردةٍ، بينما زهد فيها طرسوس وتعفَّف عنها.. وأجاب صاحبه مُترفِّعاً: "أ بعد أنْ كنتُ حارساً في قصر قرطبة.. أتحوَّل إلى سارقٍ.. وأسطو على الممتلكات؟!!"، يجاوبه فرتون هازئاً: "وما الذي كنتَ عليه قبلُ.. أيها الحارس؟! ألم تكن لصاً مُطارَداً.. يستتر عن صاحب الشرطة في هذا الجبل؟؟!".

- قد كنتُ؛ لا أنكر! وتاب الله عليَّ حينما عرفتُ حمدون.. وصحبتُ الثائر المرواني!!
- وها هو ذا الثائر المرواني –الذي أصبح الخليفة المهدي- يُبيح لك الزهراء؛ فهَلُمّ.. وقُمْ معي.. ننتهز الفرصة، يقولون أنَّ البربر خلَّفوا كنوزاً ثمينة!!
- امضِ وحدك.. يا فرتون؛ فلن أنتهب أموالاً هرب عنها أصحابها!! (صاح حاسماً)
- كما تشاء! سأذهب أنا؛ فإنَّا نحتاج إلى أموال، ولا ندري ما يُخبئه لنا قابل الأيام!!

من بين الذين لم يُضيّعوا الفرصة.. كان ابن الرسان؛ بيد أنَّه لم يركض إلى الزهراء بنفسه؛ بل بعث بعض الفُجار من أتباعه.. وشاطرهم الغنيمة.

في المساء.. عاد فرتون إلى مخبأهما في جبل العروس.. ليطرح غنيمةً هينة بين يدي طرسوس، ثم يهتف بشيءٍ من التندُّم: "كنتَ مُحِقاً.. يا صاحبي! لم أشاهد أحداً هناك سوى الفُساق من النُّهَّاب والزُعّار، ولَمّا لم يجدوا من الكنوز الثمينة التي بُشِّروا بها غير القليل؛ انقلبوا إلى جامع الزهراء؛ فانتهبوا حُصُره وقناديله وسلاسل قناديله وصفائح أبوابه.. حتى مصاحفه لم تسلم من أيديهم، وقتلوا مَن صادفوه هناك من ضعفاء البربر الذين لم يستطيعوا الرحيل مع إخوانهم!!".

- عجبتُ لك.. يا فرتون! تالله.. لا أدري: أ خَيّرٌ أنت.. أم شرير؟!! عَرفتُك لصاً مخادعاً.. ثم ألفيتُك تحرس خمر ابن الرسان بأمانةٍ، ثم انضممتَ إلى الثوار طامعاً في مغانمهم.. وتقرَّبتَ إلى المهدي وحاجبه حتى أمسيتَ ساقي القصر ونديم الخليفة، ثم أخرجتَ ابن الرسان –الذي أذاقك الهوان- من السجن وأعدتَه إلى الحياة مرة ثانية.. ونفرتَ من المهدي وصُحبته؛ فرجعتَ إليَّ.. وأحسنتَ صحبتي، وامتنعتَ عن قتل حمدون.. رغم ما فيه من المغنم، وانضممتَ إلينا في استنقاذ المؤيد.. رغم ما فيه من المغرم، تطمع –صباحاً- في غنيمة الزهراء الباردة؛ ثم تأتي –مساءً- ناقماً على الذين انتهبوها معك.. مستاءً من تجرؤهم على مسجدها!؟؟
- أنا –كما عَرفتَني.. يا صاحبي- رجلٌ مغامرٌ.. تُحرِّكه آماله وطموحاته! على أنِّي لم أرجع خاوي الوفاض، قد جئتُك ببعض الأسلاب التي قد ننتفع بها!

- وأنا قد أَعدَّتُ لك طعاماً شهياً؛ هَلُمَّ إليه!!

****

-المشهد الرابع والستون بعد المئة-

رجعت أم سعدون من السوق.. مُحَوقِلة[1] مسترجعة[2] في تأفُّف؛ بادرتها سيدتها متسائلة باندهاش: "ما خطبك.. يا امرأة؟! لِمَ تتبرَّمين؟!!".

- قد نبَّهتِني ألا أشتري شيئاً أشك في أنَّه من سَلْب الزهراء.. أليس كذلك!؟؟
- بلى!! وهل ترضين.. يا أم سعدون.. أنْ يدخل جوفكِ طعاماً مُغتصَبا؟؟!
- حاشا لله!! إنَّما أحزنني ما رأيتُه في السوق.. يا سيدتي!
- وماذا رأيتِ؟؟
- كنتُ أحسب أنَّ مَن نهبوا الزهراء سيستحون أنْ يُعلِنوا عن أنفسهم ببيعها جهاراً أمام الناس، لكنّي.. رأيتُ غير ذلك؛ رأيتهم يتفاخرون بأسلابهم حتى قناديل جامعها وصفائح أبوابه، ورأيتُ المُشترين يتهافتون عليهم.. ويُزايدون في الأثمان!!
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! ألا مِن آمر بالمعروف.. أو ناهي عن المنكر؟!!
- أحسب أنَّ دهماء قرطبة يفعلون ذلك نِكايَةً في البربر! (قالت سلوان بتألُّم)
- نعم!! قد خيَّمت ظلمات الحقد والشنآن على سماء قرطبة؛ وهي أشد حُلْكَة وقتامة من ظلمات الليل الأسود!! ولا حول ولا قوة إلا بالله!
- ها أنتِ ذي.. تسترجعين.. وتحوقلين حين علمتِ؛ فلا تعتبي عليَّ.. يا أم هشام! (جأرت أم سعدون بتفكُّه)؛ فتبسَّمت سيدتها ضاحكةً من قولها.. ثم تساءلت:
- وأين ولدكِ.. سعدون؟ لماذا لم يرجع معكِ؟!!
- لقي بعض أصحابه في السوق؛ فتَوَسَّل إليَّ أنْ يمكث معهم بعض الوقت، ولَعَمْرِكِ.. وافقتُه على عيني، وإنِّي لأخشى عليه عساكر الإفرنج!!

---

[1] : أي.. تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله.

[2] : أي.. تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

- وما شأنهم.. وأمثال سعدون؟!!
- أ وما تعلمين.. أنَّ أولئك الكفار أصبحوا يمشون في الأسواق والطرقات بحجة أنَّهم يطاردون البربر؛ فيعيثون ويُفسدون ويتجرؤون على الناس والحرمات؟؟!
- وأين صاحب الشرطة؟؟ وأين الحاجب؟!! (تساءلت سلوان بامتعاض)
- صار الإفرنج يجوبون المدينة طولاً وعرضاً بأسلحتهم وأزيائهم المحاربة.. كأنَّما هم شرطة المدينة، يطوفون بالبيوت.. يقتحمونها بحجة التفتيش عن فلول البربر، واستكان القرطبيون لهم؛ فهانوا في أعينهم؛ فلا يُكرِمون شريفاً ولا يُوَقِّرون كبيراً!
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! أ لهذا الحد هانت عِزَّةُ قرطبة في قلوب أهلها؟؟ وحملهم كرههم للبربر على الخنوع والتَذلُّل للأعداء.. بهذا الشكل؟!!
- وأبشع من هذا.. يا سيدتي، قد نُبِّئتُ بأنَّ بعضهم غدا يَشِي بالبربر المُتخفِّين ويفضحهم عند الإفرنج؛ فيكبس العساكر على البربري المستضعف.. ويأخذون ماله وعياله.. ثم يقتلونه والناس ينظرون.. بلا رحمة ولا شفقة!
- أما مِن راشدٍ بين هؤلاء القوم.. يَرُدّهم إلى المروءة والدين؟!!
- لولا أنَّ سيدي حمدون انحبس مع المؤيد؛ لكان له معهم شأنٌ آخر!!
- لهفي عليك.. يا ولدي!! عِرْقٌ زاخر[1].. وحظٌ عاثر! (جأرت أم هشام بتَحسُّر)، فيما تحرَّجت سلوان وأومأت –بشيءٍ من الارتباك- تستأذنهما في الانصراف، رنت إليها أم سعدون وهي تبتعد مُدْبِرة؛ ثم همست في أذن سيدتها:
- أزعم: أنَّها همَّت بالرحيل حين جاء ذكر حمدون، ما الحكاية.. يا أم هشام؟؟!
- قد كاشفتُها -اليوم- بمكنون قلبي.. وقلقي على حمدون، وخَوْفي أنْ يحين أَجَلي.. ولمَّا أفرح بجمع شملهما وزواجهما!!
- أطال الله بقاءكِ.. يا سيدتي؛ لكن.. خيراً فعلتي! بماذا أجابتكِ؟؟! (هتفت متهللة)
- لم تُجب.. يا أم سعدون، إنَّما غشيها الكَدَر.. والتزمت سكوتاً أَوْجَع قلبي!!
- لعلكِ أخجلتها بالإلحاح عليها.. يا أم هشام؛ فآثرت السكوت حياءً!؟

[1]: ذو عرق زاخر: أي صاحب أصل كريم.

- قد عاشرتُها بما يكفي لكي أفهم من عينها ما يجيش بصدرها؛ وإنّي أُجزم أنَّ صمتها لم يكن خجلاً.. ولا حياءً، بل كان سكوتاً آخر.. لم أفهم ما وراءه!!
- لِمَ المكابرة.. يا سلوان؟! وكلنا يعلم أنَّكما متحابان!
- قد عايشتنا قرابة العامين[1]؛ فأكرمناها.. وما أساءنا لها وما آذيناها، وأرغب أنْ أُزوِّجها ولدي؛ فتُماطلني هكذا؟! (جأرت أم هشام بشيءٍ من الاستياء)
- هَوِّني عليكِ.. يا سيدتي؛ قد أبانت جوابها آنفاً.. وقد ارتضينا به!!
- وإلى متى أصبر.. يا أم سعدون.. إلى متى؟! إنَّها تعلم –كما أعلم- أنَّه يتعلَّل بحرصه على المؤيد.. لكي يبقى بعيداً عن الدار حتى تقبل بزواجه؛ فإلى متى أُحرم جِوار ولدي إرضاءً لأنفتها ومكابرتها؟!!
- لا تظلميها.. يا سيدتي! إنَّكِ أعلمنا بها.. وبرغبتها في زواج حمدون، وأنتِ التي قلتِ قبلُ: أنَّها لا تريد الزواج إلا بعد أنْ نعلم كلنا أنَّها حسيبةٌ نسيبة، وأنَّ لها أهلاً وعشيرةً ذوي جاه ومروءة.
- قد علمنا وأقررنا، وها هي ذي قد عاشرتنا وأيقنت بحسن مخالطتنا لها!! ولقد عَلِمتْ أنَّ حمدون ليس أقل منها حسباً ولا نسبا؛ فلماذا التردد والمماطلة؟!!
- ألن نتأنَّى حتى تنتهي من دروس العلم.. كما اتفقت معكِ؟!
- أنى تنتهي دروس العلم.. يا امرأة؟!! قد سئمتُ الانتظار!! أتشوَّق لأنْ أفرح بزواجهما! أخشى أنْ أموت قبل أنْ أرى ذرية حمدون؛ هل في ذلك ظلمٌ لها؟!!
- ليس في لَمِّ شمل المتحابين على شرع الله ظلمٌ!! لكن.. هذا حديث أمٍ أحزنها غيابُ ولدها وشوقها إلى لقائه؛ فأستحلفكِ بالله.. لا تكسري خاطرها.. وخذي بالرأفة لا بالشدة؛ وسيأتي الفرج قريباً.. إنْ شاء الله!

---

[1] : هذه المدة بالضبط: هي عشرون شهراً: من ربيع أول سنة ٣٩٩ حتى الآن نهاية شوال ٤٠٠هـ.

طفرت من عين أم هشام دمعةٌ حزينة، أدركتها.. وأسرعت فمسحتها بكفها، تنهَّدت بإشفاق.. ثم هتفت بتضرُّعٍ: "أستغفركِ.. يا ربي.. من كل ذنب!"، ثم صاحت بتلطُّفٍ: "هيا.. قومي إلى عملكِ.. يا أم سعدون!".

****

-المشهد الخامس والستون بعد المئة-

"ما جديد أخبار حملتنا على البربر.. يا واضح؟؟": هتف المهدي بشيءٍ من عدم الاكتراث.. بينما ابن الرسان –الذي لم يبارح المجلس- يعاود ملء كأسه التي ما انفكت لا تفارق يده، أجابه الحاجبُ (واضح) باهتمامٍ.. وشيءٍ من التوقير:

– قد اجتمع لدينا أعدادٌ كثيرة تربو على الثلاثين ألف من جنودنا ومن المتطوعين من أهل قرطبة والبوادي، كلهم مُتحمِّسون إلى جهاد البغاة.. وقطع دابرهم!!
– بشرى عظيمة!! وهل جهَّزتَهم بالسلاح والمؤنة؟؟
– بلا ريب! ولقد أغدقنا عليهم بأموالٍ زائدة.. زادتهم قوة وحماسة!
– أما مِن أنباء عن.. قومس برشلونة وحلفائنا الإفرنج؟؟
– لم تأتني منهم إشارةُ التمام بعدُ، غير أنَّ عيوني داخل معسكرهم أبلغتني أنَّهم ناشطون في التجهُّز والاستعداد؛ فلا تقلق بشأنهم.. أيها المهدي!
– لك جواسيس في مضاربهم؟! (هتف المهدي باستحسان)، ثم التفت إلى ابن الرسان ليخاطبه مادحاً حاجبه: "هل سمعتَ يا ساقي الخليفة؟؟ هذا هو القائد الحق، هذا هو الحاجب الذي نطمئن على ثبات مُلكنا في حمايته!!".
– إنَّما أنا تابعكم الأمين.. أيها المهدي! (جأر واضح بتواضع)، حالما ولج إلى المجلس حاجب الباب ليهتف بتعظيمٍ وتوقير:
– سيدي الخليفة! وزير مملكة برشلونة يستأذن في المثول بين يديكم!
– هذا اليهودي دائماً يحضر في وقته!! (صاح المهدي مازحاً)، ثم أشار: "أدخله!".

دلف الوزير الإفرنجي إلى المجلس.. في وقار وتؤدة.. وقد تأنَّق في أبهى ثيابه، انحنى بين يدي المهدي تحيةً وإجلالاً، ثم سلَّم على الحاجب (واضح).. وتَعَمَّد إهمال الساقي، أومأ المهدي آذناً له بالقعود.. ثم بادره هاتفاً:

- ماذا وراءك.. يا (أليازار)؟؟ بشِّرنا بتمام استعداداتكم لملاحقة البربر!
- أبشر.. يا سيدي الخليفة.. بما يسرك! قد استكملنا الاستعدادات وتهيَّأ للخروج زهاء التسعة آلاف مقاتل إفرنجي؛ لكن.. بقي شيءٌ صغيرٌ.. قبل الخروج!
- وما ذاك؟؟! (تساءل المهدي بارتياب)
- القوم يلتمسون أنْ تمنحهم أُعطياتهم مقدماً.. قبل الارتحال إلى لقاء البربر!
- ماذا؟!! ألم يكفيكم كل ما أخذتموه؟!! ألم أمنحك أنت وحدك ثلاثين ألف مثقالاً؟!! (صاح المهدي مستاءً)، فيما تطلَّع الوزير إليه مُتصنِّع الخضوع:
- يا سيدي!! كان الفرسان عازفين عن الحرب.. يطالبون بالرحيل إلى بلادهم، أما الآن فإنَّهم مستعدون للقتال وللتضحية بأرواحهم من أجلكم، فلا تستكثر عليهم منحهم أعطياتهم مسبقاً؛ فإنَّك أنت الملك الكريم.. ذو الرأي الحكيم!!
- صدق القائل: (أطعمهم الكُراع؛ يطمعوا في الذراع)، ومَن ذا الذي يضمن لي ولاءهم.. وعدم تراجعهم بعد أنْ يملكوا أُعطياتهم؟؟!
- أنا أضمنهم لك.. أيها الخليفة!!
- أنت؟!! غير كافٍ!! (هتف باستهزاءٍ حانق)
- ويضمنهم لك –أيضاً- طمعهم في الغنائم الوفيرة التي سيغنمونها في المعركة!
- كلا! عندي رأيٌ آخر: سأجمع أعطياتكم –كما ترغبون- وسأخرج بها معكم؛ لكن.. لن أهبكم إياها إلا في ساحة الحرب!
- هل الباعث على هذا.. هو عدم الثقة في وفائنا بالعهد؟؟! (تساءل بامتعاض)
- لا تفهمها هكذا؛ لكن.. قل: إنَّها لإثبات الجدية في القتال!
- لك ما تشاء.. أيها الخليفة!

وَلَّى الـوزير اليهـودي مُفارِقـاً المهـدي يتلظَّى تغيُّظـاً مـن انتهازيتـه واسـتغلاله، في حـين يتنحنح الحاجب ويستأذن في الكلام.. ثم يقول:

- سيدي!! بصفتي حاجب الخلافة.. فإني مضطر لمصارحتك بأننا لا نملك –بعد ما أنفقناه على إعداد الحملة- ما يكفي لأعطيات أولئك المرتزقة، وكنّا نُعوِّل على تأجيلها إلى ما بعد موسم الحصاد وتحصيل الخراج إلى خزينة القصر!!
- فما العمل.. إذاً؟!! هل نستدين من أثرياء قرطبة وتجارها.. مرة ثانية؟؟
- كما تعلم.. يا سيدي.. جميعهم مثلنا يترقَّبون موسم الحصاد، ولا أظنهم يقدرون –الحين- على جمع كل هذه الأموال!!
- هـل يـأذن لي أميرُ المـؤمنين.. في الإدلاء بـالرأي؟؟ (هتـف ابـن الرسـان مُتصـنِّعاً الخجل)، يرمقه الحاجب باستخفاف.. حالما يجيبه المهدي مازحاً:
- لا بأس! إدلي بدلوك؛ عسى أنْ تأتينا الحكمة من فمك.. (المخمور)!!
- نستدين من مال الأحباس المُودَع في مقصورة الجامع!
- بمـا تهـذي.. يـا هـذا؟؟! (صـاح الحاجـب باسـتهجان)، فيمـا لبـث المهـدي –برهـة- صامتاً مُتفكِّراً، ثم هتف متسائلاً.. وكأنَّه استحسن ذاك الرأي:
- وهل يرضى قاضي القضاة (ابن ذكوان).. بذلك؟!
- ولِمَ لا؟؟! أليسـت هي أمـوال قرطبـة التي تصـدَّق بهـا أثرياؤهـا للمصلحة العامـة، وهل أصلح للبلاد من الإنفاق على جهاد الأعداء!!
- أصبتَ.. يا ابن الرسان! بخٍ بخٍ بعقلك الداهية!!

****

-المشهد السادس والستون بعد المئة-

هرعـت أم سـعدون إلى دار سـيدتها لتصـيح باضـطراب: "هـل علمـتم آخـر الأنبـاء؟؟!"، جاوبتها أم هشام بنوعٍ من الرهبة والوَجل: "هاتِ ما عندكِ؛ عسى أنْ يكون خيراً!!؟".

- وأنى يأتي الخير.. في مثل هذا الزمان؟!!
- أَقْصِري.. يا امرأة، لا تسُبّي الدهر؛ إنَّما هي آثام الناس.. لا عَيْب الزمان!
- أجل.. يا سيدتي.. هي آثام الناس! هل توقَّعتِ أنْ يصل بهم الإثم إلى أنْ يكسروا باب مقصورة الجامع وينتزعوا منها أموال الأحباس والصدقات؟!!
- يا ويلي!! أعوذ بالله! مَن أولئك الفُسَّاق الذين يتجرؤون على هذه الفِعْلَة؟؟!
- يزعمون أنَّ وَليَّ العهد استماح قاضي القضاة أنْ يُقرِضه أموال الأحباس ليسترضي بها الإفرنج حتى يخرجوا معه لملاحقة البربر؛ فامتنع عليه القاضي، ثم هجم أُناسٌ من الدهماء على المقصورة.. وأخذوا الأموال ودفعوها إلى الإفرنج!
- لا حول ولا قوة إلا بالله! هل يصل بنا الجهل والتَجرُّؤ على محارم الله إلى هذا الحد؟! كيف يستجيب لدعائنا إذا سألناه النجاة من الفتن؟؟!
- وأولئك الإفرنج الجَشِعون؛ أما كفاهم ما سلبوه من بربر قرطبة طيلة الأيام الماضية؟! (تساءلت سلوان باستياء)؛ فأجابتها أم سعدون مُتحسِّرة:
- وما سَلِم منهم غير البربري؛ وليست حكاية بنت أبي عَبْدة.. منا ببعيد!!
- حقاً!! ماذا صنع الرجل المسكين؟؟ ألم يستعد الفتاة من هؤلاء الملاعين؟؟
- أخبرتني جارتنا (أم مروان) –وهي أخت أبي عبدة-: أنَّه -بعد أنْ خطفوا ابنته الوحيدة- هرع إلى الحاجب يستغيث به ومعه شهادة من عريف الربض أنَّه ليس بربرياً؛ فما أنصفه الحاجب؛ بل قال له: لا تتكلم في شيء، لقد عاهدناهم على هذا؛ وما إلى رَدِّها من سبيل!! (قالت أم سعدون)
- أخزاه الله! هل هذا هو حاجب الخليفة الذي يرعى الحرمات والدين؟!! (هتفت أم هشام بتسخُّط واستنكار) حالما تساءلت سلوان بتلهُّف:
- لا حول ولا قوة إلا بالله، وماذا صنع ذلك الأب المكروب؟؟!
- لم يجد غير أنْ يذهب إلى خاطفيها –في محلتهم- ليؤكد لهم أنَّه ليس بربرياً.. وأنَّ بنته ليست بربرية، ويتوَسَّل إليهم باكياً أنْ يردُّوها إليه؛ فأبوا إلا بفداءٍ قدره: أربعمائة دينار، وأمهلوه يومين، وينبغي أنْ يكون قد جمع لهم ذلك المال.. اليوم!!

- أركسهم الله وأخزاهم.. أولئك العلوج الكفار!! (صاحت أم هشام حانقةً مُتوجِّعة)
- أركسهم وأخزاهم.. وأخزى مَن جَلَبَهم علينا!! (ردَّدت أم سعدون بتغيُّظ)
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! كيف تَردَّى بنا الحال هكذا؟!! (جأرت سلوان بحسرةٍ وإشفاق)، بينما قطع حديثهن أصواتُ صراخٍ ونحيب تتعالى.. قادمة من خارج الدار؛ تطيَّرت أم هشام.. وجأرت بانزعاج:
- ما هذا الصراخ؟؟ اللهم.. لُطْفاً! انهضي.. يا أم سعدون؛ فانظري: ماذا هنالك!!
- إنَّها جارتنا.. (أم مروان)؛ إنّي أُمَيِّز صوتها من وسط المئات!! (هتفت أم سعدون.. وهي تهمُّ بالقيام)، حالما صاحت سلوان بلهفةٍ ووَجل:
- وا كرباه!! لهفي على الجيران؛ ما الذي أصابهم؟!!

خرجت أم سعدون تتكفَّأ في مشيتها من الذعر، تسعى خلفها أم هشام مُتوكِّئة على ذراع سلوان؛ فأبصرنَّ الجارة (أم مروان) تحثو التراب على رأسها وتبكي وتولول، والنساء حواليها ينتحبنَّ.. والرجال مضطربون.. يضربون كفاً بكف حيرةً وغماً.

تساءلت أم سعدون بهلعٍ: "ماذا جرى.. يا أخوات؟؟ ماذا أصابكِ.. يا أم مروان؟!!"؛ بيد أنَّه.. ما من مجيب حاشا النشيج والنحيب، وصرخات أم مروان تدعو: "محقهم الله.. كما قتلوه!!".

استنبطت أم هشام من همهمة المُتحلِّقين حول المرأة المفجوعة: (أنَّ أخاها انطلق بالفدية إلى خاطفي ابنته؛ فانتزعوها منه وامتنعوا عن رَدِّ الفتاة، فلمَّا غضب وشغب: تَكَبْكبوا عليه.. يضربونه حتى أهلكوه، ثم ألقوا جثته على قارعة الطريق!)، طفقت تُقلِّب كفيها على ما آل إليه حال البلد وأهلها.. وتهمس في ذهول: "ويح أهل قرطبة! يُقتَل الرجل ظلماً –بين أَظْهُرهم- بعد أنْ تُخطَف بنته الوحيدة ويُغتصب ماله؛ ولا يحركون ساكناً!!؟ أين المروءة؟! أين النخوة والحميَّة؟!".

خشعت الشمس.. وخشعت الأصوات ما خلا نحيب أم مروان.. ونواحها الذي لم يهدأ، وتفرَّق عنها الناس عدا أم هشام التي قعدت إلى جوارها تحاول مواساتها؛ غير أنَّها

عجزت عن تعزيتها: (كيف العزاء؟! وكيف التصبُّر على مصيبةٍ أصابتنا بما قدمت أيدينا؟!)، وعلى مقربةٍ منهما اِنْهَدَّت سلوان تسكب العَبَرات تألُّماً لفاجعة جارتها وأخيها.. وتحسُّراً على مصيبتها في قرطبة وأهلها: (حتى جيران الربض تَوَلّوا عن مواساة المرأة البائسة.. كأنَّما يخافون سخط الإفرنج أو بطشهم؟!!).

****

-المشهد السابع والستون بعد المئة-

أقبل الحاجب (واضح الصقلبي) يستأذن في الولوج إلى إيوان وليّ العهد ليُبشِّره هاتفاً: "انطلقت الطليعةُ؛ وننتظر سماحك بخروج بقية الجيش.. أيها المهدي!".

- مرحى.. مرحى! بارك الله في همتكم! ولينصرم الجيش فوراً.. بلا تأخير ولا تباطؤ!!
- على الرحب.. يا سيدي! (هتف واضح مُنتشياً)
- وحلفاؤنا الإفرنج؟؟ ما حالهم؟؟!
- قد أتمّوا التجهُّز؛ وسينطلقون خلال سويعاتٍ!
- أجل! وسأخرج معكم –أنا أيضاً- يا واضح! قَسَماً بكل الأيمان.. لا أستقر حتى أفرغ من أمر أولئك البرابرة الملاعين!!
- إإذن لي.. يا سيدي؛ إنَّ لدى مهاماً عديدةً لازمة لخروج الجيش!!
- هيا.. امضِ لعملك.. على بركة الله!

*****

بينما يضع الوزير (أليازار) اللمسات الأخيرة تمهيداً للنفرة؛ إذ استأذن ابنُ الرسان في الدخول عليه، سمح بولوجه.. واستقبله ببشاشةٍ وهو يهتف مازحاً:

- مرحباً.. بصديقي المسلم (اليهودي)، ما حاجتك.. يا ساقي الخليفة؟؟

- مرحباً.. أيها الوزير! لا حاجة لي غير توديعك.. وتمني السلامة لك! (جأر ابن الرسان بنبرةٍ خانعةٍ مُنكسِرة)، تطلَّع إليه الوزير مُتفرِّساً.. ثم هتف مُستفهِماً:
- لعلك وَجَدتَ عليَّ حينما تجاهلتُك في مجلس المهدي ؟!!
- كنتُ أحسب أنّي أقرب لك من أنْ تتجاهلني.. كما فعلتَ في تلك الأمسية؛ لكن.. يبدو أنَّ تقديراتي خاطئة، وأنَّك تحتقر شأني.. على غير ما ظننتُ!!
- لا تُسيء الظن بي.. يا صديقي؛ فإنَّ قدرك عندي عظيم، غير أنّي تعمَّدتُ غض الطرف عنك لكيلا يفطن أحدهما للوشيجة التي بيننا!!
- وما يضرك في معرفتهم بتلك الصلة ؟!! إلا أنَّ تعدها مَثْلَبةً تُسقِطك في أعينهم!؟ (هتف مُعاتِباً مُتأوِّهاً)، ابتسم الوزير بتلطُّف.. ثم همس:
- لا تظلمني.. يا رجل! إنَّما أحبذ أنْ تبقى المحبة بيننا خافيةً عن أولئك الأغبياء!
- ولِمَ نسترها عنهم ؟!! إني أحب أنْ أتفاخر بينهم بصلتي بوزير برشلونة!
- إنَّك تضطرني إلى مصارحتك بما اعتزمتُ عليه؛ فلتعاهدني أنْ يظل سراً بيننا!
- أُعاهدك على هذا؛ فقل ما شئتَ!!
- أقول لك: جِيءَ بي إلى قرطبة في صباي؛ فبهرتني أضواء حضارتها وعلمها ونضارة أهلها وثرائهم، عشتُ فيها أجمل أيام شبابي، وحسدتُ أهلها على تلك النعم التي يتنعمون بها؛ وإنَّهم غير جديرين بها، وبعدما رحلتُ عنها.. كم راودتني الأحلام والأماني بأنْ أرجع إليها.. وأنْ أكون صاحب النفوذ عليها، وها قد واتتني الفرصة؛ فلن أُضيّعها، لذا فإني أريد منك أنْ تتعاون معي.. وتكون عيني على الخليفة والقصر حتى أصل إلى غايتي!!
- إذا كنتَ صادقاً في عزمك.. وتُفتِّش على مَن يؤازرك ويشدُّ عضدك؛ فأُبشِّرك.. قد عثرتَ على ضالتك، أنا لها، بل.. وأُصارحك.. كما صارحتني: إنّي أبغض قرطبة وأهلها، وأتمنى –مثلك- زوال النعمة عنهم!!
- ها نحن أولاء قد تآلفنا! ولا ترتاع على مكسب يضيع أو من خسارة قد تصيبك؛ فإني أعدك بجزيل العطاء مني خاصة.. وممَن هم ورائي وعلى مثل مذهبي!

- هل يوافقك أحدٌ من الإفرنج؟؟! (تساءل ابن الرسان باستبشار)، ربت الوزير على كتفه.. ثم همس بنبرةٍ عميقة:
- ستعلم كل شيءٍ في حينه.. يا صديقي، والآن.. هيا.. انصرف، ولا تكشف أمرنا أمام أحدٍ منهم أبداً، ولستُ بحاجة لأنْ أُعرّفك أنْ في كشف السر هلاكك المُحَتَّم!
- سِرك لا يفارق جوفي حتى تفارقه روحي، على أنَّ لي رجاءً قبل أنْ أغادر مقامك!؟؟
- وما ذاك؟؟ (تساءل باهتمام وعناية)
- قد كنتُ -على عهد شنجول- من أترف تجار قرطبة، ولمَّا ثار عليه المهدي وتسلَّط هو وأعوانه.. حبسني أحدُهم وأذاقني العذاب والهوان.. وسلبني مالي؛ فإني ألتمس منك أنْ تساعدني كي أسترد مالي.. وأنتقم ممَن ظلمني!!
- لا أريد أنْ أجاهر بمعاداة المهدي ورجاله لغير حاجة؛ على الأقل.. في المستقبل القريب، فلا تفتعل خصومة.. تستنفد طاقتنا ولا تحقق مآربنا!
- اطمئن! لن تضطر لإظهار عداوة المهدي أو حاجبه (واضح)، بل.. ستَعُمُّك فائدةٌ عظيمة إنْ أنت ساعدتني في استرداد أموالي.. وهي كثيرة!!
- مَن ذا الذي سلبك مالك.. وحقدت عليه كل هذا الحقد؟؟!
- إنَّه (عبد الجبار بن المغيرة المرواني)!!
- هذا الذي كان حاجباً.. قبل (واضح)؟؟
- أجل.. هو! وكما تعلم: قد نبذه المهدي.. ونزع عنه كل سلطاته؛ غير أنَّه لم يسلبه أمواله الوفيرة، وأنا أريدها.. فهي حقي؛ ولن أتنازل عنها!!
- وكيف أساعدك في استرداد تلك الأموال؟؟! وما هو ربحي من هذه الصفقة؟؟
- إيْ.. وربك.. إنَّها لصفقة!! أَعِني بنَفَرٍ من فوارسك الأشداء.. اقتحم بهم دار عبد الجبار؛ وسأضع بعدها ثروته السخية بين يديك!!
- إنَّ أهل قرطبة قد سئموا اجتراء جنودنا عليهم؛ وأُفضِل ألا تُحدِث ما يؤذيهم ونحن زاحفون إلى الحرب!!
- ليس تحت سماء قرطبة رجلٌ يبغضه أهلها أكثر من عبد الجبار.. هذا!

- لكنّه.. ما زال أميراً مروانيً؛ فلن يرضى المهدي.. ولا أهل البلد أنْ يقتحم الإفرنج داره وينهبوا ماله!؟ عذراً.. يا صديقي؛ لا يمكن أنْ أغامر لأجلك هذه المغامرة!
- ثِقْ.. أيها الوزير.. أنَّها صفقةٌ رابحة؛ أنا متأكد أنَّ عبد الجبار يكنز أموالاً كثيرة! (جعل يحضُّه بإلحاحٍ وتوسُّل)، فربت الوزير على كتفه.. وهتف حاسماً في حزم:
- اسمع.. يا ابن الرسان! لن ينهب لك رجالي دار عبد الجبار هذا، على أنّي سأوصي (رامبون) برعايتك وحفظك في غيابنا! هذا نهاية القول.. يا صديقي!
- ومَن.. (رامبون).. يا سيادة الوزير؟؟
- هو أحد فرساني الأوفياء؛ سأترك تحت رئاسته فرقة من الحرس لحماية مَحِلَّتنا هذه حتى نعود من حملتنا!!
- عُدتُّم.. سالمين.. ظافرين.. يا سيدي!! (جأر بنبرة دعاءٍ ضارعة)؛ ثم تمتم بصوت خافت: "أما أنا.. فلن أعجز عن استرداد حقي المغتصب؛ ولو بدون مساعدتك!".

****

-المشهد الثامن والستون بعد المئة-

انفصل الجيش العرمرم عن قرطبة عابراً نهرها إلى الجنوب.. بما احتواه من سلاحٍ وكراعٍ ومتاعٍ وذخائر، وبمَن استوعبهم من المحاربين الزاخرين بالحيوية والحماس: بضعة مئات من جنود الثغور وفوارسها الأشداء بزعامة قائدهم (واضح الصقلبي) وفتاه (بليق)، وكتائب كثيفة الآلاف من متطوعي قرطبة وما حولها من بوادي وأحواز.. وعلى رأسهم (المهدي) نفسه، وبضعة آلاف من المرتزقة الإفرنج.. يقودهم (قومس برشلونة) ووزيره اليهودي.

بدأ الزحفُ.. يسوقه حماسُ المتطوعين لجهاد البرابرة البغاة، وتحدوه مطامعُ المرتزقة في غنائمٍ وأسلابٍ.. قد تغنيهم بقية الدهر عن المغامرة بالنفس والروح في معاركٍ تهب المجد للملوك والموت للجنود.

بُثَّت الطلائع والعيون تجوب نواحي وأحواز الجنوب.. تترصد شراذم البربر الهاربة.. ولسان حالها يخاطب الفارين: (وَيْلَكم! إلى أين تفرون؟؟ لا منجى لكم من قبضة المهدي وجيشه الجَرَّار! لن نبرح نطاردكم حتى نقضي عليكم.. ونقطع نسلكم!!).

بلغت أخبار الجيش الزاحف إلى زعيم البربر (زاوي بن زيري)؛ فنادى قادة فرسانه.. واجتمع بهم في فسطاطه، بدأ الحديث قائلاً بجدية: "كنا قد حزمنا أمرنا.. وعزمنا على هجرة الأندلس إلى عدوة المغرب؛ وها نحن أولاء في طريقنا إلى الجزيرة الخضراء.. لنعبر بلا رجعة، لكن.. أبى فرعون (يقصد المهدي) إلا أنْ يُرسِل في المدائن حاشرين، وأشار إليكم صائحاً: إنَّ هؤلاء لشرذمةٌ قليلون.. وإنَّهم لنا لغائظون.. وإنَّا لجميعٌ حاذرون؛ فحشَّد عليكم المرتزقة والمتطوّعة.. من كل حدب وصوب، وتعلمون أنَّهم سيدركوننا، ولا سبيل للعبور قبل الصدام؛ فماذا ترون.. أيها الشُجعان؟؟".

- أرى أنْ نُعجِّل السير إلى وجهتنا حتى نعبر البحر قبل أنْ يُدركونا؛ فإننّا أقل منهم عددا.. وأخف حملا، وهذا أليق بالفرار.. لا بالمواجهة! (قال عبد الواحد)
- وإذا عبرنا؛ إلى أين نذهب؟؟! هل تظنُّ أنَّ فرعون وهامان (يعني: (المهدي وواضح) وجنودهما سيتركوننا –بعدها- وشأننا؟؟! ألن يؤلِّبوا علينا ملوك المغرب؟؟! (تساءل الشيخ بكياسة)
- إذاً.. لا محيص عن المواجهة والصدام!! (صاح حباسة بتوتر)، حالما تنحنح أخوه (حبوس).. ثم هتف مُشجِّعاً ومُبشِّراً:
- لتكن المواجهة.. يا سادة! ولِعَمْرُك.. إنّي متفائلٌ.. يا شيخ البربر! وأقول لك: أبشر.. يا عماه! قد قال الله في فرعون وجنوده: {كم تركوا من جنات وعيون، وزروع ومقام كريم، ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثنها قوماً آخرين} (الآيات: (٢٥: ٢٨) سورة الدخان)، فأبشروا.. إنْ شاء الله؛ فنحن الوارثون!!
- وكيف تكون المواجهة.. يا ابن ماكسن؟!! وكما علمتم: إنهم يفوقوننا بكثير.. عدداً وعدة!! (تساءل عبد الواحد بن بلقين بنبرة تشكيك)
- كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله! (جأر حباسة مُعَضِّداً رأي أخيه)

- هذا هو الحق الذي لا مراء فيه؛ لكن.. كيف ستكون الغلبة؟؟ هذا ما ينبغي التفكُّر فيه.. والتخطيط له!! (هتف زعيم البربر)
- أرى –يا شيخنا- أن نسعى إليهم، ونجدهم.. قبل أنْ يعثروا علينا!!
- كيف ذلك.. يا حباسة؟؟!
- أقول: إذا كنا قد عزمنا على المواجهة والصدام –ونحن أقل عدداً وأضعف عدة- فإنَّ الأصلح لنا أن نبادر ونختار أرض المعركة التي تناسبنا قبل أنْ يفرضوها هم علينا!
- رأي سديد! إلى أين تنصح أنْ نذهب؟؟!
- نلجأ إلى قلعة (بُبَشْتَر)[1] ونمتنع بها عليهم.. فهي حصينة منيعة، ومنها نرسل عليهم السرايا تُرهبهم وتستنزف طاقتهم وقوتهم!
- يُعجبني هذا الرأي!! (صاح أخوه (حبوس) بحَمِيَّة)
- ما قولك.. يا عبد الواحد بن بلقين؟؟! (تساءل زعيم البربر)
- إنْ أبيتم إلا المواجهة والحرب؛ فهذا رأي حسن، وأنا معكم!! (أجابه عبد الواحد)
- على الله توكلنا، وبركته نسير.. إنْ شاء الله! (جأر زعيم البربر مستبشراً)

****

-المشهد التاسع والستون بعد المئة-

فزعت سعدى إلى نجوى.. تستنجد بها هادرة: "أغثيني.. يا أختاه! هذا الرجل المجنون.. سيقتلنا إنْ لم نجلب له الخمر.. التي يشتهي!!".

- وَيْح.. السِكّير.. المخمور! أين.. هو؟؟!
- في المجلس، يدور كالثور الجريح.. يصرخ ويزبد، أدركيه.. قبل أنْ يُحطِم الأثاث!

[1] : هي قلعة حصينة تقع في جنوب الأندلس (شمال مالقة)، وكان القوطي: عمر بن حفصون قد اتخذها قاعدةً له في ثورته على أمراء قرطبة ما بين عامي: ٨٨٠م إلى ٩١٧م.

هرعت نجوى إلى مجلس سيدها، من وراء الباب.. نما إلى مسامعها صراخه يزأر مستشيطاً: "تعساً لكِ.. يا أمة السوء! أين الخمر.. يا غبية؟!!"؛ تأفَّفت هاجسةً في نفسها: (بل.. تعساً لك أنت.. أيها السيد.. الكَلّ على إمائه!!).

طرقت البابَ طرقاتٍ خفيفة، ثم دخلت إليه؛ فألفته يذرع المجلس يمنةً ويسرة.. ثائراً مضطرباً، شعر بها.. فالتفت زاعقاً في هِيَاج.. وهو يُلوّح بالكأس:

– أين الخمر.. يا نجوى؟ الكأس فارغة!!
– قد نفدت الخمر من الدار.. يا سيد عبد الجبار!
– نفدت.. كلها؟!! هل خَوَّت كل زِقَاق[1] الدار.. وجِرارها؟! (تساءل مرتاباً مغتاظاً)، فأجابته بنظرة تحدٍ باردة.. ثم قالت:
– نعم.. يا سيدي! لم يبق في الدار.. قطرةٌ واحدة!!
– بؤساً لك.. يا جارية السوء! كيف تتركيني –هكذا- بغير شراب؟؟! قسماً بقبر أبي.. لأُعذبنّكِ عذاباً شديداً!!
– ألا تستحي.. أيها الكَلُّ! لم يبق في الدار كسرةُ خبزٍ.. نُطعِم بها أمك المريضة؛ وأنت ترغي وتزبد صارخاً للخمر التي أذهبت عقلك ورشدك!؟
– كيف تُخاطبيني هكذا.. أيتها الأمة الخبيثة؟! تالله.. لأؤدبنَّكِ!!

حملقت إليه بعيونٍ يملأها الحنق والتحدي.. ولم تعبأ بالردِّ عليه، مُتثاقلاً.. نهض إليها رافعاً يده ليصفعها على وجهها؛ فلم تهابه.. ولم تَرمِش له عينها الجريئة.

قبض يده.. ونكص عنها، ثم خرَّ قاعداً.. وأطرق واضعاً رأسه بين كفيه في استكانةٍ وخَوَر، رنت إليه –وهو غافل عنها- آسفةً، متسائلةً في خاطرها: (كيف انقلب الحاجب المرواني المخيف.. إلى هذا المسخ الخنوع الضعيف؟!! هل كانت شكيمته من منصبه؛ ففقدها بخسارته؟!)، (بئس الرجل.. ذاك الذي يستمد شكيمته من منصبٍ يأتي

---

[1] : زقاق: مفردها زق: وهو وعاء من الجلد يجز شعره ولا يُنتف.. يجعل للشراب.

ويزول.. فتزول معه قوته وهيبته!!).

رفع بصره إليها؛ فأبصرت الدمع يتلألأ في عينيه الحمراوين.. والعرق يتصبَّب على وجهه الشاحب المُكتَئِب، تَغَضَّنت شفتاه ليهمس بنبرةٍ خاضعة مُسترحِمة: "نجوى!! أسعفيني؛ الغثيان والصداع يقتلاني! أرجوكِ.. اعثري لي على خمرٍ.. بأي وسيلة!!".

رمقته بنظرةٍ شفيقةٍ مُتحسِّرة، غير أنَّها تعمَّدت أنْ تقسو عليه؛ فخاطبته مُبكِّتةً:

- وهل أحرزتَ ثمن زِّقِّ الخمر الذي تَنْشُد.. أيها السيد؟؟! الدار خاويةٌ من الطعام، ولا نملك مثقالاً نحوذ به على كسرة خبز.. لأمك البائسة!!
- دبِّري الأمرَ.. كما كنتِ تفعلي الأيام الماضية! (هتف بنبرة خنوع.. زادها وجع الرأس وهناً)، استشاطت من لامبالاته؛ فصاحت تُقرِّعه:
- أ تدري: كيف كنتُ احتال لطعامنا.. طيلة الأشهر السالفة.. يا سيد عبد الجبار؟؟

رمقها بعينٍ زائغة وقسماتٍ مُتألِّمة، غير مكترث بمعرفة الجواب؛ فاستأنفت هاتفة:

- كنتُ أدور على البيوت.. أشحذ أوساخ[1] الناس.. لأُطعم أمك!!
- .... رمقها بنظرة لامبالاة جامدة باردة؛ فصرخت حانقة:
- كنتُ أستجدي الصدقات من فاطمة المروانية؛ فكانت تجود علينا وتُطعِمنا!

انتبه لَمَّا ذكرت فاطمةَ المروانية، وحدجها بنظرة عتاب مستريبة، ثم همس مُتبرِّماً:

- أ ما وجدتي غير تلك المرأة؟؟ أ ما وجدتي.. غير جدة حمدون بن هشام؟؟!
- هل هذا –فقط- ما يعنيك؟؟ ألا تبتئس للحال التي تركتنا عليها؟!! أ كنتَ تقبل أنْ نشحذ على أمك من أحدٍ.. غير فاطمة؟!!
- اصمتي.. يا جارية.. قَبَّحَكِ الله! (نهرها بامتعاض)، ثم سَكَتَ مُتفكِّراً.. وكأنَّه طافت بخاطره ذكرى سلوان؛ فاستطرد صائحاً بكبرياءٍ مُتصدِّع:

---

[1] : أوساخ الناس: أي صدقاتهم.

- استدعي لي.. ابن الرسان.. حالاً!!
- أفٍ لك! أ بعد كل ما نبَّأتُك به لا تكترث إلا لكأسك الفارغة؟؟!
- لا تُجادلي.. يا جارية، وانطلقِ الآن.. هيا!!
- هل تطمع أنْ يتفضَّل عليك هذا اليهودي.. بالخمر التي تشتهي؟!!
- وَيْحكِ! إنّكِ لا تدركينَّ؛ بل.. أرجو منه ما هو أعظم!!

****

-المشهد السبعـــــــــــون بعد المئة-

كَبَتَت نجوى غيظها، وكَتَمَت أنفاسها، وكَوَّمَت جسدها داخل ملحفتها.. وانطلقت إلى دار ابن الرسان تستحضره.. إذعاناً لإلحاح سيدها.

- مرحباً بكهرمانة دار الحاجب (عبد الجبار)!! (لقيها باشّاً مُحتفِياً)
- ألا تعلم؟!! قد نحَّاه المهدي عن الحجابة! (هتفت هازئة)
- لكنَّكِ.. ما زلتِ الكهرمانة، أليس كذلك؟؟ (همس بملاطفة)
- وما شأنك أنت: إنْ كنتُ الكهرمانة.. أم محض خادمة؟؟! (جأرت باستخفاف)
- هل لي أنْ أعرف سبب زيارتكِ الكريمة.. لبيتي المتواضع؟؟
- كل هذا التَرَف.. وتقول: بيتي المتواضع؟! إنَّه أبهى من بيت عبد الجبار.. ذاته!! (صاحت منبهرة.. وهي تتلفَّت حواليها بإعجاب وتعجب)
- هذا رجلٌ شحيح.. يبخل على نفسه وأهله؛ أما أنا.. فلا أبخل! (هتف بخيلاء)
- انتبه! لا تذكر سيدي –أمامي- بسوء!! (هتفت تُمازحه.. بنبرة تحذير مُفتعلة)
- عفواً.. لم أقصد الإساءة، على أنّي أتساءل حائراً: ما سر تمسُّك جاريةٍ مليحة مثلكِ بالخدمة في دار هذا الرجل القتور؛ ولا سيما بعد أنْ تَوَلَّت الدنيا عنه؟!!
- إنَّه سيدي؛ وحسن الوفاء يُحتِّم عليَّ ألا أتخلى عنه.. في محنته!!
- يا للخسارة! كنتُ أحسبكِ أعقل من ذلك، زمن الوفاء وَلَى.. يا عزيزتي!!

- إيلاما ترمي بكلامك هذا.. يا ساقي الخليفة؟؟!
- لم أعد ساقي الخليفة وحدي.. يا جارية؛ وإنَّما يزاحمني على كأسه (ابن عيسى).. ذاكِ الديوث الداعر.. وجواريه الخليعات!!
- هذا لا يعنيني! ما يعنيني: هو ما الخسارة في وفائي لسيدي؟؟! افصح عما تريد!
- فقط.. وددتُ القول: أنّي أرى بعين فراستي -تحت هذه الملحفة الخَشِنة الكئيبة- فتاةً بضة نضرة.. تحمل في جوفها روحاً مرحة، لو تَخلَّت عن وفائها الأحمق.. وانتبهت لجمالها؛ لانفتحت لها أبواب السعادة على مصاريعها.. وأنا زعيمٌ بهذا!!
- أصبت.. يا رجل! إنّي أحمل في جوفي روحاً مرحة، وأيضاً.. أحمل في فمي لساناً يلذع، وفي قدمي نعلاً يُوجع؛ فاحذرهما.. واتق شري خيراً لك!
- على هَوْنِكِ! إنَّما كنتُ.. أُمازحكِ! ها.. لماذا بعثكِ سيدكِ.. إليَّ؟؟
- إنَّه يلتمس منك أنْ تأتيه.. الحين!!
- الحين؟؟! هل يظن أنَّه ما زال حاجب الخليفة؛ يستدعينا فنسمع ونُلبِّي؟!! ارجعي إليه.. فقولي: السيد (ابن الرسان) مشغولٌ؛ فانتظر ريثما يفرغ لك!!
- أقولها له.. وهو على الحال التي فارقتُه عليها؟!! لَعَمْري.. لو قلتُها.. لدَقَّ عنقي!!
- وما حاله التي فارقتِه عليها؟؟! (تساءل ساخراً.. غير مُكترِث)
- نفدت الخمر من الدار؛ فلم يشرب من الأمس، وتركتُه غضباناً.. كأنَّه يُصارع الشياطين، ويطلبك على وجه السرعة!!
- افتقاد الخمر.. هو سر حاجته إليَّ.. إذاً؟؟!
- كلا! قال: أنه يريدك لغرضٍ آخر؛ ولم يفصح عنه، وقد خلَّفتُه يرقُبك على أحرّ من الجمر المُلتهب، فلن أعود إليه إلا معك.. وإلا قتلني!!
- هكذا!! سأذهب إليه لأجل عيونكِ الجميلة، فقط.. كيلا يقتلكِ!! (هتف مُغازلاً.. وابتسامته المُخادِعة تملأ وجهه)، ثم أردف: "ابقِ –هنا- حتى أَتَهَيَّأ للخروج!".

تَوَلَّى إلى داخل بيته مُخلِّيها تُتمتم –بصوتٍ غير مسموع-: "هل تتهيَّأ للخروج من الدار.. كما تفعل النساء.. أيها الداعر؟!"، وفيما تنتظر حتى يرجع.. عاودتها كلماته لترن مرة ثانية

في أُذنها: (جارية نضرة.. روحها مرحة.. لو تخلَّت عن وفائها الأحمق!؟)، ابتسمت بسخرية وراودتها خاطرة: (آه.. لو تعرف –أيها العاهر- عن هذا الوفاء الذي تنعته بالأحمق؛ إنَّما هو وفاءٌ.. لكنزٍ دفينٍ يَنُوء الرجلُ الشديد المَقْتول.. بحمله!؟).

رجع إليها دون إبطاء، دخل عليها المجلس؛ فألفاها غارقةً في خواطرها.. ساهيةً عنه، شرع يتأملها بعيون متفحِّصةٍ جريئة.. هاجساً في خاطره: (هذه الأَمَة البلهاء أقرب طريق لفضح أسرار عبد الجبار؛ ومن ثَمَّ التَوصُّل إلى أمواله المُخبَّأة!).

صدح مُغازلاً: "يا فتاتي! لا زلتِ صغيرةً على أنْ تشردي مثل هذا الشرود!!"، انتبهت إليه.. واعتدلت في جِلستها: "هل انتهيتَ؟؟ هَلُمَّ.. إذاً.. إلى دارنا!!"، لوَّح لها بقنينةٍ يُمسكها في يده.. وقال مُداعِباً: "وهاكِ قنينة خمرٍ مُعتَقة لسيدكِ.. كي يرضى عنكِ!".

****

-المشهد الحادي والسبعون بعد المئة-

رجعت العيون الراصدة -التي فرَّقها حبوس على الطريق بينهم وبين قرطبة- لتخبره أنَّ جيش المهدي قد نشر طلائعه لتَسِدَّ عليهم طريق القُفُول إلى قرطبة، وأيضاً.. قطعوا الطريق إلى جبل (ببشتر)، خفَّ الفارس إلى عمه –زعيم البربر- ليُخبره بالأنباء المشؤمة، ضرب زاوي الأرض تحته بقدمه.. وهدر مغتاظاً:

- هذا تدبير الصقلبي اللعين (واضح)؛ يريد أنْ يحصرنا.. كما حصرنا عند (وادي الحجارة)، لكن.. هيهات.. هيهات؛ لن يلدغنا مرتين!!
- فما الرأي.. إذاً.. يا عماه؟؟!
- لولا مَن معنا من نساءٍ وأطفالٍ وضعفاء!!؟
- نُخَلِّي هؤلاء خلفنا.. في (مربلة)[1] مع حاميةٍ صغيرة، وننطلق إلى حيث نريد!!

---

[1] : مربلة: مدينة صغيرة تقع جنوب قرطبة على الطريق إلى الجزيرة الخضراء.

- أجل! هذا هو الرأي؛ نتخفَّف من الذين معنا من الضعفاء، ونرتدُّ إلى أولئك المتجبرين.. فنُقاتلهم قتال الذي يطلب حياته بموت خصمه!

*****

دلف الفارس (بليق) إلى خباء قائده (واضح)، حَيّاه.. ثم هتف مُطمئناً: "لم يصل البرابرة إلى قلعة (ببشتر).. أيها الحاجب، وقد صار الجبل –الآن- تحت حمايتنا!".

- عظيم!! قد كان أعظم ما أخشاه أنْ ينتزعوها من حاميتها ويتحصَّنوا بها قبل أنْ نصل إليهم؛ فإنَّها حصينةٌ منيعة، لو اعتصموا بها.. ما قدرنا عليهم!!
- ترى.. لماذا لم يُبادروا إليها؟؟! هم أفضل حنكة من أنْ يفوتهم هذا التدبير!!
- حقاً! فإنَّ زاوي.. -وابن أخيه (حبوس)- أذكى وأنبه من أن يفوتهما أمراً كهذا؛ إلا أنْ يكونوا صادقين في عزمهم على هجران الأندلس قاطبة إلى المغرب.. فتكون الخضراء هي غايتهم المُثلَى!
- لو كان كذلك؛ فلِمَ لا ندعهم يرحلون.. ونستريح منهم؟؟!
- قد صمَّم المهدي على القضاء عليهم قبل أنْ يستفحل أمرهم.. ويعاودوا الارتداد إلى الأندلس وقد أصبحوا أكثر عدداً وأشد قوة؛ فيُنازعوه.. ويُهددوا مُلكه باسم (سليمان المستعين) الذي هرب!! وأنا معه في هذا الرأي!
- إنْ تأذن لي –يا قائدي- أصارحك برأيي!؟؟
- هات ما عندك.. يا بليق!
- ألا ترى معي.. يا سيدي.. أنَّ البربر –مثلنا- كانوا عامريين كما كنا نحن؟ ثم لمَّا ثار المروانية على شنجول.. تخلُّوا عنه.. كما تخلَّينا، وذهب زعماؤهم وكبراؤهم إلى القصر لمبايعة المهدي في مُستَهَلِّ أمره؛ لكنَّه تنكَّر لهم -هو وحاجبه السابق- وأساءا إليهم؟؟! لولا أنْ تألَّفهم.. وأحسن إليهم!؟
- لو كان تألَّفهم –كما تريد- لكانوا هم قواده وعماد جيشه، ولَما تَبَوَّأتُ –أنا ولا أنت- مكانتنا التي نحن عليها الآن؛ فاحمد الله أنَّه كان غشيماً.. ولم يفعل!!

- وهل تأمن غشامته وسوء مكره؟؟ ألا يقلقك هاجسُ أنْ يفرغ من البربر؛ فيميل –بعدهم- علينا.. ويبطش بنا؟؟!
- بل يُؤرِّقني هذا الهاجسُ في كل ليلة.. ولا سيما ونحن -الصقالبة العامريين- أقل عدداً وأضعف عصبةً من البربر؛ لذا فلا أُخفيك أنّي راسلتُ بعض أخواننا من الفتيان العامريين وكاشفتهم بتوجُّسي من هذا الرجل والتمستُ منهم القدوم إلى قرطبة، وقد استجابوا.. وقد يصلونها مع فرسانهم قبل أنْ ننتهي من حملتنا هذه.
- هل لي أنْ أعرف مَن أولئك الأخوان؟؟
- مثلاً: من شاطبة.. عنبر وخيران، وأجابني -أيضاً- صاحب سرقسطة (منذر بن يحيى).. وغيرهم!!
- وإذا اِلْتَأمنا بهم.. في قرطبة؛ فماذا نحن فاعلون؟؟!
- لا تتعجَّل الأمور.. يا بليق؛ فإنَّ غداً لناظره قريب!!

****

-المشهد الثاني والسبعون بعد المئة-

ولج ابنُ الرسان إلى عبد الجبار.. فاتحاً إليه كلتا ذراعيه.. هاتفاً: "لا بأس يا حبيبي!! أخبرتني الجارية أنَّك مريضٌ؛ فوثبتُ قائلاً: لابد من زيارته والاطمئنان عليه!".

- اطمئن.. يا صاحبي! إنَّها وعكةٌ خفيفة! (هتف بمجاملة.. وتوجُّعٍ مكظوم)، ثم استطرد مُتعجِّلاً: "هل حبَّكتَ المسألة التي اتفقنا عليها؟؟".
- أي.. مسألة؟؟!
- يا رجل! ألم ألتمس منك أن تجمعني بربيبتك (سلوان)؛ فقلتَ لي: أنَّ القاضي يُسوِّف وليس منه رجاء، وأنَّك ستُحبِّك خطة لانتزاعها من دار آل حمدون؟!!
- آه.. تقصد هذه المسألة؟؟ (تساءل بلامبالاة)، ثم تهرَّب من الإجابة بتغيير الحديث قائلاً بإغراء: "قبلُ.. مُرْ الجارية لتُحضر كأسين.. والقنينة التي جلبتُها لك!".

نادى نجوى –التي كانت تتسمَّع لهما من وراء الباب- فذهبت وعادت سريعاً بالقنينة وكأسين، أبصر قنينة الخمر؛ فلم يُطق صبرا.. وانتزعها من يدها.. وعين ابن الرسان اللامزة الشامتة ترمقه خفية. غادرت الجارية.. وتناول كأساً فأفرغ فيها للضيف، ثم أشاح بوجهه عنه.. ورفع القنينة إلى فمه يَعُبُّ منها عَبّاً، رقَّت على فم ابن الرسان ابتسامةُ تشفٍّ.. وظَلَّ يرقبه –في صمت- حتى يرتوي من الخمر التي يَحِنُّ إليها.

وضع القنينة.. ومسح فمه بظهر كفه، وبدا كأنَّ روحه اِلْتَأمت بجسده بعد مفارقة، ثم التفت إلى ضيفه ليستكمل الحديث.. وقال: "هيا.. أخبرني يا صديقي: ماذا ستفعل؟؟!"، تساءل ابن الرسان متصنِّع الغفلة: "فيمَ.. أيها السيد؟؟!".

- أنا.. أطلب الزواج من ربيبتك.. (سلوان)، وسأدفع لك صداقها مهما بالغتَ فيه؛ فلا خير في مالٍ احتفظ به دون سلوان!
- إلى هذا الحد تشتهيها؟؟! (تمتم مندهشاً) حالما كان يرنو إليه عبد الجبار بنظرات استجداءٍ واستعطاف؛ رقَّ له.. وهتف متسائلاً بشيءٍ من الحيرة: "هي ليست تحت يدي –كما تعلم-؛ فماذا أفعل؟! هل أخطفها.. وأُقدِّمها لك؟!!".
- اصنع ما تراه مُناسباً! قد علمتَ أنَّه لم يبق لي مقامٌ في قرطبة، وأنّي راحلٌ عنها لا محالة؛ لكن.. لن أرحل بدون سلوان، جئني بها.. وسأُجزل لك العطاء!!

ساعتئذ سنحت له خاطرةٌ؛ فمكث ساكتاً مدة.. وعبد الجبار يحدجه بترقُّبٍ وتحفُّز حتى سئم سكوته؛ فهتف مُتململاً: "ها.. ماذا تقول؟؟!"، التفت إليه.. وقال في تؤدةٍ رهيبة: "دِلَّني على دار آل حمدون، وأمهلني بضعة أيام!!".

فارق ابن الرسان دار عبد الجبار.. تُشيِّعه أمنياته وخيالاته الحالمة بسلوان، امتطى دابته واستوى في طريقه.. وراودته الخواطر: (إذ أنَّك تشتهي بنت عمر كل هذا الاشتهاء.. يا ابن المغيرة؛ فعليك أنْ تدفع فديتها إلى خاطفها، ثم تدفع لي –أنا- مهرها!)، (وإذا كان أليازار يترفَّع عن نهب أموالك.. ويمتنع عن معاونتي؛ فلا ريب أنَّ (رامبون) قد يطمع فيما يزهد فيه سيده!!).

****

-المشهد الثالث والسبعون بعد المئة-

"قد عثرنا عليهم.. أيها القائد! إنَّهم في أحواز مربلة!": هتف (بليق) باستبشار.. بعد أنْ ولج إلى خباء الحاجب، حملق فيه (واضح) برهة.. ثم غمغم مُعلِّقاً بسخرية: "بل.. هم الذين عثروا علينا!"، ثم نهض قائماً في تحفُّز.. وصدح بجدية: "أرسل فوراً مَن يستطلع أمرهم ويحزرهم لنا! وحاذروا.. فلا شك أنَّ عيونهم ترصدنا!".

*****

"الآن.. تراهم مُقدمتنا رأي العين؛ فها هم أولاء يتوافدون على وادي (لدة)[1].. فرقة تلو فرقة! يبدو أنَّ أعدادهم غفيرة.. وأسلحتهم ثقيلة؛ سأبعث مَن يحزرهم لنا ويأتينا بأخبارهم": تكلَّم حبوس فيما يستمع عمه إليه باكتراث، سكت العمُّ هنيهة.. ثم أجاب: "افعل! وكن حذراً، واجمع لي قادة الجند.. عاجلاً!".

انعقد مجلس الحرب البربري في فسطاط الشيخ (زاوي الصنهاجي)، وانضم إلى المجلس كلٌّ من: حبوس.. وحباسة.. وبهلول الدمري.. وأبو يدّاس (صنديد بني يفرن).. وأبو زوليت (الفارس الفتَّاك).. وآخرون، بادرهم زعيمهم بالحديث هادراً بعزيمة وحزم:

- ها هو عدوكم.. تُبصرونه بأعينكم، ولا محيص من اللقاء والصدام؛ فإما نحن.. وإما هم، إما العزة بقتالهم والانتصار عليهم؛ وإما الذلة بالفرار منهم والانهزام عنهم! فما قولكم.. يا صناديد البربر؟؟!
- العزة.. لا الذلة! العزة.. لا الذلة! (زأروا كلهم في حميَّةٍ وإباء)، رفَّت على ثغره ابتسامة رضا، ثم جَرَّد سيفه ونزع غِمْده من حول خاصرته، لوَّح بالسيف ثم ضرب به الغِمْد ضربةً قاصمة.. فحطمه، ثم دوَّى صوته الرهيب قائلاً:

[1] : وادي لدة: هو وادي آره أو يارو.. وادي فسيح من أحواز مربلة.. إلى الجنوب من قرطبة على الطريق إلى ريه والجزيرة الخضراء.

- ها أنا ذا قد استللتُ السيف.. وقصمتُ الغِمْد؛ فلن أغمد سيفي إلا في صدر عدوي، هل أنتم معي.. يا أبنائي؛ أم.. أُجالدهم وحدي؟؟!
- نحن معك! كلنا معك! لا أجفان –اليوم- لسيوفنا!! (جلجل صياحهم المُتحمس)
- لكل قول دليلٌ وحقيقة؛ فما حقيقةُ قولكم؟؟
- مُرْنا بما تشاء.. يا شيخنا!!
- كنا نؤثر السلامة والمسالمة، وحاولنا مع ذاكم (الغير مهدي).. مرة واثنتين وثلاثة، لكنَّه يأبى إلا العدوان علينا وانتهاك حرماتنا.. حتى أخرجنا من قرطبة، ولم يقنع بإخراجنا؛ بل ها هو ذا قد جَمَّع لنا الجموع من صقالبة وإفرنج وغيرهم.. يريد استئصال نسلنا، فهل نُنوِّله مراده؟؟
- كلا.. وأيم الله!! خاب وخسر.. ومَن معه!
- أجل.. خابوا وخسروا!! هَلُمّوا! انظروا –أيها الصناديد- إليهم؛ إنَّهم كثيرون؛ لكنهم كغثاء السيل؛ فلا تُفزعنَّكم كثرتهم.. أو قلتكم؛ فإنَّ البعوضة تدمي مقلة الأسد!
- لسنا بعوضاً.. يا شيخنا.. وهم ليسوا أسوداً؛ بل هم نعاج.. وإنَّا آكلوهم!
- أحسنتم! وإنّي أزيدكم: خرج هؤلاء من قرطبة يتوهَّمون أنَّهم سيرجعون إليها ظافرين برؤوسنا؛ خاب فألهم!! بل.. إنَّ قرطبة لكم أنتم؛ لا يحول بينكم وبينها إلا أولئكم النعاج؛ فهَلُمُّوا!! هم لكم.. فاذبحوهم، وهَلُمُّوا إليها.. فاملكوها!!!

دمدم القوم وثارت حماستهم.. وسرت في سائر خيامهم ومضاربهم.. حتى سرت في أوصال أجنادهم المغمورين وعروقهم.

تم توافد جيش المهدي إلى (وادي آره).. حتى اكتمل بمُتَطوّعيه الأندلسيين وعبيده الصقالبة ومرتزقته الإفرنج، وتراءى الجمعان: بضعة آلاف من البربر، وعشرات الآلاف من أعدائهم، وباتوا أجمعون على يقينٍ من حتمية اندلاع الهَيْج باكِراً.

ليلاً.. انفرد زعيم البربر بخمسةٍ من خاصة فوارسه الصناديد: (حبوس.. حباسة.. بهلول.. أبي زوليت.. أبي يدّاس) يُشجّعهم ويُحمّسهم، ثم هامسهم قائلاً:

"حزرنا القوم؛ فإذا عددهم يفوقنا بعشرة أضعاف؛ لكنهم أغمار[1].. خلا الإفرنج، وأحسب أنَّه لا سبيل لغلبتهم إلا بقذف الرعب والفزع في قلوبهم قبل الالتحام معهم؛ لذا.. فإنني أريد منكم غداً.. أنْ تبدؤوا المعركة بِنِزالٍ كما حروب العرب في جاهليتهم، يخرج أحدكم فيطلب المبارزة من شجعان الإفرنج، ولا أريد منكم غلبة الخصم فقط؛ بل أريد قتل الإفرنجي المُبارِز قِتلَةً تُفتِّت أكباد مَن وراءه.. وتبثُّ الرعب في قلوبهم، أريد منكم أنْ تهزموهم.. قبل بدء المعركة! أفهمتم مقصدي؟؟!".

– سمعنا.. فهمنا!! وسنفعل ما تريد.. يا شيخنا.. إنْ شاء الله!

– على بركة الله! والآن.. ذروني أرسم لكل رجلٍ منكم دوره الذي يقوم به.. غداً!!

****

-المشهد الرابع والسبعون بعد المئة-

(وادي آره).. صباح الخميس: ٧ من ذي القعدة سنة ٤٠٠ هـ، يونية سنة ١٠١٠م.

تبدَّى البربر لأعدائهم.. واصطفوا في مواجهة الكتيبة الإفرنجية التي سبقت عن جيش قرطبة: كتيبة شرسة تتكوَّن من بضعة آلاف من الجنود والفرسان.. يتقدَّمهم فرسانٌ مُدجَّجون بدروعٍ ثقيلة من الفولاذ.. يركبون خيولاً ضخمة ذات تجافيفٍ من الحديد.

برز بهلول بن تمايت الدمري بين الصفوف، وتقدَّم مُمتطياً جواده إلى الفضاء بين الفريقين، ترجَّل.. وانتصب شامخاً يرمُق أعداءه في ثقةٍ وإباء، ثم زأر: "يا أبطال الإفرنج! هل من مُبارز؟؟"، لم يتقدَّم إليه أحد؛ فكرَّر النداء بتَحْرِيض، وارتفع زئيره مرة تلو أخرى.. حتى صاح هازئاً: "أخزاكم الله!! أليس في جموعكم الغفيرة ندٌّ لي؟؟".

خرج إليه فارسٌ مُدجَّجٌ بالسلاح.. مُدرَّعٌ بالفولاذ من رأسه إلى قدمه.. يمتطي حصاناً ضخماً مُجلَّلاً بالدروعِ الحديدية، ثم وقف حِيَاله على بُعد بضعة عَدْوات[2].

---

[1]: رجل غمر: أي لم يجرب الأمور.

[2]: عَدْوات: خطوات، جمع عدوة.. وهي خطوة الفرس.

رنا إليه بهلول في تحفُّزٍ وأشهر سيفه في تحدٍّ.. مرتقباً أنْ يترجَّل خصمه لبدء النزال، لم يترجَّل الفارس الإفرنجي؛ وإنَّما هَيَّأ رمحه الطويلة التي في يمينه ليوجِّهها صوب بهلول، ثم وثب بفرسه مُسدِّداً الرمح إلى خصمه الذي تفاداه في حركةٍ بهلوانيةٍ خاطفة، ثم استدار لمواجهة الفارس الذي عدَّل وضعيته ليعاود الهجوم، تراجع بهلول خطوات.. وطرح ترسه أرضاً.. وقبض بكلتا يديه على معصم سيفه، ووقف ثابتاً مُترقِّباً.

يعدو الحصان الإفرنجي الضخم.. ويصيح فارسه غاضباً.. ومُصوِّباً تسديدةٍ ثانية من رمحه إلى صدر بهلول الذي مال عنها قافزاً بسيفه ومُلوِّحاً به في الهواء.. ليَهوِي به –في أسرع من طرفة عين- على وجه الحصان الضخم ضارباً خَطْمه[1].. ليفصل حديدتي اللجام وفكي الحصان معاً في ناحية.. ويخرُّ الحصان على وجهه صريعاً في ناحية، ويقع الفارس الإفرنجي من فوق حصانه الصريع.. ليُعاجله بهلول بسيفه فيذبحه، ويهدر البربر فرحين مهللين.

ثبت الإفرنج.. فاغرةٌ أفواههم ذهولاً وارتياعاً مما فعله البربري الراجل بفارسهم المِقدام، وارتدَّ بهلول إلى صفوف فريقه.. الذين طفقوا يَزُفُّونه بالتهليل والتشجيع.

ثم يخرج اثنان آخران –حباسة وأبو زوليت- يصنعان كما صنع سابقهما ويناديان كما نادى، تهرع عيون الإفرنج إلى قائدهم (الوزير أليازار).. كأنَّما يستغيثون برأيه: (كيف نَتَصَرَّف؟ ذُبح فارسنا بعد أنْ صَرَع فرسَه راجلُهم بضربةٍ شديدةٍ لم نرَ مثلها قط؛ فكيف نثأر؟ كيف نسكب في قلوبهم رعباً كالذي نثروه فوق رؤوسنا؟؟!)، وكأنَّ أليازار قرأ تلك الرسائل؛ فأشار إلى بعض رجاله فخرجوا إلى الساحة الفضاء، فحملوا جثة الفارس الإفرنجي القتيل وعادوا بها إلى صفوفهم، ثم أومأ إلى فارسين شديدين -هما أشجع فوارسه- أنْ يخرجا إلى البربريين.

برز الفارسان المدرَّعان إلى الفضاء بين الصفوف، ثم ترجَّلا عن فرسيهما،

---

[1] : خَطْم الحصان: أنفه.

تَوَجَّها سائرين -يُجرجران في حديدهما- صوب البربريين، تواجه الأربعة نفر، وتحفَّز كل منهم لمقارعة خصمه، نظر أبو زوليت إلى غريمه فرآه كتلةً ضخمة من الحديد الثقيل.. مُكلَّلة ببيضةٍ[1] فولاذية متينة.. تبرق تحتها حدقتان لامعتان، ورمق حباسةُ خصمه فألفاه -كمثل صاحبه- مُحصَّناً بالدروع الفولاذية لكنَّه أطول منه قامة.

تصاول الفوارس الأربعة، وتضاربوا بالسيوف التي كاد صدى صليلها واصطكاكها ببعضها وبالتروس والدروع يَصُكُّ الأسماع ويُرهب القلوب، استبسلوا جميعهم في المقارعة والنِزال، وأيقن كل منهم أنَّ خصمه كُفْءٌ له.. ومن العسير هزيمته، بيد أنَّ البربريين كانا يقاتلان قتال مَن لا سبيل إلى حياته إلا قتل خصمه، كانا يَذِبّان عن عشيرتهما.. عن نساءها وأطفالها؛ فاستماتا في القتال.

تمادى النِزالُ.. وطالت مدته.. وتمادى معه التوتر والترقُّب اللذان تجاوزا حدهما وسط الصفوف الإفرنجية؛ فراحت شهقاتهم وصيحاتهم تتعالى كلما ضرب خصمٌ خصمه.. أو أفلت أحدهما من ضربة الآخر، اضطرب الوزير (أليازار) مما اعترى جنوده.. واكتنفه القلق والهمُّ؛ فخَفَّ إلى الصفوف الأولى يَرقُب النِزال بعيني رأسه، وقد وقع في رُوعه أنَّ خسارة فارسيه في النزال.. هي هزيمة له في المعركة؛ فجعل يشاهد.. مُتفكِّراً فيما وراء نهاية ذاك النزال.

أُجهِد البطلان الإفرنجيان.. وكلَّ عزمهما.. وأرهقهما قَيْظ الشمس.. وثِقَل حملهما الحديدي.. وشدة الضربات البربرية، وكأنَّما فترت همتهما -بعد حماسة- للحظاتٍ قليلة اغتنمها حباسة؛ فرفع سيفه وضرب به على عاتق غريمه ضربةً صارمة.. فهتك درعه الحصينة الغليظة وشَقَّها.. وشَقَّ معها جنب لابسها؛ فسقط مُجندَلاً والدماء تتفجَّر من جثمانه، رمقه صاحبه يسقط صريعاً؛ فسُقِط في يده، لم يُمهله أبو زوليت؛ بل.. حطَّ بسيفه -كالصاعقة- على بيضته الفولاذية فشَجَّ ثُلثها وما حَوَته من الرأس.. وانطفأت الحدقتان اللامعتان؛ وخرَّ صاحبهما قتيلاً من فوره.

---

[1] : البيضة: هي.. الخوذة الفولاذية.

صرخ القتيل متأوِّهاً؛ فصاح القاتل ظافراً، وغشى الصمتُ الرهيب الصفوفَ جميعها للحظاتٍ قبل أنْ يستدير البربريان إلى فريقهما.. ويلوِّحا بسيفيهما فرحين بالنصر؛ فيُبادلوهما التلوِّيح والتهليل.

أما الصفوف الإفرنجية.. فقد تكبكب آخرها على أولها ليَطَّلِعوا على نتيجة النزال، فأبصروا ضرباتٍ ما شاهدوا مثلها –من قبل- مضاء سيوف ولا قوة سواعد؛ فاشتدت الرهبةُ في قلوبهم.. وأيقنوا بهزيمتهم، أطرقوا.. وغشيهم صمتٌ أسيف، تطلَّع إليهم قائدهم (أليازار).. فكأنَّهم استسلموا للهزيمة.. وسلَّموا رقابهم لسيوف البربر تحصدها دون مقاومة؛ فانتفض لينفض عنهم خَوَرهم وشعورهم بالخيبة، أسرع.. فأرسل إلى واضح والمهدي أنْ يلحقا به ليلتحموا جميعاً مع العدو؛ فهرع إليه بليق في طائفة من خيالته، ثم وثب الوزير على حصانه.. ونادى جماعةً من خيرة فرسانه، وصاح بحميَّةٍ وأنفة: "هجـــــوم!!".

هبَّ يَؤمُّ قواته.. راكضاً بحصانه لمباغتة البربر قبل أنْ يُفيقوا من نشوتهم، بيد أنَّ أبا يَدّاس وخيالته من بني يفرن كانوا متأهِّبين؛ فما أنْ أبصرهم حتى عدا إليهم بخيالته.. واصطدم معهم.. ليحول بينهم وبين مباغتة فريقه البربري، بينما انطلق حبوس –الذي كان مُترِبِّصاً وفوارسه عن اليمين- إلى معسكر الإفرنج ليأخذوهم على حين غِرَّة.

اشتبك الفريقان هنا وهناك.. وماجوا بعضهم في بعض، ثار الغبار لوقع سنابك الخيل.. وامتزج بالدماء المسفوحة والعرق المصبوب، جلجلت قعقعة السلاح.. وخشعت الأصوات إلا من غمغمة ضارب أو أنين مضروب، لمعت السيوف والدروع تحت شعاع الشمس.. وتَشَتَّتت الجثث والأشلاء تحت لهيب حرارتها، قُتِل الصنديد البربري (أبو يَدّاس)؛ فما فتَّ مَقتلُه في عضد قومه، وقُتِل (بليق).. وقُتِل الوزير (أليازار)؛ ففَتَّ مَقتلُهما في عضد فريقهما.. فنكصوا على أعقابهم فارين إلى مضاربهم؛ فتَلَقَّتهم سيوفُ حبوس وفوارسه.. فمزَّقتهم تمزِّيقاً.

اضـطرب الجـيش الإفرنجي وتضعضـعت قوتـه، وإسـتحرَّ فـيهم القتـل.. وركـب البربـر أكتـافهم، شـاهدت قـواتُ المهـدي القرطبيـة مـا يجـري؛ فانسـكب الرعـب في قلـوبهم.. واضطربوا.. ولم تُغنِ عنهم كثرتهم شيئاً، ووَلُّوا مدبرين.. لا يلوون على أحد.

جمحت الخيول هاربةً صوب قرطبة، ولم يملك فوارسها منعها عن الفرار؛ فجنحوا هَلِعين إلى ما جنحت إليه خيولهم، ودُهِس من رَجَّالَتهم.. مَن دُهِس.

جَدَّت طليعة البربر في مطاردة الفلول المُدبِرة حتى حصروهم عند ضفة النهر؛ فغرق من الهاربين خلقٌ كثير، وحال (نهر قرطبة) دون ملاحقة الفئة الناجية، ومال فوارس البربر -الرابضين في ساحة المعركة- إلى معسكر الإفرنج.. فاحتووا على ما فيه من مال وسـلاح ودواب؛ فعثروا في مضـرب الـوزير اليهـودي وحـده على ثلاثـين ألـف مثقـال، وتفحَّصـوا جثـث القتلى؛ فوجـدوا على بطـون الجنـود الإفـرنج نُطُق[1] مملـوءة دنـانير ودراهم مما يتجاوز الوصف.

****

-المشهد الخامس والسبعون بعد المئة-

أمست قرطبة.. وأهلها غافلون عما يكابده جيشها -المُطارِد للبربر- في وادي آره.

السكون والترقُّب يسودان البلدة وأرباضها.. وأسواقها، ترى القوم –بعد أن انفصل الجـيش عنهـا.. عـابراً ضـفة نهرهـا اليسـرى- يطوفـون المدينـة طـولاً وعرضـاً في هـون.. تـراودهم الأمـاني: (لا جـرم سينتصـر الإفـرنج، لا جـرم سيُنقذوننا مـن البرابـرة البغـاة، سـيعود المهـدي ظـافراً.. وتهـدأ الفتنـة، سـترجع قرطبـة لسـالف عهـدها.. مدينـة العلـم والسـلام!)، (دون ريـب.. سـيَعُمّ السِّـلْم والرخـاء مـن جديـد!!)، (نعـم! قـد دفعنـا أمـوالاً طائلة لأولئك المرتزقة.. حتى أموال الأحباس والصدقات منحناهم إياها!)،

[1] : نُطُق: جمع نطاق: وهو الحزام يشد به الوسط.

(هم مقاتلون أشداء؛ دون شك سيهزمون البربرَ.. كما هزموهم في عقبة البقر!!).

حتى ابن الرسان.. كانت تراوده الأحلام بعودة الإفرنج منتصرين، ظَلَّ -طيلة الأيام التالية لخروج الجيش- يُمنِّي نفسه بنصرهم، بل.. ويتهيَّأ لمكانةٍ أسمى سينالها في قصر قرطبة؛ مكانةٍ.. لا يشك في أنَّ وزير برشلونة سيرفعه إليها بعد عودته فائزاً.

ولأنَّه يفهم قواعد اللعبة جيداً؛ فقد علم أنَّه ينبغي أنْ يكون ثرياً -فاحش الغنى- حتى يقبل المهدي وساطة أليازار.. فيرفع منزلته من ساقي ونديم تافه إلى وزيرٍ أو سيدٍ وجيه!؟ (قد كنتُ غنياً على عهد شنجول؛ غير أنَّ المهدي وصعاليكه اللئام.. سلبوني أموالي وممتلكاتي إبّان ثورتهم، بل.. وسجنوني ونَكَّلوا بي!!)، (لن أنسى ما فعلتموه بي.. أيها الأوغاد! قد آن الأوان لأسترد حقوقي.. وأقتصّ منكم، ولن أرحمكم!!).

أبداً.. لم يساوره شكٌ أنَّ عبد الجبار –وهو أحد أولئك اللئام- قد جمع أموالاً كثيرة؛ أموالاً أكلها بالباطل حينما كان حاجباً.. ومنها أمواله التي ردَّها عليه المهدي، وحتماً.. عما قريب.. سيغادر بها قرطبة: (لكني.. سأكون له بالمرصاد، وسأسلبه إياها قبل أنْ يرحل!!)،

لذا.. فقد دأب –خلال الأيام الماضية- على زيارته في بيته جالباً إليه الخمر التي ما احتمل الإقلاع عنها، داوم على التسامُر معه ليالٍ عديدة عسى أنْ يستدرجه فيَطَّلِع على أسرار تلك الأموال.. أو خطته للهروب بها، بيد أنَّ عبد الجبار كان أفطن من أنْ يفضح سره، وما كان تَصبُّره على مجالسة ابن الرسان ومنادمته.. إلا لأجل خمره التي يتلذَّذ بها، وأملاً في أنْ يَتَوصَّل -عن طريقه- إلى حبيبة فؤاده (سلوان).

من جهةٍ أُخرى.. واظب ابن الرسان –الذي لا ينضب مَعِين ألاعيبه- على ملاطفة الجارية (نجوى) ومغازلتها كلما صادفها في دار عبد الجبار.. أو أرسلها إليه لاستجلاب الخمر، على أنَّها كانت دائمة النفور منه.. والصدّ عنه، حتى تملَّكه الغيظ منها ومن سيدها؛ فقَرَّرَ تغيير معاملته لهما دونما ييأس من الوصول إلى مأربه!

ذات ليلة.. وبعد أنْ لعبت الخمر برأس عبد الجبار وخَتَّرَت جسده.. همس في أُذنه:

- أُعذرني.. يا عبد الجبار! إنَّ لي شركاء في تجارتي.. ويسألون عن ثمن تلك الخمور التي أجلبها لك؛ فماذا أقول لهم.. وأنت لم تدفع من ثمنها مثقالاً؟؟!
- بما تهذي.. أيها الشقي؟!! أنا عبد الجبار بن المغيرة.. النسيب.. حفيد الخليفة الناصر!! (صاح بأنفة ونفور)، فجعل ابن الرسان يُسكِّنه هامساً بنبرته المُخادِعة:
- هل يخفى نسبك عنا.. أيها الأمير؟! لو كان الأمر بيدي؛ ما طالبتُك بشيءٍ من ثمنها.. وكفاني شرفاً أنِّي أُنادمك؛ لكني مُستأمَنٌ على المال!!
- ويحك.. يا ابن الرسان! اِعْلمْ أنِّي أملك من الثروة ما أشتريك به أنت وشركاءك.. وما تملكون، لكن.. أمهلني حتى أتمكَّن من التصرُّف فيها، وسأُعطيكم.. وأزيدكم!
- لا أُماري.. في صدق وفاءك! (هتف بمداهنة).. ثم استطرد بنبرةٍ ماكرة: "لكن.. تباً للشريك البخيل الذي يلتمس منك توقيع صكٍ.. كضمانٍ لحقه في هذا الدين!!".
- ماذا تقول؟؟ تريد أنْ تفضحني؟!! أعطيك صكاً أشهد به على نفسي بأنني مدينٌ لأمثالك؟!! أُغرب عن داري، لا أريد أن أراك.. ولا أنْ أحتسي خمرك.. بعد الليلة!

غادر ابن الرسان دار عبد الجبار مطروداً مهاناً.. وقد ازداد حقداً وحنقاً على طارده؛ فأزمع ألا يدعه حتى ينتقم!! لن ينتقم منه وحده؛ بل.. من قرطبة كلها في شخصه، وأقسم -في سريرة نفسه- أنْ يُجرِّده من السحت الذي اكتسبه؛ وإنْ لم يحصل هو منه على درهم.

يمكث ليالي معدودة.. ثم يأتيه -كما تَوَقَّع- رسولُ عبد الجبار -الذي أذلت الخمرُ كبرياءه- للاعتذار ولإصلاح ذات البين؛ فيرجع إليه كاظماً حنقه.. ساتراً حقده.. مُتحيِّناً الفرصة السانحة للانتقام، يكرِّر عبد الجبار الاعتذار عما بَدَرَ منه، ويُوقِّع على صك الدين ويَعِد بسرعة القضاء.. ويشترط الكتمان، ثم يعاود الحديث عن سلوان.. ويتوسَّل إليه أنْ يُعجِّل بالوفاء بوعده.. ليجمع شمله عليها، ويُصارحه بأنَّه إذا ظفر بها؛ فسيرحل بها وبأمواله المدخرة.. هاجراً قرطبة إلى أرضٍ جديدة ينسى فيها الماضي وينعم بالمستقبل: (تلك هي أمنيته التي ما عاد يحلم بغيرها في هذي الحياة المضنية)؛ ويكرِّر وعده بمكافأةٍ سخية إنْ هو ساعده في تحقيق تلك الأمنية، يتعجَّب ابن الرسان من تعلُّقه

الشديد بتلك الفتاة.. وهو مَن هو؛ فيزيده عبد الجبار عجباً.. ويعترف له –مرة أخرى- بأنَّه لا يطق صبراً على البعد عنها، وبأنَّه لن يستطيع الحياة بدونها!!

لا يملك ابن الرسان إزاء هذا الإلحاح المتكرِّر، والحب اللاعج.. والاعتراف الفاضح سوى أنْ ينتهز الفرصة لتحقيق مآربه، طفق يُحدِّث نفسه: (سأنتقم!؟ سأشفي غَلِيلي منك يا عبد الجبار.. ومن تلك الفتاة التي تظن نفسها قديسة!!)، (قد اختمرت الخطة في رأسي؛ لم يبق سوى التنفيذ!؟ وقد حان أوانه!!)، (لن أيأس من إقناعك –يا رامبون- بالتنفيذ!!)، (ولإنْ لم أربح غير التَشَفِّي فيهما؛ فقد ربحتُ!!). تفكَّر برهة.. ثم نهض عازماً على زيارة رامبون للمرة الرابعة؛ فلربما يُقنعه هذه المرة.

ذهب إلى مَحِلّة الإفرنج بقرطبة.. ودلف إلى الفارس (رامبون)؛ قابله بتضجُّرٍ، بيد أنَّ ابن الرسان أعرض عن وقاحته.. وابتسم ابتسامته الماكرة، وألقى في حجره هدية.. ثم هتف بنبرة تحضيض: "رامبو! إنّي أدعوك إلى عملٍ يسير؛ لكن.. مكسبه عظيم.. سيُغنيك بقية حياتك، فلماذا تتردَّد في القبول؟!!".

- ألا تملّ.. أيها اليهودي.. من هذا الحديث؟؟! قد أخبرتُك في المرات السابقة التي كلمتَني فيها: أنّي لن أُحْدِث شيئاً حتى يرجع ملك برشلونة ووزيره أليازار!؟
- وددتُ لو فعلناها معاً في غيابهما.. كي تستأثر وحدك بالغنيمة؛ ولكن.. يبدو أنّك رجلٌ.. تُفضِّل الفقر على الغنى، والخدمة على السيادة!!؟
- قد أجهدتَ نفسك معي.. وليس لك عندي غير الذي قُلتُه!!

****

-المشهد السادس والسبعون بعد المئة-

يوم الجمعة –اليوم التالي للمعركة- استيقظ أهلُ قرطبة على فلول المنهزمين تتوافد إلى ضفة النهر، هرع الرجال صوب النهر عسى أن يدركوا إخوانهم الذين أضناهم

القتالُ والفرار؛ وكذلك.. النساء والأطفال.. شرعوا يهرولون إلى ضفاف النهر علّهم يدركون الأزواج والآباء المُنهَكين!

على ضفاف النهر.. شهقت النساء وانتحبنَّ وبكى الأطفال وتعالى عويلهم: (مصيبةٌ فاجعةٌ، وهزيمةٌ جديدةٌ أفدح من يوم قنتيش!)، شمَّر الرجال عن السواعد والأقدام.. وطفقوا ينتشلون أولئك الذين تعلَّقت أرواحهم برمقٍ شحيح من حياة، وبين أيديهم زهقت أرواحٌ أخرى إجهاداً وإعياءً؛ الإعياء والغرق قتلا من الفارين أكثر مما قتلتْ سيوفُ البربر وسِهامهم!

تلوَّنت مياه النهر بألوان الدماء.. وطفت على صفحته جثثٌ هالكة.. وانبسطت على ضفتيه دوابٌ نافقة، انتشل المنقذون أنفساً في رمقها الأخير.. عيونها مُنطفئة خزياً وانكساراً، عيون استترت نظراتها خلف الدموع لكيلا تلتقي بتلك العيون الهَلِعة الشغوف التي تتساءل: "ماذا جرى؟؟! هل انهزمتم؟!! كيف تنهزمون وأعدادكم أضعاف أعداد العدو؟؟! كيف تنهزمون ومعكم الفرسان الإفرنج المُدرَّعون؟؟ وأين هم الإفرنج؟؟ لماذا لم يرجعوا معكم؟!!"، لم يكن ثمة جواب!؟ طفر الدمع من العيون المتسائلة.. وانحبست ألسنتها في جوف الصمت والحزن.. والخوف من المجهول!

هرب القوم –بعدما أصابهم القَرح- إلى البيوت فأوصدوا عليهم أبوابها، واحتبسوا فيها محزونين.. متوجسين، خيَّم الغمُّ والهمُّ على قرطبة وشوارعها الخاوية من السابلة، وبدت الدور كأنَّها استحالت إلى قبور، وبقي أهلها يترقَّبون مصيراً مجهولاً!

وإلى قصر قرطبة.. انكفأ المهدي مذعوراً، قعد يهدِّئ هلعه؛ فما هدأ.. ولا سكن، وإنَّما انقلب تغيُّظاً وتسخُّط، أرسل إلى حاجبه (واضح)؛ فمثل بين يديه مخزياً مكروباً:

- ماذا سنفعل.. يا حاجبي؟؟ كيف يندحر جيشنا العرمرم أمام شرذمةٍ قليلة؟!!
- فزع القرطبيين وفرارهم –يا سيدي- هو السبب في تلك الانتكاسة!!
- تُلقي اللوم على القرطبيين كأنَّك لم تكن حاضراً.. ولم تشاهد سيوف البرابرة تُمزِّق تسعة آلاف من المرتزقة الإفرنج.. فضلاً عن فرسانك المُجرِّبين!؟؟

- قد حارب فرساني –أيها المهدي- وقاتلوا حتى قُتِل منهم الكثير.. وقُتِل بليق نفسه!!
- وحلفاؤك الإفرنج!؟ ألم يكونوا أضعاف البرابرة؟؟ ألم يستحوذوا على أموالٍ طائلةٍ كي يحاربوا.. ويناجزوا عنا؟؟! بُؤساً لهم.. لم يغنوا عني شيئاً!!
- قد بذل القوم جهدهم.. يا سيدي؛ لكن.. لم نتَوَقَّع من البغاة مثل هذا الاستبسال.. ولا مثل هذه القوة!!
- فماذا نحن فاعلون.. الآن؟؟! لا ريب أنَّ أهل قرطبة يتحدَّثون؛ وغداً أو بعد غدٍ.. سيبلغ الخبرُ الأفاق، ويتحدَّث الناس –في سائر الأندلس- بهزيمة المهدي وجيشه أمام تلك الشرذمة البربرية؛ فتنكسر هيبتنا، وهذا ما لن أسمح به أبداً!!
- معك حقٌ!! لذا.. فإني أنصح بأنْ نسارع باستجماع قواتنا -بعد أن يرجع الإفرنج إلى قرطبة- ونعاود الكَرَّة على البربر.. قبل أنْ يستفيقوا من نشوة انتصارهم الزائف!!
- هو الرأي!! نعاجلهم ونقتصُّ منهم؛ فنمحو بانتصارنا آثار تلك الهزيمة المخزية!
- سأُعلِن في الناس: أنَّ كل مَن أراد الاقتصاص من البربر.. أو الثأر لعزيزٍ فقده في حربهم.. فليخرج إلى فحص السرادق، وسأشغل الناسَ بالتجهُّز للنصر عن التحسُّر على الهزيمة!!
- واستدعي لي (أليازار)؛ أريد الاجتماع به.. فور عودته إلى قرطبة!
- قد قُتِل (أليازار) في المعركة.. أيها المهدي.. وكثيرٌ من فرسان الإفرنج!؟
- إذاً.. ينبغي أنْ أجتمع بملكهم (رامون).. فور أَوْبَته!!

****

-المشهد السابع والسبعون بعد المئة-

عادت الخيول الإفرنجية المدحورة.. تعدو ناقمةً حانقةً على قرطبة وجيشها الذي خذلها في ساحة المعركة، في طريق عودتهم عاثوا في أحواز قرطبة وريفها فساداً؛ نهبوا

ودمَّروا.. وقَتَّلوا المستضعفين من أهل البوادي.. تغيُّظاً وتحرُّقاً مما أصابهم، ثم آبوا إلى محلِّتهم بقرطبة.. فتحصَّنوا فيها.

أرسل المهدي أكثر من رسولٍ يستدعي قومس برشلونة للتشاور؛ فما استجاب له.. ولبث أياماً هو وفرسانه وجنوده يعالجون جراحاتهم ويلملمون شعثهم، رنا رامبون إلى إخوانه وإلى تدهور أحوالهم بعين الأسى والأسف، وتملَّكه الغيظ والسخط من تلك الهزيمة المُخزية الغير مُتوقَّعة لأشاوس الإفرنج المدرَّعين، هَمَّ أنْ يُكاشف القومسَ بخلجاتِ صدره؛ لكنَّه استحى منه وخاف غضبه؛ فخرج إلى إخوانه الفرسان يسألهم معاتباً مستنكراً: "كيف يغلبونكم.. وأنتم أضعافهم عدداً وعدة؟!!"، لم يجيبوه بالكلمات؛ بل حمل إليه أحدُهم بقايا الخوذة التي فلقها (بهلولُ بن تمايت) بسيفه، وسأله: "هل تظنُّ أنَّ أحداً يقدر على كَسْر هذه البيضة بسيفه؟؟!"، مطَّ شفتيه مُستبعِداً ونافياً؛ فاستطرد مُحدِّثه صائحاً بنبرةٍ مُلْتاعة: "قد قصمها البربري ورأسَ صاحبها معاً بضربة سيفٍ واحدة!!"، وأردف آخر بانفعالٍ: "لا يحق لكم أنْ تُعيِّرونا بانكسارنا تحت أقوامٍ.. هذا ضرب سيوفهم.. وهذه قوة سواعدهم!"، واستأنف الأول مُتنصِّلاً: "قد أَمَرَنا سيادةُ الكونت رامون بحمل هذه البيضة إلى كنيسة برشلونة لتُعلَّق فيها.. إعذاراً لنا عند قومنا؛ قد أعذرنا.. فليس علينا ملامة!؟"، سكت رامبون.. وسكنت ثورته، وخمد حنقه على إخوانه؛ بيد أنَّ نيران تغيُّظه من عدوه.. لم تخمد.

ألحَّ المهدي في طلب القومس الذي تردَّد أياماً، ثم ذهب إليه وصدره يغلي كالمرجل، أحسن المهدي استقباله وعزَّاه في وزيره (أليازار) والقتلى من خيله ورَجَله، ثم هتف بنبرة تحريضٍ مُتحمِّسة: "ينبغي أن نسارع بمعاودة الكَرَّة.. أيها الكونت.. قبل أنْ يتقوَّى علينا البربر بفوزهم المزيف!؟".

- اسمع.. أيها الملك! قد خسرتُ -في هذه الحملة- ثلث رجالي.. وأخي (أرمنجو).. ووزيري (أليازار)، قد ضحَّينا بالكثير.. ولم نر منكم تضحية!!؟

- كيف لم نُضحِ.. أيها الكونت؟!! لقد منحناكم أرزاقاً باهظة؛ لقد أخذتم كل ما اشترطتموه؛ ألا تَعُدّ ذلك تضحية منا؟!!
- أعطيتمونا المال في قرطبة بيدٍ.. ثم انسحبتم عنا في مربلة؛ فاستلبه إخوانكم البربر باليد الأخرى!!؟
- اعلم.. يا كونت رامون.. أنَّ البربر أعداؤنا كما هم أعداؤكم، وأنَّا لم نتراجع إلا بعد أنْ أبصرناكم تتخاذلون؛ وما على هذا منحناكم الأرزاق!!؟
- تخاطبني.. وكأنَّي ورجالي.. فرسانٌ صعاليك يُقاتلون كسباً للمال، وإنِّي أرفض لهجتك هذه؛ فإنني كونت برشلونة.. وحليفك، فانْتَقِ مقالاً يليق بمقامي ومقامك!
- أجل.. أنتم حلفاؤنا.. يا كونت برشلونة! وعلى الحليف أنْ ينصر حليفه!!؟
- إنِّي أشترط شروطاً إضافية.. لاستمرار هذا الحِلْف!!
- شروطاً إضافية؟!! هذه مماطلة.. لا تليق بمقامك.. يا كونت برشلونة!!؟
- وأولها: أنَّ يعقد خليفةُ الأندلس الحِلْفَ معنا بنفسه؛ لا نائبٌ عنه!!
- أ ما تعلم أنِّي خليفةُ الأندلس.. أيها الكونت؟؟!
- عفواً.. أيها المهدي! أنت.. ولي عهده ونائبه؛ أما الخليفة الذي أعني.. فهو: (المؤيد)!!
- هل هذا منتهى القول عندك؟؟! (سأله بصرامةٍ واستياء)
- يكفي ما تكبَّدناه من خسائر؛ فإما الاستجابة إلى شروطنا جميعها، وإما أنْ نرحل عن قرطبة.. بسلام!

****

-المشهد الثامن والسبعون بعد المئة-

عبد الواحد بن بلقين.. كان هو القيِّم على الخوالف والذراري الذين خلَّفهم البربر في مربلة؛ فتراجع بهم إلى ناحية (ريّة)[1]، فلمَّا بلغته بشارة النصر؛ جهَّز لاحتفال مهيب..

---

[1] : هي إحدى كور جنوب الأندلس، قاعدتها هي أرشذونة ومن نواحيها: مربلة.. مالقة.. وجبل ببشتر.

أشاع به الخبرَ السعيد وألقى به الرهبةَ في قلوب المناوئين.

ومن ناحية شاطبة.. جاءته رسالةٌ خفيَّة من (المستعين).. يعتذر فيها عن انسحابه يوم (عقبة البقر)، ويرجو من شيخ البربر العفو عن تلك الذلة، ويلتمس معاودة التعاون ضد المهدي وزبانيته.

بعث زعيمُ البربر (زاوي بن زيري) سرية من الخيل يقودها ابنُ أخيه (حباسة) للاستيلاء على قلعة ببشتر؛ فاستولى عليها.. وطرد حاميةَ قرطبة منها، حالما نزل الشيخُ بغالبية الجيش في (ريّة) ليحتفل بانتصاره.. وليلتقي بمَن جاءه مُحالِفاً من برابرة الأندلس، وكذلك.. ليُعيد تنظيم رجاله.. ويُخطط لقابل الأيام.

بعد أنْ رحَّب عبد الواحد بالأبطال الظافرين واحتفل بهم أهلوهم.. اختلى بزعيم البربر وأكابر قواده، وأطلعه على رسالة (المستعين)، ضحك زاوي مستهزئاً.. وهتف بمرارة ساخرة: "لا خير في رجلٍ يُدبر ساعة الفزع، ثم يُقبل حين الطمع!!"، ووافقه حبوس قائلاً باستهجان: "مَن لا يتحمل المغرم؛ لا يستحق المغنم!!"، على أنَّ عبد الواحد كان لديه رأيٌ آخر.. فهتف بتؤدة: "أيها الأخوان! قد مَنَّ اللهُ علينا بنصرٍ سيذكره التاريخ لألف عامٍ قادمة؛ لكنَّه نصرٌ غير مكتمل، وحتى يكتمل ذالكم النصر المبين يتوجَّب علينا أنْ نزيح (المهدي) من دست الخلافة، ولا مراء في أنَّ هذا لن يتحقَّق إلا بإحلال (المستعين) -الذي بايعتموه- فوق ذالكم الدست!".

تجادل القوم وزمجروا.. وماجوا في الجدال والأحاديث الجانبية؛ غير أنَّ عبد الواحد كان أقواهم حجة وأشدهم إصراراً على رأيه، احتدم الخلاف بينهم.. وعلا صخبهم.. حتى رفع شيخهم يده في صرامة ليحسم الخلاف.. ويقول بحزم: "أنار الله بصيرتك.. يا عبد الواحد.. كما أنرت لنا، القول الفصل.. يا سادة: أنَّه لا بقاء لنا في الأندلس آمنين.. إذ لم يكن خليفتنا فوق عرشها!"، ثم صاح مُقرِّراً ومُنْهِياً الجدال: "أرسلوا إلى خليفتنا (المستعين بالله).. ليَفِد إلينا بسلام!".

****

-المشهد التاسع والسبعون بعد المئة-

ولج الحاجب (واضح) إلى إيوان المهدي ليقول: "لبيك.. يا ولي العهد!"، رنا إليه المهدي رنوة ذات مغزى، ثم هتف: "لم أَعُدْ ولي العهد.. أيها الحاجب! ولهذا استدعيتُك!"، رمقه واضح باندهاش.. وسكت ليسمع؛ فاستأنف المهدي:

- قد علمتَ أنَّ ملك الإفرنج يأبى الاستمرار في محاربة البربر إلا بشروطٍ جديدة.. أولها أنْ يُحالفه الخليفةُ ذاته.. لا أحد غيره!!؟
- إنّي لا زلتُ أتفاوض معه.. أيها المهدي! وعندي أملٌ أنْ أُقنعه بالاستمرار في حِلْفنا دون تلك الشروط الزائدة!!
- أعلم أنَّك تبذل جهداً مشكوراً؛ لكن.. هذا الرجل عنيد، ويعلم -جيداً- أننا في احتياجٍ إليه وإلى قواته؛ ولذا.. فإنني واثقٌ أنَّه لن يتنازل عن شروطه!
- لو كان يشترط توقيع الخليفة بنفسه على ميثاق الحِلْف؛ فهذا أمرٌ هينٌ، نطلب من المؤيد التوقيع؛ ولن يمتنع، المعضلة الحقيقية هي: كيف سنوفِّر له الأموال الإضافية التي يُطالب بها قبل الخروج للحرب مرة أخرى؟!!
- أما الأموال.. فلا ترتاع بشأنها؛ أنا سأوفِّرها، أما أنْ يُوَقِّع المؤيدُ على الوثيقة؛ فهذا ما استدعيتُك لأجله، ولقد قلتُ لك في بداية حديثي أني ما عُدتُ ولياً للعهد!!
- ماذا تعني.. أيها المهدي؟؟! (تساءل بارتيابٍ وتوجُّس)
- البارحة.. تنازل المؤيدُ لي عن الخلافة، وشهد علينا أهل القصر.. وبايعوني، وأريد منك أنْ تدعو القضاة والفقهاء وأكابر البلد ووجهاءها لإتمام البيعة، وأنْ تُعلِن هذا الخبر على الناس!!
- كيف؟!! كيف يحدث هذا دون علمي؟؟! (تساءل باستياءٍ مكظوم)، قطَّب المهدي جبينه وصاح باستهجان:
- وهل يلزمنا أن نستأذنك قبل أنْ نفعل؟!!

- أنا الحاجب!! (هتف باستعظام.. عاجزاً عن إخفاء استيائه)
- إنَّك مجرد تابع من الأتباع.. أيها الصقلبي! وأنا من صنعتُ منك قائداً وحاجباً؛ فاقبل رأيي وانصاع لأمري.. ولا تمتحن صبري عليك!!

أطرق واضح رأسه -كاظماً غيظه- مُتجرّعاً الإهانة بضبط نفس، سكت برهة مكبوتة.. ثم رفع رأسه ورسم على وجهه ابتسامة انصياعٍ ورضا، اقترب من المهدي حيث يقف مُعتدّاً بنفسه مُتحفّزاً، تناول يده بتعظيمٍ وإكبار.. فقبَّلها وهو مَحْنِيّ الرأس مُطرِق البصر كأنَّما يُجِلّه ويُبجِّله، ثم هتف بمداهنة:

- سمعاً وطاعةً.. يا أمير المؤمنين!!
- ألا تتفق معي أنَّ الدولة تحتاج –في هذه الفتنة- إلى خليفةٍ قوي قادر على مواجهة الأعداء والمتآمرين؟؟! (جأر بها.. وقد سَرَّه إذعانُ حاجبه).
- الرأي ما يراه سيدنا (الخليفة).. بحكمته وبُعد بصيرته!!

****

-المشهد الثمـــــــانون بعد المئة-

مُقدِماً رِجْلٍ ومؤخراً الأخرى.. هدج ابنُ الرسان –مُندهِشاً- إلى معسكر الإفرنج تلبيةً لدعوة رامبون، وفيما تمشي به دابتُه إلى حيث يريد؛ شرعت الهواجس والخطرات تتجاذبه.. فشرد مُتفكِّراً: (قد خاب أملي بموت أليازار، ومن قبلُ.. تراجعت مكانتي عند المهدي.. كأنَّه سئم صحبتي وعاف خمري، واستبدل بي (ابن عيسى): ديوثٌ سفيه.. لا يَبُزَّني في شيء؛ لكن.. ذاك الصعلوك يُقرِّبه اشتهاءً لجواريه الخليعات؛ تباً لهما معاً!!)، (لن أكترث؛ فأحوال المهدي مُنتكِسة، وملكه صائرٌ إلى زوال، لكني.. لن أخرج صفر اليدين!!)، (لم تزل أموال عبد الجبار.. هي الأقرب إلى قلبي ويدي!)، (إني واثقٌ أنَّ عبد الجبار يكنز أموالاً طائلة؛ لن أبرح حتى أنتزعها منه!!)، (برحى.. يا رامبون! لو وافقتَني وأَطعتَ أمري؛ لاغتنيتُ -أنا وأنت- بهذه الأموال!!)، (لا أدري.. لِمَ يمتنع هذا الإفرنجي

الأحمق عن كسب المال بعملٍ هو أهون عليه!؟؟)، (ورغم تمسُّكه بالرفض.. وإساءة الاستقبال في كل زياراتي؛ لماذا يُلِحُّ –الحين- في لقائي؟؟! أ وبعد الهزيمة النكراء.. وموت الكُبراء؟!!)، (قد شاع في قرطبة نبأ عزم ملكهم على الرحيل، أخشى أنْ يطلب مني مالاً أُساعدهم به على الارتحال!؟)، (هأ.. خاب رجاؤك! فإنني لا أمنح إلا بمقابل!!).

انتبه على حراس مَحلِّة الإفرنج يمسكون خطام دابته، أخبرهم أنَّه قادمٌ تلبيةً لدعوة رامبون، أوقفوه برهة.. ثم سمحوا له بالعبور.

دلف إلى خباء رامبون.. وما انفكت الدهشة تُظلِّل وجهه، بادهه قائلاً بصوتٍ أسيف:

- مُنِينا بهزيمة بشعة.. يا ابن الرسان! وتكبَّدنا خسائر فادحة!!
- أعلم.. يا رامبون! وأعلم أنَّكم فرسانٌ أشداء؛ وستقلبون الهزيمة إلى نصر!!
- كلا! لقد خذلنا المهدي وحاجبه.. وانعدمت ثقة الكونت فيهما، لذا.. فقد أزمع على الرحيل خلال أيامٍ معدودة!!
- كيف؟؟! ترحلون.. وتذرون ثأركم؟!! لَعَمْرُك.. تُعَيَّرون بها أبدا!!؟
- وهذا ما استحضرتُك لأجله! الكونت رامون حزين لفَقْد أخيه ووزيره، وقال: هذه حملةٌ مشؤومة.. لا يرضى عنها الرب، ولابد أنْ نتراجع عنها حالاً!!
- ....
- أما أنا.. فوددتُ لو قُتِلتُ مع الذين قُتِلوا!! أَمَا وقد عِشتُ؛ فلن أبرح قرطبة حتى أثأر لهم.. وأسترد شيئاً –ولو قليل- من شرفهم الذي أهانته قرطبة!
- ماذا ستفعل؟؟! (تساءل بشيءٍ من الوَجَل)
- سأُساعدك في الانتقام من ابن عم المهدي.. الذي ظلمك وأكل مالك؛ على أنْ نُنهي العملَ قبل أنْ ينتبه الكونت لتأخري في الارتحال وراءه! وسآخذ لنفسي أربعمائة دينار ذهبية، ولرجالي أربعمائة مثلها!!
- ظننتُ أنَّك لا تحب المال، لكنَّك –الآن- تشترط جعالةً[1] عظيمة!؟؟

[1] : جعالة: ما يجعل على العمل من أجرٍ أو رشوة.

- لا آخذها حباً لأموالكم.. أيها اليهودي؛ بل.. مواساةً للأرامل.. والأيتام الذين يتحيَّنون عودة آبائهم إلى برشلونة!!

غمغم ابن الرسان: (ثمانمائة دينار مبلغٌ عظيمٌ جداً؛ لكن.. عبد الجبار سيدفعه، ويدفع أضعافه أيضاً!!)، لم تَعِ أذن رامبون مقالته؛ فسأله بخشونةٍ:

- أفصح عما تقول.. يا هذا!!؟
- أقول: نعم!! هذا هو الرأي! وشروطك مجابة.. أيها الفارس الشهم!
- إذاً.. أخبرني: هل لديك خطة لاستلاب ذلك المال؟؟
- اِعلم -أولاً- أنَّ عبد الجبار ليس رجلاً وضيعاً من دهماء الناس؛ فقد كان حاجب المهدي.. وهو أمير مرواني من أحفاد الخليفة الناصر، أي أنَّ الأمرَ ليس هيناً!!
- لا أعبأ!! ولن أتراجع.. ولو كان الخليفةَ ذاته!!؟
- يعجبني إصرارك وحماسك! ومع هذا.. فعندي خطةٌ -لو نُفِّذت- سترفع عنا حرج الاصطدام برجلٍ كهذا؛ بل.. وسيُعطينا ما نريد وهو مُمْتَنٌّ لنا.. شاكرٌ لمعروفنا!!
- أعلم.. أنَّك داهيةٌ خبيث!
- واِعلمْ أنَّك ستحتاج معك طائفةً من فرسان الإفرنج!!
- لا تقلق بهذا الشأن؛ معي رجالي الأشداء! فما خطتك؟؟
- فتاةٌ شغفته حباً! تقيم في بيت قومٍ ليسوا أهلها.. ويمنعونها منه، نخطفها له.. ثم نطلب منه فديتها؛ وستكون فديةً ثمينة!!
- هل أنت واثقٌ أنَّه سيدفع الفدية؟ أم أنَّه سيُؤْثِر المالَ؟؟! لو امتنع؛ فإنِّي سآخذ أموالي منك.. أو أسلبك حياتك!!؟
- لا تقلق! قد خَبَرتُ عشقه للفتاة.. وتَيَقَّنتُ أنَّه سيُضحي بالكثير لأجل امتلاكها!!
- قد أنذرتُك.. وأنت أعلم بشئونك!! كيف نخطفها؟؟!
- سأدلك على الدار التي تقيم فيها؛ تقتحمها بزمرةٍ من فرسانك المرعبين، تخطفوا الفتاة، ونحبسها في مكانٍ آمن، واترك لي عبد الجبار؛ سأنتزع منه المال الذي نريد!

- أشترط أنْ تكون –أنت- معنا أثناء اقتحام الدار، وأختار أنا المكان الآمن!
- ما زلتَ.. لا تثق فيّ؟!
- لم أعد أثق في أحدٍ منكم أبدا!!
- سأكون معكم؛ لكن.. دعني أرتدي ثياب فارسٍ منكم.. حتى لا يَتعرَّفوا عليَّ!
- لك هذا!! ويا حبذا لو نُعجِّل بالتنفيذ قبل أنْ يبعد جيش الكونت عن هذه المدينة البغيضة!!
- فقط.. أمهلني يوماً أو يومين!!

****

-المشهد الحادي والثمانون بعد المئة-

يدلف الحاجب (واضح الصقلبي) إلى إيوان المهدي ليجده عابساً كئيباً؛ فيتساءل بمداهنة: "ما لي أراك مهموماً.. يا أمير المؤمنين؟!! قبَّح الله مَن كَدّرك!!".

- ألا تدري.. يا واضح؟!! لقد أمضى (الكونتُ) تهديده؛ وبدأت قِطَعُ جيشه في الارتحال عن البلد!! ماذا أفعل؟!! لو عَلِم البربر برحيل الإفرنج؛ فلن يتردَّدوا في وطء الأرض تحت قدمي.. ها هنا!! برحيل الإفرنج.. لم يبق لي قوةٌ أناضح بها!!
- اطمئن.. يا أمير المؤمنين! قد حسبتُ لهذا اليوم حسابه، وعندي البديل!!
- هات ما عندك.. يا حاجبنا! كيف سنواجه البربر بدون مساعدة الإفرنج؟!!
- أَتباعك: الفرسان الصقالبة.. في شرق الأندلس، وبنو تجيب.. في سرقسطة!
- هؤلاء.. عامريون[1].. أيها الأرعن!؟ كيف أثق فيهم؟! وكيف أستعن بهم في قتال؟!!
- يا سيدي.. المنصور ابن أبي عامر وأولاده.. هلكوا، وأولئك فرسان الدولة وقادة جيوشها في الثغور، ولاؤهم لخليفة الأندلس.. لا للغابر.. وولده!!؟

---

[1] : عامريون: أي: موالون للحاجب المنصور بن أبي عامر وأولاده من بعده.

- لو سَلَّمتُ بما تقول؛ فأنى لنا استدعاء هؤلاء من الثغور؟!! حينها.. قد يكون البربر دخلوا قرطبة.. وملكوها!!؟
- بل.. إنَّهم على مشارف قرطبة.. أيها الخليفة! ولو شئتَ.. جئتُك بقادتهم –إلى هنا- الليلة؛ فيسلِّموا عليك.. وتختبر ولاءهم بنفسك!!
- راسلتَهم قبل أنْ تُعلِمني.. يا واضح؟؟! قبل أنْ تُشاورني.. وتستأذنني؟! (صاح باستهجانٍ حانق)، استرضاه واضح.. وناشده أنْ يُسكِّن غضبه؛ ثم قال مُتنصِّلاً:
- الأمر كان خطيراً.. يا سيدنا! فآثرتُ الالتزام بالسرية خشية أنْ يعلم باستدعائهم.. أحدٌ –سواء من البربر أو الإفرنج- فيفسد تدبيري!!
- ليت شعري.. -يا حاجبي- هل تُدبِّر لي.. أم عليّ؟!!
- أنا خادمك وتابعك المخلص.. يا أمير المؤمنين! لا أُدبِّر إلا لك.. ولحفظ ملكك!
- إذاً!! وافني بهم الليلة؛ ولنرى صدق رأيك فيهم!!

*****

في داره -وقبل أنْ يَفِد بهم على المهدي- اختلى الحاجب (واضح) بزملائه قادة الثغور: (عنبر العامري) و(خيران العامري) من شاطبة، و(منذر بن يحيى التجيبي) من سرقسطة، وانضم إليهم (أحمد بن وداعة) الذي كان يوافق (واضح) في الرأي.

- أيها الحاجب! أنت أعزنا مقاماً وأكبرنا سناً.. وأعلمنا بهذا الخليفة؛ فماذا تقول فيه؟؟! (سأله الرجال الثلاثة)؛ فأجابهم.. وابن وداعة –إلى جواره- يهز رأسه موافقاً له:
- المهدي: مرواني؛ لكنَّه.. صعلوكٌ، تسلَّط على عرش الخلافة.. وهو غير جدير بها!
- رجلٌ.. طائشٌ؛ لا يملك عقلاً راشداً.. ولا علماً نافعاً! (جأر ابن وداعة.. مُعضِّداً)
- ومع جهله وضعف حنكته.. يُصِرُّ على سياسة الأمور برأيه، ويستنكف عن مشورة حكيم.. أو الاستجابة لنصيحة مجرب! (أضاف واضح)
- فضلاً على أنَّه: زير نساء.. معاقرٌ للخمر؛ لم أُبصره –مذ تولى- إلا مخموراً مُعربداً، ولا ينادم إلا الأوباش العُهَّار.. أمثال: ابن عيسى.. وابن الرسان.

- وأضف إلى كل هذا: فضيحة ميتة المؤيد المزعومة التي أظهرت للناس كذبه وتدليسه! (هتف واضح بتأفُّف واستياء)، فيما استطرد ابن وداعة:
- وها هو ذا يتلاعب بالخلافة؛ ينتزعها من المؤيد حيناً.. ويردُّها عليه حيناً، حتى هانت في أعين العامة، وصار الخليفة أضحوكة الناس!
- وأما نحن: فلن ننسى قتله شنجول –ابن سيدنا المنصور-، ولن ننسى أنَّه طرد إخواننا من قرطبة.. وشرَّد بهم في البلاد! (جأر خيران بحميَّة)
- بعد كل الذي قلتم؛ كيف نأمن أنْ يغدر بنا بعد أنْ ننصره على البربر؟! (تساءل منذر التجيبي.. مُستنكِراً)؛ فلوَّح واضح بيده مُعترِضاً.. وهمس بنبرةٍ جادة:
- لم أستقدمك لنصرته.. يا أبا يحيى؛ وإنَّما لنصرة المؤيد، وإعادته إلى العرش!!
- .... (تباغت الجمعُ بمقولته؛ فانتبهوا.. وأرهفوا السمع)، فاستأنف:
- أنا –مثلكم- لا آمن مكر هذا الرجل وغدره؛ ولهذا استحضرتُكم، والرأي عندي: أنْ ندرأ الخطر الأقرب (البربر)، ثم نرجع إلى القصر.. فنأكله قبل أنْ يأكلنا؛ نستخرج المؤيد ونردُّ إليه ملكه؛ فهو أحق بالخلافة من ذالكم الصعلوك الأرعن!
- نوافقك الرأي.. أيها الحاجب!! (هتف الجميع بتحمُّس)، فاستطرد ابن وداعة:
- احذروا.. يا سادة! ينبغي أنْ نضمر ما اتفقنا عليه ولا نظهره، حتى إذا آن الأوان داهمنا المهدي.. بما لا يسره!!

****

-المشهد الثاني والثمانون بعد المئة-

وَفَدَ خيرانُ وعنبر الصقلبيان.. والمنذر التجيبي[1] إلى المهدي.. بصحبة واضح، مكثوا عنده أمداً، أظهروا تبجيله وتوقيره، واجتهدوا في إقناعه بحسن ولائهم له ولدولته.

---

[1] : ليس صقلبي؛ بل عربي من بني تجيب ويرجع نسبه إلى عبد الله بن المهاجر.. أحد الداخلين إلى الأندلس مع موسى بن نصير، وكان من قادة المنصور بن أبي عامر.. وعامله على سرقسطة.

أما هو.. فقد نظر في مَن بقي حوله بعدما خذله كونت برشلونة؛ فلم يعثر على ركنٍ مكين يستند إليه غير أولئك الصقالبة وقواتهم؛ فمَنَّى نفسه بصدق ولائهم، واضطر لتصدِّيق مزاعمهم، وسمح لقواتهم المرابطة على مشارف قرطبة بالدخول إليها، وأمر واضح باستعراض تلك القوات.. وإذاعة خبرها بين الناس حتى يطمئن جزعهم من ارتحال الإفرنج، اطلع بنفسه على هذه القوات وهي تعبر القنطرة لتعاود الكرة في مطاردة البربر والانتقام منهم، وسُرَّ بهم.. حتى أخذته الحميَّة والحماسة وهتف:

- الآن.. صادف درءُ السيل درئاً يدفعه[1].

*****

ولجت نجوى إلى الدار لتجد سعدى تترقب عودتها.. على وجل، وتصيح باستنكار:

- لماذا تأخرتِ.. يا نجوى؟؟ تقضين.. نصف النهار.. في السوق؟!!
- آه.. آه!! لو رأيتِ ما رأيتُ.. يا سعدى! الفتيان الصقالبة.. وفرسانهم المدرعون.. قادمون من شاطبة، يطوفون بالبلد يستعرضون خيولهم وسلاحهم.. ليخرجوا لملاقاة البربر، والناس يصطفون على جانبيهم يشاهدون.. ويصفقون ويهللون!
- عجباً لقرطبة وأهلها!! بالأمس.. يصطفون.. يبكون لوداع قومس الإفرنج، واليوم.. يصطفون.. يرحبون بصقالبة شاطبة؟؟! (تتساءل سعدى بتأفُّف)
- يا حمقاء! أهل قرطبة لا يأسون على أولئك.. ولا يفرحون بهؤلاء؛ إنَّما يحرصون على وجود جيشٍ؛ ليحارب لهم البربر! (هتفت نجوى هازئة.. وهي تخلع ملحفتها)، بينما تستطرد سعدى بصوتٍ خفيض:
- هل ذهبت إلى دار السيدة (فاطمة)؟؟
- قلتُ لكِ: كنتُ –مثل أهل قرطبة- أشاهد جيش شاطبة وسرقسطة، وسمعتُهم يتحدثون بأنَّ الخليفة سيلحق –غداً- بهم مع جيش كبير من القرطبيين!!
- أي أنَّكِ لم تذهبي إلى السيدة الكريمة.. ولم تحصلي منها على مال ولا.....

[1] : أي: صادف الشر شر يغلبه. مثل يضرب لمن يجد مَن هو أقوى منه.

- ولم أذهب إلى السوق، ولم أشترِ الطعام، اذهبي أنتِ.. إنْ شئتِ!!
- أفٍ لكِ! أنت -هكذا دائماً- كالكَلِّ الثقيل على أهله؛ أينما يوجهونه لا يأتي بخير!! (صاحت فيها بنفورٍ واستياء)، فأجابتها نجوى مُتهكِّمة:
- تركتُ لكِ الخير كله.. يا خفيفة؛ خذيه.. وابذريه أنى شئتِ!!
- أيتها الجارية! أين الخمر؟؟ أين.. الطعام؟؟! (طرق سمعهما صوتُ عبد الجبار الغليظ ينادي بفظاظة من وراء باب مجلسه)،

ارتجفت سُعدى.. وطفقت تَفُضُّ يديها من أشغالها.. وهي تهمس: "إنّ مزاجه -اليوم- عكرٌ!!"، فجاوبتها نجوى بلامبالاة: "ومنذ متى.. لم يكن مزاجه عكراً؟!!".

- كان ينبغي أنْ تشتري الطعام الذي يشتهي؛ ماذا أفعل الحين؟؟ هل أخبره أنَّكِ كنتِ تتسكعين في دروب المدينة؟؟ تالله.. يدق عظامك!!
- .... (تحدجها نجوى بنظرة استخفافٍ)، ثم تهتف: "إنْ شئتِ.. دعيه لي، واذهبي –أنتِ- إلى أم هشام.. وإلى السوق!!".

صَفَقَ نداؤه سمعهما مرة ثانية؛ فانتفضت سعدى.. ومَدَّت يدها تتناول الملحفة، هزت كتفيها تحيُّراً.. ثم همست: "سأذهب أنا، وليُسلِّمكِ الله من أذاه!!"، رمقتها نجوى بعدم اكتراث، ثم أوصدت الباب خلفها.. وهي تجيبه صائحة: "نعم.. يا سيدي.. إنّي قادمة!".

دلفت إليه؛ فبادهها: "أين الطعام.. يا أَمَة السوء؟! إني جائعٌ!!"، شرعت تنظر إليه.. وكأنَّما تبصره لأول مرة؛ رأته: أشعث.. مسود الوجه.. كئيبه، عيناه حمراوان.. زائغتان كأنَّما تبحثان عن شيءٍ.. ولا تجده، تهدَّل جسده كأنّه رجلٌ هرم، وخز صدرها شيءٌ من الاشفاق عليه؛ هتفت تجاوبه بنبرةٍ رئيفة: "ستأتيك به سعدى عما قليل.. يا سيدي!"، ثم تناولت كأسه الفارغة.. وسكبت له بعض الشراب، راح يتجرَّع.. فهدأ غضبه.. وتنامى إشفاقها.. حتى جأرت مُعاتِبة: "لماذا تؤذي نفسك هكذا.. يا سيدي؟؟!".

- كيف أؤذي نفسي.. يا أَمَة؟؟! (صاح هازِلاً)؛ فجاوبته بإصرارٍ جريء:

- ألا تعِ ما أنت عليه من بشاعة منظر.. ونكد عيش؟؟!
- تأدبي.. يا جارية السوء؛ وإلا قطعتُ لسانكِ!!
- لإنْ قطعتَ لساني؛ لتجدني كاسدةً.. وتخسر أموالك لو اضطررتَ لبيعي!
- بُعداً لكِ.. أيتها الوقحة! تالله.. لو بعتُك بدرهم؛ فقد ربحتُ.. وخسر المشتري!
- وإنْ بعتني؛ مَن ذا الذي يرعى أمك المسكينة؟! أم تُراك سوف تخدمها.. بنفسك؟!
- هذه هي!! لَعَمْري.. إنَّ رعايتك للعجوز هي ما تُصبّرني على لسانك السليط، ادعِ اللهَ أنْ يُطيل في بقائها، لأنها لو ماتت؛ فسأقطع لسانك قبل أنْ تُلحَد في قبرها!
- عجباً!؟ تذم لساني لأني أُصارحك بحقيقة حالك؟؟ مَن صدقك؛ فقد نصحك.. يا سيد عبد الجبار! وإنِّي لا أخشى أنْ أقولها –مرة ثانية-: لا تفسد حياتك بيدك؟؟! الاحتباس في الدار.. والعكوف على الخمر.. سيهلكانك!!
- أنتِ تنصحيني؟!! يا نجوى! إنَّكِ أجهل من أنْ تَطَّلِعي على حقيقة حالي! لكني.. سأُخبركِ الحقيقة: إني –الحين- كالجسد ينتظر أنْ تُردَّ إليه روحه، ولإنْ وَفَى ابنُ الرسان بوعده؛ فسترجع إليَّ روحي، وسأحيا الحياة السعيدة التي تتمنيها لي!!
- ويح الخبيث.. ابن اليهودية!! إنَّه يطمع في جاهك ومالك، وسيظل يُهديك من خمره حتى يفنى مالك، ثم يتركك تهلك وحيداً!
- ليست الخمر هي ما أنتظر؛ بل.. أرتقب أنْ يجمعني بحوريةٍ من الملائكة!!؟
- هل هذا الشيطان الآثم.. سيجمعك بالملائكة؟!! (استنكرت بازدراء وتأفُّف)..
- أُغربي عن وجهي.. يا سفيهة!! (صاح.. يطردها زاجراً)

انتبذت عن مجلسه، وتركته منفرداً.. يناجي أحلامه.. وينتظر طعامه، ثم سمعت طرقاتٍ عنيفة على باب الدار؛ فانطلقت إلى الباب.. وهي تسب طارقه الذي أزعجها.

فتحت الباب؛ فدلفت سعدى.. تصرخ باكية.. وتلهث مضطربة، طفقت تدور في صحن الدار.. كالتي مسها شيطان، رمقتها نجوى بتوجُّسٍ وهلع: "ماذا دهاكِ.. يا سعدى؟!"،

- لقد خطفوها.. يا أُختاه!! دهموا البيت بخيولهم.. وحملوها معهم عنوة!!

- مَن هي؟!! ومَن الذين خطفوها.. يا خرقاء؟؟!
- سلوان!! خطفها.. الإفرنج!
- ماذا تقولين؟!! (شهقت نجوى مُرتاعة)، ثم أردفت صائحة: "ألم يرحل هؤلاء عن قرطبة؟! كيف يخطفونها.. وقد رحلوا؟؟ يا ويلي! هل سيأخذونها إلى بلادهم؟!!".

خرج إليهما عبد الجبار مُنزعِجاً من صياحهما.. وقد نمى إلى سمعه بعض حديثهما؛ فقال: "بِمَ تهذي.. يا أمة السوء؟؟ مَن تلك التي خطفها الإفرنج؟؟"،

- إنَّها سلوان!! بنت.. السيدة (فاطمة المروانية).. يا سيدي!!

بُهِت عبد الجبار.. وسُقِط في يده: (سلوان!! حبيبتي.. أسيرةٌ في أيدي الإفرنج الكفار؟!!)، مَادَتْ به الأرض؛ فانهد خائراً، أذهلته المفاجأة عمَن حوله.. وانقطعت أنفاسه؛ فتراءى للجاريتين خامداً ساكناً.. رغم النيران التي تضطرم في أحشائه، مرت اللحظات الخرساء –إلا من نحيب سعدى- كأنَّها أيام، وما انقضت سويعاتٌ يسيرةٌ إلا كأنَّها رَدَحٌ طويلٌ من الابتئاس والهلع، تتساءل نجوى في سريرتها مُتعجِبة: (ما خطبكما؟!! كل هذا الحزن على سلوان؟!! أعلم أنَّ سعدى رقيقة القلب.. سريعة البكاء، وأعلم أنَّها تحب فاطمة وتلميذتها!!)، (لكن.. ماذا دهاك.. يا عبد الجبار؟؟! أ نسيتَ جوعك وعطشك؟!! هل تحبها أنت أيضاً؟؟! كيف.. وأنت لم تعاشرها.. وحتى لم ترها إلا لماماً؟!! ويحك.. أ و مثلك له قلبٌ.. يعشق ويحب؟!!).

قطع عليها خطراتها.. طرقٌ خفيفٌ على باب الدار، مشت إليه متثاقلة لتفتح، فيما تتساءل -في خاطرها- هازئة: (مَن ذا الذي يطرقنا الحين؟!!)؛ إذ أجاب –من وراء الباب- كأنَّما أدرك خطراتها: "افتحي يا جارية؛ أنا ابن الراسان!"، اشمأزت من صوته، ووَدَّت لو أجابته صارخةً في وجهه: (بؤساً لك.. أيها الخبيث! ما الذي أقدمك علينا الحين؟؟!)، بيد أنَّها اكتفت برسم ابتسامةٍ مقتضبةٍ على شفتيها.. سترت بها اشمئزازها، وأدخلته إلى مجلس سيدها.. دونما تنبس بكلمة.

****

-المشهد الثالث والثمانون بعد المئة-

أبصره خانساً.. هامد الجسد.. ممتقع الوجه والقسمات؛ فسأل بقلقٍ مُفتَعل:

- ما لي أراك حزيناً.. يا عبد الجبار؟؟ أبعد اللهُ عنك الشرورَ والأحزان!!
- إنَّها جريرتك.. أيها المتراخي! قد طالبتُك أنْ تُعجِّل باستقدام سلوان إليَّ؛ لكنَّك تخاذلتَ حتى اختطفها الإفرنج! (أجابه حانقاً)، ثم استطرد صائحاً بانفعالٍ وجزعٍ: "ماذا أفعل الحين؟؟ قاتلك الله! ضيَّعتَ مني حبيبتي!!".

قَدَّرَ ابنُ الرسان أنَّ الخبر –خبر اختطاف سلوان- قد وصل قبله، رنا إليه بنظراتٍ فاحصة؛ أظهرها كأنَّها نظراتُ دهشةٍ وتعجُّب، واجتهد أنْ يُخفي ما وراءها من سرورٍ وشماتة، ثم ابتسم مُواسياً، وأخذ بيد صاحبه يربت عليها.. وهتف مُتلطِّفاً: "لم أَتَصَوَّر أنَّك تحبها إلى هذا الحد!!؟"، فأجابه بتضجُّرٍ: "بل.. أشد مما تتخيَّل! يجب أنْ ننقذها، لابد أنْ نُدرك أولئك الخاطفين.. قبل أنْ يفروا بها إلى بلادهم!".

- اطمئن.. يا سيد عبد الجبار! ستستعيد حبيبتك؛ فلا تجزع!!
- كيف.. يا هذا؟؟ أقول لك: قد اختطفها الكفار الراحلون إلى بلادهم!!؟
- أنا الذي دبَّرتُ اختطافها، واطمئن.. لن يمسها أحدهم بسوء!
- ماذا تقول؟!! لعنك الله!! أ ترضى أنْ يطلع الكفار على عورات بناتنا؟؟!
- أنت رجوتني أنْ أستخرجها من دار حمدون.. ولو أَخطفها؛ فسخَّرتُ لها هؤلاء!!
- أيها الأثيم!! كنتَ افعلها برجالك، ولا تُسلِّط عليها أولئك الأنجاس!!
- أفعلها برجالي؟!! هل تحسبني قاطع طريق؟؟! (جأر مُتهكِّماً)، ثم استطرد بنبرة تطمين: "لا ترتاع! سنستعيدها منهم.. بسلام!!".
- يجب أنْ نستعيدها سريعاً، لن أطمئن عليها.. وهي بين أيدي هؤلاء الأنجاس!!
- لا بأس! نسترجعها الحين؛ فقط.. أجب لهم شرطهم!

- شرطهم؟؟ ماذا يشترط.. أولئك الأوغاد؟!!
- يطلبون فديتها!!

فَزَّ إليه مُغتاظاً.. وأمسك بتلابيب ثيابه يجره بها.. صائحاً بتسخُّط: "أيها الطمَّاع الجشع! أنت.. دبَّرت هذه المكيدة لتبتزَّ مني المال!؟ هيهات! ورأس أبي.. لا تنال مأربك أبداً!!"، نزع ابن الرسان نفسه من بين يديه.. وعدَّل ثيابه، ثم هتف مُستخِفاً:

- لا تدفع! اتركها للإفرنج.. يرحلون بها إلى بلادهم!!
- هل ترضى أنْ تُستعبَد ربيبتك عند الإفرنج.. يا ابن الرسان؟؟!
- تذكرتَ –الآن- أنَّها ربيبتي؟! طبعاً.. لا أرضى أبداً! وأعترف أني أخطأتُ!!
- إذاً.. اذهب إليهم، صحّح خطأك.. واسترجعها منهم!!؟
- للأسف!! بعد أنْ أسروها.. قال لي رئيسهم: الآن نطلب فدية، نهرتُه وعنَّفتُه.. وشاتمتُه؛ لكن.. قد صارت في أيديهم! فقلت: بكم أفديها؟؟ فطالب بفداءٍ كبير، طالبني بألفي دينار، طفقتُ أساومه؛ لكنَّه رفض المساومة.. وأَصرَّ على شرطه!
- ....
- لابد أنْ نستنقذها منهم.. حتى لو أخذوني مكانها! إنَّها ابنتي.. يا عبد الجبار!!

رنا إليه بارتياب وتوجُّس، طأطأ ابن الرسان رأسه لتهرب عيناه من نظراته التي تقول: (لا أشك أنَّك كاذبٌ دنيء)، غشيتهما برهةٌ صامتة.. حتى شق الصمتَ صائحاً:

- أنت كذَّابٌ أثيم! إنَّك اتفقتَ مع أولئك الأشرار طمعاً في الفداء؛ سأفضحك عند المهدي، وسأجعله يرسل قواته وراء هؤلاء الأجلاف.. ويستنقذها منهم بالقوة!!
- لَعَمْرُك.. لو أرسل المهدي وراءهم؛ لأرسل متوسِّلاً يقول: خذوا الفتاة وكل ما تشتهون وارجعوا قاتلوا معي البربر!! (جأر ببرودٍ صفيق)؛ ثم استطرد: "ليس لك خيار –إنْ أردت الفتاة- إلا الفداء، وأنا أضمن لك عودتها سالمة!!".
- ألفا دينار ذهبية؟؟! هذا مبلغٌ عظيم.. لا يملكه أحد!!؟

- لكن.. أنت تملكه! ولن تبخل على حبيبة قلبك أنْ تفديها به.. وتستنقذها من براثن أولئك الذئاب!! وعَجِّل قبل أنْ يرحلوا بها إلى برشلونة!!
- لو دفعتُ.. المال؛ كيف.. أَسترجعها.. سالمة؟؟!
- أعطني المال الآن، وسأُوصله إليهم بنفسي، ثم أعود لك بها.. آمنةً مطمئنةً!!
- وأيم الله! لا آمنك على المال.. ولا عليها؛ سأُجهّز المال.. وسآتي معك بنفسي!
- افعل ما بدا لك! المهم.. الفداء!! وسأنتظر –هنا- حتى تُحضِره!!
- هل تظن أنّي أحفظ مالاً –كهذا- ها هنا.. في الدار؟!! اذهب.. وأمهلني إلى الليل، ثم ارجع نقصِد إليهم معاً!!
- كما تشاء! فقط.. اِحرص ألا تتلكّأ؛ فلا أضمن أنْ يؤذوها إنْ تأخرتَ عليهم!
- تالله.. لو آذوها.. (صاح عبد الجبار غاضباً مُتفجّعاً)، فقاطعه قائلاً بلامبالاة:
- لن تقدر أنْ تفعل شيئاً!! فعَجِّل بالفداء؛ ذلك خيرٌ للجميع!!

****

-المشهد الرابع والثمانون بعد المئة-

كانت نجوى تتسمَّع إلى تحاورهما من وراء الباب! انصرف ابن الرسان على أنْ يرجع أول الليل، وهرولت نجوى إلى حيث انزوت سعدى تبكي، رنت إليها باندهاش.. ثم هتفت مُستنكرة: "أ ما زلتِ تبكين.. يا خبلاء؟؟! ما شأننا نحن بسلوان.. أو أم هشام؟!".

- وما أملك لك أنْ نزع الله الرحمة من قلبك؟! (جأرت تُوبّخها.. وهي تُكفكف دموعها بظهر كفها)، فأعرضت نجوى عن قولها.. واستطردت هامسة:
- أ تدرين لماذا كان ابن الرسان هنا؟؟!
- .... (لم تكترث سعدى، وإنَّما رمقتها باشمئزاز)
- هو مَن اكترى الإفرنج ليخطفوا صاحبتكِ!!
- ماذا تقولين؟؟! (شهقت سعدى متباغتةً)

- قد سمعتُه –من وراء الباب- يعترف بها.. لعبد الجبار!!
- ويح الوغد.. الفاجر!!ماذا يرجو من وراء ذلك؟؟!
- يطمع أنْ يفتديها عبد الجبار بفديةٍ باهظة!!
- وأيم الله.. قد خاب رجاؤه! وهل يملك أنْ يقضي دين خمره؟!!

سكتت نجوى ولم تَتفوَّه بالردِّ؛ وإنْ كانت تهمس في دخيلتها: (أجل.. يا غافلة! يملك أنْ يقضي ديونه، ويملك أنْ يفتدي سلوان، ويملك أنْ يشتري ثلث قرطبة بكنزه الدفين!! لكنَّه.. شحيحٌ بخيل!).. قاطعهما خروجه من مجلسه، توَّجه إليهما قائلاً: "أم هشام.. كانت مُعلمتي في الصغر، وهي بمثابة عمة أبي –رحمه الله- ينبغي علينا مواساتها؛ فاذهبا إليها.. وامكثا عندها الليلة، وأبلغاها عزائي.. وعزاء أمي!".

همَّت سعدى أنْ تسأله: (ألن تدفع فداء سلوان؟)؛ بيد أنَّ نجوى فطنت لها.. وخافت أنْ يعلم بتصنُّتها عليه؛ فحدجتها بنظرةٍ زاجرةٍ؛ فأسكتتها قبل أنْ تتكلَّم.. فتفضحها، ثبتتا مكانهما صامتتين؛ فلوَّح في وجهيهما.. وصاح مُعنِّفاً: "أقول لكما: اذهبا إلى أم هشام! هيا انطلقا.. الحين!!".

على حزنها وبكائها.. هبَّت سعدى بنشاط؛ بينما نهضت نجوى مُتثاقِلةً.. تتساءل في سريرتها: (إيلام ترمي.. يا عبد الجبار؟؟! ماذا ستفعل؟!!)، تهيَّأتا للذهاب.. وانطلقتا إلى دار أم هشام، وخلَّفتاه وأمه القعيدة وحيدين في الدار.

*****

دلفتا إلى أم هشام؛ فألفياها والعَبرات الحارة تنساب على وجنتيها.. وبعض الجارات يواسينها، قعدتا إلى جوارها تُطيِّبان خاطرها برهة، ثم أبصرنَّ أمَ سعدون -قادمة من خارج الدار- تلطم خديها.. مهرولةً إلى سيدتها صائحةً بعويل: "طردوني من القصر.. يا أم هشام، منعوني عن لقاء سيدي حمدون!!؟".

طفقت نجوى والجارات يُسكِّنَّ جزعها، وبعد أنْ هدأت قليلاً.. علمت سعدى أنَّها كانت تحاول أنْ تلتقي بحمدون –كما كلَّفتها سيدتها- لتُعلِمه نبأ سلوان؛ فهتفت:

- قد أستطيع أنا -يا سيدتي- أنْ أدخل القصر.. وألتقي بالسيد حمدون!!؟
- حقاً.. يا بُنية؟؟! (تساءلت.. وقد تسرَّب شعاعُ الأمل إلى قلبها من جديد)
- نعم! تعلمين أنّي كنتُ أخدم في القصر، ولن أعجز عن دخوله، وأستطيع أنْ ألتقي بالكهرمانة (شعب).. وأُبلغها بما شئتِ!!
- أجل!! نستطيع ذلك أنا وسعدى.. يا سيدتي!! (انبعثت نجوى هاتفةً باستحسان)
- إذاً.. اذهبي.. يا بُنية! وأخبري حمدون بالفاجعة التي رأيتِ، وخبِّريه أني سأموت كمداً إنْ أصاب سلوان ما نكره!! (خاطبتها أم هشام بنبرةٍ متوسِّلة يقطعها النشيج)، فيما استعبرت أم سعدون.. وشرعت تولول وتنوح قائلةً:
- آه.. يا سيدي!! لو كنتَ معنا في الدار؛ لما استطاع أنْ يفعلها الفجار، ولو كان في الحي رجالٌ؛ لمنعونا!؟؟ لهفي عليكِ.. يا سلوان!! يا ويلتنا.. ما لنا والكفار؟؟!

نهرتها سيدتها بصوتٍ ضعيفٍ موجوع.. وقالت: "أُسكُتِ.. يا امرأة! لا تُشْمِتِ بنا الشيطان!!"، ثم التفتت إلى سعدى وسألتها بتحضيض يشوبه الاستحياء: "هل تذهبي –الحين- يا سعدى؟؟!"، فأجابتها نجوى –وهي تجتذب سعدى من يدها-: "أجل.. يا سيدتي! إضاعة الوقت.. ليست في صالحنا!!"، ودفعت رفيقتها أمامها.. وانصرفتا.

بينما تسعى سعدى في طريقها إلى القصر.. تستغيث الله وتلهج بالدعاء لسلوان بالنجاة والسلامة؛ إذ تمشي نجوى خلفها شاردةً.. تعبث بعقلها الأفكارُ: (لا ريب أنَّ عبد الجبار تحايل ليُخرجنا من الدار كي ينبش على خبيئته.. دونما نراه!!؟)، (قطعاً.. لا يحب أنْ تعلم إحدانا بمكان كنزه.. ولا بوجوده أصلاً!!)، (بؤساً لك.. يا مسكين!! لن تجد الصندوق، ولن تعثر على كنزك!! قد حزتُه.. ولن أُفرط فيه أبداً!!).

استرسلت خواطرها تتخيَّل: (كيف سيكون حاله عندما ينبش تربة الحديقة.. ولا يجد ما أخفاه؟؟! تالله.. قد يُجن!! أو قد يموت حسرةً على كنزه المفقود!!)،

(ويحك.. أيها البليد! مكثتَ في الدار -مذ عُدتَ إلينا- أياماً ولياليَ؛ فما حاولتَ أنْ تطمئن على خبيئتك: محفوظة في محلها أم ذهبت، ورغم الفاقة التي ترانا فيها.. لم تتحرك لاستخراج ولو درهم تَبِّرنا به.. أو تَبِّر به أمك!!)، (تركض في الدنيا.. تجمع الأموال بالحق والباطل.. لتكنزها، وتبخل بها على أمك وأهل بيتك؟؟! لعمري.. إنَّك تستحق ما فعلتُه بك، إنَّ فقدانك لذلك المال المكنوز.. لهو عقابٌ هينٌ أنزله الله بك!!)، (ها.. ها.. وددتُ لو أراك وأنت تحفر على الكنز.. ولا تجده، سيكون منظراً يشفي صدري منك ومن بخلك!)، (تراه.. ماذا سيفعل حينها؟!! ربما يُجن.. ويندفع يقلب الحديقة رأساً على عقب، وقد ينبش تربتها جميعها حسرةً وغضباً!!؟).

صدمتها الفكرة.. وانبثقت في خاطرها هاجسةٌ افترست قلبها: (ويحك.. يا نجوى! إنْ فعل فقد يعثر على الصندوق حيث أخفيتُه! يا ويلي! ساعتها.. ماذا أفعل؟؟ قد يقتلني إنْ علم بفعلتي!)، (يا بلهاء!! ألم يستقر رأيكِ على أنْ الذي فعلها هو -العبد الآبق- شادن؛ ودليلك أنَّه فرَّ من دار سيده.. ومن قرطبة كلها!!)، (تباً!! وإنْ سأل لماذا أخفاه في الدار.. ولم يحمله معه؟!! كلا!! سينتبه إلى أنها فعلتي أنا!!)، (يا ويلتي! يجب ألا يُفتِّش في الحديقة؛ سأرجع إلى الدار وأُثنيه عنها!)، (لن أدعه يحصل على الكنز، وأخسره.. بعد الذي بذلتُه لأستأثر به؟!! تالله.. لن يكون!!).

صاحت تنادي سعدى التي سبقتها بخطواتٍ: "اذهبي أنتِ إلى القصر، وسأعود إلى الدار؛ يجب أنْ أُطعم أم عبد الجبار، بالله.. إنَّ ولدها لا يُحسِن أنْ يُطعِم نفسه!!"، وانسحبت راجعةً إلى دار عبد الجبار.

****

-المشهد الخامس والثمانون بعد المئة-

عقب صلاة العصر.. وكدأبهما -منذ عهد (المستعين)- حين انحبسا معاً في مخدعه بالقصر.. جلس المؤيد يستمع إلى تلاوة حمدون العذبة، ثم شرعا يتجاذبان الحديث في شئونٍ شتى، وإلى جوارهما الوصيفة (شعب) مُنشغِلةً بترتيب أغراض سيدها الخاصة.

سكتا برهة.. تفكَّر المؤيد خلالها في حال حمدون معه.. مُتعجِّباً من إخلاصه له وحَدَبه عليه غير طامعٍ في جزاءٍ ولا شُكور، أشفق عليه لتباعده –شهوراً عِدّة- عن أهله وبيته حاشا مراتٍ معدودة رجع فيها –على عجل- إلى جدته يطمئن عليها ويطمئنها على نفسه.. أو يقضي لها حاجةً مُلِحَّة، ثم تبادرت إلى ذهنه هاجسةٌ مريبة؛ فالتفت إليه مُتسائلاً:

- إني أَعجب.. يا حمدون؛ لِمَ تُسخِّر نفسك هكذا.. وتُكرِّس حياتك لأجلي؟!!
- لَعَمرُك.. لا أدري ما أقول.. يا سيدي.. سوى: أني أحببتُك كأبي الذي لم أره!
- وأنا.. أُشهِد اللهَ أنّي أحببتُك -يا حمدون- كولدي الذي لم أنجبه!
- يا سيدي! هذا شرفٌ عظيمٌ.. لا أستحقه!!؟
- بل تستحق كل الخير.. يا ولدي.. لإخلاصك وشهامتك؛ فما سمعتُ، ولا سمع أهل قرطبة –من قبلُ- برجلٍ مثلك هجر أهله وبيته.. ليحرس رجلاً مثلي لا يُؤبه له!!
- كيف لا يُؤبه إليك.. وأنت (المؤيد).. خليفة الأندلس؟!!
- أ نسيتَ.. يا فتى؟؟ ما عدتُ الخليفة؛ ولقد تنازلتُ عنها للمهدي.. مرة أخرى!!
- وهذا ما أعتب عليك فيه.. يا سيدي!!؟ كيف تنزع عنك ثوباً ألبسكه الله؟؟!
- وأيم الله.. ما أحببتُ -يوماً- أنْ ألبس هذا الثوب، وإنّي لمسرورٌ بانتزاعه عني!
- إنَّك الخليفة.. ابن الخليفة.. حفيد الخليفة؛ ورثتَها كابِراً عن كابِرٍ.. وتقول هذا؟!!
- أ رأيتَ إنْ أرغموك على ارتداء ثوبٍ ثقيلٍ حمله؛ أ كُنتَ تُسَرُّ به؟؟!
- ....

- ثوب الخلافة ثقيلٌ عليَّ.. يا حمدون! لكن.. دعك مني، إنَّما أريد أنْ أسألك: ألم يأن الأوان أنْ ترجع إلى بيتك وجدتك؟! ألا تحب أنْ ترجع.. وتتزوَّج سلوان؟؟!
- أرجع عنك وأتركك لخصومك دون حراسة؟! لن يكون.. وبين جنبيّ قلبٌ ينبض!!
- كانوا خصومي حينما نازعوني الخلافة، أما وقد تنازلتُ عنها، وأيقنوا أنّي لا مأرب لي فيها؛ فليس لنا حاجة في إرهاقك نفسك بهذا العِبء!!
- يا سيدي!! أخشى أنَّ المهدي يتحرَّق تغيُّظاً بعد انهزامه.. ولا سيما وحلفاؤه الإفرنج رحلوا عن قرطبة، ولا أدري: ربما يَشِطّ.. ويُسوِّل له شيطانُه التخلُّصَ منك!!؟
- كلا.. لن يفعل! ولا يخفى عليك أنَّه نزل إلى فحص السرادق ليُراقِب بنفسه تعبئة الجيش.. واستعداداته ليستأنف حربه على البربر؛ فهو مشغولٌ بهم عني!!؟
- أعلم أنَّه لقي في جنود شاطبة وسرقسطة عِوَضاً عن الإفرنج، على أنَّ انصرافه إلى قتال البربر لا يُبرر لي التخلي عن حراستك!!
- ارجع إلى أهلك.. يا حمدون؛ فلن تدرأ عني الموت!!
- هل مللتَ صحبتي.. يا سيدي؟؟!
- حاشا لله.. يا ولدي! غير أنّي أخشى أنْ تُضيّع أيام شبابك حبيساً معي في هذه الغرفة، أم أنَّك تهرب من حبك سلوان؟؟!
- ....
- رغم أنَّك تتفانى في رعايتي وحفظي من عدوي المجهول؛ إلا أنَّ الشيطان يوسوس لي أنَّ مُكْثك معي ها هنا.. هو هروبٌ من الالتقاء بها هناك، فما قولك؟؟!

سكت حمدون برهة، وقد تغيَّر لونه.. وانقبض وجهه هنيهة، ثم انفرجت أساريره.. ورفع رأسه ليهتف بنبرة تحدٍ مهذبة: "أقول أنَّك تستفزّني لكي أفارقك مغاضباً؛ وهذا لن يكون!!"، ثم استطرد -والمؤيد يرنو إليه بمودة- قائلاً: "ولا أُنكر أنَّ ابتعادي عنها فيه عزاءٌ لكبريائي.. بعد أنْ تَكَرَّر تسويفها!؟"،

جأر المؤيد مُتلطِّفاً: "تروقني صراحتك، لكن.. الرأي عندي أنْ ترجع إلى جدتك وبيتك وحياتـك.. وإنْ أَجَّلـت سـلوانُ الـزواج، وإنْ أَجَّلتـه!!"، فأجابـه حاسـماً: "لـن أتـرك حراستك.. حتى أطمئن أنَّك أصبحت في أمان!!".

نقر على الباب.. طارقٌ يُخافت من ورائه: "أيتها الوصيفة! ثمة زائر يلتمس اللقاء!!"؛ فـانبرى حمـدون ليسـأل بتحفُّـز: "مَن ذاك؟! وماذا يريـد؟!!"، فأجابـت سـعدى هامسـةً: "أنـا خادمتـكِ سـعدى.. يـا كهرمانـة!"، انفـتح البـاب.. وانسـلَّت والجـةً، تطلَّعـت إليهـا عيونهم باندهاشٍ فيما تهرع إلى سيدها (المؤيد) تُقبِّل الأرض تحت قدميه.. وتهتف بفرحٍ واضطرابٍ: "مولاي المؤيد! حمداً لله على نجاتك!"، حنا عليها.. ووضع لها جناحه حتى سَـكَّن اضـطرابها، وسـكبت لهـا الوصـيفةُ شـراباً.. اسـتحيت أنْ تشـربه في حضـرة الخليفة؛ فسمح لها.. وتجرَّعت –خجلى- بعض رشفاتٍ منه، ثم سألتها شعب:

- أين كنتِ طيلة هذه المدة.. يا جارية؟!! وما الذي أقدمكِ إلينا.. الحين؟؟!
- أما غيابي؛ فشرحه يطول، وأما ما أقدمني: وا غوثاه!! إنَّها مصيبةٌ وقعت على آل بيت السيد حمدون، داهم عُلُوجُ الإفرنج الدار.. وخطفوا سلوان!

****

-المشهد السادس والثمانون بعد المئة-

هرولـت نجـوى إلى الـدار؛ فأدركـت سـيدها جاثيـاً –في الحديقـة- يَنـدُب حظـه ويحثـو التراب فوق رأسه.. قد أحاطت به الحفائر وأتربتها، بتوجُّسٍ اختلست نظرةً إلى التربة حول شجرةٍ قَصِية؛ فأبصرتها على حالها.. فاطمأنت أنَّ سِتْرها لم يفتضح.

جأرت مُتظاهِرةً بالارتياع: "ما خطبك.. يا سيدي؟؟! ما هذا الذي تفعل؟!!"، انتبه إليها، قفـز منتصـباً.. وجمـر الغضـب يَتَّقـد في عينيـه: "أيـن الصـندوق الـذي كـان هنـا؟؟!"، تسـاءلت –مُتصـنِّعة الانـدهاش والجهـل-: "أي.. صـندوق؟!!"، أمسـك ذراعهـا يعصـره

بقسوة.. وصاح ساخطاً: "صندوق مالٍ؛ كنتُ خبَّأتُه.. هنا!!"، صرخت مُتأوهةً: "اترك يدي.. ستكسرها!! أ وقد خبل حبُها قلبك؟! تَضِنُّ بالمال على أمك؛ وتفتديها به؟!!"،

- وراس أبي.. إنَّكِ لأنتِ السارقة! كيف عرفتي أنني سأفتدي سلوان؟؟! (زمجر حانقاً)، وهمَّ بها لولا أنَّها أفلتت ذراعها من يده، جَرَتْ مُبتعِدةً عنه وهي تصيح:
- لَعَمرُك.. لستُ أنا؛ بل.. عبدك الآبق.. شادن!!
- كاذبة!! كيف عرفتي بشأن المال.. والفدية؟؟! (زأر بصوتٍ مخيف)، تمالكت نفسها بعد ارتباك، واجتهدت أنْ تستمسك بثباتها وهتفت:
- لا أدري بشأن المال، وسمعتُ حديثك مع ابن الرسان عن الفدية!!
- إنَّك كاذبة! لن يتجرَّأ غيرك على سرقة مالي!! (زأر ناقماً.. ومحاولاً أنْ يُمسك بها)، طفقت تدور راكضةً حول المكان لتنفلت منه.. وصاحت:
- وأيم الله!! شادن.. تركنا وفَرَّ عن قرطبة فور رحيلك!! لا ريب أنَّه هو الذي سرقك!!
- كلا.. كلا! العبدُ.. لم يعلم شيئاً عن الصندوق، ولم يعلم: أين خبَّأتُه!!؟
- ولا.. أنا!! ولا.. سعدى! ولو عَلِمنا أنَّك تُخفي مالاً في الدار؛ لَكُنَّا تَبَلَّغنا به.. خيرٌ من أنْ نستجدي الناس!!

أعرض عنها، وتصلَّب مكانه هنيهة.. كأنَّما جندلته الحيرةُ، ثم هوى.. يَئِنُّ يائساً مستسلماً: "أين ذهب الصندوق؟؟ ضاعت كنوزي.. التي جمعتُ!!؟"، ثم اِدَّكر سلوانَ وفداءها؛ فانبعث يتفجَّع باكياً مُشفِقاً: "ويلي.. ويلي!! كيف أفدي سلوان؟! كيف أنجد حبيبتي؟!!"، سَكَّنتْ نجوى اضطرابها، ثم جعلت ترنو إليه برثاء.. مُتسائلةً بتحيُّرٍ واندهاشٍ: "إلى هذا الحد.. قَتَّل العشقُ فؤادك؟!! إنَّك لا تعرفها.. ولم ترها إلا لماماً!!؟"، فأجابها بنبرةٍ شاجنةٍ: "نعم!! صدفةً.. أبصرتُ وجهها الصبوح مرة أو مرتين؛ فبهرني ضياؤه، وخاطبتني بكلماتٍ معدودة؛ فغرستْ بين أضلعي قلباً ينبض بحبها.. بعدما عشتُ حياتي –قبلها- رجلاً بلا قلب!!".

تطلَّعت إليه بإشفاق.. والتزمت الصمت، ثم سمعت صوت ابن الرسان ينادي من خارج الدار –ولمَّا يَجِّن الليل بعدُ-، لململت شعثها وأصلحت ثيابها، ثم أقبلت تُنهِض سيدها حتى استقام، وهمست بتؤدة:

- الشيطان جاء قبل موعده؛ يتعجَّل أنْ يحظى بمبتغاه، إيَّاك أنْ يفطن إلى فَقْدك المال الذي ينشد وإلا...
- لن يَتورَّع النَّذْل.. عن إيذائها!! فماذا أفعل؟؟! (تساءل حائراً مذهولاً)
- هَندِم نفسك، واستقبِله بكياسة، ثم استمهِله ليلةً أخرى مُتذرِّعاً بغُلُوِّ الفدية عن أنْ تُجمَع في ليلةٍ واحدة!!
- وهل المماطلة تُجدي نفعاً؟؟! (جأر يائساً مُتحسِّراً)
- نرجو من الله.. الغَوْث والنجاة!! سأفتح الباب.. للخبيث؛ هيا.. تهيَّأ للقائه!

****

-المشهد السابع والثمانون بعد المئة-

على حذرٍ من الراصدين.. ركض ابن الرسان إلى حيث يستتر رامبون وزمرةٌ من فرسانه.. وبصحبتهم أسيرتهم، اختلى به هامساً: "أرى –يا رامبو- أنْ ترتحلوا الليلة عن قرطبة؛ فإنَّ عبد الجبار يُماطل، وأخشى أنَّه يدبِّر مكيدة!".

- إلى أين نرتحل؟! (تساءل مستنكراً.. مرتاباً)
- بيت آمن في منزلة هانئ! هي أقرب مرحلة في طريق العودة إلى الشمال، ينبغي أنْ نوحي إليه بأنّك جادٌ في اصطحاب الفتاة إلى برشلونة!!
- أُقسم بالرب.. لإنْ غدرتَ بي؛ لأجعلنَّك عبرةً يعتبر بها أمثالك!!
- سكِّن جزعك.. أيها الفارس، واحفظ حنقك لعدوك؛ فإنَّا شريكان!
- ظننتُ أنَّ الأمر انتهى.. وأنَّك أحضرتَ المطلوب!!؟

- زعم الرجل أنَّه لم يستطع جمع المال كله، وطلب الإمهال ليلة أخرى، والآن.. هَلُمَّ رجالك؛ فلترحلوا –قبل الصباح- إلى مَكْمَنٍ أفضل من هذا.

دعا رامبون رجاله الأربعة، أعلمهم أنَّهم مضطرون للانتظار ليلة إضافية.. وبحوزتهم الفتاة، وأنَّ عليهم الانتقال إلى مكانٍ آخر.. أكثر أمناً، انزعج الرجال.. وتَذَمَّروا لتباعد الشُّقَّة عن ركب (الكونت) العائد إلى الوطن، صبَّرهم.. وذكَّرهم بالغنيمة الباردة التي سيغنمونها، أذعن القوم، وسرعان ما دبت بينهم حركة التجهُّز للرحيل.

بينما هم مُنشغِلون؛ إذ قصد إلى حجرةٍ ضيقةٍ -كأنَّها جُحْر ضَبٍّ- يتحفظون فيها على سلوان مُكَّمَمة الفم.. مُقيَّدة الأطراف، ولج ومشعلٌ ضئيلٌ بين يديه، غشيها بصيص الضوء.. ففزعت، وجحظت عيناها توجُّساً، دَقَّقت النظر؛ فألفته ابن الرسان –هو الوالج إليها- وابتسامته الوقحة مرتسمة على وجهه، ثم صوته المقيت ينعق:

- ها أنتِ ذي في قبضتي مرة ثانية.. يا ربيبتي العزيزة!! وخطأً.. كنتي تظني: أنَّكِ نجوتِ من يدي حينما فررتِ من البيت بعد موت أمك؛ ألا تذكُري!؟ الآن.. تعودين إليَّ كعصفورٍ هضيم الجناح!!
- .... (تحدجه بنظراتٍ حانقةٍ، مُحاولةً كتم ذعرها عنه)
- اليوم.. لن يمنعكِ مني أحدٌ.. ولا عمك القاضي الذي هدَّدتني به! ألا تذكرين؟! يا حمقاء!! أردتُ رفع شأنك وتزويجكِ الحاجب المرواني؛ فلِمَ أبيتِ وتمنَّعتِ عليَّ؟!!
- .... (ترمقه بامتعاض.. مُستاءةً من عجزها عن إجابته بما يُبكِّته ويُسكِته).
- اليوم.. سأبيعكِ له بثمنٍ باهظٍ –لا تستحقيه-، لكن الأبله سيدفع؛ فللرجال في النساء أذواقٌ!! (همس بنبرةٍ خليعة.. وهو يقترب منها حتى كاد يلامس وجهه وجهها)، اشمأزت منه ونفرت، بيد أنَّها انتهزت اقتراب وجهه منها.. ونطحته في أنفه: (ف.. كظم الغيظ، والسكوت عن معاقبته لا يشفِ غليلها!!)..

نكص عنها متباغتاً مُتوجِّعاً، اعتدل قائماً، ومسح على أنفه.. كاظماً ألمه وتغيُّظه، ثم هتف بنعرةٍ صفيقة: "لولا أنَّ ذاك الأبله الدميم يريدك سليمة؛ لجازيتُك على سوء أدبك.. أبشع جزاء!!".

وَلَّاها ظهره.. وسار عنها خطوتين، ثم اِرْتدَّ.. وطفق يَتفرَّس فيها بعيونه الوقحة، ثم همس باجتراءٍ بذيء: "أ تدرين: لو لم يدفع فيكِ ما أطلبه؛ ماذا سأفعل؟؟ سأُغري بكِ أولئك المتوحشين؛ فإذا قضوا منكِ وطرهم مراتٍ ومراتٍ.. وسئموا منكِ، وصرتِ مُضغةً مُهترِئةً يَعافها الكلاب، أخذوكِ إلى بلادهم ليُنظِّفوا بك زرائبَ خنازيرهم القذرة! فاسألي ربك أنْ يَتخلّى عبد الجبار عن بخله ويدفع الفدية.. خير لك!!".

****

-المشهد الثامن والثمانون بعد المئة-

جَنَّ الليل.. وأظلمت الدنيا في عيني عبد الجبار، وجثم –في مجلسه- خائراً.. تكاد الحيرة تفتك بقلبه، وطفقت العَبَرات اليائسة المحبطة تنساح على وجهه، رغم تغيُّظها منه.. أشفقت نجوى عليه، ورقَّت لحاله لمَّا رأت دموعه؛ ولا تدري: (أ هي حسرةً على كنزه الذي فَقَد.. أم جزعاً على حبيبته التي يفتقد؟!)، تذكَّرت جوعه؛ فنهضت.. وأعدت له طعاماً متواضعاً –من قُوتها هي وسعدى- عَلَّه يسدّ رمقه؛ فما امتدت إليه يده، وقَدَحاً من شرابٍ؛ فما أبصرته يحتسي منه رشفة، وما أدركت: (هل عافت نفسه الطعام لحقارته؟ أم أزهده الحزن والقلق.. في الطعام والشراب؟!!).

همست بتأدُّبٍ –لم يعهده منها مذ عاد من شِلْب-: "ألا تأكل.. يا سيدي؟؟! لقد دخل الليل.. وقد تبيت سعدى عند أم هشام.. كما أمرتَها؛ فلن يأتيك طعامٌ خيرٌ مما بين يديك!!؟"

- وأنتِ.. لماذا رجعتِ؟ ولم تفعلي مثلها؟؟!
- خشيتُ على أم عبد الجبار؛ فإنَّك لا تستطيع أنْ تقضي لها حاجة!!

- أصبتِ.. يا جارية!! إنِّي لا أقدر أنْ أقضي لأحدٍ حاجة.. حتى حبيبتي أعجز عن استنقاذها من أيدي الأعداء!! لهفي عليكِ.. يا سلوان!!؟

رمقته مَبْهوتةً.. وسكتت عنه والعَجَب يراود قلبها: (سبحان مُقلِّب القلوب! كيف لرجلٍ -كهذا- أنْ يصرعه العشق هكذا.. على ما فيه من غلظةٍ وبخل؟!!)، (أ وبعد أنْ تجاوز سنه الأربعين.. يعود فيعشق كالفتى الغَضّ؟؟!)، (يا ليتني.. لم أسرق المال!! لو لم أفعل؛ لكان افتدى سلوان، ولربما باتت -الليلة- آمنةً في بيتها!!)، (إنْ لم نفتديها؛ فقد يأخذونها سَبيَّة، وستضيع منا إلى الأبد!!)، (تباً لي!! الفتاة الطيبة.. لا تستحق ذاك المصير البشع!!).

(ماذا أفعل؟؟! هل أتدارك.. وأُصارحه بالحقيقة؟؟ تالله.. قد يقتلني!؟؟)، (لا.. لا! لن أعترف على نفسي!! لا جرم أنَّ سعدى أخبرت حمدون، ولا جرم سيأتي لاستنقاذ الفتاة!! أجل.. أجل! إنَّ حمدون شهمٌ شجاع.. لن يتأخر عن نجدتها! وأم هشام.. حينما تعلم بأمر الفدية؛ لابد أنها ستجمع المال.. وتؤديها؛ لا غرو.. فهي سيدةٌ كريمةٌ.. وغنية، وحبها لسلوان معلوم!!)، (الحسرةُ عليَّ أنا.. وأمثالي!! لعمري.. لو كانوا خطفوني -أنا أو سعدى-؛ لما تحرَّك أحدٌ منهم لافتدائنا!؟؟).

طرق البابُ طرقاتٍ خافتة؛ فهرولت إليه على وجل، وهمست من ورائه بارتياب: "مَن الطارق؟؟!"، فأجابها صوتٌ خفيضٌ: "افتحي.. يا نجوى! أنا.. سعدى!!"، باندهاشٍ.. فتحت متسائلةً: "ألم تبيتِ عند أم هشام؟!!"، دلفت سعدى.. ولم تُجبها؛ وإنَّما أفسحت لحمدون الذي انسل والجاً.. ومن ورائه رجلان جسيمان مُلثّمان، انزعجت نجوى.. وكادت تصرخ مذعورةً لولا أنْ سَكَّنتها سعدى بنظراتها؛ تداركت.. وهمست مضطربةً: "سيد حمدون!!؟ أهلاً.. ومرحباً!!"، سألها بجفاء: "أين سيدك؟؟".

أشارت إلى ردهةٍ موصلةٍ إلى حيث يقعد مكروباً، بادر إليه الرجلان؛ ففزع منهما، لم يمهلاه؛ بل أمسكا به.. وقَيَّداه بشدة، حدجه حمدون بتربُّص؛ فرآه مذهولاً مذعوراً. على مبعدةٍ وقفت نجوى –وجلةً حذرةً- وعيونها تستفهم من سعدى عما

يجري؛ فهمست في أُذنها: "أخبرتُ السيد حمدون بنبأ ابن الرسان!!"، انقبض قلب نجوى، وانكمشت مُستترةً خلف رفيقتها، وانتصبتا ترقبان المشهد بأنفاسٍ محبوسة.

سأله بحنق: "أين أُخفِيت سلوانُ.. أيها النذل؟؟!"، لم يجبه؛ بل بقي صامتاً شاخص البصر من المفاجأة، جبذه من ذُؤابة رأسه الحاسر جبذةً عنيفة.. وصاح مُهدِّداً مُبكِّتاً: "تكلَّم يا عبد الجبار! وإلا.. مزَّقتُ لحمك حتى تتكلَّم!!"، بيد أنَّ عبد الجبار ظلَّ واجماً وجوماً أخرساً، رفعه الرجلان الجسيمان بين أيديهما، ثم لكمه أحدهما لكمةً شديدةً.. هاتفاً: "دعه لنا.. يا حمدون! سنجعله يتكلَّم!!"، طفقا يضربانه ضرباً موجعاً.. وهو يَئِنُّ دون أنْ يبوح بشيءٍ، حتى أشفقت عليه نجوى وانبعثت تَذِبُّ عنه صائحةً: "ارحمه.. يا سيدي! تالله.. إنَّه لا يعرف مكانها، وإنَّ جزعه عليها لشديدٌ!!".

رفع أحد الرجلين الجسيمين لثامه؛ فكان فرتون، وخاطبها باستخفافٍ: "أُسكتي.. يا أمة الله! نحن أعلم بهذا الرجل منكِ، وإنِّي مُتيقِّنٌ أنَّه هو مَن خطفها!!".

- نعم.. يا سيدي حمدون! كان يُدبِّر لاختطافها.. واتفق مع ابن الرسان على ذلك؛ لكنَّه خدعه وأخفاها عنه، ويُطالبه الآن بفديةٍ باهظةٍ نظير تسليمها له!! صدِّقني –يا سيدي- هذه هي الحقيقة!!؟ (هتفت نجوى بنبرةٍ جزِعةً يقطعها النشيج)
- إذاً.. هات الفدية، ودلّنا على خاطفها.. نستنقذها بها من بين أيديهم!! (خاطبه الملثمُ الآخر.. الذي كان طرسوس).
- ضاعت!! أموالي التي كنتُ أدخرها.. ضاعت! لا أجد ما أفتدي به!! (جأر مُتحسِّراً)
- أيها الشحيح الكاذب! أعلم أنَّك تكنز مالاً كثيراً! (صاح فرتون موبِّخاً.. وعاد يضربه بحقدٍ وقسوة)، اندفعت نجوى تمسك يد فرتون.. لتمنعه عنه؛ فما استطاعت، طفقت تتوسَّل إليهم أن يرحموه ويتجاوزوا عنه، بيد أنَّ عبد الجبار نهرها.. وحدج فرتونَ بنظراتٍ ناقمةٍ متألمة، ثم التفت إلى حمدون وصاح:
- انتقم مني يا حمدون! اقتلني.. فإنني أستحق القتل، لكن.. أرجوك: انجد سلوان، لا تتركها في أيدي أولئك العُلُوج الأنجاس!؟؟

- أيها الوغد!! ألم تكن أنت الذي دفعتَ بها إليهم؟!! (هتف فرتون مُؤنِّباً)، فأعرض عنه.. واستأنف مخاطباً حمدون بنبرة ندم مشبعةٍ بالتوسُّل:
- نعم.. يا حمدون! أغريتُ ابن الرسان كي يخطفها لي من بيتك!! ولا جناح عليَّ؛ فهو ظئرها.. وأرغب في زواجها على شريعة الله، لكن الخبيث مكر بي واستغل الفرصة وحبسها عند الكفار ليبتزني!! وإني لنادمٌ على فعلتي!!
- نادمٌ.. لأنَّك شحيحٌ بخيل.. تَضِنُّ بالمال أنْ تفدي به الفتاة الضعيفة التي تسبَّبتَ بغبائك في وقوعها فريسةً في أيدي أولئك العُلُوج!! (هتف فرتون موبِّخاً)، فالتفت إليه عبد الجبار وصاح معاتباً مُبكِّتاً:
- ألم تكن تلك هي فكرتك.. أيها اللئيم الماكر؟؟!
- أُصمت يا خبيث!! أنا أوعزتُ إليك في تسليم بنات المسلمين إلى الكفار؟؟! (زجره فرتون ناكراً مستنكراً).. واندفع يعاود صَفْعه حتى نهاه حمدون زاعقاً:
- ارفع يدك عنه.. يا فرتون! (ثم التفت مخاطباً عبد الجبار بامتعاض): "إذا كنتَ نادماً حقاً؛ فهَلُمَّ هات المال الذي يطلبون.. نفتديها به!!؟".
- ورأس أبي.. ضاع!! وأيم الله.. كل مالي الذي كنزتُه ضاع!! (جأر باكياً مولولاً)،

هجم عليه فرتون صافعاً راكلاً.. وهو يسبه وينعته بالبخل والدناءة وكذلك طرسوس.. حتى صرخت نجوى تسترحمهم.. وتستحلفهم بالله أنْ يصدِّقوه ويتركوه، وتُقسِم لهم أنَّه فَقَد كل ثروته التي كنز.

زفر حمدون زفرةً حائرة.. وحدَّق في نجوى بارتياب، والتفت إلى سعدى؛ فألفاها تبكي في صمتٍ وسكون، وأُلقي في روعه أنَّه صادقٌ فيما ادعى؛ فهتف بمرارة: "حسبكما.. يا أخوتي!! اتركاه!"، ثم التفت إليه وهمس حانقاً مُتضجِّراً: "عبد الجبار! لا أنشد سِوَى نجاة سلوان؛ فاقصص عليَّ الحكاية كلها.. حتى نتمكَّن من نجدتها!".

****

-المشهد التاسع والثمانون بعد المئة-

بنبرةٍ شاجنةٍ.. حكى عبد الجبار الحكاية؛ عضَّ حمدون على نواجذه، بيد أنَّه لا وقت لديه لمحاسبة عبد الجبار أو معاقبته؛ إنَّما يتوجَّب –الآن- المسارعة إلى استنقاذ سلوان، لكن: (كيف؟!!)؛ بهتته الحيرةُ.. وبهتتهم، وشلَّ الكرب تفكيرهم.

على أنَّ فرتون كان أشدّهم ثباتاً وأحضرهم ذهناً؛ فأوعز بخطة.. عاجلوا إلى تنفيذها، فانطلق ومعه طرسوس -وبصحبتهما عبد الجبار مُستكِيناً- إلى دار ابن الرسان عسى أنْ يعثروا عليه؛ فيُقِرّ لهم بمكان الخاطفين، وأصرت نجوى –امتثالاً لوخزات ضميرها- أنْ تذهب معهم بُغْيَةَ المشاركة في نجدة سلوان، بينما أُمِرتْ سعدى بالمُكُوث مع أم عبد الجبار المريضة.

أما حمدون فقد هرع إلى جدته يلتمس مالاً للفداء؛ فوجد عندها جمعاً من نساء الجيران، وشعب -وصيفة المؤيد- حضرت مواساةً من سيدها لأهل الدار.

اختلى حمدون بجدته دونهنَّ.. ليُنبِّئها بأمر الفدية؛ شهقت الجدة مبهوتةً.. استعظاماً للمبلغ المطلوب، همست آسفةً: "لهفي عليكِ.. يا بُنية!! ليس لدينا مبلغٌ كهذا؛ فماذا نفعل؟!! يا ربي.. بك نستغيث!!"، أضاف حمدون مُقرراً: "قد وهبني سيدنا المؤيد كل المال الذي في خزينته؛ لكنَّه لم يتجاوز مائة دينار!؟"، دخلت عليهما شعب.. وإحدى الجارات –اسمها أم عبدون- هاتفةً بلهفةٍ: "حمدون! أعد لنا سلوان! خَلِّصها من أيدي أولئك الأعلاج! ساومهم على فداءٍ لها!!".

- يشترطون فداءً باهظاً.. يا أم عبدون!! (جأرت أم هشام بتحسُّر).
- سلوان بنتنا كلنا!! نتشارك معاً.. ونجمع لها الفداء المطلوب!! (أجابتها الجارة)
- أجل.. يا سيد حمدون! كلنا نفتدي سلوان! وهاك.. قلادتي وأساوري!! (هتفت الوصيفة شعب) وخلعت قلادتها وأساورها وأعطتهم حمدون، ومثلها.. فعلتْ الجارة أم عبدون، رمقهما حمدون بامتنانٍ.. ودعا لهما.. ثم هتف:

- إذاً.. ينبغي أنْ نُسرع.. قبل أنْ يبتعد أولئك اللصوص الملاعين بها عن قرطبة!!

هرولت أم عبدون إلى النسوة المجتمعات في فناء الدار.. وهتفت: "الأعلاج يطالبون بفداءٍ كبير!! فلتُخرِج كلٌّ منكنَّ ما تستطيع من المال والحلي.. لنجمع لبنتنا فداءها!!"، بادرت أم سعدون إلى قُرْطها فخلعته.. ومن ورائها بقية النساء يفعلنَّ مثلها، ثم التفتت أم عبدون إلى حمدون قائلةً: "هَلُمَّ إلى رجال الحي نطلب منهم المساعدة!!"، وأخذت بيده إلى زوجها (أبي عبدون) الذي تحمَّس لمعاونة حمدون في نجدة الفتاة، ولم يكتفِ بجمع ما استطاع من الدنانير؛ بل جمع بعض الرجال ذوي النخوة والشهامة وخرج بهم قائلاً لحمدون: "لن نقبل أنْ تتكرَّر فاجعةُ بنت أبي عبدة؛ نحن معك بأيدينا وأرواحنا حتى ترجع بنتنا عزيزةً مكرمةً!!"، تطلَّع إليهم حمدون باستبشارٍ.. وأجابه بامتنانٍ: "بارك الله فيكم.. أيها الجيران الشرفاء!!".

****

-المشهد التسعـــــــون بعد المئة-

رغم اجتهاد الجيران وإيثارهم على أنفسهم إلا أنَّ ما جُمِع في حجر حمدون كان دون الفدية المشروطة، لكنَّه.. لن يقنع بالخزي، ولن يُذِلَّ نفسه وأهله للخاطفين.

لن يتريَّث حتى يَفْتِكوا بحبيبته؛ فالوقت يمر على قلبه كالسكين الثلم يؤلم ولا يَبْتُر. أخذ المالَ وعصبة الرجال.. وانطلقوا إلى دار عبد الجبار وفق ما تواعد عليه مع فرتون، في الطريق القصيرة.. وبكلماتٍ موجزة شرح الحالَ لأبي عبدون ورفقائه.

على رهبةٍ من عددهم وصخبهم.. أَدخلتهم سعدى البيت، سألها حمدون متوجِّساً؛ فأجابت: "ذهبتْ نجوى معهم، ولم يرجع أحدٌ منهم.. بعدُ!!؟".

بعد مدةٍ -ليست طويلة- كابد فيها حمدون القلق والجزع.. أقبلت نجوى مهرولةً لتهتف واللهاث يذرعها: "وجدنا ابن الرسان في بيته، هَلُمَّ إلى هناك.. يا سيدي!!".

ركضت الجيادُ قاصدةً إلى دار ابن الرسان، وعلى صهوتها الرجال بعضهم رديف بعض، تتساءل نجوى -التي كانت رديف حمدون على صهوة ديجور- هامسةً: "مَن هؤلاء.. يا سيدي؟!!"، أجابها باقتضاب: "هم الجيران؛ لم يتوانوا عن نجدة بنتهم!!".

*****

قبيل الدار.. أومأ حمدون إلى أبي عبدون؛ فترجَّل الرجال.. ومشوا مُحاذِرين كيلا يتنبَّه إليهم جيرانُ ابن الرسان، فيما سبقهم حمدون راكباً، أمام الدار.. وجد جوادي صاحبيه معقولين في أمان، طرقت نجوى الباب طرقاتٍ خفيفةٍ مُنغَّمة؛ فانفتح لهما.

دلف حمدون؛ فرأى ابن الرسان جاثياً بين يدي طرسوس.. مقيَّد الأطراف.. مُكمَّم الفم.. يرعف[1] أنفه، وعلى وجهه.. باديةٌ آثارُ الضرب والصفع، وإلى جوارهما خادمتاه خائفتان.. مُكمَّمتان ومقيَّدتان، وعبد الجبار متضائلٌ في زاوية البَهْو.. يُشاهد في استكانة، وعلى مقربةٍ.. فرتون يُشعِل ناراً في مجمرةٍ، سأله: "ماذا تفعل؟؟!"، أجاب.. فيما يُقلِّب الجمر بعود سفُّود[2]: "ذاك المقبوح يأبى أنْ يتكلَّم؛ سأُرغمه على الكلام!"، ثم ترك السفود في النار وأمسك سكيناً صغيراً.. وتوَجَّه إلى أسيره الذي كان مُنكَّس الرأس، جذب ذؤابته بيسراه فاِضْطَرَّه إلى رفع رأسه.. بينما يُلوِّح له بالسكين التي في يمناه، كشَّر عن غضبه.. وحدجه بعيونٍ مُتَّقِدةٍ.. هامساً بنبرة تهديدٍ مُروِّعةٍ: "لئن لم تجب؛ لأعمد إلى أصابعك فأُقطِّعها بهذا السكين، ثم أنظمها في ذاك السفود وأشويها في النار.. ثم أطعمك إياها.. أصبعاً أصبعاً أصبع!!"، انزعجت نجوى واشمأز قلبها.. وكادت صرخةٌ مذعورةٌ تَندَّ رغماً عنها لولا أنْ كتمت فاها بكف يدها.. وأدبرت مبتعدةً عنهم.

ما برح ابن الرسان يُخفي هلعه خلف سكوته؛ فاستأنف فرتون بسخريةٍ باردة: "أما إذا ابتلعتَ أطرافك جميعاً.. وتَلَذَّذتَ بها، وأبيتَ أنْ تبوح لي بما أريد؛ فو ربي.. لأفقأ عينيك بهذا السفود المحمي، ثم لأُمزقنَّ لحمك قطعاً صغيرة.. أُلقِمك إياها، ولأُسقينَّك من

---

[1] : يرعف أنفه: أي: يخرج منه الدم.

[2] : سفود: عود من حديد ينظم فيه اللحم للشوي.

دمائك قبل أنْ أذبحك!"، ثم حدج طرسوس بنظرةٍ مُوحية؛ فأمسك يده بقوة.. ومدَّها أمامه كي يشرع في بتر الأصبع الأول؛ فيما يرتعد ابن الرسان ويئن ويزوم[1] خوفاً ورعباً.. عاجزاً عن التملُّص من يدي طرسوس القويتين.

اِقترب فرتونُ بالسكين من اليد وبسط أصابعها تحت حد السكين.. وابتسامة التشفي تبرق بين شفتيه، ثم خاطبه هازئاً: "بأي أصابعك نبدأ؟؟! رأفةً بك.. سأبدأ بالخنصر اليسرى!!"، بينما أوشك أنْ يبتر الأصبع.. وعبد الجبار يحجب –بيده- المشهد البَشِع عن عينه ويُسرُّ في نفسه: (فرتون!! يا ذا القلب الأسود! يا لك من وغدٍ حاقد!)؛ إذ صاح حمدون بامتعاض: "فرتون!! لن أصبر حتى تَجتزَّ أصابعه واحداً تلو الآخر؛ افصم اليدَ جمعاء.. من المعصم.. دفعةً واحدة!!"، اضطرب ابن الرسان وشخص بصره.. واشتدَّ ارتجافه وارتفع زَوْمه.. وأجهشت نجوى بالبكاء، وهتف طرسوس: "تَمهَّل يا فرتون! أظن أنَّه يريد أنْ يتكلَّم!"، نزع الكمامةَ عن فم ابن الرسان الذي ضَجَّ بالعويل والبكاء كطفلٍ صغير، ثم هتف بهلع: "سـ... أُخبركم.. بما تبغون!".

****

-المشهد الحادي والتسعون بعد المئة-

تحت تَهْدِيد سكين فرتون الحاقدة.. خشي ابن الرسان على نفسه، وأجبره الإرهاب والرعب على البوح بالحقيقة كاملة: مَكْمَن الإفرنج الخاطفين.. وعددهم، حتى أنَّه اعترف بأنَّ الفداء ثمانمائة دينار فقط.. وأنَّه كان سيستأثر بالزيادة لنفسه.

بصق عبد الجبار في وجهه بحنق، وابتسم فرتون بارتياح وفخر، وهمس –مُعْتدّاً بفطنته- في أُذن حمدون: "ألم أُخبرك أنَّ ذاك المحتال سيحتفظ لنفسه بجزءٍ كبيرٍ من الفدية؟!!"، نمى إلى سمعهم حمحمة أحصنة خارج الدار؛ توجَّس فرتون.. وتحفَّز طرسوس مرتاباً، فأومأ إليهما حمدون أنْ اطمئنا.. وهمس:

---

[1] : يزوم: ينظر غاضباً أو فزعاً.. مغمغماً بكلام لا يبين.

"هـؤلاء عصبـةٌ مـن جيراني.. جـاءوا لمؤازرتنـا!"، ثـم توَّجـه إلى بـاب الـدار.. وأدخـل أبـا عبـدون، ثـم تنحَّى بصـاحبيه وجـاره عـن مسـامع عبـد الجبـار.. وابـن الرسـان الـذي مـا انفك ذاهلاً مـن الـذعر والألـم؛ وذلـك ليتـدبَّروا معـاً: خطـة اسـتنقاذ سـلوان!! بـادرهم فـرتون هامسـاً: "اعلموا أني أُجيد لغة الإفرنج، ولدي خطةٌ؛ فاسمعوا مني!!".

*****

عَدَتْ الجيادُ تَنهَب الأرضَ حتى بلغت منزلة هانئ.. قبيل انبلاج الفجر،

تحت سِتْر غابةٍ كثيفة الأشجار.. تَربَّص حمدون وعصبته في مواجهة وكر الخاطفين، فيما ترجَّل طرسوس.. وشرع يُطوِّف –متستراً بالظلام- حول الـوكر من الخـارج ليرصد خباياه، حالما عَهِدَ حمدون إلى كل رجلٍ من عصبته بإشعال نارٍ.. يراها الخاطفون من مَكْمَنهم ابتغاء إرهابهم.

مُحـاذِراً أنْ يُرمَى بسـهمٍ أو رمـح.. تقـدم فرتـون مُتترِّسـاً[1] بـابن الرسـان المُصـفَّد اليدين، واقتربا من سـور الـوكر كي يسمعهما الخـاطفون بوضوح، ثم أمره أنْ ينـاديهم؛ فأشرف عليهما رامبون –من أعلى السطح- في حذر.

فـوق إحـدى الأشجـار المشرفة على الـوكر.. كان حمـدون مُسـتتراً ومُتهيِّئاً بكنانتـه وقوسـه.. يراقب المشهد في قلق، لم يعِ ما رطنوا به، بيد أنَّه أبصر فرتـون –بعد لأْيٍ- يرتدُّ.. سائقاً ابن الرسان أمامه، وابتسامةُ النصر مرتسمةٌ على وجهه؛ فاستبشر خيراً.

انتبـذ بـه وبـأبي عبـدون هامسـاً: " اتفقـتُ مـع قائـدهم أنْ نعطـيهم المـال الـذي معنـا.. ونستعيد ابنتنا سالمة، واشترطتُ أنْ أدخل إليه ومعي رجلٌ ثان لنطمئن عليها؛ ثم بعد أنْ تخرج معنا آمنةً.. تَصِله أمواله، أذعن موافقاً.. لكن بشرط التحفُّظ على هذين –وأشار إلى عبد الجبار وابن الرسان- رهينةً.. حتى يستلم ماله؛ ثم يُفْرِج عنهما!!".

- هذا اتفاقٌ مقبول!! (هتف أبو عبدون بارتياح)، فيما تساءل حمدون مرتاباً:

[1] : تترَّس به: اتخذه ترساً يحتمي به.

- ألا تخشى الغدر.. يا فرتون؟؟!
- هم خمسة نفر! وإنَّهم يشاهدون –الآن- المشاعل التي أوقدنا، وقد أوهمتُهم أنَّنا نفوق أضعافهم عددا، وأنَّنا ندرك أنَّهم لصوصٌ مُتخلِّفون عن ركب ملكهم؛ فلا عهدٌ لهم علينا.. ولا ذِمَّة. (هتف فرتون بثقة)، واستأنف أبو عبدون مُعَضِّداً:
- إذا قاسوا المسألة بعقلٍ راشد؛ سيرضخون! أوشكت الشمس على البزوغ، ولا نجاة لهم سوى أنْ يرضوا بالاتفاق، وسيفرحون بالنجاة.. والغنيمة الباردة!
- أرى أنْ نتريَّث إلى أنْ يرجع إلينا طرسوس بخبرهم؛ أخشى أنْ يكيدوا لنا....

لم يكد يُتم كلماته حتى لاح طرسوس يَثِب مُتَسَلِّلاً.. قادماً من حَوَالِيِّ الوكر، اقترب.. فدعاه فرتون سائلاً: "ماذا وراءك؟؟!"، التقط أنفاسه.. وأجاب: "طفتُ حول المكان وأَبْعَدتُ.. حتى تأكدتُ أنَّهم ليس لهم ظهيرٌ قريب، لكن من العسير اقتحامه دون أنْ نواجههم من ها هنا!!"، هزَّ حمدون كتفيه راضياً، والتفت إلى فرتون.. وهتف بجدية: "توكلنا على الله! هَلُمَّ بنا!!".

ارتقى طرسوس قمة شجرةٍ عالية ليترصَّد، وبينما يُرتِّب حمدون عصبة الرجال ويُنظِّمهم في صفوفٍ.. مُوَصِّياً أبا عبدون باليقظة والحيطة حتى يخرج لهم مع فرتون وبصحبتهما سلوان آمِنين؛ إذ أقبلت إليه نجوى –بعد تردد- لتهمس بنبرة استئذانٍ:

- سيدي! إذا كنتَ ستَلِج لتُحضِر سلوان.. كما سمعتُ؛ فأقترح أنْ تصحبني معك!
- أشكركِ على شهامتك وشجاعتكِ.. يا نجوى! لكن.. لا نحب أنْ نخاطر بكِ!؟؟
- لا ندري: ما حالها.. ولا ما أصابها من أولئك العُلُوج؟ ولعلها تحتاج لامرأةٍ تأْزِر إليها.. وتساعدها دون الرجال!!
- جُزِيتِ خيراً.. يا أُختاه! هيا.. أسرعي وتجهَّزي بما قد تحتاجين إليه! (جأر مُمتنَّاً)

وثَّق فرتونُ قَيْد ابن الرسان خلف ظهره.. وكَمَّم فمه؛ فيما أَبَى عبدُ الجبار أنْ يُقيَّد أو يُكمَّم، ركله فرتون.. ووَبَّخه؛ فأقبل إليهم حمدون مستاءً، خضع له عبد الجبار..

وهمس متوسِّلاً: "قد سَبَتْ[1] قلبي.. يا حمدون! ولعله آخر لقاءٍ لي بها؛ فذرها ترى أنِّي جئتُ لنجدتها مختاراً.. لا مُكرَهاً!!"، رقَّ له.. فهتف: "دعه.. يا فرتون!!".

****

-المشهد الثاني والتسعون بعد المئة-

نَدَّ النومُ عن جفون سلوان.. وحق له أنْ يَنِدَّ!

بعد أنْ صرف الله ابن الرسان عنها.. حملها اللصوص قَسْراً، وفوها معصوبٌ بكِمامٍ يكتم صراخها.. ويحبس أنفاسها، ركضوا بها بعيداً.. إلى هذا المكان المُقْفِر.

أوشك الليلُ –الذي قَطَعَتْه في ذعرٍ ورهبة.. واستغاثةٍ وتضرُّعٍ إلى الله- أنْ يُزمِع على الرحيل.. ولم تزل لا تدري: ماذا يريد منها هؤلاء؟!! (لو كانوا -كما قال الديوث ابن الرسان- أخذوني طامعين في مال عبد الجبار؛ فقد خابوا وخسروا، وضيَّعوني.. ضيَّعهم الله!)، (يا ربي! لا ملجأ لي منك إلا إليك! ولا منجى لي إلا بك!!)، (يا ربي! أَرشِدْ أمَ هشام إلى حسن التصرف.. وأغثني بها وبحمدون، ولا تجعل لذلك الفَظِّ الغليظ سلطاناً عليَّ!!).

من وراء باب محبسها.. سمعت جلبةً، وشعرت باضطرابٍ يَدِبُّ بين خاطفيها؛ فضرعت إلى ربها أنْ يكون بشير خيرٍ ونجاةٍ لها.

لحظاتُ تَرقُّبٍ لاهثةً قَطَعَتْها.. تلهج بالدعاء؛ إلى أنْ أحستْ كأنَّ غريباً جاء إليهم، جمد الدمع في محاجرها، وتَخبَّطت خوالجها بين الخوف والرجاء، واختلجت الحيرةُ فؤادها، سمعتْ همهمةً، ثم صوتاً –كصوت حمدون- يناديها؛ لم تُصدِّق.. بل حسبته وهماً، حتى انفتح باب زنزانتها.. وأَطلَّتْ عليها: (إنَّها الجارية نجوى!!؟ هل جاءت.. ومعها حمدون؟؟!)، (وا خَيْبتاه.. بل معها عبد الجبار!! إنَّها جاريته!! هل اشتراني منهم؟!! ويكأنَّه بعثها.. لتَسُوقني إليه!؟)، (يا ربي.. الموت أحب إليَّ من كَنَف ذلك الجهول!!).

---

[1] : سبى القلب: أي: أسره بالحب وفتنه.

وكأنَّما فطنتْ لهواجسها.. نجوى؛ رمقتها مُطَمْئِنةً.. وهمستْ: "السيد حمدون.. جاء لإغاثتكِ؛ فلا ترتاعي!!"، تَهلَّلتْ.. وانفرجت أساريرها، وطفقتْ تلهج بالحمد والاستغفار.. وتُطالع نجوى بالثناء والعِرفان، تفحَّصتها –كأنَّما تطمئن عليها- ثم أشارت إلى أحد العُلُوج؛ فدلف.. ليُطلِق قَيْدها، إنَّ حديد الأغلال مؤلمٌ؛ لكن كم هي رهيبةٌ فرحتها، ارتمت في أحضان نجوى، وبين ذراعيها.. سكبت الدمع المتجمِّد، دثَّرتها بكساءٍ صَفِيق، ثم دعت حمدونَ الذي كان قائماً.. ينتظر وراء الباب.

أشرع حمدونُ الباب.. ونحى العلجَ عن طريقه، رنا إليها بمواساةٍ وتَشْجِيع، ثم مدَّ يده؛ فأمسكت بها –كأنَّها تلوذ به- واتَّكأت عليها، وأسندت رأسها إلى كتف نجوى.

مشيا يُحيطان بها وهي تهدج في وهنٍ.. خائرة القوى؛ بينما عبد الجبار موقوفاً بين اثنين من العلوج يتطلَّع إليها بهيامٍ وحسرة، وَدَّ لو تنظر إليه نظرةً؛ فترى قلبه العاشق مُعلَّقاً بين عينيه، بيد أنَّها نسيته.. وأشاحت عنه غافلةً عن حبه، جرَّب أنْ يُنادي باسمها؛ لكن.. أخرسه الخجل والخَفَر، شَيَّعها بعيونٍ وَلْهَى وقلبٍ واجف.. حتى غابت عن ناظريه؛ فكأنَّما انطفأ النور في عينه، وخَرَّ جاثياً على ركبتيه.

فيما يغادرون محاذرين؛ هتف رامبون بلهجة عربية ركيكة: "أين أموالنا؟؟!"، فأجابه فرتون: "لا تقلق! نخرج بالفتاة آمنين؛ ثم نُسلِّمكم أموالكم!"، فاستطرد بلغته الإفرنجية موجهاً الحديث إلى فرتون:

- لن أُطلق سراح هذين الرجلين إلا بعد أنْ ترفعوا عنَّا الحصار، وتتقهقر كتيبتكم لمسافة آمنة، تبقى أنت وحدك أمام أعيننا ومعك المال!!
- لك ما تريد! (أجابه فرتون بالعربية)، ثم استطرد هامساً في أُذنه بالإفرنجية.. غامزاً ابن الرسان بنظرةٍ ذات مَغْزَى: "اِعلم أنَّ هذا المحتال زعم أنَّ الفدية التي تطلبون.. قدرها ألفين دينار؛ كان سيعطيكم منها ثمانمائة فقط.. والباقي يُحرِزه لنفسه، لكن لم تَنطلِ علينا خديعته!!".

ذهب حمدون ونجوى بسلوان، وعلى إثرهم.. انسحب فرتون راشقاً ابن الرسان بنظراتٍ شامتة؛ فاضطرب وانقشع أمنه.. وسرت في صدره رهبةٌ لم يدرك كُنْه باعثها.

خَفَّ رامبون صاعداً إلى السطح ليشهد تراجع المحاصرين.. ويطمئن على أمواله.

من بعيد.. تراءى له المشهد –بين الأشجار- كأنَّهم يطفؤون نيرانهم.. ويجمعون أشياءهم ليرتحلوا، لكن.. ما انفكت الهواجس تعبث بخياله؛ فدعا أحد رجاله.. وشدَّد عليه قائلاً: "لا تبرح تراقبهم حتى يُفارقونا مبتعدين، وإنْ حدث ما يُريبك؛ فنادني، وإنْ رأيتَ أحدهم يقترب منَّا؛ فانضحه بنُشّابك!".

أدرك الرجال صلاة الفجر قُبيل شروق الشمس، ثم أَقْبَل أبو عبدون وعصبته مُسْتَبْشِرين.. واحداً تلو الآخر يُسلِّمون ويَطمئنون على سلوان التي بدأت تستجمع شتات نفسها بعد أنْ كادت تذهب شَعَاعاً.. وقواها التي هَدَّها الفزع، وإلى جوارها نجوى.. ترأف بها وتخدمها، وبين الفَيْنَة والأخرى.. يتطلَّع إليها حمدون بلهفةٍ ووَجْدٍ، ثم.. ما لبثت أنْ ألفت في نفسها قوةً.. وقدرةً على القيام؛ فأرادت أنْ تُصلِّي الصُبْح، أنهضتها نجوى، صَلَّتْ فرضها.. وذرفت دموع الحمد بين يدي ربها، ثم أَمطاها حمدونُ ديجورَ، وأردفها نجوى التي تساءلت على استحياء: "والسيد.. عبد الجبار؟!!"، سكت حمدون برهة.. ثم أجاب باقتضاب: "سيطلقونه.. بعد أنْ نبتعد!".

نادى أبو عبدون في رجاله؛ فهَبُّوا مرتحلين، ثم نزل طرسوس.. واجتمع وحمدون مع فرتون الذي همس: "أَعطني المال.. يا حمدون! واذهبا مع القوم؛ وسألحق بكم!".

- لن أتركك وحدك!! (جأر حمدون بشهامةٍ ونخوة).. وردَّد طرسوس مثل قوله.
- لا يجوز! قد تَعهَّدتُ للإفرنجي.. ألا يمكث أحدٌ غيري، وربما لو رآكما ظَنَّ منا الغدر؛ وحَدَثَ ما لا نحمد عاقبته!!
- نخشى أنْ يُصيبك منهم ما نكره!!؟

- لا تخافا عليَّ! أستطيع أنْ أتدبر أمري! هيا.. أعطني المال! وأدرك فتاتك؛ لا تذرها وحيدةً بعد الذي عانت!
- إذاً.. يذهب حمدون، وأنتظر أنا معك!! (هتف طرسوس)
- كلا!! ولا أنت!! أعطياني المال.. واذهبا! (صدح بصرامة)

ربت حمدون على كتفه وأعطاه صندوقاً.. وُضِعَ فيه كل ما جمعه الجيران من مالٍ وحلي، عانقه طرسوس بمودة، ووَدَّعاه.. وانصرفا مع الرَّكْب.

****

-المشهد الثالث والتسعون بعد المئة-

رفع عبد الجبار رأسه بعد أنْ لبث منكساً في خنوع؛ فأبصر حواليه إفرنجيين يحرسانه، وآخر يحرس ابنَ الرسان الذي مازال مُغَلَّلاً مُكمَّماً، راح يحدجه بنظراتٍ مُمتَعِضةٍ مُحتقِرةٍ، أخذ ابن الرسان يزوم مُتململاً، أزاح حارسُه الكمامةَ عن فمه سائلاً بجفاء: "ماذا تريد؟؟"؛ فالتمس منه شربةَ ماء، كان عبد الجبار ينظر إليهما ولا يفهم حديثهما؛ فهو لا يعرف لغتهم الإفرنجية، على أنَّ ابن الرسان شرب الماء.. ثم التفت إليه سائلاً باستخفاف: "علاما تحملق فيَّ.. هكذا؟؟!"، أجابه مُتحرِّقاً: "ألا تعلم.. أيها الأفَّاك؟! خدعتَني.. وضاعفتَ عليَّ الفداء!؟ ضيَّعتَ مني حبيبتي.. قتلك الله!!"،

- أنت الذي ضَيَّعتها.. وضَيَّعتنا ببُخْلك وغبائك.. أيها الأبله! هل نسيتَ أنَّك توسَّلتَ إليَّ كي تتوصَّل إليها وتظفر بها دون حمدون؟؟! لكن وَلَعك بالمال.. فاق عشقك؛ فاستدعيتَ غريمك ليستعيد حبيبتك لنفسه!! يا لك من مُغفَّل!! (صاح مُحتَدّاً)
- اخرس.. يا وَقِح! إنَّك تجهل الحقيقة!! (صرخ فيه غاضباً)، وقام إليه ليبطش به؛ بيد أنَّ حارسيه أقعداه عنوة، وأعاد ثالثهما تكميم فم ابن الرسان.

نمى لغطهم إلى رامبون؛ فهبط إليهم، تساءل مُتحفِّظاً: "ما هذا الضجيج؟؟!"،

أَجابه أحدُ رجاله: "هذان تراشقا.. وهمَّا ببعضهما، لكنَّا.. لا نفهم كلامهم العربي!!"، أعرض عنه.. ودنا من ابن الرسان، حدَّق فيه مُتأفِّفاً، ثم نزع الكمامة عن فمه.. وهمس مُبكِّتاً:

- أما كفاك ما رَزَأْتَنا به.. أيها اليهودي المخادع؟!! أغريتَنا بتلك المخاطرة لتُحرز من قومك نصيباً في الغنيمة أكبر من نصيبنا.. نحن الخمسة مجتمعين!!؟ أُقسم بالرب.. لولا عهدي مع ذلك الصقلبي.. لأقتلنَّك!
- هذا ما كان يهمس به في أُذنك؟! يريد الصقلبي اللئيم أنْ يُوقِع البغضاء بيننا؛ فلا تُنوِّله مراده!!
- هل هو يكذب؟؟! أم الحقيقة –التي لا مِراء فيها- أنَّك: شيطانٌ ماكر؟!!
- لا تلومني.. أيها الفارس! إنَّها تجارة؛ وأنت الذي حدَّدتَ نصيبكم في الصفقة باختيارك، وأنا –كذلك- قدَّرتُ نصيبي!!
- إنَّك لمجادلٌ!! لكن.. اِعلم أنَّك ستخرج منها صفر اليدين! سينصرف أهل الفتاة تاركين خلفهم الألفين دينار؛ وسنستحوذ عليها كلها دونك، وسنردُّك للصقلبي.. ليُعيدك إليهم بعد أنْ أكشف له بنفسي حقيقتك، وأخبره أنَّك غشاش ماكر.. وأنَّك الذي حَرَّضتَنا لاختطاف ابنتهم، ولا شك.. سينتقمون منك.. أيها الوغد!!
- أنت أحمق.. يا رامبو! لقد علموا كل شيء؛ ألا ترى آثار ذلك على وجهي؟!! لقد ضربوني وعَذَّبوني حتى اعترفتُ لهم بكل شيء.. ودللتُهم على هذا المكان! وأحسب أنَّ المال الذي تتوقَّعه منهم سيكون الثمانمائة دينار فقط، وربما أقل!!؟

كَزَّ رامبون على أسنانه ناقماً، وقبض يُمناه.. ولكمه لكمةً أدمت وجهه، آلمته.. وأَنَّ متوجعاً، غير أنَّه لم ينقبض؛ وإنَّما استأنف كلامه بأريحيةٍ.. مشيراً إلى عبد الجبار:

- ألا تعرف هذا الرجل؟؟! إنّه مرواني.. وهو حاجب المهدي السابق.. وابن عمه؛ لا تردَّه إليهم، وإنَّما أُطْلب فيه فداءً كالذي طلبتَه في الفتاة.. وإنْ شئت زِدْ عليه!

- بما تهذي.. أيها الشيطان؟!! (جأر رامبون مشمئزاً)، بينما تدخَّل أحد الرجال في الحوار وهتف باستياء:
- رامبون!! لا تسمع لهذا الماكر! ذرنا نأخذ المال من الصقلبي.. ونلحق بركب الكونت، علينا أنْ نفارق هذا البلد المشؤوم.. فوراً!!

كان عبد الجبار يسمع رطانتهم.. ولا يفهمها، بيد أنَّه سمع صوت الفارس الذي أعلى السطح كأنَّه ينادي رامبون الذي هَبَّ صاعداً إليه.

سأله: "ما خطبك؟؟!"، أشار إلى أسفل؛ فنظر.. فرأى فرتون يمتطي حصاناً ويقف مُتباعداً عن مرمى سهامه، ويُلَوِّح.. كأنَّه يريد الأمان ليقترب منهم، تساءل رامبون باستياء: "كيف عرف بوجودك.. يا ريموند؟!! ألم يكن الواجب عليك أنْ تستتر؟؟!"، خفض ريموند رأسه استحياءً.. حالما استطرد رامبون: "يبدو أنَّه يلتمس الاقتراب.. ليتحدَّث معنا؛ أشر إليه أنْ يقترب في أمان!"، ثم تمتم بنوعٍ من التَضجُّر: "أقسم بالرب.. لإنْ لم يأتِ بالمال كله.. أو ماطل وسوَّف؛ لأرسله هو والأحمقين الذين بالداخل.. إلى الجحيم!"، شرع ريموند يُومئ بيديه لفرتون: (أنْ أقبل ولا تخف!).

على مَهْلٍ.. تَقَدَّم راكباً حصانه.. رافعاً كلتا يديه؛ إحداهما فارغة والأخرى.. يحمل فيها جِوَالاً، أبصر ريموند **الجِوَال**.. فهتف مستبشراً: "هذا هو المال.. في يده!!"؛ فعَلَّق رامبون هامساً: "خيرٌ له أنْ يكون.. كذلك!"، ثم أردف: "دع لي القوس والنشاب، واهبط إليهم لتُبشِّرهم، وهيئوا الأسيرين.. كي نطلقهما له!".

دنا.. حتى سمع رامبون وقع سنابك حصانه، ثم توقَّف.. ونظر إلى أعلى حيث يقف رامبون يترصَّده، أرسل الجِوال من يده طارحاً إياه أمامه على الأرض.. وهو يهتف بالإفرنجية: "هذا هو مستحقكم عندي!!".

أجابه صائحاً: "سأرسل لك أحد رجالي.. يستلمه، وسأُطلِق معه صاحبيك!"، بيد أنَّ فرتون أجابه هازئاً: "لا حاجة لي فيهما!!"، وبادر مُحوِّلاً وجه حصانه ليقفز مُدْبِراً.

لم يُدرك رامبون لماذا يُوَلِّي مُتعَجِّلاً؛ بيد أنَّ الريبة دفعته لينادي: "ريموند! أَسرِع.. أُخرج وأَحضر المال، أرى كأنَّ الصقلبي يفر؛ ولا أدري سبباً!!".

****

-المشهد الرابع والتسعون بعد المئة-

هرول ريموند إلى جِوال المال، جعل يعالج وكاءه ليفتحه؛ لكنَّه استعصى عليه، سَلَّ خنجره.. ومزَّقه، شرع يُفتِّش فيه؛ فبُهت! حمله.. ونثره بين يديه، صرخ منادياً: "رامبون!! هذا.. كيس حجارة!؟ أين المال؟؟!"، شَخَص بصر رامبون متفاجئاً مذهولاً.. ثم صاح: "كيف هذا؟؟ سحقاً لكم جميعاً!!".

بينما فرتون يتحسَّس –مَزْهُوّاً- موضعَ **الصندوق** في رَحْله.. ويَنْسَلُّ جواده –خلال الأشجار- هارباً به؛ إذ مرق من جوار أُذنه سهمٌ حانقٌ –كاد يخترق كتفه- رماه به رامبون المُحبَط، لَوَى عِنان جواده.. فانحرف عن وجهته، وأخطأته السهام التالية، نكز جواده.. فتجاوز به مسافة الخطر، وأَيِس رامبون أنْ يُدركه بنشابه.

ارتدَّ هابطاً إلى حيث ريموند وكيس الحجارة، طفق يُقلِّب كفيه مُتحرِّقاً مُبْلِساً، جَرَّد سيفه، وذهب يجري –هائجاً- صوب الجادَّة التي اختفى وراءها الصقلبي يَبْغِي –سُدَى- اللاحق به، أدركه ريموند.. وأمسك به، أخذ يُسكِّنه ويُنبِّهه: "اهدأ يا صاحبي! قد مكر بنا الأشرار!! خسرنا كل شيء.. وأحدق الخطر بنا؛ فهَلُمَّ.. نلحق بركب الكونت!"، لكن.. بلا جدوى؛ فقد تَوَهَّم رامبون: أنَّ للأشجار حفيفٌ كأنَّه ضحكاتٌ ساخرةٌ.. علا صداها حتى غشي المكان وكاد يصم أُذنه، ونظر إليها.. فرآها كأنَّها تُحدِّق به شامتةً هازئةً، فمضى يصرخ مُتَمَقِّطاً ويضرب بسيفه جذوعها الضخمة.. حتى كلَّ ساعده، أخذه رفيقه مِن مَنْكِبيه، وعادا أدراجهما.. يَكْرِزان إلى الوكر.

لم تهدأ فورته، وإنَّما نزع نفسه من يد رفيقه.. وجرى حتى بلغ ابن الرسان، رآه.. كأنَّما يتهيَّأ -منشرحاً- للفِكاك من رَهْنه؛ فاهتاج.. وانقضَّ عليه يخبطه بمقبض السيف حتى

أدمى رأسه، وما استطاع أنْ يقاومه أو ينفلت منه؛ فصرخ يستغيث بالرجال، حاولوا أنْ ينتشلوه من بين يديه؛ وبالكاد فعلوا، ثم التقط ريموند السيف –بأناةٍ- من يد رامبون، ووضعه على طاولةٍ بينهم.

عبثاً رام عبد الجبار أنْ يستنبط باعث تناحرهما!! بعد أنْ فصلوا بينهما وأُزيح رامبون عن ابن الرسان.. سأله مندهشاً: "ماذا جرى؟! لماذا يفتك بك هذا العُتُل؟!!"، أعرض عنه ازدراءً.. وأنشأ يتحسَّس مواضع إصاباته متألماً مغتاظاً، كرَّر عبد الجبار السؤال بإلحاح، أثار حفيظته؛ فانْكَبَّ عليه يسبه ويوبِّخه.. وينعته بالغباء والبخل.. حتى أسكتهما الإفرنجيون. تساءل ريموند حائراً: "ماذا سنفعل؟؟ قد فقدنا المال الذي كنا نرجو، وقد يدهمنا أهلُ هذا المرواني –مشيراً إلى عبد الجبار- يلتمسون فكاكه!".

جاوبه إفرنجي آخر مُتحسِّراً: "لا طاقة لنا بهم، ولا حيلة لنا معهم؟!!"، تَطفَّل ابن الرسان على الحديث.. وهتف بسَماجة: "اطلبوا فديةً نظير هذا المرواني تُعوِّض خسارتكم!!"، فصاح فيه رامبون ناقماً: "مه.. أيها الشيطان الغادر!"، ونهض يسعى إليه.. ليبطش به مرة ثانية؛ فاعترضه ريموند هاتفاً بصرامة: "رامبو! لا وقت لدينا لمعاقبة ذاك الأثيم! هيا نلحق بركب الكونت قبل أنْ يُدرِكنا القرطبيون!!"، فصرخ ابن الرسان مستجيراً: "لا تتركوني!! أيا رامبو.. خذني معك! لا تذرني للقرطبيين ينتقمون مني.. يا صديقي!"، رمقه باحتقارٍ.. والتفت إلى رجاله سائلاً بعقلٍ مُشوَّش: "لو رحلنا؛ فماذا نفعل بهذين؟!!"، تَكلَّم ريموند –كأنَّه يُفكر بصوتٍ مسموع-: "نتركهما مُقيَّدين ها هنا، ونُسارع بالرحيل؛ فنلحق بسيدنا الكونت.. قبل أنْ يدركنا القرطبيون ويغدروا بنا!!"، وراح الآخرون –أيضاً- يُدْلون بأرائهم: (نحملهما معنا.. أسيرين!؟)، (كلا.. سيعوِّقان تَحرُّكنا!)، (نقتلهما.. ونشفي غليلنا!!)...

وابن الرسان يُنصت إليهم.. والوَجل والقلق يُؤرجحانه بين اليأس والرجاء، خاطبه عبد الجبار بسذاجة: "علاما يتجادلون؟؟!"، صاح مُتهكِماً: "إنَّهم يتشاورون: هل

يقتلونـك.. أم يأخـذونك عبـداً رقيقـاً!؟"، فأجابـه بنبرةٍ ذات غصـةٍ وحسـرة: "مُـرْهم.. يقتلوني؛ فإني لا مرام لي في الحياة.. بعد سلوان!".

برقـت عينـا ابـن الرسـان شـرراً ومقتـاً، واستشـاط.. حتى غيَّـب الغضـبُ لُبَّـه؛ فغافـل الإفرنجيين والتقط السيف -الذي على الطاولة- ليجأه به، انتبه إليه ريموند؛ فأسرع ليمنعه، بيد أنَّ ابن الرسان كان أسرع منه.. وطعن عبدَ الجبار طعنةً نافذةً في صدره، ونزع.. ليطعنه أخرى؛ فاستل ريموند سيفه.. وضربه على عاتقه فأرداه قتيلاً، وخرَّ عبد الجبار صارخاً مُتوجِّعاً، ثبت الآخرون.. وشَخَصت أبصارهم في ذهول.

أسـقط في أيدي العصابة الإفرنجية، وما برحـوا يحملقـون في جثةٍ صُرِعتْ.. وأخـرى تُنازع وتَشْخَب دماً. بعد لَأْيٍ.. همس رامبون مُعاتباً: "لِمَ فعلتَ.. يا ريموند؟!!"، صرخ ريموند مُتبرِماً: "تسأل.. كأنَّك لم تُشاهد!؟؟"، أجابه مُقرِّعاً: "اخفض صوتك! قد بزغت الشمس، وقد يعلم بنا الناس!!"، فجأر ثالثٌ: "علاما التَرَيُّث؟!! هيا.. إلى الخيل!"، هَزَّ رامبـون كتفيـه باستسـلامٍ.. وهمـس: "قبـلُ؛ أَجْهِـزوا على ذاكـم المحتضـر، وادفنـوا الجثتين في الفناء.. حتى لا يفتضح أمرنا!!".

****

-المشهد الخامس والتسعون بعد المئة-

انفصل المهدي بجيش قرطبة عن بنيان المدينة.. ليلحق بطليعته الصقلبية التي تقدَّمته -البارحة- والتي ما كادت تسير ثلاثين ميلاً.. حتى توقَّف قائداها (خيران وعنبر).. واجتمعا منفردين بكبيرهما –واضح العامري- فهمس خيران: "بلغنا –أيها الحاجب- أنَّ البربر تصالحوا مع سليمان المستعين.. واستقدموه إليهم، وقد لحق بهم في ريّة!"، وأضاف عنبر: "وقد علمتَ أنَّ أولئك العَالَة –أفراد الجيش من أهل قرطبة- لا قِبَل لهم بقتال البربر؛ فلِمَ نقتل أنفسنا معهم؛ وقد عزمنا على أَخْذ هذا اللا مهدي؟!!".

- فماذا.. تريان؟؟! (همس واضح.. وهو يوافقهم.. ويميل إلى رأيهم)
- نرى أنْ نرجع.. ونُنجز ما أزمعنا عليه، ثم نفاوض البربر على ما فيه حقن الدماء!
- وما هذا الذي يحقن الدماء؟؟
- نجمع بين الطرفين المتنازعين بأنْ نتعاهد معهم على تَنْصِيب المؤيد خليفةً للأندلس؛ على أنْ يكون رجلهم –المستعين- وليّاً لعهده.
- رأيٌ سديدٌ! ذراني –إذاً- أَحبِكها.. دون أنْ يفطن محمد إلى غايتنا!

أصدر الحاجب (واضح) أوامره أنْ يتمهَّل عساكره حتى يلحق بهم الخليفة (محمد المهدي) ومن معه.. ويلتئم الجيش جميعاً.

وما أسرع أنْ أقبل جيش المهدي.. بعجيجه وضجيجه!

اِلتأم الجيش ومقدمته، واندهش المهدي من تباطؤ مقدمته؛ فاستحضر حاجبه.. ليستقصي عن الخبر.. سائلاً بشيءٍ من التعنيف:

- ما لي أراكم تراخيتم.. يا واضح؟!!
- قد عَنَّ لنا رأيٌ؛ فأحببنا أنْ نشاور فيه.. أمير المؤمنين!
- وما.. ذاك؟؟!
- أنبأتنا العيون التي فرَّقناها أمامنا أنَّ البربر استولوا على حصن جبل بُبَشْتَر.. وهو حصنٌ منيعٌ كثير الماء والمرعى، واعتصموا به.. كما تَأْرِز الحية إلى جُحْرها!!
- ... ثم؟!!
- لا يخفى على أمير المؤمنين أنَّ جيشنا –الذي أكثره من القرطبيين- لا يقدر على مهاجمة ذلك الحصن.. ولا أنْ يحصرهم فيه؛ إنَّ القرطبيين حديثو عهدٍ بالحرب وفنونها! إذاً.. لن نتمكَّن من الحية خلا أنْ نُخرِجها من جُحرها!!
- دونما تبرير.. ولا تَعِلَّة.. هات ما عندك! وأَعلمني بخطتك!

- أرى –إذا وافق الخليفة- أنْ نأرز نحن أيضاً إلى جحرنا.. فنرجع إلى قرطبة، ونضطرهم للنزول إلينا بدل أنْ نصعد نحن إليهم.
- وكيف ستُحصِّن قرطبة؟؟!
- نسارع بالارتداد.. ونجتهد في حفر خندقٍ كبير حول المدينة، ونُقيم خَلْفه سوراً مما يلي قرطبة، وحين نفرغ.. يكن صبر البربر قد فرغ؛ فيأتوا إلينا.. ونناجزهم من وراء السور والخندق.. حتى نستنفذ قواهم ونُشتِّتهم.
- هل هذا الرأي يخصك.. وحدك؟؟! أم.. شاورتَ فيه.. بقية القادة؟!!
- شاورتُ خيران.. وعنبر.. والتجيبي.. والآخرين أجمعين، وهم يرونَّ ما أرى!!
- لِمَ المُكْث.. وقد حَكَمتم؟!! فلنرجع –إذاً- إلى قرطبة!! (جأر المهدي بصوتٍ أقرب للاستسلام منه إلى الحزم).

نادى منادي الجيش: "أنْ هَلُمَّوا.. الرحيل إلى قرطبة!"؛ فتنفَّسوا الصعداء، ونَفَروا –فرادى وجماعات- كارِّين إلى مدينتهم.. بهِمَّةٍ واغتباط.

وقبل أنْ يخبو شعاع شمس ذلك اليوم.. انتهى فريقٌ منهم إلى مشارف قرطبة.

****

-المشهد السادس والتسعون بعد المئة-

كان استقبال أم هشام –ومَن معها من نساء الجيران- لسلوان استقبالاً حافلاً باللهفة والمحبة، سجدت أم هشام لله شكراً، وزغردت أم سعدون والجارات، وعانقتها الوصيفة (شعب) عناقاً حاراً؛ ثم غادرت –مغتبطةً- لتُبشِّر سيدها المؤيد الذي يجلس –على حد قولها- في القصر على جمرٍ مُتَّقِدٍ.. مُترقِّباً لخبرٍ يُطمئنه على سلوان.

ثم تفرَّقت الجارات.. واحدةٌ تلو الأخرى، وكذلك.. انفض جمع الرجال المُتحلِّقين حول حمدون وأبي عبدون.. من أمام الدار، ثم استأذنت نجوى أمَ هشام كي ترجع إلى

سعدى لتَزُفَّ إليها البشرى؛ فأذنت لها وشَيَّعتها بدعوات الثناء والعرفان، ثم ذهبت أم سعدون وولدها إلى السوق، وبقيت أم هشام؛ وسلوان مُتشبِّثةٌ بها.. مُنضويةٌ إلى أحضانها، مكثتا على تلك الحال ساعة، ثم أعانتها أمُ هشام.. حتى أرقدتها في فراشها، وسرعان ما أثقل الكرى أجفانها.

ولج حمدون من باب الدار ليجد جدته في انتظاره، تَبَشُّ في وجهه، يسألها:

- أين هي.. يا جدتي؟؟!
- الحمد لله.. ذهب عنها الرَّوْع، ونامت آمنةً وادعةً.. في مخدعها!
- حقاً!! النومُ ضيفٌ.. إذا طلبتَه عنتك، وإنْ طلبك أراحك، وها هو ذا يطلبني!
- أود أنْ أتحدَّث معك.. حديثاً هاماً!!
- لو تسمحي لي؛ أرقد ساعة، ثم أسمعكِ.. كما تشائين!

ابتلعت كلماتها العالقة بلسانها، وتَنَحَّتْ عنه.. إلى حين، دلف إلى حجرته.. ليرقد بعد ليلةٍ طويلةٍ قضاها في نَصَبٍ وهلع، وما عَتَّمَ أنْ نام ملء جفنيه.

قضت أم هشام سحابة نهارها وحيدةً في انتظار استيقاظ حبيبها.. أو عودة أم سعدون؛ فما رجعت إلا قبيل العصر، سألتها: "لِمَ تأخرتِ.. يا أم سعدون؟!".

- آه.. يا سيدتي! وددتُ أنْ أشتري كل ما يشتهيه سيدي حمدون وسلوان.. احتفالاً بهما؛ لكنَّ.. السوق مزدحمة.. والأسعار باهظة؛ الناس والتجار يتهافتون على السلع والطعام.. مخافة حرب المهدي مع البربر!!
- وأيم الله.. إنَّها فتنةٌ؛ نسأل الله –تعالى- أنْ يُنجينا منها.. وألا تدوم!
- سأدخل إلى حجرة الطهي.. لأطبخ لهما الأطعمة التي يُحبانها قبل أنْ يستيقظا، وأُرقدي –أنتِ- قليلاً.. في فراشك؛ فإنَّ عينك لم تغفل طوال الليل!!
- لا بأس.. سأرقد! وإذا استيقظ حمدون؛ فأعلميني!!

صلت أم هشام العصر في مخدعها، ثم أوت إلى فراشها.. لعل النعاس يُريح رأسها المُشوَّش من طنين الأفكار، بيد أنَّ النوم راوغها.. فلم تنم سوى وسناتٍ خفيفة، ثم انتبهت على صوت طارقٍ بباب الدار، تحاملت على نفسها لتنظر من الزائر القادم، ألفت أم سعدون -أمامها- عائدةً من لدن الباب؛ سألت: "مَن.. الطارق؟؟"، أجابتها.. وهي تهرول إلى حجرة الطهي: "رجلٌ غريب.. يريد سيدي حمدون، وقد نهض لمقابلته!".

مكثت واجلةً.. ترتقب: (مَن الرجل؟! وماذا يريد من حفيدي؟!)، رأته يُسرّه بحديثٍ قصير.. ثم ينصرف مُتعجِّلاً؛ فارتابت في أمره.. وإشتَدَّ وُجولها، التفت حمدون.. فوجدها خَلْفه؛ سألته بصوتٍ مُنزعِج: "مَن الرجل.. يا حمدون؟؟ أحسبه.. مِن رجال القصر؟!!"، أجابها –على عجل- وهو يدلف إلى باب حظيرة الدواب: "أجل! هو من رجال القصر المخلصين.. يا جدتي!!"، سألت بنبرة استنكار: "إلى.. أين؟؟!".

- سأُسرج ديجور؛ ينبغي أنْ أذهب إلى القصر.. حالاً! المهدي رجع بجيشه من الطريق، ولم يناجز البربر!!
- وما لك أنت.. والمهدي؟؟! ألم تفارقه؟؟! (هتفت بتأفُّف.. فيما تمشي خَلْفه)
- نعم.. فارقتُه؛ لكن لم أُفارق المؤيد! وإني لا أستبعد أنَّ يحاول المهدي اغتياله، وقد ألزمتُ نفسي بحمايته والدفاع عنه!
- يا ولدي! أحببتُ لك أنْ تكون رجل علمٍ وقرآن.. كما كان جدك رحمه الله؛ لكنَّك تأبى إلا أنْ تكون رجل حربٍ وسلطان!!؟ (جأرت مُستهجِنةً)
- إنَّما أصنع كما علمتني: أُغيث الملهوف، وأنصر الضعيف المظلوم؛ ألا.. وهو سيدي المؤيد!!
- أليس لنا منك نصيبٌ كما للمؤيد؟! فإلى متى.. يا حمدون؟؟! (سألت مُعاتِبةً).
- إلى متى.. ماذا.. يا أمي؟ (استفهم.. وهو يشدُّ السَّرْج على حصانه)
- إلى متى تهرب.. يا ولدي؟!! تهرب من البيت.. لأنَّ فيه سلوان؟! إلى متى تهرب من حبك لها؟! ألم يئن الأوان.. لأنْ تقرَّ عيني.. بزواجكما؟!!

- وهل أنا الذي أُماطل وأُسوِّف؟!! هل أنا سُخْنَة عينك؟!! (جأر مُتوجِّعاً بنبرة ملامة)

عجزت عن إجابته؛ فسكتت.. مُدرِكةً –اللحظة فقط- ما في قلبه من ألمٍ وانكسار.

بينما تتطلَّع إليه بإشفاقٍ ومواساة؛ ولاها ظهره ساحباً حصانه ليغادر.. قائلاً بصرامة: "السلام عليكم!!"، ردَّت بخضوع: "وعليكم السلام.. ورحمة الله!!".

دخلت إلى صحن البيت بحالٍ غير الذي كان، لاحظت أم سعدون تَغيُّر حالها، سألتها لتطمئن: "ما لي أراكِ حزينةً.. يا سيدتي؟؟! أ وبعد أنْ نَجَّى الله سلوان وحمدون؟!".

- رحل حمدون.. عائداً إلى القصر!! (أجابتها بصوتٍ كسير.. وعقل شارد)
- لُطفك.. يا ربي!! ولماذا أجهدتُ نفسي في إعداد الطعام؟!!
- يجب أنْ أُعجِّل بزواجهما.. يا أم سعدون!!
- أيا سيدتي! هل تزوجيها لولدكِ.. بعدما أمضت ليلةً كاملة في أسر الكفار؟!! (هتفت.. بنبرة استنكار)، حدجتها أم هشام بنظرةٍ شزراء.. وصاحت تُوبِّخها:
- بما تهذي.. يا امرأة السوء؟؟! هل خَبِلتِ؟؟!

****

-المشهد السابع والتسعون بعد المئة-

بعد أنْ فارق طرسوسُ حمدون وجيرانه.. انسل قافلاً إلى جبل العروس حيث يختبئ مع فرتون عن أعين الخليفة المهدي وجواسيسه، صعد إلى مغارة الجبل مُتوقِّياً أنْ يعرفه أحدٌ فيَشِي به عند الخليفة، وقضى متن نهاره مضطرباً.. في انتظار عودة فرتون.

سقط قرص الشمس الدامي عن شِمال الجبل، وتبدَّل الضياء الفاضح ظلاماً ساتراً؛ ولَمَّا يأت فرتون، تسرَّب الريب والقلق إلى قلبه، وما فَتِئَ –بين الفينة والأخرى- يخرج ويدخل إلى المغارة.. رجاء رجوع رفيقه، بيد أنَّه لم يرجع!

سَئِم الانتظار.. وحاول أنْ ينام هروباً من القلق؛ فأقضَّ القلق والجوع مضجعه، قعد يُحدِّث نفسه: (ما خطبك.. يا فرتون؟! لماذا تأخرتَ؟!!)، (آه.. لعن الله الجوع؛ أتقوى ببضع لُقيمات.. ريثما يرجع إنْ شاء الله؛ وإلا سأضطر للنزول إلى قرطبة.. بحثاً عنه!!)، ثم نهض يُعِدّ لنفسه طعاماً.. آملاً أنْ يعود صاحبه بينما يأكل!!

أخيراً.. بعد التوتر والوجل.. ها هو ذا قد عاد يمشي مَكْدوداً.. يَجُرُّ خَلْفه حصانه الضابح، عقل دابته.. ودلف إلى المغارة، نهض إليه.. ولَقِيَه مُحتفياً، ثم هتف بتلطُّفٍ:

- مرحباً.. يا فرتون! تأخرتَ.. يا رجل، ولقد خشيتُ عليك؟!!
- صادقاً!! والدليل: هيَّأتَ فراشك.. وأعددتَ عشاءك، وها أنت ذا تلتهم طعامك حزناً عليَّ.. أيها الأكول الشره!؟ (هتف فرتون مُتهكِماً)، وارتمى –منهك القوى- على الفراش القريب.. مُتحسِّساً ذراعه بتوجُّعٍ.. كأنَّما يُلفِت انتباه صاحبه لجرحٍ في ذراعه؛ فانتبه طرسوس له.. وجعل يتطلَّع إلى حاله المزرية.. وثيابه المُغبَّرة.. سائلاً:
- ماذا أصابك؟!! هل غدروا بك.. الملاعين؟؟!
- أخذوا المال.. وكادوا يقتلونني!! (جأر بنبرةٍ ذات أسى.. وهو يومئ برأسه مُتحسِّراً)
- جرحوك!!؟ هل تحتاج إلى طبيب؟؟!
- كلا!! إنَّه جرحٌ طفيفٌ! حمداً لله.. نجوتُ من بين أيديهم.. بأُعجوبة!!
- والحاجب.. عبد الجبار؟! وابن الرسان؟! ماذا فعلوا بهما؟!!
- فررتُ منهم.. لَمَّا خفتهم! ولا أدري ماذا فعلوا بهما!!
- قد أحرزوا المال الذي طلبوا؛ فلماذا.. لا يطلقونهما؟!!
- لا علم لي! ربما أطلقوهما.. أو أخذوهما أسيرين! أو عسى أنْ يقتلوهما!!
- غَدْرهم بك نذير سوء! وهذا يستوجب أنْ نسرع إلى حمدون.. ونعلمه بما جرى، ونستعين بأصحابه لاستنقاذ الرجلين.
- وما حاجتك إلى هذين الأحمقين؟؟! دعك.. منهما! لعل الإفرنج يريحوننا منهما!
- أعلم أنَّك تبغضهما؛ لكن.. هل نترك بني جلدتنا للأعداء.. يُنكِّلون بهم؟!!

- نعم.. أبغضهما بغض الفريسة للسبع الذي اصطادها؛ بل أشدّ! أمقتهما مقت الهشيم للنيران التي تأكله، وحقدي عليهما ليس أقل من حقد هذه النيران على الماء الذي يُطفئها!!
- عجباً! إلى هذا الحد تكرههما؟!!
- لم أكن أنسى ما فعلاه بي.. يا طرسوس!
- ما عرفتُك حقوداً حسوداً هكذا.. يا صاحبي!!؟
- دعك مني.. ومنهما الآن؛ قد ذهبت السكرة.. وجاءت الفكرة.. يا صاحبي! يقولون: المهدي رجع بجيشه إلى قرطبة، وأُخمِن أنَّه تخلى عن محاربة البربر.. وقد يصالحهم؛ فإنْ صالحهم؛ فقد تَفرَّغ لأمثالنا، وقد يبحث عني وعنك.. لينتقم منا!!؟ (هتف بجِدّيّة.. مغيّراً موضوع الحوار.. تدليساً على صاحبه).
- ماذا تقول؟؟! علينا أنْ نهرب من وجهه فوراً؛ لكن.. أين المفر؟؟! إلى مَن نلجأ؟!!
- نلجأ إلى السيد الغِطْرِيف الذي خلَّصنا ابنته من أيدي الكفار.. وأنقذنا شرفه من الفضيحة!!
- وما ذاك؟!! (تساءل طرسوس ببلاهة)
- سلوان! ألم نُخلِّصها من أيدي الكفار البارحة.. يا بصير؟؟!
- أجل! على أنَّنا أنقذناها لأجل حمدون! ولسنا نعرف أباها!! (جأر باستغراب)
- أنت فعلتَ لأجل حمدون، أما أنا فأعرف: مَن أبوها؛ وسأستفيد من نجدتي لابنته!
- ألهذا كنتَ مُتحمّساً لنصرة حمدون عندما جاءنا أمس يستعين بنا على نجدتها؟!! إنَّك شيطانٌ داهيةٌ! لقد خُدِعتُ فيك.. وظننتُك تفعلها نصرةً لصاحبك!!؟
- إنَّك.. أحمق.. يا صديقي! (هتف فرتون.. مُعجباً بنفسه)
- وهل تعلم: مَن أبوها؟؟ هذا السيد الغِطْرِيف.. كما تصفه!!
- إنَّه.. قاضي اشبيلية: إسماعيل بن عباد!

- هل هذه الجارية.. بنت قاضي اشبيلية؟؟! (سأل مشدوهاً)
- ليس أباها؛ لكنَّه.. عم أبيها.. كما أعلم، وهو وليها بعد موت أبيها؛ فهي عورته، وها نحن أولاء.. قد سترنا عورته البارحة؛ فانظر كيف سيكافئنا؟!!
- حقاً.. إنَّك شيطانٌ أثيمٌ.. يا فرتون!
- وما التأثيم في أنْ نبذل المعروف في أهله؛ ثم نُمنَح المثوبةَ.. عرفاناً منهم بجميلنا؟!!
- لكن.. لماذا يتخلى قاضي اشبيلية عن جاريةٍ شابةٍ من أهل بيته لابن الرسان.. أو لأم هشام وحمدون؟؟! ثم.. كيف سنتوصَّل إليه؟؟!
- أما لماذا تركها؛ فتلك قصةٌ.. يطول شرحها، وأما.. كيف نتوصّل إليه؛ فدعه لي!!

****

-المشهد الثامن والتسعون بعد المئة-

اندهش المؤيد حينما أبصر حمدون حاضراً بين يديه.. في محبسه الاختياري بقصر قرطبة، تساءل مستنكراً: "لماذا لم تمكث مع سلوان؟! هل حدث ما نكره؟!!".

- سلوان بخير.. يا سيدي! وهي الحين.. في الدار آمنةً مطمئنةً.. والحمد لله؛ لكن.. بلغني أنَّ جيش المهدي نكص عن ملاقاة البربر، وهم في طريق عودتهم إلى قرطبة، ولا ريب.. المهدي عائدٌ إلى القصر؛ فخشيتُ أنْ أتركك وحدك!
- قد بلغني الخبر! على أننا اتفقنا أنَّ نجدتك سلوان -استنقاذك لامرأةٍ مسلمةٍ من قبضة الأعداء- أشرف وأنبل من حمايتك لألف رجلٍ.. مثلي!!
- والحمد لله أنْ مَنَّ علينا بنجاتها وعودتها إلى حضن أمها.. سالمةً!!
- صدقتَ! حقيقٌ أنَّ عمتي بمثابة أمها؛ قد عاينتُ هذا بنفسي في بيتكم! والحمد لله أنَّ المال الذي جمعتموه أدى الفدية المطلوبة، وكم وددتُ أنْ أُؤدِّيها كلها من مالي الخاص، لكن.. كما تعلم.. حجر المهدي عليَّ، واستولى على كل المال إلا القليل الذي وهبتُه لافتداء سلوان!

- يا سيدي! لقد بذلتَ لنا ما في وسعك؛ فجزاك الله عنا خيراً!
- لم أفعلها لأجلك.. أنت؛ بل لأجل سلوان! إنني أشعر كأنَّها ابنتي.. كما أنَّك ابني!
- للّه دَرُّك.. يا سيدنا! هذا تشريفٌ وتكريمٌ منك لنا!!
- أخبرتني شعبُ أنَّكم استكملتم الفدية المطلوبة من الجيران، لكن.. هل استطعتم جمع ألفين دينار في ليلة واحدة؟! إنَّ جيرانك لكرماء!
- الصدق: أنَّ مجمل ما جمعناه من مالٍ وحلي بالإضافة إلى ما منحتَنا إياه.. لم يتجاوز نيفاً وألف دينار، غير أنَّ عصبة الجيران خرجوا معي بسلاحهم؛ نلتمس التفاوض مع الخاطفين وإرهابهم حتى يقبلوا الألف دينار.. ويُطلقوا سلوان، والمفاجأة.. كانت في بيت ابن الرسان حين اِعترف أنَّها ثمانمائة دينار فقط.
- إنَّ جيرانك يحبونك.. يا حمدون! ويحبون سلوان.. أيضاً!
- في الأصل.. يا سيدي! هو معروف فاطمة المروانية.. وإحسانها إلى جيرانها!
- أصبتَ! إنَّها صنائع المعروف، والكريم لا يُضام! حفظكم الله.. وبارك فيكم!

****

-المشهد التاسع والتسعون بعد المئة-

نكص المهدي على عقبيه إلى قرطبة، بيد أنَّه لم يَفتُر عن حرب البربر؛ شمَّر عن ساعديه.. وجمع الأموال من أهل قرطبة، وأمر بالشروع في حفر خندقٍ عظيم حول المدينة؛ بل.. لم يكتفِ بالخندق؛ فأمر –كذلك- بالبدء في بناء سورٍ خَلْف ذلك الخندق، أما الحاجب (واضح) والفتيان الصقالبة.. فقد سايروه فيما يريد واجتهدوا معه في تحصين المدينة وضبط نظامها.. استعداداً لقدوم البربر.

لكن على صعيدٍ آخر.. طفق واضح يُبعِد رجال المهدي الأوفياء –وإنْ كانوا قلة- عن القصر.. وعن مفاصل المدينة تمهيداً لما أزمع عليه مع أصحابه!!

*****

مرَّ يومٌ ويومان وثلاثة؛ وبمرور بضعة أيام على الليلة المشؤومة.. تماثلت سلوان للشفاء من آثارها السلبية؛ وسرعان ما عادت –بكامل نشاطها وطاقتها- لحياتها الطبيعية، غير أنَّ تلك الليلة غيَّرت كثيراً في خوالج نفسها: لقد ثبت حب حمدون وجدته وجيرانه لها.. وحدبهم عليها؛ فتزايد إحساسها بأنَّهم أهلها الحقيقيون، وواطأ قلبها شعورٌ بالاستحياء منهم لتسويفها الموافقة على الزواج منه؛ فبيَّتت النية على ألا تتمنَّع ولا تُكابر.. لو فاتحها أحدٌ في الزواج بحمدون.. مرة أخرى.

ذات نهار.. بينما تجلس مع أم هشام وأم سعدون في صحن البيت؛ إذ دخلت عليهن نجوى، سلَّمت عليهنّ.. ورحَّبنّ بها، سألت عن حالها.. وأظهرت السرور والسعادة لسرعة تماثلها للشفاء وتجاوزها للأزمة، ثم جلست إلى جوارهنّ باستكانةٍ وخَفَر؛ فهتفت أم هشام: "أَعدي طعاماً لنجوى.. يا أم سعدون.. ريثما أُجهِّز لها هدية أم عبد الجبار!!"، فجأرت نجوى بامتنان: "جُزيتِ عن آل بيت عبد الجبار خيراً.. يا سيدتي!!"، ثم أردفت.. بنبرةٍ خانعة يشوبها الذعر: "لكن.. ليس هذا هو باعث زيارتي لكم اليوم، وإنَّما قلقي على السيد عبد الجبار؛ إنَّه لم يرجع إلى الدار –يا سيدتي- منذ الليلة المشؤومة؛ وأخشى أنْ يكون قد أصابه ما نكره!!؟".

- مضى أسبوعٌ وزيادة.. ولم يرجع إلى الدار؟!! لماذا لم تُعلِمينا من قبلُ.. يا نجوى؟؟! (تساءلت أم هشام بشيءٍ من الاستهجان)، فأجابتها بصوتٍ خَجِل:
- لعمرك.. استحييتُ –يا سيدتي- أنْ أشغلكم بغياب مَن كان سبباً فيما جرى!
- أخبريني: لماذا لم يرجع معكم.. كما ذهب معكم؟؟!
- قد اتفق سيدي حمدون مع الإفرنج أنْ تخرج الآنسة (سلوان) آمنة قبل أنْ يُعطيهم الفدية، فطالبوا برهينةٍ بدلاً عنها لضمان المال؛ فكان.. عبد الجبار!
- ألم يمنحهم سيدي حمدون الفدية؟؟ جعلها الله ناراً في بطونهم! (سألت أم سعدون)، فأجابت نجوى بتأكيدٍ واثق:
- بالطبع!! لقد ترك لهم صندوق المال كله؛ وهو يزيد.. عما يرجون!!
- إذاً.. لِمَا لَمْ يرجع الرجل.. إلى داره.. حتى الحين؟!! (تساءلت أم هشام بتوجُّس)

- ألا نُعلِم سيدي حمدون الخبر.. يا أم هشام؟؟! (تساءلت أم سعدون)
- وهل تأمن إحدانا على نفسها إذا غدت إلى القصر.. وحوله ما حوله!؟؟
- صدقتِ –والله- يا سيدتي! إنَّ الحرس والعساكر الصقالبة يحيطون بالقصر من كل جانب، ولا يدخله أحدٌ ولا يخرج منه.. إلا بإذن الحاجب نفسه!
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون؛ ها هو ذا ذو الحجة قد أظلَّنا.. ولم يبقَ على الأضحى إلا أيامٌ، وبدل أنْ تتهيَّأ قرطبة لعيد المسلمين الأكبر؛ ها هي ذي تستعد للحرب بينهم!!؟ إنَّها.. والله.. لفتنةٌ عظيمة!! (هتفت أم هشام مُتحسِّرة)
- إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! (ردَّدنّ معاً)، ثم استطردت نجوى بصوتٍ واجف:
- وسيدي عبد الجبار؟!! هل ندع خبره دون أنْ نعرف عن حاله شيئاً؟؟!
- نُبْلِغ صاحب المدينة بالخبر، ونلتمس منه أنْ تبحث شرطته عن السيد عبد الجبار!! (اقترحت أم سعدون)، غير أنَّ أم هشام عارضت الفكرة قائلةً:
- المدينة.. وصاحبها وشرطته.. جميعهم –الحين- في شُغلٍ بالبربر؛ لن يكترثوا لأحد!
- إذاً.. نلتمس من أبي عبدون المساعدة؛ فلن يتأخر عن نجدتنا! (قالت أم سعدون)
- كلا!! لا ينبغي أنْ نُحمِّل الجار الشهم وإخوانه أكثر مما يطيقون!!
- لله الأمر من قبلُ.. ومن بعدُ!! فما العمل؟؟!
- أرى أنْ نستعين بصاحبي حمدون؛ فالتَوصُّل إليهما الحين.. أيسر من لقاء حمدون في القصر!! (جأرت سلوان)، تساءلت أم هشام بارتياب:
- أ ليسا مع حمدون.. في القصر؟؟!
- كلا.. يا سيدتي! لقد سمعتُ أحدهما يقول لسيدي حمدون أنهما سيرجعان إلى الجبل، ولستُ أدري: أي جبلٍ هذا!!؟ (قالت نجوى مُسْتحسِنةً رأى سلوان)
- أنا أعرف الجبل، بل.. وأعرف طريق المغارة التي يختبئان فيها! (هتفت سلوان)
- وهل نغامر بذهابكِ إلى هذا المكان وحدكِ.. يا سلوان؟؟! (جأرت أم هشام باستقباح)، غير أنَّ نجوى هتفت تُدعِّم سلوان:
- أنا أذهب معها.. يا سيدتي!!

- لا.. لا!! لن أُضيِّع فتاتين ساذجتين مثلكما.. لأجل عبد الجبار!
- رغم ما كان منه.. يا أمي.. إلا أنِّي لن أغفل أنَّه وَضَع نفسه رهينةً ليَفْدِيني!
- أحسنتِ يا آنسة سلوان! واعلمي.. يا سيدتي.. أنَّ مثلي ليست ساذجة، وأنّي بعشرة رجال؛ فلا تخافي على سلوان وأنا معها!
- ولو تأذن سيدتي؛ يذهب معكما سعدون ولدي.. للاطمئنان!
- أرجوكِ.. يا أمي.. اسمحي لنا أنْ نحاول الاطمئنان على خبر الرجل، ربما يكون في ضيق.. ويُفرّجِ الله بنا عنه؛ وإنْ لم يكن أهلاً للمعروف؛ فأنتِ أهلٌ له!!
- الأمر لله!! اذهبوا.. حماكم الله! واحرصوا.. ألا أُفجَع في إحداكما!!

****

-المشـــــهد المئتـــــــان-

ما توانت سلوان.. ولا تباطأت؛ بل أغذَّت السير إلى جبل العروس عسى أنْ تُفرّجِ عن عبد الجبار إنْ كان في ضيق، وصحبها: سعدون –رغم بلاهته.. قد يُفيد-، ونجوى التي قرَّرت الصعود إلى الجبل.. تحُثّها هواجسٌ وزواجرٌ: هواجس نفسها الأمَّارة بالسوء.. تَوَقِّياً أنْ يكون عبد الجبار سالماً.. ويعود يبحث عن خبيئَته، وزواجر نفسها اللوَّامة.. خشية أنْ يكون مكروباً.. والسبب: سرقتها كنوزه.

فيما يقبع طرسوس في سِتْر صخرةٍ ضخمة.. يُطعِم حصانه بيده.. ويراقب –عن بُعد- الممر الصاعد إلى مغارته؛ إذ رأى ثلاثة شُبُوح يصعدون تجاهه؛ خَفَّ إلى فرتون الذي كان راقداً بالداخل، أيقظه.. صائحاً: "قُمْ!! ثمة.. ثلاثة نفر مجهولون يرتقون إلينا، وأراهم يرمُزون بالإشارات المُتفَق عليها مع حمدون؛ غير أنَّه.. ليس فيهم!؟؟".

- مَن ذا الذي.. قد يُرسِله حمدون إلينا.. الحين؟؟! (تساءل فرتون بارتياب)
- لا أدري! هَلُمَّ.. ننظر!

لبس طرسوس درعه وحمل سلاحه؛ حالما نهض فرتون من فراشه.. ثم لحق به. لم يَدُمْ ريبهما طويلاً؛ فسرعان ما فطن فرتون إلى أنَّ القادم.. سلوان، حيَّتْهما.. وعرَّفتْهما بسعدون ونجوى –وهما يعرفانهما من قبل- ثم سألاها: "كيف حالكِ –الآن- يا آنسة؟؟".

- أحمد الله الذي هيَّأ لي أخوةً ذوي شرفٍ وشهامةٍ مثلكما.. ليُخلِّصوني! حيَّاكما الله.. وبارك في أمثالكما!! (أجابت بامتنان)
- حفظكِ الله.. يا أختاه! لم نفعل سوى الواجب على كل ذي مروءةٍ!! ما أقدمكم إلى هنا.. وأحوال المدينة كما تعلمون؟!!
- جئنا.. نسأل عن خبر سيدي عبد الجبار!؟ إنَّه لم يرجع إلى الدار.. حتى الحين!؟؟ (جأرت نجوى بنبرةٍ واجلةٍ)؛ فصاح طرسوس مُنزعِجاً:
- ألم أقل لك.. يا فرتون: أنَّ ما جرى لك منهم.. نذير سوء؟!!
- وما الذي جرى؟؟! (تساءلت نجوى وسلوان بارتياع)؛ أجابهما طرسوس:
- حينما تركناه ليُعطي المال للإفرنج؛ أخذوه منه.. وما أمهلوه حتى يُطلقوا الرجلين كما اتفق معهم، بل.. همُّوا به.. وكادوا يقتلونه.. لولا أنْ فرَّ منهم!!
- وا كرباه!! وسيدي.. عبد الجبار؟!! (جأرت نجوى مذعورة)
- قلتُ لك مراراً: تعال نطمئن.. ماذا فعل الرجلان!؟ وكنتَ تُماطل؟؟! (صاح طرسوس مُتبرِّماً.. يُخاطب فرتون).. بينما هو ساكتٌ لا يتكلّم؛ فاستطرد طرسوس: "ما لك.. لا تُجيب؟؟!".

التفتت إليه الأنظار.. تترقَّب أنْ يَنبِس بكلمة، تنصلَّت عيناه من نظراتهم.. وشرد في خطراته: (بِمَ أجيبك.. يا مُغفَل؟!! هل أقول لك: أنِّي استأثرتُ بمال الفدية لنفسي، ونبذتُ للعلوج جِوال حجارة بدلاً من الصندوق.. راجياً أنْ أُثير سخطهم.. فيقتلوا الوغدين، وأشفي منهما غليلي!!)، (هل أُصارحك.. يا طرسوس.. بأنني هربتُ منهم صوب قرطبة؟! وحين أَمِنتُ من مطاردتهم وتيقَّنتُ أنَّهم لن يدركوني.. ساورتني الهواجس، وخشيتُ ألا يقتلوهما؛ فقلتُ لنفسي: أرجع.. لأنظر.. ماذا يفعلون، ورجعتُ..

فصادفتُ خيولهم تعدو متباعدةً صوب الشمال، ثم تسلَّلتُ –محاذراً- إلى الوكر؛ فأبصرت -في فِنائه- تربةً غير مُمهَّدةٍ.. كأنَّها حفيرٌ رُدِم تَوّاً، تلفَّتُ.. فرأيتُ -إلى الجوار- مِعْوَلين، نبشتُ.. فتيقَّنتُ أنَّهم قتلوهما ودفنوهما؛ لكنَّهم تعجَّلوا.. فلم يُحسنوا تسوية التراب، أتممتُ عملهم.. ودفنتُ السر مع الجثتين، وشُفِيّ غليلي!!)، (وأزيدك: حملتُ الصندوق ودسستُه في مكانٍ آمن، وجرحتُ نفسي كي أُوَرِّي عليك!!).

أفاق من حديث نفسه على قول طرسوس: "اطمئني.. يا آنستي! سأذهب بنفسي إلى منزلة هانئ –حيث احتجزوكِ- وسآتيكِ بالخبر.. إنْ شاء الله!"، فقاطعه هاتفاً:

- أرى أنْ نسأل –أولاً- في بيت ابن الرسان؛ ربما.. يكون هناك!!؟
- قد فعلتُ! سألتُ عن ابن الرسان في داره أكثر من مرة.. آخرها صباح اليوم؛ لكن.. لم يرجع أيضاً!! (هتفت نجوى باستيئاس)
- إنّي نازلٌ.. إلى منزلة هانئ لأستطلع الخبر؛ هل ستأتي معي؟؟! (قال طرسوس بصرامةٍ.. مخاطباً فرتون)، فأجابه بشيءٍ من التضجُّر:
- بالطبع! لن أدعك.. تخاطر بنفسك.. وحدك!!
- ارجعوا الآن.. يا آنستي! وسوف آتيكم بخبرٍ يقينٍ.. إنْ شاء الله! (جأر طرسوس بتلطُّف)، شكرتهما.. وأخذت نجوى وسعدون.. وعادوا أدراجهم إلى قرطبة.

****

-المشهد الحادي بعد المئتين-

يوم التروية: الثامن من ذي الحجة سنة ٤٠٠ هـ، الموافق: آخر يوليو سنة ١٠١٠م.

بعملٍ نشيطٍ دؤوب.. وفي غضون أيامٍ.. اكتمل حفر خندقٍ عظيم حول قرطبة، وما انفك العمل جاري –على أشده- في بناء السور الذي يليه، نظر المهدي إلى ذلك الإنجاز بعين الإعجاب.. وأزمع أنْ يعود إلى القصر ليأخذ قسطاً من الراحة والاستجمام.

كدأبهما.. جلس المؤيد يجاذب حمدون الحديث، وقد بلغهما أنَّ المهدي رجع إلى القصر بعد أنْ غاب عنه أياماً وليالي، قال حمدون آسِفاً: "يبدو أنَّ المهدي اِطمأنَّ للخندق الذي حفر؛ وها هو ذا يعود إلى القصر! ولستُ أدري إلى أي مصير نمضي؟!!".

- وَدَدْتُ لو كان استقبال قرطبة للعيد على غير هذا!!؟ (همس المؤيد مُتحسِّراً)
- الخليفة وحُجابه يباشرون العمل في تحصين المدينة.. بأنفسهم، وأحسب أنَّهم نسوا أنَّ عيد الأضحى قد أظلَّنا؟!!
- عسى أنْ يكون المهدي قد تدارك الأمر.. ورجع إلى القصر –البارحة- ليشرع بالترتيب للاحتفال بالعيد!؟
- يا سيدي!! أَزِف الوقت.. والغد يوم عرفة!؟ وقد علمتُ أنَّه دخل المقصورة ليلهو مع جواريه؛ فهو في شُغلٍ عن قرطبة وعيدها!!
- لا حول ولا قوة إلا بالله! أين نحن –اليوم- من العيد على عهد والدي أو جدي.. رحمهما الله؟؟!
- أو حتى على عهدكم.. في حجابة ابن أبي عامر؟!! (جأر حمدون بنبرةٍ حزينة)
- هِيهِ.. يا حمدون؟!! هذه أول مرة.. أسمعك تذكر –فيها- بني عامر بخير!؟؟
- أصدقك القول.. يا سيدي؛ إنِّي أُسرُّ في نفسي ندماً على مؤازرة المهدي في هائجته!؟
- وأيم الله.. ما أُبتليتُ من أحدٍ مثلما أُبتليتُ من هذا الرجل: نزلتُ له عن الخلافة طواعيةً؛ فحبسني في مخدعي.. ودنَّس قصر آبائي، وأشاع موتي.. وما أنا بميت، وورثني وأنا حيٌّ.. حتى جواريّ لم يسلمنَّ من فجوره!!؟ (جأر المؤيد مُتحسِّراً بمرارة).

طأطأ حمدون خجلاً.. وما قَدِر أنْ يُجيب، بيد أنَّهما سمعا –في ذات اللحظة- جلبةً وضجيجاً خارج الحجرة، التفتا بارتياب إلى الباب، مَيَّز حمدون صوت خشخشة سلاحٍ

وراء الباب؛ فوثب قائماً بتحفُّزٍ.. وانتزع سيفاً -كان قد خبَّأه تحسُّباً من الغدر- ووقف شاهراً السيف دون سيده.. فيما استترت شعب، وتعلَّقت أبصارهم بالباب!!

وإذا بالباب يُفتح بتؤدةٍ.. ويلج إليهم الحاجب (واضح العامري).. ومن ورائه رهطٌ من الصقالبة العامريين وأمرائهم، تكتم شعب صرختها، ويتَصَدَّر لهم حمدون صائحاً: "لن تصل أيديكم إلى سيدي.. قبل أنْ يرتوي سيفي من دمائكم!!"، ورمق المؤيدَ بنظرةٍ خاطفةٍ ليتأكَّد أنَّه مَصُونٌ عن رميهم.

أشار واضح بيده أنْ اهدأ.. وقال مُطمئِناً: "قد جئنا للخير؛ ضع السيف.. يا فتى.. ولا تجزع!!"، بيد أنَّ حمدون رمى كلامه دَبْر أُذنه[1]؛ فنزع واضح جِفْن سيفه المَغْمودِ من خاصرته وألقاه تحت قدمي حمدون.. وأشار إلى رجاله أنْ يفعلوا مثله؛ سأله حمدون –وهو لم يزل متوجِّساً-: "ماذا تريدون؟!!"، أعرض واضح عنه.. والتفت إلى المؤيد قائلاً: "أنصت.. يا مولانا الخليفة.. إلى الهتافات في رحبات القصر!!".

ردَّد حمدون في نفسه مُتعجِباً: (مولانا.. الخليفة؟!!)؛ فيما اقترب المؤيد –على حذرٍ- من النافذة.. وأرهف السمع؛ فسمع هتافات تصدح: "لا خليفة إلا هشام، لا طاعة إلا طاعة المؤيد!!"، اندهش.. ولم يُصدِّق سمعه؛ فأومأ إلى وصيفته.. فاطَّلعت من خَصَاص النافذة، شاهدت جماعات من العساكر الصقالبة وطوائف من مماليك القصر يطوفون بالساحات حاملين شعار المؤيد.. هاتفين باسمه؛ فداهمها المشهد.. وخفق قلبها اغتباطاً، صاحت: "إنَّهم يهتفون باسمك.. يا مولاي!!؟"، ما برح المؤيد مأخوذاً بالمفاجأة؛ على أنَّه التفت إلى واضح ومَن وراءه مُستفهِماً؛ فرآهم يخرون راكعين.. مُعظِّمين له ومُوَقِّرين، نحى حمدون الذي لم يزل قائماً بالسيف دونه؛ فأفسح له.. وهو الآخر مُتباغِتاً مُندهِشاً، دنا المؤيد من واضح، مدَّ إليه يده ليُنهضه؛ فأمسكها برفق.. وقبَّلها بتوقير.. قائلاً: "سيدنا المؤيد! قد جئناك نشهد بين يديك.. وأمام الله.. والناس: أنَّك أنت خليفتنا؛ ولا سمع.. ولا طاعة علينا إلا لك!!".

---

[1] : رمى كلامه دبر أذنه: أي: لم يعبأ بكلامه.

- والمهدي؟!!
- ذاك رجلٌ ضيَّع الأمانة، وغشَّ رعيته، وأثار الفتن، وفرَّق الصف، وليس جديراً بأنْ يكون خليفة الأندلس!! (هتف واضح بجِدّيّة)
- لا خليفة إلا هشام، لا طاعة إلا طاعة المؤيد!! (صاح الصقالبة مُهلِّلين)
- إنَّه أميركم؛ وها أنتم أولاء... (تكلَّم المؤيد مُتردِّداً)؛ فقاطعه عنبر.. قائلاً بصرامة:
- يشهد الله أنَّا لم نقبل به خليفةً.. ولا أميراً، وما جئنا إلى قرطبة إلا لأجلك أنت.. يا أمير المؤمنين، ولأجل تمكينك من عرشك!
- لا خليفة إلا هشام.. لا طاعة إلا للمؤيد!! (تواصل الهتاف وتمادى في كل الأرجاء)
- هَلُمَّ.. إلى منبر عرشك.. يا أمير المؤمنين؛ وأيم الله.. قد اشتاق إليك!!

****

-المشهد الثاني بعد المئتـــــين-

في جوف مقصورته الخاصة.. ما برح المهدي لاهٍ في عبثه ومجونه.. عاكفاً على سكره وملذاته، حوله القَينات الخليعات يعزفنَّ ويُطربِنّ، والجواري المُتهَتِّكات.. يُلاعبنّه ويُعربِدنَّ معه.

في خضم تلك الأجواء الصاخبة الماجنة.. شَدَّت إحداهن –وكانت تقف إلى جوار النافذة- بصرخةٍ مكتومة، حدجها سيدها بنظرةٍ شزراء، ارتبكت.. وأشارت باضطراب إلى النافذة.. دون أنْ تتفوَّه بكلمة، نهض لينظر.. موبِّخاً إياها: "هل جُنِنتِ؟ وخَرِستِ.. أيضاً؟؟!".

من وراء النافذة سمع الهتافات؛ تطلَّع.. فرأى الساحات تَعِجُّ بالهاتفين والمسلحين، ذهل عن اللواتي معه، بصق في وجه الجارية.. ولطمها، واندفع يركض.. لا يستره سوى سربال الحمام، تسمَّع.. فنمى إلى علمه أنَّ المؤيد استوى على سرير الملك منذ لحظات:

أجلسه عليه.. واضح والصقالبة العامريون، تمتم مغتاظاً: "تَبّاً للخائنين! قد رأيتُ الغدر في أعينهم؛ لكن.. كنتُ أُكذب عيني!!"، ثم وسوست له نفسه: "لن استسلم! سأُسايركم –أيها الغادرون- حتى أتمكَّن؛ ثم لأَقُصّنَّ رقابكم جميعاً!!".

هرول إلى مجلس الخلافة حيث منبر العرش؛ فأبصر الفتيان الصقالبة يُهلِّلون ويهتفون: "لا خليفة إلا هشام.. لا طاعة إلا طاعة المؤيد!"، وفوقهم.. يتربَّع المؤيد على العرش في أبهةٍ وزينة.

يكبت حنقه.. ويتقنَّع بإكبار المؤيد وإجلاله، يخترق صفوفهم راكضاً صوب منبر العرش صائحاً: "نعم!! لا خليفة إلا المؤيد؛ ذروني وعمي هشام! هو الخليفة.. وأنا حاجبه!"، وانقضَّ على المنبر يسعى للجلوس إلى جوار المؤيد،

اِشمأزَّ المؤيد منه.. وهمَّ أنْ يزحزحه من جواره، وابتدره بعض الفتيان، وانتزعه عنبر.. وأركعه ذليلاً بين يدي الخليفة، صاح فيه موبِّخاً: "تقول: ذروني.. وعمي؟! وهل رعيتَ عمومتي؟! تالله.. قد قطعتَ رحمي.. وحبستني.. وحجرتَ عليَّ، ولم تكتفِ؛ فادَّعيتَ موتي.. واستحللت فروج نسائي بغير حق!! اللعنة عليك.. بكل لسان!!"، ثم التفت إلى الفتى عنبر.. وصاح بصرامةٍ: "غيِّبوا عني.. وجه هذا الخبيث!!".

جَرَّه عنبر وفتيانه.. وصعدوا به إلى السطح يريدون أنْ يُشرِفوا به على المُتجمهِرين الذين يهتفون بموته.. وحياة المؤيد، ثم حاولوا أنْ يرموه إليهم، طفق يقاومهم.. ويسبهم ويُشاتمهم.. ويصيح ويصرخ، وطفقوا يهينونه.. ويصفعونه ويركلونه، ثم حملوه ليقذفوا به من أعلى السطح؛ فتشبَّث برقبة الفتى عنبر.. وما قَدِروا على انتزاعه؛ فتعاورته سيوفهم.. حتى قتلوه، ثم احتزُّوا رأسه.. وألقوا جثته –إلى الساحة- حيث يقف الناس يتطلَّعون إلى نهاية الفاسق الظالم!!

****

-المشهد الثالث بعد المئتين.. والأخير-

عَمَّ الحماس جنبات القصر، وحُمِل رأس المهدي على قناة.. وطُيِّف به أرجاء القصر وساحاته، وغمرت الفرحة قلوب الموتورين.. واستبشروا بعودة ملك المؤيد، وتَسَرَّب الخبر خارج أسوار القصر.. وشاع في قرطبة كلها، وهرول الدهماء والغوغاء إلى الرصيف.. ينظرون؛ فأبصروا جثةً بلا رأس –تدوسها الأقدام- ساقطةً في ذات الموضع الذي كانت فيه جثة ابن عسكلاجة.. منذ قرابة الثمانية عشر شهراً.

دخل واضح إلى مجلس الخليفة.. مُطأطئ الرأس تبجيلاً وتوقيراً، عظَّم الخليفةَ.. ثم هتف: "ما أول قرار يُحبذ.. مولانا أمير المؤمنين.. أنْ يتخذه؟؟!".

أجابه المؤيد بجدِّيَّةٍ مُتحمِّسةٍ: **"سأُزوِّج حمدون.. وسلوان!!".**

****

******

***

*

و.. للقصة بقيـة!!

لم تنتهِ الحكاياتُ –بعدُ- على ضفاف ذلك النهر العظيم (نهر قرطبة)، وما زال للقصة بقية؛ انتظروها في الرواية الثالثة.

- هل زوَّج الخليفة المؤيد حمدون وسلوان؟ وماذا بعد الزواج؟؟!
- هل تصالح الخليفة المؤيد مع البربر.. وسليمان المستعين؟؟
- ما موقف حمدون بعد أنْ استعاد الخليفة المؤيد سلطانه؟؟
- هل عادت قرطبة لاستقرارها.. وجمالها وبهائها السابق؟
- هل علم قاضي اشبيلية بسلوان؟ وهل اِعترف بها؟؟!
- هل أُكتشِف مقتل عبد الجبار وابن الرسان؟ وهل افتضح أمر فرتون؟؟!
- ماذا فعلت نجوى بكنوز عبد الجبار التي سرقتها؟؟ وهل افتضح أمرها؟!!

مـراجع الروايـة

المراجع التالية هي المراجع التي استعنتُ بها في صياغة الرواية وأحداثها التاريخية:

١- كتاب البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (لابن عذاري).

٢- كتاب دولة الإسلام في الأندلس (للدكتور: محمد عبد الله عنان).

٣- كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب (لشهاب الدين النويري).

٤- كتاب قصة العرب في أسبانيا (لستانلي لين بول: ترجمة علي الجارم).

٥- كتاب المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (للدكتور: حسين دويدار).

٦- كتاب قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (للدكتور: السيد عبد العزيز سالم).

٧- كتاب قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري (للدكتور: محمد عبد الوهاب خلاف).

٨- تاريخ الأندلس لمؤلف مجهول (دراسة وتحقيق الأستاذ الدكتور: عبد القادر بُوبَاية).

٩- المتحف في رسم المصحف (تصنيف الشيخ الدكتور: عبد الكريم إبراهيم عوض صالح).

١٠- الحدائق والجنان من أشعار أهل الأندلس (جمع وترتيب وشرح الدكتور: محمد رضوان الدّاية).